التفسير الثمين

للعلامة العثيمين

تفسير سورة الزخرف
تفسير سورة محمد
تفسير سورة الحجرات
تفسير سورة ق

تفسير جزء الذاريات
تفسير جزء قد سمع
تفسير جزء تبارك
تفسير جزء عم

اعتنى به

أشرف بن كمال

الجزء الرابع عشر





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الزخرف

تفسير سورة محمد

تفسير سورة الحجرات

تفسير سورة ق

تفسير جزء الذاريات

تفسير جزء قد سمع

تفسير جزء تبارك

تفسير جزء عم

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

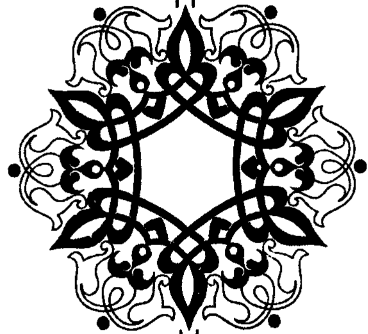


ALTABARI'S LIBERARY

سنة الطبع : ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

رقم الإيداع : ١٥٣٦٥ / ٢٠٠٨

رقم الطبعة : الأولى



مكتبة الطبري
للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية - القاهرة - عين شمس
١٤ شارع ١٣٦ من شارع مسجد الوطنية - خلف سنترال النزهة
تليفون محمول: ٠١٦١٦٦٣٣٣٤ - ٠١٠٦٦٨١٠٧٩ - ٠١٦٧٨٨٨٧٦٣
tabari24@gmail.com

تفسير سورة الزخرف

تفسير سورة الزخرف

هذه سورة الزخرف وقبل أن نبتدئ دراسة تفسيرها، أحب أن أُقدِّم بين هذا بمُقدِّمات:

أولًا: القرآن الكريم ما عقيدة أهل السنة فيه؟

الجواب: عقيدة أهل السنة في القرآن الكريم أنه كلام الله عز وجل، كلام الله حقيقة تكلَّم به حرفيًّا وأراد معناه حسب اللغة العربية، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾، هذه القرآن ينزل شيئًا فشيئًا، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦] أي: شيئًا فشيئًا؛ أي: حسب ما يحتاج الناس إليه في وقت نزوله.

ثانيًا: أن القرآن الكريم نزل على وجهين: الوجه الأول: ما له سبب، والثاني: ما لا سبب له.

يعني: الأول: ما له سبب؛ أي: نزل بسبب حادثة وقعت فنزل فيه، ومن الضوابط فيها: أن كل آية أنها بسبب، يسألونك عن كذا هذا سبب، فكلما رأيت في القرآن الكريم آية مُصدَّرةً بكلمة: (يسألونك) فإنها سبب، نزلت لسبب، وقد يذكر فيها يسألونك حسب ما ذُكِر في مكتب التفسير، إذا نزلت الآية لسبب فهل تختص بذلك السبب، أو تكون عامة له ولما يُشاركه في العلة؟ الجواب: تكون عامة له ولما يُشاركه في العلة، ولهذا قال العلماء: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ فمثلًا: أول سورة المجادلة نزلت في قصة رجل معين أوس بن الصامت؛ فهل نقول: إن هذا الحكم خاص به، أو نقول: إنه عام له ولمن يُشاركه في المعنى؟ الثاني، فكل من ظاهَر من امرأته فله حطكم ظِهار أوس بن الصامت رضي الله عنه، وهذه القاعدة تُفيد في استعمال الاستدلال في القرآن الكريم، وأن أصله العموم.

القرآن الكريم له خصائص كثيرة؛ منها: أنه لا يمسُّه الإنسان إلا على طهارة؛ يعني: أن المُحدِث لا يحِلّ له أن يمسَّ المُصحف حتى يتوضَّأ، لقول النبي ﷺ فيما كتبه لعمرو بن حزم: «أَلَّا يَمَسَّ القُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ» أي: طاهر من الحَدَث؛ لأن الطهارة من الحَدَث تُسمّى

طهارة، كما قال عز وجل في آية الوضوء والغُسل والتيمُّم: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦].

واستثنى بعض العلماء رحمهم الله الصِّغار غير المُكلَّفين، فقال: لهم أن يمسُّوا المصحف بغير وضوء؛ لأنهم غير مُكلَّفين، وفي هذا الاستثناء نظر؛ لأننا لو قلنا بهذا لقلنا: يجوز لهؤلاء الصغار أن يُصلُّوا بغير طهارة، ولا قائل به فيما أعلم، وعلى هذا فلابد من الطهارة حتى للصغار، لكن ما دعَت الحاجة إلى مسِّه بدون طهارة؛ كألواح الصغار الذين يتعلَّمون في المدارس، هؤلاء لا يحتاجون إلى وضوء؛ لأننا لو كلَّفناهم بذلك لشقَّ عليهم.

هذا القرآن الكريم لا يحل للجُنُب أن يقرأ منه آيةً فأكثر حتى يغتسل، فإذا كان على الإنسان جنابة فإنه لا يحل له أن يقرأ شيئًا من القرآن آيةً فأكثر إلا إذا اغتسل؛ لأن النبي ﷺ كان يُقرِئُ أصحابَه القرآن ما لم يكن جُنُبًا، أو قال: ما لم نكن جُنُبًا.

فإن قال قائل: هل يجوز للجُنُب أن يقرأ آية لا لقصد القرآن، ولكن لأنها آية دعاء مثلًا؛ مثل: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ [آل عمران: ٨]؟ فالجواب: نعم، يجوز له هذا؛ لأنه لم يقصد تلاوة القرآن.

فإن سأل سائل: ما تقولون في قراءة الحائض للقرآن؟ فالجواب: اختلف العلماء في هذه المسألة على قولين:

القول الأول: أن الحائض لا يجوز لها أن تقرأ القرآن؛ لأنها كالجُنُب.

والقول الثاني: لها أن تقرأ القرآن؛ لأنه ليس في السنة دليلٌ صحيحٌ صريحٌ يمنع الحائض من قراءة القرآن، ولو كانت الحائض لا تقرأ القرآن لبيَّن ذلك، لكثرة وقوع الحيض، واحتياج النساء إلى بيان الحكم، فلما لم يرِد في ذلك حديثٌ صحيحٌ صريح فما الأصل؟ الأصل الجواز؛ لأن القرآن من الذكر، والحائض لا تُمنَع منه، وعندي أن الحائض تقرأ القرآن لحاجة أو مصلحة، الحاجة: كأن تقرأ وِرْدَها من القرآن؛ مثل: آية الكرسي، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس]، أو تقرأ القرآن لئلَّا تنساه، لمصلحة: مثل: أن تُقرِئ ابنتها أو طفلها القرآن، تُعلِّمه القرآن؛ لأنه إذا لم يرِد دليل صحيح صريح في المنع وكانت المسألة فيها احتمال، فالاحتياط أولَى.

إذن الحكم الآن الذي اخترناه أن لها أن تقرأ القرآن لحاجة أو مصلحة لعدم الدليل الصحيح الصريح على منعها.

القرآن الكريم اختصَّ بأن كل حرفٍ منه حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، وليس ذلك موجودًا في السنة، حتى الأحاديث القُدُسية لا يثبت لها ذلك، إنما هذا خاصٌّ بالقرآن

الكريم.

القرآن الكريم يختص بالإعجاز؛ أي: بأن الخلق لا يستطيعون أن يأتوا بمثله، قال الله عز وجل: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] أي: مُعينًا، وليس ذلك موجودًا في أي كلامٍ من كلام البشر، إنما هو في القرآن الكريم، لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله؛ بل ولا بعشر سورٍ منه؛ بل ولا بسورةٍ منه؛ بل ولا بآية منه.

القرآن كاملًا، كما في الآية السابقة: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

عشر السور في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود: ١٣].

سورة في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨].

آية في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ [الطور: ٣٣-٣٤] أيّ حديث، عجز العرب عن ذلك؛ أي: عن أن يأتوا بشيءٍ مثل القرآن، مع أنهم قد توفَّرت لهم أساليب البلاغة والفصاحة، وصار داعي مُعارضة القرآن عندهم قوية، فلما كان السبب الداعي قويًّا، ولم يُوجد مانع عُلِم أنهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثله، ولذلك تجد القرآن الكريم لا يملُّ الإنسان من قراءته ولا من تكراره، وغيره يملّ من تكراره، ويمُجُّه السمع، يثقل على اللسان، لكن القرآن الكريم لا يخلَقُ مع الترداد أبدًا، تجده طريًّا كلما قرأته.

ثم إذا كان الله تعالى قد فتح عليك، وكان عندك نيةٌ وقصدٌ صحيحٌ في معرفة المعنى فكل قراءة تقرأها يتضح لك بها معنى غير المعنى الأول، جرِّب تجِد، هذا شيءٌ معلوم، لكن هذا لمن؟ لمن علِم الله منه صدق الطلب في معرفة المعنى، أما من أعرض عن ذلك فإنه لا يستفيد، لكن من علِمَ الله منه صدق الطلب فإن الله يفتح عليه كلما قرأ القرآن من المعاني ما لم يكن سابقًا.

القرآن الكريم أنزله الله عز وجل، وجعله مباركًا في تأثيره، مباركًا في ثوابه، مباركًا في آثاره.

مباركًا في تأثيره؛ يعني: أنه يُؤثِّر على القلب، ويُليِّن القلب، ويُكسِبُه خشية الله عز وجل؛ لأن الله قال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١] وهو جبل حصى يكون خاشعًا ذليلًا ويتصدَّع من خشية الله عز وجل، فما بالكم بالقلب لو كان القلب حيًّا؟

يكون من باب أَولَى، ولهذا قال ابن عبد القوي رحمه الله:

وحافِظْ على درس القُرَانِ فإنه ... يُلَيِّنُ قلبًا قاسيًا مثل جَلْمَدِ

وما أكثر الذين يشكون قسوة قلوبهم اليوم لأسباب ليس هذا موضع ذكرها، ولكن إذا أحسُّوا بقسوة القلب فعليهم بالقرآن، نسأل الله أن يُلَيِّن القرآن.

من جهات كثيرة أيضًا: القرآن الكريم رُقْية من كل داء، كل مرض فالقرآن الكريم رُقْية له، فالقرآن الكريم دواءٌ له، لكل مرض، أي المرض: الجسمي، أو القلبي، أو هما؟ هما؛ المرض القلبي، وهو: الشُّبهة التي ترِدُ على القلوب، أو إرادة السوء شفاؤها القرآن، المرض الجسمي العضوي شفاؤه القرآن.

نزل قومٌ من الصحابة على قوم من العرب ضيوفًا، ولكن هؤلاء العرب لم يُضيفوا الصحابة أَبوا أن يُضيفوهم، تنحَّى الصحابة إلى جانب ونزلوا، فسلَّط الله على سيد العرب عقربًا فلدَغَته، فقال بعضهم لبعض: ألا تنظرون إلى هؤلاء القوم لعل فيهم من يقرأ، فأتوا إلى الصحابة وقالوا: إن سيدنا لُدِغ، فهل فيكم قارئ؟ قالوا: نعم، فينا قارئ، ولكننا لن نقرأ عليه - على هذا المريض - إلا بقطيعٍ من الغنم؛ لأن هؤلاء العرب لم يُكرِموهم فأرادوا أن يأخذوا حقَّهم منهم، قالوا: ولكُم ذلك، فقام رجلٌ من الصحابة على هذا اللديغ وجعل يقرأ عليه سورة الفاتحة حتى قام كأنما نُشِط من عِقال، والسُّمُّ قد سرى في جسمه، لكن زال هذا وطار، هذا تأثير أو غير تأثير؟ تأثير عجيب، وما أكثر ما نقرأ الفاتحة وغير الفاتحة والمريض يتلبَّط في مرضه، لماذا والآية واحدة؟ لأنه كما يقال: السيف بِضاربه، السيف حديد قاطع، لكن إذا كان مع جبان هل ينفعه أو لا ينفعه؟ السيف مع الجبان لا ينفعه، ربما إذا رأى العدو مُقبلًا عليه ألقى بالسيف وهرب، لكن بيد الشجاع ينفعه ويُدافِع عن نفسه، ويقتل عدوَّه، ولهذا يُذكَر عن بعضهم كان الإمام أحمد رحمه الله يقرأ عليه وكان به صرع من الجن، فيخرج الجن، ولما مات الإمام أحمد عاد الجنيُّ فقام رجل يقرأ على هذا المصروع بما كان الإمام أحمد يقرأ به، ولكن الصارع أَبى أن يخرج، وأجاب بأن الآية هي الآية، والقارئ غير القارئ، فلا تظن إذا لم تجد تأثير القرآن مباشرة أن القرآن غير مؤثِّر، ولكن القارئ غير مُؤثِّر.

مبارك في آثاره كيف ذلك؟ بماذا فتح المسلمون مشارق الأرض ومغاربها؟ بالقرآن أي: بالعمل بالقرآن فتحوا مشارق الأرض ومغاربها، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ [الفرقان: ٥٢] أي: بالقرآن ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ فتحوا مشارق الأرض ومغاربها بالقرآن حين القرآن باليد اليمنى والسيف باليد اليسرى، والآن كثيرٌ من الممالك الإسلامية بيدها القانون الوضعي بدلًا عن القرآن الكريم، ولذلك كان

التأخُّر والذل في الأمة الإسلامية بسبب عمل من ينتسبون إليها، فالذنب في تأخُّر المسلمين اليوم ليس ذنب الإسلام ولكن ذنب المسلمين، هذا من آثار القرآن الكريم أن من تمسَّك به فهو منصور، والشاهد: ما سبق لسلفنا الصالح.

مباركٌ في ثوابه: الحرف الواحد فيه حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، وما أكثر حروف القرآن.

وبهذه المناسبة عرضوا عليَّ ورقة مكتوب فيها: (الإعجاز العددي في القرآن) جدول ذكر فيه أن جميع حروف القرآن كلها تقبل القسمة إذا جُمِعَت على تسعة عشر، ولكن هذا افتراءٌ على الله عز وجل، ومُناقضٌ للواقع، ولا يجوز تداوُل هذه البطاقة؛ لأنه لا يمكن لإنسان أن يشهد أن الله تعالى تكلَّم بالقرآن بحيث تكون حروفه منقسمة على تسعة عشر، من يقول هذا؟ لكنه افتراءٌ على الله عز وجل، ثم إن القرآن الكريم لا يمكن أن يُقال: إن آياته تنقسم على تسعة عشر مع اختلاف القراءات؛ فمثلًا: تبيَّنوا في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦] والقراءة الأخرى: (فتثبَّتوا) إذًا اختلف أتت الثاء بدلًا عن الباء، وبدلًا عن النون، فاختلَّت القسمة، كذلك في القرآن الكريم: (مَلِكِ يوم الدين)، و﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] اختلَّت زاد حرف، لكن هؤلاء المشغوفون بما يدَّعون أنه ذكاء وأنهم اطَّلعوا على ما لم يطَّلِع عليه أحد يأتون بمثل هذه الخُرافات.

هذا القرآن جاء ليُحصِي الناس العدد، ويقسموها على تسعة عشر؟ لا والله، ولا يمكن أن ينزل هذا القرآن الكريم من أجل هذه المُعجزة، كما يقولون، مع أنها ليست معجزة، فاشلة باطلة، أحببت أن أُنبِّه على هذا؛ لأنه ربما تشِيْع؛ لأن الذي سألني عنها يريد أن يطبع منها الملايين ويُوزِّعها على الناس، ويقول: انظروا إلى القرآن الكريم.

نقول: هذا غلط، القرآن ما نزل لهذا المعنى، ولا يمكن أن يُراد به هذا المعنى، انتبهوا لمثل هذه الأمور التي تُنشَر قد تكون من مُلحِدٍ كافر، أو فاسقٍ فاجر يريد بها صدَّ الناس عن المعنى الذي من أجله نزل القرآن، قال الله عز وجل: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩] أي: ليتفكَّروا فيها ويُردِّدوها بأفكارهم حتى يتبيَّن لهم المعنى، فالقرآن الكريم لم ينزل لتلاوة لفظه فقط؛ بل ولتدبُّر معناه، ولا يمكن العمل به إلا بمعرفة معناه، ولا يمكن معرفة معناه إلا بتدبُّره، إذن فالتفكير في المعنى أمرٌ واجبٌ، يجب أن تتعلَّم معنى القرآن كما تتعلَّم معنى الآجرومية، وهو كتاب صغير في النحو، لا يمكن أن يستفيد منه الإنسان حتى يعرف معناه.

كذلك أيضًا القرآن الكريم لا يمكن أن يستفيد الإنسان منه حتى يعرف معناه، لو أن هناك كتابًا في الطب من أفصح الكتب وأنت لا تعرف المعنى، فهل يمكن أن تستفيد

منه؟ لا يمكن، إذن لا يمكن أن تستفيد من القرآن حتى تعرف معناه، ولقد قال النبي ﷺ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» وهذا يشمل التعلُّم اللفظي، والتعلُّم المعنوي، ولهذا قال: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، وإذا شئت أن تعرف هذا فاقرأ آية من القرآن مع التدبُّر، واقرأها مع الغفلة تجد الفرق العظيم بين هذا وهذا، لذلك أحُثُّكم على تعلُّم المعنى معنى القرآن الكريم، اقرءوا كتب التفسير الموثوقة، واحذروا الكتب التي لا يُعرَف من أَلَّفها، أو التي عُرِف من أَلَّفها بأنه منحرف، وما أشبه ذلك؛ لأن من المُفسِّرين من حرَّف القرآن، ونقله إلى ما يعتقده هو لا إلى ما يدل عليه القرآن، وإذا لم تتأكَّدوا من هذا فاسألوا أهل العلم تستفيدوا من القرآن العظيم، ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، ثانيًا قال: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: يتَّعِظ أصحاب العقول، وانظر للفرق بين قوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ حيث عمَّم فيها، وقوله: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ حيث خصَّ؛ لأنه لا يتذكَّر بالقرآن ويتَّعِظ به إلا أصحاب العقول، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

فإن قال قائل: إلى من نرجع في تفسير القرآن؟

فالجواب: نرجع إلى القرآن فنُفسِّر القرآن بالقرآن، فإن لم نجِد فبالسنة، فإن لم نجِد فبأقوال الصحابة ولاسيما المُفسِّرون منهم، فإن لم نجِد رجعنا إلى أقوال التابعين المُفسِّرون منهم؛ كمُجاهد ابن جبر، وغيره.

مثال تفسير القرآن بالقرآن: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٧- ١٩]، ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾، والأمثلة كثيرة.

مثال من السنة: قوله تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] الحُسنى يعني: الجنة، والزيادة هي: النظر إلى وجه الله عز وجل، فسَّر ذلك النبيُّ ﷺ وهو أعلم الخلق بكتاب الله عز وجل.

ومن ذلك: قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠] قال النبي ﷺ: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ» مرتين أو ثلاثًا، ففسَّر القوة بالرمي؛ لأن الرمي أشد ما يكون فتكًا بالنسبة للأسلحة، وإلى يومنا هذا الرمي هو القوة، كان الناس في الأول يرمون بالسهام بالقوس، الآن يرمون بالصواريخ والقنابل، فلا تظن أن قول النبي ﷺ: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ» خاصة بما كان في عهده؛ بل هي عامة بما يحدث إلى يوم القيامة.

على كل حال؛ نرجع في تفسير القرآن إلى تفسير القرآن بالقرآن، ثم بالسنة، ثم بأقوال الصحابة، ولا نعدل عن أقوال الصحابة إلى تفسير المتأخرين أبدًا، خصوصًا في العبادات، أما في الأمور التي تحدث ويكون في القرآن إشارة لها فهذه قد لا يرِد عن السلف فيها تفسير، ولكن تُفسَّر حسب الوقت؛ لأن هناك أشياء من الأمور الكونية الفضائية والأرضية لم يتكلم فيها السلف، ولكن تكلم فيها المتأخرون، فنقول: يُرجَع إلى قول المتأخرين في هذا؛ لأن السلف لم يكونوا يعرفون ذلك، أما مسائل العبادة والمعاملات وما أشبهها فإنه يُرجَع في ذلك إلى تفسير الصحابة على كل حال.

ثم بعد ذلك كبار المُفسِّرين من التابعين، ومرتبتهم أدنى بكثير من مرتبة الصحابة، أسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن يتلون كتاب الله حق تلاوته، وأن يرزقنا تعلُّمه لفظًا ومعنى، والعمل به، إنه على كل شيء قدير.



قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿حمٓ ① وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ② إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ③ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ١-٣].

التفسير

البسملة آية من كتاب الله؛ يعني: أن الله عز وجل أنزلها كما أنزل القرآن، فهي من كلام الله عز وجل، تُفتتَحُ بها كل سورة من الفاتحة إلى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ إلا براءة، فإنها لم تنزل لافتتاحها، وليست البسملة من السورة التي قبلها، ولا من السورة التي بعدها، وعلى هذا فلا تُحسَب من آياتها.

الفاتحة مثلًا افتُتِحَت بالبسملة، والبسملة ليست منها؛ بل هي آية مستقلة، وأول الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والدليل على هذا: ما جاء في الحديث الصحيح: أن الله عز وجل قال في الحديث القُدُسي: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فَإِذَا قَالَ: ﴿پ پ پ﴾ قَالَ اللهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ اللهُ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ڤ ڤ ڤ عَلَيْهِمْ غَيْرِ

﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» فبدأ بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ويدل لهذا أيضًا: أن النبي ﷺ كان لا يجهر بها - أي: بالبسملة - في القراءات الجهرية، ولو كانت من الفاتحة لجهر بها كسائر آياتها.

ويدل لهذا: أن الله تعالى قسمها بينه وبين عبده نصفين، فلنقرأ ثلاث آيات لله، وثلاث آيات للعبد، وواحدة بينهما، الثلاث آيات لله هي: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، الثلاث للعبد: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، المشتركة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فتجد هذه المشتركة هي النصف، وهي بين العبد وبين الله نصفين، هي النصف من بين سبع آيات، فإذا قال قائل: نحن نرى في المصحف أن البسملة قد رُقِّمَت على أنها من آياتها، وأن ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قد جُعِلَت آية واحدة؟

فالجواب: أن هذا على رأي بعض العلماء، وكأن الذين طبعوا المصحف أول ما طبعوه، طبعوه على هذا الرأي واستمر الناس عليه، على أنني وجدت مصحفًا مطبوعًا فيه أول آية: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والآية السابعة: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ والبسملة لم تُرقَّم، وهذا هو المُطابق للصواب.

مما يدل على ذلك أيضًا: أن الآيات لا تكون متناسبة في الطول والقِصَر إلا إذا قسمنا الآية الأخيرة قسمين؛ لأنك إذا قلت: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ صارت الآية هذه طويلة بالنسبة لبقية الآيات، فلا تناسب.

فعلى كل حال؛ القول الراجح المُتعيِّن: أن أول الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وأن البسملة ليست منها كسائر السور.

البسملة معمولٌ مجرور بالباء؛ لأن كل اسم مجرور بالباء فإنه معمول ولابد؛ يعني: لابد له من عامل محذوف، ولهذا قال «نَاظِمُ الجُمَل»:

لا بـــد للجـــار مـــن التعلُّـــق بفعـلٍ أو معنـاه نحـو مُرتقِـي

البسملة معمولة لعامل محذوف، فأين عامل ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؟ نقول: العامل محذوف، يُقدَّر فعلًا متأخرًا مناسبًا للمقام.

لو سألت: لماذا نُقدِّره فعلًا ولا نُقدِّره اسمًا فنقول: بسم الله قراءتي؟ فالجواب: الأصل في العمل الأفعال، ولذلك لا تجد اسمًا عاملًا إلا بشروط.

لماذا قدَّرناه متأخرًا، ولم نقل: أقرأ بسم الله؟

لفائدتين: الفائدة الأولى: التبرُّك ببداءة الكلام بسم الله، الثانية: الحصر؛ يعني: بسم الله

لا بسم غيره؛ لأنه إذا تقدَّم المعمول على العامل كان ذلك دليلًا على الحصر؛ يعني: الاختصاص، فكأن القارئ يقول: بسم الله أقرأ لا بسم غيره.

لماذا قدَّرناه فعلًا مناسبًا؟ لأنه أدل على المقصود؛ فمثلًا: هنا نريد أن نقرأ نقول: التقدير: بسم الله أقرأ، لو قال قائل: لماذا لا نقول: بسم الله أبتدئ؟ قلنا: لأن كلمة أبتدئ صالحة لكل فعل يُبتدأ به، وإذا قلت: أقرأ صار خاصًّا وهو أدل على المقصود، هذا تقرير إعراب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ كلما أتتك.

أما قولنا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ فالمراد: بكل اسم لله، وإنما حملناها على العموم؛ لأن المفرد إذا أُضِيف صار للعموم؛ أي: أبتدئُ بكل اسم من أسماء الله.

﴿الرَّحْمَنِ﴾ أي: ذو الرحمة الواسعة، ﴿الرَّحِيمِ﴾ أي: ذو الرحمة الخاصة بالمؤمنين، كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

﴿حم﴾ قال المفسر: [الله أعلم بمراده به] هذان حرفان هجائيان أحدهما: حاء، والثاني: ميم، لا إعراب لهما، وهل لهما معنى؟ المؤلف المُفسِّر يقول: [الله أعلم بمراده به] إذن لا ندري هل لها معنى أو لا، ولا ندري ما المراد بالمعنى؟ فموقفنا من هذا: التفويض، الله أعلم، وهكذا يُقال في كل حرف هجائي ابتُدِئَت به السورة، فالمؤلف رحمه الله يقول: ما لنا ولتفسيره، الله أعلم بمراده به، قد يكون أراد معنى، وقد لا يكون أراد معنى، وقد يكون أراد معنى تدل عليه السورة، وقد يكون أراد معنى آخر، لكن هذا القول ضعيف، والصواب: أن نقول: لا معنى له، ليس معناه: أنه حشو لا فائدة منه، لكن لا معنى له ذاتيًّا، بدليل قول الله عز وجل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، وقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٥] ثلاث آيات، اللسان العربي هل وُضِع فيه حروف هجائية لها معنى؟ لا، اللسان العربي وُضِعَت فيه حروف هجائية لتركيب الكلام منها، وهي في اللغة العربية ثمانية وعشرون حرفًا، عندما تقرأ في اللوح: أ ب ت ث ج ح خ ما معناها؟ ليس لها معنى، إنما هي حروف تُكوَّن منها الكلمات، فإذا كان كذلك والقرآن الكريم نزل بلسان عربي فإننا نجزم بأنه ليس لهذه الحروف أي معنى.

قوله: ﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: ١- ٢] هل طه اسم من أسماء الرسول؟ لا، طه مثل: ﴿الر﴾، ومثل: ﴿حم﴾، فإذا قال الإنسان: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ خطاب، نقول: إذًا اجعل ن من أسماء الرسول؛ لأن الله قال: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ١- ٢] ولا قائل به.

إذا قال قائل: ما الفائدة من هذه الحروف الهجائية إذا لم يكن لها معنى في حد ذاتها؟

أقول: الفائدة أشار إليها شيخ الإسلام ابن تيمية، وغيره من العلماء الذين سبقوه ولحقوه، الفائدة: التنبيه على أن هذا القرآن الكريم الذي عجز الناس أن يأتوا بمثله لم يأت بحروف جديدة، فيحتج الناس ويقولوا: هذه حروف ما نعرفها جديدة، القرآن الكريم جاء بالحروف المعروفة عند المُخاطَبين، ومع ذلك أعجزهم، قال شيخ الإسلام وغيره: ولذلك لا تجد تكاد سورة مُفتتحة بهذه الحروف الهجائية إلا وجدتَ بعدها ذكر القرآن.

قال الله تعالى: ﴿حمٓ﴾ ما هو التفسير الصحيح لها؟ نقول: ليس لها معنى في حد ذاتها، ولكن لها مغزى، وهذا الذي قرَّرناه هو الذي ذكره مجاهد رحمه الله إمام المُفسِّرين في عهده، نقله عنه ابن كثير في «تفسيره».

وقوله: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ الواو حرف قسم، وفسَّره بأنه [القرآن]؛ لأن الله تعالى سمَّى القرآن كتابًا، فقال: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١- ٢]، وسمِّي كتابًا؛ لأنه كتِب في اللوح المحفوظ، ولأنه كتِب في المصاحف التي بأيدي السفرة الكرام البررة، ولأنه كُتِب في المصاحف التي بأيدينا.

وقوله: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ يقول المؤلف: [المظهِر طريق الهدى وما يحتاج إليه من الشريعة] ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ من أبان الشيءَ إذا أظهره، فمعنى كونه مبينًا أنه مُظهِر للحق موضِّحٌ له؛ بل لكل ما يحتاج الناس إليه؛ يعني: أن القرآن أظهر كل شيء يحتاج الناس إليه في دينهم ودنياهم.

وقيل: المراد بالمُبين: البيِّن، وأيها أعم؛ البيِّن أو الذي بيَّن الشيء؟ الأعم أنه مُظهِر للحق؛ لأنه لا يُظهِر للحق إلا إذا كان ظاهرًا، وعلى هذا ففسِّر المبين بأنه مظهِر، وإن فسَّرته بهما فلا بأس، فقلت: إنه بيِّن مُبين؛ لأن الكلمة احتملت معنيين، وهذه قاعدة: الكلمة إذا احتملت معنيين مُساويين لا يُنافي أحدهما الآخر وليس أرجح منه، فإنه تُحمَل عليهما جميعًا.

قوله: [﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾ أوجدنا الكتاب ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ بلغة العرب ﴿لَّعَلَّكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿تَعْقِلُونَ﴾ تفهمون معانيه].

قوله عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾ ضمير الفاعل يعود على الله عز وجل، وضمير المفعول يعود على القرآن، ومعنى ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ على كلام المؤلف: أوجدناه قرآنًا عربيًّا، الصواب: أن المعنى: صيَّرناه قرآنًا عربيًّا؛ أي: صيَّرناه بلغة العرب.

وقوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: تفهموه، والخطاب في قوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ﴾ على كلام المفسِّر يعود إلى أهل مكة، والصواب: أنه يعود إلى العرب كلهم؛ لأن العرب من مكة وغيرهم، فيكون المعنى: صيَّرناه بلغة العرب لتفهموه أيها العرب.

المعنى: أن الله تعالى أقسم بالقرآن أنه جعله باللغة العربية من أجل فهمه.

الفوائد:

١ - **يُستفاد من هذه الآيات:** جواز القسم مع تأكّد صحة المقسِم بدون القسم؛ يعني: جواز أن الإنسان يقسِم على الشيء مع أن قوله مقبولٌ على كل حال، وجه الدلالة: أن الله تعالى أقسم وقوله مقبولٌ على كل حال، وصدقٌ بلا يمين، حينئذٍ يتولَّد من هذا: كيف يقسِم الله عز وجل على الشيء وهو صادق بدون قسم؟ فنقول: لفائدتين:

الفائدة الأولى: بيان أهمية هذا الشيء، وأنه جديرٌ أن يقسَم عليه.

والثانية: أن القسم من فصاحة الكلام في اللغة العربية، فإذا كان من فصاحة الكلام فالقرآن نزل باللغة العربية، فيكون هذا مطابقةً لأسلوب اللغة العربية.

كيف أقسم الله بالقرآن مع أنه لا يجوز القسم بغير الله؟ والجواب على هذا: أن القرآن صفة من صفات الله؛ لأنه كلام الله، والقسم يجوز بالله، وبالصفة من صفاته؛ لأنها مُعظَّمة، والقرآن من صفات الله؛ لأنه كلام الله عز وجل.

٢ - **ومن فوائد هذه الآيات:** بيان عظمة القرآن؛ لأن الله لا يُقسِم إلا بشيء عظيم؛ بل إن القسم نفسه - كما قال بعض من فسَّره -: تأكيد الشيء بذكر مُعظَّم بصيغةٍ مخصوصةٍ بأحد حروف القسم، وحروف القسم ثلاثة: الواو، والباء، والتاء.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن القرآن مُبين؛ أي: مظهِر للحق ولكل ما يحتاج الناس إليه؛ بل هو مُظهِر حتى للباطل مُبيِّنٌ له، ومُحذِّرٌ منه؛ بل إنه بيان لكل شيء، كل شيء فالقرآن مبيِّنه.

فإذا قال قائل: إن الله سبحانه وتعالى ذكر أشياء لا مجال للعلم فيها، فأين بيانها؟ قلنا: بيانها في قول الله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فيما يتعلق بالصفات؛ لأن بيانها على وجه التفصيل لا تحتمله العقول، فكان من الحكمة ألَّا تُفصَّل، وإلا فهو تبيانٌ لكل شيء.

ذكِر أن أحد العلماء كان في مطعم، وكان حوله رجلٌ من النصارى، فاستغل النصرانيُّ الفرصة ليُلقِي على هذا العالم سؤالًا يتحدَّاه به، فأتى إليه، وقال له: أيها الشيخ! قال: نعم، ماذا تريد؟ قال: القرآن كتابكم يقول: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] فكيف نصنع هذه السلطة؟ أين هذا في القرآن؟ وكان العالم المسلم ذكيًّا، قال: نعم، هذا موجود في القرآن، قال: أين هو؟ فنادى الطبَّاخ، وقال: كيف صنعتَ هذا؟ فجعل الطبَّاخ يشرح له، فقال: هكذا جاء في القرآن، قال: كيف؟ قال: إن الله قال: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧] فأحالنا فيما لا نعرف على من يعرف، وهذا

بيانه، لم نتحيَّر الآن في معرفة كيف تصنَع هذه السلطة.

لو قال لنا قائل: القرآن تبيان لكل شيء؛ كيف نصنع هذا التليفون؟ هل في القرآن وصفٌ لصناعته؟ أين ذكره في القرآن؟ نقول: الله عز وجل أحالنا إلى سؤال من يعرف إذا كنا لا نعرف، وهذا بيان، ما أوقفنا متحيِّرين، إذن في هذه الآية دليل على أن القرآن مُبيِّنٌ لكل شيء.

ولكن القرآن يحتاج إلى تدبُّر، بدون تدبُّر لا يمكن أن تهتدي، ثم اعلم أنك كلما أمعنتَ وتعمَّقت في تدبُّر القرآن فتح الله لك من أبواب المعرفة ما لم يكن من قبل، وصِرتَ تستنبط من الآية الواحدة من الأحكام ما لا يستنبطه غيرك، فاحرص على التدبُّر.

٤ - **ومن فوائد هذه الآيات:** أن هذا القرآن الذي أعجز العرب من الحروف التي يُركِّبون منها كلامهم، ومع ذلك أعجزهم.

٥ - **ومن الفوائد أيضًا:** جواز تأكيد الخبر بالقسم ولو كان المُخبِر لا يحتمل خبره الكذب، وجهه: أن الله تعالى أقسم مع أن كلامه لا يحتمل الكذب، ولكن هذا من أجل أهمية المُقسَم عليه.

٦ - **ومنها:** قضية القرآن الكريم وعِظَمه؛ لأن الله أقسم به، ولا يقسَم إلا بالشيء المُعظَّم.

٧ - **ومنها:** أن القرآن الكريم مكتوب، وهو مكتوبٌ في اللوح المحفوظ، ومكتوبٌ في الصُّحُف التي بأيدي الملائكة، ومكتوبٌ في الصُّحُف التي بين أيدينا.

٨ - **ومنها:** أن القرآن الكريم مُبيِّنٌ لكل ما يحتاج إلى البيان، لقوله: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾، ولكن هل هذا البيان حاصلٌ لكل أحد؟ لا، ليس حاصلًا لكل أحد، من الناس من يفهم من القرآن أشياء كثيرة، ومن الناس من هو دون ذلك، ومن الناس من لا يفهم شيئًا، فالأقسام ثلاثة: من الناس من يفتح الله عليه فيفهم من الآية الواحدة عشرات المسائل، ومن الناس من هو دون ذلك، ومن الناس من لا يفهم شيئًا، ولهذا لما سئِل عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه: هل عهِدَ إليكم النبي ﷺ بشيء؟ قال: (لا والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة ما عهِدَ إلينا بشيء إلا فهمًا يؤتيه الله تعالى من شاء من عباده، وما في هذه الصحيفة)، وإنما سُئِل عليٌّ عن ذلك؛ لأنه أُشِيعَ في زمنه أن النبي ﷺ عهِدَ إليه بالخلافة، وقال: أنت الخليفة من بعدي، فبيَّن رضي الله عنه أن هذا لم يكن، والشاهد من هذا الأثر: قوله: (إلا فهمًا يؤتيه الله تعالى من شاء من عباده)، ولذلك ترى بعض العلماء إذا تكلَّم على الآية مُستنبِطًا فوائدها يأتي بالعجب العُجاب، ومن أبلغ ما قرأتُه ما يحصل لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وتلميذه ابن القيم، فإن الله تعالى يفتح عليهما من فهم القرآن

ما لا يكون لغيرهما.

ومن الناس من فهمه دون ذلك، لكن درجات، ومن الناس من لا يفهم شيئًا، دليل الأخير: قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨] يعني: إلا قراءة، والأماني: جمع أمنية، ومنه قول الشاعر في أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه:

تمنَّى كتابَ الله أولَ ليله ... وآخِرَه لاقَى حِمَامَ المَوارِدِ

أي: قرأ كتابَ الله؛ لأن أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه قتِل شهيدًا بداره وهو يتهجَّد ويقرأ القرآن.

هل الذي لا يفهم يقدح في كون القرآن تبيانًا لكل شيء؟ لا؛ لأن القرآن في حد ذاته تبيان لكل شيء، كما أن الجبان الذي بيده سيفٌ بتَّار لا يُقدِم فيقتُل به، وليس هذا عيبًا في السيف.

٩ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن القرآن حادث؛ يعني: أنه بإرادة الله عز وجل، لقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، والله قادرٌ على أن يجعله بلغة أخرى، لكن صيَّره باللغة العربية، ومعلومٌ أن العرب حادثون أو أزليُّون؟ حادثون، فيكون ما نزل بلغتهم حادث، وهذا هو الحق: أن كلام الله عز وجل حادثٌ؛ بمعنى: أنه يتكلَّم متى شاء، متى شاء تكلَّم، ومتى شاء لم يتكلَّم، كما قال النبي ﷺ: «وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ»، ومن عقيدة أهل السنة والجماعة أن الله يتكلم بكلام حقيقي متى شاء، بما شاء، كيف شاء.

قلنا: إن كلام الله تعالى حادث، المعنى: أنه يُحدِثُ من كلامه ما شاء.

والأشعرية الذين ينتسبون إلى أبي الحسن الأشعري يقولون: إن الله لا يتكلَّم متى شاء أبدًا؛ لماذا؟ لأن الكلام معنى قائمٌ بنفسه أزَليٌّ، لكنه يُحدِثُ أصواتًا يخلقها متى شاء فتُسمَع، فيَرَون أن الكلام لا يتعلق بمشيئته، وأيُّها أكمل: من يتكلم بمشيئته، وبما شاء، وكيف شاء، ومن لا يستطيع هذا؟ الأول، لكن أبَتْ بدعتهم إلا أن يقولوا بالثاني، وقد أَلَّف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كتابًا سمَّاه: «التسعينية» بيَّن بُطلان هذا القول من تسعين وجهًا، رحمه الله وجزاه عن أمة محمد ﷺ خيرًا.

١٠- **ومن فوائد هذه الآية:** أن كون القرآن باللغة العربية منقبةٌ كبرى للعرب، أن يكون القرآن العظيم نزل بلغتهم، لقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾.

فإذا قال قائل: هذه عصبيَّة وحميَّة للعرب، ويفتخر بها العرب الملحِدون، فما الجواب لأن هذا مُشكِل؟، العرب المُلحِدون الذين يبنون الولاء والبراء على القومية العربية، يفخرون بهذا، فنقول: من كان كافرًا فلا فخر ولو كان من صميم العرب، والدليل: أبو

لهب عمُّ النبي ﷺ، أنزل الله في حقه سورة كاملة تُتلَى في الصلاة، وفي المساجد، وفي كل مكان يُتلَى فيه القرآن إلى يوم القيامة في ذمِّه، وهو من العرب، فالعروبة لا تجدِي شيئًا مع الكفر، لكن إذا اجتمع الدين والدنيا، فما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا، إذا صار مسلمًا وعربيًّا.

١١- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الحُجَّة لا تقوم على العباد إلا إذا فهِموها، لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ والعقل هنا بمعنى: الفهم، فلو تُلِيَ القرآن على رجلٍ أعجميٍّ لا يفهم معناه، ولم يقَل له: هذا كلام الله، فإنه لا حُجَّة عليه، ويدل لهذا: قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

فإن قال قائل: ماذا تقولون في قول الله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] ولم يقل: ومن فهِمَ؟

فالجواب: أن نقول: ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ مُقيد بالنصوص الأخرى الدالة على أنه لابد من الفهم، أو يُقال: ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ من العرب الذين يفهمون.



قال الله تعالى:

﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤].

التفسير

قوله: ﴿وَإِنَّهُ﴾ الضمير يعود على الكتاب المبين، وهو: القرآن.

وقوله: ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ هو: اللوح المحفوظ، وسمِّي أمًّا؛ لأنه مرجع لجميع ما يكتَب من بعده، والكتابة أنواع: الكتابة العظمى العامة الشاملة: ما كُتِب في اللوح المحفوظ.

وقوله: ﴿لَدَيْنَا﴾ أي: عندنا، والفرق هنا حال من ﴿أُمِّ الْكِتَابِ﴾ يعني: أن الذي لدى الله في هذه الآية هو: ﴿أُمِّ الْكِتَابِ﴾ أي: اللوح المحفوظ عند الله عز وجل، وهو محفوظٌ من التغيير والتبديل؛ لأنه أم الكتاب، وأما الكتب التي بأيدي الملائكة ففيها تغيير وتبديل، كما قال عز وجل: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩].

وقوله: ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ أي: ذو علوٍّ، ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: ذو حكمٍ وحكمة، وصفان عظيمان للقرآن الكريم وصف الله بهما نفسه.

عليٌّ بمعنى: عالٍ، لكنه أبلغ؛ لأن (عليٌّ) على وزن فعيل صفة مُشبَّهة، وصفة المُشبَّهة تدل على الثبوت والاستمرار، ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: ذو حكمٍ وحكمة، فالقرآن حاكمٌ، والقرآن مُشتملٌ على الحكمة، معنى قولنا: حاكم أنه: مرجع للحكم، لا يُحكَم بغيره، ومعنى حاكم: أنه مُهيمنٌ على جميع الكتب حاكمٌ عليها.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ هل المراد ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: ذِكْرَه، أو المراد: نفس القرآن في اللوح المحفوظ؟ يحتمل أن المراد: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: ذكرَه، كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٩٦]، ومعلوم أن القرآن ليس في زُبُر الأولين، ولكن في زُبُر الأولين ذِكرُه، ولكن إذا تأمَّلنا قلنا: الأصل أن الضمير يرجع إلى المُضمَر الذي دلَّ عليه؛ أي: إلى نفس المُضمَر الذي دلَّ عليه، وحينئذٍ يكون: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن كله في اللوح المحفوظ.

فإن قال قائل: هذا القول يرِدُ عليه: أن في القرآن الكريم كلمات تحدَّث الله بها عن شيء مضى؛ مثل: قول الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ﴾ [المجادلة: ١] هذا الخبر بعد المجادلة أو قبلها؟ بعدها، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١] إشارة إلى غزوة أُحُد، ﴿غَدَوْتَ﴾ أي: خرجت في الغداء، هذا الخبر بعد وقوع المُخبَر عنه أو قبله؟ بعد أن غدا؛ لأن غدا فعل ماض، فهنا يُشكِل يُقال: كيف كان في اللوح المحفوظ يتحدَّث الله عن شيء حصل قبل أن تنزل الآية؟ فيقال: لا إشكال، والجواب: أنه كتب هذا في اللوح المحفوظ لعلمه أنه سيقع، ثم أنزله بعد وقوعه، كما أن الحوادث الكونية مكتوبة في اللوح المحفوظ لعلمه سبحانه أنها ستقع، ثم تكون حين يريد الله أن تكون.

وكنت قبل ذلك أُرجِّح؛ بل أقول: يتعيَّن أن الذي في اللوح المحفوظ ليس القرآن، لكن الذي في اللوح المحفوظ ذِكْرُ القرآن؛ أي: أنه سينزل القرآن على هذه الأمة، واستدللت على هذا بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦]، والذي في زُبُر الأولين هو ذِكْرُ القرآن بلا شك، مُستندًا إلى مثل الآيات التي ذكرتُ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾، وقوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ . .﴾ حتى عثرتُ على كلام لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وبيَّن ما ذكرتُ لكم أخيرًا أنه لا مانع أن يُكتَب في اللوح المحفوظ بلفظ الماضي؛ لأن الله علِمَ أنه سيكون وأنه سيُنزِل هذه الآية بعد أن يكون، وبناءً عليه تبيَّن لي أن الذي في اللوح المحفوظ هو القرآن بناءً على ظاهر الآيات: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ

مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١- ٢٢]، والحمد لله الذي فتح عليَّ، وجزى الله شيخ الإسلام ابن تيمية خيرًا، وهذا يدل على أن الإنسان مهما كان لابد أن يعتريه النقص.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** عناية الله تبارك وتعالى بهذا القرآن، وهذا يدل على شرفه؛ حيث جعله عنده في أم الكتاب.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن القرآن عالٍ؛ بل عليٌّ، وهذا يدل على أن من تمسَّك بهذا القرآن فله العلو، كقوله عز وجل: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥] فنقول: القرآن عليٌّ، ومن تمسَّك به فله العلو، وشاهد هذا: الواقع، لما كانت الأمة الإسلامية متمسِّكة بالإسلام كان لها العلو والظهور وملكت به مشارق الأرض ومغاربها، ولما تقاعَسَت وتخاذَلت وتنازعت وتباغَضت صار بالعكس، صار لها الذل، الآن أمة العرب يدعون اليهود إلى السِّلْم ويُكرِّرون ذلك، ويمُدُّون أيديهم إلى دول النصارى لتُساعدهم على السِّلْم؛ لماذا؟ لأننا لم نتمسَّك بالقرآن، فكنا أذلَّة نتوسَّل بأعدائنا أن يقع السِّلْم بيننا وبين أعدائنا؛ يعني: لو قال لنا قائل: نحن أمة القرآن، ومع ذلك فالناس في ذل، قلنا: لأننا لم نتمسَّك بالقرآن، ولو تمسَّكنا بالقرآن لضمِنًا لأنفسنا العلو والغلبة والظهور، لكن الأمر بالعكس، الآن غالب المسلمين يلهثون وراء الدنيا مُعرِضين عن الدين، ما الذي يُنمِّي الاقتصاد؟ ما الذي يحصل به الترف؟ وما أشبه ذلك، لكن ما الذي يُقوِّي الدين؟ هذا قليل أو معدوم.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن من جادَلَ بالقرآن فهو غالب؛ لأن الذي له العلو هو القرآن، أي إنسان يُناظِرك ووسيلة إقناعه ودحره القرآن فإنك ستغلبه بلا شك، لكن لما عدَل كثير من الأمة إلى كلام أهل الكلام هل هُدوا إلى الصراط المستقيم؟ لا، هل غلبوا الأعداء؟ لا، تسلَّط عليهم الأعداء، حتى الفلاسفة المُعرِضون صاروا يحتجُّون بالأشاعرة على ما هم عليه من الباطل، ويقولون: أنتم أيها المعتزلة حرَّفتم النصوص إلى ما ترونه عقلًا، ونحن أيضًا انصرفنا عن النصوص إلى ما نراه عقلًا، فاحتجُّوا ببدعة هؤلاء على إلحادهم، وقالوا: نحن وأنتم سواء، أنتم حرَّفتم ونحن حرَّفنا، لكن لو تمسَّكنا بالقرآن أيستطيع هؤلاء الفلاسفة أن يُجرِّمونا؟ لا، لكن اقرأ كتب أهل الكلام تجد صفحة بل صفحتين لا تأتي منهما إلا بفائدة واحدة، ولهذا صحَّ أن نقول: إنهم أهل الكلام، وكلامهم كلام؛ بمعنى: أنه كلام لا فائدة منه، وانظر إلى قوله ﷺ لما شكا إليه الصحابة ما يجدون في نفوسهم من وساوس الشيطان قال: «ذَاكَ صَرِيْحُ الإِيْمَانِ»، وأمَرَ من وجد هذه

الوساوس أن يستعيذ بالله وينتهي «فَلْيَسْتَعِذْ بِالله وَلْيَنْتَهِ» ماذا يكتب الفلاسفة والمتكلمون على هذا؟ يكتبون الكثير مما يدَّعون أنه عقليات وهو وهميات، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم التمسُّك بهذا الكتاب العزيز، وأن يُعِزَّنا به.



❁ قال الله تعالى:

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف:٥].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قال الله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾.

الهمزة هنا للاستفهام المراد به: النفي، بدليل أن المُفسِّر قدَّر بعده قولَه: [لا] يعني: لن نضرب عنكم الذكر صفحًا، المعنى: أنه لا يمكن أن نترككم بدون إنذار لكونكم قوم مجرمين؛ بل لابد من الإنذار، كما تقول: ضربتُ عن هذا صفحًا؛ يعني: أعرضت عنه، ولم ترفع به رأسًا، والمراد به: النفي توبيخًا لهؤلاء الذين أعرضوا عما جاء به النبي ﷺ، والضمير في قوله: نضرب يعود إلى الله عز وجل، وأتى بالضمير الدال على الجمع تعظيمًا لله تعالى، وليس للتعدُّد؛ لأن الله عز وجل واحدٌ لا شريك له.

والضمير في قوله: ﴿عَنكُمُ﴾ يعود إلى قريش الذين كذَّبوا محمدًا ﷺ.

وقوله: ﴿صَفْحًا﴾ مصدر معنوي لكلمة ﴿أَفَنَضْرِبُ﴾ لأن معناه: إعراضًا، المعنى: أنُعرِض عن تذكيركم وإنذاركم؟ وهذا الذي سمعتم يفعله العرب في كلامهم، يقول: أعرضتُ عنك صفحًا؛ يعني: لم أُبالِ بك، ولم ألتفت إليك.

وقوله: ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ أنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول لأجله؛ أي: لأجل أن كنتم قومًا مسرفين، فهي تعليلية، والإسراف: مجاوزة الحد.

الفوائد:

١ - **يُستفاد من هذه الآية:** أن الله تبارك وتعالى لم يترك عباده هملًا؛ بل بيَّن لهم الحق، ودعاهم إليه، وخوَّفهم من مخالفته، فلم يبق لأحد عذرٌ.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الإنسان معذور بالجهل إذا لم تبلغه الرسالة، وهذا له أدلة؛ منها: قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِۦ

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٣- ١٦٥]، ومنها: قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ومنها: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩] والأدلة على هذا كثيرة، وقال النبي ﷺ: «وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ؛ يَهُودِيٌّ أَو نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِمَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»، فقال: «لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ».

فإن قال قائل: وهل يُشترط مع بلوغ الرسالة أن يفهمها المُخاطَب؟ فالجواب: نعم يُشترط هذا، لقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ أيُّ فائدة في رسول يأتي إلى قوم لا يعرفون لغته، وهو لا يعرف لغتهم؛ أيُّ فائدة تحصل؟ لا فائدة، والله عز وجل أرحم وأحكم من أن يُعذِّب قومًا بدون أن يفهموا ما جاءت به الرسل.

يبقى النظر إذا كان الإنسان مسلمًا، ولكنه يقوم بأعمال شركية لا يظن أنها شرك، فهل يُحكَم بشركه؟ فالجواب: لا حتى تقوم عليه الحُجَّة، فإذا قامت عليه الحُجَّة فحينئذٍ نحكم بشركه.

وإذا قال قائل: رجل في الغابات بعيد عن المدن، بعيدٌ عن الحضارات، لكنه ينتمي إلى دين كفرٍ؛ فهل هذا معذور؟ فالجواب: أما في أحكام الدنيا فليس بمعذور؛ يعني: أننا نُعامِله معاملة الكافر؛ لأنه لا ينتمي إلى دين الإسلام بخلاف الأول، نُعامِله في الدنيا معاملة الكافر، أما في الآخرة فأمرُه إلى الله عز وجل، لا ندري ماذا يكون؟ وقد جاء في الحديث: أن أهل الفترة يُرسل الله إليهم رسلًا يوم القيامة يمتحنهم؛ من أطاع دخل الجنة، ومن عصى دخل النار.

فإن قال قائل: على قولك هذا يلزم أن تكون الآخرة دار تكليف؟ فالجواب: نعم، نلتزم بهذا، وقد دلَّ القرآن على أن الآخرة دار تكليف، فقال عز وجل: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم: ٤٢- ٤٣] فهنا كُلِّفوا بالسجود مع أن الآخرة ليست دار تكليف في الأصل، ولكن قد يُكلَّف الناس فيها.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن أحكام الله عز وجل مُعلَّلة بعلل مناسبة للحكم، وهذا من مقتضى حكمته ألَّا تجد حكمًا إلا وله حكمة، ولكن هل يلزم من كونه

له حكمة أن تكون معلومة لنا؟ الجواب: لا؛ لأن عقولنا أدنى من أتحيط علمًا بحكمة الله عز وجل، لكننا نعلم أنه لا يحكم بشيءٍ قدرًا أو شرعًا إلا وله حكمة، إذا رأيتَ الله عز وجل حكم حكمًا في الكتاب أو السنة فلا تبغ به بديلًا، لقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ولما سُئِلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن الحائض تقضي الصيام دون الصلاة، قالت: كان يُصيبنا ذلك، فنُؤمَر بقضاء الصوم، ولا نُؤمَر بقضاء الصلاة.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٦ - ٧].

❁ التفسير ❁

ثم قال عز وجل: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

﴿وَكَمْ﴾ هذه خبرية تدل على الكثرة، عامِلها ما بعدها ﴿أَرْسَلْنَا﴾ والإرسال هو: الإيحاء إلى بشر بشريعة ويُؤمَر بتبليغها.

وقوله: ﴿مِن نَّبِيٍّ﴾ بيان لـ ﴿وَكَمْ﴾، والمراد هنا: الرسول؛ لأنه قال: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ﴾ والنبي يُطلَق على الرسول كثيرًا، في القرآن الكريم: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١] وأمثال ذلك، والمراد: الرسول.

وقوله: ﴿فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: السابقين على هذه الأمة.

وقوله: ﴿وَمَا﴾ [كان] ﴿يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ قوله: ﴿وَمَا﴾ [كان] ﴿يَأْتِيهِم﴾ قدَّر المؤلف: [كان] لأن الأمر قد مضى، ولو كان على نسق الكلام ﴿وَمَا يَأْتِيهِم﴾ لكان هذا في المستقبل، لذلك قدَّر المُفسِّر [كان] وهذا يدل على عُمق علم المُفسِّر، ولكن خيرٌ من ذلك أن نقول: لا حاجة إلى التقدير؛ لأنه إذا دار الأمر بين أن يكون في الكلام مُقدَّر أو غير مُقدَّر فالأصل: عدم التقدير، فنقول: الآية باقية على ظاهرها، ولكنها على حكاية الحال؛ يعني: كأن الماضي حاضر الآن، وهذا أبلغ في تخويف قريش من المخالفة.

وقوله: ﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾ (مِنْ) هذه زائدة إعرابًا لكنها مفيدة معنى، زائدة إعرابًا بمعنى: أنها

لو نُزِعت من السياق لتمَّ بدونها، لو كان لفظ الآية الكريمة: وما يأتيهم رسول يستقيم الكلام، ولكن جاءت (مِنْ) زيادة في الفائدة؛ وما هي الفائدة؟ الفائدة: يقول علماء البلاغة وعلماء النحو: إن زيادة الكلمة - يعني: الحرف - في الجملة تدل على التوكيد، فعليه كل كلمة زائدة في القرآن من حيث الإعراب فهي مفيدة للمعنى.

وقوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ما يأتيهم إلا استهزءوا، لا يقبلون ولا يسكتون؛ بل يستهزئون، والاستهزاء: السخرية؛ بمعنى: أنهم يسخرون بهم ويحتقرونهم ليُحذِّروا الناس منهم، فانظر إلى رحمة الله عز وجل كيف يُرسل الرسل وهو يعلم أن هؤلاء المدعوِّين سيُقابلونهم باستهزاء، ولكن إقامةً للحُجَّة.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله تعالى أرسل عددًا كثيرًا من الأنبياء في السابقين، وقد جاء في بعض الأحاديث: أنهم مائة وأربعة وعشرون ألفًا، فالله أعلم؛ لأن هذا يحتاج إلى دليل صحيح صريح، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]، ومعلوم أن من لم يُقصص علينا فلن نستطيع أن نعرف عددهم.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله تعالى أقام الحُجَّة على جميع الخلق، ويُؤيِّد هذا قوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تسلية النبي ﷺ في قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فإن النبي ﷺ إذا علِمَ أن الرسل من قبله يُستهزأُ بهم فإنه يتسلَّى ولا شك، وأنت اعرف هذا من نفسك، إذا أُصِبتَ بمصيبة وأُصيب غيرك بمثلها وتهون عليك المصيبة؟ بلى، وفي هذا يقول الله عز وجل: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ يعني: أن اشتراككم في العذاب لا يُخفِّف العذاب عنكم، ولا يحصل لكم به التسلِّي؛ لأن كل واحد من أهل النار – أعاذنا الله وإياكم منها – لا يرى أن أحدًا منه أخف عذابًا، ولذلك يشتد حُزنه – والعياذ بالله – إذا رأى أنه هو أشد الناس عذابًا وهو أهونهم.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الاستهزاء بالرسل تكذيبٌ لهم وزيادة، لقوله: ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ واعلم أن الاستهزاء بالرسل كفرٌ، والاستهزاء بالكتب كفر، والاستهزاء بالله كفر، قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥- ٦٦] واختلف العلماء رحمهم الله فيمن استهزأ بالله أو آياته أو رسوله، أو

سبَّ الله، أو كتابَه، أو رسولَه؛ هل تُقبَل توبتُه أو لا تُقبَل على قولين.

والصحيح: التفصيل في هذا: وهو أنه إن وُجِد ما يدل على استقامته وصحة توبته فإنها تُقبَل، وإلا فلا، وذلك أن لهذا المُستهزئ، أو الساخر، أو السابّ ثلاث حالات:

الحال الأولى: أن يستمر في ذلك، فهذا لا توبة له، ويُقتل رِدَّةً.

الثانية: أن نعلم أنه تاب توبةً نصوحًا، بأنه استقام، وصلحت حاله، فهذا تُقبَل توبته بلا إشكال.

والثالث: أن نتردَّد؛ هل هو صادق في توبته أو غير صادق؟ فهذا يُقتَل ويكون أمره إلى الله عز وجل، نقلته لظاهر حاله؛ لأتننا لم نتيقَّن أن هذه الحال قد تغيَّرَت إلى ما يمنع قتله، فنقتله، أما في الآخرة فأمره إلى الله.

فإن قال قائل: الاستهزاء بالله، وسبُّ الله عز وجل ذنبٌ عظيم لا يتحمل أن تُقبَل توبة فاعله.

فالجواب: أن نقرأ قول الله عز وجل في نفس الآية: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ يعني: إن عفونا عن طائفة منكم في توبتهم عذَّبنا الطائفة الأخرى التي لم تتُب، واقرأ قول الله عز وجل: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].



قال الله تعالى:

﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الزُّخرُف: ٨].

التفسير

قال الله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾.

﴿فَأَهْلَكْنَا﴾ يعني: بالموت ﴿أَشَدَّ مِنْهُم﴾ أي: من كفار قريش ﴿بَطْشًا﴾ أي: [قوة] ﴿وَمَضَىٰ﴾ [سبق في آيات] ﴿مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾.

قوله: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ يعني: قوة؛ كقوم هود، وقوم صالح، ومن أشبههم، أهلكهم الله وهم أشد قوةً من الذين كذَّبوا محمدًا ﷺ، أشد بطشًا، وأكثر أموالًا وأولادًا ومع ذلك ما أغنتهم شيئًا.

في هذه الآية: بيان شدَّة صبر الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ حيث إنهم يُستهزأ بهم وهم صابرون حتى يأتي أمر الله، وإلا فمن الذي يُطيق أن يدعو الناس وهم يستهزئون

به لولا أن يُثبِّت الله عز وجل الإنسان بالقول الثابت، كما قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٤- ٧٥].

الفوائد:

١ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تحذير قريش من ردِّ دعوة النبي ﷺ؛ لأن الله تعالى توعَّدهم بذكر إهلاك من سبق، وكل إنسان له قلب إذا ذُكِر له حال الأمم السابقة وأنهم أُهلِكوا فلابد أن يتعظ، ولابد أن يخاف ويخشى.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** جواز التحويل على شيء سابق، لقوله: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: أحوالهم وصفاتهم، والتحويل فيه فائدة، وهي: أن يتذكَّر الإنسان ما مضى، وأن يعود إليه.

وقد عاب قوم على الحافظ ابن حجر رحمه الله لكثرة حوَلاته في «فتح الباري»، والحقيقية: أن لا عيب، ولا يرِدُ على هذا أنه أحيانًا يُحيل ولا نجد ما يُحيل به، أحيانًا يقول: يأتي في باب كذا، ولا تجده؛ لأنه قد يكون معذورًا بالنسيان، أو ألحقه بنسخةٍ لم تصل إلينا، أو ما أشبه ذلك.

المهم: فائدة الإحالات: تذكير الإنسان ما سبق، واهتمامه بالكتاب، ورواج الكتاب كله؛ لأنه إذا كان هناك إحالات فلازم ذلك أن يكون عندك كل الكتاب؛ لأنه سيُحال عليه، فلابد أن يكون عندك.



قال الله تعالى:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزُّخرُف: ٩].

التفسير

ثم قال الله عز وجل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ الخطاب للنبي ﷺ، الجملة هذه فيها شرط وفيها قسم، فيها شرط، وهي: إنْ، وفيها قسم دلَّت عليه اللام؛ لأن اللام موطئة للقسم، القسم يحتاج إلى

جواب، وهو ذكرُ المُقسَم عليه، والشرط يحتاج إلى جواب، وهو جواب الشرط، إذا اجتمعا ماذا نُقدِّم؟

يقول ابن مالك في «الألفية»:

واحذف لدى اجتماعِ شرطٍ وقسمٍ جوابَ ما أخَّرتَ فهوَ مُلتَزَم

الآية الكريمة معنا ما هو المؤخَّر القسم أو الشرط؟ الشرط، إذن احذف جواب الشرط، واكتفِ بجواب القسم عنه، ولذلك نجد أن الآية قُرِنَ في الجواب اللام، وهي: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ ولو كان هذا الجواب للشرط لم نحتجْ إلى اللام.

قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ﴾ [حُذِف منه نون الرفع لتوالي النونات، وواو الضمير لالتقاء الساكنين] أصلها قبل الحذف: ليقولونَنَّ كم عندنا من نون؟ ثلاثة، احذف الأولى؛ لأن حذفها معتاد؛ أي: حذف نون الرفع من المضارع كثير ولأن نون التوكيد جاءت لغرض لو حذفناها لفات الغرض، وهو: التوكيد، إذن فنحذف نون الرفع، وهي: النون الأولى لتوالي النونات، ثم يأتي دور الضمير ليقولونَّ، الواو لماذا حذفناها؟ لالتقاء الساكنين، الساكنان هما: الواو ساكنة، والنون المُشدَّدة الحرف الأول منها ساكن، فتُحذَف الواو.

هذا التعليل هو من النحويين لا شك، وإلا فإن الرجل العربي حينما يتكلم بهذه الكلمة هل يخطر على باله أنه حذف نون الرفع، ثم واو الضمير وما أشبه ذلك؟ لا، لكن علماء النحو رحمهم الله يلتمسون التوجيهات لكلام العرب فوجدوا هذا التوجيه.

لو قلت لهم: من خلق السماوات والأرض؟ ليقولُنَّ: خلقنَّ العزيز العليم، وهذا الجواب جوابٌ صحيح مائة بالمائة.

قوله: ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ أي: السماوات والأرض ﴿الْعَزِيزُ﴾ ذو العزة، والعزة أبرز معانيها: الغلبة، يُقال: عزَّ فلانٌ فغلب، معنى آخر وهي: القدر؛ يعني: الشرف والرفعة، ولها معنى ثالث، وهو: الشدة والصلابة، ومنه قولهم: أرضٌ عَزاز؛ أي: شديدة صلبة، إذا أردنا أن نُطبِّق هذه المعاني على الوصف الذي اتَّصف الله به من العزة فنقول: عزيز من العز وهو: الغلبة، عزيز من عزة القدر، ومعلوم أن الله عز وجل أعظم قدرًا من كل شيء، الثالث: عزة الشدة والصلابة والامتناع، وذلك أن الله تعالى ممتنع أن يتصف بأي سوءٍ.

وقوله: ﴿الْعَلِيمُ﴾ أي: ذو العلم التام، وتأمل كيف جاءوا بهذه العبارة ﴿الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ إشارة إلى أنهم مُقِرُّون بأنهم أذِلَّاء أمام الله عز وجل، وأن جميع ما في السماوات والأرض فإنه صادرٌ عن علمٍ، هذا الإقرار يلزمه أن يُقِرُّوا بأنه لا إله إلا الله، لكنهم لم يفعلوا.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة:** دليل على أن المشركين يُقرُّون بتوحيد الربوبية، لقولهم في الجواب: ﴿خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ والأمر كذلك، وإقرارهم بتوحيد الربوبية يُلزِمهم أن يُقِرُّوا بتوحيد الألوهية، فيقال: إذا أقررتم بأنه لا خالق إلا الله فأَقِرُّوا بأنه لا معبود حقٌّ إلا الله.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن السماوات عدد، لقوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وقد جاء في القرآن الكريم وفي السنة النبوية أن عدد السماوات سبع، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [الطلاق: ١٢]، أما الأرض فلم يأت في القرآن التصريح بأنها سبع، لكن ظاهر القرآن كذلك؛ مثل قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾ فإن المماثلة هنا لا يمكن أن تكون بالحجم، ولا بالقوة؛ لأن السماوات أوسع وأعظم من الأرض وأقوى، فلم يبقَ إلا العدد، وقد جاءت السنة صريحة في ذلك فقال النبي ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا طُوِّقَهُ يومَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِيْنَ» السماوات طباقًا واحد فوق الآخر، إذا كان واحد فوق الآخر لزم أن تكون السماء الثانية أوسع من الأولى؛ لأنها دائرة، الثالثة أوسع من الثانية، وهلُمَّ جرًّا، ولذلك قال عز وجل: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] كلما ارتفعت في السماوات اتَّسعت السماوات، وهي طباقٌ بلا شك، كما في القرآن الكريم، وكما جاء ذلك صريحًا في حديث المعراج، أما الأرض فهي طِباقٌ أيضًا بدليل: أن من اقتطع شبرًا من الأرض التي نحن عليها طُوِّقه من سبع أرضين، ولولا أن الأرض الثانية تحتها، والثالثة تحتها لم يُطوَّق الإنسان من سبع أرضين؛ لأنه ما غصَبَ إلا ظاهر الأرض، فتكون الأَرَضون طِباقًا، أما كيف هذه الطباق فإلى الآن لم نصل إلى علم بها، وعلماء الجيولوجيا الذين يحفرون إلى أعماق الأرض لا يطَّلعون على هذا، فهو مجهولٌ لنا، لكن الحديث: «طُوِّقَهُ يومَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِيْنَ» يدل على أنها طباق.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** إثبات هذين الاسمين لله تعالى، وهما: العزيز، والعليم، واعلم أن كل اسم من أسماء الله فهو مُتضمِّنٌ لصفة، العزيز متضمن لصفة العزة، والعليم متضمن لصفة العلم، وليس كل صفة يُشتق منها اسمٌ، ولهذا نقول: إن باب الصفات أوسع من باب الأسماء؛ لأنه يوجد صفات ليس لله منها أسماء، لكن لا يوجد اسم إلا وله منه صفة.



❁ قال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزُّخرُف: ١٠ - ١١].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [طرقًا] ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾ هذا ليس من كلام الذين سألهم النبي ﷺ، انتهى كلامهم عند قوله: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾، أما الذي جعل لكم الأرض مهدًا فهذا من كلام الله عز وجل، ومعنى ﴿جَعَلَ﴾ صيَّر ﴿لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي: كالمهد مُوطَّأة قرار يطمئن بها الإنسان.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: صيَّر لكم فيها سُبُلًا؛ أي: طرقًا، هذه الطرق تكون بين الشِّعاب والجبال حتى إنه لتأتي الرياح الشديدة وتبقى هذه الطرق معلومة، يُستدل على هذه الطرق بالجبال والشِّعاب والنجوم، كما قال عز وجل: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

وقوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لعل هنا للتعليل، ومن المعلوم أن (لعلَّ) تأتي للتعليل كما هنا، وتأتي للترجِّي، وتأتي للتوقُّع، والذي يُعيِّن المعنى هو سياق الكلام وقرائن الأحوال.

وقوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [إلى مقاصدكم في أسفاركم] أي: تعلمون الطرق، فالهداية هنا هداية الطرق، [إلى مقاصدكم في أسفاركم] الآن - والحمد لله - وُجِدت طرق مُمهَّدة بيِّنة من المدن والقرى وغير ذلك، كل ذلك من نعمة الله عز وجل.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ﴾ أي: أنزله شيئًا فشيئًا، فتجدون المطر ينزل من السماء نُقطًا ولو جاء كأفواه القِرَب لأفسد الأرض وهدَّم البناء، ولكن من رحمة الله عز وجل أن جعله ينزل شيئًا فشيئًا، ومع ذلك تسيل منه الأودية وهو على نقطة نقطة، لكن مع كثرته تسيل به الشِّعاب.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ﴾ السماء هنا المراد به: العلو، واعلم أن السماء يُطلَق على معنيين، المعنى الأول: العلو من حيث هو، والمعنى الثاني: السقف المحفوظ الذي هو

السماوات السبع، فقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤] المراد بالسماء هنا: السقف المحفوظ، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وأما قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فالمراد به: العلو؛ لأن المطر ليس ينزل من السماء نفسها، ولكنه ينزل من العلو، بدليل قوله: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والسحاب ليس في السماء لاصقًا، ولكنه بين السماء والأرض، وهو إلى الأرض أقرب.

وقوله: ﴿بِقَدَرٍ﴾ أي: [بقدر حاجتكم إليه، ولم يُنزِّله طوفانًا]، وفسَّره المؤلف: أي: بقدر ما تحتاجون إليه، وله معنى آخر، ﴿بِقَدَرٍ﴾ يعني: أنه مُقدَّر مُحدَّد حتى النقطة قد علِمها الله عز وجل، وعلِمَ كيف تنزل، وعلِمَ متى تنزل، وعلِمَ أين تنزل، كل شيء بقدر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] فيكون المعنى على هذا: أن هذا المطر الذي ينزل على كثرته وكثرة عدد نقاطه ينزل بقدر مُحدَّد، والمعنى الذي ذكره المؤلف معنى صحيح، والآية تحتمل هذا وهذا، والقاعدة عندنا في التفسير: أن الكلمة في القرآن وفي السنة أن الكلمة إذا كانت تحتمل معنيين على السواء ولا منافاة بينهما، فإنه يجب أن تُحمَل عليهما توسعةً للمعنى.

وقوله: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي: أحيينا، كما جاء ذلك في آيات أخرى في قوله: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ [ق: ١١] فإذن أنشرنا بمعنى: أحيينا، وهذا شيءٌ مُشاهَد، تجد الأرض قاحلةً مُجدِبةً ليس فيها خضراء، فإذا نزل المطر أصبحت تهتز من النبات من كل زوجٍ بهيج.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ [أي: مثل هذا الإحياء] ﴿تُخْرَجُونَ﴾ يعني: كما أنَّا أحيينا الأرض بالمطر فكذلك نُحييكم يوم القيامة، قال الله عز وجل في آية أخرى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ [فصلت: ٣٩] هامدة ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي: علت بنباتها ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

في هذه الآية فوائد:

١ - **منها:** بيان نعمة الله عز وجل؛ حيث جعل لنا الأرض مهادًا، ولو كانت صلبة ما استقررنا عليها، ولا حرثناها، ولا انتفعنا بها كثيرًا، ولو كانت رِخوة كذلك لم ننتفع بها، ولغاصت أقدامها فينا، ولكن من نعمة الله أنه جعلها كالمِهاد.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** نعمة الله علينا بما جعل لنا من الطرق في هذه الأرض على تباعُد أقطارها، ولكن بأي نستدل على الطرق؟ ذكرنا أنه يُستدل عليها بالشِّعاب، وبالجبال، وكذلك بالنجوم.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات حكمة الله عز وجل فيما يخلق، لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ وحكمة الله عز وجل فيما يخلق وفيما يشرع ثابتة، لكن من الحِكَم ما نعلم، ومن الحِكَم ما لا نعلم لقصور أفهامنا، ومن الحِكَم ما يعلمها كثيرٌ من الناس وتخفى على كثير آخرين.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الإشارة إلى أنه إذا كان المقصود الحِسِّي يحتاج إلى طرق، فكذلك المقصود المعنوي، وهو: الوصول إلى دار كرامة الله عز وجل، فإنه يحتاج إلى طرق، لابد أن نسلك هذه الطرق حتى نصِل إلى المقصود، فإن لم نسلكها فلن نصل إلى المقصود.

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

في هذه الآية فوائد:

١ - **منها:** قدرة الله عز وجل في إنزال المطر.

٢ - **ومنها:** رحمة الله عز وجل بإنزال المطر من فوق؛ لأنه لو كان من أسفل لغرقت الأرض السُّفلَى دون أن يصِل الماء إلى قِمم الجبال، ولكن الله تعالى جعله ينزل من فوق حتى يروي العالي والنازل، وإذا ارتوى العالي نزل إلى النازل.

٣ - **ومن فوائد الآية:** أن هذا الماء النازل من السماء ينزل بقدر على المعنيين اللَّذين ذكرناهما.

٤ - **ومن فوائد الآية:** أن الله تعالى يُحيِي الأرض بعد موتها بهذا الماء.

٥ - **ومن فوائد الآية:** إطلاقُ لفظ الموت على ما لا روح فيه؛ أي: ما لا روح فيه تُحِسّ، لقوله: ﴿بَلْدَةً مَيْتًا﴾ وإلا فمن المعلوم أن الأرض ليست كحياة الحيوان حياة إحساس؛ بل هي حياة نمو.

٦ - **ومن فوائد الآية:** قياس المعقول على المحسوس، وإن شئتَ فقل: قياس الغائب على الحاضر، لقوله: ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

٧ - **ومن فوائدها:** إثبات القياس، وأنه دليلٌ، لكن هل هو دليل عقلي، أو دليل

سمعي؟ الجواب: هو دليل عقلي ثابت بالدليل السمعي؛ وذلك لأن العقل ينتقل من المقيس عليه إلى المقيس، فهو دليلٌ عقليٌّ باعتبار كيفية الاستدلال به، ودليل سمعي لثبوته شرعًا.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزُّخرُف: ١٢ - ١٤].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ هذا عطف على ما سبق، وهو من باب عطف الصفات، وليس من باب عطف الذوات، والأصل في العطف: أن يكون بين المُتغايرَين في ذاتها، فإذا قام الدليل على أن الذات واحدة صار من باب عطف الصفات، اقرأ قول الله عز وجل: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ﴾ [الأعلى: ١- ٤] هذا العطف من باب عطف الصفات؛ لأن الموصوف واحد، لكن الأصل في العطف: أنه من باب تغايُر الذوات ما لم يقُم دليلٌ على أن المعطوف عليه شيءٌ واحد فيكون من باب عطف الصفات بعضها على بعض لموصوف واحد.

الآية التي معنا من أي القسمين؟ من باب عطف الصفات؛ لأن الموصوف واحد.

وقوله: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ الأزواج بمعنى: الأصناف، كما قال عز وجل: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] أي: أصنافهم، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ [ص: ٥٨]، كل الأصناف الخالق لها هو الله عز وجل، وإنك لتعجب حينما تأتي إلى روضة تجد هذه الأشجار بعضها زهرها أحمر، وبعضها أزرق، وبعضها أصفر ملونة، من الذي خلقها ولوَّنها؟ هو الله عز وجل.

ويحتمل في الآية معنى آخر ﴿خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ يعني: الشيئين المزدوجين اللَّذين يتولَّد بينهما ثالث؛ كالذكر والأنثى، والسالب والموجب، وما أشبه ذلك، الآية تحتمل المعنيين

جميعًا، وهما لا يتنافيان فتُحمَل عليهما.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ﴾ [السفن] ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [كالإبل] ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ﴾ بمعنى: صيَّر، وقوله: ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ مفعول ﴿وَجَعَلَ﴾ أي: جعل لكم من الفلك، وهي: السفن، السفن البحرية، وكان الناس لا يعرفون سواها فيما سبق، الآن جاءت السفن الجوية، وهي: الطائرات، أما الأنعام؛ فمثل: الإبل، والبغال، وغيرها مما يُركَب.

وقوله: ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي: الذي تركبوه، وهذه من نعمة الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ اللام لام العاقبة، وليست لام التعليل؛ لأنه من الممكن أن يكون عند الإنسان أنعام كثيرة، وإبل كثيرة ولا يركبها، لكن اللام للعاقبة، تأتي اللام للعاقبة في القرآن الكريم وغيره كثيرًا، ومنه: قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] اللام في قوله: ﴿لِيَكُونَ﴾ ليست للتعليل؛ لأن آل فرعون لم يلتقطوه لهذا الغرض، لكن التقطوه فصارت هذه النتيجة، وتُسمَّى اللام في مثل هذا: لام العاقبة.

وقوله: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ أي: تعلوا عليها، وتستقروا عليها.

وقوله: ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ يقول: [ذكَّر الضمير، وجمع الظَّهْر نظرًا للفظ ما ومعناها] جمع الظَّهْر، ولم يقل: على ظهره، وذكَّرَ الضمير، ولم يقل: على ظهورها [نظرًا للفظ ما ومعناها] لأن (ما) تصلح للمفرد وللجمع، فتارةً يُراعَى اللفظ، وتارةً يُراعَى المعنى، إذا رُوعِيَ اللفظ أُفرِدَت أُفرِد الضمير، وإذا رُوعِيَ المعنى صار بحسب المعنى المقصود، وكذلك (مَنْ) تارةً يُراعَى لفظها، وتارةً يُراعَى معناها، اقرأ قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ﴾ راعَى اللفظ أفردها، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ المعنى.

وقوله: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ أي: ظهور ما تركبون؛ من الفلك والأنعام، فجمعها باعتبار المعنى، وأفردها باعتبار اللفظ.

وقوله: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ لأنه إذا استوى الإنسان على الفلك، أو على الأنعام يتذكَّر نعمة الله عليه؛ حيث يسَّر له هذا المركوب، ولولا تيسير الله ما تمكَّن من هذا، لو جعل الله الإبل صعبة لا يمكن أن تُركَب ما انتفع الناس بها، ولو فُقِدَت السفن ما استطاع الناس أن يعبروا من يابسٍ إلى يابس، فليذكر الإنسان نعمة الله إذا استوى على ظهره.

وقوله: ﴿وَتَقُولُوا﴾ أي: بألسنتكم مُعترفين بقلوبكم ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ أي:

ذلَّله لنا ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾ [مُطيقين] ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ قال: [لمنصرفون].

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** نعمة الله عز وجل على عباده؛ حيث جعل لهم من الأنعام والفلك ما يركبونه، وذكرنا أن الفلك يشمل: الفلك الجوي والبحري، ويمكن أن نقول: والبري أيضًا؛ كالسيارات، فهذه أفلاك، فإذن الأفلاك جوية، وبحرية، وبريَّة.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تذليل الله عز وجل الأنعام لنا؛ حيث سخَّرها لنركبها ونُحمِّلها وهي ذليلة بين أيدينا، لقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ﴾.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه ينبغي للإنسان إذا ركب الأنعام وكذلك الفلك أن يجعل مركبَه مُريحًا، لقوله: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ إذ أنه لو لم يكن مُريحًا لم تتم النعمة، فينبغي أن يجعله مُريحًا بقدر الإمكان، وعلى حسب الحال.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه ينبغي للإنسان أن يتذكَّر نعمة الله عليه فيما سخَّر له من الفلك والأنعام، لقوله: ﴿ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ﴾ النعمة هنا مفرد مُضاف؛ فهل المراد: أن نذكر جميع النعم، أو نذكر النعمة المناسبة للحال؟ الظاهر: الثاني؛ لأن الإنسان قد لا يستحضر حينما يركب كل النعم؛ من الأموال، والأولاد، والأمن، والطمأنينة، ولكن يذكر النعمة الحاضرة.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** استحباب هذا الذكر عند الركوب، وهو: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾، فإن قال قائل: لماذا اختِيرت كلمة (سبحان) دون الله أكبر مثلًا؟ فالجواب: أن تسبيح الله يعني: تنزيهه عن كل نقص وعيب، بخلاف الإنسان، فإنه محتاج إلى الركوب، فهو ناقص، فناسَبَ أن يقول: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ حتى يتذكَّر بذلك أنه هو في حاجة إلى هذه المركوبات، وأن الله عز وجل مُنزَّهٌ عن الحاجة؛ لأنه لو قال قائل: لماذا لم يقل: ما أعظم منة الله عليَّ، أو الله أكبر؟ فالجواب: أنه لما رأى نفسَه محتاجًا إلى الركوب نزَّه الله عز وجل عن الحاجة، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن نذكر نعمة الله علينا بتسخير هذه الأنعام، لقوله: ﴿ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾ أي: مُطيقين، لولا أن الله سخَّر البعير لنا ما أطقناها، البعير أقوى منا، وأكبر منا جسمًا، لو أن الله سبحانه وتعالى جعلها صعبة؛ هل يمكن لأحد أن يستقر عليها، أو أن يُحمِّل عليها، أو أن يُدخِلَها إلى أي مكانٍ شاء، أو أ يُخرِجها متى شاء؟ لا، ولكن الله سخَّرها لنا.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** اعتراف العبد بقصوره وضعفه، لقوله: ﴿وَمَا

كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾ أي: مُطيقين.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الإنسان إذا ركِب هذه المركوبات يتذكر الركوب الذي هو غاية الدنيا، لقوله: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ وتفسير المؤلف رحمه الله لها بالانصراف؛ أي: ينصرفون إلى الله فيه قصور، والصواب: ما ذكرنا؛ أنك إذا ركبتَ فتذكَّر ركوبك على النعش حين تنقلب إلى الله عز وجل، فيكون في هذا تذكُّر للحال المُستقبل لبني آدم، وهي حال الانقلاب إلى الله عز وجل؛ هل هذا الذكر خاصٌّ بما إذا ركب في السفر أو هو عام؟ الجواب: عام، كلما ركبتَ السيارة، أو البعير، أو الطائرة فاذكر هذا ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾.



قال الله تعالى:

﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ١٥].

التفسير

ثم قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ﴾.

قوله: ﴿وَجَعَلُواْ﴾ الضمير يعود على مُشركي قريش؛ أي: صيَّروا ﴿لَهُۥ﴾ أي: لله ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ أي: من مخلوقاته، وجميع المخلوقات عبادٌ لله عز وجل، والمراد بالعباد هنا: الملائكة ﴿جُزۡءًاۚ﴾ أي: بعضًا منه؛ حيث قالوا: الملائكة بناتُ الله، واليهود قالوا: عُزيرٌ ابن الله، والنصارى قالوا: المسيحُ ابنُ الله، وقوله: ﴿جُزۡءًاۚ﴾ لأن الولد جزءٌ من أبيه، كما قال النبي ﷺ في ابنته فاطمة: «إِنَّهَا بَضْعَةٌ مِنِّي، يَرِيبُهَا مَا رَابَنِي»، هؤلاء المشركون - والعياذ بالله - جعلوا لله من عباده جزءًا، وتأمَّل قوله: ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ يتبيَّن لك أن كونهم عبادًا لله يمنع غاية المنع أن يكونوا جزءًا من الله عز وجل؛ لأن المعبود غير العابد، فلا يمكن أن يكون العابد جزءًا من المعبود.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ﴾ المراد: الجنس؛ يعني: إن جنس الإنسان لكفورٌ بيِّن الكفر، فلا يرِد على هذا أن يُقال: من الإنسان من هو مؤمن كامل الإيمان؛ لأننا نقول: إنه قد يُراد به الجنس، كقوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، والمؤمن ليس ظلومًا جهولًا، لكن جنس الإنسان ظلومٌ جهولٌ.

فإذا قال قائل: هل كل ما جاءنا مثل هذا التعبير نحمله على الجنس؟ فالجواب: لا نحمله على الجنس إلا إذا قام الدليل على هذا، وإلا فالأصل: العموم، فقوله: ﴿وَخُلِقَ

﴿ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ [النساء: ٢٨] هذا المراد به: الجنس، أو كل الإنسان؟ المراد: كل الإنسان، لكن إذا تعذَّر أن نحملها على العموم جعلناها للجنس، وأضرب مثلًا يتبيَّن به المقام: الرجل خيرٌ من المرأة، المراد: الجنس، وليس المعنى: كل واحدٍ من الرجال خيرٌ من كل امرأة من النساء؛ لأن من النساء من هي خيرٌ من كثير من الرجال، لكن المراد: الجنس؛ يعني: هذا الجنس خيرٌ من هذا الجنس.

ولذلك، فإن تفسير القرآن العظيم من أهم واجبات المسلمين أن يعرفوا معنى كلام الله سبحانه وتعالى؛ لأن الكلام إذا لم يُفهَم معناه لا يُنتَفع به، والذي يقرأ ولا يفهم بمنزلة الأُمِّي الذي لا يقرأ، كما قال الله عز وجل: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨] أي: إلا قراءة، فسمَّاهم الله: أُمِّيِّين.

والقرآن يُفسَّر بالقرآن، فإن لم يكن فبالسنة، فإن لم يكن فبأقوال الصحابة ولاسيما المشهورون منهم في علم التفسير، فإن لم يكن فبما قاله كبار التابعين من أهل التفسير، هذه هي القاعدة التي مشى عليها أهل السنة والجماعة، فأما التفسير بالرأي فمنهم المُخطِئ، ومنهم المُصيب، ولكن لا يجوز للإنسان أن يُفسِّر القرآن برأيه؛ بمعنى: أن يُحوِّل القرآن إلى رأيه، فإن من قال في القرآن برأيه فليتبوَّأ مقعده من النار.

مثال ذلك: الذين يُفسِّرون قول الله عز وجل: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] بأنهما النعمة، هؤلاء قالوا في القرآن برأيهم؛ لأن هذا المعنى غير مرادٍ قطعًا، وكذلك الذين يقولون: ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ يعني: استولى على العرش، فإن هذا منكر من القول، وتفسير الآية به من القول على الله بلا علم، من الافتراء على الله سبحانه وتعالى، هؤلاء نقول: إنهم قالوا في القرآن برأيهم؛ أي: حوَّلوا القرآن إلى رأيهم.

وأما من فسَّر القرآن بمُقتضى الحقائق الشرعية واللغوية إذا لم تكن حقيقة شرعية، فإنه لم يقُل في القرآن برأيه.

قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًا﴾، ﴿وَجَعَلُواْ﴾ الضمير يعود على المشركين، وعلى اليهود، وعلى النصارى، ﴿لَهُۥ﴾ أي: لله، ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ أي: مخلوقاته، ﴿جُزۡءًا﴾ أي: بعضًا، وذلك بقول المشركين: إن الملائكة بنات الله، وقول اليهود: إن عُزَيْرًا ابن الله، وقول النصارى: إن المسيح ابن الله، ووجه كونه جزءًا: أن الولد جزءٌ من أبيه، كما قال النبي ﷺ في ابنته فاطمة رضي الله عنها: «إِنَّهَا بَضْعَةٌ مِنِّي، يَرِيبُهَا مَا رَابَنِي» حينما تحدَّث الناس أن عليَّ بن أبي طالب يريد أن يتزوَّج عليها بنتَ أبي جهل، فأنكر النبي ﷺ ذلك، وقال: لا يمكن أن تكون ابنة نبي الله مع ابنة عدو الله.

إذن الجزء البعض، والقائل ثلاثة أصناف من الناس: المشركون، واليهود، والنصارى.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ المراد بالإنسان: الجنس، ﴿لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بيِّنُ الكفر، وذلك أن بانَ بمعنى: ظهر تكون بالهمز وتكون بغير الهمز؛ بمعنى: أنه يجوز لغةً أن تقول: بانَ الفجرُ، وأبانَ الفجرُ، وعليه فيكون معنى مُبين أي: واضح الكفر، ولا شك أن الذي يقول: الملائكة بنات الله، أو عيسى ابن الله، أو عُزَيرٌ ابن الله لا شك أنه كفر كفرًا بيِّنًا.

وتُستعمل أبان بالهمز مُتعديةً، يُقال: أبانَ الشيءَ بمعنى: أظهره، ومنه قوله تعالى: ﴿حمٓ ١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ الذي سبق في أول السورة؛ أي: المُظهِر للحقائق المُبيِّن لها.



❁ قال الله تعالى:

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ [الزُّخرُف: ١٦].

❁ التفسير ❁

﴿أَمِ﴾ هنا منقطعة؛ بمعنى: بل والهمزة، واعلم أن (أم) تأتي متصلة إذا كانت بين شيئين متساويين، ومنقطعة إذا كان ما بعدها منقطعًا عما قبلها، ففي قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦] هذه متصلة، وفي مثل هذه الآية: ﴿أَمِ﴾ منقطعة، المنقطعة النحويون بـ (بل)، والهمزة.

قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ قدَّرها المؤلف بمعنى: بل أيقولون، ولا حاجة لهذا التقدير؛ بل هو كلام من عند الله أنكره على هؤلاء؛ يعني: بل - على قولكم - اتخذ مما يخلق بنات؛ لأنهم قالوا: الملائكة بنات الله.

قوله: ﴿وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ وخصَّكم بها؛ لأنهم يقولون: البنات لله، والبنون لنا، فهل هذا عدل، هل هذا حق؟ هذا منكر وجور، على الأقل لو قالوا: إنهم سواء لكان أهون، مع أنه منكر، لكن يجعلون لله البنات ولهم ما يشتهون هذا غاية ما يكون من الجور والظلم.

قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ وهم: الملائكة الذين زعموا أنهم بنات الله ﴿وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ فالهمزة هنا مُقدَّرة للإنكار.

الفوائد:

في هاتين الآيتين فوائد:

١ - **منها:** أن الولد جزءٌ من والده، لقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾، ولذلك كان

الولد في التعصيب في باب الميراث مُقدَّمًا على الوالد؛ بمعنى: أنه لو مات ميت عن أبيه وابنه، فلأبيه الثُّلُث فرضًا، والباقي للابن تعصيبًا، فسهم الابن الآن خمسة من ستة، وسهم الأب واحد من ستة؛ لماذا؟ لأن الابن جزءٌ من أبيه، فقُدِّم.

٢ - **ومن الفوائد:** أنه يجوز للأب أن يتملَّك من مال ولده؛ لأن ولده جزءٌ منه، وإذا كان جزءًا منه صار كسائر جسده، ولهذا جاء في الحديث: «أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيْكَ»، فللأب أن يتملَّك من مال ولده ما شاء بشرط أَلَّا يكون الولد محتاجًا إليه، أو تتعلق به نفسُه؛ فمثلًا: إذا كان عند الابن أَمَة قد تسرَّاها، وتعلَّقت بها نفسُه، فإنه لا يجوز للأب أن يتملَّكها، مع أنه لا يمكن أن يطَأَها؛ لأنها حليلة ابنه، لكن حتى ولا يتملَّكها؛ لماذا؟ لأن حاجته متعلقة بها، كذلك لو تعلَّقَت بماله ضرورة؛ كابنٍ عنده مال أعدَّه للمهر حين يتزوَّج، فليس للأب أن يأخذ منه شيئًا، كذلك لو كان عنده سيارة أعدَّها لحاجته وضرورته، فليس للأب أن يتملَّكها، إنما يتملَّك الفضل فقط، دليل ذلك: قوله ﷺ: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ».

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان عتوِّ المشركين، واليهود، والنصارى؛ حيث جعلوا الذي لم يلِد ولم يُولَد ولم يكن له كُفُوًا أحد والدًا.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الإنسان بطبيعته كفورٌ مبين، هذا إذا جعلنا الإنسان للجنس، أما إذا جعلنا الإنسان يعود على الذين جعلوا لله من عباده جزءًا فإنه يكون خاصًّا، لكن المعنى الأول هو ظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] فأصل الإنسان: الظلم والجهل، إلا أن يمُنَّ الله عليه بالعلم والإيمان.

٥ - **ومن فوائد الآية الثانية:** الإنكار على هؤلاء الذين جعلوا لله ولدًا، لقوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾.

٦ - **ومن فوائدها:** أنه كيف يكون المخلوق ولدًا للخالق، ولهذا قال: ﴿مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾، وهذا لا يمكن؛ لأن المخلوق منفصل بائنٌ عن الخالق، فلا يصح أن يكون ولدًا له.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية:** الإشارة إلى جور القائلين بأن الملائكة بنات الله، لقوله: ﴿وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾؛ يعني: أَيُعقَل أن يكون هكذا؟!



❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: ١٧].

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿أَحَدُهُم﴾ يعني بذلك: قريشًا وأشباههم الذين يكرهون البنات، ويئدونهن.

قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم﴾ أي: إذا أُخبِر بأنه وُلِد له بنت، ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾.

وقوله هنا: ﴿بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ ولم يقل كما قال في الآية الثانية: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾ [النحل: ٥٨] لأنه سبقها ذِكر قول هؤلاء: إن الملائكة بنات الله، فضربوها مثلًا لله عز وجل، إذا بُشِّر أحدهم بهذا الذي ضربه مثلًا للرحمن ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ أي: صار وجهه مُسودًّا، وظَلَّ هنا بالظاء؛ يعني: بمعنى: صار، أما ضَلَّ التي هي بالضاد فهي بمعنى: تاه وضاع، تقول: ضَلَّ الطريق؛ بمعنى: تاه وضاع، أما ظَلَّ وجهه مسودا فهي بمعنى: صار وجهه مُسودًّا؛ أي: بعد أن كان أبيض.

وقوله: ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: مملوءٌ غيظًا وحزنًا.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** ذكر حال هؤلاء عندما يُبشَّرون بالبنات، أن الواحد منهم يتغيَّر ظاهره وباطنُه، ظاهره باسوداد وجهه، وباطنه بامتلائه غمًّا.

٢ - **ومنها:** التنديد التام بهؤلاء؛ حيث إنهم إذا بُشِّروا بالأنثى صارت لهم هذه الحال، وهم يدَّعونها للخالق عز وجل.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات اسم الرحمن لله عز وجل، والرحمن يعني: ذو الرحمة الواسعة، وهذا الاسم الكريم تُنكِره قريش، إذا قيل لهم: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]، ولما أراد النبي ﷺ أن يكتب كتاب الصلح في الحديبية، وقال للكاتب: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، أبى رسول قريش، وقال: إننا لا نعرف الرحمن، ولكن اكتب: باسمك اللهم، فقال النبي ﷺ: اكتُب: باسمك اللهم، وليس هذا من باب التنزُّل، ولكن من باب التأريخ وإمضاء المعاهدة.

قلنا: الرحمن يعني: ذو الرحمة الواسعة؛ فهل رحمة الله عز وجل تشمل الكافرين؟ فالجواب: نعم، لولا رحمة الله ما بقي الكافر لحظة واحدة، فالكافر مرحوم، والمؤمن مرحوم، لكن الفرق أن المؤمن مرحوم في الدنيا والآخرة، والكافر مرحوم في الدنيا قد

أغدق الله عليه النعم، وعجَّل له الطيبات، لكنه في الآخرة يُعامَل بالعدل ويُجازى بما يستحق، إذن نقول: الرحمة العامة تشمل الكافر والمؤمن، والخاصة تختص بالمؤمنين.

٤ - ومن فوائد هذه الآية: تغيُّر البشرة بما يسُرُّ أو يسوء، إذا بُشِّر الإنسان بما يسُرُّ فإن وجهه يبرُق من السرور، وتُحِسُّ بأنه مسرور به، والعكس بالعكس.

ويتفرَّع على هذه الفائدة: أن الجسم تبَعٌ للقلب، إذا استنار القلب وفَرِح فكذلك الجسم، والعكس بالعكس.

٥ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن المشركين لا يرضون بتقدير الله، فإنهم يتغيَّرون ظاهرًا وباطنًا، ظاهرًا باسوداد الوجوه، وباطنًا بالامتلاء ظنًّا.



قال الله تعالى:

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [الزُّخرُف:١٨ - ١٩].

التفسير

الهمزة للاستفهام، والواو حرف عطف، ومن اسم موصول؛ يعني: أوَالذي يُنشَّأ في الحلية؛ أي: يُربَّى فيها، ويحتاج إليها.

وقوله: ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي: غير مُظهِر لما في نفسه؛ يعني: كمن ليس كذلك، والإشارة بهذا الوصف إلى الأنثى؛ لأن الأنثى تُنشَّأ بالحلية، وتُحلَّى لتتجمَّل، وتحتاج إلى ما يُكمِّلها، وهي أيضًا ليست ذات خصومة؛ بل هي في الخِصام غير مبين، كمن ليس كذلك.

ومعنى ﴿يُنَشَّؤُا﴾ أي: يُربَّى، والحلية قال المؤلف: [أي: الزينة]، ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ عند الخصومة [غير مُظهِر للحُجَّة، لضعفه عنها بالأنوثة].

﴿أَوَمَن﴾ يقول: [همزة الإنكار وواو العطف بجملة؛ أي: أوَيجعلون لله] يعني: أن العطف هنا على تقدير يجعلون، بقي عندنا أين المُعادِل؟ المُعادِل: كمن ليس كذلك.

قوله: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ يعني: المرأة ليست جميلة بذاتها، ولكنها محتاجة إلى ما يُجمِّلها، ولهذا تجد النساء ليس لها همٌّ إلا الموضات، والتجمُّل، والتحسين، وما أشبه ذلك؛ لماذا؟ لأنها بنفسها قاصرة، كذلك أيضًا بقولها قاصرة ﴿وَهُوَ فِي

﴿ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ﴾ عند المخاصمة تكون ظلومة، لا تُظهِر الحُجَّة؛ لأنها ضعيفة بالأنوثة، بقي ما هو المُقابل؟ كمن ليس كذلك، كمن لا يحتاج إلى أن يُنشَّأ في الحلية، وكمن هو في الخِصام مُبين، وهو: الذَّكَر، المعنى: أن الله يُضيف لومًا إلى لومٍ على هؤلاء؛ حيث يجعلون لله القاصر في مقاله وفِعاله، ويجعلون لهم الكامل.

الفوائد:

في هذه الآية فوائد:

١ - **منها:** قصور المرأة، وأنه لا يمكن أن تُساوي الرجل في عقلها ودلِّها، لقوله: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ﴾.

٢ - **ومنها:** أن المرأة ليس لها همٌّ إلا التجميل والعناية بمظهرها.

٣ - **ومنها:** أن المرأة ليست ذات خصام؛ بل هي ضعيفة، لا تستطيع أن تُخاصِم، ولا تُبيِّن ما في قلبها من الحُجَّة، ولهذا لما تولَّت بنتُ كِسْرى على الفُرس، وبلغ ذلك النبيَّ ﷺ قال: «لَنْ يُفْلِحَ قَومٌ وَلَّوا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً»، واختلف الناس في معنى قوله: «لَنْ يُفْلِحَ قَومٌ وَلَّوا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً» هل هذا خاصٌّ بهذه القضية المعينة؛ بمعنى: أن هؤلاء لن يُفلِحوا؛ لأنهم ولَّوا أمرَهم امرأة، أو أن هذا عام لكل من ولَّى أمرَه امرأة؟ فإن نظرنا إلى العموم: «لَنْ يُفْلِحَ قَومٌ وَلَّوا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً» قلنا: هذا عام في كل قوم ولَّوا أمرهم امرأة، وإن نظرنا إلى القضية المعينة قلنا: هذا خاص، وإذا نظرنا إلى الواقع، فهل المرأة التي تتولَّى أمور الرجال هل تُفلِح؟ الجواب: إن أفلَحَت فذلك بمعونة الرجال، أو فلاحٌ نسبيٌّ؛ يعني: مثلًا: امرأة تكون رئيسة وزراء لن تُفلِح، لن يُفلِح قومها إلا بمُساندة الرجال لها، أو يقال: هو فلاحٌ نسبيٌّ، لو تولَّى غيرُها رجلًا لكان ذلك أفلحَ لهم.

وكذلك أيضًا لن يُفلِح إذا ولَّوا أمرهم في غير الرئاسة؛ كالوزارة مثلًا، ومن عرف النساء، وكثرة خصومتهن، ومشاكلهن إذا تولَّوا حتى إدارة المدرسة عرف أن المرأة لا تصلح أبدًا للولاية، اللهم إلا على بني جنسها، فهذا ربما؛ لأن الضعيف للضعيف.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية:** الثناء على الرجال؛ لأنهم إذا كانت النساء لا تكمُل بذاتها لا بالفِعال ولا بالمقال، فهذا يعني: أن الرجال كُمَّل، وانظر إلى قول الله تعالى: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢] أو من القانتات؟ بل من القانتين، يتبيَّن لك: أن القنوت والعبادة في الرجال أكثر، ولهذا جاء في الحديث: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيْرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَرْبَعٌ: آسِيَا امْرَأَةُ فِرْعَونَ، وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ، وَخَدِيْجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِدٍ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى سَائِرِ النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيْدِ عَلَى بَاقِي الطَّعَامِ»، كل هذا نريد أن يبقى في أذهاننا أن المرأة

قاصرة، وأن من يُحاولون أن يجعلوها كالرجال فإنهم مخالفون للفطرة والطبيعة، كما أنهم مُخالفون للشريعة.

خطب النبي ﷺ النساءَ في يوم العيد، يوم الفرح والسرور، وبيَّن حالهنَّ، فقال: «مَا رأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِيْنٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْكُنَّ»، مع أنه يوم فرح، ويوم سرور، كان من المُتوقَّع أن يُدخِل عليهم النبي ﷺ السرور، لكن لابد أن يُبيِّن حالهن.

الآن أولئك القوم من الكفار وغيرهم الذين ساووا النساء بالرجال في أكثر الأشياء أحوالهم غير مستقيمة، وغير تامة، مع أنهم لن يستطيعوا أن يُلحِقوا النساء بالرجال من كل وجهٍ، فإن هذا مستحيل.

قوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾، ﴿وَجَعَلُوا﴾ الضمير يعود على المشركين، ومعنى ﴿وَجَعَلُوا﴾ أي: صيَّروا، ولذلك نصَبَت مفعولين، ﴿الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾ الذين أتمُّوا العبودية على الوجه الأكمل؛ حيث وصفهم الله عز وجل بأنهم عبادٌ مُكرَمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ وذلك بقولهم: إن الملائكة.

بنات الله، انظروا هذا الافتراء، أولًا: افتروا بأنهم بنات الله، ثانيًا: افتروا بأنهم بنات، وما يُدريهم أن الملائكة بنات، لكن لما كان وصف الأنوثة وصفًا رديئًا قالوا: هم بنات، والبنون لهم.

قال الله عز وجل منكرًا عليهم: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ يعني: أحضروا خلقَهم وعرفوا أنهم إناث، والاستفهام هنا للإنكار أو للتحدي؛ يعني: أن الله أنكر عليهم، أو تحدَّاهم هل حضروا أو لا، وهذا كقوله تعالى: ﴿۞ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

قال تعالى: [﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ بأنهم إناث]، تُكتَب على أنها فِرْية وشهادة زور، ويُعاقَبون عليها، والسين هنا للتقريب والتحقيق، و﴿سَتُكْتَبُ﴾ لم يُبيِّن الفاعل فاعلَ الكتابة، فالله أعلم؛ هل يكتبها الله أو الملائكة؟ والظاهر أنهم الملائكة؛ لأن الملائكة مُوكَّلون بعمل بني آدم، يكتبون ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

قال المفسر: [﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ بأنهم إناث ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ عنها في الآخرة، فيترتَّب عليها العقاب].

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان افتراء هؤلاء المشركين من وجهين:

الوجه الأول: أنهم جعلوا الملائكة إناثًا، وما يُدريهم؟

الوجه الثاني: أنهم نسبوهم إلى الله عز وجل.

٢ - **من فوائد هذه الآية الكريمة**: تحدِّي هؤلاء المُفترين، لقوله: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾، والجواب: لا.

٣ - **من فوائد هذه الآية الكريمة**: تهديد أولئك المُفترين بأن شهادتهم ستُكتَب، ويُعاقَبون عليها، لقوله: ﴿سَتُكْتَبُ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية**: إثبات الحساب، في قوله: ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية**: أن أقوال الإنسان تُكتَب عليه كأفعاله؛ لأن الشهادة هنا قول.



قال الله تعالى:

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف:٢٠].

التفسير

قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ [أي: الملائكة، فعبادتنا إياهم بمشيئته، فهو راضٍ بها].

قوله: ﴿وَقَالُوا﴾ أي: المشركون، ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ﴾ (لو) هذه حرف امتناع لامتناع، لو شاء الله ما عبدناهم، لكنا عبدناهم لمشيئة الله، والعجب أنهم قالوا: ما عبدناهم، فإن كانوا يُريدون الملائكة فقد تناقضوا، وإن كانوا يُريدون الأصنام فهذا له كلام آخر.

إذا كانوا يريدون الملائكة فهم قالوا: ﴿مَا عَبَدْنَاهُم﴾ مع أنهم جعلوا الملائكة إناثًا، وكان مُقتضى ذلك أن يقولوا: ما عبدناهن، فيرجع الضمير إلى الملائكة ضمير المؤنَّث، أما إذا كان المراد: ﴿مَا عَبَدْنَاهُم﴾ أي: ما عبدنا آلهتنا، فلا إشكال.

قال الله عز وجل: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ [المقول من الرضا بعبادتها] ﴿مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ﴾ [ما] ﴿هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يكذبون فيه، فيترتَّب عليهم العقاب به].

قال الله: ﴿مِنْ﴾ هنا تُعرَب زائدةً إعرابًا، لكنها في المعنى مفيدة تفيد التوكيد، وسياق الكلام لولا القرآن لكان السياق: ما لهم بذلك علمٌ، لكن تُزاد الحروف لتوكيد النفي في هذه الآية؛ يعني: أن قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ قولٌ مبنيٌّ على الخرص والظن

والمُحاجَّة بالباطل، وإلا فهم عملوا وعبدوا بدون أن يعلموا أنه مكتوب عليهم؛ لأنه لا يُعلَم المكتوب إلا إذا وقع.

الفوائد:

في هذه الآية فوائد:

١ - **منها:** أن هؤلاء احتجوا بالقدر، فقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾.

٢ - **ومنها:** بطلان الاحتجاج بالقدر، لقوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾، وهنا سؤال: هل قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ هل هو صحيح؟ صحيح، لكن الاحتجاج به غير صحيح، لو شاء الرحمن ما عبدوهم؛ كقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٣] فهذا القول صحيح، لكن الاحتجاج به غير صحيح، وإنما قلنا: إنه صحيح؛ لأن الله تعالى يشاء كل شيء، كل شيء فهو واقعٌ بمشيئة الله، ولكن لا حُجَّة بشيء لا تعلمه أنت؛ إذ أنك لا تعلم أن هذا مُقدَّرٌ عليك إلا إذا وقع، فالقدر سرٌّ مكتوم لا يُعلَم إلا إذا وقع المكتوم.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** الرد على القدرية الذين يُنكرون أن الله تعالى يشاء أفعال العباد، فالقدرية وهم المعتزلة يقولون: إن الإنسان خالقٌ عملَه، مُريدٌ له، مُستقلٌّ به، وأن الله عز وجل لا إرادة له به، أيقول الله عز وجل: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ وتقولون أنتم: لا، قابلهم قومٌ آخرون وهم الجبرية، وقالوا: كل شيء واقع فهو بمشيئة الله، والإنسان مُجبَرٌ على العمل، وليس مختارًا، وهذا أيضًا قول باطل، كل يعرف الفرق بين الفعل الاختياري، وبين الفعل الاضطراري، كلنا يعرف الفرق بين أن ينزل الإنسان من السطح على الدرج شيئًا فشيئًا، وبين أن يتدحرج بدون اختيار منه، والجبرية يقولون: الكل سواء، ينزل باختيار، أو يتدحرج بغير اختيار، الكل سواء، ما حركة الإنسان إلا كحركة السَّعْفة في الريح، وهذا أيضًا قولٌ باطل، ولا يمكن أن تقوم به أمة، ولا أن تقوم به ملَّة، ولا أن تقوم به دنيا ولا أخرى، وإلا لو قلنا: كل إنسان يتسلَّط على آخر ثم يقول: هذا بقضاء الله وقدره، ما أملك، هل يرضى هؤلاء أن يأتي شخص ويرُضُّهم رضًّا، ثم يقول: هذا بقضاء الله؟ الجواب: لا، لا أحد يرضى بذلك.

ولما أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن تُقطَع يدُ السارق قال: مهلًا يا أمير المؤمنين! والله ما سرقتُ إلا بقدر الله، قال: ونحن لا نقطع يدك إلا بقدر الله، فكل إنسان يعرف أن الإنسان مختار، وله إرادة تامة بها يفعل، لو أنا أخذنا بقول الجبرية لكانت عقوبة الله للمُذنبين ظلمًا؛ لأنهم سيقولون: ربنا فعلنا هذا بغير اختيارنا، والذين يقولون: إن الله لا علاقة له بفعل العبد أيضًا هم مُخطِئون، ولهذا يُسمَّى هؤلاء القدرية يُسمَّون: مجوس هذه

الأمة؛ لماذا؟ لأنهم جعلوا للحوادث خالقَيْن؛ حوادث بشرية من خلق بشر، وحوادث إلهية من خلق الله عز وجل، فسُمُّوا مجوس هذه الأمة؛ لأن المجوس يقولون: إن الحوادث لها خالقان: الشر تخلقه الظلمة، والنور يخلق الخير، هذه عقيدة المجوس، وفي ذلك يقول المُتنبِّي في ممدوحه:

وكم لظلام الليل عندك من يدٍ ... تُخبِّرُ عنا المانويَّة تكذبُ

ظلام الليل ظلمة، وأنت أيها الممدوح لك الكرم في الليل والنهار.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن المُحتجَّ بالقدر لا علم عنده، كيف لا يكون عنده علم وهو يعلم أنه إنما وقع بمشيئة الله؟ فالجواب: هو إنما علِمَ بعد الوقوع، لكن قبل الوقوع لا يعلم، إذن لا حُجَّة له؛ لأن الحُجَّة دليل، والدليل لابد أن يسبق المدلول، فعلمهم لا حكم وليس بسابق.

٥ - **من فوائد هذه الآية الكريمة**: أن قولهم هذا مبنيٌّ على الكذب، لقوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يكذبون، ولنا أن نقول: ﴿يَخْرُصُونَ﴾ بمعنى: يظنُّون، كما قال عز وجل في آية أخرى: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.



قال الله تعالى:

﴿أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزُّخرُف:٢١].

التفسير

ثم قال الله عز وجل: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾ [أي: القرآن، بعبادة غير الله] ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾.

قوله: ﴿أَمْ﴾ بمعنى: بل، وهمزة الاستفهام، والمعنى: بل هل نحن آتيناهم كتابًا من قبل القرآن فهم به مُستمسكون؟ الجواب: لم يقع ذلك، فأول كتاب نزل على العرب وهو القرآن، وهو آخر كتاب؛ لأنه لم يُبعَث للعرب رسول إلا محمد ﷺ، كما قال عز وجل في دعاء إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٢٩]، ولهذا لو قال لنا قائل: هل في العرب رسول سوى محمد ﷺ؟ لقلنا: لا، ليس فيهم إلا واحد.

قوله: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** تكرار الحُجج بقدر إنكار الخصم، وكلما تكررت الحُجج ازداد الأمر قوةً.

٢ - **ومن فوائدها:** أنك إذا أتيت بدليل مُقنِع، فلا لوم عليك إذا أتيت بدليلٍ آخر وثالث ما دام المقام يقتضي ذلك، انظروا إلى الذين يجادلون أهل الباطل وبالأخص شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم كيف يأتون بالأدلة متتابعة متكاثرة مع أن المدلول يمكن أن يثبُت بدليل واحد من أجل التقوية، شيخ الإسلام ابن تيمية له كتابٌ اسمه: «التسعينية» في الرد على الأشعرية الذين قالوا: إن الكلام هو المعنى القائم بالنفس، أبطل رحمه الله هذا القول من تسعين وجهًا، ويكفي في إبطاله وجهٌ واحد، ولكن كلما تكرَّرت الأدلة قوِيَت الحُجَّة، لو أن شخصًا أتى وأخبر بخبرٍ وهو ثقةٌ صدَّقتموه، فإذا جاء آخر ازدادت الثقة، وإذا جاء ثالث ازدادت الثقة، ولهذا قال العلماء: إن المتواتر يفيد القطع لكثرة من رووه، المتواتر الذي يأتي من طرق كثيرة يُفيد القطع لكثرة الرواة.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه لم ينزل على العرب كتاب سوى القرآن، لقوله: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية:** منَّة الله عز وجل على العرب؛ حيث أنزل عليهم كتابًا واحدًا هدايةً للخلق أجمعين إلى يوم القيامة، بينما الرسل الآخرون تنزل عليهم الكتب هدايةً لأقوامهم، فهي - أي: الكتب - هداية في قوم معيَّنين، وفي وقت معيَّن، لكن هذا الكتاب - جعلنا الله وإياكم من المُتمسِّكين به - هذا نازل صالح لكل زمان ومكان وأمة.



❁ قال الله تعالى:

﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢].

❁ التفسير ❁

﴿بَلْ﴾ هذه للإضراب الانتقالي؛ يعني: انتقلوا إلى شيء آخر، [﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ مِلَّة، ﴿وَإِنَّا﴾ ماشون، ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ بهم، وكانوا يعبدون غير الله].

هذه حُجَّة من حُججهم، احتجُّوا في الأول بالقدر، الآن احتجُّوا بالقدوة، قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾.

قوله: ﴿أُمَّةٍ﴾ يقول: [مِلَّة] وقد ذكرنا أن أمة في القرآن تدل على عدة معانٍ، إذا قال قائل: هذه الكلمات التي تأتي لعدة معانٍ ما الذي يُعيِّن المعنى؟ السياق وقرائن الأحوال، إذا قلت لرجلٍ غنيٍّ: البس العباءة، ولرجل فقير: البس العباءة، هل تختلف العباءتان؟ الأول الغني؛ يعني: البس عباءة غني، والثاني: البس عباءة فقير، اختلف المعنى لحال المُخاطَب.

فالمهم: أن الذي يُعيِّن المعنى هو السياق، ومن ثمَّ قلنا: إنه لا مجاز في اللغة العربية إطلاقًا، ولا في القرآن أيضًا، والمسألة هذه فيها أقوال ثلاثة:

القول الأول: أن المجاز واقعٌ في اللغة العربية والقرآن، وهذا الذي عليه جمهور العلماء.

والثاني: أنه واقعٌ في اللغة، غير واقعٍ في القرآن، اختاره طائفة؛ منهم: الشيخ محمد الأمين الشنقيطي صاحب «أضواء البيان».

ومنهم من قال: لا مجاز في القرآن ولا في اللغة، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وتلميذه ابن القيم، وهذا هو الحق؛ لأن الكلمة ليس لها معنى ذاتي، الكلمة في ضمن جملة، فإذا دلَّت الكلمة في موقع ما على معنى من المعاني فهو الحقيقة، لو قلت: رأيت أسدًا يحمل حقيبة إلى المسجد ليقرأ، هل يمكن أن يتبادر إلى ذهن واحد من الناس أنه أسد؟ لا؛ بل لو ادَّعى هذا مُدَّعٍ لردَّ عليه كل أحد، ما الذي منع هذا؟ السياق، إذن الأسد هنا حقيقة في موضعها، وهي تدل على الشجاعة، بدل أن أقول: رأيت رجلًا شجاعًا يحمل حقيبة، أقول: رأيت أسدًا، وكثيرًا ما يحتج الناس يقولون: كيف لا يكون في القرآن مجاز، والله يقول: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧] أي: مائلًا، الجدار ما له إرادة.

فنقول: أولًا: نمنع قولك: الجدار ليس له إرادة؛ بل له إرادة بلا شك، قال الله عز وجل: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] فهل هذه المخلوقات تُسبِّح بإرادة أو بغير إرادة؟ بإرادة بلا شك، وإلَّا لم يكن في هذا ثناءٌ على الله.

ثانيًا: نقول: ما الذي يمنع الإرادة في الجماد، والنبي ﷺ ثبت عنه أنه قال في أُحُد - وهو جبلٌ حصى -: «جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ» فأثبت المحبة لهذا الجبل، والمحبة أخص من الإرادة.

ثالثًا: نقول: إرادة كل شيء بحسبه، فميلُ الجدار؛ يعني: أنه يريد أن يسقط؛ كميل

الإنسان نعرف أنه يريد أن يركع مثلًا، ولا مانع.

قالوا: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤] المعنى: تواضع لهما رحمةً بهما، فيقولون: الذل هل له جناح؟ نقول: أما الذل فهو أمرٌ معنويٌّ، والإنسان إذا لم يذِلَّ ترفَّع، وعلا بنفسه، فقال: اخفض جناح الذُّل بدل جناح الترفع، وذكر الجناح؛ لأنه هو الذي يطير به الطير إلى السماء، فالآية واضحة أن المعنى: تطامَن للوالدين وتذلَّل لهما، واخفض لهما الجناح، وهذا غاية ما يكون من التذلُّل لهما.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزُّخرُف:٢٣].

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ يعني: مثل هذا الذي قيل لك قيل لمن قبلك، والحكمة من هذا: تسلية النبي ﷺ من وجه، وإنذار هؤلاء المُكذِّبين له من وجه آخر، وأنه سيصيبهم ما أصاب غيرهم مما أصرُّوا على تقليد آباءهم بالباطل.

وقوله: [﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾ مُنعَّموها مثل قول قومك ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ مِلَّة ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ مُتَّبعون].

هذا الحكمة منه: هو تسلية النبي ﷺ وإنذار هؤلاء المُكذِّبين، أما جميع الأمم السابقة يقولون لأقوامهم: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ أي: على ملَّة، ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي: ما يسيرون عليه من الدين ﴿مُّقۡتَدُونَ﴾ أي: مُتَّبعون مُقلِّدون.

الفوائد:

في هذه الآية الكريمة فوائد:

١ - **منها:** تسلية النبي ﷺ بأن هذا الذي قيل له قد قيل لمن قبله؛ كقوله تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣].

٢ - **ومنها:** اتفاق أهل الباطل على هدف واحد، ألا وهو: تكذيب الرسل واتباع آبائهم.

٣ - **ومنها:** تحريم التقليد بالباطل، وأما التقليد بحقٍّ فلا بأس به، فإذا كان الرجل لا يعرف حكم المسألة في دين الله، وليس عنده قدرة على الاجتهاد فإن فرضه التقليد، لقول الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، ولقول الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وأما من حرَّم التقليد مطلقًا فقوله باطل مُخالفٌ للقرآن، وأما من ألزَمَ به مطلقًا فقوله باطل مخالفٌ لما يجب الإيمان به من اتباع الرسل، فالصواب: أن التقليد للضرورة جائز، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: التقليد بمنزل أكل الميتة؛ إن اضطُرَّ الإنسان إليه فهو جائز، وإلا فلا.

ولكن هل يمكن أن نقول للعامِّي صاحب السوق: اجتهد في هذه المسألة حتى تعرف حكم الله؟ لا يمكن، ولو بقي يجتهد لخَبَط، لكن فرضُه أن يسأل.

وهل يجوز التقليد في أصول الدين، أو في فروع الدين فقط؟ الجواب:

أولًا: تقسيم الدين إلى أصول وفروع حادثٌ لم يكن معروفًا في عهد الصحابة، ويدل على بطلانه: أنهم يجعلون الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج يجعلونها من فروع الدين، مع أنها أركان الإسلام، فالصواب: أن الشرع لا ينقسم إلى أصول وفروع، وأن هذا اصطلاحٌ حادث، لكنه ينقسم إلى أصول علمية وأصول عملية، فالأصول العلمية: هو الاعتقادات، والعملية: هو العبادات المُكلَّف بها، هذا هو الذي يدل عليه النص.

إذن نقول: قولنا: هل يجوز التقليد في أصول الدين وفروعه، أو في فروعه فقط؟ أصل التقسيم حادث مُبتَدَع، وإن كان عليه أكثر العلماء اليوم، وهو أيضًا غير صحيح، وجه بطلانه: أنهم جعلوا الصلاة، والزكاة، والحج، والصيام من فروع الدين، وهي أصل من الأصول الدين.

ثم نقول: التقليد فيما تُسمِّيه: أصل الدين وفروعه جائز، قال الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، والرسالة على تقسيم هؤلاء إلى أصول وفروع: من الأصول، ومع هذا يقول عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ اسألوهم: هل أرسلنا رجالًا، أو أرسلنا ملائكة؟ ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

والقاعدة: أن كل من عجز أن يُدرِك الحق بنفسه وجب عليه التقليد، سواء في الأمور العلمية أو العملية، لا فرق.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن هؤلاء القوم المُكذِّبين للرسل ليس لديهم حُجَّة إلا مجرد ما كان عليه آباؤهم، وهذا ليس بحُجَّة، وعلى هذا فلا يجوز الاحتجاج بعمل الناس، كما يفعله بعض القوم، فإذا نهيتَه عن شيء قال: كل الناس يفعلونه، هذا

ليس بحُجَّة، ولا يمكن أن تُقابل الله بهذه الحُجَّة، لا يمكن أن ينفعك هذا عند الله، قل: هذا دلَّ الكتاب على جوازه، أو هذا دلَّت السنة على جوازه، أما كل الناس يفعلونه فلا.



قال الله تعالى:

﴿ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الزُّخرُف:٢٤].

التفسير

ثم قال الله عز وجل: [﴿قَٰلَ﴾ أي: لهم ﴿أَوَلَوۡ﴾ تتبعون ذلك ﴿جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ أنت ومن قبلك ﴿كَٰفِرُونَ﴾].

قوله: ﴿قَٰلَ﴾ أي: الرسول الذي يُرسله الله عز وجل، ويُقابَل بأنهم وجدوا آباءهم على أمة، قال لهم: ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾ يعني: أترُدُّون قولي، وتتبعون ما كان عليه آباؤكم ولو جئتكم بأهدى منه؟ والاستفهام هنا واضح أنه للإنكار والتوبيخ؛ يعني: كيف تتبعون ما عليه آباؤكم وأنا قد جئتكم بأهدى؟

وقوله: ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾ وهو شرع الله عز وجل، ومع هذا الرد واحد ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ وهذا غاية ما يكون من العناد؛ يعني: حتى ولو جئتنا بأهدى مما وجدنا عليه آباءنا فإنا كافرون، ولا نقول كما قلنا أولًا: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾؛ بل نقول: كافرون مطلقًا، وهذا أبلغ ما يكون في العناد، وهذا كقول الذين استكبروا من قوم صالح: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٦].

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** بيان معالجة الرسل عليهم الصلاة والسلام للمُكذِّبين، أنهم يُدلون عليهم الحُجج المُقنعة، ولكن الكافرون يُعاندون.

٢ - **ومنها:** جواز التفضيل بين شيئين قد لا يكون في الطرف الآخر شيء من المعنى، لقوله: ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾ أهدى اسم تفضيل، ومع ذلك فإننا نقول: ما وجدوا عليه آباءهم ليس فيه هدى، لكن التنزُّل مع الخصم لا بأس به، وإن لم يكن في الطرف الآخر شيء، انظر إلى قول الله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [النمل:

٥٩] هذه الأصنام، هل في الأصنام خير؟ لا، لكن من أجل مجادلة الخصم نقول لهم: هل الله خيرٌ أم آلهتكم؟ وإنا نعلم أن آلهتهم ليس فيها خير.

هنا قال: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ نعلم أن ما كان عليه آباؤهم ليس فيه هدى؛ بل هو ضلال، ولكننا نخاطب من يرى أنه هدى، فنخاطبه على قدر ما عنده من الفهم، ومن ذلك: ما يستعمله شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من العلماء في مجادلة أهل الكلام؛ حيث يتمشَّى فيما يُجادلهم به على حسب اصطلاحهم، وإن كان يمكن أصل ما هم عليه لكن المجادلة مع الخصم لا بأس أن ينزل الإنسان على حسب فهم الخصم حتى يكون ذلك أبلغ في الاحتجاج عليه.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن أولئك المُعاندين الذين يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم ليس عندهم نيَّة في أن يؤمنوا؛ لأنهم لما غُلِبوا في الحُجَّة ماذا قالوا؟ ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ يعني: لن نؤمن مهما أتيتم من الحُجَّة فلن نؤمن، وهذا غاية ما يكون من الاستكبار عن الحق.



قال الله تعالى:

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الزُّخرُف:٢٥].

التفسير

قوله: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: أنزلنا بهم النقمة، وهي: العقوبة، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ انظر يا محمد، أو انظر أيها المُخاطَب كيف كان عاقبة المُكذِّبين، إذا نظرنا وجدنا العاقبة: الهلاك والدمار، فلنعتبر.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان قدرة الله عز وجل، وأنه تبارك وتعالى يُملِي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلِته، فإن الله قادرٌ على أن ينتقم منهم لأول مرة، لكن يُملِي للظالم، فإذا أخذه أخذَه أخْذَ عزيزٍ مُقتدر.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الأمر بالاعتبار والنظر في الأمور، لقوله: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ النظر هنا نظر عين أو نظر قلب؟ نظر قلب.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن عاقبة المُكذِّبين: الهلاك والدمار؛ لأن الله أهلك كل

المُكذِّبين، أهلك قوم نوح، قوم هود، قوم صالح، قوم لوط، فرعون، كل المُكذِّبين أهلكهم الله عز وجل، لكن هذه الأمة - ولله الحمد - جعل الله هلاك عدوها على يدها، وذلك بالحروب؛ لأن هلاك عدوك على يدك أشفى من هلاكه من عند الله عز وجل، أشفى للقلب، ولهذا كان هلاك المُكذِّبين للرسول محمد ﷺ على أيديهم، كما قال عز وجل: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٤- ١٥].

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تحذير هذه الأمة من تكذيب رسولها أن يُصيبهم ما أصاب غيرهم.



قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٢٦ - ٢٨].

التفسير

قوله: ﴿وَإِذْ﴾ مفعول لفعل محذوف، التقدير: واذكر إذ قال إبراهيم، وإنما ذكر إبراهيم؛ لأن إبراهيم تنتمي إليه جميع الأمم، اليهود قالوا: إنه يهودي، والنصارى قالوا: إنه نصراني، والعرب قالوا: إنه متبعٌ ملَّتنا، فأراد الله أن يُبيِّن أن إبراهيم عليه السلام كان بريئًا من الشرك وأهله، قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ إبراهيم الخليل عليه السلام هو إمام الحنفاء الذي قال الله تعالى فيه لنبيه محمد ﷺ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ لأبيه وهو آزر، وقومه الذين أُرسِل إليهم، وقد ذكر الله تبارك وتعالى مُحاجَّة إبراهيم لأبيه في سورة مريم على وجهٍ مبسوط، وفي غيرها على وجهٍ مختصر أحيانًا، ومتوسطٍ أحيانًا، فجرت محاورة بينه وبين أبيه في سورة مريم، فقال عز وجل: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤١- ٤٢] إن دعوتَه لم يسمعك، وإن وافقتَه لم يرَك، وإن استعنتَ به لم ينفعك، ولم يُغنِ عنك شيئًا، ثم قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ

جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ الخطاب الآن مبني على الترقيق والتلطيف، والتنزُّل أمام الأب، ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ ولم يقل: إنك جاهل وأنا عالم؛ بل قال: ﴿إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ وهذا من أدبه عليه السلام، جاءه من العلم: الوحي، وأبوه ليس كذلك، جاءه من العلم: التوحيد، وأبوه ليس كذلك، الولد يقول لأبيه: ﴿فَاتَّبِعْنِي﴾ لأن الابن معه الحق، والأب ليس كذلك ﴿أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾، ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ يعني: تعبُد الشيطان عبادة الطاعة، وكل من أطاع شيئًا فقد عبَدَه على حسب الحال ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ أي: عاصيًا، ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ أي: يُصيبك ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ فجعل ولايته للشيطان من العذاب؛ لأن إعراض الإنسان عن الحق مُصيبة ببعض الذنوب، كما قال عز وجل: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩]، نحن نظن أن العقوبات هي البلاء ينزل بالإنسان؛ من مرض، وفقر، وفقد صديق، وما أشبه ذلك، وهذا حق، عقوبة، لكن هناك عقوبة أشد، وهي: الإعراض عن الحق ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾، هذا أعظم من عقوبة البلاء الحِسِّي الجسدي، ولهذا قال: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ ماذا كان جواب الأب؟ جوابٌ قاسٍ، قال: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [مريم: ٤٦] فأنكر عليه الرغبة، ولهذا قال أهل البلاغة: الذي يلي همزة الاستفهام هو المنكر؛ يعني: لم يقل: يا إبراهيم أراغبٌ؛ بل بدأ بالإنكار على الطريقة قبله ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ وهذا استفهام إنكار وتوبيخ، ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ يعني: عن دعوتك إيَّاي إلى التوحيد ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ وعيد يقوله الأب لابنه، وابنه يترقَّق له، يتحنَّن إليه بقوله: يا أبتِ، يا أبتِ، وهذا جواب الأب.

وهذا القول: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ قاله أيضًا غيره من المُكذِّبين للرسل، فرعون قال لموسى: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

قال: ﴿وَاهْجُرْنِي﴾ اتركني ﴿مَلِيًّا﴾ أي: زمنًا طويلًا؛ يعني: يقول: دعني على ما أنا عليه ولا تُكلِّمني، ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ هذه النهاية من إبراهيم، فما أحلمه عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ فاستغفر له حتى نهاه الله عز وجل.

الشاهد من هذا: أن أبا إبراهيم كان مشركًا، اسمُه: آزر، كما قال عز وجل: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ [الأنعام: ٧٤]، العجب أن بعض الناس – نسأل الله العافية – حرَّف كلام الله عما أراد الله بناءً على هواه، فقال: أبو إبراهيم ليس مشركًا؛

بل هو على التوحيد، ولا يمكن أن يكون أبو النبي مشركًا، وآزر هو عمُّه وليس أباه، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوَّأ مقعده من النار، كيف نقول: ليس أباه؛ بل هو عمُّه، وهو يقول: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾؟ كيف نقول: إنه عمه، وهو يقول: ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾؟ أما يستحي قائل هذا القول، أما يتقِ الله عز وجل من تحريف الكلِم عن مواضعه، بناءً على عقيدة فاسدة: أن أبا الرسول لا يمكن أن يكون كافرًا، فنقول: تأمَّل؛ كون أبِي الرسول كافرًا وابنُه نبي أعظم دليل على قدرة الله عز وجل، وأنه يُخرِج الحيَّ من الميت، وأن النَّسَب لا ينفع أصحابه؛ بل نقول: أبو إبراهيم كافر، وأبو محمد كافر، ماذا يضر النبي لو كان أبوه كافرًا؟ لا يضره شيئًا؛ بل هذا أكبر دليل على كمال قدرة الله عز وجل، وأنه يُخرِج هؤلاء الأنبياء من أصلاب هؤلاء الكفار، لكن الحمد لله ما خرج نبيٌّ أبدًا من سِفاح، أما مسألة الكفر والإيمان فهذا لا يُعدُّ انتهاكًا لأعراض الأنبياء.

فالشاهد من هذا: أن إبراهيم عليه السلام قال لأبيه صراحةً وقال لقومه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ المُفسِّر قال: [بريء] وهذا نقص من المُفسِّر؛ لأن براء صفةٌ مُشبَّهة، وبرئ اسم فاعل، وأيهما أعظم؟ الصفة المُشبَّهة أعظم؛ لأنها تدل على الدوام والثبات والاستمرار، فبَراءٌ أعظم من برئ؛ يعني: صفة البراءة الصفة الدائمة المُستمرة مما أنتم عليه.

قوله: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ الجملة هذه مؤكَّدة بـ (إن)، وبراء صفةٌ مُشبَّهة، وعهي أبلغ من كلمة: [برئ]؛ لأن الصفة المُشبَّهة تقتضي الدوام والثبوت.

وقوله: ﴿مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ أي: الذي تعبدونه ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ والمراد بما يعبدونها: الأصنام التي ينحتونها هم بأيديهم، ثم يعبدونها، ولهذا قال لهم إبراهيم عليه السلام في جملة مناظراته: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥- ٩٦] فكيف تعبدونه وهي مخلوقة؟ كيف تعبدونها وأنتم الذين تنحتونها؟

وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ (إلا) أداة استثناء، لكن هل الاستثناء هنا منقطع أو هو متصل؟ فالجواب: إن كانوا يعبدون الله وغيره فالاستثناء متصل، وإن كانوا لا يعبدون الله فالاستثناء منقطع، والاستثناء المنقطع هو الذي يكون بعد (إلا) من غير جنس الذي قبلها، هذا هو الاستثناء المنقطع، ومثَّل له النحويون بقوله: جاء القوم إلا حمارًا، فيكون استثناءً منقطعًا، أما إذا قيل: جاء القوم إلا زيدًا، فالاستثناء هنا متصل؛ لأن (زيدًا) من جنس المُستثنَى منه.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ لم يقل: إلا الله، من أجل أن يُقيم الدليل على أنه لا يستحق العبادة إلا هو، فالذي فطَرَك أول مرة وأوجدك من العدم هو الذي يستحق أن يُعبَد، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] ومعلوم أن الرب

خالق، لكنه أتى بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ وهو معلوم ليُقيم الحُجَّة على أنه المستحق للعبادة وحده.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ قال المؤلف: [خلقني] ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ [يُرشِدني لدينه] والهداية نوعان، كما سيأتي - إن شاء الله - في بيان الفوائد.

ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

قوله: ﴿وَجَعَلَهَا﴾ [أي: كلمة التوحيد المفهومة من قوله: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩]] ﴿وَجَعَلَهَا﴾ الضمير يعود على الكلمة، وما هي الكلمة التي قالها؟ قال المُفسِّر: هي قوله: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ وهذا غلط من المؤلف، الكلمة التي قالها هي أقرب كلمة، وهي: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ وهي كلمة التوحيد، أما قوله: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ فلا علاقة لها في الآية.

ومعنى قوله: ﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي: صيَّرها هي الطريق التي يسير عليها من بعده ﴿كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ عقِب من؟ عقِب إبراهيم، قال: [ذريَّته، فلا يزال فيهم من يُوحِّد الله] كذا قال المؤلف أن المعنى: أن هذه الكلمة ستبقى في ذريته، ولا يمكن أن تُشرِك الذرية كلها؛ بل لابد أن تبقى، والصواب خلاف هذا، الصواب: أن المعنى: جعل هذه الكلمة هي الكلمة الوحيدة التي يسير عليها من بعده، سواء التزموها أم لم يلتزموها.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ [أي: أهل مكة] ولو قيل: عقِبه؛ لأن الآيات ما فيها ذكر أهل مكة؛ بل فيها ذكر العقِب، ومعلوم أن أهل مكة من عقِبه، وأن بني إسرائيل من عقِبه، فإذا قلنا: إن الضمير في ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يعود على عقِبه صار أعم مما قال المؤلف؛ لأن المؤلف خصَّها بجزءٍ من العقِب، وهذا قصورٌ بلا شك، ولهذا اتَّخذ هذه القاعدة: لا تُفسِّر القرآن بأخص مما يدل عليه؛ بمعنى: إذا كان القرآن يدل على شيء عام فلا تُخصِّصه إلا إذا كان هناك دليل، وإلا فأبقِه على عمومه، إذن ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الضمير يعود على العقِب، من قريش وبني إسرائيل.

لكن ما معنى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً﴾؟ على كلام المُفسِّر رحمه الله؛ يعني: أنها ستبقى هذه الكلمة في العقِب، فلا يمكن أن يُفقَد منهم التوحيد، والصواب: أنه جعلها جعْلَ شرعيًّا؛ بمعنى: أنه عهِد إلى عقِبه أن يُوحِّدوا الله عز وجل، فمنهم من أطاعه، ومن عصاه.

الفوائد:

١ - **يُستفاد من هذه الآية الكريمة:** مزيَّةٌ عظيمة لإبراهيم عليه السلام، وهي: إعلانه بالبراءة مما يعبد قومه، ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾.

٢ - **ومنها**: التوحيد الخالص في إبراهيم؛ لقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ وهذا معنى قوله: لا إله إلا الله، فقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ﴾ بإزاء (لا إله)، وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ بإزاء (إلا الله) إذن هذه الكلمة ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ بمعنى: لا إله إلا الله تمامًا.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنه ينبغي للإنسان أن يقرِن الحكم بالدليل؛ لأنه أبلغ، ذلك حين قال إبراهيم: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: قوة الرجاء؛ أي: رجاء إبراهيم بالله عز وجل، لقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ والسين هذه تدل على التحقيق، والهداية نوعان:

النوع الأول: هداية الدلالة، وهذه تكون من الله، ومن عباد الله.

والنوع الثاني: هداية التوفيق للحق، وهذه لا تكون إلا من الله عز وجل، لا أحد يملكها.

ثم الآيات الواردة في هذا منها ما يتعيَّن حمله على هداية التوفيق، ومنها ما يتعيَّن حمله على هداية الدلالة، ومنها ما يشمل الأمرين، فقول المصلي: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ يشمل الأمرين: هداية الدلالة، وهي: العلم، وهداية التوفيق، وهي: العمل، فهل أنت أيها المصلي تشعر بهذا إذا قلت: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أو تشعر بأنك تتلو قرآنًا فقط؟ الثاني غالبًا، أكثر الناس يقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ يقرأها على أنها آية تُقرَأ لا يشعر بأن المعنى: اهدني علِّمني، وفِّقني للعمل، استشعر هذا الشيء حتى تعرف على أي شيءٍ تُؤمِّن.

مثال هداية الدلالة وحدها: قول الله تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] هذه هداية دلالة؛ يعني: تدل الناس إلى الصراط المستقيم.

ومثال هداية التوفيق: قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] يقول للرسول ﷺ: لن تُوفِّق أحدًا للهداية ولو كنتَ تُحبُّه، ولهذا حاول النبي ﷺ حين حضر عمَّه أبا طالب وهو في سياق الموت، حاول أن يُوحِّد الله ولكن عجز، قال في سياق الموت: «يَا عَمِّ ! قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ» وكان عنده رجلان من قريش جليسا سوء، فقالا لأبي طالب: أترغب عن ملَّة عبد المطلب؛ يعني: جدَّك الذي تفتخر به قريش، فكان آخر ما قال: هو على ملَّة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فما هي الهداية التي عجز عنها النبي ﷺ في هذا؟ هداية التوفيق، أما هداية الدلالة فقد قال: قُلْ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، قال الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] من أي النوعين؟ هداية الدلالة، قوله تعالى: ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ

مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام: ٨٧] يشمل الأمرين جميعًا.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تمام نصح إبراهيم عليه السلام لعقِبه؛ حيث جعل كلمة التوحيد باقيةً فيهم، وهذا بمنزلة الوصية للعقِب أن يقوموا بهذه الوصية.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الرجوع إلى ما كان عليه الأسلاف من الحق، لقوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾.



قال الله تعالى:

﴿بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ﴾ [الزُّخرُف: ٢٩].

التَفسِير

ثم قال الله عز وجل: ﴿بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ﴾ بل هذه للإضراب الانتقالي لبيان منة الله عز وجل على قريش، ﴿بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [المشركين] أي: أبقيتُهم ﴿وَءَابَآءَهُمۡ﴾ [ولم أعاجلهم بالعقوبة]؛ بل أبقاهم بدون عقوبة مع شركهم، وكفرهم، واتخاذ الأصنام؛ كاللات، والعزى، وهُبَل، ومناة ﴿حَتَّىٰ﴾ للغاية؛ يعني: إلى أنه جاءهم الحق ورسولٌ مبين.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ يقول: [القرآن] والصواب: ما هو أعم، القرآن، والإسلام، والسنة، فهو أعم مما قاله المؤلف، ونحن نقول بالقاعدة التي أشرنا إليها قبل قليل، وهي: إبقاء القرآن على عمومه لا نُخصِّصه، فنقول: جاءهم الحق؛ أي: الذي أتى به رسول الله ﷺ من القرآن والسنة وغير ذلك من الشريعة.

وقوله: ﴿وَرَسُولٞ مُّبِينٞ﴾ [مُظهِر لهم الأحكام الشرعية، وهو محمد ﷺ] ﴿وَرَسُولٞ﴾ نكَّره للعلم به، ونكَّره للتعظيم، وقوله: ﴿مُّبِينٞ﴾ أي: مُظهِر للأحكام الشرعية، والأمر كما قال الله عز وجل.

الفوائد:

١ – **من فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان أن الله عز وجل بيده كل شيء، إن شاء متَّع الناس وأبقاهم، وإن شاء ألكهم، لقوله: ﴿بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ فالتمتيع عائدٌ إليه وحده.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله عز وجل له الحكمة في إبقاء الكافر على وجه الأرض، وإلا لأهلكه، لكن له الحكمة، من الحكمة: أن يأتي حقٌّ فيؤمن به فيسعد

في الدنيا والآخرة، ومن الحكمة في بقاء الكفار: أن يكون في ذلك امتحان للمؤمنين مع هؤلاء الكفار بجهاد الكفار، وظهور نعمة الله عز وجل على المسلمين بالإسلام.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن ما جاء به النبي ﷺ فهو الحق، إن كان أخبارًا فهي صدق، وإن كانت أحكامًا فهي عدل، وليس فيما جاء به النبي ﷺ باطل، كله حق.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن محمدًا ﷺ رسول الله حقًّا.

٥ - **ومن فوائدها:** أن النبي ﷺ بيَّن كل ما تحتاج أمته إليه؛ من خيرٍ فتفعله، ومن شرٍّ فتتركه، قال أبو ذرٍّ رضي الله عنه: لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يُقلِّب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا، وإذا شئت مصداق هذا القول فانظر إلى الشريعة الإسلامية قد جاءت بتقرير التوحيد، وهذا أعظم ما يكون، جاءت ببيان الصلاة، والزكاة، والحج، والصيام، جاءت بآداب الأكل والشرب.

جاءت بآداب التخلِّي منهما - يعني: من الأكل والشرب -، جاءت بآداب اللباس، حتى لُبس الثوب جاءت الشريعة به، تُدخِل الكُمَّ الأيمن ثم الأيسر، وتخلع الأيسر قبل الأيمن، جاءت بآداب معاملة الناس بعضهم مع بعض، كل شيء دقيق أو جليل فالشريعة جاءت ببيانه، ولله الحمد، لكن يضل من يضل، ويهتدي من يهتدي.



قال الله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٣٠].

التفسير

قال الله عز وجل: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ لما جاءهم الحق قالوا: هذا سحر، ويعنون به: القرآن؛ لأن القرآن أبيَن الكلام، وأفصح الكلام، وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»، ولهذا كانت قريش تأتي خُفْية في الليل لتستمع قراءة النبي ﷺ، أخذ بألبابها، وجرَّها جرًّا عنيفًا إلى استماعها، فقالوا: هذا سحر، سَحَرَنا محمد، محمد ساحر، كاهن، مجنون.

قوله: ﴿قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أكَّدوا أنهم كافرون به؛ لأنه - على زعمهم - سحر، وإذا كان القرآن سحرًا فالذي جاء به يكون ساحرًا، ولهذا لقَّبوا النبي ﷺ بألقاب السوء حتى ينفر الناس من دعوته، ولكن والحمد لله كلما أحدثوا شرًّا أحدث الله خيرًا.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** شدة عناد المُكذِّبين للرسول ﷺ؛ حيث زعموا أن ما جاء به سحر، مع أنه حقٌّ.

٢ - **ومن فوائد الآية:** شدة عنادهم؛ حيث أعلنوا إعلانًا صريحًا أنهم كافرون به، ﴿قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾.



قال الله تعالى:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣١ - ٣٢].

التفسير

قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا﴾ [هلَّا] ﴿نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

﴿لَوْلَا﴾ بمعنى: هلَّا، ولها أمثلة؛ مثل: قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ [النور: ١٣] أي: هلَّا جاءوا عليه بأربعة شهداء.

وقوله: ﴿نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ﴾ هذه علَّة أخرى لردِّهم القرآن، يقولون: لو كان هذا القرآن نزل على رجل عظيم من القريتين، وهما: مكة والطائف لكنا قبِلناه، لكنه لم ينزل على رجلٍ عظيم من القريتين، فلا نقبله، وسبحان الله ! ما أعظمَ عنادهم، إن محمدًا ﷺ هو أعظمُ رجلٍ في قريش، إن نظرتَ إلى سلسلة آبائه وجدتَ الأمر كذلك، وإن نظرتَ إلى خُلُقه ومعاملته وجدتَ الأمر كذلك، حتى كانوا يُلقِّبونه بـ (الأمين)، ولما جاءهم الحق صار كذَّابًا، صار ساحرًا، صار مجنونًا، صار كاهنًا، إذن تعلَّلوا الآن بالعلة الثانية، وهي: قالوا: لو أن هذا القرآن نزل على رجل عظيم من أهل الطائف أو أهل مكة لقبِلناه، ولكن نزل على محمد، وليس عظيمًا في قومه، فلا نقبله.

يقول المفسر: ﴿الْقَرْيَتَيْنِ﴾ [من أيَّة منهما] إما أهل مكة، وإما الطائف ﴿عَظِيمٍ﴾ أي: مُعظَّم في قومه، ثم سمَّاهم فقال: [الوليد بن المغيرة بمكة، أو عروة بن مسعود الثقفي بالطائف] هذا التعيين يحتاج إلى دليل، فإذا صحَّ من حيث التاريخ أن أهل مكة يعنون

هذين الرجلين، فلا غرابة، وإلا فتبقى الآية على إبهامها، وأنهم تعلَّلوا بهذه العلة الباطلة بأن القرآن لم ينزل على رجلٍ عظيم من القريتين.

ثم قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ الاستفهام هنا للنفي؛ يعني: ليسوا هم الذين يقسمون رحمة الله، فيُوزِّعونها كيف شاءوا، ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء؛ يعني: هل هم الذين يقسمون رحمة الله، فيجعلون لهذا حظًّا، ولهذا حظًّا، أو يقولون: هذا يستحق، وهذا لا يستحق؟

وقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ قال المؤلف: [بالنبوة] وهذا أيضًا مما يُؤخذ على المؤلف؛ كيف ذلك؟ خصَّه بالنبوة، ونحن نقول: بالنبوة وغيرها، هم لا يقسمون رحمة الله لا بالنبوة، ولا بالقوة، ولا بالأكل، ولا بالشرب، ولا غير ذلك.

وخصَّها المؤلف بالنبوة بناءً على قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، ولكن الصحيح في مثل هذا: أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وعلى هذا نقول: المراد برحمة الله: ما هو أعم من النبوة؛ يعني: النبوة، وسعة الرزق، والأمن، وكثرة الأولاد، وما أشبه ذلك؛ هل هم الذين يقسمون هذا؟ الجواب: لا.

قال الله عز وجل: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهذا دليل حِسِّي لا يمكن إنكاره؛ يعني: إن كانوا صادقين هم الذين يقسمون رحمة الله، فلينظروا نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا؛ أي: قدَّرناها، هذا غني، وهذا فقير، وهذا متوسط، هذا قادر، وهذا عاجز؛ هل تنكر قريش هذا؟ لا تنكره؛ لأن هذا شيء معلوم ملموس محسوس.

وقوله: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [فجعلنا بعضهم غنيًّا، وبعضهم فقيرًا] وهذا مثال، وإلا نقول: وجعلنا بعضهم قويًّا وبعضهم ضعيفًا، وبعضهم قادرًا وبعضهم عاجزًا، ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ﴾ [بالغنى] ﴿فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ ولكن هذا أيضًا من القصور، والصواب: أنه رفع بعضهم فوق بعض درجات في الغنى، والعلم، والعقل، والخُلُق، وغير ذلك، رفع الله بعض الناس فوق بعض درجات؛ أي: درجات واسعة.

وقوله: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم﴾ قال: [الغني] ﴿بَعْضًا﴾ [الفقير] ﴿سُخْرِيًّا﴾ [مُسخَّرًا في العمل له بالأجرة، والياء للنسب، وقُرِئ بكسر السين] رفع بعضَهم فوق بعضٍ درجات ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم﴾ [الغني] ﴿بَعْضًا﴾ [الفقير] وهذا قاصر؛ لأن المراد: يتخذ بعضُهم بعضًا سُخريًّا حتى في غير الغنى، حتى في الذكاء، حتى في الصناعة، فتجد الرجل مثلًا عنده خبرة في الصناعة يأتي بالعمال هو فوقهم، كذلك في الذكاء، يجلس مع قوم، ويتحدث إليهم بذكائه المُفرِط وهم دون ذلك فيرفعه الله، المهم: أنه لا يجوز أن نُخصِّص عموم القرآن إلا بدليل.

وقوله رحمه الله: [الياء للنسب] أي: لنسب التسخير.

وقوله: [قُرِئ بكسر السين] المؤلف له اصطلاح لابد أن نفهمه، إذا قال: [وفي قراءة] فهي سبعية، وإذا قال: [قُرِئ] فهي شاذة، هذا اصطلاحه، فهنا يقول: [قُرِئ بكسر السين] فتكون القراءة شاذة خارجة عن القراءات السبع، وهذا هو الصواب: أنها قراءة شاذة؛ لأن السين بالكسر: الاستهزاء، كما قال عز وجل: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [ص: ٦٣]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ [المؤمنون: ١١٠] أي: هُزُئًا، وأما بالضم ﴿سُخْرِيًّا﴾ فهو من التسخير؛ يعني: التذليل، لولا اختلاف الناس هذا الاختلاف لتعطَّلَت المصالح، لو كانوا كلهم أغنياء من يقوم بالعمل؟ لا أحد يقوم؛ لأنه إذا طلب منه أن يعمل قال: إذا كان عندك ألف أنا عندي ألفان، كذلك أيضًا في بقية الأوصاف، لولا هذا الاختلاف ما قامت الدنيا أبدًا، وهذا من حكمة الله عز وجل، ثم هناك حكمة أخرى، وهي: أن يُعرَف بهذا قدرة الله تبارك وتعالى؛ حيث جعل هذا البشر من جنس واحد، ومع ذلك يتفاضلون تفاضُلًا كبيرًا فيما أعطاهم الله عز وجل من الغنى وغيره.

وقوله: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ [أي: الجنة] ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [في الدنيا]، وقوله: [أي: الجنة] فيه أيضًا شيءٌ من القصور، الرحمة تُطلَق على الجنة بلا شك، كما قال الله تعالى لها يُخاطبها: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧] يعني: الجنة، لكن ينبغي أن يُقال: رحمة الله أعم من هذا، حتى رحمة الله العبد بهدايته إلى الإسلام والإيمان خيرٌ مما يجمعون، فالأَولَى التعميم دون التخصيص.

الفوائد:

في هذه الآية فوائد:

١ - **منها:** مجادلة المشركين بالباطل، لقوله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، وجه ذلك: أن قريشًا تعرف أن محمدًا ﷺ أحق الناس بالرسالة لو صدَّقوا بها؛ لأنه من خِيرة العرب نسبًا، ولأنه الأمين الصادق، وهم يُسمُّونه: الأمين من قبل أن يأتي بالرسالة.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن القرية تُطلَق على المدن الكبيرة؛ بل على أم المدن، لقوله: ﴿مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾، ولقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد: ١٣] ما هي قريته التي أخرجته؟ مكة، في عُرْفنا الآن تُطلَق القرية على المدينة الصغيرة، ولو أنك قلتَ لأهل المدينة الكبيرة: أنتم أهل قرية لاشتاطوا غضبًا، ولكن يقال: القرآن بيننا، القرية حتى تُطلَق على المدينة الكبيرة؛ لأنها مأخوذة من القَرْي، وهو: الاجتماع.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إنكار الله تعالى عليهم، وبيان أنهم ليسوا الذين يقسمون رحمة الله، لقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** إقامة الدليل الذي لا انفكاك عنه بأنهم لا يستطيعون قسم رحمة الله، لقوله: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ فهذا لا يمكنه إنكارهم، هم يعرفون أن فيهم القوي والضعيف، والغني والفقير، والذكي والبليد، والعاقل والسفيه.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الحكمة في أن الله عز وجل جعل الناس على درجات، لقوله: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾.

٦ - **ومن فوائد الآية:** إثبات التعليل والحكمة لأفعال الله سبحانه وتعالى؛ أي: أنه عز وجل يفعل لحكمة، لابد أن يكون لحكمة، لقوله: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾؛ لأن اللام هنا للتعليل، وتعليل أحكام الله الكونية موجود بكثرة في القرآن، وهل الأحكام الشرعية؛ كالإيجاب، والتحريم، والإباحة مُعلَّلة؟ الجواب: نعم مُعلَّلة، كل حكم من أحكام الله الكونية أو الشرعية فلابد له من حكمة، ولكن هنا سؤال: هل هذه الحِكَم معلومة للخلق، أو ليست معلومة؟ فالجواب: منها ما هو معلوم، ومنها ما ليس بمعلوم؛ لأن عقولنا قاصرة، مهما بلغنا من العقل فهو قاصر.

فإن قال قائل: أيُّها أبلغ في التعبُّد: أن يعبد الله وهو لا يعرف الحكمة، أو أن يعبد الله وهو يعرف الحكمة؟ فالجواب: أما من جهة التذلُّل المطلق فتعبُّد الإنسان بشيء لا يعرف حكمته أبلغ من تعبُّده بشيء يعرف حكمته؛ لأنه إذا تعبَّد لله بشيء يعرف حكمته فإنه قد يتعبَّد لله من أجل هذه الحكمة، لكن إذا لم يعرف الحكمة صار أبلغ في التذلُّل، كأنه يقول: سأعبد الله سواء عرفتُ الحكمة من هذا أو لا.

مثال ذلك: رمي الجمرات في الحج، يأتي الإنسان بحصى معينة ويرميها في مكان معيَّن في وقت معين، بينما لو أتى بأضعاف هذه الحصى بعد عشرة أيام ورمى في هذا المكان لعُدَّ عبثًا، فما الحكمة؟ الجواب: الحكمة أن ذلك لإقامة ذكر الله، ولهذا كلما رمى الإنسان قال: الله أكبر.

ثانيًا: أن يظهر بذلك أثر التعبُّد المطلق؛ حيث يفعل الإنسان هذا الفعل دون أن يعرف الغاية منه على وجه التحديد، وأمثال هذا كثير، ولهذا أطلق الفقهاء رحمهم الله على الأحكام التي لا تُعلَم حكمتها اسم: تعبُّدية، أو هذا تعبُّد، أو ما أشبه ذلك؛ لأنه ليس الغرض منها إلا إقامة العبادة لله عز وجل.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** جواز استخدام العمال، من قوله: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الحكمة العظيمة في هذا التفاوت؛ لأنه لولا هذا التفاوت ما عُرِف قدر نعمة الله على الغني بالغنى، وعلى العاقل بالعقل، وعلى القوي بالقوة، وهكذا، فلولا الجنون ما عُرِف قدر قيمة العقل، ولولا المرض ما عُرِف قدر قيمة الصحة، إذن هذا من الحكمة.

٩ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن رحمة الله عز وجل - ومنها: الجنة - خيرٌ مما يجمعون؛ أي: من كل ما يجمعون؛ لأن الله هو الغاية التي يسعى إليها كل مؤمن؛ بل يجب أن يسعى إليها كل عاقل.

١٠ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الإشارة إلى خطورة جمع الأموال، وأن ذلك قد يُنسِي الآخرة، وهو كذلك إلا من رحِمَ ربي، ولهذا قال النبي ﷺ: «وَالله مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى أَنْ تُفْتَحَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا فَتَنافَسُوهَا كَمَا تَنافَسَهَا مَنْ قَبْلَكُمْ، فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»، وهذا هو الواقع، الدنيا والدين في الغالب لا يجتمعان إلا من رحِم الله، وكم من إنسان كان فقيرًا مستقيمًا على دين الله، فأغناه الله فصار غِناه سببًا لطغيانه واستغنائه عن ربه، قال الله عز وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٧].



❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝٣٣ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ۝٣٤ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزُّخرُف: ٣٣ - ٣٥].

❁ التَفْسِير ❁

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾.

قوله: ﴿وَلَوْلَآ﴾ هذه حرف فيها شرط لولا كذا لكان كذا، فهي حرف امتناع لوجود ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا﴾ لكن امتنع الجَعْل لئلا يكون الناس أمة واحدة.

وقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ على أي شيء؟ على الكفر، بدليل قوله: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾.

وقوله: ﴿لَّجَعَلْنَا﴾ أي: صيَّرنا ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ وهو الله عز وجل ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ [بدلٌ من (لمن)] وهو بدل اشتمال، ولبدل هو المقصود بالحكم، فيكون المعنى: لجعلنا لبيوت من يكفر بالرحمن ﴿سُقُفًا﴾ [بفتح السين وسكون القاف، وبضمهما جمعًا]، [بفتح السين وسكون القاف] أي: (سَقْفًا) مفرد، [وبضمهما جمعًا] ﴿سُقُفًا﴾ المُفسِّر قال: بهذا وهذا، فهل يعني ذلك: أنهما قراءتان؟ فالجواب: نعم، هما قراءتان سبعيتان؛ لأنه لم يُفضِّل أحدهما على الآخر، فهما صحيحان، وهذا أيضًا من أسلوبه رحمه الله أنه إذا قال: بكذا وكذا، فهما قراءتان سبعيتان.

وقوله: ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ وهي معروفة، ﴿وَمَعَارِجَ﴾ [كالدرج من فضة] ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [يعلون إلى السطح]، ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ﴾ أي: وجعلنا لبيوتهم أيضًا ﴿أَبْوَابًا﴾ [من فضة] ﴿وَسُرُرًا﴾ [من فضة، جمع سرير] ﴿عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾ أي: يعتمدون ﴿وَزُخْرُفًا﴾ [ذهبًا] والمعنى: لولا أن يكفر الناس جميعًا.

لجعلنا للكافر هذه البيوت؛ سُقُفًا من فضة؛ يعني: بدل أن يكون السقف من خشب، أو من الأسمنت يكون من فضة، والمراد: فضة لامعة تجذب النظر، وتسُرُّ العين.

وقوله: ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ قيل: إنها الدرج، وقال بعض المتأخرين: إنها المصاعد الكهربائية التي تُسمَّى: أسانسير، ومصعد، وما أشبه ذلك؛ لأن الدرج العادية لا تلفت النظر كثيرة، ولهذا قال: ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [يعلون حتى يصلوا إلى السطح] وأيًّا كان هذا أو هذا فإنها درج غريبة، ليست كالدرج المعتادة.

والأبواب المؤلف يقول: [من فضة] بناءً على ما ذُكِر في أول الآية، ولكن هذا ليس بمُتعيِّن؛ بل نقول: أبوابًا فخمة ليست كالمعتادة، سواء من فضة، أو من حديد، أو من خشب، المهم: أنها أبواب غير معتادة.

والسُّرُر جمع سرير، وهو: ما يُجلَس عليه، ﴿عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾ أيضًا مع السُّرُر مُتَّكأ يتَّكئ عليه؛ أي: يُعتَمَد، سواء من خلف الظهر، أو من اليمين، أو من الشمال، وهو كناية عن كثرة الإرفاه.

وقوله: ﴿وَزُخْرُفًا﴾ هذا الذهب، فهي خمسة أشياء، يعني: [المعنى: لولا خوف اكفر على المؤمن من إعطاء الكافر ما ذُكِر لأعطيناه ذلك لقلة خطر الدنيا عندنا، وعدم حظِّه في الآخرة في النعيم] ووجه ذلك: أن النفوس مائلة إلى اللهو واللعب والترف، فإذا رأى الإنسان هذا الترف للكافر فإن ذلك يُغريه ويغُرُّه، كما يُفعَل الآن بالنسبة للمُنصِّرين ضُلَّال النصارى يمشون على الأقاليم الفقيرة، ويُزيِّنون لهم الدنيا، وهؤلاء الفقراء يتبعونهم؛ لأن النفوس مجبولة على محبة المال والفقر والخُيَلاء.

قال الله عز وجل: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، قال المُفسِّر: ﴿وَإِن﴾ [مخفَّفة من الثقيلة] الثقيلة المُشدَّدة، والمُخفَّفة ما حُذِف تشديدها، ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ [(لَمَا) بالتخفيف فـ (ما) زائدة، وبالتشديد بمعنى: إلا] أي: أنها قراءتان [فإن نافية] خلَّط المؤلف رحمه الله، الآن (إنْ) أعربها على أنها مخففة من الثقيلة، فهي مؤكِّدة، ثم قال في الأخير: [فإن نافية] وهناك فرق بين الإثبات والنفي، لكن هذا ينبني على أن (لَمَا) إن قُرِئَت بالتخفيف فـ (إن) مخفَّفة من الثقيلة، وإن قُرِئَت بالتشديد فـ (إنْ) نافية، فصار اختلاف الإعراب مبنيٌّ على اختلاف القراءة في (لَمَا)، فعلى قراءة التشديد تكون (إنْ) نافية، ولَمَّا بمعنى: إلا، وانظروا قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤] أي: ما كل نفسٍ إلا عليها حافظ، وأما إذا قُرِئَت (لَمَا) بالتخفيف، فـ(إنْ) مخفَّفة من الثقيلة، وتكون (ما) زائدة، ويكون التقدير: وإن كل ذلك لمتاع الحياة الدنيا؛ لأن ما زائدة.

وقوله: ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يُتمتَّع به فيها، ثم يزول] ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ﴾ [الجنة] ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ لو قيل: كل الآخرة؛ الجنة، وعرَصات القيامة، وسلامتهم من شدة هول القيامة، وغير ذلك لكان أعمَّ، فصارت الدنيا للكفار، مهما أُعطُوا فإنه نعيمهم، والآخرة للمتقين، جعلني الله وإياكم منهم.

واعلم أن هذه الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، مهما بلغت من النعيم فإنها سجن المؤمن، ومهما بلغت من الجحيم فإنها جنة الكافر.

هذه قصة ذكرها العلماء في ترجمة ابن حجر رحمه الله، وكان ابن حجر قاضي القضاء في مصر، فمرَّ ذات يوم من بيته إلى مقرِّ عمله على العربة تجُرُّها الخيول أو البِغال في موكِب برجلٍ يهودي زيَّات - يعني: يبيع الزيت -، فاستوقفه اليهودي، وقال له: إن نبيَّكم يقولُ: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، كيف يتفق هذا مع حالي وحالك؟ أنت الآن في نعيم، تجُرُّك الخيول، ولك جاهٌ وشرف ومنزلة، وهو اليهودي بهذا الذل، ثياب وسِخة، مُتعب؛ كيف هذا؟ قال: نعم، ما أنا فيه الآن بالنسبة لنعيم الجنة سجن؛ لأن نعيم الجنة أعلى وأعظم من هذا، أما بالنسبة لك فأنت في جنة بالنسبة لعذاب النار؛ لأنك إن متَّ على اليهودية فأنت في النار، ويُعتبر ما هو فيه الآن - اليهودي - يُعتبر جنة، فاليهودي - فيما يبدو لي والله أعلم - أنه يريد أن ينشد الحقيقة، فلما بيَّن له ابنُ حجر هذا قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، سبحان الله! الإنسان العاقل الذي يريد الحقيقة لابد أن يهتدي.

يقول الله عز وجل لما ذكر هذه الأشياء: ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ قال: ما هذا إلا متاع الحياة الدنيا، متاع كالمتاع يحمله المسافر، ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ

رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ لأن الدنيا مهما طالت بالإنسان الحياة فلابد من الزوال، إما أن تزول الدنيا عنه، وإما أن يزول هو عن الدنيا، ولهذا قال الشاعر:

لا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنَغَّصةً لَذَّاتُـه بادِّكَـار المـوتِ والهَـرَمِ

صحيح، الإنسان إذا تذكَّر ونظر إلى مآله؛ إما موت مبكِّر، وإما هَرَمٌ مخرِّف، الآن يوجد الذين بلغوا عمرًا طويلًا، ووصلوا إلى حدٍّ أنهم بأنفسهم متضايقون، وأهلوهم مُضايقون، تجد الإنسان يتضايق من أبيه وأمه، وإن كان المؤمن يصبر، لكن لابد أن يتضايق، أو موت عاجل وينتهي الأمر، هذا حال الدنيا في الواقع، ولهذا الغنيمة الغنيمة؛ بادر العمر قبل فواته، اعمل صالحًا، وطلب العلم من أفضل الأعمال، لكن بشرط أن يكون العالم عاملًا، أما علمٌ بلا عمل فالجهل - والله - خيرٌ منه.

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿. . وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

١ - **في هذه الآية من الفوائد:** أن هذه المتعة الدنيوية ما هي إلا متاع الحياة الدنيا، وهي زائلة.

ويتفرَّع على هذه الفائدة: ألَّا يتعلَّق الإنسان بها، وألَّا يهتمَّ بها، وأن يعلم أنه سيعيش بدونها، وليس لك من الدنيا إلا ما أكَلتَ فأفنَيْتَ، أو لبِسْتَ فأبلَيْتَ، أو تصدَّقتَ فأمضَيْت.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية:** التزهيد في هذه الأمور، وألَّا تهتم بها، لا تُعلِّق قلبك بمظاهرها، فإنك إن فعلتَ هلَكتَ، ولهذا كان النبي ﷺ إذا رأى من الدنيا ما يُعجِبُه قال: «لَبَّيْكَ إِنَّ العَيشَ عَيْش الآخِرَةِ» يعني: إجابةً لك، ليصرف قلبه من التعلُّق بما أيه مما يُعجِبه في الدنيا، ثم وطَّن النفس وقال: «إِنَّ العَيْشَ عَيْش الآخِرَةِ»، أما عيش الدنيا فإنه مهما طاب لك محفوفٌ بنكدٍ قبله، ونكدٍ بعده؛ لأنك لن تحصِّله غالبًا إلا بتعب، ثم إذا حصَّلتَه تبقى هل سيبقى لك أو لا يبقى؟ هل ستبقى له أو لا تبقى؟ لابد من الأمرين: إما أن تموت وتتركه، إما أن يهلِك وأن تفوته.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** البُشرى للمتقين، وأن لهم الآخرة، فالآخرة خيرٌ للمتقين، ففيه البَشارة، وأن الإنسان المُتَّقي إذا انتقل من الدنيا فلا يندم؛ لأنه انتقل إلى دار أطول وأحسن مما فارقها.

وفيه: الحثّ على التقوى؛ وذلك لأن ذكر الجزاء والثواب يستثير النفس حتى يصل الإنسان إلى الوصف الذي يحصل به على الثواب.



قال الله تعالى:

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٣٦ - ٣٩].

التفسير

لما ذكر أحوال الدنيا وأنه لولا أن يكون الناس أمة واحدة على الكفر لمتّع الكفار بما علِمتم وهذه الدنيا لابد أن تحمل الإنسان على الإعراض عن ذكر الله عز وجل.

قوله: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ فسَّرها بـ [يعرِض] ولكن التفسير المطابق: أن معنى: ﴿يَعْشُ﴾ أي: يتعامَى حتى يرى رؤية الأعشى الذي يبصِر بالنهار ولا يُبصِر بالليل، فمعنى: ﴿يَعْشُ﴾ أي: يتعامَى، كما فسَّرها بذلك ابنُ كثير وغيره من المفسِّرين.

ولكن المفسِّر فسَّرها بـ [يعرض]؛ لأن من لازم التعامي الإعراض.

قال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ﴾ [أي: القرآن] وأضافه الله إلى نفسه، وأضافه إلى الرحمن؛ لأن إنزاله رحمة للخلق، هكذا مشى المؤلف رحمه الله، والصواب خلاف ذلك، والمراد بذكر الرحمن: تذكُّر الرحمن؛ يعني: من تعامَى عن ذكر الرحمن في قلبه، واستحضاره لعظمة ربه وجلاله، فإنه يقيَّض له الشيطان، فيكون هذا جزاءً على إعراضه، وتعاميه عن ذكر ربه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧]، فالصواب: أن المراد بذكر الرحمن ليس القرآن؛ بل المراد: ذكر الله نفسه؛ يعني: يغفل قلبه عن ذكر الله، ولا يذكر الله بقلبه، فهذا هو الذي يُقيَّض له الشيطان، فيتَّبع هواه، كما قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقوله: ﴿نُقَيِّضْ﴾ قال: [نسبِّب] ﴿لَهُ شَيْطَانًا﴾ وهذا قريبٌ من المعنى المطابق، وإلا فإن معنى: ﴿نُقَيِّضْ﴾ أي: نُهيِّئ له شيطانًا يحل محل ذكر الله عز وجل، فيستولي الشيطان على قلبه، والشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر، كما قال الله عز وجل: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وقوله: ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ﴾ أي: الشيطان ﴿لَهُ﴾ أي: للعاشي عن ذكر الله ﴿قَرِينٌ﴾ [لا يُفارقه] ووجه ذلك: أن الإنسان فعَّال مريد، متحرِّك قلبًا وقالَبًا، فلابد من أن يشتغل

بشيء، إما أن يكون بذكر الله، وإما أن يكون لوساوس الشيطان، ولابد أن تجد أحدًا يكون قلبه ساكنًا لا يتحرك ولا يريد، هذا مستحيل، ولهذا جاء في الحديث في الأسماء: «أَحَبُّ الأَسْمَاءِ إِلَى اللهِ: عَبْدُ اللهِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدَقُهَا: حَارِثٌ، وَهَمَّامٌ» همَّام الإرادة القلبية، وحارث العمل، كلَ إنسانَ هكذا لابد، فيُهيِّئ الله له هذا الشيطان الذي يلازمه ولا يُفارقه.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ [أي: الشياطين] ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ [أي: العاشين] ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [أي: طريق الهدى] ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أي: العاشين الذين صدَّتهم الشياطين ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ قال: [في الجمع، رعاية معنى مَنْ] الشيطان - نعوذ بالله منه - إذا استولى على قلب الإنسان زيَّن له سوء عمله، وظن أنه على حق، ولكنه على باطل، وهؤلاء هم أخسر الناس أعمالًا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ [الكهف: ١٠٣]؟ الجواب: نعم، بيَّنهم الله قال: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ يعني: الشيطان زيَّن لهم هذا، وقال: أنتم على الحق، أنتم الأعلون، وسوَّل لهم، وأملَى لهم حتى يتبعوه، ولهذا قال: [﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: الشياطين ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ أي: العاشين ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: طريق الحق].

﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ الواو تعود على العاشين ﴿أَنَّهُم﴾ أي: العاشين ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ أي: على الهدى، وهذا غاية ما يكون من الخِصام - والعياذ بالله - أن يتمادى الإنسان في الباطل، ويظن أنه على حق، قال المُفسِّر: [في الجمع، رعاية معنى مَنْ] الجمع هو قوله: (يحسبون، يصدونهم) ففيها رعاية معنى ﴿وَمَن﴾ كلمة (مَنْ) و(ما) وما أشبههما من الألفاظ العامة يجوز مراعاة معناها، ومراعاة لفظها، اللفظ مفرد ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ ولذلك عاد الضمير إليه بالمفرد ﴿وَمَن يَعْشُ﴾، ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ﴾ أيضًا مراعاة اللفظ، ﴿فَهُوَ لَهُۥ﴾ مراعاة اللفظ، ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ مراعاة المعنى، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ كذلك مراعاة المعنى، إذن إذا أتتك (مَنْ) موصولة كانت أو شرطية فلك أن تراعي بضميرها اللفظ، فتجعله مفردًا، والمعنى: فتجعله حسب ما ورد فيه، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الطلاق: ١١] كل هذا مراعاة اللفظ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ مراعاة المعنى، ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ مراعاة اللفظ، فتجد في هذه الآيات تارةً روعِيَ اللفظ، وتارةً روعِيَ المعنى.

قال تعالى: [﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ العاشي بقرينه يوم القيامة ﴿قَالَ﴾ له ﴿يَٰلَيْتَ﴾ للتنبيه ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي: مثل بعْد ما بين المشرق والمغرب ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أنت لي].

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ يعني: الشيطان وقرينه، وذلك يوم القيامة تبرَّأ كل واحد من

الآخر، وقال له: ﴿يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾ (يا) للتنبيه، ولا تصح أن تكون للنداء؛ لأن يا التي للنداء لا تدخل على حرف - كما هنا -، ولا على فعل، ومثل ذلك: قوله تعالى: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾ [يس: ٢٦]، قيل: إن يا داخلة على منادى محذوف، والتقدير في هذه الآية: يا هذا ليت بيني وبينك بُعْد المشرقين؛ يعني: تُقدِّم مُنادى اسمًا يا هذا ليت بيني وبينك بُعْد المشرقين.

فإذا قال قائل: أيُّها أولَى: أن نُقدِّر منادى يُناسب السياق من أجل أن يصح حلول يا في هذا المكان، أو نقول: الأصل عدم التقدير، ونجعل يا للتنبيه؟ الثاني أَولَى؛ لأنه إذا دار الأمر بين أن يكون في الكلام شيء محذوف أو لا، فالأولَى ألَّا يكون فيه شيءٌ محذوف.

وقوله: ﴿بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾ يقول المؤلف: [ما بين المشرق والمغرب] وعليه فيكون في الكلام تغليب، وهو: تغليب المشرق والمغرب، والتغليب هذا جارٍ في اللغة العربية؛ مثل: قوله ﷺ: «بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ صَلَاةٌ» إذا جعلنا مطلق الأذان هو الأذان الذي يكون لدخول الوقت، أما إذا جعلنا الأذان بمعنى: الإعلام، فإن الأذانين ليس فيها تغليب؛ لأن كلًّا من الأذان والإقامة يُسمَّى أذان، لكن قولهم: القمران يعنون بذلك: الشمس والقمر، قولهم: العمران يعنون بذلك: أبا بكر وعمر، هذا من باب التغليب، فيكون ﴿بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾ أي: بعْد ما بين المشرق والمغرب، ولكن ذُكِر بلفظ المشرق تغليبًا، ويحتمل أن يكون معنى قوله: ﴿بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾ أي: مشرقَ الشمس شتاءً، ومشرقها صيفًا؛ لأن بينهما مسافة عظيمة لا يعلم قدرها إلا الله عز وجل، وكلا المعنيين صحيح؛ يعني: سواء جعلنا اللفظ فيه تغليب أو لا، والمراد: أن هذا العاشي الذي أضلَّه الشيطان إذا جاء معه يوم القيامة تبرَّأ منه، وقال: ليتك بعيدٌ عني وأنا بعيدٌ عنك.

وقوله: ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾ هذه جملة إنشائية للذم، قال المؤلف: [أنت] يعني: أنه قد حُذِف فيها المخصوص؛ لأن بئس ونِعْمَ لابد فيهما من فاعل ومخصوص.

قال الله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ﴾ [أي: العاشين تمنِّيكم وندمكم] ﴿ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ﴾ [أي: تبين لكم ظلمكم بالإشراك في الدنيا] ﴿أَنَّكُمۡ﴾ [مع قرنائكم] ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ [علَّة بتقدير اللام لعدم النفع، وإذْ بدلٌ من اليوم] يعني: لا ينفعكم اشتراككم في العذاب، هذا هو الصحيح، وعلى هذا فتكون ﴿أَنَّكُمۡ﴾ ليست للتعليل، كما ذهب إليه المُفسِّر؛ بل هي فاعل ينفع، والمعنى: لا ينفعكم اشتراككم في العذاب، ووجه ذلك: أنه جرت العادة أن الإنسان إذا عُذِّب ورأى غيره يعذَّب هان عليه الأمر وتسلَّى، في يوم القيامة يشترك أهل النار في العذاب، لكن هل ينفعهم هذا شيئًا؟ لا ينفعهم، هذا هو الصواب الذي تدل عليه الآية، أما المؤلف فجعل ﴿أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ علة بتقدير

اللام؛ أي: لأنكم في العذاب مشتركون، ولكن هذا بعيد من الواقع.

الفوائد:

قوله عز وجل: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾.

١ - **من فوائد هذه الآية:** التحذير من الغفلة عن ذكر الله؛ لأنك إذا غفلتَ عن ذكر الله حلَّ محلَّ ذكر الله: وساوس الشيطان.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله سبحانه وتعالى يُعاقِب العبد بما يقتضيه الذنب، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٠] فهذا الرجل لما أخلى قلبه من ذكر الله عُوقِب أن يحِلَّ محلَّه الشيطان.

٣ - **ومنها:** الحذر من قُرناء السوء؛ لأن الشياطين ليس اسمًا خاصًّا بشياطين الجن؛ بل حتى الإنس لهم شياطين، قال الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾، ففي هذا: التحذير من قرناء السوء، وقد حذَّر النبي ﷺ من قرناء السوء؛ حيث شبَّه قرين السوء، أو جليس السوء بنافخ الكِيْر؛ إما أن يُحرِق ثيابك، وإما أن تجِد منه رائحةً كريهة، ثم إن الواقع كذلك، فما أكثر ما يمُرُّ علينا ممن يتصلون بنا يشكون من قوم كانوا مستقيمين وأئمة مساجد، أو مؤذِّني مساجد اتصل بهم أُناس من أصحاب السوء فانحرفوا انحرافًا كاملًا، ومثل هؤلاء - والعياذ بالله - إذا انحرفوا - نسأل الله الثبات - يكون انحرافهم أشد وأعظم؛ كالماء الذي حبستَه ثم أطلقتَ الحبس سيندفع بقوة.

فالمهم: أن الإنسان إذا أعرض عن ذكر الله قيَّض الله له الشيطان من الإنس أو الجن، فهو له قرين.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن المُلازِم أشد تأثيرًا من العابر؛ بمعنى: أنك لو جلستَ مع إنسان صاحب سوء لمدة ساعة أو ساعتين، ربما تتأثَّر به وربما لا تتأثَّر، لكن إذا كان مُقارنًا فإنه سيؤثِّر، ولهذا قال: ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾، أقول هذا لتحذروا من الاستمرار لقرناء السوء، ولتعلموا أنه متى علمتُم أنه قرين سوء وجَبَ عليكم البُعْد عنه، لا تقل: أخشى أن يتأثَّر، أخشى أن يقول: لماذا الرجل كان مُصاحبًا لي ثم فارقَني؟ لا يهمك هذا، الذي يهمُّك هو نفسُك، فأنقذها.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** عمى القلب - والعياذ بالله -، لما تعامَى بعينه عن ذكر الرحمن وبقلبه أيضًا قُيِّض له هذا الشيطان الذي يصُدُّه عن الهدى وهو يحسبُ

أنه مهتدٍ ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ وما أكثر هذا، أهل البدع الذين أصرُّوا على بِدَعهم صغيرةً كانت أم كبيرة ألم يكونوا قد استحسنوها؟ بلى؛ لماذا استحسنوها وهي بِدعٌ وضلالات؟ لأن الشيطان صدَّهم عن الحق، أهل الأفكار الرديئة؛ كالعلمانيين، والشيوعيين، والبَعْثِيِّين، ومن أشبههم؛ لماذا استمرُّوا على ذلك؟ لأن الشيطان ركب قلوبهم – والعياذ بالله – فجعلهم يظنون أن هذا السيئ حسنًا، وهذا أشد ما يكون من الفتنة؛ أن يرى الإنسان السيئَ حسنًا فيستمر عليه.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن بعض الظن إثم، وجهه: أن هؤلاء ظنوا أنهم على الحق فاستمروا في الباطل.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن هذا القرين في الدنيا يتبرَّأ من صاحبه يوم القيامة يقول: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه مع تمنِّيه هذا الذي لم يُدرك منه شيئًا يُثني على قرينه هذا بالذمِّ والمدح فيقول: فبئس القرين أنت.

٩ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن من القرناء من هو قرين خير وقرين سوء، وهو كذلك، وقد بيَّن النبي ﷺ هذا أبيَن شيء؛ حيث قال: «مَثَلُ الجَلِيْسِ الصَّالِحِ كَحَامِلِ المِسْكِ؛ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ» يعني: يُعطيك هدية «وَإِمَّا أَنْ يَبِيْعَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً».

«وَالجَلِيْسِ السُّوْءِ كَنَافِخِ الكِيْرِ؛ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ» بالشَّرر الذي يتطاير من النار إذا نُفِخَت «وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رَائِحَةً كَرِيْهَةً».

الفوائد:

ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾.

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن المشتركين في عذاب الآخرة لا ينفعهم الاشتراك، بخلاف الاشتراك في العذاب في الدنيا، فإنه يُسلِّي الإنسان، ويهُون عليه، ولهذا قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر:

ولولا كثرةُ الباكِيْنَ حولِي ... على إخوانهم لقَتَلتُ نفسِي
وَما يبْكُونَ مثلَ أخِي ولكن ... أُسَلِّ النَّفسَ عنه بالتَّأسِّي

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن هؤلاء المُعذَّبين هم الذين ظلموا، وما ظُلِموا، لقوله: ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن المُعذَّبين يعرفون أنهم مشتركون في العذاب، ولكن ذلك لا يُسلِّيهم، ولا يُهوِّن عليهم العذاب.



قال الله تعالى:

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزُّخرُف: ٤٠].

التفسير

ثم قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [بيِّنٍ؛ أي: فهم لا يؤمنون] الهمزة للنفي؛ يعني: أنك لا تُسمِع الصم، ولا تهدي العُمْي؛ لأن هذا موكولٌ إلى الله عز وجل.

وقوله: ﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بيِّن، والمراد بالإسماع هنا: إسماع الهدى، والمراد بالهدي: هدي الهدى، وليس المعنى: أن تُسمِع الصم صوتَك؛ لأن هذا شيءٌ يشترك فيه كل الناس، لكن إذا كان الخطاب للنبي ﷺ صار المراد بالإسماع هنا: إسماع الحق، والمراد بالهدي: الهديُ إلى الحق.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** تسلية النبي ﷺ؛ حيث كان يندم على عدم اهتداء الناس، فبيَّن الله له أن الأمر ليس إليه؛ بل إلى الله، وحينئذٍ تهون عليه المُصيبة، ويرضى ويُسلِّم عليه الصلاة والسلام.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الكفار بمنزلة أهل الصمم الذين لا يسمعون، وقد وصفهم الله تعالى في آية أخرى بأنهم صُمٌّ بُكم عُميٌ فهم لا يعقلون، أو صُمٌّ بُكْمٌ عُميٌ فهم لا يرجعون.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن العمى سببٌ أن يتيه الإنسان عن الطريق، لقوله: ﴿أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن من كان في ضلال مبين؛ أي: مُنغمسًا في الضلال فإنه لا يهتدي أبدًا.



❁ قال الله تعالى:

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٤١ - ٤٢].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ يقول المُفسِّر: [فيه إدغام نون إنْ الشرطية في ما الزائدة] فإمَّا، وأصلها: فإنْ ما، لكن اجتمعت النون الساكنة مع الميم فأُدغِمَت إحداهما في الأخرى، فصار ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ﴾.

وقوله: [مع ما الزائدة] اعلم أنه ليس في القرآن شيءٌ زائد، كل ما في القرآن فهو في محلِّه والسياق يحتاج إليه، لكن مرادهم بالزيادة: هي التي يتم الكلام بدونها، لا التي يكمُل الكلام بدونها، هذا بالنسبة للقرآن؛ يعني: لو حُذِفَت لاستقام الكلام، وإلا فإنها لها معنى، وهو: التوكيد.

وقوله: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ يقول المُفسِّر: [بأن نُميتَك قبل تعذيبهم] ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ [في الآخرة] يعني: أننا إن ذهبنا بك فلن نُغفِلَهم من العذاب؛ بل نُعذِّبهم.

وقول المؤلف: [في الآخرة] فيه نظر، والصواب: في الدنيا؛ يعني: أنا إن ذهبنا بك قبل أن نُعذِّبهم فإننا لابد أن نُعذِّبهم، وهذا تهديد واضح لهؤلاء المُكذِّبين لرسول الله ﷺ.

وقوله: ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ﴾ [في حياتك] ﴿الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ [به من العذاب] ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم﴾ [على عذابهم] ﴿مُّقْتَدِرُونَ﴾ [قادرون] فالمسألة: إما نُعذِّبهم قبل أن تموت، وإما أن تموت قبل أن نُعذِّبهم، فإن متَّ قبل أن نُعذِّبهم فإنهم لن يُفلِتوا من العذاب، سننتقم منهم، وإن عذَّبناهم قبل موتك فإنا قادرون على ذلك، ولن نؤخِّر عنهم العذاب عجزًا.

وقول المُفسِّر: [على عذابهم] الصواب: العموم، على عذابهم، وعلى ذواتهم، وعلى جميع أحوالهم، وقوله: ﴿مُّقْتَدِرُونَ﴾ [قادرون] أيضًا فيه قصور؛ لأن المُقتدر أبلغ من القادر، فإن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فهو أبلغ من القادر، وعلى كل حال؛ فالآية معناها الإجمالي: أننا إن ذهبنا بك بالموت فإننا لن نُغفِلَهم عن العذاب، وإن عذَّبناهم في حياتك فسترى عذابهم بنفسك.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** التهديد للمُكذِّبين للرسول ﷺ، وأن عذابهم واقع لا محالة.

٢ - **ومن فوائدها:** تسلية النبي ﷺ؛ فإن رسول الله ﷺ جاء بالهدى والحق والآيات، فإذا كُذِّب فسيكون ذلك ثقيلًا على نفسه، فسلَّاه الله عز وجل بهذا الوعيد.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** وصف الله تبارك وتعالى بالانتقام، كما وصفه في آية أخرى، ولكن هل يُوصَف به على الإطلاق، فيُقال مثلًا: المنتقم؟ فالجواب: لا؛ لأن كلمة المنتقم ليست مدحًا في ذاتها حتى تُقابَل بما يكون سبب الانتقال، ولهذا تمرُّ بنا أسماء الله الحُسنى التي عدَّها بعض الناس منها: المنتقم، وهذا غلط، فإن ذلك ليس من أسماء الله؛ لأن الله لم يذكر ذلك من أسمائه، وإنما ذكره مُقيَّدًا بحال من الأحوال، هنا ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ مُقيَّد بحال من الأحوال، وهي: تكذيب هؤلاء، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** عظمة الله عز وجل؛ حيث وصف نفسه بالجمع، ومن المعلوم أنه ليس المراد بالجمع التعدُّد؛ لأن الله إلهٌ واحد، لكن المراد بالجمع هنا: التعظيم.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الوعد يأتي في الشر والعقوبة، خلافًا لمن قال: الوعد في الخير، والإيعاد في الشر، وأنشدوا على ذلك قول الشاعر:

وإني وإن أوعَدتُه أو وعدتُه ... لَمُخلِفُ إيعادِي ومُنجِزُ موعدِي

فالصواب: أنها تُطلق على هذا وعلى هذا، فهنا قال: ﴿ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ وعلى قياس قول البيت يكون التعبير: الذي أوعدناهم، ولكن الصحيح: أنها جائزة لهذا وهذا.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان غلبة قدرة الله عز وجل على كل قدرة، لقوله: ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾، وهو كذلك، ولما قالت عاد: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]؟ قال الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، فلا قوة تُمانع قوة الله عز وجل، ولا قدرة تُمانع قدرته؛ بل هو العزيز الغالب على كل أحد.



قال الله تعالى:

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣ - ٤٥].

التَفْسِيرُ

قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ [أي: القرآن] ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [طريق مستقيم]، ﴿فَٱسْتَمْسِكْ﴾ بمعنى: تمسَّك، لكن زِيدت حروفها للمبالغة؛ أي: تمسَّك تمسُّكًا قويًّا بالذي أُوحِيَ إليك، والمُوحِي هو الله عز وجل، والمُوحَى: القرآن، وإنما قال: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ ليُثبِّت رسالته، وإلا لو قال: بالقرآن كفى، لكن من أجل تثبيت الرسالة قال: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾، والوحي: هو إنباء الله سبحانه وتعالى لرسله بما يشرعه لعباده.

وقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أمرٌ وتثبيت، الأمر: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾، التثبيت: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وإذا كان على صراط مستقيم فإن العقل يقتضي ألَّا يحيد عنه؛ بل أن يستمسك به تمامًا، والصراط: هو الطريق الواسع المستقيم، فالطريق الضيق لا يُسمَّى صراطًا، والطريق المُعوجّ يمينًا وشمالًا لا يُسمَّى صراطًا، لا يُسمَّى صراطًا إلا ما كان طريقًا واسعًا مستقيمًا، كما قال تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ أي: الطريق الواسع المستقيم.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ﴾ [الشرفُ] ﴿لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [لنزوله بلغتهم] ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [عن القيام بحقِّه].

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن الذي أُوحِي إلى الرسول ﷺ، ﴿لَذِكْرٌ لَّكَ﴾ [لشرف] على ما فسَّره به المُفسِّر؛ أي: أنكم تشرُفون به لنزوله بلغتكم، ولكونه نزل على واحد منكم، فهو شرف، هذا ما ذهب إليه المؤلف، ولا مانع منه.

لكن الصواب: أن المراد بالذكر هنا: التذكير؛ يعني: وإن هذا الذي أُوحِي إليك لتذكيرٌ لك ولقومك، فإن قال قائل: يرِد على هذا أنه تذكيرٌ لكل الناس؟ فالجواب: أن هذا كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢] مع أنه بُعِث لجميع الناس.

وقوله: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ عن أي شيء؟ يقول: [عن القيام بحقِّه] ومن حقِّه: العمل به، ومن حقِّه: إبلاغه للناس، ولهذا يُعتبر العرب هم الإشعاع لعامة الناس في نقل الشرعية الإسلامية، من في الجزيرة حين نزل الوحي؟ ليس فيها إلا عرب، هؤلاء العرب بثُّوا الإسلام في جميع أقطار الدنيا، وهذا من حقِّه، سوف تُسألون عما فيه من الأمر بالجهاد؛ هل جاهدتم أم لا؟ سوف تُسألون عن تنفيذ جميع شرائعه، ولهذا كلام المؤلف

هنا جيِّد [عن القيام بحقِّه].

ثم قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [أي: غيره] ﴿ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾، ﴿وَسْـَٔلْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، لقوله: ﴿مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾، ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾، وسوف يكون الجواب: لا، والمقصود من هذا الأمر هو إقامة الحُجَّة على المشركين الذين يعبدون مع الله إلهًا آخر، يقول للنبي ﷺ: اسأل جميع الرسل السابقين: هل جعلنا من دون الرحمن آلهةً يُعبدون حتى يقوم هؤلاء المشركون فيعبدون مع الله غيره؟ ففيه إقامة الحُجَّة على المشركين؛ أن جميع الرسل السابقين ليس فيهم من يُحِل الإشراك بالله عز وجل.

فإن قال قائل: كيف يسأل من أرسل الله من الرسل قبله وهو لم يُدرِكهم؟ فالجواب: أن هذا من أساليب اللغة العربية، والمعنى: إنك إن تسأل - على الفرض والتقدير - فلن تُجَبْ بـ (نعم)؛ بل سيكون الجواب: لا، فهو من باب التحدِّي لهؤلاء المشركين الذين يدَّعون أنهم على حق.

وقوله: ﴿أَجَعَلْنَا﴾ أي: صيَّرنا ﴿مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [قيل: هو على ظاهره؛ بأن جُمِع له الرسل ليلة الإسراء] يعني: وسَألَهم، لكن هذا القول ضعيف؛ لأن جميع الأحاديث الواردة في الإسراء ليس فيها هذا، ثم إن المقصود بالإسراء: إظهار شرف النبي ﷺ؛ بل هذا من مقصود الإسراء إظهار شرفه على الرسل، فكيف يُوجِّه إليهم هذا السؤال؟ فهذا القول ضعيف جدًّا، ولا وجه.

قال: [وقيل: المراد: أمم من أهل الكتابَيْن] وهذا أيضًا ليس بصواب؛ يعني: هؤلاء يقولون: معنى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ يعني: اسأل الأمم الذين أُرسِل إليهم، وهؤلاء باقون إلى بعثة النبي ﷺ، وهذا ضعيف مخالف لظاهر القرآن، القرآن يقول: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾، والأمم التابعة للرسل فيهم مشركون، فالنصارى أقرب الأمم فيهم مشركون، فلا يتوجَّه سؤالهم مع كونهم مشركين، هذا أيضًا ضعيف.

قال: [ولم يسأل على واحدٍ من القولين؛ لأن المراد من الأمر بالسؤال: التقرير لمشركي قريش أنه لم يأت رسولٌ من الله ولا كتاب بعبادة غير الله] هذا صحيح؛ يعني: أن السؤال إنما أُريدَ به: إلزام قريش بأنه لم يأت أحد من الرسل بإباحة عبادة غير الله، هذا المقصود،

وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤]، لكن الآية الأخيرة هذه السؤال فيها أعم؛ لأنه قال: اسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك، ولم يَخُصَّ ذلك بالرسل.

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزُّخرُف:٤٣] .

١ - **في هذه الآية الكريمة فوائد منها:** حثُّ النبي ﷺ على التمسُّك بما أُوحِيَ إليه، وإذا كان النبي ﷺ يُحثُّ على ذلك فنحن من باب أولَى.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن محمدًا ﷺ كان رسول الله حقًّا، لإثبات الوحي إليه.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** تثبيت النبي ﷺ على الاستمساك بما أُوحِي إلي، وذلك بأنه على صراط مستقيم.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن الشرعية التي جاء بها محمد ﷺ صراط مستقيم لا اعوجاج فيه ولا انحراف.

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزُّخرُف:٤٤] .

١ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن هذا القرآن الكريم فيه ذكرٌ للعرب؛ أي: شرفٌ لهم، وفيه تذكيرٌ لهم، لقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية:** تحميل المسئولية العظيمة على العرب، وهي: أنهم سوف يُسألون عن هذا الوحي: هل قاموا بحقه أم لم يقوموا بحقه؟

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزُّخرُف:٤٥] .

١ - **من فوائد هذه الآية:** إقامة البيِّنة الكبرى على أنه لم يقل أحد من الرسل السابقين: إن هناك آهلة تُعبَد من دون الله، لقوله: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية:** إثبات اسم الرحمن لله عز وجل، لقوله: ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ والرحمن هو أحد الاسمين اللَّذين لا يُسمَّى بهما غير الله، وهما: الله، والرحمن، لا يُوصَف بهما غير الله، الرحيم يُوصَف به غير الله، العزيز يُوصَف به غير

الله، السميع يُوصَف به غير الله، وهكذا، لكن هذين الاسمين الكريمين: الله، والرحمن لا يُوصَف بهما أحد، ولا يُسمَّى بهما أحد إلا الله تعالى وحده لا شريك له.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** اتفاق الرسل على التوحيد، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وهذا قد اتفق عليه الرسل، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، والرسل ما جاءت إلا لإصلاح الخلق، والخلق لا يمكن صلاحهم ولا إصلاحهم إلا إذا قاموا بتوحيد الله عز وجل، فإ لم قوموا بتوحيد تشتَّت قلوبهم، وصار كل واحد يذهب مذهبًا غير الآخر؛ لأن كل أمة تريد أن يكون لها معبود خاص، فتحصل الفوضى بين العباد، فإذا اجتمع الناس على عبادة الله وحده حصل الاتفاق بدون فوضى.



تفسير سورة محمد

تفسير سورة محمد

❁ قال الله تعالى:

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ١-٤]

❁ التفسير ❁

هذه السورة تُسمَّى سورة القتال، وتُسمَّى سورة محمد؛ وذلك لأنه ذُكِر فيها محمد ﷺ، وذُكِر فيها القتال.

يُبيِّن الله تعالى في هذه السورة أن الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله أضلَّ الله أعمالهم؛ أذهبها سُدًى، والذين كفروا بماذا؟ كفروا بما يجب الإيمان به؛ كفروا بالله، كفروا برُسُله، كفروا بكتبه، كفروا بملائكته، كفروا باليوم الآخر، كفروا بالقدر، إذا كفروا بأيِّ واحدٍ من هذه الأركان الستة فهم كفار، حتى لو آمنوا بالبعض وكفروا بالبعض فهم كفَّار، قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، فالإيمان

كلٌّ لا يتجزَّأ، من كفر بشيء منه فقد كفر به جميعًا، فيكون قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: كفروا بما يجب الإيمان به من الأركان الستة التي بيَّنها النبي ﷺ لجبريل.

هؤلاء الذين كفروا ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صدوا أي: أعرضوا، أو صرفوا، إذا فسَّرناها بـ أعرضوا صار الفعل لازمًا، وإذا فسَّرناها بـ صرفوا صار الفعل مُتعدِّيًا، فعلى الأول يكون المعنى: أنهم هم أعرضوا عن سبيل الله، وعلى الثاني يكونون صرفوا عباد الله عن سبيل الله.

وهل يمكن أن نحمل الآية على المعنيين جميعًا؟

نعم، يمكن؛ لأن من قواعد التفسير: أن الآية إذا تضمَّنت معنيين لا يُنافي أحدهما الآخر وجب أن تُحمَل على المعنيين جميعًا؛ لأن ذلك أعمُّ وأشمل، وأبرأ للذِّمَّة وأحوط، وعلى هذا يكون هؤلاء الكفار قد أعرضوا بأنفسهم عن سبيل الله، وقد صرفوا أنفسهم عن سبيل الله، هؤلاء أضلَّ الله أعمالهم، مهما ظنوا أنهم على صواب فإنهم على خطإٍ، وهم أخسر الناس أعمالًا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾، ولما كان القرآن الكريم مثاني تُثنَّى فيه المعاني، فإذا ذُكِر الشيء ذُكِر ما يُقابِلُه، فإذا ذُكِر الحق ذُكِر الباطل، إذا ذُكِر الكافر ذُكِر المؤمن، إذا ذُكِر الثواب ذُكِر العقاب، حتى يبقى الإنسان سائرًا في منهاجه وتصرُّفاته بين الخوف والرجاء.

لما ذكر الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أنه أضل أعمالهم، قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ الذين آمنوا بماذا؟ آمنوا بما يجب الإيمان به، آمنوا بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عملوا الأعمال الصالحات، وما هي الأعمال الصالحات؟ قال العلماء: العمل الصالح هو المبني على شيئين: الأول: الإخلاص لله، والثاني: المتابعة لرسول الله ﷺ، وضده: العمل الفاسد، فما لم يُخلَص فيه لله فهو عملٌ فاسدٌ، وما لم يُتَّبَع فيه رسول الله فهو عملٌ فاسدٌ، ودليل ذلك: قول النبي ﷺ فيما رواه عن ربه: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»، ما الذي اختلَّ في هذا؟ الإخلاص، وقال النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»، وفي لفظٍ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»، ما الذي اختلَّ من هذا؟ المتابعة.

ولا تتحقق المتابعة إلا إذا وافقت العبادةُ الشريعةَ في أمور ستة: السبب، والجنس، والكيفية، والقدْر، والزمان، والمكان.

فإذا تعبَّد الإنسان لله عبادةً بسببٍ غير مشروعٍ، فالعبادة مردودة مُبتدَعة، يُنكَر على فاعلها أن يفعلها.

مثال ذلك: لو أن الإنسان كلما خرجت منه ريح حمِدَ الله، أو كلما تجشَّأ حمِدَ الله، فنقول: هذه العبادة غير موافقة للشرع؛ لأنك حمدتَ الله على سببٍ لم يجعله النبي ﷺ سببًا للحمد، لو فُرِض أن الإنسان أُصيبَ بانحباس الريح، ثم فتح الله له ذلك، فحينئذٍ تكون نعمة متجددة إذا حمد الله عليها فإن ذلك صحيح.

في جنسها: لو أن الإنسان ضحَّى يوم عيدٍ بفرسٍ، فإن هذه الأُضحية لا تنفعه، ولا تُجزِئ؛ لماذا؟ لأنها ليست من جنس ما يُضحَّى، مخالفة للشريعة في الجنس، ما الذي يُضحَّى به؟ بهيمة الأنعام؛ الإبل، والبقر، والغنم.

لو أن رجلًا صلى الفجر ثلاث ركعات أو أربع ركعات، قلنا: لا يصح هذا؛ لماذا؟ لأنها مخالفة للشريعة في القدْر.

لو أن أحدًا توضَّأ فغسل رجلَيْه، ثم مسح رأسه، ثم غسل يديه، ثم غسل وجهه، لم يصح وضوؤه؛ لماذا؟ للاختلاف في الكيفية.

لو أن رجلًا صام رمضان في رجب، أراد أن يُقدِّم، وقال: هذا من المسابقة إلى الخيرات؛ هل يُجزِئ؟ لا؛ لماذا؟ لأنه مخالفٌ في الزمن.

ولو ضحَّى يوم عرفة، فالأُضحية لا تُجزِئ؛ لأنها مخالفة في الزمن، ولو ضحَّى يوم عيد الأضحى قبل الصلاة، لم تُجزِئ؛ لأنه مخالف للزمن.

ولو اعتكف الإنسان في بيته بدلًا عن المسجد، لم تصح؛ لأنها مخالفة في المكان.

الرياء: أن يعمل الإنسان العمل لله، لكن يريد أن يمدحه الناس به، هو لا يصلي للناس، ولكن يصلي لله، إنما يريد أن يمدحه الناس، فيقال: هذا رجل مصلٍّ، يُنفق لله، لكن يريد أن يمدحه الناس بالإنفاق، هذا مُراءٍ.

فما حكم الرياء إذا خالط العبادة؟

نقول: يفسد العبادة، ولا تُقبل منه؛ بل يأثم بها؛ لأنه أشرك بالله، والشركُ لا يُغفَر ولو كان أصغر، لعموم قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر، ولكن لا يعني ذلك أن الشرك

الأصغر يُخلَّد صاحبُه في النار، الشرك الأصغر يُعذَّب صاحبُه بقدر ما عمل من الشرك، ثم يكون مآلُه إلى الجنة، الذي يُخلَّد فاعلُه في النار هو الشرك الأكبر، ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾، ومن الشرك: أن يعمل الإنسان العمل للدنيا، يُعلِّم ليأخذ الراتب، يكون إمامًا ليأخذ الراتب، ليس قصده أن يتقرَّب إلى الله بالأذان، ولا أن يتقرَّب إلى الله بالإمامة، ولكن من أجل أن يحصل على الراتب، هذا شرك؛ لأنه أراد بعمله الدنيا.

وقد قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في «كتاب التوحيد» قال: بابٌ: من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا، وقد قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

هذه النقطة الأخيرة مشكلة؛ لأن كثيرًا من الأئمة، وكثيرًا من المؤذِّنين يقومون بذلك العمل من أجل الراتب، وهذا مُشكِل؛ فهل يعني ذلك أن يتخلَّى عن الأذان والإمامة؟ نقول: نعم، إذا كانت هذه نيَّته فليتخلَّ؛ لأن كونه يُصبحُ فقيرًا من المال خيرٌ من كونه يصبح فقيرًا من الإخلاص، ولكننا نقول قبل ذلك: صحِّح النية، انو أنك تتقرَّب إلى الله بالأذان وبالإمامة، ولكنك تأخذ ما رُتِّب على ذلك للتقوِّي عليهما، وعلى القيام بهما.

قال ابن تيمية رحمه الله في مثل هذا: من أخذ مالًا ليحُجَّ به فلا حرج، ومن حجَّ ليأخذ المال، فليس له في الآخرة من خلاق، وهذا نحتاج إليه فيما يأخذه بعض الناس أيام الحج من الدراهم ليحُجَّ به عن غيره، فإننا نقول له: هل أنت أخذت هذه الدراهم لتحج بها، أو حججتَ لتأخذ الدراهم؟ إن كان الأول فلا حرج؛ لأنه من باب الاستعانة برزق الله على طاعة الله، وإن كان الثاني، ففيه الحرج؛ لأنه اتخذ الدين وسيلةً للدنيا، والعكس هو الصحيح؛ أن الدنيا هي التي تُتَّخذ وسيلة للدين.

يقول الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ بما هذه اسم موصول تشمل ما نُزِّل على محمد ﷺ من القرآن والسنة.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ وهذه الجملة تدل على أن ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام حقٌّ، سواءٌ كان طلبًا أم خبرًا، وحينئذٍ نسأل: ما موقفنا من الطلب، وما موقفنا من الخبر؟

موقفنا من الطلب: الطاعة، أن نقول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، ونُنفِّذ إن كان أمرًا فعلنا، وإن كان نهيًا تركنا.

وموقفنا من الخبر: التصديق، أن نقول: آمنا وقبِلنا، وصدَّقنا.

ما ثواب هؤلاء الذين آمنوا بما نُزِّل على محمد؟

ثوابهم: قوله: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾؛ أي: سيئات أعمالهم، ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي: حالهم وشأنهم، فجمع الله لهم بين أمرَيْن: بين إزالة السوء، وحصول الخير؛ إزالة السوء بتكفير السيئات، وحصول الخير بإصلاح الحال.

وقوله عز وجل: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ يبينه تمامًا قول النبي ﷺ: «الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتُنِبَتِ الكَبَائِرُ»، وقوله ﷺ: «العُمْرَةُ إِلَى العُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالحَجُّ المَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الجَنَّةَ».

قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ هذه الآية تعليلٌ لما قبلها، فمن اتبع الباطل - والعياذ بالله - حصل له من الضلال بقدر ما يبتدعه من الباطل، فمن عصى الله فقد اتبع الباطل، ينقص من إيمانه بقدر معصيته، وينقص من هداه بقدر معصيته؛ لأنه إذا كان اتباع الحق سببًا للخير، فاتباع الباطل سببٌ للشر.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا التبيين والتوضيح ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾.

ثم قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني: في ميدان القتال ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ ضَرْب هنا مصدر بمعنى الأمر؛ أي: تضربوا رقابهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ في القتل، وأذللتموهم بالقتل، وأضعفتموهم بالقتل، فحينئذٍ شدُّوا الوثاق؛ أي: شدُّوا الوثاق منهم بالأسر، لا تأسِروهم قبل أن تُثخِنوهم بالقتل، أثخنوهم بالقتل حتى لا تقوم لهم قائمة، ثم بعد ذلك ائسِروهم، وإذا أسرتموهم ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ إلى متى؟ ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ نقول: حتى هنا للتعليل؛ أي: لأجل أن تضع الحرب أوزارها.

﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ الجملة هنا تفيد التخيير؛ يعني: إما أن تمُنُّوا عليهم فتُطلِقوهم، وإما أن تُفادوهم بمال، أو منفعة، أو رجال.

بمال: بأن يُطلَب من الكافر المأسور أن يدفع فداءً، فيقال له: لا نُطلقك إلا أن تأتي بالمال.

أو بمنفعة: نقول: لا نُطلقك حتى تُصلِح الطريق لنا، تكون عاملًا مع العمال، كما فعل المسلمون في أسرى بدر؛ حيث فادَوهم بتعليم أبناء المسلمين الكتابة.

أو برجال: يكون عندهم أسرى منا، فنقول: أعطونا أسرانا نعطيكم أسراكم.

هذا التخيير هل هو تخيير تشهٍّ، أو تخيير مصلحة؟ تخيير مصلحة؛ يعني: لا يحل لمن يلي أمر المسلمين في هذا الشأن أن يتخيَّر إلا ما تقتضيه المصلحة، وهنا نأخذ ضابطًا في هذا المقام:

نقول: إذا كان المقصود بالتخيير للتيسير، فهو تشهٍّ، وإذا كان التخيير بالتصرُّف للغير، فهو مصلحيٌّ، ولي أمر المسلمين يُخيَّر بين هذا وهذا؛ هل هو للتيسير عليه، أو لمصلحة المسلمين؟ لمصلحة المسلمين، فيجب أن يختار ما هو أصلح من المال أو الافتداء.

إذا خيَّرنا وليَّ يتيم بين نوعين من التصرُّف، وقلنا لولي اليتيم أن يفعل كذا أو كذا، فما نوع هذا التخيير؟ يعني: يُخيَّر ولي اليتيم بين أن يفتح مُتَّجَرًا بمال اليتيم، وبين أن يعطيه شخصًا ثقة مُضاربة؛ ما نوع هذا التخيير؟ مصلحيٌّ، لكن لو قلنا لإنسان لزِمَته كفارة يمين: أطعِم عشرة مساكين، أو اكسُ، أو أعتِق رقبة، المقصود: التيسير، فهو تخيير تشهٍّ.

قال الله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعني: الحكم ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ لو شاء الله عز وجل لانتصر من الكفار، وكفى المؤمنين القتال، ولكنه بحكمته جعل الأمر سجالًا بين المسلمين والكفار ليبلوا بعضهم ببعض، وإذا نظرنا إلى هذه السنة وجدنا أنها سنة مُضطردة، يبلوا الله الناس بعضهم ببعض، فينصر هؤلاء أحيانًا، وينصر هؤلاء أحيانًا، ولو شاء الله عز وجل لانتصر من الكفار، فأهلكهم وأبادهم جميعًا بكلمة واحدة، لكن هذا يفوت به مصالح كثيرة، منها: حكمة الله عز وجل؛ لأن من حكمة الله أن تبقى الأرض بين مؤمن وكافر، لو كان الناس كلهم مؤمنين، لم يكن للإيمان تلك القيمة، لكن إذا كان هناك طريقان: طريق كفر، وطريق إيمان هنا يتبيَّن ويتميَّز فضل الإيمان، ولو كان الناس كلهم مؤمنين لسُدَّ باب الجهاد، لو كان كل الناس مُطيعين انقفل باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنه لا منكر، وحينئذٍ لا نهي عن منكر، ولا إخلال بمعروف، وحينئذٍ لا أمر بالمعروف، ولكن من حكمة الله عز وجل أن جعل العباد منهم مؤمن ومنهم كافر ليبلوا بعضهم ببعض: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾.



تفسير سورة الحجرات

تفسير سورة ق

تفسير جزء الذاريات

تفسير سورة الحجرات

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد.

فإننا نبدأ بتفسير سور المفصل التي تبتدئ من سورة (ق) عند بعض العلماء، أو من سورة الحجرات عند آخرين.ﷺ

وستتكلم على سورة الحجرات لما فيها من الآداب العظيمة النافعة التي ابتدأها الله بقوله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات:١]. اعلم أن الله تعالى إذا ابتدأ الخطاب بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فإنه كما قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: إما خير تُؤمر به، وإما شر تنهى عنه، فأرعه سمعك[(١)]، واستمع إليه لما فيه من الخير، وإذا صدَّر الله الخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ دل ذلك على أن التزام ما خوطب به من مقتضيات الإيمان، وأن مخالفته نقص في الإيمان، يقول الله عز وجل: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ قيل: معنى ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟﴾ أي: لا تتقدموا بين يدي الله ورسوله، والمراد: لا تسبقوا الله ورسوله بقولٍ أو بفعل. وقيل: المعنى لا تقدموا شيئًا بين يدي الله ورسوله. وكلاهما يصبان في مصب واحد، والمعنى: لا تسبقوا الله ورسوله بقولٍ ولا فعل، وقد وقع لذلك أمثلة، فمن ذلك قول النبي ﷺ: «لَا تَقَدَّمُوا رَمَضَانَ بِصَوْمِ يَوْمٍ وَلَا يَوْمَيْنِ»[(٢)] لأن الذي يتقدم رمضان بصوم يوم أو يومين كأنه تقدم بين يدي الله ورسوله فبدأ بالصوم قبل أن يحين وقته، ولهذا قال عمار بن ياسر رضي الله عنهما: «من صام اليوم الذي يشك فيه فقد عصى أبا القاسم ﷺ»[(٣)]. ومن التقدُّم بين يدي الله ورسوله: البدع بجميع أنواعها، فإنها تقدم بين يدي الله ورسوله؛ بل هي أشد التقدم؛ لأن النبي ﷺ قال: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٣٦)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٠٦).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٩١٤)، ومسلم (١٠٨٢).

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي (٦٨٦)، وأبو داود (٢٣٣٤)، والنسائي (٢١٨٨)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٩٦١).

وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِين المَهْدِيينَ مِنْ بَعْدِي، وَإِيَّاكُم وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ»[(١)]. وأخبر بأن «كل بدعة ضلالة»[(٢)(٣)].

وصدق ﷺ فإن حقيقة حال المبتدع أنه يستدرك على الله ورسوله ما فات مما يدعي أنه شرع، كأنه يقول: إن الشريعة لم تكمل، وأنه كملها بما أتى به من البدعة، وهذا معارض تمامًا لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾. فيقال لهذا الرجل الذي ابتدع: أهذا الذي فعلته كمال في الدين؟ إن قال: نعم، فإن قوله هذا يتضمن أو يستلزم تكذيب قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، وإن قال: ليس كمالًا في الدين، قلنا: إذن هو نقص؛ لأن الله يقول: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس:٣٢] فالبدعة كما أنها ضلالة في نفسها فهي في الحقيقة تتضمن الطعن في دين الله، وأنه ناقص، وأن هذا المبتدع كمله بما ادعى أنه من شريعة الله ـ عز وجل ـ فالمبتدعون كلهم تقدموا بين يدي الله ورسوله، ولم يبالوا بهذا النهي حتى وإن حسن قصدهم؛ فإن فعلهم ضلالة، وقد يُثاب على حسن قصده، ولكنه يؤزر على سوء فعله، ولهذا يجب على كل مبتدع علم أنه على بدعة أن يتوب منها، ويرجع إلى الله ـ عز وجل ـ ويلتزم سنة الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده، والبدعة أنواع كثيرة: بدع في العقيدة، وبدع في الأقوال، وبدع في الأفعال.

أما البدع في العقيدة، فإنها تدور على شيئين:

إما تمثيل، وإما تعطيل. **فالتمثيل**: أن يثبت لله تعالى الصفات، لكن على وجه المماثلة، فإن هذا بدعة؛ لأنه لم يكن من طريق النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وخلفائه الراشدين، فيكون بدعة، فمثلًا يثبت أن لله وجهًا ويجعله مماثلًا لأوجه المخلوقين، أو أن لله يدًا ويجعلها مماثلة لأيدي المخلوقين، وهلم جرًا، فهؤلاء مبتدعة بلا شك، وبدعتهم تكذيب لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١] ولقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤]. ولقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥].

أما التعطيل فهو أن ينكر ما وصف الله تعالى به نفسه، فإن كان إنكار جحد وتكذيب فهو كفر، وإن كان إنكار تأويل فهو تحريف وليس بكفر إذا كان اللفظ يحتمله، فإن كان لا يحتمله فلا فرق بينه وبين إنكار التكذيب، فمثلًا إذا قال إنسان: إن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤] والمراد باليدين النعمة نعمة الدين ونعمة الدنيا، أو نعمة الدنيا ونعمة

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٢٦)، والترمذي (٢٦٧٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٥٤٩).

(٢) انظر ما قبله.

(٣) انظر ما قبله

الآخرة، فهذا تحريف؛ لأن النعمة ليست واحدة، ولا ألف ولا ملايين، ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل:١٨] فليست النعمة اثنتين لا بالجنس ولا بالنوع، فيكون هذا تحريفًا وبدعة، لأنه على خلاف ما تلقاه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأصحابه، والأئمة الهداة من بعدهم.

أما البدعة في الأقوال: فمثل أولئك الذين يبتدعون تسبيحات أو تهليلات أو تكبيرات، لم ترد بها السنة، أو يبتدعون أدعية لم ترد بها السنة، وليست من الأدعية المباحة.

وأما بدع الأفعال: فمثل الذين يصفقون عند الذكر، أو يهزون رؤوسهم عند التلاوة تعبدًا، أو ما أشبه ذلك من أنواع البدع، وكذلك الذين يتمسحون بالكعبة في غير الحجر الأسود والركن اليماني، وكذلك الذين يتمسَّحون بحجرة النبي ﷺ، حجرة قبره الشريف، وكذلك الذين يتمسَّحون بالمنبر الذي يقال:إنه منبر النبي ﷺ في المسجد النبوي، وكذلك الذين يتمسحون بجدران مقبرة البقيع أو بغير ذلك.

والبدع كثيرة: العقدية والقولية والفعلية، وكلها من التقدم بين يدي الله ورسوله، وكلها معصية لله ورسوله، فإن الله يقول: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ والنبي ـ ﷺ ـ يقول: «إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ»[1].

ومن البدع:ما يُصنع في رجب، كصلاة الرغائب التي تُصلَّى ليلة أول جمعة من شهر رجب، وهي صلاة ألف ركعة يتعبدون لله بذلك، وهذا بدعة لا تزيدهم من الله إلا بعدًا؛ لأن كل من تقرَّب إلى الله بما لم يشرعه فإنه مبتدع ظالم، لا يقبل الله منه تعبده، لما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[2].

ومن التقدم بين يدي الله تعالى ورسوله أن يقول الإنسان قولًا يُحكم به بين عباد الله أو في عباد الله، وليس من شريعة الله، مثل أن يقول: هذا حرام، أو هذا حلال، أو هذا واجب، أو هذا مستحب، بدون دليل؛ فإن هذا من التقدم بين يدي الله ورسوله، وعلى من قال قولًا وتبين له أنه أخطأ فيه أن يرجع إلى الحق حتى لو شاع القول بين الناس وانتشر وعَمِلَ به مَن عمل من الناس، فالواجب عليه أن يرجع وأن يُعلن رجوعه أيضًا، كما أعلن مخالفته التي قد يكون معذورًا فيها إذا كانت صادرة عن اجتهاد، فالواجب الرجوع إلى الحق، فإن تمادى الإنسان في مخالفة الحق فقد تقدم بين يدي الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ هذا تعميم بعد تخصيص؛ لأن التقدم بين يدي الله ورسوله مخالف للتقوى، لكن نص عليه وقدمه لأهميته، ومعنى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي اتخذوا وقاية من عذاب الله ـ عز وجل ـ

---

(١) انظر ما قبله

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، مسلم (١٧١٨).

وهذا لا يتحقق إلا إذا قام الإنسان بفعل الأوامر وترك النواهي، بفعل الأوامر تقرُّبًا إلى الله تعالى، ومحبة لثوابه، وترك النواهي خوفًا من عذاب الله ـ عز وجل ـ، ومن الناس من إذا قيل له: «اتق الله» أخذته العزة بالإثم، وتصاعد في نفسه وعز في نفسه، وأوغل في الإثم، وانتفخت أوداجه، وقال: أمثلي يُقال له: اتق الله! وما علم المسكين أن الله خاطب من هو أشرف منه ومن هو أتقى عباد الله لله، فأمره بالتقوى، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب:١]. وقال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٣٧]. ومن الذي لا يستحق أن يُؤمر بتقوى الله؟ فكل واحد منَّا يستحق أن يؤمر بتقوى الله ـ عز وجل ـ والواجب أنه إذا قيل له: «اتق الله». أن يزداد خوفا من الله، وأن يراجع نفسه، وأن ينظر ماذا أمر به، إنه لم يؤمر أن يتقي فلانًا وفلانًا، إنما أمر أن يتقي الله عز وجل، وإذا فسرنا التقوى بأنها اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره، تقربًا إليه ومحبة لثوابه، وترك نواهيه خوفًا من عقابه، فإن أي إنسان يترك واجبًا فإنه لم يتق الله، وقد نقص من تقواه بقدر ما حصل منه من المخالفة، فالتقوى مخالفتها تختلف، فقد تكون مخالفتها كفرًا وقد تكون دون ذلك، فترك الصلاة مثلًا ترتفع به التقوى نهائيًا؛ لأن تارك الصلاة كافر، كما دلَّ على ذلك كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وأقوال الصحابة رضي الله عنهم، حتى إن بعض العلماء حكى إجماع الصحابة على أن تارك الصلاة كافر كفرًا مخرجا عن الملة، ومنهم التابعي المشهور عبد الله بن شقيق ـ رحمه الله ـ حيث قال: (كان أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة) [(١)]. وكذلك نقل إجماعهم إسحاق بن راهويه، ولم يصح عن أي صحابي أنه قال عن تارك الصلاة: إن تارك الصلاة في الجنة، أو إنه مؤمن، أو ما أشبه ذلك، والزاني لم يتق الله؛ لأنه زنا فخالف أمر الله وعصاه، والسارق لم يتق الله، وشارب الخمر لم يتق الله، والعاق لوالديه لم يتق الله، والقاطع لرحمه لم يتق الله، والأمثلة على هذا كثيرة، فقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ كلمة عامة شاملة تشمل كل الشريعة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ هذه الجملة تحذير لنا أن نقع فيما نهانا عنه من التقدُّم بين يدي الله ورسوله، أو أن نخالف ما أمر به من تقواه ﴿سَمِيعٌ﴾ أي سميع لما تقولون ﴿عَلِيمٌ﴾ أي عليم بما تقولون وما تفعلون؛ لأن العلم أشمل وأعم، إذ إن السمع يتعلق بالمسموعات، والعلم يتعلق بالمعلومات، والله تعالى محيط بكل شيء علمًا، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، يقول العلماء ـ رحمهم الله ـ: إن السمع الذي اتصف به ربنا ـ عز وجل ـ ينقسم إلى قسمين: سمع إدراك وسمع إجابة، فسمع الإدراك معناه أن الله يسمع كل صوت خفي أو ظهر، حتى إنه ـ عز وجل ـ يقول لنبيه ﷺ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١]. قالت عائشة ـ رضي الله عنها

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٦٢٢)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

-: (الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد كنت في الحجرة - أي حجرة النبي ﷺ - والمرأة تجادله وهو يحاورها وإنه ليخفى عليَّ بعض حديثها) [1]. والله - عز وجل - أخبر بأنه سمع كل ما جرى بين هذه المرأة وبين رسول الله ﷺ، فهذا سمع إدراك، ثم إن سمع الإدراك قد يُراد به بيان الإحاطة والشمول، وقد يراد به التهديد، وقد يُراد به التأييد، فهذه ثلاثة أنواع.

الأول: يراد به بيان الإحاطة والشمول مثل هذه الآية.

الثاني: يُراد به التهديد مثل قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران:١٨١]. وانظر كيف قال: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ حين وصفوا الله تعالى بالنقص، قبل أن يقول: ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ﴾ مما يدلّ على أن وصف الله بالنقص أعظم من قتل الأنبياء.

الثالث: سمع يُراد به التأييد، ومنه قوله - تبارك وتعالى - لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]، فالمراد بالسمع هنا التأييد يعني: أسمعك وأؤيدك، يعني أسمع ما تقولان وما يُقال لكما.

أما سمع الإجابة فمعناه: أن الله يستجيب لمن دعاه، ومنه قول إبراهيم: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]. أي مجيب الدعاء، ومنه قول المصلي: «سمع الله لمن حمده» يعني استجاب لمن حمده فأثابه، ولا أدري أنحن ندرك معنى ما نقوله في صلاتنا أو أننا نقوله تعبدا ولا ندري ما المعنى؟! عندما نقول: «الله أكبر»، تكبيرة الإحرام يعني أن الله أكبر من كل شيء - عز وجل - ولا نحيط بذلك؛ لأنه أعظم من أن تحيط به عقولنا، وعندما نقول: سمع الله لمن حمده. يعني استجاب الله لمن حمده، وليس المعنى أنه يسمعه فقط، لأن الله يسمع من حمده ومن لا يحمده إذا تكلم، لكن المراد أنه يستجيب لمن حمده بالثواب، فهذا السمع يقتضي الاستجابة لمن دعاه.

أما قوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾ فالمراد أنه ذو علم واسع، قال الله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢]. فعندما تؤمن بأن الله سميع، وأن الله عليم، هل يمكن وأنت في عقلك الراشد أن تقول ما لا يرضيه؟ لا، لأنه يسمع، فلا ينبغي لك أن تُسمِع الله ما لا يرضاه منك، أسمِعْهُ ما يحبه ويرضاه إذا كنت مؤمنًا حقًّا بأن الله سميع، وأعتقد لو أن أباك نهاك عن قول من الأقوال فهل تتجرأ أن تسمعه ما لا يرضاه أو أن تسمعه ما نهاك عنه؟ فالله أعظم وأجلّ، فاحذر أن تسمع الله ما لا يرضاه منك، وإذا آمنت بأنه بكل شيء عليم وهذا أعم من السمع؛ لأنه يشمل القول والفعل وحديث النفس حتى ما توسوس به نفسك يعلمه - عز وجل - إذا علمت ذلك هل يمكن أن تفعل شيئا لا يُرضيه؟ لا، لأنه ليس المقصود من إخبار الله لنا بأنه عليم بكل شيء، أن نعلم هذا وأن نعتقده فقط. بل المقصود هذا، والمقصود شيء آخر،

---

(١) صحيح: أخرجه النسائي (٣٤٦٠)، وابن ماجه (١٨٨)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

وهو الثمرة والنتيجة التي تترتب على أنه بكل شيء عليم، فإذا علمنا بأنه بكل شيء عليم فهل نقول بها لا يرضى؟ لا، لأنه سوف يعلمه، وإذا علمنا بأنه على كل شيء عليم هل نعتقد ما لا يرضى؟ لا، لأننا نعلم أنه يعلم ما في قلوبنا، قال الله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾ [البقرة:٢٣٥]. وقال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ [الأنفال:٢٤]، يحول بينك وبين قلبك، فيجب علينا إذا مر بنا اسم من أسماء الله تعالى، أو صفة من صفات الله أن نؤمن بهذا الاسم، وهذه الصفة، وأن نقوم بما هو الثمرة من الإيمان بهذا الاسم، أو الصفة. وما تضمنته الآية الكريمة من أدب عظيم وجه الله تعالى عباده إليه ـ وهذا هو الأدب الأول.

أما الأدب الثاني ففي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الحجرات:٢]، الآية الأولى فيها النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله في أي شيء، سواء من الأقوال أو الأفعال أو غيرها، أما هذه الآية فهي في رفع الصوت وإن لم يكن هناك تقدم في الأحكام من تحليل أو تحريم أو إيجاب، يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ فإذا خاطبك النبي ﷺ بصوت فاخفض صوتك عن صوته، وإذا رفع صوته فارفع صوتك لكن لابد أن يكون دون صوت الرسول ﷺ؛ ولهذا قال: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾.

﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾ يعني لا تنادونه بصوت مرتفع، كما ينادي بعضكم بعضًا، بل يكون جهرًا بأدب وتشريف وتعظيم، يليق به صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهذا كقوله: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ [النور:٦٣]، يعني إذا دعاكم لشيء فلا تجعلوا دعاءه كدعاء بعضكم لبعض، إن شئتم أجبتم وإن شئتم فلا تجيبوا، بل يجب عليكم الإجابة، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال:٢٤] وهنا قال: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾ كذلك أيضًا لا تنادونه بما تتنادون به، فلا تقولون: يا محمد، ولكن قولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، وما أشبه ذلك، ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ يعني كراهة أن تحبط أعمالكم، والمعنى إنما نهيناكم عن رفع الصوت فوق صوته، وعن الجهر له بالقول كجهر بعضكم لبعض كراهة أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون، ففي هذا دليل على أن الذي يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ، أو يجهر له بالقول كجهره لبعض الناس، قد يحبط عمله من حيث لا يشعر؛ لأن هذا قد يجعل في قلب المرء استهانة بالرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والاستهانة بالرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم ردَّة عن الإسلام توجب حبوط العمل، ولما نزلت هذه الآية كان ثابت بن قيس بن شماس ـ رضي الله عنه ـ جهوري الصوت، وكان من خطباء النبي صلى الله عليه وعلى آله

وسلم، فلما نزلت هذه الآية تغيَّب في بيته وصار لا يحضر مجالس النبي ﷺ، فافتقده الرسول ﷺ وسأل عنه فأخبروه أنه في بيته منذ نزلت الآية، فأرسل إليه رسولًا يسأله، فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾.

وإنه قد حبط عمله، وإنه من أهل النار، فدعاه الرسول ﷺ فحضر، وأخبره النبي ﷺ أنه من أهل الجنة، وقال: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ حَمِيدًا، وَتُقْتَلَ شَهِيدًا، وَتَدْخُلَ الجَنَّةَ؟»[1] قال: بلى رضيت، فقُتل - رضي الله عنه - شهيدا في وقعة اليمامة، وعاش حميدًا، وسيدخل الجنة بشهادة الرسول - ﷺ - ولذلك كان ثابت - رضي الله عنه - ممن يُشهد له بأنه من أهل الجنة بعينه؛ لأن كل إنسان يشهد له النبي ﷺ بأنه في الجنة فهو في الجنة، وكل إنسان يشهد له بأنه في النار فهو في النار، وأما من لم يشهد له الرسول ﷺ فنشهد له بالعموم، فنقول: كل مؤمن في الجنة، وكل كافر في النار، ولا نشهد لشخص معين بأنه من أهل النار أو من أهل الجنة إلا من شهد له الله تعالى ورسوله ﷺ، ففي هذه الآية الكريمة بيان تعظيم الرسول ﷺ، وأنه لا يجوز للإنسان أن يجهر له بالقول كجهره لسائر الناس، وأنه لا يجوز له أن يرفع صوته على صوت الرسول - ﷺ - ولما نزلت هذه الآية تأدَّب الصحابة - رضي الله عنهم - بذلك حتى كان بعضهم يكلمه مسارَّة ولا يفهم الرسول ﷺ ما يقول من إسراره، حتى يستثبته مرة أخرى، وفي هذه الآية دليل على أن كل من استهان بأمر الرسول - ﷺ - فإن عمله حابط؛ لأن الاستهانة بالرسول ﷺ ردَّة، والاستهزاء به ردَّة كما قال الله تعالى في المنافقين الذين كانوا يستهزئون برسول الله ﷺ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة: ٦٥] وكانوا يقولون: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء - يعنون الرسول ﷺ وأصحابه - أرغب بطونًا - يعني أوسع - ولا أجبن عند اللقاء، ولا أكذب ألسنًا، فأنزل الله هذه الآية، ولما سألهم الرسول - ﷺ - عن ذلك قالوا: إنما كنا نخوض ونلعب، يعني نتكلم بكلام لا نريده، ولكن لنقطع به عنا عناء الطريق، فأنزل الله هذه الآية. ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥،٦٦]. ولهذا كان الصحيح أن من سب الرسول ﷺ كان كافرًا مرتدًا، فإن تاب قبلنا توبته لكننا لا نرفع عنه القتل، بل نقتله أخذًا بحق رسول الله ﷺ، وإذا قتلناه بعد توبته النصوح الصادقة صلينا عليه كسائر المسلمين الذين يتوبون من الكفر أو من المعاصي.

ثم أثنى الله تعالى على الذين يغضون أصواتهم عند الرسول ﷺ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات:

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٧١٦٧)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٢٦٠)، والطبراني في «الكبير» (٢/ ٦٦)، وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي في «التلخيص».

٣] لما نهى عن رفع الصوت فوق صوته، وعن الجهر له بالقول كجهر بعضنا لبعض، أثنى على الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله، أي يخفضونها ويتكلمون بأدب، فلا إزعاج ولا صخب، ولا رفع صوت، لكن يتكلمون بأدب وغض، قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ أعاد الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ تعظيمًا لشأنهم ورفعة لمنزلتهم، لأن ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ من أسماء الإشارة الدالة على البعد، وذلك لعلو منزلتهم، فأتى باسم الإشارة بيانًا لرفعة منزلتهم وعلوها.

﴿ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾. قال العلماء: معناها أخلصها للتقوى، فكانت قلوبهم مملوءة بتقوى الله -عز وجل- ولهذا تأدَّبوا بآداب الله تعالى التي وجه لها فغضوا أصواتهم عند الرسول ﷺ، فأخبر عن ثوابهم: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾، مغفرة من الله لذنوبهم، وأجر عظيم على أعمالهم الصالحة، وفي هذه الآية إشارة إلى أن الصلاح صلاح القلب، لقوله: ﴿ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾. وكما قال النبي -ﷺ- في الحديث الصحيح: «التَّقْوى هَاهُنَا»(١) وأشار إلى صدره الذي هو محل القلب ثلاث مرات: « التَّقْوى هَاهُنَا، التَّقْوى هَاهُنَا، التَّقْوى هَاهُنَا »(٢)، ولا شك أن التقوى تقوى القلب، أما تقوى الجوارح وهي إصلاح ظاهر العمل فهذا يقع حتى من المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾ [المنافقين: ٤] لكن الكلام على تقوى القلب التي هي بها الصلاح، نسأل الله تعالى أن يرزقنا ذلك، وبعض الناس يفعل المعاصي كإسبال الثوب مثلًا، أو حلق اللحية، أو شرب الدخان، وتنهاه وتخوِّفه من عقاب الله، فيقول: التقوى هاهنا، كأنه يزكي نفسه، وهو قائم بمعصية الله، فنقول له بكل سهولة: لو كان ما هنا متقيًا لكانت الجوارح متقية؛ لأن النبي ﷺ يقول: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ»(٣).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤]. هذه الآية تشير إلى قوم أتوا إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وكان معهم قوم جُفاة لا يقدرون الأمور قدرها، فجعلوا ينادون النبي ﷺ من وراء حجراته - أي حجرات نسائه - ويرفعون أصواتهم بذلك يريدون أن يخرج النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إليهم، يقول الله في هؤلاء: ﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ يعني ليس عندهم عقل، والمراد بالعقل هنا عقل الرشد؛ لأن العقل عقلان: عقل رشد، وعقل تكليف، فأما عقل الرشد فضده السفه، وأما عقل التكليف فضده الجنون، فمثلًا: إذا قلنا: يشترط لصحة الوضوء أن يكون المتوضئ عاقلًا مميزًا، فالمراد بالعقل هنا عقل التكليف، وإذا قلنا: يشترط للتصرف في المال أن يكون المتصرف عاقلًا، أي عقل رشد،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥١٤٤)، ومسلم (٢٥٦٤) واللفظ له.
(٢) انظر ما قبله
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

يحسن التصرف، فالمراد بقوله هنا: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي عقل رشد؛ لأنهم لو كانوا لا يعقلون عقل تكليف لم يكن عليهم لوم ولا ذم، لأن المجنون فاقد العقل لا يلحقه لوم ولا ذم، وهذا واضح، وقوله: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يفهم منه أن بعضهم يعقل وأنه لم يحصل منه رفع صوت، بل هو متأدب مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٥] أي لو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم من بيتك، وتكلمهم بما يريدون لكان خيرًا لهم في أنهم يلتزمون الأدب مع النبي ﷺ وحاجتهم ستقضى؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم يأته أحد في حاجة إلا قضاها، إذا كان يدركها، وهو أحق الناس بقول الشاعر:

مَا قَالَ لَا قَطُّ إِلَّا فِي تَشَهُّدِهِ ... لَوْلَا التَّشَهُّدُ كَانَتْ لَاؤُهُ نَعَمُ

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ في قوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إشارة إلى أن الله غفر لهم ورحمهم، وهذا من كرمه ـ جل وعلا ـ أنه يغفر ويرحم، وقد أخبر الله تعالى في كتابه أن الله لا يغفر الشرك به، ويغفر ما دون ذلك، أي سوى الشرك لمن يشاء، فكل أحد أذنب ذنبًا دون الشرك مهما عظم فإنه تحت مشيئة الله، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له ما لم يتب، فإذا تاب فلا عذاب، لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان :٦٨: ٧٠].

وقلنا: إن الآية تدل على أن الله غفر لهم ورحمهم؛ لأن الله ختم الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذا يدل على أنه غفر لهم ورحمهم، ولذلك قال العلماء في قول الله تعالى في الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادًا، قال: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ۖ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٣٣: ٣٤].

أخذ العلماء من هذه الآية: أن هؤلاء المفسدين المحاربين لله ورسوله، إذا تابوا قبل القدرة عليهم سقط عنهم العذاب، واستدلوا بأن الله ختم الآية بقوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي قد غفر لهم فرحمهم، وهذه مسألة ينبغي لطالب العلم أن ينتبه لها في الآيات: أن ختم الآية بعد ذكر الحكم دليل على ما تقتضيه هذه الأسماء التي ختمت بها الآية، ولهذا قرأ رجل فقال: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالا من الله والله غفور رحيم﴾ فسمعه أعرابي عنده فقال له: أعد الآية، فأعادها وقال: (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالا من الله والله غفور رحيم) قال له: أعد الآية، فأعادها فقال: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ

﴿فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة:٣٨] فقال: الآن أصبت، ثم علل فقال: لأنه لو غفر ورحم ما قطع، ولا تتناسب المغفرة والرحمة مع القطع، لكنه عز وحكم فقطع، فتأمل هذا الفهم فإنه مفيد جدًا، والشاهد من هذا أن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يدل على أن الله غفر لهم ورحمهم.

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦] تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ﴾ الفاسق:هو من انحرف في دينه وعقيدته ومروءته، وضده العدل وهو:من استقام في دينه ومروءته، فإذا جاءنا فاسق منحرف في دينه ومروءته بمعنى أنه مصر على المعاصي تارك للواجبات، لكنه لم يصل إلى حد الكفر، أو منحرف في مروءته لا يبالي بنفسه يمشي بين الناس مشية الهوجاء، ويتحدث برفع صوت، ويأتي معه بأغراض بيته يطوف بها في الأسواق وما أشبه ذلك مما يخالف المروءة، فهذا عند العلماء ليس بعدل. ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾ أي جاءكم بخبر من الأخبار، وهو فاسق، مثال ذلك: جاءنا رجل حالق للحيته، وحالق اللحية فاسق، لأنه مصر على معصية الله تعالى ورسوله ﷺ، فإن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «أَعْفُوا اللِّحَى»[1]. وهذا لم يعف لحيته، بل حلقها، فهذا الرجل من الفاسقين؛ لأنه مصر على معصية، جاءنا بخبر فلا نقبله لما عنده من الفسق، ولا نرده لاحتمال أن يكون صادقًا، ولهذا قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ ولم يقل فردوه، ولم يقل فاقبلوه، بل يجب علينا أن نتبين، وفي قراءة ﴿فتثبتوا﴾ وهما بمعنى متقارب، والمعنى: أن نتثبت.

فإذا قال قائل: إذن لا فائدة من خبره؟

قلنا: لا، بل في خبره فائدة، وهو أنه يحرك النفس حتى نسأل ونبحث؛ لأنه لولا خبره ما حركنا ساكنًا، لكن لما جاء بالخبر نقول: لعله كان صادقًا، فنتحرك ونسأل ونبحث، فإن شهد له الواقع بالحق قبلناه لوجود القرينة الدالة على صدقه، وإلا رددناه، وقوله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ يفيد أنه إن جاءنا عدل فإننا نقبل الخبر، لكن هذا فيه عند العلماء تفصيل، دل عليه القرآن والسنة، فمثلًا الشهادة بالزنا: لو جاءنا رجل عدل في دينه، مستقيم في مروءته، وشهد أن فلانًا زنا فلا نقبل شهادته وإن كان عدلًا، بل نجلده ثمانين جلدة؛ لأنه قذف هذا الرجل البريء بالزنا، وقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤]، فنجلده ثمانين جلدة ولا نقبل له شهادة أبدًا، ونحكم بأنه فاسق وإن كان عدلًا حتى يتوب، وإذا شهد رجلان عدلان على زيد أنه زنا فلا نقبل شهادتها، ولا ثلاثة، فإذا كانوا أربعة عدول فنعم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٨٩٣)، ومسلم (٢٥٩).

﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور:٤]. وقال تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور:١٣] حتى وإن كانوا صادقين، فلو جاءنا ثلاثة نعرف أنهم ثقات عدول وشهدوا بالزنا على شخص فهم عند الله كاذبون غير مقبولين، نجلد كل واحد ثمانين جلدة، وإذا جاءنا رجل شهد على شخص بأنه سرق فلا نقبل شهادته، بل لابد من رجلين، وإذا جاءنا رجل شهد بأنه رأى هلال رمضان فنقبل شهادته، لأن السنة وردت بذلك، فقد قال عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -: تراءى الناس الهلال - يعني ليلة الثلاثين من شعبان - فرأيته فأخبرت النبي ﷺ أني رأيته، فصامه، وأمر الناس بالصيام[1]، وإذا كان رجل غنيًّا ثم أصيب بجائحة ثم جاء يسأل الزكاة، وأتى بشاهد أنه كان غنيًّا وأصابته جائحة وافتقر فلا نقبل شهادة الواحد، ولا نقبل شهادة اثنين، بل لابد من ثلاثة، لأن النبي ﷺ قال لقبيصة: «إِنَّها لَا تَحِلُّ المَسْأَلَةَ» وذكر منها رجل أصابته جائحة – يعني: اجتاحت ماله - فشهد ثلاثة من ذوي الحجا من قومه: إن فلانًا قد أصابته جائحة فحلت له المسألة[2] (ثلاثة من ذوي الحجا) يعني من ذوي العقل، وكذلك نقبل رجلا مع يمين المدعي كما لو ادعى شخص على آخر بأنه يطلبه ألف ريال، فقلنا للمدعي: هات بينة، قال: عندي رجل واحد، فإذا أتى برجل واحد وحلف معه حكمنا له بما ادعاه وهناك أشياء أيضًا لا يتسع المجال لذكرها، وعلى هذا فخبر العدل فيه تفصيل على ما تقدم وخبر الفاسق يتوقف فيه حتى يتبين الأمر، ثم بين الله - عز وجل - الحكمة من كوننا نتبين بخبر الفاسق فقال: ﴿أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ يعني: أمرناكم أن تتثبتوا كراهة أن تصيبوا قومًا بجهالة؛ لأن الإنسان إذا تسرع ولم يتثبت فقد يعتدي على غيره بناءً على الخبر الذي سمعه من الفاسق، وقد يكرهه، وقد يتحدث فيه في المجالس، فيصبح بعد أن يتبين أن خبر الفاسق كذب نادمًا على ما جرى منه، وفي هذه الآية دليل على أنه يجب على الإنسان أن يتثبت فيما ينقل من الأخبار ولا سيما مع الهوى والتعصب، فإذا جاءك خبر عن شخص وأنت لم تثق بقول المخبر فيجب أن تتثبت، وألا تتسرع في الحكم؛ لأنك ربما تتسرع وتبني على هذا الخبر الكاذب فتندم فيما بعد، ومن ثم جاء التحذير من النميمة، وهي نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض للإفساد بينهم، حتى قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ»[3] أي نمام، وصح عنه ﷺ أنه مر بقبرين يُعذبان، فقال: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ» - أي في أمر شاق عليهما - «أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ البَوْلِ»،

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود(٢٣٤٢)، وابن حبان (٨٧١)، والدارمي (٢/ ٤)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٩٠٨).

(٢) إسناده صحيح: أخرجه ابن خزيمة في «صحيحه» (٤/ ٦٥).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥).

أو لا يستبرئ أو لا يستنزه من البول «وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»(١) يمشي بين الناس ينمّ الحديث إلى الآخرين ليفسد بين الناس، ثم أخذ جريدة رطبة فشقَّها نصفين وغرز في كل قبر واحدة فقالوا: يا رسول الله، لمَ فعلت هذا؟ قال: «لَعَلَّهُ يُخَفَّف عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا»(٢). ومن هذا النوع ما ينسب إلى بعض العلماء من الفتاوى التي لم يتكلم بها إطلاقًا، أو تكلم ولكن فُهِمَ ما ينقل عنه خطأ، فإن بعض الناس قد يفهم من العالِم كلمة على غير مراد العالِم بها، وقد يسأل العالِم سؤالًا يتصوره العالم على غير ما في نفس هذا السائل، ثم يجيب على حسب ما فهمه، ثم يأتي هذا الرجل وينشر هذا القول الذي ليس بصحيح، وكم من أقوال نسبت إلى علماء أجلاء، لم يكن لها أصل؛ لهذا يجب التثبُّت فيما يُنقل عن العلماء أو غير العلماء، ولا سيما في هذا الزمن الذي كثرت فيه الأهواء، وكثر فيه التعصب، وصار الناس كأنهم يمشون في عمى.

قول الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات:٧] هذه الآية جاءت بعد قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ وسبب ما سبق أن النبي ﷺ بلغه عن قوم ما ليس فيهم، فأمر الله تعالى بالتأكد من الأخبار إذا جاء بها من لا تُعرف عدالته، وكأن بعض الصحابة - رضي الله عنهم - أرادوا من النبي ﷺ أن يُعاقب هؤلاء الذين بلغه عنهم ما بلغه، ولكن النبي ﷺ لم يفعل بعد أن نزلت عليه الآية: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ ولكن العبرة بعموم اللفظ وقوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ أي لشق عليكم ما تطلبونه من الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهذا له أمثلة كثيرة منها: أن النبي ﷺ قام بأصحابه في رمضان يصلي بهم صلاة القيام فانصرفوا وقد بقي من الليل ما بقي، وقالوا: يا رسول الله، لو نفلتنا بقية ليلتنا - يعني طلبوا منه أن يقوم بهم كل الليل - ولكنه ﷺ قال لهم: «مَنْ قَامَ مَعَ الإِمَامِ حَتَّى يَنْصَرِفَ كُتِبَ لَهُ قِيَامُ لَيْلَةٍ»(٣)، ولم يوافقهم على طلبهم، لما في ذلك من العنت والمشقة، ومنها: أن نفرًا من أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بحثوا عن أمره في السر - يعني فيما لا يظهر للناس - وهو العمل الذي يفعله في بيته من العبادات فكأنهم تقالُّوها فقالوا: إن رسول الله ﷺ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأما هم فلم يكن لهم ذلك، فقال أحدهم: أنا أصوم ولا أفطر، وقال الثاني: أن أقوم ولا أنام، وقال

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢١٨) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٩٢).

(٢) انظر ما قبله.

(٣) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ١٥٩)، والترمذي (٨٠٦)، والنسائي (١٣٦٤)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٤٤٧).

الثالث: أنا لا أتزوج النساء، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال: «أَمَّا أَنَا فَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَقُومُ وَأَنَامُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[(١)]، فحذرهم أن يعملوا عملًا يشق عليهم، ومن ذلك أيضًا: حديث عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنه وعن أبيه - أنه بلغ النبي ﷺ قوله: إنه ليصومن النهار، وليقومن الليل ما عاش، فدعاه النبي ﷺ قال: «أَنْتَ قُلْتَ هَذَا؟»[(٢)] قال: نعم، قال: «إِنَّكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ»[(٣)] ثم أرشده لما هو أفضل وأهون، والحاصل أنه يوجد من الصحابة - رضي الله عنهم - من له همّة عالية لكن الرسول ﷺ لا يطيعهم في كثير من الأمر؛ لأن ذلك يشق عليهم لو أنه أطاعهم، ثم قال عز وجل: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾.

قد يقول قائل: ما هو ارتباط قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾؟.

والجواب: أنكم تطيعونه – أي: الرسول ﷺ - فيما يخالفكم فيه؛ لأن الله حبَّب إليكم الإيمان فتقدمون طاعة النبي ﷺ فيما يخالفكم فيه؛ لأن الله حبَّب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم، وهذا استدراك من أبلغ ما يكون من الاستدراك، يعني: ولكن إذا خالفكم النبي ﷺ في كثير من الأمر الذي تريدونه فإنكم لن تكرهوا ذلك، ولن تخالفوه، ولن تحملوا على الرسول ﷺ بسببه، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ - أي جعله محبوبًا في قلوبكم - ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ بحيث لا تتركونه بعد أن تقوموا به - وذلك أن فعل الإنسان الشيء للمحبة قد يكون محبة عارضة، لكن إذا زُيّن له الشيء ثبت في المحبة ودامت، ولهذا قال: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ وهذا في القلب، ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أيضًا في القلب، لكن إذا زين الشيء المحبوب للإنسان فإنه يستمر عليه ويثبت عليه ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ كرّه إليكم الكفر الذي هو مقابل الإيمان، والفسوق الذي هو مقابل الاستقامة، والعصيان الذي هو مقابل الإذعان، وهذا تدرج من الأعلى إلى ما دون: فالكفر أعظم من الفسق، والفسق أعظم من العصيان، فالكفر هو الخروج من الإسلام بالكلية، وله أسباب معروفة في كتب أهل العلم ذكرها الفقهاء - رحمهم الله - في باب أحكام المرتد، وأما الفسق فهو دون الكفر، لكنه فعل كبيرة، مثل أن يفعل الإنسان كبيرة من الكبائر ولم يتب منها، كالزنا، وشرب الخمر، والسرقة، والقذف، وما أشبه ذلك، والعصيان: هو الصغائر التي تكفَّر

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٩٧٩) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١١٥٩).

(٣) انظر ما قبله.

بالأعمال الصالحة، كما قال النبي ﷺ: «الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالجُمْعَةُ إِلَى الجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتُنِبَتِ الكَبَائِرُ»[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾. أولئك: المشار إليه من حبب الله إليهم الإيمان وزيَّنه في قلوبهم، وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان ﴿هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ يعني الذين سلكوا طريق الرشد، والرشد في الأصل: حسن التصرف، وهو في كل موضع بحسبه، فالرشد في المال أن يحسن الإنسان التصرف فيه، ولا يبذله في غير فائدة، والرشد في الدين: هو الاستقامة على دين الله - عز وجل - فهؤلاء الذين حبَّب الله إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان هم الراشدون، وهنا تجد هذه الأفعال كلها مضافة إلى الله، ولهذا قال بعدها: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يعني: أن الله أفضل عليكم فضلا أي تفضُّلًا منه، وليس بكسبكم، ولكنه من الله - عز وجل - ولكي يُعلم أنّ الله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته، وأعلم حيث يجعل الإيمان في الشخص، فمن علم الله منه حُسن النية وحُسن القصد والإخلاص حبَّب إليه الإيمان وزيَّنه في قلبه، وكرَّه إليه الكفر والفسوق والعصيان، ومن لم يعلم الله منه ذلك فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] ويقول الله - عز وجل -: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة:٤٩] فالذنوب سبب للمخالفة والعصيان، فهؤلاء الذين تفضَّل الله عليهم وأنعم عليهم نعمة الدين هم الذين وُفقوا للحق، قال الله - عز وجل -: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يعني إنعامًا منه عليهم، والنعمة نعمتان: نعمة في الدنيا، ونعمة في الآخرة، فنعمة الدنيا متصلة بنعمة الآخرة في حقهم. وأما الكفار فهم منعَّمون في الدنيا، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ [الدخان:٢٥: ٢٧] أي تنعُّم، فهؤلاء الكفار عليهم نعمة في الدنيا، لكن في الآخرة عليهم العذاب واللعنة والعياذ بالله، أما المؤمن فإنه يحصل على النعمتين جميعًا: على نعمة في الدنيا، ونعمة في الآخرة، حتى وإن كان فقيرا أو مريضا أو عقيمًا، أو لا نسب له، فإنه في نعمة، لقول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وخلاصة الكلام في النعمة: أن هناك نعمتين: نعمة عامة لجميع الخلق، الكافر والمؤمن، والفاسق والمطيع، ونعمة خاصة للمؤمن، وهذه النعمة الخاصة تتصل بنعمة الدين والدنيا، وأما الأولى فإنها خاصة بنعمة الدنيا فقط لتقوم على الكفار الحجة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ هذان إسمان من أسماء الله يقرن الله بينهما دائمًا: العلم والحكمة، عليم بكل شيء، قال الله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٣٣)، والترمذي (٢١٤)، وابن ماجه (١٠٨٦).

ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]. وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥]. فعلم الله تعالى محيط بكل شيء، والإنسان إذا علم أن الله محيط بكل شيء حتى ما يضمره في قلبه، فإنه يخاف ويرهب ويهرب من الله إليه - عز وجل - ولا يقول قولًا يغضب الله، ولا يفعل فعلًا يغضب الله، ولا يضمر عقيدة تُغضب الله؛ لأنه يعلم أن الله - سبحانه وتعالى - يعلم ذلك، لا يخفى عليه، وأما الحكيم فهو ذو الحكمة البالغة، والحكمة هي أن جميع ما يحكم به جل وعلا موافق ومطابق للمصالح، ما من شيء يحكم الله به إلا وهو حكمة عظيمة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٥]. وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. فمعنى الحكيم: أي ذو الحكمة البالغة، وله معنى آخر وهو: ذو الحكم التام، فإن الله تعالى له الحكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾. وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ ولا أحد يحكم بهواه ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١].

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩] «طائفتان» مفردها «طائفة»، وهي الجماعة من الناس، وقوله: ﴿ٱقْتَتَلُوا۟﴾ جمع، وإنما جمع لأن الطائفة تشتمل على أفراد كثيرين، فلذلك صح أن يعود الضمير على مثنى؛ مراعاة للمعنى، وإلا لكان مقتضى اللغة أن يقول: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلا)، ليطابق الضمير مرجعه لكنه عاد إليه بالمعنى.

والاقتتال بين المؤمنين له أسباب متعددة، والشيطان قد يئس أن يُعبد في جزيرة العرب، ولكنه رضي في التحريش بينهم[1]، يحرش بينهم حتى يكون بعضهم يقتل بعضًا، فإذا حصل الاقتتال فالواجب على المؤمنين الآخرين الصلح بينهما، ولهذا قال: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾، أي اسعوا إلى الصلح بكل وسيلة حتى ولو كان ببذل المال والتنازل عن الحق لأحدهما عن الآخر؛ لأن الصلح لابد فيه من أن يتنازل أحد الطرفين عما يريد من كمال حقه، وإلا لما تم الصلح، ولهذا لما قال الله تعالى: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨] وقال: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]. لأن كل إنسان يريد أن يتم قوله فلابد من التنازل، فإذا أصلحنا بينهما ثم حصل بغي قال الله عز

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨١٢)، وأحمد في «مسنده» (٣/ ٣١٣)، والترمذي (١٩٣٧).

وجل: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾ يعني لو فرض أنه بعد الصلح عادت إحدى الطائفتين تقاتل الأخرى فهنا لا صلح، بل نقاتل التي تبغي ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي ترجع إليه، وأمر الله يعني دينه وشرعه، فانظر في أول الأمر الإصلاح، فإذا تم الصلح وبغت إحداهما على الأخرى، وجب أن نساعد المبغي عليها فنقاتل معها، ﴿فَإِن فَآءَتۡ﴾ فإنه يجب الكف عن قتالهم، ولا يجوز أن نجهز على جريح، ولا أن نتبع مدبرًا، ولا أن نسلب مالًا، ولا أن نسبي ذرية، لأن هؤلاء مؤمنون، ﴿فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ أي: فإن فاءت إلى أمر الله بعد أن قاتلناها ورجعت ووضعت الحرب وجب أن نصلح بينهما بالعدل، وهذا غير الإصلاح الأول، الإصلاح الأول لوقف القتال، وهذا الإصلاح بالتقدير فننظر ماذا تلف على كل طائفة، ثم نسوي بينهما، فمثلا إذا كانت إحدى الطائفتين أتلفت على الأخرى ما قيمته مليون ريال، والثانية أتلفت على الأخرى ما قيمته مليون ريال، فحينئذ تعادل الطائفتان، فإن كانت إحداهما أتلفت على الأخرى ما قيمته ثمانمائة ألف ريال، والأخرى أتلفت ما قيمته مليون فالفرق مائتا ألف ريال تحملها على الأخرى التي أتلفت ما قيمته مليون، ولهذا قال: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ أي يحب العادلين، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن المقسطين على منابر من نور عن يمين الله عز وجل، الذين يعدلون في أهليهم وما ولوا[1] من أمور المسلمين، ثم قال ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ هذا كالتعليل لقوله: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾ يعني إنما أوجب الله علينا الإصلاح بين الطائفتين المقتتلتين؛ لأن المؤمنين إخوة. الطائفتان المقتتلتان هما أخوان، ونحن أيضًا إخوة لهم حتى مع القتال.

فإذا قال قائل: أليس النبي ﷺ قد قال: «سِبَاب الْمُسْلِم فُسُوق، وَقِتَالُهُ كُفْر»[2]، والكافر ليس أخًا للمؤمن؟

فالجواب أن يقال: إن الكفر الذي ذكره النبي ﷺ هو كفر دون كفر، فليس كل ما أطلق الشرع عليه أنه كفر يكون كفرًا، فهنا صرح الله ـ عز وجل ـ بأن هاتين الطائفتين المقتتلتين إخوة لنا مع أن قتال المؤمن كفر. فيقال: هذا كفر دون كفر، وقال النبي ﷺ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمَا كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»[3]، ومعلوم أن الطاعن في النسب والنائح على الميت لا يكفر كفرا أكبر، فدل ذلك على أن الكفر في شريعة الله في الكتاب وفي السنة كفران: كفر مخرج عن الملة، وكفر لا يخرج عن الملة ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡ﴾ وفي هذا من الحمل على العطف على هاتين الطائفتين المقتتلتين ما هو ظاهر في قوله: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡ﴾ كما أنك

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٨٢٧)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ١٦٠)، والنسائي (٥٣٧٩).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٦٤).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٦٧)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٤٩٦)، والترمذي (١٠٠١).

تصلح بين أخويك الأشقاء من النسب، فأصلح بين أخويك في الإيمان ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يعني اتقوا الله تعالى بأن تفعلوا ما أمركم به وتتركوا ما نهاكم عنه؛ لأنكم إذا قمتم بهذا فقد اتخذتم وقاية من عذاب الله، وهذه هي التقوى، وعلى هذا كلما سمعت كلمة تقوى في القرآن فالمعنى أنها اتخاذ الوقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي ليرحمكم الله - عز وجل - إذا اتقيتموه.

ثم قال الله - عز وجل - في جملة ما بيّن لعباده من الآداب والأخلاق الفاضلة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١]. السخرية: هي الاستهزاء والازدراء، ومن المعلوم أن الله تعالى جعل الناس في هذه الحياة الدنيا طبقات، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] أي ليسخر بعضهم بعضًا في المصالح، وليس المراد هنا الاستهزاء، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١] إذا ثبت هذا التفضيل بين الناس فهم يتفاضلون في العلم، فبعضهم أعلم من بعض في علوم الشريعة، وعلوم الوسيلة إلى علوم الشريعة كعلوم اللغة العربية من النحو والبلاغة وغيرها، وهم يتفاضلون في الرزق، فمنهم من بسط له في رزقه، ومنهم من قَدَرَ عليه في رزقه، وهم يتفاضلون في الأخلاق، فمنهم ذوو الأخلاق الفاضلة العالية، ومنهم دون ذلك، وهم يتفاضلون في الخلقة، منهم السوي الخلقة، ومنهم من دون ذلك، ويتفاضلون كذلك في الحسب، منهم من هو ذو حسب ونسب، ومنهم دون ذلك، فهل يجوز لأحد أن يسخر ممن دونه؟ يقول الله - عز وجل -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ فيخاطبنا - جل وعلا - بوصف الإيمان، وينهانا أن يسخر بعضنا من بعض؛ لأن المفضِّل هو الله - عز وجل - وإذا كان هو الله لزم من سخريتك بهذا الشخص الذي هو دونك أن تكون ساخرًا بتقدير الله - عز وجل -، وإلى هذا يوحي قول الرسول - ﷺ -: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ»(١).

وفي الحديث القدسي: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»(٢).

فلماذا تسخر من هذا الرجل الذي هو دونك في العلم أو في المال، أو في الخُلُق، أو في الخلقة، أو في الحسب، أو في النسب، لماذا تسخر منه؟ أليس الذي أعطاك الفضل هو الله الذي حرمه هذا - في تصورك - فلماذا، ولهذا قال - عز وجل -: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ رب ساخر اليوم

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٤٦).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).

مسخور منه في الغد، ورب مفضول اليوم يكون فاضلا في الغد، وهذا شيء مشاهد، وفي بعض الآثار يروى: «مَنْ عَيَّرَ أَخَاهُ بِذَنْبٍ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَعْمَلَهُ»(١).

وفي الآثار أيضًا: «لَا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ بِأَخِيكَ فَيُعَافِيَهُ اللهُ وَيَبْتَلِيكَ»(٢). إذن يجب على الإنسان أن يتأدب بما أدبه الله به، فلا يسخر من غيره عسى أن يكون خيرًا منه، ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ ونص على النساء والرجال بالتفصيل، حتى لا يقول أحد: إن هذا خاص بالرجال، لو ذكر الرجال وحدهم، أو خاص بالنساء وحدهن، وبهذا نعرف الفرق بين القوم والنساء. إذا جمع بين القوم والنساء فالقوم هم الرجال والنساء هن الإناث، وإن ذكر القوم وحدهم شمل الرجال والنساء، مثل ما يذكر في الرسل عليهم الصلاة والسلام أنهم أرسلوا إلى قومهم فهو يشمل الذكور والإناث، لكن إذا ذكر القوم والنساء صار النساء هن الإناث، والقوم هم الذكور.

وهذا الأدب عام لجميع الأمة، ويجب على كل طالب علم أن يكون أول من يمتثل أمر الله - عز وجل - ويجتنب نهيه؛ لأنه مسئول عن ذلك من وجهين:

الوجه الأول: أنه كغيره من المكلفين.

والثاني: أن طالب العلم قدوة، أي عمل يعمله فسوف يقتدي به الناس ويحتجون به، فإذا كان طالب العلم هو الذي يسخر من العلماء أو من دون العلماء فهذه بلية في الواقع، فالواجب على الإنسان إذا خالف غيره أن يلتمس له العذر، ثم يتصل بهذا المخالف ويبحث معه، فربما يكون الحق مع من خالفه، ويناقشه بأدب واحترام وهدوء حتى يتبين الحق، وأما سخريته بما خالف رأيه أو رأي شيخه فهذا غلط، وكل إنسان يخالفك في قولك فإن الواجب عليك أن تحمله على أحسن المحامل وأن هذا اجتهاده، وأن الله - عز وجل - سيأجره على اجتهاده إذا أخطأ، وإن أصاب فله أجران، ثم تتصل به وتناقشه، ولا تستحي، فربما تبين أن الحق معك فتكون لك منة على هذا الرجل، وربما يتبين لك أن الحق معه فيكون له منة عليك، وأما السخرية فهذا ليس من آداب طالب العلم، بل ولا من آداب المؤمن مع أخيه.

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ اللمز: العيب، بأن تقول: فلان بليد، فلان طويل، فلان قصير، فلان أسود، فلان أحمر، وما أشبه ذلك مما يعد عيبًا، وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ فسّر بمعنيين:

المعنى الأول: لا يلمز بعضكم بعضًا، لأن كل واحد منا بمنزلة نفس الإنسان، أخوك بمنزلة نفسك، فإذا لمزته فكأنما لمزت نفسك.

والمعنى الثاني: إن المعنى لا تلمز أخاك، لأنك إذا لمزته لمزك، فلمزك إياه سبب لكونه يلمزك، وحينئذ تكون كأنك لمزت نفسك، وعليه قول النبي ﷺ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ» فقالوا: يا

(١) موضوع: أخرجه الترمذي (٢٥٠٥)، وانظر «الضعيفة» (١٧٨).

(٢) ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٥٠٦)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٢٤٥).

رسول الله كيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبَّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبَّ أُمَّهُ»[(١)]، وعلى كل حال في الآية تحريم عيب المؤمنين بعضهم بعضًا، فلا يجوز لك أن تعيب أخاك بصفة خَلْقية أو صفة خُلُقية، أما الصفة الخَلْقية التي تعود إلى الخلقة فإن عيبك إياه في الحقيقة عيب لخالقه - عز وجل - فالذي خلق الإنسان هو الله عز وجل، والذي جعله على هذه الصفة هو الله عز وجل، والإنسان لا يمكن أن يكمل خِلقته فيكون الطويل قصيرًا، أو القصير طويلًا، أو القبيح جميلًا، أو الجميل قبيحًا؟ فأنت إذا لمزت إنسانًا وعبته في خلقته فقد عبت الخالق في الواقع، ولهذا لو وجدنا جدارًا مبنيًّا مائلًا وعبنا الجدار فعيبنا لباني الجدار، إذن إذا عبت إنسانًا في خلقته فكأنما عبت الخالق - عز وجل - فالمسألة خطيرة، أما عيبه بالخُلُق بأن يكون هذا الرجل سريع الغضب، شديد الانتقام، بذيء اللسان، فلا تعبه؛ لأنه ربما إذا عبته ابتلاك الله بنفس العيب، ولهذا جاء في الأثر: «لَا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ بِأَخِيكَ فَيُعَافِيهُ الله وَيَبْتَلِيكَ»[(٢)]، لكن إذا وجدت فيه سوء خُلُق فالواجب النصيحة، أن تتصل به إن كان يمكن الاتصال به، وتبين له ما كان به من عيب، أو أن تكتب له كتابًا: رسالة باسمك أو باسم ناصح مثلًا، ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ يعني لا ينبز بعضكم بعضًا باللقب، فتقول له مثلًا: يا فاسق، يا فاجر، يا كافر، يا شارب الخمر، يا سارق، يا زاني، لا تفعل هذا؛ لأنك إذا نبزته باللقب فإما أن يكون اللقب فيه، وإما أن لا يكون فيه، فإن كان فيه فقد ارتكبت هذا النهي، وإن لم يكن فيه فقد بهتّه وارتكبت النهي أيضًا، ثم قال - عز وجل -: ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ يعني بئس لكم أن تنقلوا من وصف الإيمان إلى وصف الفسوق، فإذا ارتكبتم ما نهى الله عنه صرتم فسقة، فالإنسان إذا ارتكب كبيرة واحدة من الكبائر صار فاسقًا، وإذا ارتكب صغيرة وكررها وأصرّ عليها صار فاسقًا، فلا تجعل نفسك بعد الإيمان وكمال الإيمان فاسقًا، هذا معنى قوله: ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ لأن هذه الجملة جملة إنشائية تفيد الذم، وما أفاد الذم فإنه منهي عنه بلا شك، فاستفدنا من هذه الآية الكريمة تحريم السخرية، وتحريم لمز الغير، وتحريم التنابز بالألقاب، وأن من صنع ذلك فهو فاسق بعد أن كان مؤمنًا، والفسق ليس وصفًا على اللسان فقط، بل يترتب عليه أحكام، فمثلا قال العلماء: الفاسق لا يصح أن يكون وليًّا على ابنته، فيزوجها من يصح أن يكون وليًّا من أقاربها، فإن لم يكن لها أقارب أو خافوا من أبيها إن زوَّجها فيزوِّجها القاضي، والفاسق لا تقبل شهادته؛ لأن الله تعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ فيشهد عند القاضي بحق، فيقول القاضي: لا نقبلك؛ لأنك فاسق، والفاسق لا يصلح أن يكون إمامًا بالناس في الصلاة، والفاسق الذي يظهر فسقه لا يصح أذانه، كل هذا قال به العلماء رحمهم الله، وإن كان في بعض هذه المسائل خلاف،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٩٧٣)، ومسلم (٩٠) بلفظ: «من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه...» الحديث.

(٢) ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٥٠٦)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٢٤٥).

لكني أقول: إن كلمة «فاسق» ليست بالأمر الهين حتى يقولها الإنسان ﴿بِئْسَ الِاسْمُ﴾؛ ولهذا ذمه الله، فقال: ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ يعني من كان يفعل هذه الأشياء الثلاثة ولم يتب فأولئك هم الظالمون، فالذي لا يتوب يكون ظالمًا، والظلم كما قال النبي - ﷺ - «ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ»(١)، وإذا كان المؤمنون يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، فهؤلاء الظلمة ليس لهم نور، فيجب الحذر مما نهى الله - عز وجل - لأنك أيها العبد، عبد لله تأتمر بأمره، وتنتهي عن نهيه.

فإن قال قائل: ما معنى التوبة؟

فنقول: التوبة من العبد: أن ينتقل من معصية الله إلى طاعته، والتوبة من الله: أن يقبل الله من العبد فيبدل سيئاته حسنات.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨] إلى أن قال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]، وقد تطلق التوبة من الله على توفيقه العبد إلى التوبة، فلله تعالى على العبد توبتان: توبة بمعنى التوفيق للتوبة، وتوبة بمعنى قبول التوبة. والدليل على هذا قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١١٨]. ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ أي وفقهم للتوبة فتابوا، أما التوبة الأخرى وهي قبول توبة العبد، فمثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥] وتوبة العبد تحتاج إلى شروط، إذ ليس كل توبة مقبولة، وليس كل من قال: «نا تائب إلى الله» يكون تائبًا، بل لابد من شروط:

الشرط الأول: أن يخلص لله تعالى في التوبة، أي لا يحمله على التوبة أنه خائف من أبيه، أو خائف من أخيه الأكبر، أو خائف من السلطات، أو تاب لأجل أن يقال: فلان مستقيم، والإخلاص لله في التوبة أن يكون الحامل له على التوبة طلب رضى الله - عز وجل - والوصول إلى كرامته، والإخلاص شرط في كل عبادة.

الشرط الثاني: الندم على ما فعل، ومعنى يندم أي: يتحسر ويتكدر أنه وقع منه هذا الشيء. ويخجل من الله عز وجل.

الشرط الثالث: أن يقلع عن الذنب في الحال؛ وذلك بأن يأتي بالواجب إن أمكن تداركه، أو بدله إذا لم يكن تداركه، وأن يقلع عن المحرم إذا كان الذنب فعلًا محرمًا، فإذا كان الذنب في حق الإنسان بأن يكون شخص سرق من إنسان مالًا، والسرقة حرام، وتاب الرجل وندم عزم على ألا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤٧)، ومسلم (٢٥٧٩).

يعود، فلابد أن يوصل هذا المال إلى صاحبه، ولا يمكن أن تتم التوبة إلا بهذا، فإذا قال: أخشى إن ذهبت إلى هذا الرجل وأعطيته المال أن يترتب على ذلك ضرر عليَّ، وعلى سمعتي، وربما أُحبس، وربما يدعي أن المبلغ المسروق أكثر، وأنا قد تبت إلى الله قبل أن يقدر عليَّ فكيف تكون الحال؟ فهل يجوز أن يتصدق به عن صاحبه؟

والجواب: لا يجوز، لأن صاحبه معلوم، أما لو كان مجهولًا كما لو سرق من أناس نسيهم أو جهلهم ولا يدري أين هم، فهنا يتصدق بما سرق عنهم، لكن إذا كان معلومًا لابد أن يوصله، ويمكن أن يعطي شخصًا يثق به، ويقول: يا فلان، إني سرقت هذا المال من فلان، وقد ندمت وتبت إلى الله، ومن فضلك أعطه إياه، وقل له: هذه دراهم من إنسان تستحقها عليه، وهو الآن يبذلها، ولكن لابد أن يكون هذا الرجل الذي وكله أن يوصل الدراهم موثوقًا عند صاحب المال وأمينًا؛لأنه لو لم يكن موثوقًا لاتهمه صاحب المال وقال: أنت السارق والمسروق أكثر، فلابد أن يكون ثقة، وإذا لم يمكن فيمكن أن ترسل بالبريد، ويقال: هذه دراهم من شخص تستحقها عليه، وفي هذه الحال من المعلوم أنك لن تكتب اسمك، وأيضًا يحسن أن لا تكتبها بقلمك، لأنه ربما يمر عليه ويعرف خطك يومًا من الدهر، هذا إذا كان الحق ماليًّا، أما إذا كان الحق غير مالي، مثل أن يكون شخص اغتبته في مجلس أو مجالس، فكيف تكون التوبة من هذا؟ قال كثير من العلماء: لابد أن تذهب إليه، وتستحله، وإلا فسيأخذ من حسناتك يوم القيامة، فاذهب إليه وقل له: يا فلان سامحني.

وقال بعض العلماء: لا يجب أن تستحله، وإنما تستغفر له وتثني عليه في المجالس التي كنت تغتابه فيها، والحسنات يذهبن السيئات، وقد جاء في الحديث: «كَفَّارَةُ مَنِ اغْتَبْتَهُ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُ»(١).

القول الثالث: وهو قول وسط، ولعله الصواب: إن كان صاحبك الذي اغتبته قد علم بذلك فلابد من أن تذهب إليه وتستحله، لأنه لن يزول ما في قلبه حتى تستحله، أما إذا لم يعلم فيكفي أن تستغفر له، وأن تثني عليه في المجالس التي كنت تغتابه فيها، والله غفور رحيم، وينبغي لمن جاء إليه أخوه يعتذر منه أن يسامحه، ولا ينبغي أن يناقش ويرى ما الذي حصل، لأنه ربما يذكر شيئًا كبيرًا فتعجز نفس صاحبه عن أن يحلله، لأن النفس أمارة بالسوء، فالأولى أن لا يسأل، وأن يحتسب الأجر من الله، ويقول: هذا جاء معتذرًا، ومن عفا فأجره على الله، ويرجى في المستقبل أن تعود هذه الغيبة ثناء حسنًا، وهذا التفصيل هو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - وهو الحق، وهو أنه إن كان عالمًا فلابد أن تستحله حتى يزول ما في قلبه، وإن كان غير عالم فلا حاجة

---

(١) ضعيف: أخرجه الحارث بن أبي أسامة في «زوائد المسند» (٢٦١)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» كذا قال الشيخ الألباني في «الضعيفة» (١٥١٩).

إلى استحلاله، هذا بالنسبة للذي اغتاب غيره، أما الذي اغتيب وطُلب منه السماح فالذي نرى أن الأفضل والأكمل أن يحلله، لأنه أخوه جاءه معتذرًا نادمًا فليحلله. وثقوا أنه إذا حلله ستكون كبيرة وعظيمة على الشخص الذي استحله، سيرى أنه أهدى إليه أكبر هدية، فتنقلب الكراهية التي كانت من قبل إلى محبة وألفة، وهذا هو المطلوب من المسلمين أن يكون بعضهم لبعض إلفًا محبًّا وادًّا.

الشرط الرابع: أن يعزم على أن لا يعود في المستقبل، أي يكون في نفسه نية عازمة جازمة أن لا يعود لهذا الذنب في المستقبل، فإن تاب وهو يقول:«ربما أنه يطرأ علي أن أفعل الذنب»، فهذا التائب لا تصح توبته، لأنه لابد أن يعزم على أن لا يعود في المستقبل.

الشرط الخامس: أن تكون التوبة في وقت قبولها، لأنه يأتي وقت يسد باب التوبة، ولا تقبل من الإنسان، والباب الذي يغلق عن التائبين عام وخاص.

أما العام: فهو طلوع الشمس من مغربها، فسيأتي زمن تخرج الشمس من المغرب، والذي يردها الله ـ عز وجل ـ لو اجتمعت الخلائق كلها على أن تردها ما ردتها، لكن يردها الله ـ عز وجل ـ الذي أمره ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] ترجع هذه الشمس العظيمة إذا غربت من مغربها، وإذا طلعت الشمس من مغربها آمن كل من على الأرض، اليهودي، والنصراني، والبوذي، والشيوعي، وغيرهم، كلهم يؤمنون؛ لأنهم يرون شيئًا واضحًا في الدلالة على الرب ـ عز وجل ـ لكن لا ينفعهم الإيمان، لقوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗا﴾ [الأنعام: ١٨٥]، وفسَّر النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ أنه «خُرُوجُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا»[1] وحينئذ لا تنفع التوبة، مع أن الناس كلهم يؤمنون، لكن لا تنفع، لأنه انسد الباب، وإذا سُدَّ كيف يدخل الناس؟!

أما الخاص: فهو أن يحضر الإنسان أجله، فإذا حضر الإنسان الأجل فلا تنفع التوبة، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨]، وإني أسأل هل أحد منا يعلم متى يموت؟! أبدًا، ربما يموت الإنسان وهو على مكتبه، أو وهو على فراشه، أو وهو في صلاته، في أي لحظة، وإذا كنا نعلم هذا ونوقن به، فالواجب أن نبادر بالتوبة لئلا يفجأنا الموت فينسد الباب، ولهذا كانت التوبة مما يجب على الفور، فلنبادر بالتوبة إلى الله ـ عز وجل ـ ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾، هذا الخبر من الله ـ عز وجل ـ له أمر واقع

(١) إسناده ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٣١)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٣٧٧)، وعبد بن حميد في «مسنده» (١/ ٢٨٣).

يدل عليه لما أغرق الله تعالى فرعون وقومه، قال فرعون حين أدركه الغرق: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] يعني الله - عز وجل - ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فقيل له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ أي: الآن تتوب؟ لماذا لم تتب قبل؟ ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١] فلم تقبل توبته - والعياذ بالله -، وإذا تاب العبد فإن الله يفرح بهذا فرحًا عظيمًا لا يتصوره إنسان، قال النبي ﷺ: «للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ أَحَدِكُمْ» - أو قال: «بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ - مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ» الراحلة هي البعير «كَانَ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَضَلَّهَا» يعني ضاعت عنه «فَطَلَبَهَا فَلَمْ يَجِدْهَا، فَنَامَ تَحْتَ شَجْرَةٍ يَنْتَظِرُ الْمَوْتَ» ضعفت قواه وخارت واضطجع ينتظر الموت «فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا بِنَاقَتِهِ مُتَعَلِّقًا زِمَامُهَا بِالشَّجَرَةِ فَأَخَذَ الزِّمَامَ فَقَالَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ» يريد أن يقول: اللهم أنت ربي وأنا عبدك لكنه «أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»(1) وهل تجدون فرحًا أعظم من هذا؟ لا، لأنه لا فرح أشد من حياة بعد الإشراف على الموت؛ فالرب - عز وجل - يفرح بتوبة أحدنا أشد من فرحة هذا الرجل بناقته.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢] تصدير الخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يدل على العناية به، ولهذا روي عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال: إذا سمعت الله يقول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فارعها سمعك: فإما خير تؤمر به، وإما شر تُنهى عنه. ويعني: وإما خير تحصل به العبرة والاتعاظ، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]، وهنا يقول - عز وجل -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾، الظن: هو أن يكون لدى الإنسان احتمالان يترجح أحدهما على الآخر، وهنا عبر الله تعالى بقوله: ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ ولم يقل: اجتنبوا الظن كله، لأن الظن ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: ظن خير بالإنسان، وهذا مطلوب أن تظن بإخوانك خيرًا ماداموا أهلًا لذلك، وهو المسلم الذي ظاهره العدالة، فإن هذا يُظن به خيرًا، ويُثنى عليه بما ظهر لنا من إسلامه وأعماله.

القسم الثاني: ظن السوء، وهذا يحرم بالنسبة لمسلم ظاهره العدالة، فإنه لا يحل أن يظن به ظن السوء، كما صرح بذلك العلماء، فقالوا - رحمهم الله -: يحرم ظن السوء بمسلم ظاهره العدالة، أما ظن السوء بمن قامت القرينة على أنه أهل لذلك، فهذا لا حرج على الإنسان أن يظن السوء به، ولهذا من الأمثال المضروبة السائرة: (احترسوا من الناس بسوء الظن)، ولكن هذا ليس على إطلاقه، كما هو معلوم، وإنما المراد: احترسوا من الناس الذين هم أهل لظن السوء فلا تثقوا بهم، والإنسان لابد أن يقع في قلبه شيء من الظن بأحد من الناس لقرائن تحتف بذلك، إما لظهور

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤).

علامة في وجهه، بحيث يظهر من وجهه العبوس والكراهية في مقابلتك وما أشبه ذلك، أو من أحواله التي يعرفها الإنسان منه، أو من أقواله التي تصدر منه فيظن به ظن السوء، فهذه إذا قامت القرينة على وجوده فلا حرج على الإنسان أن يظن به ظن السوء.

فإذا قال قائل: أيهما أكثر الظن: المنهي عنه أم الظن المباح؟

قلنا: الظن المباح أكثر؛ لأنه يشمل نوعًا كاملًا من أنواع الظن، وهو ظن الخير، ويشمل كثيرًا من ظن السوء الذي قامت القرينة على وجوده؛ لأنه إذا لم يكن هناك قرينة تدل على هذا الظن السيء، فإنه لا يجوز للإنسان أن يتصف بهذا الظن، ولهذا قال: ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ ولم يقل: أكثر الظن، ولا كل الظن، بل قال: ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ وقد توحي هذه الجملة أن أكثر الظن ليس بإثم، وهو منطبق تمامًا على ما بيناه وقسمناه، أن الظن نوعان: ظن خير، وظن سوء، ثم ظن السوء لا يجوز إلا إذا قامت القرينة على وجوده، ولهذا قال: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ فما هو الظن الذي ليس بإثم؟ نقول: هو ظن الخير، وظن السوء الذي قامت عليه القرينة هذا ليس بإثم، لأن ظن الخير هو الأصل، وظن السوء الذي قامت عليه القرينة هذا أيضًا أيدته القرينة. ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ التجسس طلب المعايب من الغير، أي أن الإنسان ينظر ويتصنت ويتسمع لعله يسمع شرًّا من أخيه، أو لعله ينظر سوءًا من أخيه، والذي ينبغي للإنسان أن يعرض عن معايب الناس، وأن لا يحرص على الاطلاع عليها، ولهذا روي عن النبي ﷺ من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه قال ـ ﷺ ـ: «لَا يُخْبِرُنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا»، يعني شيئا مما يوجب ظن السوء به «فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ»(١) فلا ينبغي للإنسان أن يتجسس، بل يأخذ الناس على ظاهرهم، ما لم يكن هناك قرينة تدل على خلاف ذلك الظاهر، وفي هذه الجملة من الآية قراءة أخرى (ولا تحسسوا) فقيل: معناهما واحد، وقيل: بل لكل واحدة منهما معنى، والفرق هو: أن التجسس أن يحاول الإنسان الاطلاع على العيب بنفسه، والتحسس أن يلتمسه من غيره، فيقول للناس مثلًا: ما تقولون في فلان، ما تقولون في فلان؟ وعلى هذا فتكون القراءتان مبينتين لمعنيين كلاهما مما نهى الله عنه، لما في هذا من إشغال النفس بمعايب الآخرين، وكون الإنسان ليس له هم إلا أن يطلع على المعايب، ولهذا من ابتلي بالتجسس أو بالتحسس تجده في الحقيقة قلقًا دائمًا في حياته، وينشغل بعيوب الناس عن عيوبه، ولا يهتم بنفسه، وهذا يوجد كثيرًا من بعض الناس الذين يأتون إلى فلان وإلى فلان، ما تقول في كذا؟ ما تقول في كذا؟ فتجد أوقاتهم ضائعة بلا فائدة، بل ضائعة بمضرة؛ لأن ما وقعوا فيه فهو معصية لله ـ عز وجل ـ هل أنت وكيل عن الله ـ عز وجل ـ تبحث عن معايب عباده، والعاقل هو الذي

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٩٥)، والترمذي (٣٨٩٦)، وأبو داود (٤٨٦٠)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٣٢٢).

يتحسس معايب نفسه، وينظر معايب نفسه ليصلحها، لا أن ينظر في معايب الغير ليشيعها ـ والعياذ بالله ـ ولهذا قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ١٩]، فعلى كل حال هذه آداب وتوجيه من الله ـ عز وجل ـ إلى أخلاق فاضلة مأمور بها، وأخلاق منهي عنها.

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ الغيبة فسرها النبي ﷺ بقوله: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ»[1] وهذا تفسير من الرسول ـ ﷺ ـ وهو أعلم الناس بمراد الله ـ تبارك وتعالى ـ في كلامه: « ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ »، سواء كان ذلك في خلقته، أو خلقه، أو في أحواله، أو في عقله، أو في ذكائه، أو في غير ذلك، مثل أن تقول: فلان قبيح المنظر، دميم، فيه كذا، فيه كذا، تريد معايب جسمه، أو في خُلقه بأن تقول: فلان أحمق، سريع الغضب، سيء التصرف، وما أشبه ذلك، أو في خلقته الباطنة كأن تقول: فلان بليد، فلان لا يفهم، فلان سيء الحفظ، وما أشبه هذا، ورسول الله ﷺ حدها بحد واضح بيّن « ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ »، قالوا: يا رسول الله، أرأيت إن كان فيه ما أقول؟ قال: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ»[2] أي: جمعت بين البهتان والغيبة، وعلى هذا فيجب الكف عن ذكر الناس بما يكرهون، سواء كان ذلك فيهم، أو ليس فيهم، واعلم أنك إذا نشرت عيوب أخيك فإن الله سيسلط عليك من ينشر عيوبك، جزاءً وفاقًا، لا تظن أن الله غافل عما يعمل الظالمون، بل سيسلط عليه من يعامله بمثل ما يعامل الناس، لكن إذا كانت الغيبة للمصلحة فإنه لا بأس بها، ولا حرج فيها، ولهذا لما جاءت فاطمة بنت قيس رضي الله عنها إلى رسول الله ﷺ تستشيره في رجال خطبوها، بيّن معايب من يرى أن فيه عيبًا، فقد خطبها ثلاثة: معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ وأبو جهم بن حارث، وأسامة بن زيد رضي الله عنهما، فقال لها النبي ﷺ: «أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ لَا مَالَ لَهُ، وَأَمَّا أَبُو جَهْمٍ فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ، انْكِحِي أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ»[3]، فذكر النبي ﷺ عيبًا في هذين الرجلين للنصيحة وبيان الحق، ولا يعد هذا غيبة بلا شك، ولهذا لو جاء إنسان يستشيرك في معاملة رجل، قال: فلان يريد أن يعاملني ببيع، أو شراء، أو إجارة، أو في تزويج أو ما أشبه ذلك، وأنت تعرف أن فيه عيبًا فإن الواجب أن تبين له ذلك، ولا يعد هذا كما يقول العامة من قطع الرزق، بل هو من بيان الحق، فإذا عرفت أن في هذا الرجل الذي يريد أن يعامله هذا الشخص ببيع أنه مماطل كذاب محتال، فقل له: يا أخي لا تبع لهذا إنه كذاب مماطل، إنه محتال، ربما يدعي أن في السلعة عيبًا وليس فيها عيب، وربما يدعي الغبن وليس مغبونًا، وما أشبه ذلك فتقع معه في صراع ومخاصمة، أو جاء إنسان يستشيرك في

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٨٩)، والترمذي (١٩٣٤)، وأبو داود (٤٨٧٤).

(٢) انظر ما قبله.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٨٠)، والترمذي (١١٣٥)، والنسائي (٣٢٢٢).

شخص خطب منه ابنته، والشخص ظاهره العدالة والاستقامة، وظاهره حسن خلق، ولكنك تعرف فيه خصلة معيبة فيجب عليك أن تبين هذا، فمثلًا: تعرف أن في هذا الرجل كذبًا، أو تعرف أنه يشرب الدخان لكنه يجحده ولا يبينه للناس، يجب أن تبين تقول: هذا الرجل ظاهره أنه مستقيم، وأنه خلوق، وأنه طيب، ولكن فيه العيب الفلاني، حتى لو كان هذا متجهًا إلى أن يزوجه، ثم هو بعد ذلك بالخيار؛ لأنه سيدخل على بصيرة، وعلى كل حال يستثنى من الغيبة وهي ذكر الرجل بما يكره، إذا كان على سبيل النصيحة، ومنه ما يذكر في كتب الرجال مثلًا، فلان ابن فلان سيء الحفظ، فلان ابن فلان كذوب، فلان ابن فلان فيه كذا وكذا، يذكرون ما يكره من أوصافه، نصيحة لله تعالى ورسوله ﷺ فإذا كان الغرض من ذكرك أخاك ما يكره النصيحة فلا بأس.

كذلك لو كان الغرض من ذلك الظلم والتشكي، فإن ذلك لا بأس به، مثل أن يظلمك رجل وتأتي إلى رجل يستطيع أن يزيل هذه المظلمة، فتقول: فلان أخذ مالي، فلان جحد حقي، وما أشبه ذلك، فلا بأس، فإن هند بنت عتبة رضي الله عنها جاءت إلى النبي ﷺ تشتكي زوجها أبا سفيان، تقول: إنه رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني وولدي، فقال لها الرسول ـ ﷺ ـ: «خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بِالمعْرُوفِ»[1] فذكرت وصفًا يكرهه أبو سفيان بلا شك ولكنه من باب التظلم والتشكي، وقد قال الله تعالى في كتابه ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨] يعني: فله أن يجهر بالسوء من القول لإزالة مظلمته.

ولكن هل يجوز مثل هذا إذا كان قصد الإنسان أن يخفف عليه وطأة الحزن والألم الذي في قلبه بحيث يحكي الحال التي حصلت على صديق له، وصديقه لا يمكن أن يزيل هذه المظلمة لكنه يفرج عنه أو لا؟

الظاهر: أنه يجوز؛ لعموم قوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ وهذا يقع كثيرًا، كثيرًا ما يؤذى الإنسان، ويجنى عليه بجحد مال أو أخذ مال، أو ما أشبه ذلك فيأتي الرجل إلى صديقه ويقول: فلان قال فيَّ كذا، يريد أن يخفف ما في قلبه من الألم والحسرة، أو يتكلم في ذلك مع أولاده، أو مع أهله، أو مع زوجته أو ما أشبه ذلك، هذا لا بأس به؛ لأن الظالم ليس له حرمة بالنسبة للمظلوم.

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ التقوى يكثر الأمر بها في القرآن الكريم، وكذلك في السنة، فما هي التقوى التي يكثر ورودها في كتاب الله وعلى لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ إنها كلمة عظيمة، إنها تعني الوقاية من عذاب الله، وتكون الوقاية من عذاب الله بأمرين:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٣٦٤)، ومسلم (١٧١٤).

الأمر الأول: امتثال أوامر الله ـ عز وجل ـ بأن يقول القائل إذا سمع أمر الله ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ فإن هذا هو قول المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١] ولا تقل: ما الفرق بين كذا وكذا؟ يعني: لماذا يأمر الله بكذا ولا يأمر بكذا، فمثلا في لحوم الإبل أمر النبي ﷺ أن نتوضأ من لحومها، ولهذا كان أكل لحوم الإبل ناقض للوضوء على القول الراجح من أقوال العلماء، فلا تقل: لماذا يأمرنا بالوضوء من أكل لحم الإبل، ولا يأمرنا بالوضوء من أكل لحم البقر؟ مع أن كل منهما يسمى بدنة، ولا تقل: لماذا تؤمر الحائض بقضاء شهر الصوم ولا تؤمر بقضاء الصلاة، على سبيل التشكيك، ولكن قل: سمعنا وأطعنا.

الأمر الثاني: اجتناب ما نهى الله عنه، فإذا نهى الله عن شيء فقل: سمعنا وأطعنا، واجتنبنا. وتأمل قول الله ـ عز وجل ـ في الخمر والميسر والأنصاب والأزلام حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠: ٩١]. أي فبعد هذا التبصير والتبيين هل تنتهون أو لا؟ وهذا الاستفهام بمعنى الأمر، أي فانتهوا، ولهذا قال الصحابة رضي الله عنهم: (انتهينا انتهينا)، فصارت التقوى تتحقق بأمرين:

الأول: امتثال أمر الله ـ عز وجل ـ دون تردد.

والثاني: اجتناب نهي الله ـ عز وجل ـ دون تردد.

يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ هو الله سبحانه وتعالى رحيم وهو رحمن، وقد اجتمع الاسمان في أعظم سورة في كتاب الله، في الفاتحة، قال العلماء: إذا ذكر الرحمن وحده كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] أو ذكر الرحيم وحده كما في هذه الآية ﴿تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ فمعناهما واحد، يعني أن الرحيم والرحمن ذو الرحمة الواسعة الشاملة، والرحمن إذا ذكر وحده كذلك هو ذو الرحمة الواسعة الشاملة، أما إذا اجتمعا جميعًا فالرحمن باعتبار الوصف، والرحيم باعتبار الفعل، يعني أنه ـ عز وجل ـ ذو رحمة واسعة، وهو أيضًا راحم وموصل الرحمة إلى من يشاء من عباده، كما قال الله تعالى: ﴿يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون﴾ [العنكبوت: ٢١] أسأل الله أن يعمني وجميع إخواننا المسلمين برحمته، وأن يجعلنا من دعاة الخير والإصلاح، إنه على كل شيء قدير.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣] الخطاب هنا مصدر بنداء الناس عمومًا، مع أن أول السورة وجه الخطاب فيه للذين آمنوا، وسبب ذلك أن هذا الخطاب في هذه الآية موجه لكل إنسان؛ لأنه يقع التفاخر بالأنساب من كل إنسان، فيقول ـ عز وجل ـ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، والخطاب للمؤمن

والكافر، والبر والفاجر، ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ من ذكر هو آدم، وأنثى هي حواء، هذا هو المشهور عند علماء التفسير، وذهب بعضهم إلى أن المقصود بالذكر والأنثى هنا الجنس، يعني أن بني آدم خُلقوا من هذا الجنس من ذكر وأنثى، وفي الآية دليل على أن الإنسان يتكون من أمه وأبيه أي يخلق من الأم والأب، ولا يعارض هذا قول الله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: ٥: ٧] فإذا قلنا: إن المراد بالصلب صلب الرجل، والترائب ترائب المرأة فلا إشكال، وإن قلنا بالقول الراجح: إن الصلب والترائب وصفان للرجل، يعني الماء الدافق هو ماء الرجل، أما المرأة فلا يكون ماؤها دافقًا، وعلى هذا فيكون الإنسان مخلوقًا من ماء الرجل، لكن ماء الرجل وحده لا يكفي، بل لابد أن يتصل بالبويضة التي يفرزها رحم المرأة فيزدوج هذا بهذا، فيكون الإنسان مخلوقًا من الأمرين جميعًا، أي من أبيه وأمه، ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا﴾ أي صيرناكم شعوبًا ﴿وَقَبَآئِلَ﴾ فالله تعالى جعل بني آدم شعوبًا وهم أصول القبائل، وقبائل وهم ما دون الشعوب، فمثلًا بنو تميم يعتبرون شعبًا، وأفخاذ بني تميم المتفرعون من الأصل يسمون قبائل، ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ هل الحكمة من هذا الجعل أن يتفاخر الناس بعضهم على بعض، فيقول هذا الرجل: أنا من قريش، وهذا يقول أنا من كذا، أنا من كذا؟ ليس هذا المراد، المراد التعارف، أن يعرف الناس بعضهم بعضًا، إذ لولا هذا الذي صيره الله - عز وجل - ما عرف الإنسان من أي قبيلة، ولهذا كان من كبائر الذنوب أن ينتسب الإنسان إلى غير أبيه[1]، لأنه إذا انتسب إلى غير أبيه غير هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهي أنهم شعوب وقبائل من أجل التعارف، فيقال: هذا فلان ابن فلان ابن فلان إلى آخر الجد الذي كان أبًا للقبيلة، ﴿لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ أي: لا لتفاخروا بالأحساب والأنساب، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ ليس الكرم أن يكون الإنسان من القبيلة الفلانية، أو من الشعب الفلاني، الكرم الحقيقي النافع هو الكرم عند الله، ويكون بالتقوى، فكلما كان الإنسان أتقى لله كان عند الله أكرم، فإذا أحببت أن تكون عند الله كريمًا، فعليك بتقوى الله - عز وجل - والتقوى كلها الخير، وكلها البركة، وكلها سعادة في الدنيا والآخرة، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢: ٦٣]. وما أكثر ما ترد على أسماعنا كلمة التقوى، وليس لفظا يجري على الألسن ويمر بالآذان بل يجب أن يكون لفظًا عظيمًا موقرًا معظمًا محترمًا، ويفوت الإنسان من التقوى بقدر ما خالف فيه أمر الله تعالى ورسوله ﷺ، فإذا رأينا مثلا إنسانًا يتقدم إلى المسجد ويصلي مع الجماعة ويخشع في صلاته، ويؤديها بكل طمأنينة، وآخر بالعكس يصلي في بيته ويقتصر فيها على الواجب، فالأول أتقى، إذن فهو أكرم عند الله حتى لو كان مولى من الموالي، والآخر من أرفع الناس نسبًا، فإن الأتقى لله هو الأكرم عند الله - عز وجل - وكل إنسان يجب أن

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٢٦٠٩)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٦١٠٤).

يحظى عند السلطان في الدنيا، ويكون أقرب الناس إليه، فكيف لا نحب أن نكون أقرب الناس إلى الله، وأكرمهم عنده؟! المسألة هوى وشيطان، وإلا لكان الأمر واضحًا، فعليك بتقوى الله - عز وجل - لتنال الكرم عند الله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ بكل شيء، لأنه هنا مطلق، ولم يقيد بحال من الأحوال، ﴿خَبِيرٌ﴾ الخبرة هي العلم ببواطن الأمور، والعلم بالظواهر لا شك أنه صفة مدح وكمال، لكن العلم بالبواطن أبلغ، فيكون عليم بالظواهر، وخبير بالبواطن، فإذا اجتمع العلم والخبرة صار هذا أبلغ في الإحاطة، وقد يقال إن الخبرة لها معنى زائد عن العلم، لأن الخبير عند الناس هو العليم بالشيء الحاذق فيه، بخلاف الإنسان الذي عنده علم فقط، ولكن ليس عنده حذق، فإنه لا يسمى خبيرًا، فعلى هذا يكون الخبير متضمنًا لمعنى زائد على العلم، ثم قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ [الحجرات: ١٤] الأعراب اسم جمع لأعرابي، والأعرابي هو ساكن البادية كالبدوي تمامًا، فالأعراب افتخروا، فقالوا: آمنا آمنا، افتخروا بإيمانهم، فقال الله - عز وجل -: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ قيل: إن هؤلاء من المنافقين، لقول الله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾ [التوبة: ١٠١] والمنافق مسلم، ولكنه ليس بمؤمن، لأنه مستثنى في الظاهر، إذ إن حال المنافق أنه كالمسلمين، ولهذا لم يقتلهم النبي ﷺ، مع علمه بنفاقهم مع أنهم مسلمون ظاهرًا لا
يخالفون، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا :آمنا.

وقيل: إنهم أعراب غير منافقين، لكنهم ضعفاء الإيمان، يمشون مع الناس في ظاهر الشرع، لكن قلوبهم ضعيفة، وإيمانهم ضعيف.

وعلى القول الأول: يكون قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أنه لم يدخل أصلًا، وعلى الثاني: أي لما يدخل الإيمان الدخول الكامل المطلق، ففيهم إيمان لكن لم يصل الإيمان في قلوبهم على وجه الكمال، والقاعدة عندنا في التفسير: أن الآية إذا احتملت معنيين فإنها تحمل عليهما جميعًا إذا لم يتنافيا، فإن تنافيا طلب المرجح.

فالأعراب الغالب عليهم أنهم لا يعرفون حدود ما أنزل الله على رسوله، فيقولون آمنا، فقال الله تعالى يخاطب النبي ﷺ: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ ووجه ذلك أن الإسلام في القلب، وهو صعب، والإسلام علامة في الجوارح، وكل إنسان يمكن أن يعمل بجوارحه عملًا متقنًا كأحسن ما يكون، فقد أخبر النبي ﷺ عن الخوارج أنهم يقرءون القرآن، وأنهم يصلون، وأن الواحد من الصحابة يحقر صلاته عند صلاتهم، وقراءته عند قراءتهم، ومع ذلك يقول النبي ﷺ: «إِنَّهُمْ يَقْرَأُونَ القُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ»[1] نسأل الله العافية، وأنهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، وهذا يدل على أن الإسلام

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤).

يستطيعه كل إنسان يمكن أن يصلي ويسجد ويقرأ ويصوم ويتصدق وقلبه خالٍ من الإيمان، ولهذا قال: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وهنا التعبير يقول: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ﴾ ولم يقل: (ولم يدخل)، قال العلماء: إذا أتت (لما) بدل (لم) كان ذلك دليلا على قرب وقوع ما دخلت عليه، فمثلا إذا قلت: (فلان لمّا يدخلها) أي أنه قريب منها، ومنه قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ [ص: ٨] أي لم يذوقوه، ولكن قريب منه، وهنا قال: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ﴾ أي لم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولكنه قريب من الدخول، ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ إن أطعتم الله ورسوله بالقيام بأمره واجتناب نهيه فإنه لن ينقصكم من أعمالكم شيئًا بل سيوفرها لكم كاملة، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]. فكل إنسان يجزى على عمله إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، لكن رحمة الله تعالى سبقت غضبه [1] ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧: ٨] وقد يعاقب، وقد يعفو الله عنه، فالسيئات يمكن أن تمحى، والحسنات لا يمكن أن تنقص، ولهذا قال: ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ أي لا ينقصكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ختم الآية بالمغفرة والرحمة، إشارة إلى أن هؤلاء الذين قالوا: «إنهم آمنوا»، قريبون من المغفرة والرحمة، لم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولكنه قريب من دخوله.

في هذه الآية الكريمة فرق بين الإسلام والإيمان، وكذلك في حديث جبريل عليه السلام فرق بين الإسلام والإيمان، ففي حديث جبريل عليه السلام لما سأل النبي ﷺ عن الإسلام قال: «أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَأَنْ تُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ». وفي الإيمان قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِالله، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» [2]. ففرق بين الإسلام والإيمان، وفي أدلة أخرى يجعل الله الإيمان هو الإسلام، والإسلام هو الإيمان، فهل في هذا تناقض؟

والجواب: لا، فإذا قرن الإسلام بالإيمان صارا شيئين، وإذا ذكر الإسلام وحده أو الإيمان وحده صارا بمعنى واحد، ولهذا نظائر في اللغة العربية كثيرة، ولهذا قال أهل السنة والجماعة: إن الإسلام والإيمان إذا اجتمعا - يعني إذا ذُكرا في سياق واحد - فهما شيئان، وإذا ذُكر أحدهما دون الآخر فهما شيء واحد، ويدل على هذا أن النبي ﷺ عدد أعمالًا هي من الإسلام، وجعلها من

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٢٢) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٧٥١).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الإيمان فقال: «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلَاهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»(١) مع أنها من الإسلام، قال: «الإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ(٢) وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ»(٣)، وإماطة الأذى عن الطريق من الإسلام؛ لأنها عمل، والأعمال جوارح «وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ»(٤) وهذا في القلب، فالمهم: الإيمان والإسلام إذا افترقا فهما شيء واحد، وإن اجتمعا فهما شيئان.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] (إنما) أداة حصر تفيد إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما سواه، أي ما المؤمنون إلا هؤلاء، والمراد:ما المؤمنون حقًّا الذين تم إيمانهم إلا هؤلاء الذين آمنوا بالله ورسوله، آمنوا: أقروا إقرارًا مستلزمًا للقبول والإذعان، وليس مجرد الإقرار كافيًا، بل لابد من قبول وإذعان، والدليل على أن مجرد الإقرار ليس بكاف أن النبي ﷺ أخبر عن عمه أبي طالب أنه في النار(٥)، وذلك مع أنه مؤمن بالرسول ﷺ، مصدق به، يقول في لاميته المشهورة:

لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَذَّبٌ ... لَدَيْنَا وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الأَبَاطِلِ

ويقول عن دين الرسول:

وَلَقَدْ عَلِمتُ أَنَّ دِيْنَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ البَرِيَّةِ دِينا

لكنه والعياذ بالله لم يقبل هذا الدين، ولم يذعن له، وكان آخر ما قال: إنه على الشرك على ملة عبدالمطلب(٦)، فالذين آمنوا بالله ورسوله ﷺ، هم الذين أقروا إقرارا تامًّا بما يستحق الله عز وجل، وبما يستحق الرسول ﷺ، وقبلوا بذلك وأذعنوا، ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ كلمة، ﴿ثُمَّ﴾ هنا في موقع من أحسن المواقع؛ لأن (ثم) تدل على الترتيب والمهلة، ثم استقروا وثبتوا على الإيمان مع طول المدة، ﴿لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾: أي لم يلحقهم شك في الإيمان بالله ورسوله.

وهنا ننبه إلى مسألة يكثر السؤال عنها في هذا الوقت ـ وإن كان أصلها موجودًا في عهد الرسول ﷺ: وهي الوساوس التي يلقيها الشيطان في قلب الإنسان، فيلقي الشيطان في قلب

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) واللفظ له.

(٢) تقدم قبل حديث

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) واللفظ له.

(٤) انظر ما قبله.

(٥)متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٨٨٥)، ومسلم (٢١٠).

(٦) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).

الإنسان أحيانًا وساوس وشكوكًا في الإيمان أو في القرآن، أو في الرسول، يحب الإنسان أن يمزق لحمه، ويكسر عظمه ولا يتكلم بذلك، فما موقف الإنسان من هذا؟ موقف الإنسان من هذا: أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وينتهي، ويعرض عن هذا، ولا يفكر فيه إطلاقًا، وقد أخبر النبي -ﷺ- أن مثل هذه الوساوس صريح الإيمان(١)، أي خالص الإيمان، وهذا إنما كان خالص الإيمان لأن الشيطان لا يأتي للإنسان الشاك يشككه في دينه، وإنما يأتي لإنسان ثابت مستقر، ليشككه في دينه، فيفسده عليه، فالمؤمن الذي استقر الإيمان في قلبه واطمأن قلبه بالإيمان هو الذي يأتيه الشيطان ليفسد عليه، أما من ليس بمؤمن فإن الشيطان لا يأتيه بمثل هذه الوساوس، لأنه منتهٍ منه، والمهم أن قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ يدل على أنهم ثبتوا على الإيمان، ولو طالت المدة.

فإذا قال قائل: ما الطريقة التي توجب للإنسان ثبوت الإيمان واستقراره؟

قلنا:

أولًا: أن يتفكر في مخلوقات الله سبحانه وتعالى، وأن هذه المخلوقات العظيمة لم تكن وليدة الصدفة، ولم تكن وليدة بنفسها.

ثانيًا: أن يتفكر في شريعة الله وكمالها.

ثالثًا: أن يتفكر في سيرة النبي ﷺ وآياته وما إلى ذلك.

رابعًا: أن يكثر من ذكر الله -عز وجل- فإنه بذكر الله تطمئن القلوب، ويكثر من الطاعات والأعمال الصالحة، لأن الطاعات والأعمال الصالحة تزيد في الإيمان، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة -رحمهم الله-.

﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٢] هذا أيضًا معطوف على قوله: ﴿ءَامَنُوا﴾ أي هم مع إيمانهم بالله -عز وجل- ويقينهم وعدم ارتيابهم يريدون أن يصلحوا عباد الله بالجهاد في سبيل الله، يجاهدون أعداء الله ليرجعوا إلى دين الله ويستقيموا عليه، لا للانتقام منهم، ولا للانتصار لأنفسهم، ولكن ليدخلوا في دين الله -عز وجل- والجهاد في سبيل الله هو القتال لتكون كلمة الله هي العليا، لا للانتقام، فالقتال للانتقام ليس إلا مدافعة عن النفس، أو أخذًا بالثأر فقط، لكن الجهاد حقيقة هو أن يقاتل الإنسان لتكون كلمة الله هي العليا، أما الجهاد انتصارًا للنفس، أو دفاعًا عن النفس فقط، فليس في سبيل الله، لكن لاشك أن من قاتل دفاعًا عن نفسه فإنه إن قتل فهو شهيد، وإن قتله صاحبه فصاحبه في النار كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ، فيمن أراد أن يأخذ مالك قال: «لَا تُعْطِهِ»، قال: يا رسول الله، أرأيت إن قاتلني، قال: «قَاتِلْهُ»،

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٣٢)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٤٤١)، وأبو داود (٥١١١).

قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: «أَنتَ شَهِيدٌ»، قال: إن قتلته؟ قال: «فَهُوَ فِي النَّارِ»[1]، فالجهاد في سبيل الله هو القتال لتكون كلمة الله هي العليا، هذا هو الذي حده النبي ﷺ وفصّله فصلًا قاطعًا، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ في إيمانهم وعدم ارتيابهم، أما الذين قالوا من الأعراب آمنا ولكنهم لم يؤمنوا حقيقة ولكن أسلموا فإنهم ليسوا صادقين، ولهذا قال الله تعالى: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾.

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٦] هذا إنكار لقول الذين قالوا :آمنا، يعني: أتعلمون الله تعالى بأنكم آمنتم وهو عليم بكل شيء، «وتعلمون الله» بمعنى: تخبرون الله، وليس المراد أن ترفعوا جهله عن حالكم، فهو يعلم حالهم - عز وجل - ويعلم أنهم مؤمنون أو غير مؤمنين، لكن ﴿أَتُعَلِّمُونَ﴾ هنا بمعنى تخبرون، وليس معناه أن ترفعوا الجهل عن الله - عز وجل - لأن الله ليس جاهلا بحالهم، بل هو عالم، ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ حينما قلتم: آمنا، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ومنها أي ما في السموات وما في الأرض حالكم إن كنتم مؤمنين أو غير مؤمنين، وفي هذه الآية إشارة إلى أن النطق بالنية في العبادات منكر؛ لأن الإنسان الذي يقول: أريد أن أصلي، يعلّم الله - سبحانه وتعالى - بما يريد من العمل، والله يعلم، والذي يقول: أريد أن أصوم كذلك، والذي يقول: نويت أن أتصدق كذلك، والذي يقول: نويت أن أحج كذلك أيضًا، ولهذا لا يسن النطق بالنية في العبادات كلها لا في الحج ولا في الصدقة، ولا في الصوم، ولا في الوضوء، ولا الصلاة، ولا في غير ذلك، لأن النية محلها القلب، والله عالم بذلك، ولا حاجة إلى أن تخبر الله بها، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، فما في السموات عام، وما في الأرض عام، فكل شيء يعلمه الله، وقد تقدم لنا الكلام مرارًا على هذه الصفة من صفات الله، والتي هي من أوسع صفاته - جل وعلا - ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ خفي أو بين، عام أو خاص، فهو عالم به - جل وعلا -.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧] في هذه الآية تكررت ﴿أَنْ﴾ ثلاث مرات: أي يمنون عليك يا محمد بإسلامهم، وحذف الجملة مع (أن) مطرد؛ كما قال ابن مالك - رحمه الله - في «الألفية».

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ﴾ أي: بأن أسلموا أي بإسلامهم، ويعني بذلك قومًا أسلموا بدون قتال فجعلوا يمنون على الرسول - ﷺ - يذكرون له الفضائل ويقولون: نحن آمنا بك من دون قتال، مع أن المصلحة لهم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾، وقوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ هذا إضراب لإبطال ما سبق، أي ليس لكم منة على الرسول - ﷺ - بإسلامكم، بل المنة لله - عز وجل - عليكم أن هداكم للإيمان، ولا شك أن هذا أعظم منة أن يمن الله على

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٠).

العبد بالهداية إلى الإيمان، مع أن الله أضل كثيرًا من الأمة عنه، وقد أخبر النبي ﷺ أن من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين كلهم في النار وواحدًا من الجنة[1]، فمن وفق بأن واحدًا في الجنة فإن هذه منة عظيمة، ولهذا كان الأنصار رضي الله عنهم حين جمعهم النبي ﷺ يوم قسم غنائم حنين كلما ذكر إليهم شيئًا قالوا: الله ورسوله أمن، قال: «أَلَمْ أَجِدْكُمْ فِي ضَلَالٍ فَهَدَاكُم اللهُ بِي»، قالوا: الله ورسوله أمن، قال: «أَلَمْ أَجِدْكُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَجَمَعَكُم اللهُ بِي؟» قالوا: الله ورسوله أمن[2]، كلما ذكر شيئًا قالوا: الله ورسوله أمن، فالمنة لله على كل من هداه الله بنعمه، فالمنة لله - عز وجل - عليه وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي إن كنتم من ذوي الصدق القائلين بالصدق، فإن المنة لله عليكم ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٨]. أخبر الله في هذه الآية أنه يعلم كل ما غاب في السموات والأرض، وما ظهر فهو من باب أولى، وأخبر - عز وجل - أن من جملة ما يعلمه عمل بني آدم، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، وهذه الآية تفيد مسألة عظيمة في سلوك الإنسان وعمله، وهي أن يعلم بأن الله تعالى بصير بعمله محيط به، فيخشى الله ويتقيه، وفيها الترغيب في الأعمال الصالحة فإنها لن تضيع، وفيها الترهيب من العمل السيئ؛ لأن العبد سيجازى عليه؛ لأن الكل معلوم عند الله عز وجل، نسأل الله تعالى أن يمن علينا بالهداية والتوفيق.



(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٤٨) وفي عير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٢٢).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١).

تفسير سورة ق

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، البسملة سبق الكلام عليها، وأنها آية مستقلة يؤتى بها في ابتداء كل سورة إلا سورة براءة، فإن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لم يكتبوا أمامها بسملة، ولكن جعلوا فاصلًا بينها وبين آخر سورة الأنفال، وليس هناك ذكر يذكر بدلًا عن البسملة، كما يوجد في هامش بعض المصاحف، حيث كتب: (أعوذ بالله من النار، ومن كيد الفجار، ومن غضب الجبار، العزة لله ولرسوله وللمؤمنين)، ولا شك أن هذا كلام بدعي لا أصل له.

﴿قٓ ۚ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١] (ق) حرف من الحروف الهجائية التي يتركب منها الكلام العربي، وهي كسائر الحروف، ليس لها معنى في حد ذاتها، ومن المعلوم أن القرآن نزل بلسان عربي، وإذا كانت هذه الحروف ليس لها معنى باللسان العربي، فهي كذلك ليس لها معنى في كتاب الله ـ عز وجل ـ من حيث المعنى الذاتي لها، وأما بالنسبة للمغزى العظيم الكبير فلها مغزى عظيم كبير، ألا وهو أن هذا القرآن الذي أعجز العرب مع بلاغتهم وفصاحتهم لم يأت بشيء جديد من حروف لم يعرفونها، بل هو بالحروف التي يعرفونها، ومع ذلك عجزوا أن يأتوا بمثله، فدل ذلك على أنه من كلام العزيز الحميد ـ جل وعلا ـ ولهذا لا تكاد تجد سورة ابتدأت بالحروف الهجائية إلا وبعدها ذكر القرآن.

﴿وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ﴾ الواو هنا حرف قسم، أقسم الله تعالى بالقرآن لأن لله تعالى أن يقسم بما شاء، وإقسامه هنا بالقرآن إقسام بكلامه، وكلام الله تعالى من صفاته، وقد ذكر أهل العلم ـ رحمهم الله ـ أنه يجوز الإقسام بالله تعالى، أو بصفة من صفاته، وأما آياته فلا يُقسم بها إلا إذا قصد الإنسان بالآيات كلماته، كالقرآن الكريم، والتوراة، والإنجيل، وما أشبه ذلك، وأما الآيات الكونية كالشمس والقمر فلا يجوز لنا أن نقسم بها، أما الله ـ عز وجل ـ فله أن يقسم بما شاء، والقرآن مأخوذ من «قرأ» إذا تلي، أو من« قرأ» إذا جمع، ومنه قرية؛ لأن الناس يجتمعون فيها، والقرآن يتضمن المعنيين، فهو متلو وهو مجموع أيضًا، ﴿الْمَجِيدِ﴾ أي ذي المجد، وهو العظمة والسلطان المطلق، فالقرآن له عظمة عظيمة، مهيمن مسيطر على جميع الكتب السابقة، حاكم عليها، ليس محكومًا عليه، وهو أيضًا مجيد، به يمجد ويعلو ويظهر من تمسك به، وهذا كقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١: ٢٢].

﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢] هنا لا يتراءى للإنسان التالي جواب القسم، فاختلف العلماء - رحمهم الله - في مثل ذلك: هل له جواب، أو جوابه يعرف من السياق، أو يعرف من المقسم به؟ وأظهر ما يكون: أن نقول: إن مثل هذا التركيب لا يحتاج إلى جواب القسم، لأنه معروف من عظمة المقسم عليه، فكأنه أقسم بالقرآن على صحة القرآن، فالقرآن المجيد لكونه مجيدًا كان دليلًا على الحق، وأنه منزل من عند الله - عز وجل - وحينئذ لا يحتاج القسم إلى جواب؛ لأن الجواب في ضمن القسم: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ عجبوا: الواو تعود على المكذبين للرسول - ﷺ - الذين كذبوا رسالته، وكذبوا بالقرآن، وكذبوا بالبعث، وكذبوا باليوم الآخر، ولهذا ﴿عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ عجبوا عجب استغراب واستنكار، وإنما قلنا ذلك لأن العجب تارة يُراد به الاستنكار والتكذيب، وتارة يراد به الاستحسان.

فقول عائشة - رضي الله عنها -: «كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يُعْجِبُهُ التَّيَمُّنُ فِي تَنَعُّلِهِ، وَتَرَجُّلِهِ، وَطهُورِهِ، وَفِي شَأْنِهِ كُلِّهِ»[1]. والمراد بالعجب هنا: الاستحسان، وقوله هنا: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ المراد به: الاستنكار والتكذيب، ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: ليس بعيدًا عنهم بل هو منهم نسبًا وحسبًا ومسكنًا، يعرفونه، ومع ذلك قالوا: هذا شيء عجيب ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣] لما جاءهم محمد رسول الله ﷺ أخبرهم بأن الله سوف يبعثهم وسوف يجازيهم ويحاسبهم تعجبوا كيف هذا؟ أيحيى الإنسان بعد أن كان رفاتًا، قال الكافرون: ﴿هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ (إذا) من المعروف أنها ظرفية، وكل ظرف يحتاج إلى عامل، والعامل محذوف دل عليه ما بعده، والتقدير ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ نرجع ونبعث.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ ولهذا يحسن عند التلاوة أن تقف على قوله: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ لأن قوله: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ جملة استئنافية لا علاقة لها من حيث الإعراب بما قبلها، والاستفهام هنا بمعنى الإنكار والتكذيب، كأنهم يقولون: لا يمكن أن نرجع ونبعث بعد أن كنا ترابًا وعظامًا، ولكن بين الله - عز وجل - أنه قادر على ذلك، فلما قالوا: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ ومرادهم بالبعد هنا الاستحالة، فهم يرون أن ذلك مستحيل، وربما تلطف بعضهم وقال: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ فهم تارة ينكرون إنكارًا مطلقًا ويقولون: هذا محال، وتارة يقولون: هذا بعيد، قال الله تعالى مبينًا قدرته على ذلك: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ [ق: ٤] الأرض تأكل الإنسان إذا مات، فالله تعالى يعلم ما تنقص الأرض من أجزاء بدنه ذرة بعد ذرة، ولو أكلته الأرض، وقوله: ﴿مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ قد يفيد أنها لا تأكل كل الجسم وفي ذلك تفصيل، أما الأنبياء فإن الأرض لا تأكلهم مهما داموا في قبورهم، لقول النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٦٨)، ومسلم (٢٦٨).

أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ»[(١)]، وأما غيرهم فقد يبقى الجسم مدة طويلة لا تأكله الأرض إلى ما شاء الله، وقد تأكله الأرض، لكن إذا أكلته الأرض فإنه يبقى عجب الذنب[(٢)]، وعجب الذنب هو عبارة عن الجزء اليسير من العظم بأسفل الظهر، هذا يبقى بإذن الله لا تأكله الأرض كأنه يكون نواة للجسم عند بعثه يوم القيامة، فإنه منه يخلق الآدمي في قبره، فإذا تم النفخ في الصور قاموا من قبورهم لله -عز وجل- وإذا كان الله تعالى عالمًا بما نقصت الأرض منهم فهو قادر على أن يرد هذا الذي نقصته الأرض عند البعث، ﴿وَعِندَنَا﴾ أي عند الله تعالى ﴿كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾، أي: حافظ لكل شيء، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ٩: ١٢].

قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥] بل هنا للإضراب الانتقالي، وليست للإضراب الإبطالي؛ لأن الأول ثابت والثاني زائد عليه، وهذا هو الفرق بين (بل) التي للإضراب الإبطالي وبين (بل) التي للإضراب الانتقالي، فصارت (بل) للإضراب دائمة لكن إن كانت تبطل الأول سموها إضراب إبطال، وإن كانت لا تبطله فهو إضراب انتقالي، كأنه انتقل من موضوع إلى آخر ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ ولكن قلوبهم موقنة إلا أن ألسنتهم تكذب، كما قال الله تعالى عن آل فرعون: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ لما هنا بمعنى :حين، فهي ظرف وليست حرفًا، ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ الفاء هنا للتعقيب والسببية، والمعنى :فهم لما كذبوا بالحق في أمر مريج، أي: مختلط اختلط عليهم الأمر -والعياذ بالله- وهو كقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] يعني لأنهم لم يؤمنوا به أول مرة وظلوا في طغيانهم يعمهون، هؤلاء لما كذبوا صاروا في أمر مريج، التبس عليهم الأمر، وترددوا في أمرهم، وهكذا كل إنسان يرد الحق أول مرة، فليعلم أنه سيبتلى بالشك والريب في قبول الحق في المستقبل، ولهذا يجب علينا من حين أن نسمع أن هذا الشيء حق أن نقول: سمعنا وأطعنا، خلافًا لبعض الناس الآن، تقول: أمر الرسول ﷺ بهذا؟ فيقول: الأمر للوجوب أم للاستحباب؟ سبحان الله، افعل ما أمرك به سواء على الوجوب أو على الاستحباب، لأن معنى قوله:«هل هو للوجوب أو للاستحباب؟» معناه: إذا كان للاستحباب فأنا في حل منه، وإذا كان للوجوب فعلته، وهذا خطأ، ولكن قل: سمعنا وأطعنا، ثم إذا وقعت المخالفة فحينئذ ربما يكون السؤال عنه: هل هو واجب أو مستحب؟ ربما يكون وجيهًا، أما قبل فلا.

قد يقول قائل: أنا أسأل هل هو واجب أو مستحب؟ لأن هناك فرقًا بين الواجب والمستحب،

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ٨)، والنسائي (١٣٧٤)، وأبو داود (١٠٤٧)، وابن ماجه (١٦٣٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٢١٢).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥).

والواجب أحب إلى الله، فأنا أفعله من أجل إذا اعتقدت أنه واجب أُثاب عليه ثوابًا واجبًا، وإذا اعتقدت أنه سنة أُثاب عليه ثواب سنة.

قلنا: نعم، هذا طيب، لكن ثواب انقيادك للحق لأول مرة وبكل سهولة وبدون سؤال أفضل من كونك تعتقده واجبًا أو مستحبًّا، وإذا كان الله قد أوجبه عليك أثابك ثواب الواجب، وإن كنت لا تدري، فالانقياد وتمام الانقياد أفضل بكثير من كون أعتقد هذا واجبًا أو مستحبًّا.

ثم قال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦] استدل بالآيات الكونية على صحة الآيات الشرعية.

والاستفهام هنا للتوبيخ، يوبخهم - عز وجل - لماذا لم ينظروا إلى هذا؟ لماذا لم ينظروا إلى السماء وما فيها من عجائب القدرة الدالة على أن الله تعالى قادر على إحياء الموتى الذي أنكره هؤلاء المكذبون، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ يشمل نظر البصر ونظر البصيرة، نظر البصر يكون بالعين، ونظر البصيرة يكون بالقلب، أي: التفكر، وقوله: ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ قد يقول قائل: إن كلمة: ﴿فَوْقَهُمْ﴾ لا فائدة منها، لأن السماء معروفة أنها فوق، ولكن نقول: إن النص على كونها فوقهم إشارة إلى عظمة هذه السماء، وأنها مع علوها وارتفاعها وسعتها وعظمتها تدل على كمال خلقه وقدرته - جل وعلا - ﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ بناها الله - عز وجل - بقوة وجعلها قوية، فقال - جل وعلا -: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢] أي قوية، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ [الذاريات: ٤٧] أي بقوة، وهذا البناء لا نعلم كيف بناها الله - عز وجل - لكننا نعلم أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام: خلق الأرض في أربعة، والسماء في يومين، كما قال الله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢].

وقوله: ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ أي حسنًا منظرها بما خلق الله تعالى فيها من النجوم العظيمة المنيرة المنتظمة في سيرها، وهذه النجوم قال قتادة - رحمه الله - وهو من أئمة التابعين: «خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، وعلامات يُهتدى بها، ورجومًا للشياطين، فمن ابتغى فيها شيئًا سوى تلك فقد أضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به»(١)، يشير إلى ما ينتحله المنجمون من الاستدلال بحركات هذه النجوم على الحوادث الأرضية، حتى إنهم يبنون سعادة الشخص وشقاءه على هذه النجوم، مثلًا يقولون: إذا ولد في النجم الفلاني فهو سعيد، وإذا ولد في النجم الفلاني فهو شقي، وهذا لا أثر لها، أعني تحركات النجوم في السماء، ليس لها أثر فيما يحدث في الأرض، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ يعني ليس للسماء من فروج، أي من فطور وتشقق، بل مبنية محكمة قوية.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [ق: ٧] هذه ثلاثة أمور:

---

(١) ذكره البخاري تعليقًا في «بدء الخلق»، باب: النجوم.

أولًا: الأرض مدها الله - عز وجل - مع أنها بالنسبة للسماء صغيرة جدًّا، لكنها ممدودة للخلق، مسطحة لهم كما قال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ٢٠].

ثانيًا: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ [الحجر: ١٩] أي جبال ثابتات لا تزعزعها الرياح فهي قاسية، وكذلك أيضًا ترسي الأرض.

ثالثًا: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجِۭ بَهِيجٍ﴾ أي من كل زوج سار لناظره، والمراد بالزوج هنا: الصنف، يعني أن ما ينبت في الأرض أصناف متعددة متنوعة حتى إنك ترى البقعة من الأرض وهي صغيرة تشتمل على أنواع من هذه الأصناف، تختلف في ألوانها، وتختلف في أحجامها، وتختلف في ملمسها ما بين شديدة ولينة، إلى غير ذلك من الاختلافات العظيمة، بل إنها تختلف في مذاقها إذا كانت من ذوات الثمر، كما قال تعالى: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤] فمن القادر على أن يخلق هذه الأشياء؟ هو الله سبحانه وتعالى، وهذه التي ﴿فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجِۭ بَهِيجٍ﴾ مع أنها في مكان واحد وتسقى بماء واحد، والأرض أيضًا واحدة، من يقدر على هذا؟ الجواب: هو الله - عزوجل -، إنك تأتي الأرض المعشبة التي أنبت الله تعالى فيها من أصناف النبات فتتعجب، ترى هذه مثلا زهرتها صفراء، وهذه بيضاء، وهذه بنفسجية، وهذه منفتحة، وهذه منضمة إلى غير ذلك من الآيات العظيمة، فهذا أكبر دليل على أن الله قادر على إحياء الموتى الذي أنكره هؤلاء المكذبون لرسول الله ﷺ، وقالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ فالقادر على خلق هذه المخلوقات العظيمة قادر على إحياء الموتى، ثم يقال: من الذي خلق الإنسان؟ هو الله، وإعادة الخلق أهون من ابتدائه كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] فإذا كنتم أيها المشركون تقرون بأن الله هو الخالق، وأنه هو الذي خلقكم وأوجدكم، فلماذا تنكرون أن يعيدكم مع أن أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: «كن» فيكون.

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٨] يعني أن الله تعالى حثنا على أن ننظر إلى السماء وإلى الأرض، وما يحدث فيهما تبصرة، أي لأجل التبصرة والذكرى، قال العلماء: والفرق بين التبصرة والذكرى: أن التبصرة مستمرة، والذكرى عند النسيان، فهذه الآيات تذكرك إذا نسيت، وتبصرك إذا جهلت، وقد يقال: إن الفرق بينهما: أن التبصرة في مقابل الجهل، والذكرى في مقابل النسيان، وكلا القولان حق، المهم أنك إذا نظرت إلى السماء وإلى الأرض وما فيهما مما أودعه الله - عز وجل - من النبات فإنك سوف تبصر بقلبك، وتذكر أيضًا إذا نسيت، ولكن لمن هذه التبصرة والذكرى؟ ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾، ليست لكل إنسان، ما أكثر ما ينظر الكفار في الآيات، ولكن ما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون، إنما الذي ينتفع بها هم كل عبد منيب، أي: رجاع إلى الله - عز وجل -.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩]. يقول - جل وعلا -:

﴿وَنَزَّلْنَا﴾، لأن المطر ينزل شيئًا فشيئًا، وربما يعبر عنه بـ«أنزل» لأنه تجيء به الأودية والشعاب، وقوله: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي من العلو، لأن هذا المطر ينزل من السحاب وليس من السماء التي هي السقف المحفوظ، بدليل قوله تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، إذن هو ينزل من العلو، والحكمة في إنزاله من العلو ليشمل قمم الجبال ومراتع الإبل والسهل والأودية، لأنه لو جاء يمشي سيحًا من الأرض ما وصل إلى قمم الجبال، ولكن الله ـ عز وجل ـ جعله من فوق، وقوله: ﴿مَاءً مُبَارَكًا﴾ من بركته أنه يُنبت به ﴿جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾، الجنات هي البساتين الكثيرة الأشجار، وسميت البساتين الكثيرة الأشجار «جنات» لأنها تُجن أي تستر ما تحتها، وكل بستان ذو شجر ملتف بعضه إلى بعض يسمى جنة، وأما قوله: ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ يعني به الزروع التي تحصد، فذكر الله هنا الأشجار والزروع، فمن الأشجار هل تجذ الثمار، ومن الزروع تحصد الحبوب، ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ [ق: ١٠] خص الله النخل لأنها أشرف الأشجار، ولهذا شبه بها المؤمن حيث قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرًا مَثَلُهَا مَثَلُ المُؤْمِنِ» قال ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: فذهب الناس يخوضون في شجر البوادي، كل يقول: هي الشجرة الفلانية، يقول ابن عمر: فوقع في قلبي أنها النخلة، لكني كنت أصغر القوم ـ يعني فاستحيا أن يتكلم وهو أصغرهم ـ فقال النبي ﷺ: «هِيَ النَّخْلَةُ»(١) وهي الشجرة المذكورة في قول الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، فلهذا خصها هنا بالذكر فقال: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ أي عاليات ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ أي منضود، فالطلع في شماريخه تجده منضودًا من أحسن ما يكون النضد، ومع ذلك تجد هذه الثمرات تسقى بالشمراخ الدقيق اللين مع أنه قد يكون فيه أحيانًا أكثر من ثلاثين حبة.

﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ أي فعلنا ذلك، أنزلنا من السماء ماءً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد، والنخل باسقات. فعلنا ذلك رزقًا للعباد أي عطاءً وفضلًا للعباد، والعباد هنا يشمل: العباد المؤمنين والعباد الكافرين؛ لأن الكافر عبد لله كما قال الله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]. والمراد هنا العبودية الكونية القدرية، أما العبودية الشرعية فلا يكون عبدًا لله إلا من كان ممتثلًا لأمره، مجتنبًا لنهيه، مصدقًا بخبره، ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ أحيينا بالماء الذي ننزله من السماء بلدة ميتة، ﴿بَلْدَةً﴾ لما كانت مؤنثة اللفظ مذكرة المعنى، صح أن توصف بوصف مذكر، ﴿بَلْدَةً مَيْتًا﴾ أي بلد ميت، أحياه بهذا الماء الذي نزل من السماء، تجد الأرض هامدة خاشعة ليس فيها نبات، فإذا أنزل الله المطر عجت بالنبات واخضرت وازدهرت، فهذه حياة بعد الموت ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ أي مثل ذلك الإحياء ﴿الْخُرُوجُ﴾، خروج الناس من قبورهم لله

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦١) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٨١١).

- عز وجل - وإنما ذكر الله تعالى الخروج لأن من عباد الله من أنكر ذلك ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْ﴾ وحجتهم أنهم قالوا: من يحيي العظام وهي رميم؟ من يحيي العظام بعد أن أرمت وصارت ترابًا؟ هذا مستنكر عندهم بعيد، ولكن الله سبحانه وتعالى بيّن أنه ليس ببعيد، وأنهم كما يشاهدون الأرض الميتة ينزل عليها المطر فتحيا إذن فالقادر على إحياء الأرض بعد موتها بنزول المطر قادر على إحياء الأموات بعد موتهم، وهذا قياس جلي واضح، كذلك الخروج.

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ۝١٣ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢: ١٤] ذكر الله هؤلاء المكذبين لفائدتين:

الفائدة الأولى: تسلية الرسول ﷺ بأنه ليس أول رسول كُذِّب، بل قد كُذِّبت الرسل من قبل، كما قال الله تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]. قيل: إنه شاعر، قيل: إنه مجنون، قيل: إنه كاهن. وقد قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، هذه فائدة لذكر قصص الأمم السابقة، وهي تسلية النبي ﷺ؛ لأن الإنسان إذا رأى غيره قد أصيب بمثل مصيبته يتسلى بلا شك، وتهون عليه المصيبة.

الفائدة الثانية: التحذير لمكذبي الرسول ﷺ، ولهذا قال في آخر ما ذكر: ﴿كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ فحق عليهم وعيد الله بالعذاب، وقد قال عز وجل: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٠] يعني كل واحد من هذه الأمم جوزي بمثل ذنبه فعوقب بمثل ذنبه، ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ [ص: ١٢]، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، يعني تسعمائة وخمسين سنة، وهو يدعوهم إلى الله - عز وجل - ولكن لم يستفيدوا من ذلك شيئًا، كلما دعاهم ليغفر لهم ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ [نوح: ٧] تغطوا ﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ [نوح: ٧]، وبقي فيهم هذه المدة، وقد قال الله تعالى في النهاية: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ [هود: ٤٠]. ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ قوم جاءهم نبيهم ولكنهم قتلوه بالرس، وهو البئر، أي حفروا بئرًا ودفنوه، هذا قول، والقول الثاني: أصحاب الرس، أي أنهم قومٌ حول ماءٍ وليسوا بالكثرة الكافية، ومع هذا كذبوا رسولهم ﴿وثمود﴾ وهم قوم صالح في بلاد الحجر المعروفة، كذبوا صالحًا وقالوا: ﴿ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]. وهذا تحدٍّ فأرسل الله عليهم صيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿وَعَادٞ﴾ كذلك أيضًا عاد أرسل الله إليهم هودًا فكذبوه فأهلكهم الله - عز وجل - بالريح العقيم ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢] وكانوا يفتخرون بقوتهم ويقولون: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]. فأراهم الله - عز وجل - قوته وأهلكهم بالريح اللطيفة التي لا يرى لها جسم، ومع ذلك دمرتهم تدميرًا، ﴿وَفِرۡعَوۡنُ﴾ الذي أرسل الله إليه نبيه موسى عليه السلام، وفرعون كان معروفًا بالجبروت والعناد والاستكبار، حتى إنه استخف قومه وقال لهم: إنه رب ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] فأطاعوه فجاءهم موسى ﷺ

بالآيات البينات، لكنهم كذبوا، وأراهم الله تعالى آية كانوا يفتخرون بها يضاد ما جاء به موسى وهو السحر، فجمعوا لموسى ﷺ كل السحرة في مصر، واجتمعوا وألقوا الحبال والعصي، وألقوا عليها السحر فصار الناس يشاهدون هذه الحبال والعصي وكأنها حيات وثعابين، ورهب الناس كما قال الله تعالى: ﴿وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، حتى إن موسى ﷺ أوجس في نفسه خيفة؛ لأنه شاهد أن كل الجو حوله ثعابين تريد أن تلتهم ما تقابله، فأوحى الله إلى موسى أن ألقِ عصاك، فألقى العصا فالتهمت جميع هذه الحيات، وهذا من آيات الله، إذ إن الحية كما هو معروف ليست بذات الكبر لكي تأكل هذا، وكان هذا يذهب بخارًا، إذا أكلت هذه الحبال والعصي، فالسحرة رأوا أمرًا أدهشهم ولم يملكوا أنفسهم إلا أن يؤمنوا مع ذلك إيمانًا تامًّا ﴿وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٠]، وتأمل قوله تعالى: ﴿وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ ولم يقل: سجدوا، كأن شيئًا اضطرهم إلى السجود، كأنهم سجدوا بغير اختيار لقوة ما رأوا من الآية العظيمة، ومع هذه الآية البينة الواضحة على صدق موسى ﷺ لم يؤمن فرعون بل قال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤: ٥٥]، فهمّ بأن يهجم على موسى ومن معه من المؤمنين، فأمر الله موسى أن يخرج من مصر إلى جهة المشرق نحو البحر الأحمر، فامتثل أمر الله، وخرج من مصر إلى هذه الناحية، فتبعهم فرعون بجنوده على حنق، يريد أن يقضي على موسى وقومه، فلما وصلوا إلى البحر قال قوم موسى له: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]. ﴿قَالَ كَلَّآ﴾ [الشعراء: ٦٢] يعني لن ندرك ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] فأوحى الله إليه أن يضرب بعصاه البحر ـ البحر الذي عرضه مسافات طويلة ـ فضرب البحر فانفلق البحر اثني عشر طريقًا، وصارت قطع الماء كأنها جبال، وصارت هذه الطرق التي كانت ريًّا من الماء، وطينا زلقًا، صارت طريقًا يبسًا بإذن الله في لحظة، فدخل موسى وقومه عابرين من أفريقيا إلى آسيا من طريق البحر، فلما تكاملوا داخلين وخارجين للناحية الشرقية دخل فرعون وقومه، فلما تكاملوا للدخول أمر الله البحر فانطبق عليهم، فلما أدرك فرعون الغرق أعلن فقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ﴾ [يونس: ٩٠]. وتأمل أنه لم يقل: آمنت بالله، بل قال: آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل، لماذا؟ إذلالا لنفسه، حيث كان ينكر على بني إسرائيل ويهاجمهم، فأصبح عند الموت يقر بأنه تبع لهم، وأنه يمشي خلفهم، ولكن ماذا قيل له: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ﴾ [يونس: ٩١] تؤمن بالذي آمنت به بنو إسرائيل وأنك من المسلمين ﴿وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]، فلم تقبل توبته، لأنه لم يتب إلا حين حضره الموت، والتوبة بعد حضور الموت لا تنفع، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨] لا تنفع التوبة إذا حضر الموت، نسأل الله تعالى أن يمن علينا بتوبة قبل الموت، ولكن الله قال: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ﴾ [يونس: ٩٢]: ننجيك

بدنك لا بروحك، الروح فارقت البدن، لكن البدن بقي طافيًا على الماء.وبيّن الله الحكمة ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ لأن بني إسرائيل قد أرعبهم فرعون فلو لم يتبين لهم أنه غرق بنفسه لكانت أوهامهم تذهب كل مذهب، لعله لم يغرق، لعله يخرج إلينا من ناحية أخرى، فأقر الله أعين بني إسرائيل بأن شاهدوا جسمه غارقًا في الماء، ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾.

﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ «إخوان لوط» يعني: قوم لوط، أرسل إليهم لوط ﷺ، لأنهم كانوا - والعياذ بالله - يأتون الذكران، ويدعون النساء، أي أن الواحد يجامع الذكر ويدع النساء، كما قال لهم ﷺ: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾، دعاهم إلى الله - عز وجل - وأنذرهم وخوّفهم من هذا الفعل الرذيلة، ولكنهم أصروا عليه، فأرسل الله عليهم حجارة من طين مسومة، يعني معلّمة، كل حجارة عليها علم، يعني علامة على من تنزل عليه وتصعقه، وهذه الخصلة الرذيلة من أقبح الخصال، ولهذا كان حدها في الشريعة الإسلامية القتل بكل حال، يعني أنها أعظم من الزنا، فإذا كان الزاني لم يتزوج من قبل فإنه يجلد مائة جلدة، ويغرَّب عن البلد سنة كاملة، وإن كان محصنًا وهو الذي قد تزوج وجامع زوجته فإنه يرجم حتى يموت، أما اللواط فإن حده القتل بكل حال، يعني لو تلوط شخص بالغ بآخر بالغ باختيار منهما فإنه يجب أن يقتل الفاعل والمفعول به، لقول النبي ﷺ: «مَنْ وَجَدتُّمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الفَاعِلَ وَالمَفْعُولَ بِهِ»[1]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: إن الصحابة أجمعوا على قتله، لكن اختلفوا كيف يُقتل؟ فقال بعضهم: إنه يحرق بالنار لعظم جرمه، والعياذ بالله، وقال آخرون: إنه يرجم بالحجارة، وقال آخرون: إنه يلقى من أعلى مكان في البلد ويتبع بالحجارة، والشاهد أن ابن تيمية رحمه الله نقل إجماع الصحابة على قتله، وإجماع الصحابة حجة فيكون مؤيدًا للحديث: « مَنْ وَجَدتُّمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الفَاعِلَ وَالمَفْعُولَ بِهِ » ولأن هذه الفاحشة الكبرى - والعياذ بالله - فاحشة مفسدة للمجتمع، لأنه يصبح المجتمع الرجالي مجتمعًا نسائيًا، وهو أيضًا لا يمكن التحرز منه، فالزنا يمكن التحرز منه إذا رؤيت امرأة مع رجل في محل ريبة فإنه يمكن مناقشتهما، لكن إذا رؤي ذكر مع ذكر كيف يمكن أن نناقشهما، والأصل أن الرجل مع الرجل يجتمع ولا يتفرق، لهذا كان القول بوجوب قتلهما هو الحق، أما قوم لوط فإن الله تعالى أرسل عليهم حجارة من سجين مسومة فدمرهم تدميرًا، حتى جعل عالي قريتهم سافلها.

﴿وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ [ص: ١٣]، يعني الشجرة، أرسل الله تعالى إليهم شعيبًا فدعاهم إلى الله وذكّرهم به، وحذّرهم من بخس المكيال والميزان، ولكنهم - والعياذ بالله - بقوا على كفرهم وعنادهم ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩] وهذا العذاب يقال: إن الله تعالى أرسل

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٠٠)، وأبو داود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٤٥٦)، وابن ماجه (٢٥٦١)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٢٣٥٠).

إليهم حرًّا شديدًا ولم يجدوا مفرًّا منه إلا أنه أرسلت غمامة واسعة باردة فصاروا يتدافعون إلى ظلها يتظللون بها، فأنزل الله عليهم نارا فأحرقتهم، وفي هذا يقول تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ أيضا ممن كذبوا الرسل وهم أصحاب تُبّع، وهو ملك من ملوك اليمن أرسل الله إليهم رسولًا فكذبوه ولم ينقادوا له، فيقول - عز وجل -: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي أن هؤلاء الأمم الذين أشار الله تعالى إلى قصصهم كلهم كذبوا الرسل، فحق عليهم وعد الله - والعياذ بالله - بعذابه وانتقامه.

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥] الاستفهام هنا للنفي، و«عيينا» هنا بمعنى: تعبنا، والخلق الأول هو ابتداء الخلائق يعني: هل نحن عجزنا عن ابتداء الخلائق حتى نعجز عن إعادة الخلائق؟! من المعلوم أن الجواب: لا، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: ٣٣]. أي لم يتعب بذلك، فإذا كان الله - جل وعلا - لم يتعب بالخلق الأول فإن إعادة الخلق أهون من ابتدائه كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم: ٢٧] وهذا استدلال عقلي يراد به إقناع هؤلاء الجاحدين لإعادة الخلق، فإن الذين كفروا زعموا أن لن يبعثوا وأنه لا بعث، وأنكروا هذا واستدلوا لذلك بدليل واهٍ جدًّا، فقالوا فيما حكاه الله عنهم: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] فقال الله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩]. ثم ساق الأدلة العقلية الدالة على أن الله تعالى قادر على أن يحيي العظام وهي رميم، قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾أي هم مقرون بأننا لم نعِ بالخلق الأول، وأنا أوجدناه لكن هم في لبس من خلق جديد، ولهذا حصل الإضراب هنا، حيث قال: ﴿بَلْ هُمْ﴾ يعني أن هذا عجبٌ من حالهم كيف يقرون بأول الخلق ثم ينكرون البعث بعد الموت، بل هم ﴿فِي لَبْسٍ﴾ أي في شك وتردد ﴿مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو إعادة الخلق. والقادر على ابتداء الخلق يكون قادرًا على إعادته من باب أولى، وهذا دليل عقلي لا يمكن لأي إنسان أن يفر منه، ثم قال - عز وجل - مستدلا على قدرته على البعث: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] يعني ابتدأنا خلقه وأوجدناه وجعلنا له عقلًا وسمعًا وبصرًا وتفكيرًا وحديثًا للنفس، ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ يعني ونحن نعلم ما توسوس به نفسه، أي ما تحدثه به نفسه، دون أن ينطق به، فالله تعالى عالم به، بل إن الله عالم بما سيحدث به نفسه في المستقبل، والإنسان نفسه لا يعلم ما يُحدث به نفسه في المستقبل، والله يعلم ما توسوس به نفسك غدًا وبعد غدٍ، وإلى أن تموت وأنت لا تعلم، وإذا كان الله يعلم ما توسوس به النفس فهذا العلم يوجب لنا مراقبة الله سبحانه وتعالى، وأن لا نحدث أنفسنا بما يُغضبه وبما يكره.

فعلينا أن يكون حديث نفوسنا كله بما يرضيه، لأنه يعلم ذلك، أفلا يليق بنا أن نستحيا من ربنا ـ عز وجل ـ أن توسوس نفوسنا بما لا يرضاه؟!: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾، حبل الوريد هو الأوداج، وهما العرقان العظيمان المحيطان بالحلقوم، يسمى الوريد، ويسمى الودج، وجمعه أوداج، ويضرب المثل بهما في القرب، أقرب شيء إلى قلبك هو حبل الوريد، هذا أقرب إلى المخ، وأقرب من كل شيء فيه الحياة هما الوريدان.

واختلف المفسرون في قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ هل المراد قرب ذاته ـ جلَّ وعلا ـ أو المراد قرب ملائكته؟.

والصحيح: أن المراد قرب ملائكته. ووجه ذلك: أن قرب الله تعالى صفة عالية لا يليق أن تكون شاملة لكل إنسان، لأننا لو قلنا: إن المراد قرب ذات الله لكان قريبًا من الكافر وقريبًا من المؤمن؛ لأنه قال: ﴿خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾، أي إنسان المؤمن والكافر ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ أي إلى هذا الإنسان الذي خلقناه من حبل الوريد، فإذا قلنا:الآية الشاملة، وقلنا:إن القرب هنا القرب الذاتي صار الله قريبًا بذاته من الكافر، وهذا غير لائق، بل الكافر عدو لله ـ عز وجل ـ لكن الراجح ما اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ أن المراد بالقرب هنا قرب الملائكة، أي أقرب إليه بملائكتنا، ثم استدل لقوله بقوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧] فإذ بمعنى حين، وهي متعلقة بالقرب، أي أقرب إليه في هذا الحال حين يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد.

فإن قال قائل: كيف يضيف الله القرب المسند إليه والمراد به الملائكة ألهذا نظير؟.

قلنا: نعم، له نظير، يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٦ : ١٨] «قرآنه» المراد بذلك جبريل، ونسب الله فعل جبريل إلى نفسه؛ لأنه رسوله، كذلك الملائكة نسب الله قربهم إليه لأنهم رسله، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]. وما اختاره شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ هو الصواب.

فإن قال قائل: وهل الله تعالى قريب من المؤمن على كل حال؟.

قلنا: بل في بعض الأحوال، قال النبي ﷺ: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»(١). فهذا قربٌ في حال الدعاء، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]. كذلك هو قريب من المؤمن في حال السجود، لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّه وَهُوَ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٩٩٢) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٧٠٤).

سَاجِدٌ»[(١)]. وعلى هذا فيكون المؤمن قريبًا من الله تعالى حال عبادته لربه، وحال دعائه لربه، أما القرب العام فإن المراد به القرب بالملائكة على القول الراجح.

وقوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ هما ملكان بيَّن الله مكانهما من العبد، فقال: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾، ولم يقل على اليمين وعلى الشمال، لأنهما ليسا على كتفيه، بل هما في مكان قريب، أقرب من حبل الوريد، ولكن قد يقول قائل ملحد: أنا ألتمس حولي لا ألمس أحدًا، أين القعيد؟ فنقول: هذا من علم الغيب الذي لا تدركه عقولنا، وعلينا أن نصدق به ونؤمن به، كما لو لمسناه بأيدينا، أو شاهدناه بأعيننا، أو غير ذلك من أدوات الحس، علينا أن نؤمن بذلك، لأنه قول الله - عز وجل - ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾، قاعد مستقر، أحدهما يكتب الحسنات، والثاني يكتب السيئات، هذا المكتوب عرضة للمحو والإثبات، لأن المكتوب الذي بأيدي الملائكة عرضة للمحو والإثبات لقول الله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]. يعني أصل أم الكتاب هو لوح محفوظ مكتوب فيه ما يستقر عليه العبد، فما يستقر عليه العبد مكتوب، لكن ما كان قابلا للمحو والإثبات في أيدي الملائكة، قال الله - عز وجل -: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، حسنة تذهب السيئة وتمحوها بعد أن كتبت، وهذا باعتبار ما في أيدي الملائكة، أما أم الكتاب الأصل مكتوب فيها ما يستقر عليه العبد، نسأل الله أن يجعلنا ممن يستقر على الإيمان والثبات في الدنيا والآخرة.

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] ﴿مَا يَلْفِظُ﴾: ما هنا نافية، و ﴿قَوْلٍ﴾ مجرورة بـ«من» الزائدة إعرابًا المفيدة معنىً، لكن تأتي حروف الجر أحيانًا زائدة في الإعراب، لكنها تفيد معنى التوكيد، ولهذا إذا اقترن المنفي بـ«من» الزائدة أو بالباء الزائدة مثل ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فإنه أوكد من النفي المجرد من حرف الجر الزائد، ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ إذا جعلنا من زائدة إعرابًا مفيدة معنىً ففائدة معناها التوكيد على العموم أي: أي قول يلفظه الإنسان لديه رقيب عتيد، ﴿رَقِيبٌ﴾ مراقب ليلًا ونهارًا، لا ينفك عن الإنسان، ﴿عَتِيدٌ﴾ حاضر لا يمكن أن يغيب ويوكل غيره، فهو قاعد مراقب حاضر، لا يفوته شيء ﴿مِنْ قَوْلٍ﴾ أي قول نقوله، كل قول لأن ﴿مِنْ﴾ هذه زائدة و ﴿قَوْلٍ﴾ نكرة في سياق النفي فهي للعموم، أي قول، وظاهر الآية الكريمة: أن القول مهما كان يكتب، سواء كان خيرًا أم شرًّا، أم لغوًا يكتب، لكن يحاسب على ما كان خيرًا أو شرًّا، ولا يلزم من الكتابة أن يحاسب الإنسان عليها، وهذا ظاهر اللفظ، وهو أحد القولين لأهل العلم.

ومن العلماء من يقول: إنه لا يكتب إلا الحسنات والسيئات فقط، أما اللغو فلا يكتب.

والقول الأول أولى، وهو العموم، أما النتيجة فواحدة، لأنه حتى على القول بأن الكاتب

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٨٢)، والنسائي (١١٣٧)، وأبو داود (٨٧٥).

يكتب كل شيء يقولون: إنه لا يحاسب إلا على الحسنات والسيئات، لكن كوننا نقول بالعموم هو المطابق لظاهر الآية، ثم هو الذي فيه الدليل على أن المَلَكين لا يتركان شيئًا، مما يدل على كمال عنايتهما بما ينطق به الإنسان، وبناءً على ذلك يجب علينا أن نحترز غاية الاحتراز من أقوال اللسان، فكم زلة لسانية أوجبت الهلاك - والعياذ بالله -، ففي حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - في الرجل الذي قال: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله: «مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ»[1]، قال أبو هريرة - رضي الله عنه -: إنه تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته، نسأل الله العافية.

احْذِرْ لِسَانِكَ أَنْ تَقُولَ فَتُبْتَلَى ... إِنَّ البَلَاءَ مُوَكَّلٌ بِالمَنْطِقِ

احذر آفات اللسان، إن النبي ﷺ جعل حفظ اللسان مَلاك الأمر كله، فقال ﷺ لمعاذ بن جبل - رضي الله عنه -: «أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَى مَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال: فأخذ بلسان نفسه وقال: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا». لا تطلقه، لا تتكلم، قال: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال له: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِم أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِم إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِم»[2]، فالمؤمن يجب أن يحذر لسانه فإنه آفة عظيمة، ولهذا قال الرسول ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»[3]. وحينئذ نعرف أن الصمت مفضّل على الكلام؛ لأنَ الكلامَ قد لا يدري الإنسان أخيرًا هو أم شرًّا، ثم إني أقول: الكلمة إذا أطلقتها وخرجت من فمك فهي كالرصاصة تطلقها، لا يمكنك أن تمنعها إذا خرجت من فوهة البندقية، إذا انطلقت تفسد أو تصلح، كذلك الكلمة، فالعاقل يمنع لسانه ولا يتكلم إلا بخير، والخير إما في ذات المتكلم به، وإما في غيره، يعني قد يكون الكلام ليس خيرًا لا بنفسه، لكنه خير من جهة آثاره، قد يتكلم الإنسان بكلام لغو ليس أمرًا بالمعروف ولا نهيًا عن منكر، وليس إثمًا ووزرًا، لكن يتكلم من أجل أن يفتح الباب للحاضرين، لأنه أحيانًا تستولي على المجلس الهيبة ولا أحد يتكلم، فيبقى الناس كلهم في غم، فيتكلم من أجل أن يفتح الباب للناس، وتنشرح صدورهم، ويحصل تبادل الكلام الذي قد يكون نافعًا، نقول: هذا الكلام الذي تكلم وفتح به باب الكلام وأزال عن الناس الغم يعتبر خيرًا لغيره، وهذا داخل إن شاء الله في قول الرسول ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ».

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]، السكرة هنا: هي تغطية العقل

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٢١).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٢٣١)، والترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٤١٣).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠١٨) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٤٧).

كالإغماء ونحوه، وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٌ»(١). وقوله: ﴿سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ مفرد مضاف، فيشمل الواحدة أو أكثر، وقوله ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: أي أن الموت حق كما جاء في الحديث: «المَوْتُ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ»(٢) فهي تأتي بالحق، وتأتي أيضًا بحق اليقين، فإن الإنسان عند الموت يشاهد ما تُوُعِّد به، وما وُعِدَ به؛ لأنه إن كان مؤمنًا بُشِّر بالجنة، وإن كان كافرًا بُشِّر بالنار ـ أعاذنا الله منها ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الموت ﴿مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ اختلف المفسرون في (ما) هل هي نافية؟ فيكون المعنى: ذلك الذي لا تحيد منه، ولا تنفك منه، أو أنها موصولة؟ فيكون المعنى: ذلك الذي كنت تحيد منه، ولكن لا مفر منه، فعلى الأول يكون معنى الآية: ذلك الذي لا تحيد منه، بل لابد منه، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨]. وتأمل يا أخي: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ ولم يقل: فإنه يدرككم، وما ظنك بشيء تفر منه وهو يلاقيك، إن فرارك منه يعني دنوك منه في الواقع، فلو كنت فارًّا من شيء وهو يقابلك فكلما أسرعت في الجري أسرعت في ملاقاته، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، لأنه ذكر في هذه الآية أن الإنسان مهما كان في تحصنه فإن الموت سوف يدركه على كل حال، وهنا يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، وعلى المعنى الثاني ـ أي: ذلك الذي كنت تحيد منه وتفر منه في حياتك ـ: قد وصلك وأدركك، وعلى كل حال ففي الآية التحذير من التهاون بالأعمال الصالحة، والتكاسل عن التوبة، وأن الإنسان يجب أن يبادر، لأنه لا يدري متى يأتيه الموت، ثم قال: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٠] النافخ في الصور هو ملك، وَكَّله الله تعالى به يسمى إسرافيل، والنفخ في الصور نفختان:

الأولى: نفخة الصعق فيسبقها فزع، ثم صعق.

والثانية: نفخة البعث. وبينهما أربعون، وقد سئل أبو هريرة راوي الحديث: ما المراد بالأربعين؟ فقال: أبيت. أي أني لا أدري ما المراد بالأربعين التي ذكرها النبي ﷺ، المهم أن المراد بقوله: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ النفخة الثانية بدليل قوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ وهذا يعني أنه بهذه النفخة صار يوم القيامة الذي هو يوم الوعيد.

فإن قال قائل: يوم القيامة يوم الوعيد للكفار، ويوم الوعد للمؤمنين، فلماذا ذكر الله تعالى هنا الوعيد دون الوعد؟

فالجواب: لأن السورة كلها مبدوءة بتكذيب المكذبين للرسول ﷺ، فناسب أن يغلب فيها جانب الوعيد ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٤٤٩) واللفظ له، ومسلم (٢٤٤٤).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨).

﴿عَجِيبٌ﴾ [ق١:٢] فكان من الحكمة أن يذكر الوعيد دون الوعد، ومع ذلك فقد ذكر الله تعالى أصحاب الجنة فيما بعد، لأن القرآن مثاني.

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١] جاءت ـ يعني: يوم القيامة ـ كل نفس، أي كل إنسان كل بشر. ويحتمل أن يكون معنى كل نفس من بني الإنسان ومن الجن أيضًا، ممن يلزمون بالشرائع، لأننا إن نظرنا إلى السياق وهو قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦] قلنا: المراد بالنفس هنا نفس الإنسان، وإذا نظرنا إلى أن الشرائع تلزم الجن كما تلزم الإنس، وأن الجن يحشرون يوم القيامة، ويدخل مؤمنهم الجنة، وكافرهم النار، قلنا: إن هذا عام، فالله أعلم بما أراد، ﴿مَّعَهَا سَائِقٌ﴾ يسوقها ﴿وَشَهِيدٌ﴾ يشهد عليها بما عملت، لأن هؤلاء الملائكة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ قد وكلوا بكتابة أعمال بني آدم من خير وشر، وكما سبق أنهم يكتبون كل شيء: الخير والشر واللغو، لكن لا يحاسب الإنسان إلا على الخير أو الشر، ثم قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ ﴿كُنتَ﴾ الخطاب للإنسان، وفيهاالتفات، والالتفات معناه: أن ينتقل الإنسان في أسلوبه من خطاب إلى غيبة، أو من غيبة إلى خطاب، أو من تكلم إلى غيبة، وفائدة ذلك الالتفات أنه يشد ذهن السامع، فبينما الكلام على نسق واحد إذا به يختلف، انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة:١٢] ولم يقل وبعث، وانظر إلى الفاتحة نقرأها كل يوم في كل ركعة من صلواتنا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٢: ٥] ولم يقل (نعبده) فالالتفات أسلوب من أساليب اللغة العربية، وفائدته شدُّ ذهن السامع لما يلقى إليه من الكلام، ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] ﴿لَّقَدْ كُنتَ﴾ هذه الجملة يقول العلماء: إنها مؤكدة بثلاثة مؤكدات، الأول: القسم، والثاني: اللام، والثالث: قد، والتقدير (والله لقد كنت في غفلة من هذا).

فإن قيل: أليس خبر الله تعالى حقًّا وصدقًا. سواءٌ أكد أم لم يؤكد؟

قلنا: بلى، ولا شك، ولكن مادام القرآن نزل باللسان العربي، فإنه لابد أن يكون التأكيد في موضعه، وعدم التأكيد في موضعه، لأن المقصود أن يكون هذا القرآن في أعلى مراتب البلاغة، ﴿لَّقَدْ كُنتَ﴾ أي: أيها الإنسان ﴿فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ أي كنت غافلا عن هذا اليوم ساهٍ في الدنيا، كأنك خلقت لها ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ﴾ يعني هذا اليوم كشف الغطاء، وبان الخفي، واتضح كل شيء، ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي قوي بعد أن كان في الدنيا أعشى أعمى غافل، لكن يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ [ق: ٢٣] قرين الإنسان هو المَلَك الموكل به ليحفظ أعماله؛ لأن الله تعالى وكَّل ببني آدم ملائكة عن اليمين وعن الشمال قعيد، وهذا من عناية الله بك أيها

الإنسان، أن وكَّل بك هؤلاء الملائكة يعلمون ما تفعل، ويكتبون، لا يزيدون فيه ولا ينقصون فيه، فيقول القرين: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي: حاضر، ويحضر للإنسان فيقال: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: ٢٤] قوله: ﴿أَلْقِيَا﴾ قد يشكل على طالب العلم، لأنه قال: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ وقرين مفرد، وهنا ﴿أَلْقِيَا﴾ فيها ألف التثنية، فكيف صح أن يخاطب الواحد بخطاب الاثنين؟

اختلف المفسرون في الجواب عن هذا، فقال بعض العلماء: ﴿أَلْقِيَا﴾ اتصل بها ضمير التثنية بناءً على تكرار الفعل، مثل قوله: ألقي ألقي، فالتكرار للفعل لا للفاعل.

القول الثاني: أن قوله: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ إما أن يكون مفردًا مضافًا، والمعروف أن المفرد المضاف يكون للعموم، فيشمل كل ما ثبت من قرين، وعلى هذا فيكون ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ أي الملكان الموكلان به.

فإذا قال قائل: أروني دليلًا أو شاهدًا على أن المفرد يكون لأكثر من واحد.

قلنا: يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]. وهل نعمة الله واحدة؟ لا، لأن الله تعالى قال: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، لكن «نعمة» الله مفرد مضاف، فتكون شاملة لكل نعمة.

ويمكن أن يقول قائل: إن قوله: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ هو واحد من الملكين، ولا شك أنه يجوز أن يتكلم واحد من الاثنين باسم الاثنين.

﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [ق:٢٤: ٢٦] خمسة أوصاف:

﴿كَفَّارٍ﴾، صيغة مبالغة، فإما أن يقال: إنه كان صيغة مبالغة، لأن هذا الكافر قد فعل أنواعًا من الكفر، فإذا جمعت الأنواع صارت كثيرة، وقد يقال: إن هذه الصيغة ليست صيغة مبالغة، وإنما هي صيغة نسبة، كما يقال: نجار، وحداد، وما أشبه ذلك ممن ينسب إلى هذه الحرفة، فـ﴿كَفَّارٍ﴾، أي: كافر، لكنه قد تمكن الكفر في قلبه ـ والعياذ بالله ـ.

﴿عَنِيدٍ﴾ أي: معاند للحق، لا يقبل مهما عرض له الحق بصورة شيقة بينة واضحة لا يقبل.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ فيمنع الدعوة إلى الله، ويمنع بذل أمواله فيما يرضي الله، ويمنع كل خير، لأن قوله: ﴿لِّلْخَيْرِ﴾ لفظ يشمل كل خير، وقوله: مناع كأنه يلتمس كل خير فيمنعه، فتكون هذه الصيغة صيغة مبالغة.

﴿مُعْتَدٍ﴾ أي: يعتدي على غيره، فلم يمنع غيره من الخير فقط، بل يعتدي عليه، وانظروا إلى كفار قريش ماذا صنعوا مع الرسول ﷺ، منعوه واعتدوا عليه.

﴿مُّرِيبٍ﴾ أي: واقع في الريبة والشك والقلق، وكذلك أيضًا يشكك غيره فيدخل في قلبه

الريبة، فكلمة ﴿مُّرِيبٍ﴾ تقتضي وصف الإنسان بها، وحمل هذا الوصف إلى غيره.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾، ما أوسع هذه الكلمة! وإذا كانت هذه الكلمة وصفًا للكفَّار العنيد، فالمعنى: أنه يعبد مع الله غيره، وكلنا يعلم أن المشركين كانوا يعبدون مع الله غيره، فيعبدون اللات، ويعبدون العزى، ويعبدون مناة، ويعبدون هبل، وكل قوم لهم طاغية يعبدونها كما يعبدون الله، يركعون لها، ويسجدون لها، ويحبونها كما يحبون الله، ويخافون منها كما يخافون من الله - نسأل الله العافية - هذا إذا جعلنا قوله تعالى: ﴿مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ وصف لهذا الكفَّار العنيد.

أما إذا جعلناه أشمل من ذلك فإنها تعم كل إنسان تعبد لغير الله وتذلل لغير الله، حتى التاجر الذي ليس له هم إلا تجارته وتنميتها فإنه عابد لها، حتى صاحب الإبل الذي ليس له هم إلا إبله هو عابد لها، والدليل على أن من انشغل بشيء عن طاعة الله فهو عابد له: قول النبي ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيلَةِ»(١). عبد الدينار هذا تاجر الذهب، وعبد الدرهم تاجر الفضة، وعبد الخميصة تاجر الثياب؛ لأن الخميصة هي الثوب الجميل المنقوش، وعبد الخميلة تاجر الفرش، أو ليس بتاجر - يعني لا يتجر بهذه الأشياء - لكن مشغول بها عن طاعة الله، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، فسمى النبي ﷺ من اشتغل بهذه الأشياء الأربعة عبدًا لها، وفي القرآن الكريم ما يدل على أن العبادة أوسع من هذا، قال الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ﴾، فدل ذلك على أن كل من قدم هوى نفسه على هدي ربه فهو قد اتخذ إلهًا غيره، ولهذا يمكننا أن نقول: إن جميع المعاصي داخلة في الشرك في هذا المعنى، لأنه قدمها على مرضاة الله تعالى وطاعته، فجعل هذا شريكًا لله - عز وجل - في تعبده له واتباعه إياه، فالشرك أمره عظيم، وخطره جسيم، حتى الرجل إذا تصدق بدرهم وهو يلاحظ لعل الناس يرونه ليمدحوه ويقولون: إنه رجل كريم. يعتبر مشركًا مرائيًا، والرياء شرك، وأخوف ما خاف النبي ﷺ على أمته الشرك الخفي، وهو الرياء، فعلى هذا نقول: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾، إن كانت وصفًا خاصًّا بالكفَّار العنيد فإنها تختص بمن يعبد الصنم والوثن، وإن كانت للعموم فهي تشمل كل من اشتغل بغير الله عن طاعته، وتقدم ذكر الأمثلة والأدلة على ما ذكرنا.

قال الله تعالى: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ وهو عذاب النار، نسأل الله أن يعيذنا منها بمنه وكرمه، ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧] هو يدعي أن قرينه هو الذي أطغاه وهو صده عن سبيل الله، فيقول قرينه: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾، ما أمرته أن يكذب، ولا أن يكون عنيدًا، ولا أن يكون معتديًا، ولا أن يكون مريبًا، ولا أن يكون مشركًا مع الله أحدًا، ما فعلت هذا ﴿وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: كان هذا الكافر في ضلال بعيد عن الحق، حينئذ لدينا خصمان: الكفَّار العنيد، والقرين، فالكفَّار العنيد يدعي أن القرين هو الذي أغواه وأطغاه، والقرين ينكر

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٨٨٧)، والترمذي (٢٣٧٥)، وابن ماجه (٤١٣٦).

ذلك، فيقول الله - عز وجل -: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٨]، ﴿لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾ الخصومة منقطعة، لأن الحجة قائمة ولا عذر لأحد، ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾، أي أوعدتكم على المخالفة فلا حجة لكم، ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩] يعني لا أحد يستطيع أن يبدل قولي؛ لأن الحكم لله - عز وجل - وحده، فإذا كان الله تعالى قد وعد فهو صادق الوعد سبحانه وتعالى، وأما الإيعاد فقد يغفر ما شاء من الذنوب إلا الشرك ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ يعني لست أظلم أحدًا، وكلمة (ظلاَّم) لا تظن أنها صيغة مبالغة، وأن المعنى أني لست كثير الظلم، بل هي من باب النسبة، أي: لست بذي ظلم، والدليل على أن هذا هو المعنى، وأنه يتعين أن يكون هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]، ويقول - عز وجل -: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]. ويقول - عز وجل -: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. والآيات في هذا كثيرة، أن الله لا يظلم، بل إننا إذا تأملنا وجدنا أن فضل الله وإحسانه أكثر من عدله، جزاء سيئة سيئة مثلها، وجزاء حسنة عشرة أمثالها، ولو أردنا أن نأخذ بالعدل لكان السيئة بالسيئة والحسنة بالحسنة، لكن فضل الله زائد على عدله - عز وجل - فهو سبحانه وتعالى يجزي بالفضل والإحسان لمن كان محسنًا، وبالعدل بدون زيادة لمن كان مسيئًا، ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠] «يوم»: ظرف زمان، والظروف الزمانية والمكانية وكذلك حروف الجر لابد لها من متعلق، أي لابد لها من فعل أو ما كان بمعنى الفعل تتعلق به، فما هو متعلق قوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ نقول: هو محذوف، والتقدير: (اذكر يوم نقول لجهنم) وليعلم أنه يوجد في اللغة العربية كلمات تحذف بل ربما جمل تحذف، وذلك فيما إذا دل عليها السياق، فهنا الكلمة التي تتعلق بها كلمة يوم محذوفة، والتقدير: اذكر ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ يسألها الله - عز وجل -: ﴿هَلِ امْتَلَأْتِ﴾ وهو يعلم سبحانه وتعالى أنها امتلأت، أو لم تمتلئ؛ لأنه لا يخفى عليه شيء، لكنه يسألها هل امتلأت، ليقرر لها ما وعدها سبحانه وتعالى، فإن الله يقول: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١٢٠]. فيسألها: ﴿هَلِ امْتَلَأْتِ﴾ يعني هل حصل ما وعد الله به؛ لأن الله تكفل بأن يملأ الجنة ويملأ النار، فتقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، (هل) أداة استفهام، وهي حرف، وهل هي استفهام طلب، بمعنى: أنها تطلب الزيادة، أو استفهام نفي، بمعنى: أنها تقول: لا مزيد على ما فيها؟ في هذا للعلماء قولان:

القول الأول: إن المعنى: لا مزيد على ما فيَّ، و(هل) تأتي لاستفهام النفي كما في قوله تعالى:

﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: ٣] أي ما من خالق؟ وعلى هذا فتكون النار امتلأت إذا قالت: لا مزيد على ذلك، فالمعنى أنها امتلأت.

القول الثاني: أنها استفهام طلب، يعني تطلب الزيادة.

وإذا اختلف العلماء في التفسير أو غير التفسير فلنرجع إلى ما قاله الله تعالى ورسوله ﷺ، فلننظر أي القولين أولى بالصواب، ثبت عنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ تُلْقَى فِيهَا وَهِي تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ عَلَيْهَا قَدَمَهُ»[1] ـ أو قال: عَلَيْهَا رِجْلَهُ ـ «فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَتَقُولُ: قَطِ قَطِ» فأولى القولين بالصواب: إنها استفهام طلب يعني تطلب الزيادة، ولكن رحمة الله سبقت غضبه، يضع عليها عز وجل رجله على الوجه الذي أراد، ثم ينزوي بعضها ينضم إلى بعض وتتضايق وتقول: لا مزيد على ذلك، فحقت كلمة الله أنه ملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين، وفي الحديث الذي سقته إثبات القدم أو الرِّجْل لله عز وجل، والمراد رِجْل حقيقة لله عز وجل، إلا أنها لا تشبه أرجل المخلوقين بأي وجه من الوجوه، نعلم علم اليقين أنها ليست مثل أرجل المخلوقين، لقوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

والمقصود من قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾ هو تحذير للناس، لأن كل واحد منا لا يدري أيكون من حطب جهنم، أو يكون ممن نجا منها؟ نسأل الله أن ينجينا وإياكم منها.

﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١] أي قربت للمتقين مكانًا غير بعيد ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ [ق: ٣٢]، ﴿هَٰذَا﴾ أي ما تشاهدون من قرب الجنة ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: هذا الذي توعدون، فإن الله تعالى وعد المؤمنين العاملين الصالحات وعدهم الجنة، وصدق وعده عز وجل، ولكن لمن؟ ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ الأواب: صيغة مبالغة من أبى يئوب بمعنى رجع، أي لكل أواب إلى الله، أي رجاع إليه، ﴿حَفِيظٍ﴾ أي: حفيظ لما أمره الله به، وهذا كقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لعبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ»[2]، والمعنى: أنه حفيظ لأوامر الله، لا يضيعها ولا يقابلها بكسل وتوانٍ بل هو نشيط فيها، وإذا عصى بترك واجب أو فعل محرم تجده يرجع إلى الله، فهو أواب رجاع إلى الله تعالى من المعاصي إلى الطاعات، وكذلك حفيظ حافظ لما أمر الله به، محافظ عليه، قائم به ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٦٦١)، ومسلم (٢٨٤٨).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٢٩٣)، والترمذي (٢٥١٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).

[ق: ٣٣] ﴿مَّنْ﴾ بدل مما سبقها ﴿خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ أي: خافه عن علم وبصيرة، لأن الخشية لا تكون إلا بعلم، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] فهي خشية أي خوف ورهبة وتعظيم لله عز وجل، لأنها صادرة عن علم، وقوله: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ لها معنيان:

المعنى الأول: أنه خشي الرحمن مع أنه لم يره، لكن رأى آياته الدالة عليه.

المعنى الثاني: خشيه بالغيب، أي: بغيبته عن الناس، فهو يخشى الله وهو غائب عن الناس، لأن من الناس من يخشى الله إذا كان بين الناس، وإذا انفرد فإنه لا يخشى الله، مثل المرائي المنافق، إذا كان مع الناس تجده من أحسن الناس خشية، وإذا انفرد لا يخشى الله، كذلك أيضًا من الناس من يكون عنده خشية ظاهرية، لكن القلب ليس خاشيًا لله عز وجل ـ فيكون بالغيب، أي ما غاب عن الناس، سواء كان عمله في مكان خاص، أو ما غاب عن الناس بقلبه، فإن خشية القلب هي الأصل ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ أي جاء يوم القيامة بقلب منيب يعني رجاع إلى الله ـ عز وجل ـ يعني أنه مات وهو منيب إلى الله فهو كقوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] والمعنى: أنه بقي على الإنابة والرجوع إلى الله ـ عز وجل ـ إلى أن مات، وإلى أن لقي الله، لأن الأعمال بالخواتيم، نسأل الله أن يختم لنا بالخير.

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق: ٣٤]، ادخلوها: أمر، وهل هو أمر إلزام، أو أمر إكرام؟ لا شك أنه أمر إكرام، لأن الآخرة ليس فيها تكليف وإلزام، بل إما إكرام وإما إهانة، فقوله تعالى للمجرمين: ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ [غافر: ٧٦، الزمر: ٧٢] هذا أمر إهانة، وقوله للمؤمنين هنا: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ هذا أمر إكرام، وقوله ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ الباء هنا للمصاحبة، والمعنى: دخولا مصحوبًا بسلام، سلام من كل آفة، فأصحاب الجنة سالمون من الأمراض، وسالمون من الهرم، وسالمون من الموت، وسالمون من الغل، وسالمون من الحسد، وسالمون من كل شيء، فأهل الجنة سالمون، ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]، ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ أي لهؤلاء المتقين ما يشاءون ﴿فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ يعني مزيد على ما يتمنون ويشاءون، لأن الإنسان بحكمه مخلوقًا يعجز عن أن يستقصي كل شيء وتنقطع نيته بحيث لا يدري ما يتمنى، لكن هؤلاء أهل الجنة، كل ما يشتهون فيها فإنه موجود طيب، لو اشتهى الإنسان ثمرة معينة كرمان أو عنب أو ما أشبه ذلك يجدها في أي وقت، كل شيء يشتهيه الإنسان ويطلبه فإنه موجود لا ينتهي، بل قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ يعني نعطيهم فوق ما يشتهون ويتمنون. ومن الزيادة: النظر إلى وجه الله ـ عز وجل ـ، ولهذا استدل شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وغيره من أهل

العلم بهذه الآية على إثبات رؤية الله ـ عز وجل ـ وقال: إن هذه الآية: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾. كقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم، وأن يرزقنا النظر إلى وجهه الكريم في جنات النعيم.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق: ٣٦] لما كانت قريش تكذب النبي ﷺ وتنكر البعث، وتقول: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧] حذرهم الله ـ عز وجل ـ أن يقع بهم ما وقع بمن سبق من الأمم، فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: كثيرًا من القرون أهلكناهم، والقرن هنا بمعنى القرون، كما قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]، فأمم كثيرة أهلكها الله ـ عز وجل ـ لما كذبت الرسل ﴿فَنَقَّبُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ أي: بحثوا في البلاد يريدون المفر والملجأ من عذاب الله، ولكنهم لم يجدوا مفرًا، ولهذا قال: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أي لا محيص لهم ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥١: ٥٢] فما أصاب القوم الذين كذبوا الرسل أولًا يصيب من كذب ثانيًا؛ لأن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي ما سبق من الآيات العظيمة ومنها ما قص الله تعالى في هذه الآيات الكريمة من إهلاك الأمم السابقة، فيه ذكرى لنوعين من الناس: الأول ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي: من كان له لب وعقل يهتدي به بالتدبر، والثاني: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي استمع إلى غيره ممن يعظه وهو حاضر القلب فبين الله تعالى أن الذكرى تكون لصنفين من الناس:

الأول: من له عقل ووعي يتدبر ويتأمل بنفسه ويعرف.

والثاني: من يستمع إلى غيره، ولكن بشرط أن يكون شهيدًا أي حاضر القلب، وأما من كان لا يستمع للموعظة أو يستمع بغير قلب حاضر أو ليس له عقل يتدبر به، فإنه لا ينتفع بهذه الذكرى، لأنه غافل ميت القلب.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] هذه ثلاثة مخلوقات عظيمة بيَّن الله ـ عز وجل ـ أنه خلقها في ستة أيام، وأكَّد هذا الخبر بثلاثة مؤكدات: القسم، واللام، و(قد). لأن تقدير الآية: (والله لقد خلقنا السماوات والأرض)، فالسماوات معلومة لنا جميعًا وهي سبع سماوات طباقًا، والأرض هي الأرض التي نحن عليها، وهي سبع أراضين، كما جاءت به السنة صريحًا، وكما هو ظاهر القرآن في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ

سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ١٢].

الثالث: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: بين السماء والأرض، والذي بين السماء والأرض مخلوقات عظيمة، يدل على عظمها أن الله جعلها عديلة لخلق السماوات وخلق الأرض، فهي مخلوقات عظيمة، والآن كلما تقدم العلم بالفلك ظهر من آيات الله ـ عز وجل ـ فيما بين السماء والأرض ما لم يكن معلومًا لكثير من الناس من قبل ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها الأحد وآخرها الجمعة، ولو شاء عز وجل لخلقها في لحظة، لأن أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له:«كن» فيكون، لكنه ـ جل وعلا ـ يخلق الأشياء بأسباب ومقدمات تتكامل شيئًا فشيئًا حتى تتم، كما لو شاء لخلق الجنين في بطن أمه في لحظة، لكنه يخلقه أطوارًا حتى يتكامل، كذلك السماوات لو شاء لخلق السماوات والأرض وما بينهما في لحظة، ولكنه عز وجل يخلق الأشياء تتكامل شيئًا فشيئًا.

وقال بعض العلماء: فيه فائدة أخرى وهي: أن يعلّم عباده التأني في الأمور، وأن لا يأخذوا الأمور بسرعة، لأن المهم هو الإتقان وليس الإعجال والإسراع، ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ أي: ما مسنا من تعب وإعياء، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: ٣٣] فهو ـ عز وجل ـ خلق هذه السماوات العظيمة، والأراضين، وما بينها، بدون تعب ولا إعياء، وإنما انتفى عنه التعب ـ جل وعلا ـ لكمال قوته وقدرته ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]، ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أمر الله نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يصبر على ما يقولون، وقد قال ـ عز وجل ـ في آية أخرى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ اصبر، فإن العاقبة للمتقين، ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ فهم يقولون: إن محمدًا كذاب، وساحر، وشاعر، وكاهن، ومجنون، وأنه لا بعث، وإن كانوا يقرون بالرب عز وجل وأنه خالق السماوات والأرض، لكن لا يقرون بأمور الغيب المستقبلة، فأمره الله أن يصبر على ما يقولون، والصبر على ما يقولون يتضمن شيئين:

الأول: عدم التضجر مما يقول هؤلاء، وأن يتحمل ما يقوله أعداؤه فيه وفيما جاء به.

والثاني: أن يمضي في الدعوة إلى الله، وأن لا يتقاعس.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ سبح تسبيحًا مقرونًا بالحمد في هذين الوقتين: قبل طلوع الشمس، وقبل الغروب، قال أغلب المفسرين: المراد بذلك صلاة الفجر

وصلاة العصر، وهما أفضل الصلوات الخمس، قال النبي ﷺ: «مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»[١]، والبردان هما :الفجر وفيه برودة الليل، والعصر وفيه برودة النهار، وقال النبي ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا»[٢] فالصلاة التي قبل طلوع الشمس هي الفجر، والصلاة التي قبل غروبها هي العصر، وفيه دليل على أن المحافظة على هاتين الصلاتين من أسباب دخول الجنة والنظر إلى وجه الله الكريم، وأفضلها العصر، لأن الله تعالى خصها بالذكر حين أمر بالمحافظة على الصلوات فقال: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨] وهي العصر، كما فسرها بذلك أعلم الخلق بكتاب الله وهو الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم [٣]، ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠]، ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أيضًا سبح الله من الليل و(من) هنا للتبعيض، يعني سبحه أيضًا جزءًا من الليل، ويدخل في ذلك صلاة المغرب وصلاة العشاء، ويدخل في ذلك أيضًا التهجد ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ أي وسبح الله أدبار السجود، أي أدبار الصلوات، وهل المراد بالتسبيح أدبار الصلوات النوافل التي تصلى بعد الصلوات كراتبة الظهر بعدها، وراتبة المغرب بعدها، وراتبة العشاء بعدها، أو المراد التسبيح الخاص ـ وهو: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر ـ؟ فيه قولان للمفسرين، ولو قيل بهذا وهذا لكان له وجه.

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق: ٤١] أي انتظر لهذا النداء الذي يكون عند النفخ في الصور وحشر الناس، ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤٢] من القبور ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ [ق: ٤٣] (إنا) يقول الله عن نفسه: ﴿إنا﴾ تعظيمًا له ﴿نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ أي: نحيي بعد الموت، ونميت بعد الحياة، فهو قادر على الإحياء بعد الموت، وعلى الموت بعد الإحياء ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ أي المرجع ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤]، ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ أي مصيرهم إلينا في ذلك الوقت تشقق الأرض، أي: تتفتح عنهم أي عن هؤلاء في قبورهم، تشقق كما تشقق الأرض عند طلوع النبات، ﴿سِرَاعًا﴾ أي يأتون إلى المحشر ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي سهل علينا، لأن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الصافات: ١٩] ويقول تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣: ١٤] ويقول تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٧٤)، ومسلم (٦٣٥).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٥٤) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٦٣٣).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٣٩٦) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٦٢٧).

وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣] وهذا يدل على يسر ذلك على الله عز وجل: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ وهذا وعيد لهؤلاء الذين يقولون في رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ما يقولون، أخبر الله هنا أنه لا يخفى عليه حالهم، وأنه يعلم ما يقولون، ثم قال: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي لست عليه بذي جبروت فتجبرهم على أن يسلموا ويؤمنوا بك، ولهذا قال في آية أخرى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي عظ بالقرآن الكريم من يخاف الوعيد، أي من يخاف وعيدي بالعذاب، لأن هؤلاء هم الذين ينتفعون بالتذكر بالقرآن، فالقرآن يذكر به جميع الناس، ولكن لا ينتفع به إلا من يخاف الله عز وجل، نسأل الله أن يجعلنا من المنتفعين بكتابه، المتعظين بآياته.



تفسير سورة الذاريات

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ تقدم الكلام على البسملة، ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ١: ٤] أقسم الله تعالى بهذه المخلوقات لأنها دالة على عظمته تبارك وتعالى، ولما فيها من المصالح والمنافع، أما قوله: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ فالذاريات هي الرياح تذر التراب وغير التراب، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف: ٤٥] أي: تفرقه في أمكنة متعددة، وأقسم الله بالذاريات لما فيها من المصالح الكثيرة، ففي تصريفها حكمة بالغة، فمنها الرياح الدافئة، ومنها الرياح الباردة، على حسب ما تقتضيه حكمة الله ـ عز وجل ـ ولأن الرياح تثير سحابًا فيسقي به الله الأرض؛ ولأنها تسيِّر السفن، ففيما سبق كانت السفن تجري على الرياح، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس: ٢٢].

﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ المراد بها السحاب، تحمل المياه موقرة، أي: مثقلة محملة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢] فهي ثقيلة محملة بمياه عظيمة بحار، ولذلك تمطر فتجري الأرض أنهارًا بإذن الله ـ عز وجل ـ فالذاريات: الرياح، والحاملات: السحب، والارتباط بينهما ظاهر؛ لأن الرياح هي التي تثير السحاب وهي التي تلقح السحاب بالماء، قال الله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢].

﴿ فَالْجَارِيَاتِ﴾ هن السفن ﴿يُسْرًا﴾ أي: بسهولة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] أي: في السفينة، هذه السفينة ميسرة بإذن الله عز وجل بما يسره الله تعالى من الرياح الطيبة، وكلما كانت الريح مناسبة كان سيرها أيسر، والآن جاءت السفن النارية التي لا تحتاج إلى الرياح فصارت أيسر وأيسر، تجدها قرى كاملة تمخر عباب الماء وتسير بسهولة، والارتباط بين هذه الثلاثة :أن الرياح تحمل الأمطار، وأن السحب تحمل الأمطار، فتنزل إلى الأرض، فيكون الرزق للمواشي والآدميين، والجاريات أي السفن، هي أيضًا تحمل الأرزاق من

جهة إلى جهة، فلا يمكن أن تصل الأرزاق من جهة إلى جهة أخرى بينها وبينها بحر إلا عن طريق السفن.

﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ وهم الملائكة، وجمعهم لأنه يجوز جمع المؤنث باعتبار الجماعات، أي: فالجماعات المقسمات ﴿أَمْرًا﴾ التي تقسم الأمر، أي: شئون الخلق، ويحتمل أن يكون ﴿أَمْرًا﴾ أي: بأمر الله، والمعنى صحيح على كلا التقديرين، فإن الملائكة عليهم الصلاة والسلام يقسمون ما يريد الله - عز وجل - من أرزاق الخلق وغيرها بأمر الله - عز وجل -، هذه أربع جمل: الذاريات، الحاملات، الجاريات، المقسمات، كل هذه مقسم بها، والمقسم عليه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات: ٥] يعني ما وعدكم الله تعالى فهو وعد صادق، والصادق هو المطابق للواقع، وذلك لأن الخبر نوعان: نوع يخالف الواقع، وهذا يسمى كذبًا، ونوع يطابق الواقع، وهذا يسمى صدقًا، سواء كان المخبر عنه ماضيًا أو مستقبلًا، فأقسم الله - عز وجل - بهذه المخلوقات على إنما نوعد صادق، فلابد أن يقع إذا وقع ما نوعد، وهو البعث يوم القيامة يتلوه الجزاء، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الذاريات: ٦] الدين يعني الجزاء، والدين يطلق أحيانًا بمعنى الجزاء، وأحيانًا بمعنى العمل، ففي قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ المراد [الكافرون: ٦] به العمل، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] المراد به الجزاء، وهنا ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ أي الجزاء لابد أن يقع، لأن الله على كل شيء قدير. وقد قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤].

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧] السماء معروفة، ذات: بمعنى صاحبة ﴿ٱلْحُبُكِ﴾ يعني الطرق، أي: أنها من حسنها كأنها ذات طرق محبوكة متقنة، كما يكون ذلك في جبال الرمل، يضربها الهواء فتكون مضلعة، إذن السماء كذلك ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ [الذاريات: ٨] ﴿إِنَّكُمْ﴾ الخطاب للكافرين ﴿لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ يعني يختلف بعضه عن بعض، فبعض الكفار قالوا للرسول ﷺ: إنه مجنون، وبعضهم قالوا: إنه ساحر، وبعضهم قالوا: إنه كاهن، وبعضهم قالوا: إنه شاعر، وبعضهم قالوا: إنه كذاب، فهم مختلفون في النبي ﷺ، واختلاف الأقوال يدل على كذبها وفسادها، وكلما رأيت قولًا مختلفًا متناقضا فاعلم أنه باطل وليس بصحيح؛ لأن الحق لا يمكن أن يتناقض، فهؤلاء المكذبون للرسول ﷺ اختلفوا هذا الاختلاف، ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ بمعنى يصرف ﴿عَنْهُ﴾ قيل: إن الضمير يعود على الرسول ﷺ، أي يصرف عن الرسول ﷺ من صرف من الناس، وقيل: إن الضمير يعود على القوم، وعلى هذا القول: تكون (عن) بمعنى الباء، أي

يؤفك بهذا القول من أفك، يصرف بهذا القول عن الحق من صرف، وهما أي المعنيان متلازمان، والأقرب أن الضمير في قوله ﴿عَنْهُ﴾ يعود على القوم؛ لأنه أقرب مذكور ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ﴾ أي عن هذا القول أي بسببه ﴿مَنْ أُفِكَ﴾ أي من صرف عن الحق، وذلك لأن من البيان لسحرًا[1] فإذا جاءك رجل بليغ فصيح، وصار يورد عليك الشبهات والشكوك ألست تنخدع بقوله؟ بلى، فهؤلاء المكذبون للرسول ﷺ عندهم فصاحة وبلاغة وتمويه ودجل، فيصرفون الناس، وقوله ﴿مَنْ أُفِكَ﴾ هل المراد من قدر الله عليه أن يصرف، أو المراد من أفك أي من صرفه هؤلاء المختلفون؟ هما متلازمان أيضًا، فإن هؤلاء الذين يضلون الناس لا يمكن أن يضلوهم إلا بإذن الله ـ عز وجل ـ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٦ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٦: ٣٧] فهم الذين يأفكون الناس أي: يصرفونهم فهم السبب، لكن المقدر للصرف هو الله ـ عز وجل ـ ولكن اعلم أخي المسلم أنه لا يمكن أن يصرف عن الحق إلا من علم الله منه أنه ليس أهلا للحق ـ نسأل الله السلامة ـ ولهذا قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وكذلك الله أعلم حيث يجعل رسالته في الذين يمتثلونها ويؤمنون بها.

ويدل على هذا الذي قلنا قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] ولكن احذر إذا رأيت ضالًا أن تقول: هذا ليس أهلًا للهداية؛ لأن هناك فرقًا بين القول بالعموم والقول بالتعيين، فالقول بالتعيين حرام؛ لأنك قد ترى شخصًا ضالًا وتقول: هذا لا يهتدي، وإذا به يهديه الله عز وجل، والعكس بالعكس، ربما ترى شخصًا مستقيمًا تقول: هذا لا يمكن أن يضل، فإذا به يضله الله، فإياك أن تشهد على معين، لكن حقيقة أنك إذا رأيت ضالًا متمردًا مستكبرًا عن الحق فإنك بقلبك تستبعد أن الله يهديه، لكن لا تقل: إن الله لا يهديه، ففي «سنن أبي داود» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاخِيينَ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ، وَالآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي العِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَزَالُ المُجْتَهِدُ يَرَى الآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ، فَيَقُولُ: أَقْصِرْ، فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ، فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي، أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فَقَالَ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ، أَوْ لَا يُدْخِلُكَ الجَنَّةَ، فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ العَالَمِينَ، فَقَالَ لِهَذَا المُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا، أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا، وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ». قال أبو هريرة: والذي

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥١٤٦)، والترمذي (٢٠٢٨)، وأبو داود (٥٠٠٧).

نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وأخراه»[1]. وفي رواية مسلم: «فَقَالَ الله تَعَالَى: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَان، إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ»[2] نسأل الله العافية، لهذا لا تعجب بنفسك، ولا تيأس من رحمة الله فيما يتعلق بك، ولا فيما يتعلق بغيرك، فإن الله تعالى على كل شيء قدير، لكن نعلم على سبيل العموم أن الإنسان إذا لم يكن أهلًا للهداية فإنه لن يهتدي، فإذا رأينا هذا الشخص منحرفًا مستكبرًا معاندًا فلا شك أنه يغلب على ظننا أنه ليس أهلا للهداية، لكن ليس لنا أن ننطق بذلك، ويحرم أن ننطق بذلك، ويخشى أن يقال لنا كما قيل لهذا الرجل: قد غفرت له وأحبطت عملك، وهنا مسألة مهمة وهي الفرق بين التعيين والإطلاق، فنحن مثلا نشهد لكل مؤمن بأنه في الجنة، لكن إذا رأينا شخصا مستقيمًا، ويصلي ويزكي، ويصوم، ويحج، ويتصدق، ويحسن، ويبر والديه، ويصل رحمه، فلا نشهد بأنه في الجنة؟ لأن التعيين شيء والإجمال شيء آخر، وإذا رأينا رجلا كافرا ملحدا مسلطا على المسلمين، يمزق كتاب الله ويدوسه برجليه ويستهزئ بالله ورسوله فلا نقول: هذا من أهل النار، بل نقول: من فعل هذا فهو من أهل النار. بلا تعيين، لأنه من الجائز في آخر لحظة أن يمنّ الله عليه ويهديه، فأنت لا تدري، لذلك يجب التفريق بين التعيين والإطلاق، أوالتعيين والإجمال، فإذا مات رجل ونحن نعرف أنه مات على النصرانية حسب ما يبدو لنا من حاله، فلا نشهد له بالنار؛ لأنه إن كان من أهل النار فسيدخل ولو لم نشهد، وإن لم يكن من أهل النار فشهادتنا شهادة بغير علم، فمثل هذه المسائل لا داعي لها، فلو قال قائل: مات رجل من الروس، من الملحدين، مات رجل من الأمريكان من الملحدين منهم، مات رجل من اليهود من الملحدين، العنه واشهد له بالنار، نقول: لا يمكن، نحن نقول: من مات على هذا فهو من أهل النار، من مات على هذا لعناه، أما الشخص المعين فلا، ولهذا كان من عقيدة أهل السنة والجماعة قالوا: لا نشهد لأحد بالجنة أو بالنار إلا لمن شهد له النبي ﷺ، ولكننا نرجو للمحسن ونخاف على المسيء، هذه عقيدة أهل السنة والجماعة.

﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ﴾ [الذاريات: ١٠] ﴿قُتِلَ﴾ كثير من المفسرين يفسرها بلعن، واللعن هوالطرد والإبعاد عن رحمة الله، ولكن الصحيح أنها بمعنى أهلك، لأنه لا داعي أن نصرفها عن ظاهرها، وظاهرها صحيح مستقيم، فمعنى ﴿قُتِلَ﴾: أهلك، و ﴿ٱلۡخَرَّٰصُونَ﴾ جمع خراص، وهو الذي

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٢٣)، وأبو داود (٤٩٠١)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٤٤٥٥).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٢١).

يتكلم بالظن والتخمين والارتياب والشك، لأنه منغمر في الجهل والسهو والغفلة، ولهذا وصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ [الذاريات: ١١] أي في غمرة من الجهل، قد أحاط بهم الجهل من كل جانب، ﴿سَاهُونَ﴾: غافلون، لا يحاولون أن يقبلوا على ما أنزل الله على رسله - عليهم الصلاة والسلام - ومن جهلهم أنهم ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الذاريات: ١٢]، سؤال استبعاد وإنكار، لو كانوا يسألون سؤال استعلام واستخبار، لعذروا، كما قال جبريل للنبي ﷺ: «أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ»[1]، استفهاما واستخبارًا، قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» لكن أولئك الخراصون يسألون: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ يعني متى هو؟ استبعادًا، ولهذا قال الله عنهم في سورة (ق): ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٢: ٣] يعني أنرجع بعد أن كنا ترابًا، هذا رجع بعيد، فهم يسألون عن القيامة لا سؤال استفهام واستخبار ليستيقنوا، ولكنْ سؤال استبعاد وإنكار، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣] هذا الجواب يعني يوم القيامة: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ وعلى هذا فيوم هنا ظرف خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: يوم القيامة يوم هم على النار يفتنون، ومعنى: ﴿عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ أي: يعرضون عليها فيحترقون بها، لأن الفتنة بمعنى الاحتراق، ولكنها عديت بعلى، لأنها ضمنت معنى العرض، أي: يعرضون على النار فيحترقون بها، هذا هو يوم الدين ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات: ١٤] ذوقوا هذه جملة مقول لقول محذوف، والتقدير: يقال لهم: ذوقوا فتنتكم، وهذا أمر إهانة وإذلال، أي ذوقوا احتراقكم في النار التي كنتم تنكرونها ﴿هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ لأنهم يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين، فيستعجلون بالقيامة استبعادا لها، كما قال الله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨] فيقال لهؤلاء: ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ ويقال لهم: ﴿أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٥: ١٦].

يفتنون على النار فيحترقون بها، ويقال: ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾ هذا توبيخ وإهانة وإذلال يكون به: العذاب القلبي، فيجمع لهم بين العذاب البدني وبين العذاب القلبي، فتجده يكون في أشد ما يكون من الحسرة، يتحسرون يقولون: ﴿يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

٢٧]، ولما كان القرآن الكريم مثاني، تثنى فيه المعاني الشرعية والخبرية، إذا ذكر الشيء ذكر ضده، لما ذكر عذاب هؤلاء المكذبين الخراصين قال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الحجر: ٤٥] المتقون هم الذين اتقوا الله، والتقوى ترد في القرآن الكريم على وجوه متعددة: بالوصف تارة، وبالفعل تارة، وبالأمر تارة، وتارة تكون مضافة إلى الله، وتارة تكون مضافة إلى العقوبة وغير ذلك، مما يدل على أن التقوى شأنها عظيم في الإسلام، وليست التقوى قولا يقال باللسان، بل هي قول يتبعه فعل وتطبيق، فإن سألتم ما هي التقوى؟ قلنا: التقوى كلمتان: فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه، علم وبرهان واحتساب وخوف، تفعل ما أمر الله به، لأنك تعلم أن الله أمر به، تفعل ما أمر الله به لأنك تحتسب ثوابه، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، تترك ما نهى الله عنه؛ لأنك تعلم أن الله نهى عنه. تترك ما نهى الله عنه خوفا من عقاب الله، لأنك موقن بالعذاب، هذه هي التقوى، يقول الله عز وجل عن المتقين: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أي: مستقرون في جنات وعيون، والجنات جمع جنة، ويمر في القرآن (جنة) مفردا و(جنات) جمعًا، فهل هي جنات متعددة أو هي جنة واحدة؟ هي جنات متعددة، لكن ذكرت بلفظ المفرد من باب ذكر الجنس، وإلا فهي جنات، وفي آخر سورة الرحمن، ذكر الله أربع جنات، قال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٦٢] وقال النبي ﷺ: «جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا»(١)؛ إذن فالجنات متعددة وجمعت باعتبار أنواعها وأصنافها، وقد جاءت في القرآن مفردة.

مثل قوله: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٢]. وجاءت أيضا مجموعة فهي مفردة باعتبار الجنس، ومجموعة باعتبار النوع، و(عيون): جمع عين، وهي الأنهار الجارية، وقد ذكر الله تعالى أنها أربعة أنواع: ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ [محمد: ١٥].

﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [الذاريات: ١٦]، ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾. قوله: ﴿ءَاخِذِينَ﴾: حال من الضمير المستتر بالخبر، أي: حال كونهم آخذين ما آتاهم ربهم، أي: ما أعطاهم من النعيم، وهذه الآية كالآية التي في سورة الطور ﴿ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ [الطور: ١٨]، ثم بيَّن السبب الذي وصلوا به إلى هذا، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ يعني في الدنيا محسنين، أي: قائمين بطاعة الله على الوجه الذي يرضاه الله - عز وجل - وقد ثبت عن النبي

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٧٨) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٨٠).

صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»(١) هذا الإحسان في العبادة، أما الإحسان في معاملة الخلق، فإنَّ أجمع ما يقال فيه ما قاله النبي ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيهِ»(٢) هذا هو الإحسان إلى الناس، أن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، من حسن الخلق، وطلاقة الوجه، وكف الأذى، وبذل الندى إلى غير ذلك مما هو معروف، فهؤلاء محسنون في عبادة الله، ومحسنون إلى عباد الله، ثم ذكر نوعا من هذا الإحسان فقال: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧]. (ما) هنا قيل: إنها زائدة في اللفظ، لكنها زائدة في المعنى، وأن التقدير: كانوا قليلا يهجعون، أي لا ينامون إلا قليلًا: وماذا يصنعون في هذه اليقظة؟ يصنعون ما ذكره الله تعالى في سورة المزمل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ [المزمل: ٢٠]. فهم ليسوا يسهرون على اللهو واللغو، أو يستيقظون على مثله، ولكنهم يقل نومهم؛ للتفرغ لطاعة الله عز وجل: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨]. الأسحار: جمع سحر، وهو آخر الليل، ﴿هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، يعني يسألون الله المغفرة، وهذا من حسن عملهم وعدم إعجابهم بأنفسهم، وكونهم يشعرون بأنهم وإن اجتهدوا فهم مقصرون، فيستغفرون الله بعد فعل الطاعة جبرا لما حصل فيها من خلل، ويشرع في نهاية العبادات أن يستغفر الإنسان ربه مما قد يكون فيها من خلل، فبعد الصلاة يستغفر الإنسان ربه ثلاثًا، وبعد الحج قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩] فهم يسألون المغفرة بعد تهجدهم وقيامهم وسهرهم في طاعة الله، خوفا من أن يكون هناك تقصير، وهذا مما يدل على معرفتهم بأنفسهم، وأنهم يرون أنفسهم مقصرين، خلافا لما يفعله بعض الناس الآن إذا تعبد لله تعالى بأدنى عبادة شمخ بنفسه وأدل على الله تعالى بها، وظن أنه من عباد الله الصالحين، صحيح أن الإنسان ينبغي أن يرجو ربه إذا أنعم الله عليه بطاعة أن يقبلها، لكن كونه يرى أنه قد أتم كل شيء. فهذا يخشى أن يحبط عمله وهو لا يشعر. ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩] في أموالهم كلها سواء الأموال الزكوية، أو غير الزكوية فيها حق للسائل والمحروم، إذا أتاهم سائل أعطوه، وإذا رأوا محروما أي ممنوعا من الرزق، وهو الفقير أعطوه، فمالهم قد أعدوه

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٨٤٤)، والنسائي ()، وأبو داود (٤٢٤٨).

لما يرضي الله ـ عز وجل ـ من السائلين والمحرومين وغير ذلك من الإنفاق المشروع، فهم يقومون بطاعة الله تهجد في الليل واستغفار وبذل للمال، لكن من غير إسراف ولا مخيلة.

﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠] لم يبين الله هذه الآيات بل جاءت منكرة، ليشمل كل آية في الأرض، سواء كانت الآيات فيما يحدث فيها من الحوادث، أو كانت في نفس طبيعة الأرض وتركيب الأرض، فإن فيها آيات عظيمة من حيث التركيب، كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ﴾ [الرعد: ٤] فتجد الحجر الواحد يشتمل على عدة معادن وهو حجر واحد، وترى أحيانا في ﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ﴾ [فاطر: ٢٧] وتجد فيها الأرض اللينة الرخوة، والأرض الصلبة إلى غير ذلك مما يعرفه علماء الجيولوجيا من الآيات العظيمة، وفيها آيات من جهة الحوادث التي تحدث فيها من الزلازل والبراكين وغيرها، وفيها آيات أيضا من جهة طبيعة الجو من حر وبرد، ورياح عاصفة، ورياح باردة، ورياح دافئة، وغير ذلك مما إذا تأمله الإنسان عرف به قدرة الله عز وجل من جهة، وعرف حكمته ورحمته أيضا من جهة أخرى، لأن آيات الله سبحانه وتعالى يتبصر بها الإنسان من حيث القدرة والعظمة، ومن حيث الحكمة والرحمة، لأن كل شيء تجده مناسبا لمكانه وزمانه، وكل شيء تجده من آثار رحمة الله ـ تبارك وتعالى ـ فكلمة (آيات) نكرة عامة لكل ما يحدث في الأرض من آيات، ولكل ما فيها من طبيعتها وتركيبها وغير ذلك ﴿ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ أي لمن أيقن بوجود الله عز وجل وعظمته وجلاله، أما من شك ـ والعياذ بالله ـ فإنه لن ينتفع بهذه الآيات، بل قد تكون هذه الآيات ضررا عليه، فإن الآيات الكونية، أو الشرعية قد تكون خيرا للإنسان، وقد تكون شرًّا، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ﴾ [التوبة: ١٢٤] يعني من القرآن ﴿فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤: ١٢٥] كذلك الآيات الكونية من الناس من ينتفع بها ويستدل بها على ما فيها من آيات الله ـ عز وجل ـ ومن الناس من يكون بالعكس يؤدي ما يجده في الآيات إلى الإلحاد ـ والعياذ بالله ـ.

ولهذا قال: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ يعني لا لكل إنسان بل للموقن، أما الشاك والمتردد والكافر فإنه لن ينتفع بهذه الآيات، ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾. أيضا في أنفسكم آيات ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ وآيات هنا محذوفة، ولهذا نقول في الإعراب: في أنفسكم، جار ومجرور، خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: وفي أنفسكم آيات. والحكمة ـ والله أعلم ـ

ونحن في علمنا القاصر نظن أن الله حذف هذه الآيات لأنها أمس بالإنسان من الأرض وأدخل بالإنسان من الأرض، لأنها هي في نفسه، في أنفسكم آيات: ليس في تركيب الجسم فحسب، وليس فيما أودعه الله تعالى من القوة فحسب، بل حتى في تقلبات الأحوال، فالإنسان تجده يتقلب من سرور إلى حزن، ومن غم إلى فرح، تقلبات عجيبة عظيمة، حتى إن الإنسان في لحظة يجد نفسه متغيرًا، وأحيانا يجد نفسه متغيرا بدون سبب، يكون منشرح الصدر واسع البال مسرورًا، وإذا به يغتم بدون سبب، وأحيانا بالعكس، هذا بالنسبة للأحوال النفسية، كذلك أيضا بالنسبة للأحوال الإيمانية، وهي أعظم وأخطر، تجد الإنسان في بعض الأحيان يكون عنده من اليقين ما كأنه يشاهد أمور الغيب مشاهدة حسية، كأنما يرى كل ما أخبر به الله من علوم الغيب، وفي بعض الأحيان يقل هذا اليقين، لأسباب قد تكون معلومة، وقد تكون غير معلومة، لكن من الأسباب المعلومة قلة الطاعة، فإن قلة الطاعة من أسباب ضعف اليقين، فإذا قلت طاعة الإنسان ضعف يقينه، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة:٤٩] ومنها: اللهو، والغفلة، ولهذا قال الصحابة - رضي الله عنهم - لرسول الله - ﷺ - إنا إذا كنا عندك وذكرت الجنة والنار فكأنما نراها رأي العين، فإذا ذهبنا إلى أهلنا عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا[1].

وهكذا الإنسان كلما لهى قل يقينه وقل إيمانه، ومن ثم نهى الشرع عن اللعب واللهو الباطل، الذي يزداد به الإنسان بعدا من الله وبعدا عن طاعة الله وعن التفكير في آيات الله.

أيضا في النفس آيات في نفوس الناس: فمن الناس من تجده هينا لينا طليق الوجه مسرورًا، كل من رآه سر بوجهه، وكل من جلس إليه زال عنه الغم والهم، ومن الناس من هو بالعكس قطوب، عبوس، بمجرد ما تراه لو كنت مسرورا لأتاك الحزن والسوء، فهذا أيضا من آيات النفس وهي كثيرة جدًا، ومن أراد المزيد من هذا والاطلاع على قدرة الله تعالى فيما في أنفسنا من الآيات فعليه بمطالعة كلام ابن القيم - رحمه الله - في كتاب (مفتاح دار السعادة) يجد العجب العجاب، وكذلك أيضا كتابه الصغير وهو كبير في المعنى وهو (التبيان في أقسام القرآن). ذكر من ذلك العجب العجاب ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، الاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار، كأنما يقول الله - عز وجل - أبصروا في أنفسكم تبصَّروا وتأملوا وتفكروا، فإذا لم تعرفوا هذه الآيات فأنتم لا تبصرون، فيكون الاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار ألا نتبصر، وهي دعوة من الله - عز وجل -

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٥٠)، والترمذي (٢٥١٤)، وابن ماجه (٤٢٣٩).

لعباده أن يتبصروا في الآيات، فإذا لم تتبصر في الآيات فاعلم أنك محروم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١]. إذن إذا لم تنتفع بالآيات فاعلم أنك محروم، وأن إيمانك ناقص ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾. فعليك يا أخي أن تتفكر في آيات الله الكونية، وما في هذا الكون العظيم من آيات الله الدالة على عظمته وسلطانه ورحمته وحكمته، وكذلك في آيات الله الشرعية، ومن فتح الله عليه في الآيات الشرعية ينتفع بها أكثر مما ينتفع بالآيات الكونية، إذا تأمل ما أخبر الله به عن نفسه من الأسماء والصفات، والأفعال والأحكام، ازداد إيمانا بالله ـ عز وجل ـ وعرف بذلك الحكمة والرحمة، وإذا تأمل فيما أخبر الله به عن اليوم الآخر، وما يكون فيه من ثواب وعقاب، وجزاء وحساب ازداد إيمانا بالله، وكلما تأمل الإنسان في آيات الله الشرعية ازداد إيمانًا، فبعض الناس الموفقين يكون ازدياد إيمانه بالآيات الشرعية أكثر من ازدياد إيمانه بالآيات الكونية، أما الإنسان الذي يفتح الله عليه في هذا وهذا فيا حبذا.

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] ذهب كثير من العلماء أن المراد بالرزق هنا المطر، لأن الله تعالى قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر:١٣]. وسمي المطر رزقًا؛ لأنه سبب للرزق، فإذا أنزل الله المطر أخرجت الأرض الماء، والمرعى، متاعًا لنا ولأنعامنا، وهذا رزق، كم من ناس يكون رزقهم على ما ينزل من المطر من الزروع والحشيش والمياه وغيرها، بل إن الله تعالى قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨: ٦٩] هل أحد يستطيع أن ينزل من المزن ماءً؟ لا يمكن، وهل أحد يستطيع أن يخلق في المزن ماءً؟ لا يمكن، وإنما الله عز وجل هو الذي يتولى ذلك، هذا هو مادة الرزق، لولا الماء لهلكت، وتأمل قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٩: ٧٠]. ولم يقل: لو نشاء لم ننزله، مع أنه لو شاء لم ينزله، لكن قال: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ يعني لو نشاء أنزلناه لكن جعلناه أجاجا مالحًا، لا يمكن أن يشرب، وحسرة الإنسان على ماء بين يديه ولكن لا يستطيعه ولا يستسيغه أشد من حسرته على ماء مفقود، لأن ماءً موجودا لا تنتفع به ولا تستطيع شربه أشد حسرة من ماء مفقود، ولهذا ذكرنا الله هذه الحال، أرأيتك الآن لو أن هذا المطر العذب الزلال اللذيذ صار أجاجا مالحًا، ماذا تكون الحال؟ تكون صعبة جدًا، ولهذا قال: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾. ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ إذن الرزق هو المطر كما في الآية الكريمة ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ [عافر: ١٣] ويمكن أن نقول: إن الرزق الذي في السماء أعم من ذلك، فقد يقال:

إن في السماء رزقا من المطر، وما كتبه الله لنا في اللوح المحفوظ من المصالح والمنافع الجسدية من أموال وبنين وغير ذلك، فيكون هذا القول أشمل وأعم، واعلم أنه ينبغي أن يراعي المستدل بالقرآن والسنة قاعدة مفيدة، وهي إذا فسرنا النص القرآني أو النبوي بمعنى أخص وفسرناه بمعنى أعم، فنأخذ بالأعم، لأن الأعم يدخل فيه الأخص ولا عكس، إلا إذا دل دليل على أنه خاص، فهذا يتبع فيه الدليل، لكن عندما لا يدل الدليل، فخذ بالأعم، لأن الأعم يدخل فيه الأخص ولا عكس، فهنا إذا قلنا: المراد بالرزق ما هو أعم من المطر، فالجواب صحيح، فيدخل فيه المطر وغيره، وقوله: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ يعني وفيه الذي توعدون، والذي نوعد الجنة، فالجنة في السماء وليست في الأرض، ولهذا قال الله تعالى في قصة آدم: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا﴾ [البقرة: ٣٨]. والهبوط يكون من أعلى إلى أسفل، فالجنة في السماء، وقد أخبر النبي ﷺ أن الجنة درجات، وأن أعلاها الفردوس، وأنه أعلاها وأوسطها أيضًا، وهو إشارة إلى أن الجنات مثل القبة أعلاها هو وسطها، قال: «مِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمنِ»[1] إذن هي أعلى شيء، ـ نسأل الله أن يجعلنا من ساكنيها إنه على كل شيء قدير ـ فالذي نوعد هو الجنة، فالرزق في السماء، والجنة التي نوعدها في الآخرة في السماء، إذا نحن أهل الأرض محتاجون إلى السماء في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ففي السماء رزقنا في الدنيا، وفيها ما نوعد في الآخرة وهو الجنة، نسأل الله أن يجعلنا من أهلها.

﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣] الفاء عاطفة، والواو للقسم، ورب السماء والأرض هو الله ـ عز وجل ـ أقسم بنفسه تبارك وتعالى بمقتضى ربوبيته للسماء والأرض، أن ما يوعدون حق؛ لأنه قال: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما توعدون. ويحتمل أن يكون الضمير عائدا للقرآن، ويحتمل أيضا أنه عائد إلى النبي ﷺ، والمعاني الثلاثة كلها متلازمة، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ أي: ثابت، لأن الحق والباطل متقابلان، فالباطل هوالزائل الضائع سدًا، والحق هو الثابت الذي فيه الفائدة، وفيه الخير والصلاح، وقوله: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ يعني كما أن الإنسان يتيقن نطقه، فإن هذا القرآن حق، ومعلوم أن كل واحد منا لا ينكر نطقه، وإذا نطق تيقن أنه نطق، إذن هذا القرآن كلام الله ـ عز وجل ـ حق مثلما أن نطقنا حق.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤] الخطاب ليس للنبي ﷺ فحسب،

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٧٩٠).

بل له، ولكل من يتأتى خطابه ويصح توجيه الخطاب إليه، كأنه قال: هل أتاك أيها المخاطب ﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ والاستفهام هنا للتشويق، كأنه يشوقك إلى أن تسمع هذا الحديث، ونظيره في التشويق قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠]. ليس المراد بهذا الاستفهام أنه يستفهم، لكنه أراد أن يشوق المخاطبين إلى ذلك، ويكون الاستفهام للتهديد والإنذار والتخويف في مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ [الغاشية: ١: ٢].

فإذا قال قائل: أي شيء يدلنا على أن الاستفهام للتشويق، أو للتهديد، أو للاستخبار أو ما أشبه ذلك؟

نقول: الذي يدلنا على هذا السياق وقرائن الأحوال، والعاقل يفهم هذا وهذا، ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ﴾ أي: خبر ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾، ضيف هنا مفرد، لكنه يستوي فيه الجماعة والواحد، وهم جماعة ملائكة كرام عليهم الصلاة والسلام، ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ يعني الذين نزلوا ضيوفا عنده، وإبراهيم هو الخليل ﷺ، وهو أبو العرب، وأبو بني إسرائيل كما قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]. وهو الذي أمرنا الله تعالى أن نتبع ملته، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]. ولهذا ادعت اليهود أن إبراهيم يهودي، والنصارى ادعوا أنه نصراني، ولكن الله تعالى كذبهم في ذلك، فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]. يقول الله - عز وجل -: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الحجر: ٥٢] يحتمل أن ﴿إِذْ دَخَلُوا۟﴾ متعلق بقوله (المكرمين) يعني الذين أكرمهم حين دخولهم عليه، ويحتمل أنها مفعول لفعل محذوف، والتقدير: اذكر إذ دخلوا على إبراهيم ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ (قالوا سلامًا)، أي: نسلم سلامًا، وعليه فسلاما مصدر عامله محذوف، والتقدير: نسلم، ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ مبتدأ خبره محذوف، والتقدير: عليكم سلام، وعلى هذا فيكون التسليم هنا ابتداؤه بالجملة الفعلية، وجوابه بالجملة الاسمية، والجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار، ولهذا قال العلماء - رحمهم الله -: إن رد إبراهيم ﷺ أكمل من تسليم الملائكة، لأن تسليم الملائكة جاء بالصيغة الفعلية، ورد إبراهيم جاء بالصيغة الاسمية، ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾، قوم خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: أنتم قوم، وإنما قال إنهم قوم؛ لأنهم بصورة البشر.

وقوله: ﴿مُّنكَرُونَ﴾ أي: غير معروفين، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ

﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠]. في هذه الآية شاهد لحذف المبتدأ، وحذف الخبر، والشاهد لحذف الخبر (سلام)، لأن التقدير: عليكم سلام. والشاهد لحذف المبتدأ (قوم)، لأن التقدير: أنتم قوم. ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦] ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ راغ: انسل بخفية وسرعة، وذلك من حسن ضيافته. لم يقل: انتظروا آتي لكم بالطعام. ولم يقم متباطئا كأنما يدفع دفعًا، وإنما قام بسرعة منسلًا، لئلا يقوموا إذا رأوه ذهب إلى أهله، فكأنه أخفى الأمر عنهم ﴿أَهْلِهِۦ﴾ يعني أهل بيته ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ وفي آية أخرى: ﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ أي مشوي، واللحم إذا شوي يكون أطعم وألذ، لأن طعمه يبقى فيه لا يمتزج بالماء، بخلاف ما إذا طبخ يمتزج بعضه بالماء، فتقل لذته، لكن إذا كان مشويًا صار أطيب وأحسن، ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ يعني أنه ﷺ لا يتخير للضيوف البهائم العجفاء الهزيلة، وإنما يتخير لهم البهائم السمينة، لأنها ألذ وأطيب وأنفع، واختيار العجل إما أن يكون من عادته ﷺ أن يكرم الناس بهذا، أو أنه يكرم الضيوف بحسب ما تقتضيه الحال، فإذا كانوا كثيرين أتى بالعجل، وإذا كانوا أقل أتى بالغنم وما أشبه ذلك حسب عادة الكرماء، ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧] أي لم يجعله بعيدًا ويقول: قوموا إلى طعامكم، بل خدمهم حتى جعله بين أيديهم، وقربه إليهم، قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ولم يقل: كلوا. إنما عرضه عليهم عرضًا، لأن هذا أبلغ في الإكرام، والعرض أخف وألطف من الأمر، إذ إنه لو قال:«كلوا» كان يحتمل أنه أراد أن يستعلي عليهم ويوجه الأمر إليهم، لكن قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ والفرق بين العبارتين في الرق، فقوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أرق وأرفق.

«مسألة»: هل نقول: إن السنة والأفضل أن الإنسان إذا دعا ضيوفًا أو أتاه ضيوف أن يقرب إليهم الطعام في مجلس الجلوس أو نقول: هذا يختلف باختلاف الأحوال؟

الثاني هو الأظهر، لأن عموم قول الرسول ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»(١) يدل على أنك تكرمهم بما جرت العادة بإكرامهم به، وعندنا الآن إذا دعوت أصحابك وأصدقاءك وهم قلة فلا يعدون تقديم الطعام في مكان جلوسهم إهانة، لأنهم إخوانكم وأصدقاؤكم، لكن لو نزل بك ضيف أو دعوت ضيفًا ليس بينك وبينه صلة تامة فإنه في عرف الناس الآن ليس من إكرامه أن تقدم الطعام في محل الجلوس، اللهم إلا لضرورة، إذا لم يكن عندك مكان، والآن الإكرام أن تجعل الطعام في مكانه، ثم إذا أراد أن يأكلوا يقول: تفضلوا، ألا

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠١٨) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٤٧).

تتفضلوا، أو ما أشبه ذلك من الكلمات المتداولة، فالمهم أن قوله تبارك وتعالى عن إبراهيم: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ ينبغي أن يجعل هذا حسب عادة الناس، إذا كان من الإكرام أن تأتي بالطعام إلى محل جلوسهم فأت به، وإذا كان من الإكرام أن تجعله في محل آخر فافعل، دليل ذلك قوله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»[1].

﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةً﴾ أي: أحس بنفسه بخيفة منهم، وسبب تلك الخيفة أنه ﷺ لما قدَّم إليهم الطعام لم يأكلوا منه ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةً﴾ لأن العادة أن الضيف يأكل مما قدم له المضيف، لكن هؤلاء الملائكة لم يأكلوا؛ لأن الملائكة صمد أي ليس لهم أجواف، كما جاء ذلك مأثورًا عن السلف، ولهذا لا يحتاجون إلى أكل ولا إلى شرب، فأوجس منهم خيفة ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ﴾ طمأنوه، قالوا: لا تخف لما رأوا على وجهه من علامة الإنكار والخوف، وكل إنسان يعرف حال قلب المرء المواجه له، هل هو في سرور؟ هل هو في انشراح؟ هل هو خائف؟ هل هو مطمئن؟ لأن هذا أمر معلوم بالفطرة، ولا يحتاج إلى كبير فراسة، ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ البشارة هي الإخبار بما يسر، أي أخبروه بما يسره وهو الغلام العليم، وكان إبراهيم ﷺ قد بلغ من الكبر عتيًّا قبل أن يولد له، فبشروه بهذا الغلام، وبشروه بأنه عليم أي سيكون عالمًا؛ لأن الله تعالى جعله من الأنبياء، والأنبياء هم أعلم الخلق بالله - عز وجل - وأسمائه وصفاته وأحكامه وأفعاله، وهذا الغلام العليم غير الغلام الحليم، لأن في القرآن أن إبراهيم بُشر بغلام عليم في آيتين من كتاب الله، وبشر بغلام حليم في آية واحدة، وهما غلامان، أما الغلام الحليم فإنه إسماعيل أبو العرب، وأما الغلام العليم فإنه إسحاق أبو بني إسرائيل، ولذلك تجد قصتهما مختلفة، ولقد أبعد عن الصواب من قال: إن الغلام الحليم هو الغلام العليم، بل ونص صريح في سورة الصافات أنهما غلامان مختلفان، فإن الله تعالى لما ذكر قصة الذبيح في سورة الصافات قال بعدها: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢] فكيف يبشر بمن أمر بذبحه، وكان عنده وبلغ معه السعي، كل هذا مما يدل على أن الغلام الحليم غير الغلام العليم، ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾، وهذه بشارة بثلاثة أشياء: **أولًا** بأنه سيأتيه مولود يصل إلى أن يكون غلامًا، **ثانيًا**: أن هذا المولود ذكر لا أنثى لقوله ﴿بِغُلَٰمٍ﴾، **ثالثًا**: أنه عليم أي ذو علم، وكل هذه البشارات عظيمة، كل واحدة تكفي أن تكون بشارة، ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ﴾ [الذاريات: ٢٩].

﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ﴾ امرأته هذه: سارة أم إسحاق، أقبلت لما سمعت البشرى ﴿فِي صَرَّةٖ﴾

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠١٨) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٤٧).

في صيحة سرور، لأنها جاءتها هذه البشرى بعد أن تقدمت بها السن، تصيح وكأنها والله أعلم تقول: غلام غلام، ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي ضربته بيدها كالمتعجبة، كما يصنع الناس إلى اليوم إذا أتاهم خبر نادى: «الله أكبر» وضرب على وجهه، ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ ﴿عَجُوزٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: أنا عجوز عقيم، فكأنها تعجبت أن تحصل لها البشرى بهذا الغلام العليم، بعد أن تقدمت بها السن وعقمت من الولد، ولكنهم بينوا لها السبب الوحيد الذي به وجد هذا الولد، فقالوا: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ أي مثلما قلنا وبشرنا به، قال الله - عز وجل - وانظر إلى قوله: ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ حيث أضاف الربوبية هنا إلى هذه المرأة العجوز العقيم الكبيرة، إشارة إلى أن هذا من عناية الله بها، لأن إضافة الربوبية إلى الشخص المعين تكون ربوبية خاصة، والربوبية العامة لكل أحد، والله رب كل شيء، والخاصة ليست لأحد إلا لمن كان خاصًّا بالله، قال الله عز وجل: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٢] الربوبية العامة ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والربوبية الخاصة ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، هنا قالوا لها: ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ من باب الربوبية الخاصة التي تقتضي عناية خاصة ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٣٠] إن شئت فقل: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ خبر إن و ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل لا محل له من الإعراب، وإن شئت فقل: ﴿هُوَ﴾ مبتدأ و ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ خبر هو، والجملة خبر (إن)، وهنا قدَّم ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ على ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾؛ لأن المقام يقتضي هنا تقديم الحكمة على العلم، والحكمة هنا في شيئين: أولًا: تأخير الولادة بالنسبة لهذه المرأة، إن الله لم يؤخر ولادتها إلى أن تبلغ العجز إلا لحكمة، ثانيًا: كونها ولدت بعد أن أيست واعتقدت أنها عقيم، فهاهنا حكمتان: حكمة سابقة، وحكمة لاحقة، ومن ثم قدَّم اسم ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ على اسم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾، والقرآن إذا جمع الله فيه بين هذين الاسمين الكريمين: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ و ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ يقدم غالبًا ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾، لكن هنا قدَّم ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾؛ لأن المقام يقتضي ذلك ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وأكثر الناس يظنون أن معنى (الحكيم) أنه المتصف بالحكمة، والحكمة هي وضع الشيء في مواضعه، ولكن الواقع أن الحكيم له معنيان: حكيم من الحكمة، وحكيم من الحكم، فالله - عز وجل - حكيم من الحكمة، لأن الله تعالى هو الحكم بين العباد، والحاكم في العباد هو حاكم فيهم، وهو الحكم بينهم، وقد قال الله تعالى في القرآن الكريم، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨] وهذا استفهام للتقرير، يعني أن الله تعالى أحكم الحاكمين، وكلاهما في محله المناسب، ففي سورة المائدة ذكر الله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾

[المائدة: ٤٤]. ﴿الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]. ﴿الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، وتتابعت الآيات حتى قال: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، فكأن المقام مقام مفاضلة بين الأحكام فبين أن حكم الله أحسن الأحكام، لكن في سورة (التين) المقام مقام سلطة وقوة، والله أحكم الحاكمين يعني أن حكمه نافذ وسلطته تامة، ولا أحد يعارض حكمه أبدًا مهما قويت شوكته، وانظر إلى قول الله تعالى عن عاد: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، يعني لا أحد أشد منا قوة، فقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ﴾ [فصلت: ١٥]، وعذبهم بألطف الأشياء عذبهم بالريح؛ الهواء اللطيف الذي لا تحس بملمسه، وإن كان قويًا بأن يدفع كل شيء، وهو أقوى من الماء كما هو معروف، وهذا الهواء اللطيف أهلك به هؤلاء القوم الذين يقولون: من أشد منا قوة، أهلكهم به، فالحاصل: أن الله أحكم الحاكمين حكمه نافذ صادر عن قوة وسلطان، ثم إن أحكم الحاكمين تضمن أيضًا حسن الحكم، فصار حكم الله ـ عز وجل ـ يتضمن أنه الحاكم في العباد، وأنه الحاكم بين العباد، وأن حكمه أحسن الأحكام، وأنه تعالى أحكم الحاكمين، والحكمة البالغة لله ولا شيء من الأفعال القائمة بالوجود أحكم من حكمة الله، وإذا آمنت بهذا أيها المؤمن سهل عليك أمور كثيرة تشكل على كثير من الناس، منها بعض الأحكام الشرعية لا يدرك الناس أو أكثرهم أو بعضهم حكمتها، فهل نقول: إذا لم يدرك الحكمة إنه لا حكمة لها، أو نقول: إن لها حكمة، لكن عقولنا قاصرة، نقول: لها حكمة ولكن عقولنا قاصرة، وإذا آمنا هذا الإيمان اطمأننا إلى كثير من الأمور الشرعية التي تخفى علينا حكمتها، فنحن لا ندرك الحكمة في كون الصلوات الخمس خمسًا، أو أنها سبع عشرة ركعة، وأشياء كثيرة من الأمور الشرعية لا يدرك الإنسان حكمتها، لكن إذا آمنت أن الله حكيم آمنت بأنه لابد لهذا الشيء من حكمة تقتضيه، كذلك في الأمور القدرية قد يرسل الله سبحانه وتعالى عذابًا يشمل الصالح والطالح، وقد يرسل الله عذابًا على قوم لا تتوقع أن يصيبهم العذاب، فهل تقول: ما الحكمة؟ أو تقول: إن الله عز وجل لابد أن يكون تقديره لهذا عن حكمة؟ ولذلك أقول: إن الواجب علينا فيما أمر الله به من الشرائع وفيما قضاه من الأقدار أن نستسلم غاية التسليم، وأن لا نعترض، قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، أقسم الله ـ عز وجل ـ أنه لا يمكن لأحد أن يؤمن إلا بهذه الشروط الثلاثة، هي: الأول: أن يحكموك فيما شجر بينهم، والثاني: ألا يجدوا في أنفسهم حرجًا، يعني لا تضيق صدورهم بحكم الله، والثالث: أن يسلموا

تسليمًا، وأكد هذا المصدر ﴿تَسْلِيمًا﴾ يعني تسليمًا تامًّا، فلا يتهاون الإنسان ويتباطأ في تنفيذ حكم الله، فإذا وجدت من نفسك عيبًا يتعلق بهذه الأمور الثلاثة فصحح إيمانك، فإذا رأيت أنك تود أن يكون التحاكم إلى غير الله ورسوله فصحح الإيمان، وإذا رأيت من قبلك أنك لا تريد إلا حكم الله ورسوله لكن يضيق صدرك بحكم الله ورسوله تحدث نفسك أنك لا يمكن تتحاكم إلى غير الله ورسوله لكن يضيق صدرك فأنت ناقص الإيمان، وإذا كنت لا يضيق صدرك ولا تريد التحاكم لغير الله ورسوله وأنت منشرح الصدر لحكم الله ورسوله لكن تتباطأ وتتهاون فأنت ناقص الإيمان، اقرأ قول الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، لما لم يؤمنوا به أول مرة ولم يقبلوه من أول مرة صارت - والعياذ بالله - قلوبهم متقلبة، وتركهم الله في طغيانهم يعمهون، ولهذا يجب عليك أيها المؤمن أن تبادر بانقياد تام لحكم الله تعالى القدري.

وأتكلم على آداب السلام: حيث إن الملائكة قالوا: ﴿سَلَامًا﴾، فقال إبراهيم: ﴿سَلَامٌ﴾، ذكرنا فيما سبق أن رد إبراهيم ﷺ أحسن من ابتداء الملائكة؛ لأن رد إبراهيم عليه السلام جملة اسمية تفيد الثبوت والاستمرار، بخلاف سلام الملائكة عليهم السلام، واعلم أن رد التحية واجب، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦]. فقال: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ﴾ ولم يذكر من يحيينا، فيشمل أي إنسان يحيينا، فإننا نحيِّيه ونرد عليه أحسن من تحيته أو مثلها كما قال: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾، فبدأ بالأحسن، لأنه هو الأفضل، ﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾، أي: ردوا مثلها، ويشمل هذا ما إذا سلم علينا أحد من اليهود، أو النصارى، أو البوذيين، أو غيرهم، فنرد عليهم، لكننا لا نبدأ اليهود والنصارى بالسلام، لنهي النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن ذلك[1]، ثم إن السلام المشروع هو: «السلام عليكم»، وأما «أهلًا وسهلًا»، ومرحبًا، و«كيف حالك؟» وما أشبهها: فهذا ليس بمشروع، المشروع أن تبدأ أولا بالسلام، ولهذا في حديث المعراج حين كان النبي ﷺ يمر بالأنبياء فيسلم عليهم، قال: فرد عليه السلام، وقال: مرحبًا بالنبي الصالح[2]، فابدأ أولًا بقولك: «السلام عليكم»، والجواب يكون مثل ذلك أو أحسن، يكون: «عليكم السلام»، أو «وعليكم السلام»، أو «عليكم السلام ورحمة الله»، أو «عليكم السلام ورحمة الله وبركاته»، كل هذا من المشروع، ونرى كثيرًا من الناس

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢١٦٧)، والترمذي (٢٧٠٠)، وأبو داود (١٤٩).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٩٣) وفي غير موضع من صحيحه، و مسلم (١٦٢).

إذا سُلِّم عليه يقول: «أهلًا وسهلًا»، أو يقول: «مرحبًا بأبي فلان»، وهذا لا يجزئ، فلو قال:«أهلًا وسهلًا» مدى الدهر فإنه لا يجزئ؛ لأن الله يقول: ﴿فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾، ومعلوم أن الذي يقول: «السلام عليك»، يدعو لك بالسلام من كل نقص ومن كل آفة، ومن كل مرض في القلب والبدن، ولا يكفي أن تقول «مرحبا وأهلًا»، بل لابد أن تقول: «عليك السلام»، أو «وعليكم السلام»، وإن زدت «ورحمة الله وبركاته »كان أحسن.

ثانيًا: من السنة أن يسلم الصغير على الكبير؛ لأن حق الكبير على الصغير أعظم من حق الصغير على الكبير، فيبدأ الصغير بالسلام على الكبير، ولكن إذا قدر أن الصغير لم يسلم فهل يدع الكبير السلام لأن الحق له، أو يسلم لئلا تفوت السنة؟

والجواب: يسلم لئلا تفوت السنة، فكون الإنسان يقول: أنا صاحب الحق، لماذا لم يسلم عليَّ، هذا خطأ، صحيح أنك صاحب الحق وأن المشروع أن يسلم هو عليك، لكن إذا لم يفعل فسلم أنت.

ثالثًا: يسلم الماشي على القاعد(١)، ولو كان القاعد أصغر، فإذا مر شخص بإنسان قاعد فليسلم عليه، ولو كان أصغر منه سنًّا، أو قدرًا، وقد كان من هدي النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه يسلم على الصبيان إذا مر بهم(٢)، وفي ذلك فوائد عظيمة: منها: التواضع، أن الإنسان يضع نفسه إذا سلم على من هو دونه، ومنها: الرحمة؛ لأن سلامك على الصغار نوع من الرحمة، وقد أخبر النبي ﷺ أن الراحمين يرحمهم الله(٣) ـ عز وجل ـ ومنها: تعويد هؤلاء الصبيان على السلام، يعني أن الصبي يعرف شعار المسلمين أن يسلم بعضهم على بعض، فيأخذ من هذا أدبًا وخلقًا ينتفع به في شبابه وبعد هرمه.

رابعًا: يسلم القليل على الكثير كالصغير مع الكبير، فإذا تقابل جماعة خمسة وستة فيسلم الخمسة على الستة، لأن الستة فيهم زيادة، فهذه الزيادة لها حق الزائد، فيسلم القليل على الكثير، وإذا لم يفعلوا فليسلم الكثير على القليل، لئلا تفوت السنة بينهم.

خامسًا: يسلم الراكب على الماشي، فإذا تقابل رجلان أحدهما يمشي والثاني راكب في سيارته

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٢٣٢) وفي غير موضع من صحيحه، و مسلم (٢١٦٠).

(٢).

(٣) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ١٦٠)، والترمذي (١٩٢٤)، وأبو داود (٤٩٤١)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٩٢٥).

أو على بعيره فيسلم الراكب على الماشي، لأن الراكب له علو فيسلم على الماشي، لأن السنة جاءت بهذا[(١)]، كذلك الصاعد على النازل، فلو أن اثنين التقيا في درجة سلم فإن الصاعد هو الذي يسلم على النازل، وإذا لم تأت السنة ممن عليه أن يبدأ بها فليبدأ بها الثاني، قال النبي ﷺ: «لَا يَحِلُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ، يَلْتَقِيانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ»[(٢)] قال: خيرهما، فدل ذلك على أن من بدأ غيره بالسلام فهو خير، وهو كذلك ؛لأنك إذا سلمت حصلت عشر حسنات، ثم إذا رد صاحبك حصَّل عشر حسنات، والسبب الذي جعله يحصِّل عشر حسنات هو البادي، لولا أنه سلم ما رد، فتكون أنت متسببًا لهذا الذي عمل عملًا صالحًا فلك أجره، ولهذا قال العلماء: ابتداء السلام سنة، ورده واجب، ثم أوردوا على هذا إشكالًا فقالوا: ابتداء السلام أفضل من رده، فكيف تكون السنة أفضل من الواجب؟ والقاعدة الشرعية أن الواجب أفضل، كما قال الله تعالى في الحديث القدسي: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ»[(٣)]، أجابوا عن ذلك:قالوا: هذا الإشكال جوابه: أن هذا الواجب كان مبنيًّا على السنة، فصارت السنة التي بني عليها الواجب لمن أتى بها ثواب أجره الخاص وثواب أجر الراد.

سادسًا: ينبغي أن يكون بصوت مسموع، فبعض الناس يلاقيك ويسلم لكن تشك: هل سلم أو لا؟ لأنه لم يرفع صوته، وهذا غلط، ارفع الصوت على وجه يدل على أنك فرح بهذا الأخ الذي قابلك أو الذي سلمت عليه لا بصوت مزعج ولا بخافت لا يسمع، وعلى العكس من ذلك: بعض الناس يسلم بصوت مزعج، والدين وسط بين الغالي والجافي، فنقول: سلم سلامًا مسموعًا يسمعه أخوك ويكون بأدب واحترام.

سابعًا: من آداب السلام أيضًا: أن يكون المسلم منبسط الوجه منشرح الصدر، فإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق[(٤)]، فإن طلاقة الوجه وانشراح الصدر والابتسامة في وجه أخيك لا شك أنها من الأمور المطلوبة لما فيها من إدخال السرور على إخوانك، وإدخال السرور على إخوانك من الأمور المستحبة التي تؤجر عليها، لقول النبي ﷺ: «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ»[(٥)].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٢٣٢) وفي غير موضع من صحيحه، و مسلم (٢١٦٠).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠٧٧)، و مسلم (٢٥٦٠).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٢٦)، والترمذي (١٨٣٣)، وابن ماجه (٣٣٦٢).

(٥) صحيح: أخرجه البخاري (٦٠٢١)، والترمذي (٩٧٠).

ثامنًا: رد السلام المحمول إن كان الحامل له شخصًا وقال: فلان يسلم عليك. فقل: عليك وعليه السلام، وإن شئت فقل: عليه السلام، أي على الذي حمله، أما إذا كان محمولًا بكتابة يعني إنسان كتب لك كتابًا، وقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فإن كنت تريد أن تجيبه بكتاب فرد عليه بجوابك، مثلًا: كتب إليك إنسان كتابًا وقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، تكتب إليه: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، قرأت كتابك وفهمت ما فيه، والجواب كذا وكذا، وأكثر الناس الآن لا يهتمون بهذا، تجده يكتب الجواب ويقول في ابتدائه: السلام عليكم ورحمة الله. هذا طيب، لكن الذي سلم عليك يريد جوابًا فقل: جواب - يعني -: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وصلني كتابك أو قرأت كتابك، وفهمت ما فيه، وهذا الجواب، وتجيبه بما سألك، وإذا كان لا يحتاج إلى جواب مثل أن يكون الشخص كتب إليك كتابًا يخبرك بخبر لا يحتاج إلى جواب، فهنا إذا قرأت الكتاب فقل: عليك السلام ورحمة الله وبركاته، لا أقول وجوبًا، لأن صاحبك لن يسمع، لكن على سبيل الاستحباب، رجل دعا لك بظهر الغيب فادع له أنت بظهر الغيب.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [الحجر: ٥٧] القائل: (ما خطبكم) هو إبراهيم ﷺ، أي ما شأنكم أيها المرسلون وهم الملائكة ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٢: ٣٣] يعني أرسلنا الله - عز وجل -، لأنه من المعلوم أنه لا يرسل أحدًا من الملائكة إلا خالقهم سبحانه وتعالى ﴿إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ أي: ذوي جرم عظيم ألا وهو اللواط - والعياذ بالله -، فإنهم كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء، فيأتون ما لم يخلق لهم، ويدعون ما خلق لهم، كما قال لهم نبيهم لوط ﷺ: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ [الشعراء: ١٦٦]، وهذه الفاحشة فاحشة نكراء، لا يقرها عقل، ولا فطرة، ولا دين، ولهذا كانت عقوبتها القتل للفاعل والمفعول به، إذا كانا بالغين عاقلين، سواء كان محصنين أم غير محصنين، بخلاف الزنى، فالزنى أهون عقوبة، لأن الزنى من لم يكن محصنًا فعقوبته أن يجلد مائة جلدة ويغرب عن البلد سنة كاملة، وإن كان محصنًا وهو الذي قد تزوج وجامع: فعقوبته أن يرجم بالحجارة حتى يموت، أما هذا فعقوبته القتل بكل حال، كما جاء في الحديث: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الفَاعِلَ وَالمَفْعُولَ بِهِ»[1]، ووقعت هذه الفاحشة في عهد أبي بكر - رضي الله عنه - فأمر

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٠٠)، وأبو داود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٤٥٦)، وابن ماجه (٢٥٦١)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٢٣٥٠).

أن يحرق كل من الفاعل والمفعول به، لأن الإحراق أعظم عقوبة يعاقب بها بنو آدم، وكذلك جاء عن بعض الخلفاء أنهم أمروا بإحراق اللوطيّ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: أجمع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على قتل اللُّوطيّ فاعلًا كان أو مفعولا به، لكنهم اختلفوا: كيف يقتل؟ منهم من قال: يحرق، ومنهم من قال: يرمى بالحجارة حتى يموت كالزاني المحصن، ومنهم من قال: يلقى من أعلى شاهق في البلد، يعني في مكان مرتفع أعلى ما يكون في البلد، ثم يتبع بالحجارة حتى يموت، فالمهم أنهم متفقون على قتله، ولا شك أن قتله هو الحكمة، لأن هذه الفاحشة متى دبت في الرجال صار الرجال كالنساء، وبدأ الذل والعار والخزي على وجه المفعول به، لا ينساه حتى يموت، ثم استغنى الرجال بالرجال وبقيت النساء، لأن هذه الفاحشة ـ والعياذ بالله ـ إذا ابتلي بها الإنسان لا يلتفت إلى غيرها، لأنها مرض فتاك سارٍ، فإذا أعدم هؤلاء وهم في الحقيقة جرثومة فاسدة مفسدة للإنسان، كان ذلك عين المصلحة، ثم اللواط ـ والعياذ بالله ـ لا يمكن التحرز منه، لأنه بين ذكرين لا يمكن لأي إنسان يجد ذكرين يمشيان في السوق أن ينكر عليهما اجتماعهما، ولكن الزنى إذا رأيت رجلا مع امرأة تستنكره أو تتهمه وتتكلم معه، لذلك كانت عقوبة الإعدام في حق اللوطي أوفق ما يكون للحكمة وللرحمة، فهي رحمة بالفاعلين، يعني باللائط والملوط به، حتى لا يبقيا في حياتهما يكتسبان الإثم وتزداد العقوبة عليهما، ورحمة بالمجتمع فتكون عقوبتهما نكالا حتى لا يفسد المجتمع، لهذا قالت الملائكة لإبراهيم: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الحجر: ٥٨] وجرمهم ـ والعياذ بالله ـ ما سبقوا عليه، كما قال لهم نبيهم: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨].

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣٣: ٣٤] حجارة من طين، لكنه ليس الطين الذي يتفتت بل الصلب العظيم الذي إذا أصابت هذه الحجارة أحدًا من الناس وضربته على رأسه خرجت من دبره، لا يردها عظم ولا لحم، لقوتها وشدتها وصلابتها ـ والعياذ بالله ـ ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: معلمة عند الله، يعني عليها علامة، لأن كل شيء عند الله بمقدار، لا تظن أن الأمور التي يقدرها الله ـ عز وجل ـ تأتي هكذا صدفة، بل هي بمقدار، حتى تباعد ما بين النجوم، وتفاوت ما بينها من الكبر والإضاءة بمقدار، لم يجئ هكذا فلتة أو جاء صدفة، كل شيء عند الله بمقدار ولابد، فهذه الحجارة معلمة عند الله، وهل هي معلمة بمعنى أن هذه مكتوب عليها مثلًا: حجارة عقوبة؟ أو مسومة بالنسبة لمن تقع عليه؟ الجواب: الثاني، لأن هذا أدق، هذه الحجارة لفلان، هذه الحجارة لفلان، مسومة عند ربك ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: للمتجاوزين حدودهم، ولا شك أن اللواط مجاوزة للحد والإسراف ـ والعياذ بالله ـ، قال الله

تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥] أخرجناهم أي: أمرناهم أمرًا قدريًا فخرجوا، قال الله تعالى للوط: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ [هود: ٨١]، فأخرج الله من كان فيها من المؤمنين، وهم:لوط وأهله إلا امرأته، ولهذا ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦] بيت واحد، قرية كاملة يدعوهم نبيهم إلى توحيد الله وإلى ترك هذه الفاحشة ما اتبعه أحد حتى أهل بيته لم يخلصوا، فيهم من لم يؤمن بلوط، فانتبه يا أخي الداعية، لا تجزع إذا دعوت فلم يستجب لك من المائة إلا عشرة، فالرسل عليهم الصلاة والسلام يبقون في أممهم دهورًا كثيرة ولا يتبعهم إلا القليل، ولوط ﷺ لم يتبعه من القرية أحد، وتخلف عن دعوته من تخلف.

ولهذا قال: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وهنا يتساءل الإنسان في نفسه: كيف قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، هل (المسلمون) هنا بمعنى (المؤمنين)في الآية التي قبلها؟ ذهب بعض العلماء إلى ذلك، وقالوا: إن في هذا دليلا على أن الإيمان والإسلام شيء واحد، وذهب الآخرون إلى الفرق، وقالوا: أما المؤمنون فقد نجوا، وأما البيت فهو بيت إسلام، لأن المظهر في هذا البيت - بيت لوط - أنه بيت إسلامي، حتى امرأته لم تتظاهر بالكفر، تظاهرت بأنها مسلمة، ولهذا قال الله تعالى في سورة التحريم: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠] ليس المعنى خانتاهما بالفاحشة، بل خانتاهما بالكفر، لكنه كفر مستور، وهو خيانة من جنس النفاق، ولهذا يقال للمجتمع الذي فيه المنافقون: «إنه مجتمع مسلم»، وإن كان فيه المنافقون، لأن المظهر مظهر إسلام، إذن نقول: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ إنما قال: ﴿مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، لأن امرأته ليست مؤمنة، ولكنها مسلمة.

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣٧] تركنا فيها آية أي علامة، فما العلامة؟ أهي علامة حسية، أم علامة معنوية، أم علامتان معنوية وحسية؟ والقاعدة المفيدة في التفسير: (إذا احتملت الآية أكثر من معنى لا مرجح لأحدهما على الآخر ولا منافاة بينهما، وجب حملها على المعنيين جميعًا)، فهذه الآية حسية ومعنوية:

أما الحسية: فما نشاهد مكان قريتهم التي تسمى بحيرة لوط، فإن هذا كان موضع القرية، كل يمر به ويراه ويشاهده، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧ : ١٣٨].

وآية معنوية: كل من قرأ قصتهم في جميع ما وردت فيه من السور الكريمة اعتبر واتعظ وخاف، لكن من الذي ينتبه لهذه الآيات؟ ومن يتعظ؟ ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أما المنكرون الذين قست قلوبهم فإنهم لن ينتفعوا بالآيات، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] نسأل الله أن يجعلنا من المنتفعين بالآيات.

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٨] يعني في موسى آيات من آيات الله عز وجل، حين أرسله الله تعالى إلى فرعون، وفرعون علم جنس على كل من حكم مصر وهو كافر، وموسى بن عمران عليه السلام أفضل أنبياء بني إسرائيل، وهو في المرتبة الثالثة من الفضل بالنسبة لأولي العزم الخمسة، فإن أفضلهم محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم نوح، وعيسى عليهم الصلاة والسلام، أرسله الله تعالى ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، أي: بحجة بينة في نفسها مبينة لغيرها، فالآيات التي جاء بها الأنبياء بينات واضحة لكل ذي عدل وإنصاف، وهي أيضًا مبينة لصدق ما جاءت به الرسل، ولهذا اعلم أنه كلما جاء في القرآن كلمة: (مبين) فهي بمعنى ﴿مُّبِينٍ﴾ في ذاته، مبين لغيره، إلا ما دل السياق أن المراد البين في ذاته، فمن الآيات العظيمة التي جاء بها موسى: عصا موسى، التي كان يستعملها ويتوكأ عليها عند الحاجة، ويهش بها على غنمه أوراق الشجر عند رعيها، وله فيها حاجات أخرى، كما قال هو ﷺ لما سأله الله ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٧ : ١٨]، فهي آية في كونه إذا وضعها على الأرض صارت ثعبانًا مبينًا، أي: حية عظيمة تخيف من رآها، ولهذا رهب منها موسى ﷺ حين ألقاها وولى هاربًا، فناداه الله - عز وجل - ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ ومنها :أنه يدخل يده في جيبه فتخرج بيضاء في الحال، بيضاء لكن بدون سوء، أي بدون عيب، يعني ليست بيضاء برص، ولكنها بيضاء مخالفة للون جلده في الحال، حقيقة لا تخيلًا، وقال الله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]، المهم أنه أتى إلى فرعون بسلطان مبين وحجة دامغة بالغة، لكنه - والعياذ بالله - ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ أي: بقوته وسلطانه وجنده، أعرض عن موسى استكبارًا وجحودًا وظلمًا وعدوانًا، قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٥]، ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ يعني أنه اتهم ﷺ بأنه ساحر، لأنه أتى بآيات تشبه ما يصنعه السحرة: عصا من خشب توضع في الأرض وتكون ثعبانًا مبينًا، ويد تدخل في الجيب وتخرج بيضاء في الحال، هذا يشبه السحر، أو ﴿مَجْنُونٌ﴾، وذلك بكونه يدعي أن الله وحده خالق السموات والأرض وهو الرب

وهو الإله، لأنهم كانوا لا يعرفون الإله إلا فرعون، فإذا جاء شخص يقول: إن الله هو رب العالمين، وأن فرعون ليس إلهًا ولا ربًا. فإنهم يرمونه بالجنون، هذا مجنون خرج عما نعهد، قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٤٠] أي: طرحناهم فيه، واليم هو البحر، والبحر الذي هلك فيه فرعون هو البحر الأحمر، الذي بين آسيا وأفريقيا، وذلك أن فرعون جمع جنوده وحشدهم وأراد أن يقضي على موسى وقومه، فخرج موسى عليه السلام وقومه من مصر متجهين إلى الشرق، ولكن حال بينهم وبين مرادهم البحر، فلما وصلوا إلى البحر كان البحر بين أيديهم، وفرعون وقومه خلفهم، فقال قوم موسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] يعني هلكنا، لأن فرعون خلفنا والبحر أمامنا فكيف النجاة؟! فقال موسى: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] وهذه معية خاصة تقتضي النصر والتأييد، قال: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ ولم يقل: سوف يهدين، بل قال: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ إشارة إلى قرب هذا الحصر وأنه سيزول قريبًا، وهذا هو الذي حصل، فأوحى الله تعالى إليه أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فانفلق اثنتي عشرة طريقًا في الحال ويبس في الحال، وصار صالحًا للمشي عليه في الحال، كما قال عز وجل: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧]، فعبر موسى وقومه من هذه الطرق العظيمة التي كان الماء بينها كالجبال ولما انتهوا خارجين كان فرعون في أثرهم وانتهوا داخلين، فأمر الله - عز وجل - بقدرته وسلطانه البحر أن يعود إلى ما كان عليه، فانطبق على فرعون وقومه فهلكوا عن آخرهم والحمد لله، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢] أي: فرعون فاعل ما يلام عليه ولا شك أن رده للرسالة الإلهية، وادعائه أنه الرب وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] وما أشبه ذلك من الكلمات لا شك أنها كلمات يلام عليها، لأنه قد تبين له الحق، ولكنه عاند وأبى أن ينقاد للحق، كما قال له موسى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ﴾ [الصافات: ١٥٨] يعني يا فرعون ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢].

ثم قال تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] يعني وفي عاد آيات ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ عاد في جنوب الجزيرة العربية، وكانوا قومًا أشداء حتى إنهم قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] فقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، فأصابهم القحط والجدب، فجعلوا يترقبون المطر، فأرسل الله عليهم الريح العظيمة الشديدة، ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٨] قال

الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٨]، فأرسل الله عليهم هذه الريح العقيم التي ليس لهم فيها ثمرة ولم تحمل ماء: كالمرأة العقيم التي لا تلد، هذه أيضا ريح عظيمة لا تحمل سحابًا ولا مطرًا، هذه الريح العقيم هي الريح الغربية، كما جاء عن النبي ﷺ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ»[1] أي: بالريح الغربية، أرسل الله عليهم هذه الريح العقيم ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات:٤٢] كل شيء تأتي إليه تجعله كالرميم هامدًا، حتى إنها تأخذ الرجل - والعياذ بالله - إلى فوق ثم ترده إلى الأرض ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧]، ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر:٢٠]، هلكوا عن آخرهم، تأمل الآية، قوم عاد قوم أقوياء أشداء هلكوا بهذه الريح اللطيفة التي لا ترى لها جسمًا، وإنما تحس بها بدون أن ترى شيئًا، ومع ذلك قضت عليهم بأمر الله - عز وجل - ولهذا قال تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات:٤٢] فهذا فيه آيات من آيات الله - عز وجل -، أرسل الله عليهم هذه الريح، فأهلكتهم عن آخرهم.

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [الذاريات:٤٣] ثمود هم الذين أرسل الله إليهم نبيه صالحًا - ﷺ - فوعظهم وذكرهم، وجعل لهم آية وهي الناقة التي شرفها الله تعالى بإضافتها إلى نفسه الكريمة، حيث قال تبارك وتعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس:١٣] أي احذروا ناقة الله أن تعبثوا فيها، أو أن تنكروها، وهذه الآية ﴿لَّهَا شِرْبٌ﴾ [الشعراء:١٥٥] تشرب من البئر التي تسمى بئر الناقة، ولهم شرب يوم معلوم يشربونه، فالناقة تشرب يومًا وهم يشربون يومًا، وهذه الناقة ذكروا أنهم: ما جاء أحد يستقي من هذا البئر في يومها التي تشرب منه إلا أخذ بدل شربها شيئًا من لبنها بقدر ما شربت، فالله أعلم: هل هذا هو الواقع أو يختلف؟ لكن على كل حال هذه الناقة لا شك أنها ناقة ليست كسائر النوق، إذ إنها آية من آيات الله - عز وجل - لكنهم كذبوا وأبوا وتوعدهم ﷺ أن يتمتعوا في دارهم ثلاثة أيام، ولكنهم مازالوا على كفرهم وإنكارهم، ولهذا قال: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ وديارهم معروفة الآن، موجودة في مكان يسمى الحجر، ويسمى الآن ديار ثمود، وقد مر بها النبي ﷺ في ذهابه إلى تبوك، لكنه ﷺ أسرع حين مر بهذه الديار وقنع رأسه، ونهى أمته أن يدخلوا إلى هذه الأماكن - أماكن المعذبين - إلا أن يكونوا باكين، قال: «فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوهَا أَنْ يُصِيبَكُم مَا أَصَابَهُم»[2]، وقوله:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٠٣٥) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٩٠٠).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣٣)، ومسلم (٢٩٨٠).

«أن يصيبكم ما أصابهم» لا يلزم منه أن يراد به ما أصابهم من العذاب الجسمي قد يكون المراد ما أصابهم من العذاب الحسي وما أصابهم من الإعراض والكفر.

فلو قال قائل: إنه يوجد أناس يذهبون إلى هذه الأماكن وهم غير باكين ولم يصابوا بشيء؟

فنقول: الجواب عن هذا من وجهين:

أولًا: أن الرسول ﷺ لم يؤكد أن يصابوا بهذا، ولكن قال: «حذار أن يصيبكم مثل ما أصابهم».

الوجه الثاني: أن نقول: لا يتعين أن يكون المراد بذلك أن يأخذوا بما أخذ به هؤلاء من العقوبة الحسية الظاهرة، وهي الرجفة والصيحة التي أماتتهم عن آخرهم، فقد يكون المراد مرض القلب، الذي هو الاستكبار والإعراض ورد الحق.

﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾، هذا الحين هو ثلاثة أيام ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الذاريات:٤٣] أي: فأبوا ولم يرجعوا عن غيهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ التي صعقتهم، وهي رجفة وصيحة، ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ أي: ينظر بعضهم إلى بعض يتهاوون ويتساقطون أمواتًا ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾ أي: ما استطاعوا أن يقوموا ﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾، أي: لم يتمكن بعضهم أن ينصر بعضًا، بل كلهم هلكوا عن آخرهم، وهكذا يفعل الله تعالى بمن كذب أولياءه، وهكذا يفعل الله تعالى بمن كذب رسله عليهم الصلاة والسلام، إلا أن العذاب المستأصل رفع عن هذه الأمة، فإن النبي ﷺ دعا ربه سبحانه وتعالى ألا يأخذهم بسنة بعامة، أي بعقوبة عامة، لكن ابتلوا بشيء آخر وهو أن يقتل بعضهم بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا[1]، والأمر كذلك وقع، فإن هذه الأمة لم تصب بعذاب عام كما أصيبت به الأمم التي قبلها، لكن أصيبت بأن جعل الله بأسهم بينهم منذ زمن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم لما اختلفوا على عثمان وعلي - رضي الله عنهما - وحصلت الفتن تتوالى إلى يومنا هذا، ثم هذه الأمة التي جُعل بأسها بينها ليست هي أمة الإجابة فقط، بل أمة الإجابة وأمة الدعوة، ولهذا نقول: ما حصل من الفتن والبلاء في الأرض مشارقها ومغاربها من الكفار وغير الكفار فإنما هو نتيجة للمعاصي، وهي عقوبة هذه الأمة أن الله يذيقهم بأس بعض.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الذاريات: ٤٦] يعني اذكر قوم نوح من قبل، وهم أول أمة أرسل إليهم الرسول، ولكنهم كذبوا، ونوح ﷺ بقي فيهم ألف سنة إلا خمسين

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٨٩)، والترمذي (٢١٧٦)، وابن ماجه (٣٩٥٢).

عامًا يدعوهم إلى الله ويذكرهم ويعظهم، ولكنهم - والعياذ بالله - لم يؤمنوا، ما آمن معهم إلا قليل حتى أنه ﷺ يقول: ﴿كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ [نوح: ٧]، جعلوا أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا ما يقول، واستغشوا ثيابهم أي تغطوا بها لئلا يبصرون، نسأل الله العافية، وهذا غاية ما يكون من البغضاء لما يقول ولما يفعل، ﴿وَأَصَرُّوا۟﴾ على باطلهم ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ فكان آخر ما قال ﷺ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] ودعا ربه أني مغلوب فانتصر، قال الله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١: ١٢] ولهذا والله أعلم سيكون عليهم نصيب من عذاب المكذبين لأنهم هم أول أمة كذبت الرسل، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة(١)، كما أن من قتل نفسًا فإن على ابن آدم الذي قتل أخاه كفلًا ونصيبًا من عذاب القاتل إلى يوم القيامة(٢).

ثم قال عز وجل: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ مفعول لفعل محذوف والتقدير: وبنينا السماء، وقوله: ﴿بِأَيْي۟دٍ﴾ أي: بقوة، كما قال الله تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢] فالأيد هنا أي القوة، وليست جمع «يد» كما يتوهم بعض الناس، ويظنون أن الله تعالى بنى السماء بيديه عز وجل؛ لأن «الأيد» هنا مصدر آد يئد بمعنى القوة، كما يقال: باع يبيع بيعًا، ولهذا لم يضف الله هذه الكلمة إلى نفسه الكريمة كما أضافها إلى نفسه الكريمة في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ [يس: ٧١]، فمن فسر الأيد بالقوة هنا فإنه لا يقال: إنه من أهل التأويل الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، بل هو من التأويل الصحيح، والإنسان إذا تأمل وتفكر في السماوات عرف أنها قوية شديدة عظيمة، وأن قوتها تدل على قوة بانيها - عز وجل -. ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: لموسعون لأرجائها، لأنها واسعة عظيمة، ولهذا كانت السماوات أكبر بكثير من الأرض، وهي محيطة بالأرض من كل جانب، وعلى هذا فتكون أوسع من الأرض، وليست الأرض بالنسبة للسماء إلا شيئًا يسيرًا، ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨] ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ أي: فرشنا لأهلها، جعلناها لهم كالفراش يأوون إليها ويتمتعون بها، لم يجعلها الله تعالى صعبة ولا سهلة، بل هي متوسطة، لو كانت لينة رخوة ما تمكن أحد من البقاء عليها، ولو كانت صعبة ما تمكن أحد من الانتفاع بها، ولكنها

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠١٧)، والترمذي (٢٦٧٥)، والنسائي (٢٥٥٤).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٣٦)، و مسلم (١٦٧٧).

كانت كما وصفها الله -عز وجل-: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

﴿فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ﴾ أثنى على نفسه تبارك وتعالى بذلك، لأنه أهل للثناء، وقد جعل الله تبارك وتعالى الأرض على مستوى نافع للعباد، ليست بالقاسية التي يعجز الناس عن الانتفاع بها، وليست باللينة التي لا يستقرون عليها، بل هي مناسبة تمامًا لهم، على أن فيها اختلافًا في الليونة وفي الصلابة، لكن هذا لا يمنع الانتفاع بها.

﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩] خلق الله تبارك وتعالى من كل شيء زوجين متقابلين حتى تتم الحال وتصلح باجتماع بعضهما إلى بعض، فالحيوان كله من إنسان وغيره يكون من زوجين بين ذكر وأنثى، كما قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحجرات: ١٣]، إلا أن آدم ﷺ خلقه الله بيده من غير أم ولا أب، وحواء خلقت من أب بلا أم، وعيسى ابن مريم خلق من أم بلا أب، ولهذا ينقسم الناس إلى أربعة أقسام:

الأول: من خلق بلا أم ولا أب وهو: آدم.

والثاني: من خلق من أب بلا أم وهي: حواء.

والثالث: من خلق من أم بلا أب وهو: عيسى.

والرابع: بقية البشر خلقوا من ذكر وأنثى، فمن كل شيء خلق الله زوجين: اليابس والرطب، والحرارة والبرودة، واللين والقسوة، وغيره مما إذا تأمله الإنسان عرف بذلك حكمة الله سبحانه وتعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، أي: بيَّنا ذلك لكم، لأجل أن تذكروا وتتعظوا بآيات الله تبارك وتعالى، فإن الإنسان كلما كان أعلم بآيات الله الكونية أو الشرعية كان أكثر اتعاظًا واعتبارًا، ولهذا حث الله على النظر في الآيات الكونية فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الروم: ٨]، ومدح الله تعالى الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض بقوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ : ١٩١]؛ لهذا ينبغي الإنسان أن يتعظ ويتذكر ويتدبر آيات الله سبحانه وتعالى الكونية والشرعية.

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات: ٥٠] هذا كأنه على لسان النبي ﷺ، أي قل لهم: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ﴾ أي: من الله، والفرار إلى الله يكون بالقيام بطاعته واجتناب نواهيه، لأنه لا ينقذك من عذاب الله إلا أن تقوم بطاعة الله، فكأن الإنسان إذا قام بطاعة الله عز وجل كأنه فر من عدو، أرأيت لو أن واديًا عرمًا يهدر أقبل عليك فإنك لن تقف أمامه، بل تهرب منه وتفر منه، كذلك لو أن حريقًا ملتهبًا أقبل إليك فإنك لن تقف بل تفر، كذلك نار جهنم أشد وأعظم وأولى بالفرار منها، ولهذا قال: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي: من عذاب الله ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ أي: منذر ﴿مُّبِينٞ﴾ أي: مظهر لما أنذر به ومبين له، فهو ﷺ نذير من الله تعالى لعباده، ينذر من خالف أمره بالعذاب، ومع هذا هو ﷺ بشير لمن آمن وأطاع بالجنة والسعادة في الدنيا والآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، لكن الله تبارك وتعالى يذكر الإنذار فقط في مقام التهديد والوعيد، وهذه السورة كلها ذكر للأمم السابقين وما حل بهم من العقوبة لمخالفتهم أمر الله تبارك وتعالى، ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الذاريات: ٥١]، أي: لا تجعلوا معه معبودًا تعبدونه، والمعبود أنواع وأصناف، فمن الناس من يعبد الشمس، ومنهم من يعبد القمر، ومنهم من يعبد النجوم، ومنهم من يعبد الحيوان، ومنهم من يعبد الشجر، ومنهم من يعبد الحجر، ومنهم من يعبد المال، كما قال النبي ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيلَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ»(١)، فبين الرسول ﷺ أن الذي ليس لهم هَمٌّ إلا المال فإنه عابد له في الحقيقة، وإن كان لا يركع له ولا يسجد، لكن تعلق قلبه به واهتمامه به، وكونه يرضى لحصوله، ويسخط لمنعه، لا شك أنه قد استولى على قلبه استيلاء تامًّا، لكن المعبود تختلف عبادته في الحكم، فإن كان يصرف له شيء من العبادة فهذا شرك أكبر، وإن كان لا يصرف له شيء من العبادة ولكنه يتعلق به القلب تعلقًا كاملًا حتى إنه ليدع الواجبات ويقع في المحرمات من أجل الحصول عليه، فهذه عبادة لا تخرج من الدين لكنها حقًّا عبادة، ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ كرر ذلك لأهمية الموضوع، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا الاتعاظ والانتفاع بآيات الله تعالى، إنه على كل شيء قدير.

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢] يعني أن الأمر الذي حصل لك يا محمد حصل لمن قبلك، فقوله ﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: الأمر

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٨٨٧)، والترمذي (٢٣٧٥)، وابن ماجه (٤١٣٦).

كذلك، يعني أن أمر الأمم السابقة كأمر هؤلاء الذين كذبوك يا محمد، وفسر ﴿كَذَٰلِكَ﴾ بقوله: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ يعني ما أتاهم رسول إلا قالوا كذا، و ﴿مِّن﴾ في قوله ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ زائدة من حيث الإعراب، كقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩] والمعنى: ما جاءنا بشير ونذير، لكن تزاد الحروف في بعض الجمل للتأكيد، فما أتى الذين من قبلهم من رسول يعني ما أتاهم رسول إلا وصفوه بهذين الوصفين إلا قالوا: ساحر أو مجنون، ساحر باعتبار تأثيره وبيانه وبلاغته، لأن النبي ﷺ قال: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا»[1]، أو مجنون ـ يعني أو قالوا: مجنون ـ باعتبار تصرفاته، لأن هذا التصرف في نظر هؤلاء المكذبين جنون، نسأل الله العافية، وفي هذا تسلية للرسول ﷺ، لأن الإنسان إذا علم أن غيره أصابه ما أصابه تسلى بذلك وهان عليه الأمر، ولهذا قالت الخنساء تماضر وهي ترثي أخاها صخرًا:

وَلَـوْلَا كَثْـرَةُ البَـاكِينَ حَـوْلِي ... عَـلَى إِخْـوانِهِم لَقَتَلْـتُ نَفْـسِي
وَمَـا يَبْكُـونَ مِثْـلَ أَخِـي وَلَكِـنْ ... أُسَـلِّي الـنَّفْسَ عَنْـهُ بِالتَّـأَسِي

وقد دل لذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩]، لأن الإنسان إذا شاركه غيره في العذاب هان عليه، لكن يوم القيامة لا ينفع الإنسان أن يشاركه غيره في عقوبته، والمهم أن في هذه الجملة بالنسبة للرسول ﷺ تسلية حتى لا يحزن، فإن ما أصابه قد أصاب غيره، وفيها أيضًا دليل على أن المكذبين للرسل طريقهم واحدة، ولو تباعدت أزمانهم، ولو تباعدت أقطارهم، لأن المجرم أخو المجرم، فالطريقة واحدة، قال الله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣].

﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦ﴾ أي بهذا القول ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ يعني هل هؤلاء المكذبين للرسل الذين اتفقوا على وصف الرسل بأنهم سحرة ومجانين، هل هم تواصوا بذلك؟ يعني هل كل واحد من هؤلاء الأمم كتب وصية إلى الأمم اللاحقة: أن قولوا لأنبيائكم: إنكم سحرة ومجانين؟

الجواب: لا، ولهذا قال: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ وهذا إضراب إبطال يعني لم يحصل تواصٍ، ولكن تواردت الخواطر، لأن الهدف واحد وهو تكذيب الرسل، فاتفقت الكلمة، وفي قوله: ﴿طَاغُونَ﴾ وصف بأن هؤلاء طغاة معتدون، وهذا من أعظم الطغيان ـ والعياذ بالله ـ أن يوصف

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥١٤٦)، والترمذي (٢٠٢٨)، وأبو داود (٥٠٠٧).

دعاة الحق بأنهم سحرة ومجانين، قال الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات: ٥٤] ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عن هؤلاء ولا تهتم بهم ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ يعني لا أحد يلومك لأنك بلَّغت الرسالة، وأدَّيت الأمانة، وصبرت وصابرت، فلقد صبر النبي ﷺ وصابر على أذى قريش واستهانهم إياه، ولكنه كانت له العاقبة ولله الحمد، ولهذا قال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، بمعنى أنك لا تتعب نفسك بهم، ولا تهلك نفسك فيهم، فأنت في هذه الحال لا تلام على ذلك، لأنه ﷺ قام بما يجب عليه، وفي قوله ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ أمران:

الأمر الأول: عذر النبي ﷺ وإقامة العذر له.

والثاني: تهديد هؤلاء المكذبين: فالله تعالى يهددهم بتولي الرسول عنهم، لأنهم لا خير فيهم.

ثم قال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] أي: ذكر الناس بآيات الله وبأيامه وشرائعه وما أوجب الله على العباد. وبأيامه: عقابه تبارك وتعالى للمكذبين وإثابته للطائعين، لكن أطلق الله الذكرى وقال: ﴿وَذَكِّرْ﴾ ولم يقل: وذكر المؤمنين، لكن بين أن الذي ينتفع بالذكرى هم المؤمنون فقال: ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن المؤمن إذا ذكر فهو كما وصفه الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣] بل يقبلونها بكل رحابة صدر وبكل طمأنينة، وفي الآية الدليل على وجوب التذكير على كل حال، وفيها أن الذي ينتفع بالذكرى هم المؤمنون، وأن من لا ينتفع بالذكر فهو ليس بمؤمن: إما فاقد الإيمان، وإما ناقص الإيمان، وهنا فتش عن نفسك: هل أنت إذا ذكرت بآيات الله وخوفت من الله عز وجل هل أنت تتذكر أم يبقى قلبك كما هو قاسيًا؟ إن كانت الأولى فاحمد الله فإنك من المؤمنين، وإن كانت الثانية فحاسب نفسك، ولا تلومن إلا نفسك، وعليك أن ترجع إلى الله - عز وجل - حتى تنتفع بالذكرى، وفي الآية دليل على أنه كلما كان الإيمان أقوى كان الانتفاع بالذكرى أعظم وأشد، وذلك من قاعدة معروفة عند العلماء، وهي: أن الحكم إذا علق بوصف ازداد بزيادته ونقص بنقصانه.

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي ما أوجدتهم بعد العدم إلا لهذه الحكمة العظيمة وهي: عبادة الله تبارك وتعالى وحده لا شريك له، واللام في قوله ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ للتعليل، لكن هذا التعليل تعليل شرعي، أي لأجل أن يعبدون، حيث آمرهم فيمتثلوا أمري، وليست اللام هنا تعليلا قدريًا، لأنه لو كان تعليلًا قدريًا للزم أن يعبده جميع الجن والإنس، لكن اللام هنا لبيان الحكمة الشرعية في خلق الجن والإنس، والجن عالم غيبي خلقوا من نار، لأن

أباهم هو إبليس كما قال الله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ [الكهف: ٥٠] فسموا جنًّا لأنهم مستترون عن الأعين، حيث إنهم يروننا ولا نراهم، هذا هو الأصل أنهم عالم غيبي، لكن قد يظهرون أحيانًا، والأصل فيهم أنهم كالإنس منهم المسلمون، ومنهم غير المسلمين، ومنهم الصالحون ومنهم دون ذلك، لكن الإنس يفضلونهم بأنهم أحسن منهم من حيث الابتداء، حيث إنهم خلقوا من الطين، من التراب، من صلصال كالفخار، وأما أولئك الجن فخلقوا من النار، كذلك يمتاز الإنس عنهم بأن منهم الرسل والأنبياء، وأما الجن فليس منهم رسل، ولكن منهم نُذر، يبلغونهم الرسالات من الإنس، كما في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] فانظر إلى أدبهم في قولهم: ﴿أَنصِتُوا۟﴾ ثم بقائهم حتى انتهى المجلس، ثم ذهبوا دعاة لما سمعوا، قالوا: ﴿أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠] إلى آخر الآية، وأما الإنس فهم بنو آدم البشر، هؤلاء خلقوا لشيء واحد، لعبادة الله، لا لأجل أن ينفعوا الله بطاعتهم، ولا أن يضروه بمعاصيهم، ولا أن يطعموه، ولهذا قال: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٧] يعني ما أطلب منهم رزقًا أي عطاءً أنتفع به، ولا أن يطعمون فأنتفع بإطعامهم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]، فهو سبحانه وتعالى له الجود والغنى والكرم وهو غني عما سواه، فالحكمة من خلق الجن والإنس العبادة، فلم يخلقوا لأجل أن يعمروا الأرض، ولا لأجل أن يأكلوا، ولا لأجل أن يشربوا، ولا أن يتمتعوا كما تتمتع الأنعام، وإنما خلقوا لعبادة الله، وخلق لهم ما في الأرض، فنحن مخلوقون للعبادة، وكل ما في الأرض مخلوق لنا، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، والعجب أن قومنا الآن اشتغلوا فيما خلق لهم عما خلقوا له، وهذامن السفه أن يشتغلوا بشيء خلق لهم، عن شيء خلقوا من أجله.

والعبادة تطلق على معنيين:

المعنى الأول: التعبد، يعني فعل العبد، فيقال: تعبد لله عبادة.

والثاني: المتعبد به، وهذا المعنى قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: إنه (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة)، فهي اسم جامع لكل شيء، فالصلاة عبادة، والصدقة عبادة، والصوم عبادة، والحج عبادة، والأمر بالمعروف عبادة، والنهي عن المنكر

عبادة، وكل ما يقرب إلى الله من قول أو فعل فإنه عبادة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨] هو الرزاق يعني هو صاحب العطاء الذي يعطي، فالرزق بمعنى العطاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء: ٨] أي: أعطوهم، وكلمة (الرزاق) أبلغ من كلمة (الرازق)؛ لأن (الرزاق) صيغة مبالغة تدل على كثرة الرزق، وعلى كثرة المرزوق، فرزق الله تعالى كثير باعتبار كثرة المرزوقين، فكل دابة في الأرض على الله رزقها، من إنسان وحيوان، ومن طائر وزاحف، ومن صغير وكبير، ولا يمكن أن نحصي أنواع المخلوقات على الأرض، ولو قلت لك: أحصِ العوالم التي في الأرض، ما استطعت، فضلا عن أفرادها، فكل فرد منها فإن الله تعالى متكلف برزقه ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، فإذا كان الأمر كذلك صار رزق الله كثيرًا باعتبار المرزوق، مَن يحصي المرزوقين؟ لا أحد يحصيهم أبدًا، ورزقه كثير باعتبار الواحد، فكم لله عليك من رزق كثير لا يحصى، رزق الله لك دارٌّ عليك ليلًا ونهارًا، رزقك عقلًا، وصحة، ومالًا، وولدًا، وأمنًا وأشياء لا تحصى، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، ولهذا جاء اسم (الرزَّاق) بالتشديد الدال على الكثرة، وقوله: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ أي: صاحب القوة التي لا قوة تضادها، كما قال الشاعر الجاهلي:

أَيْـنَ المفـرُّ وَالإِلَـهُ الطَّالِـبُ ... وَالأَشْرَمُ المغْلُـوبُ لَـيْسَ الغَالِـبُ

فقوة الله عز وجل لا يضاهيها قوة، قوته - عز وجل - لا يعتريها ضعف، بخلاف قوة المخلوق، فقوته تنتهي إلى ضعف، كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤]، أما الرب عز وجل فقوته لا يلحقها ضعف بأي وجه من الوجوه، ولما قالت عاد: من أشد منا قوة؟ قال الله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وصدق الله عز وجل.

وقوله: ﴿ٱلْمَتِينُ﴾ يعني: الشديد، شديد في قوته، شديد في عقابه، شديد في كل ما تقتضي الحكمة الشدة فيه، انظر إلى قول الله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]، هذه شدة، والله - عز وجل - أرحم الراحمين، ومع ذلك ينهانا أن تأخذنا الرأفة في الزانية والزاني ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ وهذا دليل على القوة، ومن قوته - عز وجل - أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ولم يع بخلقهن، ومن قوته وقدرته أنه جل وعلا يبعث الناس كنفس واحدة ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣: ١٤]، والأمثلة على هذا كثيرة، فهو جل وعلا

له القوة البالغة التي لا يمكن أن تضاهيها أي قوة.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الذاريات: ٥٩] أي:الذين ظلموا بالكفر لهم ﴿ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾، و«الذَّنوب» في الأصل هو الدلو أو ما يستقى به، وشاهد ذلك قوله ﷺ: «أَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ»[1] والمعنى: هؤلاء الظالمون لهم نصيب مثل نصيب من سبقهم ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ أي نصيبًا من العذاب مثل نصيب أصحابهم، وانظر كيف سمى الله تعالى السابقين بأزمان بعيدة أصحابا لهؤلاء، وذلك لاتفاقهم في التكذيب، ورمي الرسل بما لا يستحقون، فهم أصحاب في الواقع وإن تباعدت الأزمان والأماكن ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾، النون هنا مكسورة على أنها نون الوقاية وحذف الضمير: الياء، وأصله:فلا يستعجلوني، فحذفت الياء تخفيفًا، ولهذا لا يشكل على الإنسان فيقول: كيف كانت النون مع أن (لا) ناهية؟ والجواب: أن نقول: هذه النون ليست نون الإعراب، ولكنها نون الوقاية، فالفعل إذًا مجزوم، والنون للوقاية، والياء التي هي المفعول محذوفة، وفي قوله: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ تهديد واضح أن هؤلاء سيأتيهم العذاب لا محالة، ولكن لا يستعجلون الله ـ عز وجل ـ لأن الله تعالى يملي للظالم ويمهله حتى إذا أخذه لم يفلته، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»[2]، وتلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٦٠] ويل: بمعنى الوعيد والعذاب، يعني أنه يتوعدهم ـ عز وجل ـ من هذا اليوم الذي يوعدون وهو يوم القيامة؛ لأنهم سيجدون ما أرسل إليهم حقًا، وسيجدون الذل والعار ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢]، فيكونون من بين هذا العالم ـ نسأل الله العافية ـ على هذا الوجه، ولهذا قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ وسيكون هذا اليوم يومًا عسيرًا عليهم، لأنهم كفرة والعياذ بالله.

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة الذاريات



(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦١٢٨)، والترمذي (١٤٧)، والنسائي (٥٦).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).

تفسير سورة الطور

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ البسملة تقدم الكلام عليها، ﴿وَٱلطُّورِ ١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ [الطور: ١: ٦] هذه أشياء أقسم الله بها، **الأول**: الطور وهوالجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران ﷺ، فإن الله تعالى كلمه أول ما كلمه على جبل الطور، فكان لهذا الجبل من الشرف والفضل ما سبق به غيره من الجبال، ولهذا أطلق كثير من العلماء أن جبل الطور أفضل الجبال وأشرفها، وعلى هذا يكون أشرف وأفضل من جبل حراء الذي ابتدأ فيه الوحي لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، هذا ظاهر إطلاق كثير من العلماء، ولكن في هذا الظاهر نظرًا، لأن جبل حراء كُلِّم منه الرسول ﷺ لكن كلمه جبريل عليه السلام مرسلا من عند الله، فمنه ابتدأت أفضل الرسالات على أفضل الرسل، وأيضًا حراء داخل الحرم المكي، لأنه من الحرم الذي لا يحل صيده ولا قطع شجره، وبقعة الحرم أفضل البقاع، ويمكن أن يحمل إطلاق كثير من العلماء على هذا فيقال: إلا جبل حراء.

﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾ الكتاب المسطور في الرق، اختلف فيه العلماء، وهذا الخلاف ينبني على كلمة (رق) هل الرق كل ما يكتب فيه من جلد وورق وعظم وحجر وغير ذلك؟ أو هو خاص بما يكتب فيه من جلود ونحوها؟ إن قلنا بالأول صار المراد بالكتاب عدة أشياء، منها اللوح المحفوظ، ومنها الكتب التي بأيدي الملائكة، ومنها القرآن الكريم، ومنها التوراة، فيشمل عدة كتب، وإذا قلنا: «إن الرق هو الورق وشبهه مما يكتب فيه عادة» فاللوح المحفوظ لا يدخل في هذا، وإنها المراد به إما التوراة، وإما القرآن، فالذين قالوا: «إنه التوراة» رجحوا قولهم بأنه قرن بالطور، والطور هو الذي كلَّم منه موسى ﷺ، فكان الكتاب المسطور هو التوراة التي جاء بها موسى، ومن قال: «إن المراد به القرآن الكريم» رجح ذلك بأن الله ذكر الطور الذي أوحي منه إلى موسى، وذكر الكتاب الذي هو القرآن أوحي إلى محمد ﷺ، فيكون الله تبارك وتعالى ذكر أشرف الرسالات في بني إسرائيل إياه بذكر الطور، وذكر أشرف

الرسالات التي بعث بها من بني إسماعيل محمد ﷺ، وعلى هذا فيتعين أن يكون المراد بالكتاب المسطور القرآن الكريم.

﴿مَّنشُورٍ﴾ صفة لكتاب، ويحتمل أن تكون صفة لرق، والمعنى واحد، والمراد بالمنشور يعني المفرق الذي يكون بأيدي كل قارئ، وهذا يصدق تمامًا على القرآن الكريم، فإنه - ولله الحمد - بين يدي كل قارىء حتى الصغار من المسلمين يقرؤونه.

﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ هذا هو الثالث مما أقسم الله به في هذه الآيات، وهو بيت في السماء السابعة يقال له: الضراح، هذا البيت يدخله كل يوم سبعون ألف ملك يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه[1]، فبناءً على هذا كم عدد الملائكة؟ لا يحصيهم إلا الله، من يحصي الأيام؟ ثم من يحصي سبعين ألفًا كل يوم يدخلون هذا البيت المعمور ولا يعودون إليه.

وقيل: إن المراد بالبيت المعمور بيت الله في الأرض وهو الكعبة؛ لأنه معمور بالطائفين والعاكفين والقائمين والركع السجود، فهل يمكن أن تحمل الآية على المعنيين جميعًا؟ القاعدة في التفسير: (أن الآية إذا احتملت معنيين على السواء وليس بينهما منافاة وجب أن تحمل على كل منهما، لأن المتكلم بها وهو الله - جل وعلا - عالم بما تحتمله من المعاني، وإذا لم يبين أن المراد أحد المعاني فإنه يجب أن تحمل على كل ما تحتمله من المعاني الصحيحة لا المعاني الباطلة)، وليس هناك منافاة بين أن يكون المقسم به الكعبة أو البيت المعمور في السماء.

لأن كلا البيتين معظم، ذاك معظم في أهل السماء، وهذا معظم في أهل الأرض، ولا مانع، فالصواب أن الآية شاملة لهذا وهذا، إلا إذا وُجد قرينة ترجح أن المراد به البيت المعمور في السماء ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ أقسم الله تعالى بالسقف المرفوع وهو السماء، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢] وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، فالسماء سقف، والسماء مرفوعة، إذن فالسقف المرفوع هو السماء، وسماه الله سقفًا لأنه قد غمر جميع الأرض من جميع الجوانب، كما يغمر السقف الحجرة من جميع الجوانب، وإنما أقسم الله تعالى بالسماء لما فيها من الآيات العظيمة من نجوم وشمس وقمر، وإحكام وإتقان، قال الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٣: ٤] يعني مرة بعد مرة ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤]، وأخبر أنه ليست للسماء فروج، وليس فيها تشقق وليس فيها

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٢).

عيب، وليس فيها تصدُّع، ولا تبلى على طول المدة، فهي جديرة بأن يقسم الله بها.

﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ كلمة البحر قيل: إن المراد به البحر الذي عليه عرش الرحمن - عز وجل - كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]، وقيل: المراد به البحر الذي في الأرض لأنه المشاهد المعلوم الذي فيه من آيات الله ما يبهر العقول، والصحيح أن المراد به بحر الأرض، لأن (أل) في ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ للعهد الذهني، يعني البحر المعهود الذي تعرفونه، فأقسم الله به لما فيه من آيات الله العظيمة من أسماك وأمواج وغير هذا مما نعلمه وما لا نعلمه، ومن أعظم ما فيه من آيات الله ما أشار إليه تعالى في قوله: ﴿ٱلْمَسْجُورِ﴾ يعني الممنوع، ومنه سجرت الكلب يعني ربطته حتى لا يهرب، فالبحر ممنوع بقدرة الله عز وجل، إننا نعلم جميعًا أن الأرض كروية، وهذا البحر لو نظرنا إليه بمقتضى الطبيعة لكان يفيض على الأرض، لأنه لا جدران تمنع، والأرض كروية مثل الكرة، فلو نظرنا إلى هذا البحر بمقتضى الطبيعة لقلنا: لابد أن يفيض على الأرض فيغرقها، ولكن الله تبارك وتعالى أمسكه بقدرته سبحانه وتعالى، فهو مسجور، أي: ممنوع من أن يفيض على الأرض فيغرق أهلها، وهذه آية من آيات الله، فلو صب فوق الكرة ماء لذهب يغمرها يمينًا وشمالًا، لكن هذا البحر لا يمكن أن يفيض على الأرض بقدرة الله سبحانه وتعالى، وانظر إلى الحكمة: تأتي أيام المد والجزر، نفس البحر يمتد امتدادًا عظيمًا لعدة أمتار وربما أميال، ثم ينحسر، مَن الذي مده؟ ولو شاء لبقي ممتدًا حتى يغرق الأرض، ومن الذي رده؟ هو الله، ولهذا كان هذا البحر جديرًا بأن يقسم الله به، وفي البحر آيات عظيمة، يقال: إنه ما من شيء على البر من حيوان وأشجار إلا وله نظير في البحر بل أزيد، لأن البحر بالنسبة لليابس يمثل أكثر من سبعين في المائة، وفيه أشياء لا نرى لها نظيرًا في البر، وهذا من آيات الله عز وجل، وأعظم آية في البحر هو أنه مسجور، أي ممنوع من أن يفيض على الأرض فيغرق أهلها.

وقيل: المراد بـ﴿ٱلْمَسْجُورِ﴾ الذي سيسجر، أي: يوقد كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦]. أي: أوقدت. وهذا يكون يوم القيامة، هذا الماء الذي نشاهده الآن والذي لو سقطت فيه جمرة، أو مر على جمرة لأطفأها، يوم القيامة يكون نارًا يسجر، وهذا من آيات الله - عز وجل - والمراد به المعنيان جميعًا؛ لأنه لا منافاة بين هذا وهذا، فكلاهما من آيات الله - عز وجل - أي سواء قلنا المسجور الممنوع من أن يفيض على الأرض، أو المسجور الذي سيسجر أي يوقد، فكل ذلك من آيات الله، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الطور: ٧] هذا هو جواب القسم، وهذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم بخمسة أشياء، وإذا كان قسمًا بخمسة أشياء صار كأنه أقسم عليها

خمس مرات، والثاني: بـ(أن)، والثالث: باللام.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ يعني لابد أن يقع عذاب الله الذي وعد به، هذه والله جملة عظيمة مؤثرة، لكنها لا تؤثر إلا على قلب لين كلين الزبد أو أشد، أما القلب القاسي فلا يهتم بها، تمر عليه وكأنه حجارة، وكان عمر -رضي الله عنه- إذا قرأ هذه الآية يمرض حتى يعُاد، يمرض من شدة ما يقع على قلبه من التأثر حتى يُعاد، فإذا كان واقعًا وليس له دافع أليس الجدير بنا أن نخاف؟ بلى والله، هذا هو الجدير، وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ يعني لابد أن يقع، ولكن هل هذا التأكيد بالنسبة لعذاب المؤمنين أو لعذاب الكافرين؟ لننظر قال الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾ [المعارج:١: ٣]، فضم هذه الآية إلى الآية التي في الطور تجد أن قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ﴾ على الكافرين، فعذاب الله على الكافرين ليس له دافع، لا أحد يدفعه، لا قبل وقوعه ولا بعد وقوعه، ولهذا لا تنفعهم الشفاعة فيرفع عنهم العذاب، أما عذاب الله للمؤمن المذنب فإن الأصل أنه واقع، كل ذنب توعد الله عليه بالعذاب فالأصل أنه واقع، لكنه مع ذلك قد يرفع بفضل من الله -عز وجل- وقد يرفع بالشفاعة، وقد يرفع بأعمال صالحة تغمر الأعمال السيئة، أما ترى أن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ألم تعلم أن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئًا إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ»(١) فيرتفع عنه العذاب، وعلى هذا نقول: عذاب الله واقع على الكافرين لا محالة، ولا دافع له، أما على عصاة المؤمنين فإن الأصل الوقوع، وقد أنذر الله العباد وخوَّفهم وبيَّن لهم، لكن مع ذلك قد يرتفع بأسباب متعددة، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ﴾، ﴿مَّا﴾ نافية، و ﴿دَافِعٖ﴾ مبتدأ مؤخر، دخلت عليها ﴿مِن﴾ الزائدة للتوكيد، يعني ما من أحد ولو عظمت منزلته وقوته يدفع أو يرفع عذاب الله -عز وجل- لأن ﴿دَافِعٖ﴾ هنا تشمل المنع قبل الوقوع، والرفع بعد الوقوع لا أحد يدفع عذاب الله ولا يمنعه عن أن ينزل ولا يرفعه إذا نزل، وإنما ذلك إلى الله وحده، نسأل الله تعالى أن يعاملنا بعفوه، وأن يغفر لنا ما سلف من ذنوبنا وما حضر، إنه على كل شيء قدير.

﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ۝١٠ فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: ٩: ١١] هذه الآية: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا﴾ متعلقة بقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٞ﴾ يعني أن العذاب يقع في ذلك اليوم، قوله: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا﴾ قد يظن الظانّ أن المصدر هنا ﴿مَوۡرٗا﴾ لمجرد

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٩٤٨)، وأحمد في «مسنده» (١/ ٢٧٧).

التوكيد، ولكنه ليس كذلك، بل هو لبيان تعظيم هذا المور، والمور بمعنى الاضطراب، يعني أن السماء تضطرب وتتشقق، وتتفتح وتختلف عما هي عليه اليوم، كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ﴿٤﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ [الانفطار: ١: ٥]، ولا إنسان يتصور أو يعلم حقيقة ذلك اليوم، ولكننا نعلم المعنى بما أخبر الله به عنه، أما الحقيقة فهي شيء فوق ما نتصوره الآن، ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾ [التكوير: ٣] أي: تسير سيرًا عظيمًا، وذلك أن الجبال تكون هباءً منثورًا، وتتطاير كما تتطاير الغيوم، وتسير سيرًا عظيمًا هائلًا، لشدة هول ذلك اليوم، وهذه الآية تدل على أن قول الله تبارك وتعالى في سورة النمل: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]. فإن هذه الآية هي نفس هذه الآية التي في ﴿الطور﴾ من حيث المعنى، فيكون قوله تبارك وتعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ يعني يوم القيامة ولا شك، ومن فسرها بأن ذلك في الدنيا وأنه دليل على أن الأرض تدور فقد حرَّف الكَلم عن مواضعه، وقال على الله ما لا يعلم، وتفسير القرآن ليس بالأمر الهين، لأن تفسير القرآن يعني أنك تشهد على أن الله أراد به كذا وكذا، فلابد أن يكون هناك دليل: إما من القرآن نفسه، وإما من السنة، وإما من تفسير الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، أما أن يحول الإنسان القرآن على المعنى الذي يراه بعقله أو برأيه، فقد قال النبي ﷺ: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»(١). والمهم أن تفسير قوله: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ يراد به ما في الدنيا، تفسير باطل لا يجوز الاعتماد عليه، ولا المعول عليه، أما كون الأرض تدور أو لا تدور، فهذا يعلم من دليل آخر، إما بحسب الواقع، وإما بالقرآن، وإما بالسنة، ولا يجوز أبدًا أن نحمل القرآن معاني لا يدل عليها من أجل أن نؤيد نظرية أو أمرًا واقعًا، لكنه لا يدل عليه اللفظ، لأن هذا أمر خطير جدًّا.

قال الله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ (ويل) كلمة وعيد وتهديد، وإن كان قد روي أنها واد في جهنم(٢)، لكن الصواب أنها كلمة تهديد ووعيد، ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي: المكذبين لله ورسوله، الجاحدين لما قامت الأدلة على ثبوته؛ فإنهم سيجدون في ذلك اليوم من العذاب والنكال ما لا يخطر لهم على بال، ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ﴾ [الطور: ١٢] أي في الدنيا ﴿فِي

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٩٥٢)، وضعفه الشيخ الألباني في «الضعيفة» (١٧٨٣).

(٢) ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٧٥)، والترمذي (٣١٦٤)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٦١٤٨).

خَوْضٍ﴾ أي: في كلام باطل ﴿يَلْعَبُونَ﴾ أي: لا يقولون الجد ولا يعملون بالجد، وإنما أعمالهم كلها لعب ولهو، ولذلك تجد أعمارهم ليس فيها بركة، تمر بهم الليالي والأيام لا يستفيدون شيئًا، ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣] هذه متعلقة بما سبق أيضًا، ﴿ويُدَعُّون﴾ بمعنى: يدفعون بعنف وشدة إلى نار جهنم دعًّا؛ لأنهم ـ والعياذ بالله ـ تمثل لهم النار كأنها سراب، أي كأنها حوض نهر، وهم على أشد ما يكونون من العطش، فيذهبون إليها سراعًا، يريدون أن يشربوا منها حتى يزول عنهم العطش، فإذا بلغوها وإذا هي النار ـ والعياذ بالله ـ فكأنهم ـ والله أعلم ـ يتوقفون لئلا يتساقطوا فيها، فيدعُّون إليها دعًّا، أي يُدفعون بعنف وشدة فيتساقطون فيها ـ أجارنا الله من ذلك، ويقال لهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٤] كانوا في الدنيا يقولون: لا بعث ولا جزاء، ولا عقوبة ولا نار، وإنما هي أرحام تدفع وأرض تبلع ولا بعث، فيقال لهم توبيخًا على هذا الإنكار: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ فما أشد حسرتهم إذا وُبِّخوا على أمر كان في إمكانهم أن يتخلوا عنه، ولكنهم الآن لا يستطيعون لذلك سبيلًا، يقولون إذا وقفوا على النار: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]، قال الله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، أي: حتى لو ردوا إلى الدنيا عادوا وكذبوا، فلن يستقيموا على أمر الله، لكن يقولون هذا تمنيًا. ﴿لَا تُبْصِرُونَ﴾ يعني أفهذا الذي ترون اليوم سحر كما كنتم تقولون ذلك في الدنيا، حيث يقولون: إن ما جاءت به الرسل سحر، ويصفون الرسول بأنه ساحر، فيقال: أسحر هذا أم أنتم لا تبصرون، يعني لا تبصرون بعين البصيرة، بل أنتم عمي عن الحق ـ والعياذ بالله ـ ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦] أي: احترقوا بها، والأمر هنا للإهانة، كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان: ٤٩: ٥٠]. فانظر إلى هؤلاء كيف تتهكم بهم الملائكة وتذلهم وتخزيهم ـ والعياذ بالله ـ وتهينهم، ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ يعني أن الصبر وعدمه سواء عليكم، ومعنى هذا أنه لن يفرج عنكم، سواء صبرتم أم لم تصبروا، مع أنه في الدنيا إذا أصيب الإنسان بشيء وصبر فإنه يفرج عنه، كما قال النبي ﷺ: «وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا»(١).

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٢٩٣)، والترمذي (٢٥١٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).

﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني ما تجزون إلا ما عملتم فلم تُظلموا شيئًا، ثم ذكر الله تعالى جزاء المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ [الطور: ١٧] هذه الجملة خبرية مؤكدة بـ(إن)، والتوكيد أسلوب من أساليب اللغة العربية، مستعمل عند العرب، وهذا القرآن نزل بلغة العرب، وإلا ففي الواقع أن خبر الله -عز وجل- لا يحتاج إلى توكيد؛ لأنه أصدق القول، فالرب -عز وجل- إذا أخبر بخبر فإنه لا يحتاج إلى أن يؤكد، لأن خبر الله صدق، لكن لما كان القرآن العظيم نزل بلسان عربي صار جاريًا على ما كان يعرفه العرب في لغتهم فهنا أكد الله -عز وجل- هذه الجملة: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ والمتقون هم الذين قاموا بطاعة الله امتثالًا لأمره واجتنابا لنهيه، هذه هي التقوى، فالتقوى طاعة الله في امتثال أمره واجتناب نهيه، فالذي يصلي امتثالًا لأمر الله نقول: هو متق، والذي يدع الزنا نقول: هو متقٍ بترك الزنا، وإنما سمي ذلك تقوى لأنه وقاية من عذاب الله، فإن الإنسان إذا قام بطاعة الله فقد اتخذ وقاية من عذاب الله -عز وجل-، هؤلاء المتقون يقول الله -عز وجل-: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾، وجنات جمع جنة، وهي الدار التي أعدها الله تعالى للمتقين في الآخرة، بدليل قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وإذا قلنا: إن الجنة هي الدار التي أعدها الله تعالى لعباده في الدار الآخرة، فهل يمكن أن تكون في الدنيا؟ نقول: أما بالنسبة لدخول الجنة التي هي الجنة فهذا لا يمكن في الدنيا، أما بالنسبة لكون الإنسان يأتيه من نعيم الجنة ما يأتيه فهذا يمكن، وذلك في القبر إذا سُئل الإنسان عن ربه، ودينه ونبيه فأجاب الصواب، فإنه يفرش له فراش من الجنة، ويُفتح له باب إلى الجنة، ويُفسح له في قبره مُدَّ البصر[1]، وجمعت الجنات في الآية لأنها أنواع، ذكر الله في سورة الرحمن أربعة أنواع ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦]، ثم قال: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]: هذه الجنان الأربع تختلف بما جاء في وصفها في سورة الرحمن، ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ أي نعيم البدن، ونعيم القلب، فهم في سرور دائم، وهم في صحة دائمة، وهم في حياة دائمة، فجميع أنواع النعيم كاملة لهم، نسأل الله أن يجعلنا منهم، ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الطور: ١٨] ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾، الفاكه هو المسرور، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ٢٨٧)، و أبو داود (٤٧٥٣)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٧٦).

فَكِهِينَ ﴾ [المطففين: ٣١] أي: مسرورين ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ أي: بما أعطاهم ربهم من النعيم، ﴿وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ فحصلوا على السلامة من الشرور بوقاية الجحيم، وعلى تمام السرور في جنات النعيم، ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الطور: ١٩] (كلوا واشربوا) فعل أمر، وهذا الأمر ليس تكليفًا وإنما الأمر هنا للتكريم، أي يقال لهم: كلوا من كل ما في الجنة من النعيم ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢] ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ﴾ [الرحمن: ٦٨]. وفيها من كل النعيم، ﴿وَٱشۡرَبُواْ﴾ مما فيها من الأنهار، وأنهار الجنة ذكرها الله تعالى أربعة في سورة القتال: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ [محمد: ١٥].

هذه أربعة أنهار: من ماء غير آسن، أي: غير متغير، والمياه في الدنيا إذا لم يأتها ما يمدها وبقيت راكدة لابد أن تتغير فتكون آسنة، وماء الجنة لا يتغير، غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، واللبن في الدنيا إذا أبقي يتغير ويفسد، لكن في الآخرة لا يتغير، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وخمر الدنيا فيه رائحة كريهة ثم أنه يقلب العاقل إلى مجنون، وفيه أيضًا الصداع، وفيه فساد المعدة، لكنه في الجنة أنهار من خمر لذة للشاربين، وقد قال الله تعالى في سورة الصافات: ﴿لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧]. والرابع: ﴿وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗى﴾ [محمد: ١٥] ﴿هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ الهنيء هو الذي لا يكون له عاقبة سيئة، ولا تبعة من تجاوز أو إسراف، ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي: بسبب ما كنتم تعملون، (فالباء) هنا للسببية، وليست الباء للعوض، لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ»[1].

فإن قيل: إن الله تعالى قال: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، فجعل الله تعالى ذلك بسبب العمل، والرسول ﷺ يقول: «لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ» مع أن الله يقول: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؟

والجواب على هذا الإشكال أن يقال: الباء تأتي للسببية، وتأتي للبدلية، فإذا قيل: دخل الرجل الجنة بعمله، فالمعنى السببية، وإذا قال: لن يدخل الجنة أحد بعمله، فالمعنى البدلية، وأضرب مثلا يبين هذا: بعتك الثوب بدرهم، فالباء للبدلية، لأن الدرهم صار عوضًا عن الثوب، وإذا قلت: أدبت الولد بعبثه، هذه للسببية، إذن كلنا لن يدخل الجنة بعمله؛ لأن الله سبحانه وتعالى لو

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦٧٣) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٨١٦).

حاسبنا على عملنا ما قابل عملنا نعمة من نعم الله نعمة واحدة، فالنَّفَسُ الآن الذي هو من ضرورة الحياة يخرج منك ويدخل بدون تعب، وبدون مشقة، وكم يتنفس الإنسان في الدقيقة؟! فلو أننا حوسبنا على أعمالنا بالمعاوضة والمبادلة لكانت نعمة واحدة تستوعب جميع العمل، ونحن الآن لا نحس بنعمة النَّفَس، لكن لو أصيب أحد منا بكتم النفس لوجد أن النفس من أكبر نعم الله، لذلك نقول: إن الباء في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ للسببية وليست للبدلية، وفي قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ شمول لكل العمل: الجوارح، والقلب، واللسان. فالجوارح: كالأفعال، كالركوع، والسجود. والأقوال: كالأذكار. والقلوب: كالخوف، والرجاء، والتوكل وما أشبه ذلك، فكل هذه تسمى أعمالنا.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور: ٢٠] ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال، أي: حال كونهم متكئين، والمتكئ تدل هيئته على أنه في سرور وانشراح وطمأنينة، لأن الاتكاء يدل على ذلك، والسرر جمع سرير، وهي الكراسي الفخمة المهيئة أحسن تهيئة للجالس عليها، ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ أي مصفوف بعضها إلى بعض، يصفها الخدم والولدان، ﴿وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾، أي: قرناهم بحور عين، والحور جمع حوراء، والعين جمع عيناء، والأصل الحور هو البياض، وأما العيناء فهي التي كانت جميلة العين في سوادها وبياضها، فهن حسان الوجوه، حسان الأعين، ثم قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١] أي: الذين آمنوا واتبعتهم الذرية بالإيمان، والذرية التي يكون إيمانها تبعًا هي الذرية الصغار، فيقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: جعلنا ذريتهم تلحقهم في درجاتهم، وأما الكبار الذين تزوجوا فهم مستقلون بأنفسهم في درجاتهم في الجنة، لا يلحقون بآبائهم، لأن لهم ذرية فهم في مقرهم، أما الذرية الصغار التابعون لآبائهم فإنهم يرقون إلى آبائهم، وهذه الترقية لا تستلزم النقص من ثواب ودرجات الآباء، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي: نقصناهم، يعني أن ذريتهم تلحق بهم، ولا يقال: أخصم من درجات الآباء بقدر ما رفعت من درجات الذرية، ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ هذه قاعدة عامة في جميع العاملين: أن كل واحد فإنه رهين بعمله لا ينقص منه شيء، أما الزيادة فهي فضل من الله تبارك وتعالى على من شاء من عباده، ﴿وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور: ٢٢] أمدهم الله تعالى، أي: أعطاهم عطاء مستمرًا إلى الأمد وإلى الأبد بفاكهة وهي ما يتفكه به من المأكولات، ﴿وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: مما يشتهونه ويستلذونه، وقد بين الله تبارك وتعالى نوع هذا اللحم بأنه لحم طير، وهو أشهى

ما يكون من اللحم وأبرأه وأمرأه.

﴿يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣] ﴿يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي: أن أهل الجنة ينازع بعضهم بعضًا على سبيل المداعبة، وعلى سبيل الأنس والانشراح، ﴿كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ والمراد بها كأس الخمر، ومعنى ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أنه لا يحصل بها ما يحصل من خمر الدنيا، فإن خمر الدنيا يحصل بها السكر والهذيان، ولكن خمر الآخرة ليس فيها لغو ولا تأثيم، أي: لا يلغو بعضهم على بعض، ولا يتكلمون بالهذيان، ولا يعتدي بعضهم على بعض، ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور: ٢٤] ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يتردد على أهل الجنة وهم على سررهم متكئين ﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ أي: غلمان مهيئون لهم في الخدمة التامة المريحة ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ أي: الغلمان ﴿لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ أي: محفوظ عن الرياح وعن الغبار وعن غير ذلك مما يفسده، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الطور: ٢٥] أي صار بعضهم يسائل بعضًا، لكنه على وجه الأدب يتكلم معه وهو مقابل له لوجهه فلا يصعر خده له ولا يستدبره، بل يتكلم معه بأدب ومقابلة تامة، ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦] ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي: قال بعضهم لبعض: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ أي: في الدنيا ﴿فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أي خائفين من عذاب الله ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧] ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: أنعم علينا بنعمة عظيمة، ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ أي: عذاب النار، ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨] ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ﴾ أي: قبل أن نصل إلى هذا المقر، وذلك في الدنيا ﴿نَدْعُوهُ﴾ أي: نعبده ونسأله، لأن الدعاء يطلق على معنيين: على العبادة، وعلى السؤال.

فمن إطلاقه على العبادة :قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وأما الدعاء بمعنى السؤال: ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]. فقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ يشمل دعاء العبادة كالصلاة، والصدقة، والصيام، والحج، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، كل هذا دعاء، وإن كان هو عبادة، فلو سألت الداعي: لماذا تعبد الله؟ ولو سألت العابد: لماذا تعبد الله؟ لقال: أرجو رحمته وأخاف عذابه، فتكون هذه العبادة بمعنى الدعاء، كذلك ندعوه دعاء مسألة، لا يسألون غير الله ولا يلجئون إلا إلى الله، لأنهم يعلمون أنهم مفتقرون إليه، وأنه هو القادر على كل شيء؛ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿ٱلْبَرُّ﴾ بمعنى الواسع

الإحسان والرحمة، ومن ذلك البريــة، للمكان الخالي من الأبنية، فالمعنى أنه جل وعلا واسع الإحسان والعطاء والجود ﴿الرَّحِيمُ﴾ أي ذو الرحمة البالغة، يرحم بها من يشاء من عباده تبارك وتعالى، وفي هذه الآيات بيان نعيم أهل الجنة، وفيها أيضًا أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر عذاب أهل النار ذكر نعيم أهل الجنة، لأن هذا القرآن الكريم مثاني تثنى فيه المعاني، إذا ذكر فيه الخير ذكر فيه الشر، وإذا ذكر فيه نعيم المتقين ذكر فيه جحيم الكافرين، وهكذا حتى يكون قارئ القرآن بين الخوف والرجاء، إن قرأ آيات النعيم رجا، وإن قرأ آيات العذاب خاف، فيعبد الله تبارك وتعالى بهذا وهذا، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل الجنات الناجين من الدركات، إنه على كل شيء قدير.

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩]، الخطاب للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والمذكر محذوف، والتقدير: ذكر الناس، أو إن شئت فقل: ذكر من أرسلت إليهم من الجن والإنس، ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ هذا نفي لما ادعاه المكذبون للرسول ﷺ بأنه كاهن أو مجنون، قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي بإنعام ربك عليك بما أنزل عليك من الوحي لست ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾، والكاهن هو الذي يخبر عن الغيبيات في المستقبل، وكانت الكهانة في الجاهلية مشهورة، يكون للإنسان رئي من الجن يصحبه ويخدمه، ثم يصعد الجني إلى السماء يستمع ما يقال في السماء، وينزل به على هذا الكاهن، فيكون هذا علم غيب عن أهل الأرض، لكن الكاهن يزيد عليه أشياء كثيرة يتخرصها، فإذا وقع ما سمعه من السماء صار عظيمًا في قومه، لأنه أخبر عن شيء مستقبل فوقع، فالنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لما جاء بالوحي رده المشركون وكذبوه، وقالوا: إنما جاء به محمد من الكهانة، لأن الكهان يخبرون عن الشيء فيقع، ولأن الكهان أيضًا يأتون بكلام مسجوع يشبه القرآن، والقرآن آيات مفصلة، أتى بها النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولهذا قال النبي ﷺ في كلام حمل بن النابغة الذي قال: يا رسول الله كيف أغرم من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهل، فمثل ذلك يطل؟ فقال النبي ﷺ: «إِنَّمَا هُوَ مِنْ إِخْوَانِ الكُهَّانِ»[1]، من أجل سجعه الذي سجع، فهم يقولون: إن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كاهن، فنفى الله ذلك، ثم قالوا: إنه مجنون يأتي بما لا يعرف، فكذبهم الله فقال: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ هذه الجملة

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٧٦٠)، ومسلم (١٦٨١).

منفية مؤكدة بالباء، الباء الزائدة إعرابًا، المفيدة معنى، وأصلها :(فما أنت بنعمة ربك كاهنًا ولا مجنونًا) لكن زيدت الباء توكيدًا للنفي، ثم قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ يعني بل أيقولون، و(أم) هذه تسمى عند المعربين منقطعة، يعني لا عاطفة، لأن (أم) تأتي عاطفة وتأتي منقطعة، فهنا منقطعة، والتقدير: (بل أيقولون شاعر؟)، والاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار عليهم، والشاعر هو الذي يأتي بكلام مقفى ويتضمن شعره أحيانًا حكمًا، ولهذا جاء في الحديث: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا»[(١)]، «وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً»[(٢)]، فيقولون: محمد شاعر ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ﴾ أي ننتظر به ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ أي: حوادث الدهر وقوارعه، فيهلك كما هلك الشعراء من قبله، ولا يكون له أثر، فانظر ـ والعياذ بالله ـ كيف يترقبون موت الرسول ﷺ يقولون: هذا شاعر من جنس الشعراء يهلك وينتهي أمره، وقوله: ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾، قيل: إن المنون هو الدهر، وقيل: إن المنون هو الموت، وهما متلازمان، والمراد بذلك حوادث الدهر المهلكة المبيدة.

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: ٣١] ﴿قُلْ﴾ في جوابهم: ﴿تَرَبَّصُوا۟﴾، والأمر هنا للتهديد والتحدي أيضًا، تربصوا بهذا الشاعر ريب المنون، وانظروا هل يموت وتموت دعوته، أو أنكم أنتم تموتون وتموت معارضتكم؟ ﴿فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ يعني فأنا منتظر أيضًا، انتظروا أنتم، وأنا أنتظر لمن تكون العاقبة، وصارت العاقبة والحمد لله للرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الطور: ٣٢] ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ﴾ أم هنا نقول: إنها منقطعة، و(أم)المنقطعة تقدر بـ(بل)، والتقدير: بل أتأمرهم؟ وهذا انتقال من الأول إلى الثاني، ﴿تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ فيقولون: إنه مجنون إنه كاهن، إنه شاعر، هل عقولهم تأمرهم بهذا؟ الجواب: ﴿تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ أي بل لا تأمرهم عقولهم بهذا، وكثير منهم يعلم أن محمدًا رسول الله ﷺ حق، لكن غلبتهم الكبرياء ـ والعياذ بالله ـ فأنكروا وكذبوا، ولهذا قال: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: بل هم قوم طاغون معتدون ظالمون، وأصل الطغيان مجاوزة الحد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] أي: ازداد وارتفع عن عادته ﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ بل هم قوم طاغون.

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الطور: ٣٣]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ (أم) هنا منقطعة بمعنى

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥١٤٦)، والترمذي (٢٠٢٨)، وأبو داود (٥٠٠٧).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦١٤٥)، وأبو داود (٥٠١٠)، وابن ماجه (٣٧٥٥).

(بل) والهمزة، والمعنى: بل أيقولون تقوله؟أي: اختلقه وكذب به، وهذا قسم منهم، قالوا: محمد ﷺ تقوَّل هذا القرآن واختلقه من عنده، وبعضهم يقولون: إنما يعلمه بشر، ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني بل هم لا يؤمنون، ولو آمنوا لعلموا أن القرآن لا يمكن أن يتقوَّله بشر، لأن كلام الله عز وجل لا يشبهه أي كلام، ثم تحداهم فقال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤] يعني إذا كنت أنت تقوَّلته فأنت مثلهم بشر تتكلم كما يتكلمون، وتخطب كما يخطبون، وتقول كما يقولون، فإذا كنت متقوِّلا له وهو من عندك فليأتوا بحديث مثله، لأن البشر يمكن أن يأتي بكلام يشبه كلام البشر الآخر، فإذا كان محمد ﷺ تقوَّله فهاتوا مثله ﴿فَلْيَأْتُوا﴾، اللام هنا للأمر، والمقصود به التحدي والتعجيز، ﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾، وهذا غاية التحدي، فعجزوا وما استطاعوا أن يأتوا بحديث مثله، مع أنهم أمراء البلاغة وسلاطين الفصاحة، لكن عجزوا، فدل عجزهم على أن القرآن ليس من كلام البشر، بل هو من كلام الله - عز وجل - ولهذا قال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾، ومع قوة المعارضة وقوة البلاغة والفصاحة عجزوا أن يأتوا بحديث مثله فما استطاعوا، فدل ذلك على أن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم يتقوله، ولن يستطيع أن يأتي بمثله، وفي قوله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ كلمة (حديث) نكرة، والنكرة تدل على الإطلاق، لكن جاء في آية أخرى أن الله قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨]. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣]. وجاء في آية أخرى الإخبار بأنه لن يستطيع أحد أن يعارض القرآن، فقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، فتبين بطلان قولهم: إنه تقوَّله؛ لأن الله تحداهم أن يأتوا بمثله، إن كانوا صادقين في دعواهم أنك تقوَّلته فليأتوا بحديث مثله ولكنهم عجزوا.

ثم قال الله تعالى مستدلا بربوبيته على ألوهيته قال: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] بمعنى بل، والهمزة: (بل أخلقوا من غير شيء) أي: من غير خالق، أم هم الخالقون؟ والجواب: لا خلقوا من غير خالق: ولا هم الخالقون، أما كونهم لم يخلقوا من غير خالق، فلأن القاعدة العقلية الحسية التي أجمع عليها العقلاء: أن كل مُحْدَثٍ لابد له من محدث، فإذا كان كل محدث لابد له من مُحْدِثٍ، فإذا نظرنا في أنفسنا فنحن حادثون، قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]. فالواحد منا الذي له عشرون

سنة، هو قبل اثنتين وعشرين سنة ليس شيئًا مذكورًا، ولا يعرف ولا يدرى عنه، إذن نحن حادثون، وكل حادث لابد له من مُحدث، فهل أنتم خلقتم بغير محدث؟ الجواب: لا، وهذا جواب عقلي لا ينكر، أم هم الخالقون لأنفسهم؟ الجواب: لا، لأنهم قبل أن يوجدوا عدم، وكيف يمكن للعدم أن يخلق؟ لا يمكن هذا، فإذا تبين أنهم لم يخلقوا من غير خالق وأنهم لم يخلقوا أنفسهم تعين أن يكون لهم خالق قادر على إيجادهم وهو الله عز وجل، ولا يستطيع أحد منهم أن يقول: إن الذي خلقني أبي أو أمي، فإذا لم يكن كذلك تعين أن يكون لهم خالق وهو الله تبارك وتعالى، وإذا كان لهم خالق وهم مخلوقون مربوبون مدبرون فالواجب أن يخضعوا لهذا الخالق، وأن يعبدوه وحده، كما أنه هو الخالق وحده، وهذه الآية سمعها جبير بن مطعم وكان قد قدم إلى المدينة ـ وهو مشرك ـ على النبي ﷺ في طلب الفداء لأسرى بدر، وغزوة بدر انتصر فيها النبي ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم والحمد لله ـ وقتلوا من قريش سبعين رجلًا، وأسروا سبعين رجلًا، وجاءوا بهم إلى المدينة، وانقسموا إلى أقسام، منهم من أطلقه النبي ﷺ ومنّ عليه، ومنهم من فداه بمال، ومنهم من فداه بأسير، ومنهم من فداه بتعليم أهل المدينة الكتابة، وجبير بن مطعم أتى إلى النبي ﷺ يطلب فداء أسرى بدر لأنه من صميم قريش، والأسرى أيضًا من قريش.

ويظهر لي ـ والله أعلم ـ: أن جبيرًا سمع قول النبي ﷺ: «لَوْ كَانَ الْمُطْعَمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا فَكَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ»[1]، وذلك أن مطعم بن عدي لما رجع النبي ﷺ من الطائف أجاره، وصار يمشي معه من حين دخل مكة إلى أن وصل إلى الكعبة، وأمر أبناءه وهم متقلدو السيوف أن يقف كل واحد على ركن من أركان الكعبة حتى لا يعتدي على الرسول أحد، وقال لرسول الله ﷺ: طف. واحتبوا بحمائل سيوفهم في المطاف، فأقبل أبو سفيان إلى مطعم، فقال: أمجير أم تابع؟ قال: لا بل مجير. قال: إذًا لا تُخْفَر. فجلس معه حتى قضى رسول الله ﷺ طوافه، فلما انصرف انصرفوا معه. فهو أحسن إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ وهو أوفى الناس ﷺ بكرمه قال: «لَوْ كَانَ الْمُطْعَمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا فَكَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ» أي: الأسرى، ووصفهم بأنهم نتنى؛ لأن المشركين نجس، والنتن هو الرائحة الكريهة «فِي هَؤُلَاءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ» و«جبير» ابنه فلعله ـ والله أعلم ـ سمع بهذه المقالة فجاء إلى النبي ﷺ يطلب فداء الأسرى، وكان الرسول ﷺ يقرأ في المغرب بسورة الطور ولما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ قال جبير: (كاد قلبي يطير) لأن هذه حجة ملزمة لا يمكن أن يتخلص منها أحد، قال: (ووقر الإيمان

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣١٣٩)، وأبو داود (٢٦٨٩).

في قلبي) يعني معناه أنه دخل الإيمان في قلبه، سبحان الله، فانظر تأثير القرآن الكريم مع أن الرسول ﷺ ما دعاه في تلك الساعة، لكن سمع هذه الآية العجيبة العظيمة، فكاد قلبه يطير، ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾؟ والجواب بكل سهولة: لا، في الأمرين، لا خلقوا من غير شيء، ولا هم الخالقون، بل لهم خالق وهو الله سبحانه وتعالى، ولا أحد يمكن أن ينكر هاتين المقدمتين كلها حجة قطعية تدمغ كل كافر، يعني إذا قال: «نعم لي خالق خلقني»قلنا: إذن لماذا لا تعبده، لأنك عبد له مملوك له؟ ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٦] ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ انتقل من الأدنى إلى الأعلى؛ خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، فانتقل من الأدنى إلى الأعلى ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؟والجواب: لا، لأن (أم) هنا مثل سابقاتها، بل أخلقوا السموات والأرض؟ والجواب: لا، وهم يقرون بهذا، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١]. ولكن مع ذلك لا يعترفون بالرسالة، ولهذا قال: ﴿بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾، يعني ليس عندهم إيقان في خلق السموات والأرض أن الذي خلقهم هو الله، لأنه لو كان عندهم يقين لحملهم هذا اليقين على تصديق النبي ﷺ والإقرار برسالته، وهذه الإلزامات العظيمة التي ألزم الله تعالى بها قريشًا كل هذا من أجل إقامة الحجة عليهم، ولو شاء سبحانه وتعالى لعاقبهم بدون أن تكون هذه المجادلة وهذه المناقشة.

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٧] (أم) هنا بمعنى (بل) والهمزة، يعني: بل أعندهم خزائن الله، يعني خزائن رزق الله -عز وجل- حتى يمنعوا من شاءوا، ويعطوا من شاءوا -؟ والجواب: ليس عندهم ذلك، ولا يملكون شيئًا من هذا، بل الذي يملك الرزق عطاء ومنعًا هو الله تبارك وتعالى، ولما نفى أن يكون عندهم خزائن الله، قال: ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ يعني بل أهم الذين لهم السيطرة والغلبة والسلطان والكلمة؟ والجواب: لا، فإذا لم يكن لهم شيء من هذا صاروا مربوبين، وصاروا أذلاء أمام قوة الله -عز وجل-.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [الطور: ٣٨] يعني بل ألهم سلم يستمعون فيه، والسلم هو المصعد والمرقى، والمعنى: هل لهم سلم يصعدون فيه على السماء يستمعون ما يقال في السماء؟ والجواب: لا، فإن ادعوا ذلك ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي: بحجة بينة ظاهرة على أنه استمع ما يقال في السماء، والجواب: لن يجدوا إلى ذلك سبيلًا، اللهم إلا الكهنة الذين لهم رئي من الجن يستمع إلى ما يقال في السماء، ثم يكذب مائة كذبة على ما سمع، فيصدق بتلك الكلمة

التي سمعها من السماء، ثم قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ [الطور:٣٩] وهذا أيضًا بمعنى (بل)، والاستفهام للتوبيخ والإنكار، يعني أيكون لله البنات ولهم البنون؟! لأنهم ادعوا أن جند الله تعالى بنات، وأن لهم البنين، ومعلوم أن من له البنين غالب على من له البنات، لأن جنده رجال ذكور، أقوى وأحزم وأقدم من النساء، وقد جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا، كما قال الله تعالى عنهم ذلك قال: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف:١٩]، يعني لم يشهدوا خلقهم حتى يقولوا: إنهم بنات، ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾ أي شهادتهم هذه التي هي زور وكذب، ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾، فهؤلاء المكذبون للرسول ﷺ من قريش قالوا: لهم البنون ولله البنات، قال الله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل: ٥٧]. والذين يشتهون هم الذكور، حتى إن أحدهم إذا بُشِّر بالأنثى ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨] أي: مملوء غيظًا وغمًّا ﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ [النحل: ٥٨] يختبئ من القوم ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ﴾ [النحل: ٥٨]، ثم يتردد ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ [النحل: ٥٨] أي: على ذل وهوان ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ [النحل: ٥٨] يرميه فيه وهذه المؤودة؟ ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨].

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ [الطور: ٤٠] يعني بل أتسألهم؟ والاستفهام هنا للنفي وكل (أم) هنا الاستفهام للنفي والتوبيخ، يعني هل أنت يا محمد حين دعوتهم إلى الله - عز وجل - هل أنت تقول أعطوني أجرًا مثقلًا كبيرًا لا يستطيعونه حتى يردوك؟ والجواب: لا، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص: ٨٦]، فالنبي ﷺ لم يقل لأي واحد: أعطني أجرًا على دعوتي إياك، بل هو ﷺ يبذل المال ليؤلف القلوب، كما أعطى المؤلفة قلوبهم من الأموال شيئًا عظيمًا، وليس يطلب من أحد أي عوض على ما جاء به من الرسالة، واستدل بعض أهل العلم على أنه لا يجوز للإنسان أن يأخذ أجرًا على تعليم العلم بمعنى مؤاجرة، يقول الإنسان: لا أعلمك إلا بكذا وكذا، لكن هذا فيه نظر، لأن النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللهِ»(1).

﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الطور:٤١] أي: ماغاب عن الناس فهم يحفظونه، والجواب: لا، ليس عندهم علم الغيب، بل إن الرسول ﷺ نفسه لا يعلم شيئًا من الغيب، يكون الشيء في داره لا يعلمه، حتى إنه دخل ذات يوم والبرمة على النار تغلي باللحم، ولم يعلم ما هو، وحتى إن

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٧٣٧).

أبا هريرة كان معه فانخنس منه ولم يعلم لأي شيء ذهب، فالحاصل: أن الرسول ﷺ نفسه لا يعلم الغيب، فمن دونه من باب أولى، وقد أمره الله تعالى أن يعلن بأنه لا يعلم الغيب، فقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [الأنعام:٥٠]. وهنا يقول تعالى لهؤلاء المكذبين: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾؟ والجواب: لا، ثم قال: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ [الطور: ٤٢] يعني أيريد هؤلاء أن يكيدوا لك يا محمد بإبطال دعوتك، وإهلاكك وإماتتك؟

الجواب: نعم، ولكن كيدهم ليس بشيء بالنسبة إلى كيد الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقد كادوا له أعظم كيد، فإنهم اجتمعوا ماذا يصنعون بمحمد لما رأوا دعوته تنتشر، وأنه لا قبل لهم بردها، اجتمعوا يتشاورون، وذكروا ثلاثة آراء: الحبس، والقتل، والإخراج، ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] أي: يحبسوك ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾، قال الله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ واستقر رأيهم على القتل، لكن من يستطيع أن يقتله، لأن بني هاشم سوف يطالبون؟ قالوا: يجتمع عشرة شبان من قبائل متفرقة من العرب، ويعطى كل واحد منهم سيفًا صارمًا، ويضربون محمدًا ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل فتعجز بنو هاشم عن المطالبة، فعلوا ذلك، ولكنهم مكروا ومكر الله ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾، فأنجاه الله منهم ثم أذن له أن يهاجر، فهاجر إلى المدينة، ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ الجملة هنا جملة اسمية معرف طرفاها مفصولة بضمير الفصل، مما يدل على التوكيد والحصر، يعني: فالكيد للذين كفروا. وهنا قال تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ لم يقل: أم يريدون كيدًا فهم المكيدون، وهذا الأسلوب عند علماء البلاغة يسمى الإظهار في موضع الإضمار، ومعناه بدل أن يقال: (فهم المكيدون)، قال الله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ولهذا فائدة بل أكثر إذا قال ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ معناه: أن هؤلاء كفار، ومعناه أن من كان كافرًا فهو المكيد، وإن كان من غير هؤلاء، **هاتان فائدتان معنويتان.**

الفائدة الثالثة: تنبيه المخاطب، لأن الكلام إذا كان على نسق واحد ربما يغفل الإنسان، لكن إذا جاء شيء يخرج الكلام عن النسق انتبه، ثم قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [الطور: ٤٣] يعني بل ألهم إله غير الله؟ والجواب: حقيقة: لا. وادعاءً: نعم لهم آلهة غير الله يعبدونها: اللات والعزى ومناة وهبل وغيرها من الأصنام المعروفة عند العرب، ولهذا قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا

يُشْرِكُونَ﴾ فنزه الله سبحانه وتعالى نفسه عما يشرك به هؤلاء، ليبين أن هذه الأصنام باطلة، وأن الله منزه عن كل شريك.

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤] الكسف معناه قطع العذاب، ﴿يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ وهذا يدل على أنهم يرون أنهم على حق، وأنهم غير مستحقين للعذاب، وأن هذا الكسف النازل قطع العذاب ما هي إلا سحب متراكمة، وهذا كقول عاد حين رأوا الرياح مقبلة عليهم قالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]. لأن هؤلاء المكذبين ـ والعياذ بالله ـ معاندون يرون أنهم على حق، وأنهم غير مستحقين للعذاب، فإذا رأوا العذاب قالوا: هذا شيء عادي، ولن نهابه ولن نخافه، قال الله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أتركهم ﴿فِي خَوْضِهِمْ﴾ [الأنعام: ٩١] بأقوالهم ﴿يَلْعَبُونَ﴾ بأفعالهم ويلهون في الدنيا ويرون أنهم على حق ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور: ٤٥] وهو يوم موتهم، يعني اترك هؤلاء فإن مآلهم إلى الموت وإن فروا، وهم إذا لاقوا يومهم الذي يوعدون عرفوا أنهم على باطل، وأن محمدًا ﷺ على الحق ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الطور: ٤٦] فإذا جاءهم الموت ما أغنى عنهم كيدهم شيئًا؛ لأنهم في قبضة الله، وقد انتهى استعتابهم، وليس أمامهم إلا العذاب، ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الطور: ٤٧] والمراد بهم الكفار، قال الله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]. ﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، يعني دون عذاب الموت، وهو ما أصيبوا به من الجدب والقحط والخوف والحروب وغير ذلك مما كان قبل الموت، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧]، بل أكثرهم في غفلة عن هذا، ولا يظنون أن ذلك من العذاب في شيء.

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٤٨] اصبر يا محمد ﷺ، والصبر حبس النفس عما لا ينبغي فعله، وقوله: ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ يشمل الحكم الكوني والحكم الشرعي، يعني: اصبر لما حكم به ربك من وجوب إبلاغ الرسالة وإن أصابك ما يصيبك، واصبر لحكم ربك القدري الكوني، وهو ما يقدره الله تعالى عليك من هؤلاء السفهاء من السخرية والعدوان والظلم، ولقد أوذي النبي ﷺ كما أوذي إخوانه من المرسلين، أوذي إيذاءً عظيمًا، وضع الكفار سلا الجزور على ظهره وهو ساجد تحت الكعبة، في آمن مكان[1]، وضرب، ورمي بالحجارة حين خرج إلى أهل الطائف حتى أدموا عقبه صلوات الله وسلامه عليه، ولم يفق إلا وهو في قرن الثعالب، ويلقون القاذورات

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢٠)، و مسلم (١٧٩٤).

والأتان على عتبة بابه ﷺ، ويقول: «أي جوار هذا»؟! وهذا من امتثال أمر الله، حيث قال الله له: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: فإننا نراك بأعيننا ونراقبك ونلاحظك، ونعتني بك، وهذا كما يقول القائل لمن أشفق عليه وأحبه: أنت في عيني، ومن المعلوم أن مثل هذا الأسلوب لا يعني أن مخاطبه حال في عينه، بل المعنى: أنت مني على مرأى، وعلى رقابة، وعلى حماية. وفي هذه الآية إثبات العين لله -عز وجل- وهي حقيقية ولكنها لا تماثل أعين الخلق، لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: قل: «سبحان الله وبحمده» ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ من أي شيء، حين تقوم من مجلسك، أو حين تقوم من منامك، فهي عامة، ولهذا كان كفارة المجلس أن يقول الإنسان: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»(١)، فينبغي للإنسان كلما قام من مجلس أن يختم مجلسه بهذا: « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ »، ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ [ق: ٤٠] يعني وسبح ربك من الليل لا كل الليل، و(من) هنا للتبعيض، ولهذا لما سمع النبي ﷺ بأقوام من أصحابه قال أحدهم: (أنا أقوم ولا أنام) قال النبي ﷺ: «أَمَّا أَنَا فَأَقُومُ وَأَنَامُ، وَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»(٢)، ولذلك يكره للإنسان أن يقوم الليل كله حتى لو كان فيه قوة ونشاط، فلا يقوم الليل كله إلا في العشر الأواخر من رمضان، فإن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يحيي ليلها كله، ﴿وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠] يعني وقت أدبارها، وهل المراد أدبار ضوئها بانتشار نور الشمس، أو أدبار ذواتها عند الغروب؟ فالجواب: هذا وهذا، والمراد بذلك صلاة الفجر، لأن صلاة الفجر بها تدبر النجوم، وصلاة الفجر وصلاة العصر هما أفضل الصلوات الخمس، قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إِنَّكُم سَتَرَوْنَ رَبَّكُم كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»(٣)، والمراد بالصلاة قبل طلوع الشمس أي صلاة الفجر، وقبل غروبها :صلاة العصر، وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مَنْ صَلَّى البَرْدَيْنِ دَخَلَ الجَنَّةَ»(٤) والبردان هما: صلاة الفجر وصلاة العصر،

---

(١) حسن صحيح: أخرجه أبو داود (٤٨٥٩)، والدارمي (٢٦٥٨)،وانظر «صحيح سنن أبي داود».

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٥٤) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٦٣٣).

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٧٤)، ومسلم (٦٣٥).

فصلاة الفجر براد الليل، وصلاة العصر براد النهار، ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠].

وبهذا انتهى الكلام بما يسر الله عز وجل على سورة الطور، نسأل الله تعالى أن ينفعنا بما علمنا، وأن يهدينا صراطه المستقيم، وألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ويهب لنا منه رحمة إنه هو الوهاب.

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة الطور



تفسير سورة النجم

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، تقدم الكلام عليها، ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١] النجم اسم جنس يُراد به جميع النجوم، وقوله ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾: لها معنيان، **المعنى الأول**: إذا غاب، **والمعنى الثاني**: إذا سقط منه شهاب على الشياطين التي تسترق السمع وهو مقسم به، ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢] هذا جواب القسم، أي المقسم عليه ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ أي: ما جهل، ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ أي: ما عاند، لأن مخالفة الحق إما أن تكون عن جهل، وأما أن تكون عن غي، قال الله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، فإذا انتفى عن النبي ﷺ الجهل وانتفى عنه الغي تبين أن منهجه ﷺ علم ورشد، علم ضد الجهل وهو الضلال، ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ ورشد ضد الغي ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ إذًا النبي ﷺ كلامه حق وشريعته حق، لأنها عن علم ورشد، وقوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ يخاطب قريشًا، جاء بهذا الوصف لفائدتين:

الأولى: الإشارة إلى أنهم يعرفونه، ويعرفون نسبه، ويعرفون صدقه، ويعرفون أمانته، فهو ليس شخصًا غريبًا عنهم حتى يقولوا: لا نؤمن به لأننا لا نعرفه، بل هو صاحبهم الذي نشأ فيهم، فكيف بالأمس يصفونه بالأمين والآن يصفونه بالكاذب الخائن؟!

الثانية: أنه إذا كان صاحبهم فإن مقتضى الصحبة أن يصدقوه وينصروه لا أن يكونوا أعداء له. فهو لم يقل: «ما ضل رسول الله» أو «ما ضل محمد»، بل قال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾، **فالفائدة من هذا** هو أن مقتضى الصحبة أن يكونوا عارفين به، ومقتضى الصحبة أن يكونوا مناصرين له، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣] أي: لا يتكلم بشيء صادر عن الهوى بأي حال من الأحوال، فما حكم بشيء من أجل الهوى، ولكنه ينطق بما أوحي إليه من القرآن، وما أوحي إليه من السنة، وما اجتهد به صلى الله عليه وعلى آله وسلم اجتهادًا يريد به المصلحة، فنطقه ﷺ ثلاثة أقسام:

الأول: أن ينطق بالقرآن.

الثاني: أن ينطق بالسنة الموحاة إليه التي أقرها الله تعالى على لسانه.

الثالث: أن ينطق باجتهاد لا يريد به إلا المصلحة.

أما نحن فننطق عما نريد به المصلحة، وننطق عن الهوى، وليس كل إنسان منا سالم من اهوى، يميل مع صاحبه، ويميل مع قريبه، ويميل مع الغني، ويميل مع الفقير، لكن النبي ﷺ لا يمكن أن يتكلم عن هوى، وإذا كان لايمكن أن ينطق عن الهوى صار لا ينطق إلا بحق ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤] يعني ما القرآن ﴿إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾، أي: وحي من الله - عز وجل - والواسطة بين الله وبين الرسول ﷺ ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥] يعني علم النبي ﷺ هذا الوحي شديد القوى، أي: ذو القوة الشديدة، فهو من إضافة الصفة إلى موصوفها، وهو جبريل عليه السلام، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩: ٢٠] فجبريل عليه السلام قوي شديد أمين كريم، لا يمكن أبدًا أن يفرط بهذا الوحي الذي نقله إلى محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣: ١٩٤].

﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾ [النجم: ٦] المرة: الهيئة الحسنة، فهو ذو قوة، وذو جمال وحسن، وقد رآه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم على صورته التي خُلق عليها له ستمائة جناح قد سد الأفق، فهو الذي نزل بهذا القرآن حتى ألقاه على رسول الله ﷺ كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣: ١٩٤]. وقوله: ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ أي فعَلَا، أو فكمل؛ لأن الاستواء في اللغة العربية تارة يذكر مطلقًا دون أن يقيد فيكون معناه الكمال، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢] أي: كمل، وتارة يقيد بعلى فيكون معناه العلو، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٢: ١٣] فقال: ﴿لتستووا على ظهوره﴾، وقال: ﴿إذا استويتم عليه﴾ أي: علوتم عليه، ومنه قوله تعالى فيما وصف به نفسه: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] أي: علا عليه - عز وجل - العلو الخاص بالعرش، وهذا غير العلو المطلق على جميع المخلوقات، وتارة يتعدى بـ(إلى)، ويقال: استوى إلى كذا، فيفسر بأنه القصد والانتهاء، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١]، وتارة يقيد بالواو فيكون معناه: التساوي مثل قولهم: استوى الماء والخشبة، أي ساواه، فقوله هنا: ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ يحتمل أن المعنى استوى على؛ لأن جبريل ينزل من السماء، فيلقي الوحي على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ثم يصعد إلى السماء، ويحتمل معناه كمل، ويكون كامل القوة والهيئة، وكامل من كل وجه مما يليق بالمخلوقات، ﴿وَهُوَ﴾، أي جبريل ﷺ ﴿بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ [النجم: ٧] أي:

الأرفع، وهو أفق السماء، ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ [النجم: ٨] أي من النبي ﷺ، ﴿فَتَدَلَّى﴾ أي: قرب من فوق، ﴿فَكَانَ﴾ أي: جبريل من النبي ﷺ ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٩]، وهذا مثل يضرب للقرب، ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ يعني قريبًا جدًا، بل أدنى، فقوله ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ بمعنى بل، أي بل هو أدنى من ذلك، ﴿فَأَوْحَى﴾ أي: جبريل ﴿إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم: ١٠] أي: إلى عبدالله، فالضمير في ﴿أَوْحَى﴾ يعود على جبريل والضمير في ﴿عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ يعود إلى الله عز وجل، أي: أوحى جبريل إلى عبدالله ما أوحى، ولم يبين ما أوحى به تعظيمًا له، لأن الإبهام يأتي مرادًا به التفخيم والتعظيم، ومنه قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨] أي: غشيهم شيء عظيم، وهنا أوحى إلى عبده ما أوحى أي من الشيء العظيم، ولا كلام أعظم من القرآن الكريم؛ لأنه كلام الله -عز وجل-.

ثم قال الله تبارك وتعالى في قصة المعراج: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١] اعلم أيها الأخ المسلم أن للنبي ﷺ إسراءً ومعراجًا، فالإسراء ذكره الله في سورة الإسراء، والمعراج ذكره الله في سورة النجم، وكلاهما في ليلة واحدة قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين، أو سنة ونصف، اختلف المؤرخون في هذا، ثم إن الإسراء والمعراج كان ببدن الرسول ﷺ وروحه، وليس بروحه فقط، وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] فالمراد بها رؤية العين، لا رؤيا المنام، يقول الله تعالى في سياق الآيات في المعراج: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ الفؤاد :القلب، والمعنى: أن ما رآه النبي ﷺ بعينه فإنه رآه بقلبه وتيقنه وعلمه، وذلك أن العين قد ترى شيئًا فيكذبها القلب، وقد يرى القلب شيئًا فتكذبه العين، فمثلًا قد يرى الإنسان شبحًا بعينه فيظنه فلانًا ابن فلان، ولكن القلب يأبى هذا، لأنه يعلم أن فلانًا ابن فلان لم يكن في هذا المكان، فهنا العين رأت، والقلب كذَّب، أو بالعكس، قد يتخيل الإنسان الشيء بقلبه ولكن العين تكذبه، أما ما رآه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ليلة المعراج فإنه رآه حقًّا ببصره وبصيرته، ولهذا قال: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ بل تطابق القلب مع رؤية العين، فلم يكن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كاذبًا فيما رآه من الآيات العظيمة في تلك الليلة بل هو صادق، ولكن المشركين كذبوه، وقالوا: كيف يمكن أن يصل إلى بيت المقدس ويعرج إلى السماء في ليلة واحدة ؟! ولهذا قال: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾ [النجم: ١٢] والاستفهام هنا للإنكار والتعجب، ومعنى تمارونه أي: تجادلونه بقصد الغلبة، لهذا عداها بـ(على) دون (في)، فلم يقل: (أفتمارونه في ما يرى) بل قال ﴿عَلَى مَا يَرَى﴾ إشارة إلى أن الفعل ضمن معنى المغالبة، أي أفتجادلونه تريدون أن تغلبوه على ما

يرى؟ أي: على شيء رآه، ولكنه عبر عن الماضي بالمضارع إشارة إلى استحضار هذا الشيء، وأنه ﷺ حين أخبر به كأنما يراه الآن، لأن الإنسان إذا حدث عن ماضي فربما يقول قائل: لعله نسي فأخطأ، ولكن إذا عبر بالمضارع صار كأنه يتحدث عن شيء هو يشاهده، فالمعنى على ما رأى من قبل، ولكن عبر عمّا رأى من قبل بالمضارع لحكمة بالغة، والحكمة البالغة حيث تكون تعبيرات القرآن الكريم إذا عبر بخلاف ما يتوقع فلابد أن يكون هناك حكمة تظهر للمتأمل، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣] رآه الفاعل محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والمفعول به جبريل، أي رأى محمدٌ جبريلَ ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾، أي: مرة أخرى حين نزل، والمرة الأولى رأى الرسولُ ﷺ جبريلَ وهو في غار حراء، رآه على خلقته التي كان عليها، رآه وله ستمائة جناح قد سد الأفق، كل الأفق الذي حول الرسول ﷺ في حراء انسد من أجنحة هذا الملك الكريم، وهذا يدل على عظمته، ولهذا وصفه الله أنه ذو قوة عند ذي العرش مكين، وبأنه ذو مرة أي هيئة حسنة كما سبق في هذه السورة، والمرة الثانية: في السماء فوق السماء، فتارة رآه من تحت السماء من فوق الأرض، وتارة من فوق السماء، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ أي مرة أخرى ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ١٤]، أي رآه عند السدرة، والسدرة شجرة معروفة في الأرض، لكن السدرة التي في السماء السابعة ليست كصفة السدرة التي في الدنيا، بل نبقها كالقلال، وأوراقها كآذان الفيلة، فهي شجرة عظيمة، وسميت سدرة المنتهى لأنه ينتهي إليها كل صاعد من الأرض، وينتهي إليها كل نازل من عند الله عز وجل، فهي منتهى من الطرفين: الطرف الأول: ما يصعد من الأرض إلى السماء، ينتهي عند هذه السدرة، وما ينزل من الرب عز وجل ينتهي عند هذه السدرة، ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾، أي: عند هذه السدرة جنة المأوى، إذًا الجنة فوق السماء السابعة، لأنه إذا كانت السدرة فوق السماء السابعة وكانت الجنة عندها لزم أن تكون الجنة فوق السماء السابعة، وهو كذلك، وأعلاها وأوسطها الفردوس، ـ جعلنا الله من أهلها ـ، فوقها عرش الرحمن جل وعلا، ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨] و ﴿عِلِّيِّينَ﴾ مبالغة من العلو، يعني في أعلى الشيء، ﴿ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ يعني المصير، مأوى من جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، يأوون إليها ويخلدون فيها، وأما النار فهي مأوى الكافرين والعياذ بالله، وفي هذا دليل واضح على أن غاية الخلائق الجن والإنس إما إلى الجنة وإما إلى النار، ولا ثالث لهما، فالجن والإنس إما في النار وإما في الجنة، قال السفاريني ـ رحمه الله ـ في «عقيدته السفارينية»:

وَكُـــلُّ إِنْـــسَانٍ وَكُـــلُّ جِنـــةٍ ... فِي دَارِ نَـــارٍ أَوْ نَعِـــيمِ جَنَّـــةِ

ويستفاد من قوله ﴿ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾: أن القبور ليست هي المأوى والمثوى، لأن القبور ممر ومعبر، إذ إن وراء القبور بعث، ويذكر أن بعض الأعراب في البادية سمع قارئًا يقرأ قول الله تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ① حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١: ٢] فقال الأعرابي بفطرته وعربيته: «والله ما الزائر بمقيم، وإن وراء ذلك شيئًا»، لأن الزائر يزور ويمشي، والقبور يمكث الناس فيها ما شاء الله أن يمكثوا، ثم يخرجون منها، قال الله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] فالناس لابد أن يبعثوا، والعبارة التي نسمعها أو نقرأها أحيانًا: «أن الرجل حملوه إلى مثواه الأخير» - يعني: إلى المقبرة - عبارة غير صحيحة، لأن القبور ليست المثوى الأخير، ولو كان قائلها يعتقد معناها لكان لازم ذلك أنه ينكر البعث، ﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ﴾ [النجم: ١٦] السدرة هي سدرة المنتهى، لأنه تعالى قال: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ⑬ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾: ﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ﴾ و(أل) في مثل هذه العبارة تسمى عند النحويين (أل) للعهد الذكري كقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ⑮ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾ [المزمل: ١٥: ١٦]، ﴿مَا يَغۡشَىٰ﴾: أبهم الله ذلك للتفخيم والتعظيم، يعني غشيها شيء عظيم بأمر الله عزوجل بلحظة «كن» فيكون، قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إِنَّهُ غَشِيَهَا مِنَ الْحُسْنِ وَالْبَهَاءِ مَا لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَصِفَهَا»[1]، ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧] البصر بصر النبي ﷺ، يقول العلماء: ﴿زَاغَ﴾ أي انحرف يمينًا وشمالًا، ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ أي: تجاوز أمامه، فالرسول ﷺ كان على كمال الأدب في هذا المقام العظيم، لم يلتفت يمينًا وشمالًا، ولم يتقدم بصره أكثر مما أذن له فيه، وهذا من كمال أدبه ﷺ، وجرت العادة أن الإنسان إذا دخل منزلًا غريبًا تجده ينظر يمينًا وشمالًا في هذا المنزل، وخصوصًا إذا تغير تغيرًا عظيمًا في هذه اللحظة، لابد أن ينظر ما الذي حدث، لكن لكمال أدب النبي ﷺ ورباطة جأشه صلوات الله وسلامه عليه وتحمله ما لا يتحمله بشر سواه صار في هذا الأدب العظيم، ولهذا قال تعالى عنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ [القلم: ٤].

ثم قال - عز وجل -: ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨] وأنت أخي المسلم القارئ للقرآن يمر بك مثل هذا التعبير دائمًا ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ﴾، ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾ [المؤمنون: ١٢] والأمثلة كثيرة، هذه الجملة يقول العلماء: إنها مؤكدة بأنواع ثلاثة من المؤكدات: **الأول**: قسم مقدر، **والثاني**: اللام. **والثالث**: قد،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٢) ولفظه: «...فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها» الحديث واللفظ لمسلم.

لأن المعنى: (والله لقد) فتكون جملة مؤكدة بالقسم واللام، وقد، والقسم مقدر لكن دل عليه السياق، و ﴿رَأَىٰ﴾ يعني النبي ﷺ ﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾، الآية هي العلامة المخصصة لمدلولها التي لا يشركه فيها أحد، وإلا لم تكن آية، فالآية لابد أن تكون خاصة بمدلولها، فليس كل علامة آية، بل هي التي تختص بمدلولها، فهذا الذي رآه النبي ﷺ من آيات الله كبير عظيم، وقوله ﴿ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ قيل: إنها مفعول ثان لـ﴿رَأَىٰ﴾، أي: لقد رأى من آيات ربه الكبرى، وقيل: إن ﴿ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ صفة لآياته، والمعنى: أنه رأى من آيات الله الكبيرة، والثاني أصح وأقرب، يعني أنه رأى من الآيات الكبرى ما رأى، وليس ما رآه أكبر شيء، بل قد يكون هناك شيء أكبر لا نعلمه، والحاصل: أن الرسول ﷺ رأى في هذا المعراج من آيات الله الكبير ما لم يكن يراه من قبل، وما لا يستطيع الصبر عليه أحد من البشر، ونحن لو رأينا سرادقًا عظيمًا لملك من الملوك لانبهرنا وتعجبنا، وجعلنا نلتفت يمينًا وشمالًا، لكن الرسول ﷺ لم يتغير عقله ولا اتزانه، بل كان على أكمل ما يكون الاتزان، وإلا فقد أسري به من المسجد الحرام من الحجر عند الكعبة ـ والحجر من الكعبة ـ أسري به من ذلك المكان إلى بيت المقدس مسيرة شهرين في لحظة لأنه ركب البُراق، والبراق دابة عظيمة قوية سريعة، خطوته مد بصره، وسريع جدًّا وصل إلى هناك وصلى بالأنبياء، ثم عُرج به إلى السماء، والسماء بعيدة جدًّا، ثم من سماء إلى سماء وتتلقاه الملائكة تسأل جبريل: من معك؟ فيقول: محمد، فيسألونه: هل أرسله إلى الناس؟ فيقول: نعم، ثم يسلم على بعض من في السموات من أنبياء، ثم تفرض عليه الصلاة ويتردد بين الله عز وجل وموسى[1]، كل هذا وهو ثابت الجأش ﷺ، وهذا شيء حقيقي، هو بنفسه ﷺ صعد، ولهذا لما جاء وحدث الناس من الغد أنكرته قريش، لأنها تنكر ما لا يمكن في عقلها، وإنكار ما لا يمكن في العقل ليس خاصًّا بكفار قريش حتى فيمن ينتسب إلى هذه الأمة أنكروا من صفات الله ما أثبته الله لنفسه، لأنه على زعمهم لا يمكن في العقل، فقريش أنكرت هذا المعراج: ولو كان منامًا لم تنكره قريش، لأن المنامات يكون فيها مثل هذا، لكنه أمر حسي حقيقي؛ أسري بالرسول ﷺ بجسده وعُرج به في ليلة واحدة، وحصلت كل هذه الأمور ثم عاد إلى الأرض وصلى الفجر في مكة ﷺ.

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾، وفي هذا إشارة إلى أن آيات الله ـ عز وجل ـ منها الكبير ومنها ما دون ذلك، ولا نقول: «منها الصغير»؛ لأن ﴿ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ اسم تفضيل. وغلط من قال من المفسرين المتأخرين: إن الكبرى اسم فاعل، بل هي اسم تفضيل، لأن آيات الله ـ عز وجل ـ إما

---

(١) انظر ما قبله.

كبيرة، وإما كبرى عظمى، فالمعراج الذي حصل لا شك أنه من الآيات الكبرى العظيمة.

ولما بين الله سبحانه وتعالى ما رآه النبي ﷺ من آيات ربه العظيمة في الآفاق قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩] وهذا الاستفهام للتحقير وانحطاط رتبة هذه الأصنام التي ذكرها الله - عز وجل - يعني: أخبروني بعد أن سمعتم من آيات الله الكبرى ما سمعتم، أخبروني عن شأن هذه الأصنام وما قيمتها، وما مرتبتها، وما عزتها، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩: ٢٠] هذه ثلاثة أصنام مشهورة عند العرب يعبدونها من دون الله، ويخضعون لها كما يخضعون لله، ويتقربون إليها كما يتقربون لله - عز وجل -، ومع ذلك هم يعتقدون أنها لا تنفعهم عند الشدة، فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين، وعلموا أنه لا منجي من هذه الشدة إلا رب العالمين، لكن الشيطان سوَّل لهم وأملى لهم في عبادة هذه الأصنام التي يدعون أنها تقربهم من الله تعالى، كما قال الله عنهم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ولكن في الحقيقة لا تقربهم إلى الله بل تبعدهم منه، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ الثالثة بالنسبة لاثنتين قبلها، ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ يعني: المتأخرة، وكأنها - والله أعلم - دون اللات والعزى في المرتبة عند العرب، ثم قال تعالى منكرًا على هؤلاء المشركين: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢١] يعني أتجعلون لكم الذكور، ولله الإناث؟ وذلك بقولهم: إن الملائكة بنات الله، وهم لم يشهدوا خلق الملائكة، ولم يطلعوا على ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩] ؟

والجواب: لا، لم يشهدوا خلقهم، ولكن مع ذلك ستكتب هذه الشهادة عليهم ويسألون، نسأل الله العافية، وهم ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ [النحل:٥٨: ٥٩]، ومع ذلك يجعلون لرب العالمين الذي خلق الذكر والأنثى البنات، ويجعلون لأنفسهم البنين، وهذه القسمة قسمة جور، ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٢]، يعني تلك القسمة - وهي أن يجعل لله البنات ولهم البنين - ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ أي: جائرة مائلة عن الحق، لأننا لو قلنا بأنه جائز أن يكون لله ولد لكان الأولى أن يكون له البنون، لأن البنين أعلى من البنات بلا شك، وهو سبحانه وتعالى أعلى من المخلوقين، فيجب أن يكون الأعلى للأعلى، والأدنى للأدنى، هذه القسمة العادلة، ثم هناك قسمة أخرى دونها في العدل ولكن فيها عدل: أن يجعلوا لله البنات ولهم بنات، ولله البنين ولهم بنين، لكن ما فعلوا هذا، جعلوا الأدنى للخالق والأعلى لهم، ولهذا قال عز وجل: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾، ثم عاد الله - عز

وجل - إلى بيان حقيقة هذه الأصنام المعبودة، فقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ [النجم: ٢٣] ﴿إِنْ﴾ هنا نافية بمعنى (ما)، وهذا ضابط ينتفع به طالب العلم أنه إذا أتت (إلا) مثبتة بعد (أن) فإن (إن) هنا تكون نافية مثل: إن هذا إلا بشر، إن هذا إلا مجتهد، وما أشبه ذلك؛ فـ(إن) هنا نافية بمعنى: ما هي إلا أسماء سميتموها، يعني ما هذه الأصنام إلا مجرد أسماء لا حقيقة لها، سموها إلهًا معبودًا، ولكنه لا حقيقة لذلك، ما هي إلا مجرد أسماء، والاسم لا يدل على مسماه، فلو أنك سميت الحديد خشبًا، ما صار خشبًا، ولو سميت الخشب حديدًا، ما صار حديدًا، ولو سميت البغل حمارًا، لم يكن حمارًا، وهكذا هذه الأصنام يسمونها آلهة، ولا تكون إلهًا، بل مجرد اسم، والاسم بلا مسمى لا فائدة منه، ولهذا قال ﴿إِنْ هِيَ﴾، أي: ما هذه الأصنام والمسميات ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾، المخاطبون هم الذين أدركوا البعثة. و ﴿وَءَابَآؤُكُم﴾ يعني الأجداد السابقين مجرد أسماء ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ (ما) نافية، والمعنى أن الله - عز وجل - لم ينزل بها دليلًا، وسمي الدليل سلطانًا لأن صاحب الدليل معه سلطة يعلو بها على خصمه، ومن ليس له دليل ليس له سلطان، فالسلطان يأتي دائمًا بمعنى الحجة أي الدليل، لأن من معه الدليل ذو سلطة على خصمه ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾. (إن) نافية بمعنى (ما) ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ أي: هؤلاء وآباؤهم ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، أي: الوهم الذي لا حقيقة له، لأنهم يقولون: هذه آلهة، واعتمدوا في ذلك على الوهم، فالظن هنا بمعنى الوهم، يعني ما يتبع هؤلاء بقولهم: «إنها آلهة» إلا الظن، أي الوهم الخيال الذي لا حقيقة له، ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾، يعني وما تميل إليه نفوسهم من الباطل، ثم قال - عز وجل -: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ الجملة هنا مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم المحذوف، واللام، و(قد) وتقديره: والله لقد جاءهم من ربهم الهدى، فيؤكد الله هنا أنه قد جاءهم من ربهم الهدى، وفي قوله: ﴿مِّن رَّبِّهِمُ﴾ ولم يقل: من الله. إشارة إلى أنه لا يجوز تلقي الشريعة إلا من عند الله، لأن الله سبحانه وتعالى هو الرب، والرب هو الخالق المالك المدبر ﴿ٱلْهُدَىٰٓ﴾ فاعل، والمراد به العلم المقابل بقوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ فهم يتبعون الظن، والعلم جاء من عند الله، ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: العلم على لسان الرسل عليهم الصلاة والسلام، الذين خُتموا بالنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ [النجم: ٢٤] (أم) هنا منقطعة؛ لأنها تأتي منقطعة وتأتي متصلة، فإذا كان هناك مقابل فهي متصلة، وإذا لم يكن مقابل فهي منقطعة، فإذا قلت: أعندك زيد أم عمرو؟ فهي متصلة، وإذا قلت في مثل هذه الآية ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ فهي بمعنى (بل) وهمزة استفهام، يعني: بل أللإنسان ما تمنى؟

والاستفهام هنا للإنكار والنفي، أي ليس للإنسان ما تمنى، كم يتمنى الإنسان من شيء ولكن لا يحصل، لأن هناك مدبرًا، وهو الله ـ عز وجل ـ فليس للإنسان ما تمنى، وفي هذا إشارة إلى رد صنيع هؤلاء المشركين الذين يعبدون الأصنام ويقولون: إنها تقربهم إلى الله، وليس لهم ذلك، وأيضًا رد لقولهم: إن لله البنات ولهم البنين، وليس لهم ذلك، وهم وإن تمنوا ذلك وصار في مخيلتهم فإنه لا يحصل، وليس للإنسان ما تمنى، كثيرًا ما يتمنى الإنسان شيئًا ولكن لا يحصل، كثيرًا ما يتمنى الشيء ويسعى في أسبابه ولكن لا يحصل، لأن الأمر بيد الله ـ جل وعلا ـ ولهذا قال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ [النجم: ٢٥] وبدأ بالآخرة لأن ملك الله ـ عز وجل ـ في الآخرة يظهر أكثر مما في الدنيا، فالدنيا فيها ملوك، وفيها رؤساء، وفيها زعماء، يرى العامة أن لهم تدبيرًا، لكن في الآخرة لا يوجد هذا ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦] (كم) تكثيرية لأنها تأتي تكثيرية وتأتي استفهامية، فإذا قلت: كم مالك؟ فهي استفهامية، وهنا ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يعني كثير من الملائكة في السماوات لا تغني شفاعتهم وهنا نقول: كم من ملك وما أكرم الملائكة، كما قال الله تعالى: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦] ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لا في الأرض، والسماوات أعلى من الأرض وإذا كان هؤلاء الملائكة الكرام الذين مقرهم السماوات ـ إلا من أذن له ينزل الأرض ـ إذا كانت شفاعتهم لا تنفع، فهل يمكن أن تنفع شفاعة اللات والعزى ومناة؟ الجواب: لا، كأن الله تعالى يقول لهؤلاء: ما أصنامكم هذه التي تشفعون بها إلى الله، كم من ملك ـ وهو أشرف من هذه الأصنام في السماوات وهي أشرف من الأرض ـ لا تغني شفاعتهم شيئًا لو شفع إلا بثلاثة شروط:

الأول: أن يأذن الله لمن يشاء من الملائكة بأن يشفع فيشفع.

الثاني: أن يرضى عن المشفوع له.

الثالث: يرضى عن الشافع؛ لأنه لا يمكن أن يأذن للشافع إلا بعد أن يرضى عنه، ولابد أن يرضى عن المشفوع له وإلا فلا تنفع الشفاعة، كما قال عز وجل: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨] فأصنامكم هذه لن تنفع ولن يقبل الله شفاعتها، فشروط الشفاعة ثلاثة: **الأول**: رضى الله عن الشافع بأن يكون أهلًا للشفاعة لكونه من المقربين

لله ـ عز وجل ـ **والثاني**: أن يرضى عن المشفوع له، بأن يكون أهلًا لأن يشفع له، أما الكافر فما تنفعهم شفاعة الشافعين. **الثالث**: الإذن لقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِى شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ وهذا فيه تيئيس هؤلاء المشركين من شفاعة آلهتهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢٧] أكد الله هذا الخبر بمؤكدين هما: القسم المقدر واللام؛ ومعنى ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: لا يصدقون بها ولا بما فيها من الثواب والعقاب، إذ إن الإيمان بالآخرة لابد أن يكون إيمانًا بأن هذا اليوم سيكون، وإيمانًا بكل ما ثبت من حصوله ووقعه فيه، إما في القرآن وإما في السنة، حتى إن شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ قال: إن مما يدخل في الإيمان بالله واليوم الآخر الإيمان بما يكون بعد الموت من فتنة القبر، وعذاب القبر، ونعيم القبر، وصدق رحمه الله، لأن الإنسان إذا مات قامت قيامته، وانتهى من الدنيا كأن لم يكن، فكما أنه أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا، فسيأتي عليه حين من الدهر لم يكن إلا خبرًا من الأخبار، كما قال الشاعر الحكيم:

في الدنيا بين يرى الإنسان فيه مخبرًا   حتى يرى خبرًا من الأخبار

فأنت الآن تخبر تقول: حصل كذا وحصل كذا، وقال فلان كذا، وفي يوم من الأيام سوف يخبر عنك، قال فلان كذا وأنت رميم، فالإيمان باليوم الآخر يتضمن ثلاثة أمور: **الأول**: الإيمان بوقوع اليوم الآخر أنه لابد كائن. **الثاني**: الإيمان بما سيكون في هذا اليوم من: أهوال، وحساب، وموازين، وصراط، وجنة، ونار؛ لابد من هذا. **الثالث**: الإيمان باليوم الآخر الإيمان بما يكون في القبر من فتنة القبر، سؤال الملكين الميت عن ثلاثة أشياء: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ هل أحد من الناس لا يؤمن بالآخرة؟ نعم كثير من الناس، أكثر الناس لا يؤمنون بالآخرة، حتى إن الله سبحانه وتعالى قال في الإنسان: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ [يس: ٧٧: ٧٨] يعجزنا فيه ﴿وَنَسِىَ خَلۡقَهُۥ قَالَ مَن يُحۡىِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] ما أحسن قوله: ﴿وَنَسِىَ خَلۡقَهُۥ﴾ قبل أن يقول مقالة هذا الإنسان، يعني هذا الإنسان قال: ﴿مَن يُحۡىِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ ﴿وَنَسِىَ خَلۡقَهُۥ﴾، ما هو خلقه؟ إنه لم يكن شيئًا، خلق من ماء دافق، فصار عظامًا وعصبًا ولحمًا، وصار إنسانًا ينطق ويخاصم ﴿مَن يُحۡىِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨: ٧٩] وذكر الأدلة على إمكان ذلك، فمن الناس من ينكر اليوم الآخر، ويقول: لا بعث.

وهذا من سفهه في عقله وضلاله في دينه، وإلا فهل من الحكمة أن تخلق هذه الخليقة وتبتلى بالأمر والنهي، ويحصل الجهاد وقتال الأعداء، واستحلال دمائهم وأموالهم ونسائهم ثم يكون نتيجة هذا لا شيء، هذا لا يمكن، وتأباه الحكمة، إذًا الذين لا يؤمنون بالآخرة، سفهاء عقولًا، ضلال دينًا ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ يعني يجعلون الملائكة إناثًا كالمشركين، قالوا: الملائكة بنات الله، فسموا الملائكة تسمية الأنثى، وهي البنت، لأنهم لا يؤمنون بالآخرة، ولو آمنوا بالعقاب ما قالوا هذا، لكنهم لا يؤمنون، فيقولون ما يريدون، قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ [النجم: ٢٨] نفى أن يكون لهم بذلك علم، لأن هذا هو الواقع: هل شهدوا خلق الملائكة؟ ولهذا قال الله في آية أخرى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩] والجواب: لا، لكن ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩] حين لا يجدون جوابًا فهؤلاء الذين قالوا: الملائكة بنات الله، يقول الله - عز وجل -: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ و ﴿عِلْمٍ﴾ هنا مجرورة بحرف الجر، وحرف الجر هنا عند المعربين حرف جر زائد الفائدة منه توكيد النفي، ولهذا هنا قاعدة مفيدة: (جميع الحروف الزائدة يقصد بها التوكيد، وهي من أدوات التوكيد).

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ يعني لا قليل ولا كثير، لأنهم لم يشهدوا خلقهم ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، ﴿إِن﴾ هنا بمعنى (ما)، والضابط أنه إذا جاءت ﴿إِلَّا﴾ بعد ﴿إِن﴾ فهي بمعنى (ما)، ﴿إن هذا إلا بشر﴾ أي: ما هذا إلا بشر ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:٣١] أي: ما هذا إلا ملك كريم ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠] أي: ما أنتم إلا بشر مثلنا: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨] أي ما هم إلا يظنون، والأمثلة على هذا كثيرة، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ يعني ما يتبعون إلا الظن، والمراد بالظن هنا الوهم الكاذب، وليس المراد بالظن هنا الراجح من أحد الاحتمالين، وانتبه لهذا فالظن يأتي بمعنى التهمة، ويأتي بمعنى رجحان الشيء، ويأتي بمعنى اليقين. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦] والمراد: اليقين، ولا يكفي الظن في اليوم الآخر، بل لابد تيقن، وقال النبي ﷺ: «إِذَا شَكَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ فَلْيَتَحَرَّ الصَّوَابَ»[1]، والتحري هنا يعني هو الظن الغالب.

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ظن الاتهام يعني يظنون ظنًّا، هو وهم، ليس له أصل، وبعض العلماء أخذ من هذه الآية أنه لا يجوز العمل بالظن في المسائل الفقهية وغيرها، وهذا خطأ، لأن كثيرًا من المسائل الفقهية ظنية: إما لخفاء الدليل، أو خفاء الدلالة: ليس كل مسألة في الفقه يقول بها

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٠١)، ومسلم (٥٧٢).

الإنسان على سبيل اليقين أبدًا، بل بعضها يقين وبعضها ظن، والظن إذا تعذر اليقين مما أحل الله، ومن نعمة الله أنه إذا تعذر اليقين رجعنا إلى غلبة الظن، فليس كل ظن منكرًا، لكن الظن الذي ليس له أصل يبنى عليه منكر، فهؤلاء الذين سموا الملائكة تسمية الأنثى لا علم لهم بذلك، بل هو ظن مبني على وهم، وربما يكون مبنيًا على أهواء، يعني لم يطرأ على بالهم أنهم إناث، ولكن تبعوا آباءهم، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ أي: هذا الظن المبني على الوهم لا على القرائن لا يغني من الحق شيئًا، أي لا يفيد شيئًا من الحق، لأنه وهم باطل، والوهم الباطل لا يمكن أن يفيد.

ثم قال ـ عز وجل ـ: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩] ﴿فَأَعْرِضْ﴾ الخطاب للرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أو المراد به كل من يصح أن يوجه إليه الخطاب، فعلى الأول يكون المعنى: أعرض يا محمد، وعلى الثاني يكون: أعرض أيها الإنسان المؤمن ﴿عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾، يعني أعرض عنه لا تتبعه ولا يهمنك أمره، وليس المعنى: أعرض عنه لا تنصحه؛ لأن التذكير واجب، قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] يعني ذكر كل أحد، فمن الناس من ينتفع، ومنهم لا ينتفع، والذي ينتفع هو المؤمن، فعلى هذا نقول معنى ﴿فَأَعْرِضْ﴾ يعني لا تبالي به ولا يهمنك أمره، ولا تستحسر من أجل توليه، بل ادع إلى سبيل الله ـ عز وجل ـ أيًّا كان، لكن من أعرض وتولى لا يهمك أمره، ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ هو القرآن، ويحتمل أن يكون الذكر بمعنى التذكير، أي عن تذكيرنا، وكلا المعنيين متلازمان صحيحان؛ لأن القرآن ذكر كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩] أو المعنى ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ أي: عن تذكيرنا بالمواعظ التي ينزلها الله ـ عز وجل ـ ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني لا يريد الآخرة ولا يهتم بها، بل همه الدنيا ما المركوب؟ وما الملبوس؟ وما المسكن؟ فلا يهتم بالآخرة، وأهم شيء عنده الدنيا، أما ذكر الله القرآن، أو تذكير الله فإنه متول عنه ـ والعياذ بالله ـ نسأل الله السلامة والعافية، والحياة الدنيا وصفها بالدنيا من الدنو وهو القرب، وذلك لانحطاط مرتبتها، ولسبقها على الآخرة، لأن الدار الدنيا هي أول دار ينزلها الإنسان، وهي سابقة في الزمن على الآخرة، فهي دنيا قريبة، وهي أيضًا دنيا من حيث المرتبة، ليست بشيء بالنسبة للآخرة، ولهذا قال النبي ﷺ فيما صح عنه: «لَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[1] فليست خيرًا من الدنيا التي

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٥٠) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٨٨١).

أنت فيها فقط؛ بل من الدنيا منذ أن خلقها الله إلى أن تفنى، موضع السوط الذي يكون بقدر المتر في الجنة خير من الدنيا وما فيها، إذًا هي دنيا حقيقة، ولهذا إذا مات الإنسان وهو مؤمن - جعلنا الله منهم - ثم حمل من بيته الذي يسكنه ويأوي إليه، وفيه أهله وماله وحشمه، إذا خرج تقول روحه: «قدموني قدموني»، لأن ما ستذهب إليه خير مما تخرج منه، قال الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦: ١٧] لكن لمن؟ ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ لكنها شر لمن لم يتق، ويذكر أن ابن حجر - رحمه الله - وكان رئيس القضاء في مصر، مر يومًا من الأيام في موكبه على العربة تجرها البغال، وحوله الجنود برجل يهودي زيَّات يبيع الزيت، قد تدنست ثيابه بالزيت، وشقي في طلب المعيشة، فأوقفه اليهودي وقال لابن حَجَر: إن نبيكم يزعم أن «الدُّنْيَا سِجْنُ المؤْمِنِ وَجَنَّةُ الكَافِرِ»! فكيف يتفق هذا الحديث مع الواقع، أنت الآن مؤمن وأنا يهودي فأيُّنا الشقي؟ قال: نعم ما أنا فيه الآن بالنسبة للآخرة سجن، لأن الآخرة خير لمن اتقى، وما أنت فيه بالنسبة للآخرة جنة، لأن الآخرة ليس لك فيها إلا النار وبئس القرار، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله. فانظر كيف فتح الله عليه حيث ظهر صدق كلام الرسول ﷺ بكل سهولة، فالآخرة خير من الدنيا وما فيها، ولهذا ذم الله تعالى الذي أعرض عن ذكر الله ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾، ومن أراد الحياة الدنيا لن تحصل له قطعًا، قال الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] أي: ما يشاء الله، لا ما يشاء هو، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨: ١٩]. وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٠] لأنه يعطى الدنيا والآخرة ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [الشورى: ٢٠] أي بعضها وليس كلها ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم:٣٠] والمشار إليه كونهم متولين معرضين، لا يريدون إلا الحياة الدنيا، يعني ذلك منتهى بلوغ علمهم، لأن علمهم قاصر، لا ينظرون إلى المستقبل، ولا يصدقون بخبر، فتجد أكبر همهم أن يصلحوا حالهم في الدنيا معرضين عن حالهم في الآخرة، وفي الدعاء المأثور: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا»(١).

ثم قال - عز وجل -: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ هو أعلم - عز

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٣٥٠٢)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٢٦٨).

وجل - بمن ضل عن سبيله فعلًا، ومن سيضل؛ لأنه عالم بما كان وبما يكون، فقوله: ﴿بِمَن ضَلَّ﴾ لا تعني أنه لا يعلم إلا من حصل منه الضلال بالفعل بل هو يعلم من حصل منه الضلال بالفعل، ومن سيحصل منه، لأن الله - سبحانه وتعالى - موصوف بالعلم التام في الحاضر والمستقبل والماضي، وقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ ضد الضلال، فالناس بين فئتين: إما مهتدٍ، وإما ضال، وإنما بيَّن الله سبحانه وتعالى أنه أعلم بمن ضل عن سبيله، وبمن اهتدى؛ لفائدتين:

الفائدة الأولى: أن نعلم أن ما وقع من الضلال والهداية فهو صادر عن علم الله وبإرادته، إذ لا يمكن أن يوجد في خلقه خلاف معلومه، ولو قدر أن يوجد في خلقه خلاف معلومه لكان الله جاهلا - وحاشاه من ذلك -.

الفائدة الثانية: التحذير من الضلال، والترغيب في الاهتداء، ما دام الإنسان يعلم أن أي عمل صدر منه فعلمه عند الله، فإنه سوف يخشى أن يعصي الله، وسوف يسعى أن يرضي الله - عز وجل

كأنه يقول: إن ضللت فالله أعلم بك، وإن اهتديت فالله أعلم بك، فيجزي الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النجم: ٣١]، يقول علماء البلاغة: إنه إذا تقدم شيء حقه التأخير فهو دليل على الحصر والتخصيص، فلننظر في هذه الآية هل فيه تأخير وتقديم: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿وَلِلَّهِ﴾ خبر مقدم ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مبتدأ مؤخر، إذًا قدم فيها ما حقه التأخير وهو الخبر؛ لأن حق الخبر أن يكون متأخرًا عن المبتدأ. تقول: «الرجل قائم» ولا تقول: «قائم الرجل»، فالأصل أن المبتدأ على اسمه يكون هو الأول والخبر هو الثاني، لكن أحيانًا يقدم الخبر لفائدة، فهنا الفائدة: الحصر، يعني: لله لا لغيره ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ولا أحد يملك ما في السماوات ولا ما في الأرض إلا الله تبارك وتعالى، ونحن نملك ما نملك من أموالنا ولكن ملكنا ليس عامًّا، فملكي ليس ملكًا لك، وملكك ليس ملكًا لي، فأملاكنا ليست عامة، ثم نحن لا نملك التصرف بما هو ملكنا كما نشاء، فتصرفنا محدود حسب الشريعة، ولهذا لو تراضى اثنان في بيع الربا قلنا: لا تملكان ذلك، ولو أراد الإنسان أن يحرق ماله قلنا: هذا ممنوع، فملك غير الله قاصر وغير شامل، والملك التام الواسع الشامل لله - عز وجل -، ولهذا قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فهو مالك لذواتها، ومالك لما فيهما أيضًا، وكم من ملك في السماوات، وكم من مخلوق في الأرض كله ملك لله - عز وجل - يتصرف فيه كما يشاء حسب ما

تقتضيه حكمته، وإيماننا بأن لله ملك السماوات والأرض يفيد فائدتين عظيمتين:

الفائدة الأولى: الرضى بقضاء الله، وأن الله عز وجل لو قضى عليك مرضًا فلا تعترض، ولو قضى عليك فقرًا فلا تعترض، لأنك ملكه يتصرف فيك كما يشاء، فهو كما يتصرف في السحاب يمطر أو لا يمطر، يمضي أو لا يمضي، ويتصرف في الشمس والقمر، ويتصرف في المخلوقات، يتصرف فيك أيضًا كما يشاء، إن شاء أعطاك صحة، وإن شاء سلبها، إن شاء أعطاك عقلًا، وإن شاء سلبك، إن شاء أعطاك مالًا، وإن شاء سلبك، أنت ملكه، فإذا آمنت بهذا رضيت بقضائه.

الفائدة الثانية: الرضا بشرعه وقبول شرعه والقيام به، لأنك ملكه، إذا قال لك:«افعل» فافعل، وإذا قال: «لا تفعل» فلا تفعل، أرأيت لو كان لك عبد رقيق فأمرته، ولكنه لم يفعل، أو نهيته ففعل، فالسيادة ناقصة، إذا أنت إذا عصيت ربك: إما بفعل محرم وإما بترك واجب، فإنك خرجت عن مقتضى العبودية التامة؛ لأن مقتضى العبودية التامة أن تخضع لشرعه، كما أنك خاضع كرهًا أو طائعًا لقضائه وقدره، فانتبه ليس معنى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أن يخبرنا أنه مالك فقط، لكن لأجل أن نعتقد مقتضى هذا الملك، وهو الرضا بقضائه، والرضا بشرعه، هذه حقيقة الملك. ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ جاءت كلمة ﴿لِيَجْزِيَ﴾ كأن قائلًا يقول: وإذا تبين أن الملك لله - عز وجل - فما النتيجة؟ النتيجة أن الناس بين محسن وبين مسيء كما قال - عز وجل -: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].

وإذا كانوا بين محسن ومسيء فما جزاء كل واحد ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ الذين أساءوا هم الذين خالفوا المأمور أو ارتكبوا المحظور، هؤلاء الذين أساءوا ليجزيهم بما عملوا، السيئة بالسيئة لا تزيد، أو يعفو - عز وجل - عمن يستحق العفو، وهو كل من مات على غير الشرك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] فلا يمكن أن يزيد سيئة لم يعملها الإنسان، ولهذا قال: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ بدون زيادة ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ ولم يقل: بما عملوا، لأن فضل الله أوسع من أعمالنا، يجزي الذين أحسنوا بالحسنى، فأنت إذا فعلت حسنة فتكون عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

ونضرب مثلًا قريبًا: الصلاة المفروضة عندما تتوضأ وتسبغ الوضوء ثم تخرج إلى الصلاة لا يخرجك من بيتك إلا الصلاة فما الثمرات التي تحصل عليها؟ كل خطوة تخطوها يرفع الله لك بها درجة، ويحط عنك بها خطيئة، فخطواتك لا يحصيها إلا الله عز وجل، مع أن المقصود شيء واحد

وهو الصلاة، لكن سعيك إلى الصلاة فيه أجر ما دُمت خرجت من بيتك لا يخرجك إلا الصلاة، وتأهبت في بيتك، أسبغت الوضوء في بيتك، فأنت لا تخطو خطوة إلا رفع الله لك بها درجة، وحط عنك بها خطيئة، والخطوات لا يحصيها إلا الله، ثم إذا وصلت المسجد وصليت ما شاء الله، ثم انتظرت الصلاة ولو تأخر مجيء الإمام لصلاة الجماعة يكتب لك أجر المصلي، «لَا يَزَالُ فِي صَلَاةٍ مَا انْتَظَرَ الصَّلَاةَ»[1]، وهذا أحسن من أعمالنا، ولهذا قال: ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ أي بما هو أحسن وأكثر من عملهم، وهذا يدلك على سعة فضل الله -عز وجل- وإحسانه وكمال عدله، فالمسيئون يجازيهم بالعدل أو يعفو، والمحسنون يجازيهم بالفضل ثم ذكر شيئًا من أوصافهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢] أي: يبتعدون عنه، وسمي الابتعاد اجتنابًا؛ لأن الإنسان في جانب، والذي أبعد عنه في جانب آخر، فيبعدون، ولا يتصلون بكبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ كبائر جمع كبيرة، والكبيرة بعض العلماء عدها، وبعض العلماء حدها، والصواب الحد، أي أنها محدودة وليست معدودة، والذين ذكروا عددًا الظاهر -والله أعلم- أنهم أرادوا المثال، فمثلًا إذا قال الإنسان: هي الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، هذه سبع، إذا قال الإنسان هذه هي الكبائر ليس معنى قوله إنها محصورة في هذا، إذ من الممكن أن يحمل كلامه أن ذلك على سبيل التمثيل فقط، أما الذين حدوها يعني جعلوا له ضابطًا فقالوا في ضابطها: (كل ذنب رتب الله عليه لعنة، أو غضبًا، أو سخطًا، أو تبرأ منه، أو ما أشبه ذلك فهو كبيرة)، ورأيت لبعضهم ومنهم شيخ الإسلام -رحمه الله- أنه قال: (كل ذنب جعلت له عقوبة خاصة إما في الدنيا، أو في الآخرة فهو كبيرة)، فالزنا كبيرة، لأن فيه عقوبة وهو الجلد أو الرجم، والسرقة كبيرة، وقطع الطرق كبيرة، وعقوق الوالدين كبيرة، وهلم جرًّا، فكلما رأيت شيئًا من الذنوب جعل الشارع له عقوبة خاصة فهو كبيرة، أما الذنب الذي نهى عنه فقط فهو صغيرة: كنظر الرجل للمرأة الأجنبية للشهوة، هذا ليس كبيرة هو صغيرة من الصغائر، لكن إن أصر الإنسان عليه وصار هذا ديدنه، صار كبيرة بالإصرار لا بالفعل. ومكالمة المرأة الأجنبية على وجه التلذذ حرام وليس بكبيرة، ولكن إذا أصر الإنسان عليه وصار ليس له هم إلا أن يشغل الهاتف على هؤلاء النساء ويتحدث إليهن صار كبيرة، فالإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة من حيث الإصرار، لأن إصراره على الصغيرة يدل على تهاونه بالله -عز وجل- وأنه غير

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠٠)، ومسلم (٦٤٠).

مبال بما حرم الله، وقوله: ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ أي: كبائر الكبائر، لأن الكبائر منه ما هو فاحش يستفحش ويستعظم ويستقبح بشدة، ومنها ما هو دون ذلك، فمثلًا الزنا فاحشة ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢] واللواط فاحشة أعظم من الزنا، لأن الله قال في الزنا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ وقال في اللواط: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ [الأعراف: ٨٠] فأتى بـ(أل) الدالة على القبح، وأنها جامعة لكل أنواع الفواحش، ونكاح المحارم فاحشة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢] فهو أشد من الزنا، فلو زنا الإنسان بامرأة أجنبية منه وبأم زوجته مثلا صار زناه بأم زوجته أعظم وأشد وأشنع، ولهذا كان القول الراجح من أقوال العلماء: أن من زنا بامرأة من محارمه وإن لم يكن محصنًا فإنه يرجم، لأن الله فرق بين الزنا وبين نكاح ذوات المحارم، فالزنا بذوات المحارم وصفه الله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ والزنا وصفه بوصف واحد وهو: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾، وجاءت السنة بالتفريق بين من زنا بامرأة من محارمه أو بامرأة أجنبية، فجعلت حد الأول القتل بكل حال، وإن لم يتزوج وإن لم يكن ثيبًا، لأن هذا أعظم والعياذ بالله، إنسان يزني بأمه أو أخته أو أم زوجته أو بنت زوجته التي دخل بها هذا فاحشة عظيمة، إذًا هم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، والفواحش كبائر الكبائر وأعظم، ونأخذ من هذه الآية الكريمة: أن الكبائر والفواحش تختلف؛ لأن كبائر وصف كل ما كان أعظم صار أشد كبيرة، والفواحش كذلك، وفيما سقناه من الآيات دليل على ذلك: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢] ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠] ففرق الله بينها، مع أنها كلها فواحش، لكن بعضها أعظم من بعض.

قوله: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قيل: إنه استثناء متصل. وقيل: إنه استثناء منقطع، لأن اللمم: الشيء القليل، فهل المعنى إلا الشيء القليل من الكبائر، أي أنهم يأتون الشيء القليل من الكبائر، أو المعنى إلا الصغائر من الذنوب. إن قلنا بالأول فالاستثناء متصل، وإن قلنا بالثاني فالاستثناء منقطع. وتكون بمعنى (لكن)، والمعنى الثاني أقرب من حيث التقسيم، لأن الله ذكر الكبائر والفواحش والصغائر، وعلى هذا فيكون معنى ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ يعني: أن هؤلاء الذين أحسنوا يأتون الصغائر، والصغائر والحمد لله مكفرة بالحسنات، قال الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ

عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ [النساء: ٣١] وأخبر النبي ﷺ «أَنَّ الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ، وَالجُمُعَةَ إِلَى الجُمُعَةِ، وَرَمَضَانَ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الكَبَائِرُ»(١)، وقال ﷺ: «العُمْرَةُ إِلَى العُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا»(٢)، وعلى هذا فيكون المعنى أن الصغائر تقع مكفرة إما باجتناب الكبائر، أو باجتناب الكبائر مضمومًا إليها فعل هذه الحسنات العظيمة: الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان.

والخلاصة: أن الصغائر التي تقع مغفورة للإنسان إذا اجتنب الكبائر، وإذا أحسن في الصلوات الخمس والجمعة ورمضان.

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ في هذه الجملة إشارة إلى قوله: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ يعني أن اللمم يقع في سعة مغفرة الله - عز وجل - فيغفره الله - عز وجل -، والمغفرة هي ستر الذنب مع التجاوز عنه، ولا يكفي ستر الذنب بل لابد من تجاوز، والدليل على هذا أمران: لغوي وسمعي، أما الغوي: فلأن المغفرة مشتقة من المغفر، والمغفر وهو ما يوضع على الرأس عند القتال ويسمى خوذة، ويسمى بيضة، يوضع على الرأس ليتقي السهم؛ هذا الذي يوضع على الرأس جمع بين أمرين: الوقاية والستر، فإذا المغفرة لابد من ستر ووقاية، وأما السمعي: فهو أن الله تبارك وتعالى إذا خلا بعبده المؤمن يوم القيامة وقرره بذنوبه وأقر قال: «قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»(٣) فدل هذا على :أن الوقاية من الذنوب، وعدم المؤاخذة من المغفرة، نسأل الله تعالى أن يغفر لنا ما تقدم من ذنوبنا وما تأخر.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ إشارة إلى أن الصغائر تغفر، وقد ثبت في القرآن الكريم أن الصغائر تغفر باجتناب الكبائر، فقال جل وعلا: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]. ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ أما إذا قلنا: اللمم القليل من الفواحش والكبائر، فيكون قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ إشارة إلى أن الكبائر إذا تاب الإنسان منها غفر الله له، وكأنها لم تكن، وإن لم يتب منها فهو تحت المشيئة: إن شاء غفر الله له، وإن شاء عاقبه بما يستحق، هذه الكبيرة، وللأسف يوجد قوم من هذه الأمة يقولون: إن الكبيرة لا تغفر، وهم الخوارج والمعتزلة يقولون: إن الإنسان إذا فعل كبيرة

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٣٣)، والترمذي (٢١٤)، وابن ماجه (١٠٨٦).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٧٧٣)، و مسلم (١٣٤٩).
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١)، و مسلم (٢٧٦٨).

خرج من الإيمان، لكن الخوارج يقولون: خارج من الإيمان داخل في الكفر. والمعتزلة يقولون: خارج من الإيمان غير داخل في الكفر بل هو في منزلة بين منزلتين، لكن قولهم باطل، والصواب: أن فاعل الكبيرة داخل تحت قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

فلو قال قائل: إذا قلت هذا فتحت الباب على مصراعيه لفعل الكبائر، لأن أي إنسان يفعل كبيرة ويقول: أنا يمكن أن يغفر الله لي، وهذا يحتج به العوام يقول: إذا كان الله يقول: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي ما دون الشرك لمن يشاء، إذًا سأفعل الكبائر، ويغفر الله لي، فهذه حجة فكيف تجيبه؟

نجيبه: أن الله تعالى قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ ولم يقل لكل أحد بل قال: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ فهل أنت تتيقن أنك ممن يغفر الله له، أأحد يتقين هذا؟ لا أحد يتيقن، إذًا لا حجة في هذه للعاصي، ثم إن قوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ نعلم أن الله حكيم، لا يشاء أن يغفر للمذنب غير الشرك إلا إذا اقتضت الحكمة أن يغفر ذلك، ومن منا يستطيع أن يقول إن حكمة الله تقتضي أن يغفر لي؟ لا أحد يقول هذا، بل لو قال هذا لقلنا: إن قولك هذا من أسباب المؤاخذة والمعاقبة؛ لأنك تأليت على الله.

ثم قال -عز وجل-: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أعلم بنا من ذاك الوقت الطويل البعيد ﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾، أي بخلق أبينا آدم، لأن آدم خلق من التراب، ثم صار طينًا، ثم صار صلصالًا، ثم خلقه الله بيده جسمًا ونفخ فيه الروح، فصار آدميًّا إنسانًا، هذا معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾، إذًا نحن من الأرض أول نشأة: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥] أي الإخراج الذي ليس بعده وفاة يوم القيامة، ولذلك الآن بنو آدم كالأرض تمامًا، فيهم الحزم الصلب الشديد، وفيهم السهل، وفيهم ما بين ذلك، وفيهم الأبيض، وفيهم الأحمر، وفيهم الأسود، لأن الأراضي تختلف، هكذا، وقد ذُكر أن الله لما أراد أن يخلق آدم أخذ من كل الأرض سهلها وحزنها، وأسودها وأبيضها كلها: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ هذه النشأة الثانية، (أجنة) جمع جنين وهو الحمل، وسمي الحمل جنينًا، لأنه مستتر ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ أي مستترين ﴿فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾، أي من حين كان الإنسان نطفة، ومن النطفة يخلق، وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون:١٣] فمن حين يكون نطفة يكون جنينًا ثم يتطور أربعة، أولًا: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة مخلَّقة وغير مخلَّقة، ثم أنشأناه خلقا

آخر. الطور الأخير الذي تحل فيه الروح، إذًا هو عالم بنا حين النشأة الأولى، وحين النشأة الثانية في بطون أمهاتنا: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا تزكوها وتقول عملت كذا وكذا، وصليت، وزكيت، وصمت، وجاهدت، وحججت، لا تقل هكذا، تُدل بعملك على ربك، هذا لا يجوز.

فإن قال قائل: أليس الله يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]؟

فالجواب: بلى، لكن معنى ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾ أي: من عمل عملًا تزكو به نفسه، وليس المعنى من زكاها من أثنى عليها ومدحها بأنها عملت وعملت، بل المراد عمل عملًا تزكو به نفسه، فلا معارضة بين الآيتين، ولهذا نقول: من زكى نفسه بذكر ما عمل من الصالحات فإنه لم يزكِ نفسه، فمن زكى نفسه بمدحها فإنه لم يزكِّ نفسه، وفرق بينهما، فالتزكية التي يحمد عليها الإنسان: أن يعمل الإنسان عملًا صالحًا تزكو به نفسه، والتزكية التي يذم عليها: أن يدل بعمله على ربه ويمدح، وكأنه يمن على الله، يقول: صليت، وتصدقت، وصمت، وحججت، وجاهدت، وبريت والدي وما أشبه ذلك، فلا يجوز للإنسان أن يزكي نفسه، وفي هذا رد على أولئك الصوفية الذين يدعون أنهم أئمة ويزكون أنفسهم ويقولون: وصلنا إلى حد لا تلزمنا الطاعة، وصلنا إلى عالم الملكوت فليس علينا صلاة، ولا صدقة، ولا صيام، ولا يحرم علينا شيء، وهؤلاء منسلخون من الدين انسلاخًا تامًّا، ولذلك نقول: هؤلاء الذين يزكون أنفسهم هم أبعد الناس عن الزكاة، لأنهم أعجبوا بأعمالهم، وأدلوا بها على الله -عز وجل- وجعلوا لأنفسهم منصبًا لم يجعله الله تعالى لهم ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ كأنه يقول: لماذا تزكون أنفسكم؟ أتريدون أن تعلموا الله بما أنتم عليه؟ الجواب: لا، ولهذا قال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ يعني إن كنت مُتَّقِيًا لله، فالله أعلم بك، ولا حاجة أن تقول لله: إني فعلت وفعلت، وفي هذا إشارة إلى أن النطق بالنية عند فعل العبادة قد يدخل في نوع من التزكية، فإذا أردت أن تتوضأ فلا تقل: «اللهم إني نويت أن أتوضأ»، وبعض العلماء يقول: قلها سرًّا، بينك وبين نفسك، وعللوا هذا قالوا: من أجل أن يطابق اللسان القلب، فالقلب نوى، لكن قل باللسان: اللهم إني نويت أن أتوضأ، وأنت تصلي قل: اللهم نويت أن أصلي الظهر مثلا أو العصر، وبعض العلماء يقول هكذا، وهم علماء أجلاء من الفقهاء.

فيقال: هذا غلط، وهذا قياس في مقابلة النص، والرسول ﷺ لم يشرع لأمته النطق بالنية، لا في حديث صحيح ولا ضعيف، ومن الطرف الطريفة: أن رجلًا عاميًا في المسجد الحرام سمع شخصًا يريد أن يصلي، فقال بعد أن أقيمت الصلاة: اللهم إني نويت أن أصلي الظهر أربع ركعات في المسجد الحرام، ولما أراد أن يكبر قال الرجل: باقي عليك، قال: ما الباقي؟ قال: باقي التاريخ،

قل: في اليوم الفلاني. أنت الآن ذكرت المكان، وذكرت العمل، فاذكر التاريخ قل: في اليوم الفلاني، من الشهر الفلاني، من السنة الفلانية. فانتبه الرجل فقال: هل أنت تعلم ربك بنيتك؟ الله أعلم بنيتك ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، وعند الصيام مثلا إذا تسحر الإنسان وأراد أن يصوم فإنه لا يقول: اللهم إني نويت الصيام من الليل؟ لأن هذا من البدع، بقي أن يقال في الحج هل تقول: اللهم إني نويت العمرة، أو نويت الحج، أو نية القران أو التمتع؟ لا تقل هذا، حتى عندما تغتسل وتلبس الإحرام لا تقل: اللهم إني نويت العمرة أو نويت الحج، تكفي التلبية لأنك سوف تقول: «لبيك عمرة »إن كنت في عمرة، أو «لبيك حجًّا» إن كنت في حج، أو «لبيك عمرة وحجًّا»، إن كنت قارنًا، فلا حاجة إلى التلفظ بالنية، فكل العبادات لا ينطق فيها بالنية، ولهذا قال عز وجل: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ [النجم: ٣٣] الخطاب في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ويجوز أن يراد به كل من يتوجه إليه الخطاب، فيكون المعنى على الأول: أفرأيت يا محمد، وعلى القول الثاني: أفرأيت أنت أيها المخاطب أي أخبرني، وكلما جاءت ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ في القرآن فهي بمعنى: أخبرني، ﴿ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾، أي: عن طاعة الله - عز وجل - وعن الإيمان بالله ورسوله ﷺ وعن إقامة شعائر الإسلام، ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٤] يعني أحيانًا يعطي، وإذا أعطى أعطى قليلًا، وأحيانًا يكدي، أي: يمنع فلا يعطي شيئًا، لأنه ليس ينفق المال ابتغاء وجه الله، فلذلك كانت حاله بين أمرين: إما المن، أو الإعطاء قليلًا، قالوا: وأكدى مأخوذة من الكدية، وهي الصخرة الشديدة التي لا تتفتت إلا بالمعاول، فهذا الرجل ليس مطيعًا لله وليس نافعًا لعباد الله فهو متولٍ عن طاعة الله، وهو مانع فضل الله عز وجل، ولهذا يقول الله عز وجل: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾وهذا الاستخبار ليس لعدم علمه جل وعلا، ولكن لشحذ النفوس والهمم إلى الاستماع إلى ما يلقى، وهذا الذي أعطى قليلا وأكدى يزعم أنه إذا بعث فإنه سوف يعطي المال الكثير، وهذه عادة من ينكر البعث، كما في صاحب الجنة الذي قال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦] فهو يظن أنه سوف يمتع في الدنيا ويمتع في الآخرة أكثر وأكثر إن كان آمن بها، قال الله تعالى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٥] وهذا الاستفهام استفهام استنكار بمعنى النفي، يعني ليس عنده علم الغيب، وهو يرى أنه سينتقل إلى دار أفضل من التي هو فيها، وعلى هذا فتكون الجملة جملة نفي، وليست جملة إثبات، وليست جملة استخبار، بل هي جملة نفي واستنكار، إذ لا أحد عنده علم الغيب، ولولا ما أخبر الله به من النعيم في الجنة

والجحيم لأهل النار، ما علمنا بهذا شيء.

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٦: ٣٧] (أم)هنا للإضراب والمعنى (بل): ﴿لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ ذكر موسى لأن موسى عليه السلام أفضل أنبياء بني إسرائيل والتوراة هي التي عليها عمدة ما نزل على بني إسرائيل، وصحف إبراهيم عليه السلام أنزلها الله تعالى على إبراهيم فيها المواعظ، وفيها الأحكام، لكن لم يبين لنا منها شيئًا سوى أن إبراهيم ﷺ كان على التوحيد وعلى الملة المستقيمة، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ ذكر إبراهيم عليه السلام لأنه أبو الأنبياء، فهو أبو الأنبياء في بني إسماعيل، وأبو الأنبياء في بني إسرائيل، وهنا قدم موسى على إبراهيم، وفي سورة الأعلى قدم إبراهيم على موسى، ولا شك أن الأحق بالتقديم إبراهيم عليه السلام؛ لأنه أسبق زمنًا وأعلى مرتبة، ولكن مراعاة لفواصل الآيات قدم موسى، ولأجل الثناء الخاص بإبراهيم قدم موسى، وقوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ أي وفَّى بما أمر به ربه، ومن أعظم ما وفاه أنه أمر بذبح ابنه فامتثل أمر الله - عز وجل - وصمم على تنفيذه، حتى إنه تلَّه على جبينه ليمر السكين على رقبته، ولكن الفرج من عند الله ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧] والذي في هذه الصحف قال: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٣٨] هذه بيان ما في صحف إبراهيم وموسى ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمل إثم ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: أن الإنسان لا يحمل ذنب غيره، إلا أنه يستثنى من ذلك، إذا كان صاحب سنة آثمة فإن عليه وزرها، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، ولكن الحقيقة أن هذا لا يتحمل وزر غيره، لأن غيره قد وزر وأثم، لكن هو تحمل إثم السنة السيئة والبدء بالشر، فيكون حقيقة أنه لم يوزر وزر غيره ولكنه وزر بوزر نفسه ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وقد كذَّب الله تعالى قول الذين كفروا للذين آمنوا ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢] فقال الله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢] حتى لو قال لك القائل: «افعل هذا الذنب والإثم عليَّ» فإنه لا يتمكن من هذا، ولا يمكن، فإن فعل هذا وقيل له: «الإثم عليَّ»فالإثم على الفاعل، ثم إن كان الفاعل ممن يغتر بالقول ولا يفهم فعلى القائل إثم التغرير، أي أنه غرر وخدع ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] يعني ليس للإنسان من الثواب إلا ثواب ما سعى وما عمل، فلا يمكن أن يعطى من ثواب غيره، يعني لا يمكن أن نأخذ من أجر زيد ونعطيه عمرًا،

كما لا يمكن أن نأخذ من سيئات زيد ونضيفها إلى سيئات عمرو، فهذا لا يمكن إلا ما ورد من اقتصاص المظلوم من الظالم، فصار الإنسان مرتهن بكسبه: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨] فلا يمكن أن يؤخذ من حسناته إلى غيره، ولا أن يؤخذ من أوزار غيره فيحمل عليها إلا ما ورد من اقتصاص المظلوم من الظالم.

وقد استدل بعض أهل العلم على أنه لا يمكن أن ينتفع الميت بثواب عمل غيره، لأن الله قال: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾، وعلى هذا فلو أنك صليت ركعتين لزيد وهو ميت، أو صمت يومًا لزيد وهو ميت فإنه لا ينفعه، لعموم قوله: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ فإذا أورد عليهم أن النبي ﷺ قال: «مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ»[1] قالوا: هذا في الواجب، لأن عليه صيام وليس في التطوع، وكذلك الحج الواجب لحديث: أفحج عنه؟ قال: «نعم»[2]، وإذا أورد عليهم أن رجلًا قال يا رسول الله، إن أمي افتلتت نفسها، وأظنها لو بقيت لتصدقت أفأتصدق عنها؟ قال: «نعم»[3]، قالوا: هذا مستثنىً بالنص، وليس لنا أن نرد النص، والعام يجوز تخصيصه بحكم مخالف، وإذا أورد عليهم قول سعد بن عبادة - رضي الله عنه - في مخارفه - أي في نخله - الذي يخرف أنه يريد أن يجعله صدقة لأمه، فأجاز النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قالوا: هذا ورد به النص، وما ورد به النص فإنه لا يمكن أن يرد، لأن نصوص الشريعة الإسلامية جاءت بتخصيص العام، يعني بإخراج بعض أفراد العام، فيحكم له بحكم مخالف لأحكام العام، وعلى هذا نقول: لا يمكن أن ينتفع الإنسان بعمل غيره حيًّا كان أو ميتًا إلا ما وردت به السنة، ولا شك أن هذا القول له وجهة نظر قوية، ولكن الإمام أحمد - رحمه الله - قال: أي قربة فعلها وجعل ثوابها لميت أو حي من المسلمين فإن ذلك ينفعه، وقال: إن الذي وقع قضايا أعيان، بمعنى أن رجلًا حصلت له حادثة فسأل النبي ﷺ فأجازها، فإذا أجاز الرسول ﷺ جنس العبادات ولو كانت مالية دل ذلك على جواز جنس جميع العبادات، وقالوا أيضًا: الصيام ليس عبادة مالية، ومع ذلك قال: « مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ» وإذا أجيز هذا في الواجب، والواجب متحتم، فهو كالدين، والدين إذا قضاه الغير عن المدين أجزى، وحملوا قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ على أن المعنى أنه لا يمكن أن يأخذ من عمل غيره، لكن إذا أهدى إليه غيره

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٩٥٢)، و مسلم (١١٤٧).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣٩٩)، و مسلم (١٣٣٤).
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٧٦٠)، و مسلم (١٠٠٤).

من العمل فإنه لا بأس به، كما أن الإنسان ليس له التصرف في مال غيره، ولو أعطاه شخص مالًا لتصرف فيه، وقد نقل الجمل في حاشيته على الجلالين (الفتوحات الإلهية) في هذا الموضع عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أنه يجوز إهداء القرب وأن الميت ينتفع بذلك، وذكر لهذا أكثر من عشرين وجهًا، فمن أحب أن يراجعه فليراجعه. وعلى كل حال حتى ولو قلنا بما ذهب إليه الإمام أحمد - رحمه الله - من أي قربة فعلها الإنسان وجعلها لمسلم فإن ما عليه عمل الناس اليوم مخالف لهذا الكلام، إذ إن الناس اليوم تجدهم يهدون كثيرًا من العمل الصالح للأموات، يعتمر للميت دائمًا ويصوم عنه تطوعًا دائمًا، ويضحي عنه دائمًا، ولو ضحى لنفسه كل هذا ليس من عمل السلف، والسلف يهتدون بهدي الرسول ﷺ، وهدي النبي ﷺ هو أنه قال: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»[1] فأرشد إلى الدعاء للميت، لكن كونك كل ما سبحت قلت: اللهم اجعل ثوابه لأبي، لأمي، وكل ما عملت تقول: اجعل ثوابه إلى أبي أو إلى أمي، أو جدي، أو خالي، أو عمي فهذا غير صحيح، وأنت محتاج إلى العمل كما هم محتاجون للعمل، فلا تجعل عملك لهم، اجعل لهما ما أرشدك إليه الرسول ﷺ وهو الدعاء، أما العمل فخص به نفسك. ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم: ٤٠] ﴿سَعْيَهُۥ﴾ يعني عمله ﴿سَوْفَ يُرَىٰ﴾، وهل المراد ثواب السعي يرى في الآخرة عند الجزاء، أو أن السعي يرى في الدنيا ويعرف؟ الجواب: أن هذا عام سوف يرى في الدنيا وفي الآخرة، الذي يرى في الآخرة وفي الدنيا هو نفس العمل، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] يعني عملكم لن يخفى علي ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

وبهذه المناسبة أود أن أنبه إلى: أن بعض الناس إذا عمل عملا كمكتبة، أو مسجد، أو عمارة للفقراء أو ما أشبه ذلك كتب: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وهذا لا يجوز، لأن أحد الأطراف الثلاثة لا يمكن أن يراه، وهو الرسول ﷺ، صحيح أن الله - عز وجل - يرى والمؤمنون في هذا الوقت يرون، لكن الرسول ﷺ لا يرى، ثم هذا في المنافقين وهو تهديد لهم وليس ثناء عليهم، وعلى كل حال نقول: سعي الإنسان سوف يرى، ولكن قد يستر الله تعالى عن العبد ذنوبه فضلا منه ومنة، وإذا لاقاه في الآخرة خلا به سبحانه وتعالى وقرره بذنوبه وقال: «قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»[2]، لكن في الأصل أن سعي الإنسان سوف يرى

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٦٣١)، و الترمذي (١٣٧٦)، والنسائي (٣٦٥١)، وأبو داود (٢٨٨٠).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٦٣١)، و الترمذي (١٣٧٦)، والنسائي (٣٦٥١)، وأبو داود (٢٨٨٠).

﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٤١] أي: بعد أن يرى يجزى عليه الجزاء الأوفى، أي: الأكمل، والأوفى في الصالح زيادة المثوبة، والأوفى في السيئ العدل بحيث لا يزاد في سيئاته، وعلى هذا فالأوفى يفسر بمعنى العدل، ويفسر بالزيادة والفضل، العدل في السيئة لا يمكن أن يزاد سيئة. والفضل في الحسنات: الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] هذه الآية فيها قراءتان: القراءة الأولى فتح الهمزة: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ والثانية كسر الهمزة ﴿وإنَّ إلى ربك المنتهى﴾ وكلاهما قراءتان صحيحتان سبعيتان، إذا قرأ الإنسان بإحداهما صح، بل الأولى للإنسان الذي يعرف القراءات أن يقرأ بهذه القراءة مرة، وبهذه القراءة مرة أخرى، لكن لا يقرأ على ملأ من الناس وسماع منهم، لأن العامة إذا سمعوك تقرأ على خلاف ما يقرأون فسيحصل بذلك مفسدة، إما أن يقولوا: إن هذا الرجل لا يعرف القرآن، وإما أن يتشككوا في القرآن، حيث يظن العامي أن القرآن يمكن أن يبدل أو يغير، لذلك ننصح إخواننا الذين أعطاهم الله تعالى علمًا في القراءات أن لا يقرأوا إلا بالقراءة المعروفة عند العامة حتى لا يحصل اللبس، لكن فيما بينك وبين نفسك إذا كنت تدرك القراءة الثانية إدراكًا تامًّا فاقرأ بها أحيانًا؛ لأن الكل كلام الله ـ عز وجل ـ فإذا كانت بالكسر: ﴿وإنَّ إلى ربك المنتهى﴾ صارت هذه الجملة وما بعدها ليست في ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٩] بل تكون استئنافية، وإذا كانت بالفتح صارت الجملة وما بعدها مما جاء في صحف إبراهيم وموسى، وعلى كلٍّ فهي كلام الله عز وجل. ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ أي: المنتهى في أمور الدين والدنيا، فإلى الله المنتهى في مسائل العلم، فعندما تشكل علينا مسألة من مسائل العلم فننتهي إلى الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] والنبي ﷺ لا يقول شيئًا من عنده، إنما هو من عند الله ـ عز وجل ـ فيكون المنتهى إلى الله في الحكم بين الناس وفي الحكم للناس: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ أي منتهى الخلائق أيضًا؛ لأن هذا الخلق الموجود الآن سوف يفنى وينتقل إلى خلق آخر، كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥] والمنتهى على هذا التقدير هو يوم القيامة، فإلى الله المنتهى، وإلى الله المصير، فمنتهى أحوالنا وأحكامنا وجميع ما يصدر منا وعلينا إلى الله ـ عز وجل ـ، وإذا كان إلى الله المنتهى فإلى من تشكو إذا أصابك الضر؟ إلى الله ـ عز وجل ـ وإذا أردت النفع فتطلبه من الله عز وجل، لأنه المنتهى، وكم من إنسان انعقدت له أسباب الرزق وإذا هو يحرم منها في آخر لحظة، إذًا لا يجلب لك الخير إلا الله، ولا يمنع عنك الضرر إلا الله ـ عز وجل ـ فاجعله منتهاك في كل أمورك،

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ [النجم: ٤٣] هل المراد حقيقة الضحك، أو المراد لازم ذلك وهو الفرح؟ وكذلك يقال في أبكى: هل المراد حقيقة البكاء، أو المراد الحزن؟ إذا نظرنا إلى ظاهر اللفظ قلنا: الضحك الحقيقي، والضحك الحقيقي لا ينشأ إلا عن سرور، وأبكى البكاء الحقيقي، وهو لا يحصل إلا عن حزن، فالله تعالى أضحك في الدنيا وأبكى، وأضحك في الآخرة وأبكى، والكفار في الدنيا يضحكون على المسلمين وعلى المؤمنين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ [المطففين: ٢٩] لكن هذا الضحك سيعقبه بكاء يوم القيامة ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾ [المطففين: ٣٤] فالذي أضحك في الدنيا وأبكى والذي أضحك في الآخرة وأبكى هو الله عز وجل، إذًا هو مقدر ما يكون به الضحك، ومقدر ما يكون به البكاء، وأتى بالأمرين - وهما متقابلان - ليعلم بذلك أن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، وهو القادر على خلق الضدين، ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾ [النجم: ٤٤] أي: أمات في الدنيا وأحيا في الدنيا، وأمات في الدنيا وأحيا في الآخرة، أمات وأحيا البشر، تجد هذا تنفخ فيه الروح اليوم، فيكون الله قد أحياه، والآخر تنزع روحه من بدنه ويكون الله قد أماته، وهكذا دواليك، هو الذي أمات وأحيا، وهناك أيضًا ميتة عامة وحياة عامة، أمات العالم في الدنيا، وأحياهم في الآخرة، فهو الذي خلق الموت، وهو الذي خلق الحياة، وهذان أيضًا متضادان، حياة وموت، كلها من عند الله - عز وجل - لأن الله تعالى على كل شيء قدير، ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ﴾ [النجم: ٤٥: ٤٦]، الزوج بمعنى الصنف، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ﴾ [ص: ٥٨] أي: أصناف، وقوله تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [الصافات: ٢٢] ليس المراد زوجاتهم، بل المراد بأزواجهم، أي: أصنافهم، إذًا الزوجين يعني الصنفين، ثم بين هذين الزوجين فقال: ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾ من مادة واحدة، ﴿نُّطۡفَةٍ﴾ وهي المني ﴿إِذَا تُمۡنَىٰ﴾ أي: تراق وتصب في رحم المرأة، فالله - عز وجل - خلق هذين الصنفين المختلفين خلقًا، والمختلفين مزاجًا، والمختلفين عقلًا، والمختلفين فكرًا، خلقهما من شيء واحد من نطفة، ولهذا قال الله تبارك وتعالى في آخر سورة القيامة: ﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٩: ٤٠]؟ الجواب: بلى، فالله تعالى خلق الزوجين من شيء واحد، وهذا يدل على كمال قدرته - جل وعلا - إذ إنه خلق صنفين مختلفين في كل الأحوال: في القوة البدنية، والعقلية، والفكرية، والتنظيمية؛ يختلف الذكر عن الأنثى، وبذلك نعرف ضلال أولئك القوم الذين يريدون أن يلحقوا المرأة بالرجل في أعمال تختص بالرجل، فإنهم سفهاء العقول، ضلال الأديان، فكيف

يمكن أن نسوي بين صنفين فرّق الله بينهما خلقة وشرعًا؟ فهناك أحكام يطالب بها الرجل ولا تطالب بها المرأة، وأحكام تطالب بها المرأة ولا يطالب بها الرجل، وأما قدرًا وخلقة فالأمر واضح، لكن هؤلاء الذين لم يوفقوا وسلب الله عقولهم وأضعف أديانهم يحاولون الآن أن يلحقوا النساء بالرجال، وهذه لا شك أنها فكرة خاطئة مخالفة للفطرة، ومخالفة للطبيعة كما أنها مخالفة للشريعة ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٧] أي: على الله، وفي هذا دليل على أن الله أوجب على نفسه أن يبعث الناس، لأنه لو كان الناس يحيون ويموتون بلا إرجاع لكان هذا عبثًا محضًا؛ لأننا نعلم الآن أن الناس في الدنيا يختلفون في الغنى والفقر، والقوة والضعف، والذكاء والعقل وغير ذلك، ولو كان الخلق هكذا فقط بدون إرجاع لكان هذا منافيًا للحكمة تمامًا، لكن لابد من رجوع، ولهذا قال: ﴿وأن عليه تصدى﴾ و(على) تفيد الوجوب، فيكون الله أوجب على نفسه أن ينشأ الناس مرة أخرى، ولا مانع من أن الله يفرض على نفسه ما شاء، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] أي: أوجب على نفسه الرحمة، كذلك هنا قال: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ أي أن الله أوجب على نفسه أن ينشئ الناس نشأة أخرى للجزاء، كل بحسب عمله، والنشأة الأخرى تفيد بأن هناك نشأة قبل وهي النشأة الأولى، وهي خلق الناس، فابتداء خلق الناس من عند الله ـ عز وجل ـ وفي قوله: ﴿الْأُخْرَىٰ﴾ فائدة عظيمة وهي الإشارة إلى أن القادر على الأولى قادر على الآخرة، والنشأة الآخرة أهون من الأولى، كما قال الله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] والهين يختلف باعتبار ذاته لا باعتبار قدرة الله فإنها لا تختلف: «كن» فيكون، سواء كان أعلى شيء أو أدنى شيء، لكن بالنسبة للمقدور عليه الإعادة أهون، أما بالنسبة لقدرة الله فكلها واحد، لأن المسألة لا تعدو أن يقول: «كن» فيكون، وبهذا نعرف أن بعض المفسرين ـ رحمهم الله وعفا عنهم ـ قالوا في قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (أي: وهو هين عليه) وهذا غلط، كيف يقول الله عن نفسه: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ ويقول: وهو هين؟! لكن نقول الهون له نسبتان: نسبة للمفعول، ونسبة للفاعل، بالنسبة للفاعل هما سواء، لأن كل شيء منهما يتكون بكلمة واحدة «كن» فيكون، وبالنسبة للمفعول يختلف لا شك أن الأول أشد من الثاني.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٨] أي: أن الله تعالى هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، فهو الذي أغنى من شاء من خلقه ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ قيل: المعنى: أفقر؛ لأنها في مقابلة ﴿أَغْنَىٰ﴾ وقيل: أغنى بالكفاية، وأقنى بما زاد على الكفاية، فالله عز وجل بسط لعباده الرزق، فمنهم من أغناه عن غيره،

ومنهم من أقناه، أي: جعل له قنية وهي الزائد عن الكفاية، والقاعدة: (أن الكلمة إذا كانت تحتمل معنيين لا منافاة بينهما ولا مرجح لأحدهما على الآخر فإنها تحمل عليهما؛ لأنه أعم للمعنى)، فالذي يغني هو الله - عز وجل - والذي يقني هو الله عز وجل، وليست هذه الأصنام التي هي مناة والعزى، بل ذلك إلى الله - عز وجل -.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٩] أتى بضمير الفصل تأكيدًا للجملة، و ﴿رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ أي: هو خالقها ومالكها ومدبرها، و(الشعرى) هي النجم المضيء الذي يخرج في شدة الحر، ونص على هذا النجم؛ لأن بعض العرب كانوا يعبدونها ويعظمونها، فبين تبارك وتعالى أن (الشعرى) من جملة المخلوقات المربوبات وليست إلهًا، ولا تستحق أن تعبد، ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ أي: الله - عز وجل - ﴿أهلك عادا الأولى﴾ وهم قوم هود، و ﴿الأولى﴾ وصف كاشف، وليس وصفًا مقيدًا، يعني ليس هناك عاد أولى وعاد ثانية، بل هي واحدة، لكنها عاد قديمة سابقة، ولهذا وصفها بأنها الأولى أي: أنها القديمة السابقة وليس ثمة عاد أخرى، وهم قوم هود، وكان الله تعالى قد أعطاهم من القوة والنشاط وشدة البطش ما ليس لغيرهم، حتى إنهم قالوا: من أشد منا قوة؟! قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥] فهؤلاء القوم يفتخرون بشدتهم وقوتهم فأهلكهم الله بألطف الأشياء، أهلكهم ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦: ٧] ابتدأت من بعد الفجر وانتهت عند الغروب فصارت الأيام ثمانية والليالي سبعًا، ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ تحمل الإنسان إلى القمة ثم تقذف به على الأرض فصاروا ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ والعياذ بالله، فهؤلاء القوم مع شدة بطشهم وشدة بأسهم لم يمنعهم ذلك من عذاب الله - عز وجل -، وقوله: ﴿وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ [النجم: ٥١] أي: وأهلك ثمودًا وما أبقاهم، وثمود هم أصحاب الحجر، أرسل الله إليهم صالحًا فكذبوه، وكان الله تعالى قد أعطاهم قوة، وأعطاهم معرفة وعلمًا بهندسة البناء، لكن مع ذلك ما دفعوا ما أراد الله بهم، صيح بهم ورجفت بهم الأرض ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨] والعياذ بالله.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ [الذاريات: ٤٦] يعني وأهلك قوم نوح من قبل بالغرق، كما قال الله تعالى عن نبيهم نوح: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ [القمر: ١٠: ١١] وفي قراءة ﴿فَفَتَحْنَآ﴾ مما يدل على الكثرة وشدة الانفتاح ﴿أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ يعني

نازل بشدة: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢] الأرض كلها كانت عيونًا يعني ليس فيها موضع شبر إلا وهو يفور، حتى إن التنور الذي هو محل الإيقاد صار يفور مع أن محل الإيقاد أبعد ما يكون عن الرطوبة لكنه فار، فصارت الأرض كلها عيونًا والسماء تمطر - والتقى الماء، ماء السماء وماء الأرض - على أمر قد قدر، يعني أمر مقدر محدد بدون زيادة ولا نقص، فغرق القوم حتى بلغ الماء قمم الجبال، ويذكر أن امرأة كان معها صبي فكلما علا الماء صعدت الجبل، كلما علا الماء صعدت الجبل، حتى وصل الماء إلى قمة الجبل ووصل إلى المرأة وارتفع إلى جسدها، وكان معها صبي، فحملت الصبي على يديها ترفعه، لئلا يغرق قبلها، وجاء في الحديث: «لَوْ رَحِمَ اللهُ أَحَدًا لَرَحِمَ أُمَّ الصَّبِيِّ»(1) ، لكن إذا حقت كلمة الله فلا راد لقضاء الله تعالى، أجارني الله وإياكم من العذاب الأليم، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ [النجم: ٥٢] اختلف المفسرون في مرجع الضمير فقيل: إن الضمير يعود على قوم نوح فقط.

وقيل: إنه يعود على كل الأمم التي ذكرها الله - عز وجل - ممن أهلكهم.

فعلى القول الأول يكون المعنى: أن قوم نوح أظلم وأطغى من قوم ثمود وعاد، ووجه ذلك أنهم حصل منهم عتو واستكبار مع طول المدة، حيث إن نوحًا - ﷺ - لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، يقول الله تبارك وتعالى عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ [نوح: ٥: ٧] حتى لا يسمعوا ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ تغطوا بها حتى لا يبصروا، وهذا يدل على شدة كراهتهم لما يدعوهم إليه ﷺ، ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ أي: استكبارًا عظيمًا فلم يخضعوا لعبادة الله - عز وجل -، فكانوا أظلم وأطغى من عاد ومن ثمود.

وعلى القول الثاني: «إن الضمير يعود على كل هؤلاء الأمم» يكون المعنى: أن هؤلاء كانوا أظلم وأطغى من قريش الذين كذبوك يا محمد، فيكون في هذا تسلية للرسول ﷺ بأن الله أهلك هؤلاء القوم مع أنهم أظلم وأطغى من قومك، والذي أهلك من سبق قادر على أن يهلك من لحق، وكلا المعنيين صحيح، فهؤلاء الأمم أظلم وأطغى من قريش، وقوم نوح أظلم وأطغى من عاد وثمود، ثم قال - عز وجل -: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم: ٥٣] أي: أسقط، والمؤتفكة هي قرى قوم لوط، و ﴿أَهْوَىٰ﴾ بمعنى أنزل، واختلف المفسرون في قوله ﴿أَهْوَىٰ﴾ هل المعنى أنه

---

(1) ضعيف: أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٧٢) وقال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبي بقوله: «إسناده مظلم وموسى ليس بذاك».

أهوى بها من فوق إلى أسفل بناءً على أن الله تعالى رفع هذه القرى إلى فوق ثم قلبها، أو أن المعنى أنه أهوى أسقطها، أي: أرسل عليها الحجارة حتى تهدم البناء فصار أعلى البناء أسفله؟ المهم أن الله تعالى أخبر عن قوم لوط بأنه أهواهم أي أسقطهم، سواء من الجو، أو من سقوط أعلى البناء على أسفله، ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٤] ﴿فَغَشَّىٰهَا﴾ أي: غطاها، ﴿مَا غَشَّىٰ﴾ مبهم للتعظيم والتفخيم، كقوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨] أي غشيهم شيء عظيم، فالإبهام أحيانًا يراد به التعظيم والتهويل والتفخيم، كما في هذه الآية.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم: ٥٥] الاستفهام هنا للتوبيخ و ﴿ءَالَآءِ﴾: النعم، و ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ أي: تتشكك، أي: بأي نعم الله تتشكك أيها الإنسان، إذ إن الواجب أن الإنسان يقر بنعم الله ويشكر الله عليها، لا أن يتشكك، ويقول: هذا من عملي، هذا من كذا، هذا من كذا، كما كانت العرب تقول: مطرنا بنوء كذا وكذا، يعني بالنجم وينسون الخالق - عز وجل - ثم قال - جل وعلا -: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النجم: ٥٦] المشار إليه الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم ﴿نَذِيرٌ﴾ بمعنى منذر، والمنذر هو الذي يعلم بالشيء على وجه التخويف، لأن الإنذار هو إعلام بتخويف، والبشارة إعلام برجاء: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ ولم يقل بشير؛ لأن المقام لا يقتضي إلا ذكر الإنذار، إذ إن الله تحدث من أول السورة إلى آخرها عن قريش وتكذيبها للرسول ﷺ وعبادتها للأصنام، فيقول: محمد ﷺ ﴿نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي: من الرسل السابقين، وكما أن الذين كذبوا الرسل حل بهم العقاب والنكال فأنتم أيها المكذبون لرسول الله ﷺ يوشك أن يحل بكم النكال والعقوبة، لأن محمدًا ﷺ مثل غيره نذير من النذر، فإذا كان نذير من النذر فإن من كذبه سوف يقع به مثل ما وقع بالأمم السابقة ﴿أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ﴾ [النجم: ٥٧] أي: قربت القيامة، ومنه قول الشاعر:

أَزِفَ التَّرَحُّلُ غَيْرَ أَنَّ رِكَابَنَا ... لَمَّا تَزَلْ بِرِحَالِنَا وَكَأَنَّ قَدْ

فالآزفة هي القيامة، لأن الساعة قريبة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ فهي قريبة، ويدل لقربها أن محمدًا ﷺ خاتم الرسل، فمعناه أن الأمر قريب، وأما كون الله تعالى يذكر أن الأمر قريب وبيننا وبين نزول القرآن أربعة عشر قرنًا، ونحن في القرن الخامس عشر، ومع ذلك يذكر الله - عز وجل - أن الساعة قريبة، ومن هنا نعرف أن عُمر الدنيا طويل وبعيد، ولكن هل نأخذ بقول هؤلاء الذين يتخرصون ويقولون: عمر الدنيا الماضي كذا وكذا؟

والجواب: لا نأخذ بقولهم، ولا نصدقهم ولا نكذبهم، أحيانًا يقولون: إنهم عثروا على آثار حيوان له كذا وكذا من ملايين السنين، أو على أحجار، فهذا لا نصدق ولا نكذب، لأنهم لا يعلمون الغيب الماضي، وإنما يقيسونه بحال الحاضر، أي يقيسون عُمْر هذا الأثر بحسب المؤثرات في الوقت الحاضر، لكن من يعلمنا أن المؤثرات في الوقت الحاضر هي المؤثرات في الوقت الماضي؛ لا ندري، قد يتغير الطقس من حرارة إلى برودة، ومن برودة إلى حرارة، وقد تتغير الرياح والأمطار وغير ذلك، وما نقرأه أو نسمع به من علوم هؤلاء موقفنا نحوه أن لا نصدق ولا نكذب، أما في المستقبل فيجب أن نكذب كل من أخبر عن شيء مستقبل؛ لأنه يدعي الغيب، والله عز وجل يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] فعليه: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ [النجم: ٥٧] أي قربت القيامة، لكن هل يمكن أن نحدد مدى القرب؟ لا يمكن، ومن ادعى أنه يعلم أنه متى تقوم الساعة فإنه مكذب لله ورسوله ﷺ، أما الله فقد قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وأما الرسول ﷺ فإن جبريل لما سأله قال: «أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟» قال له النبي ﷺ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»[1] يعني إذا كنت تجهلها فأنا مثلك، فمن ادعى أن الساعة تقوم بعد مليون سنة، أو مائة ألف سنة، أو أقل، أو أكثر فإننا يجب علينا أن نكذبه، ونقول: إنه كافر، لأنه مكذب لله ورسوله ﷺ. ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٨] لها معنيان: المعنى الأول: ﴿كَاشِفَةٌ﴾ يعني مانعة، يعني لا أحد يكشفها أي: يمنعها، كما في قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢]. والمعنى الثاني: ﴿كَاشِفَةٌ﴾ يعني: عالمة تكشفها وتبينها، وعلى كل حال فلا أحد يمنع الساعة إذا شاء الله، ولا أحد اطلع على الساعة متى تكون.

﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ۝٦١ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ [النجم: ٥٩: ٦٢] الخطاب هنا للمكذبين لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والاستفهام في قوله: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ﴾ للإنكار والتعجب من هؤلاء المكذبين للرسول ﷺ الذي جاء بالآيات البينات، وأخبر عن الأمم السابقة، وبيَّن أن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم نذير من النذر الأولى، ويخشى على من كذبه أن يناله من العذاب ما نال المكذبين للنذر الأولى، يقول الله -عز وجل-: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ أيها المكذبون للنبي ﷺ، ومعنى ﴿تَعْجَبُونَ﴾ أي: ترونه عجبًا

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

منكرًا، ولهذا قالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] وقال الله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢] فهم يتخذون ما جاء به الرسول ﷺ عجبًا، والمراد: عجب الإنكار والاستبعاد، ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾: يعني استهزاء بهذا الحديث الذي هو القرآن، وكذلك يضحكون بشرائع هذا الحديث، حيث كانوا يضحكون من رسول الله ﷺ وعباداته ويسخرون به، إذًا ﴿تَعْجَبُونَ﴾ إنكارًا ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاء ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾، أي: لا تبكون من هذا الحديث خشية وخوفًا وإنابة إلى الله ـ عز وجل ـ بل هم أقسى الناس قلوبًا، ـ والعياذ بالله ـ أو من أقسى الناس قلوبا لا تلين قلوبهم ولا يبكون من خشية الله ﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ أي: غافلون بما تمارسونه من اللغو والغناء وغير ذلك، لأن منهم من إذا سمعوا كلام الله ـ عز وجل ـ جعلوا يغنون، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] فـ﴿سَامِدُونَ﴾ قيل: المعنى مغنون، وقيل: المعنى غافلون، والصواب أن المراد غافلون عنه بالغناء وغيره مما تتلهون به حتى لا تسمعوا كلام الله ـ عز وجل ـ، وهذا نظير ما قاله المكذبون لأول رسول أرسل إلى بني آدم، حيث قال الله تبارك وتعالى عن قوم نوح: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ [نوح: ٧] حتى لا يسمعوا ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ [نوح: ٧] أي: تغطوا بها حتى لا يروا ولا يبصروا ﴿وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧] فما كان في أول أمة كان في آخر أمة، ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ اسجدوا لله خضوعًا وذلًا، والمراد بالسجود هنا الصلوات كلها، وليس الركن الخاص الذي هو السجود، وليس أيضًا سجود التلاوة بل هو عام في كل الصلوات، ﴿وَاعْبُدُوا﴾، هذا عام لكل العبادات، وخص الصلاة بالذكر وقدَّمها؛ لأنها أهم العبادات البدنية الظاهرة بعد الشهادتين، وعلى هذا فيكون العطف في قوله: ﴿وَاعْبُدُوا﴾ على قوله ﴿فَاسْجُدُوا﴾ من باب عطف العام على الخاص كما أن قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤] من باب عطف الخاص على العام.

وبهذا؛ انتهى الكلام الذي منَّ الله به في تفسير هذه السورة، سورة النجم، أسأل الله تعالى أن ينفعني وإياكم به.

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة النجم



تفسير سورة القمر

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ البسملة تقدم الكلام عليها. ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] اقتربت بمعنى قربت، لكن العلماء يقولون: إن زيادة المبنى يدل على زيادة المعنى، وهنا اقتربت فيها زيادة المبنى على قربت، والزيادة: الهمزة والتاء، فيدل على أن القرب قريب جدًّا، فمعنى ﴿اقْتَرَبَتِ﴾ أي قربت جدًّا، و ﴿السَّاعَةُ﴾ هي يوم القيامة، وقد قال الله تعالى فيها: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨] أي: علاماتها، ومن علاماتها بعثة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فإن بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام وكونه خاتم الأنبياء دليل على أنه قد قربت الساعة، ولهذا حقق النبي عليه الصلاة والسلام هذا بقوله: «بُعِثْتُ أَنَا والسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»(١) وقال بإصبعه الوسطى والسبابة، والسبابة قريبة من الوسطى ليس بينهما إلا جزء يسير مقدار الظفر، وهذا يدل على قربها، لكن مع ذلك كم بيننا وبين الرسول ﷺ؟ نحن في القرن الخامس عشر الهجري بعد بعثة الرسول ﷺ بثلاث عشرة سنة، ومع ذلك ما زالت الدنيا باقية مما يدل على أن ما مضى طويل جدًّا، حتى إن الرسول ﷺ عند غروب الشمس قال: «إنه لم يبقَ مِنْ الدُّنْيا - يعني بالنسبة لمن سبقكم - إِلَّا كَمَا بَقِي مِنْ يَومِكُم هَذَا»(٢) ﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ كأن الله أشار إلى أن هذا من أشراط الساعة، ﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ والمعنى أنه صار فرقتين تميز بعضها عن بعض، أحدهما على جبل أبي قبيس، والثانية على جبل قعيقعان، يعني فلقة على الصفا وفلقة على المروة، والمسافة السماوية في رؤيا العين ما بين الصفا والمروة بعيدة جدًّا، قد تستغرق سنوات، انشق القمر بلحظة بأمر الله - عز وجل - وتباعدت أجزاؤه بلحظة، لأن قريشًا كانوا يتحدون الرسول عليه الصلاة والسلام ويطلبون منه الآيات، وقد قال الله ردًّا عليهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٠ - ٥١] لكن لم يكفهم، لأنهم معاندون لا يريدون الحق، أتوا إلى الرسول عليه

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٩٣٦)، ومسلم (٢٩٥٠).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٩٣٦)، ومسلم (٢٩٥٠).

الصلاة والسلام قالوا: يا محمد أنت تقول إنك رسول، وإنك يأتيك الخبر من السماء وكذا وكذا فأرنا آية، فأشار النبي ﷺ إلى القمر ودعا ربه فانفلق فرقتين بلحظة، ومن يفلق هذا الجسم العظيم الأفقي العالي إلا رب العالمين - عز وجل - ؟! أراهم إياه، ولكن لم ينفعهم، وقالوا: سحرنا محمد، وبعضهم قال: سحر القمر، وأنكروا، فقال بعضهم لبعض: اسألوا المسافرين إذا قدموا هل رأوه أم لا؟ فصاروا يسألون المسافرين من كل وجه: هل رأوه أم لا؟ فيقولون: نعم، رأيناه في الليلة الفلانية كذا وكذا، وهذا بالنسبة للقريبين منهم كأهل الجزيرة مثلًا، أما البعيدون فقد لا يرونه.

وكما نعلم الآن أن الليل هنا يكون نهارًا في مكان آخر، أو لوجود غيوم وضباب كثير يمنع الرؤيا؛ ولهذا لا يمكن أبدًا لأي عاقل أن ينكر انشقاق القمر انشقاقًا حسيًّا، لأنه لم يذكر في تاريخ اليونان، ولم يذكر في تاريخ الهند ولم يذكر في كذا وكذا، هذا ليس حجة يبطل به ما ثبت في «الصحيحين» وغيرهما من أن القمر انشق فعلًا انشقاقًا حسيًّا، ونحن نؤمن بأن القادر على أن يطوي السماوات بيمينه كطي السجل للكتب، قادر على أن يفرق القمر فرقتين، ولا شيء يعجزه، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤] ولهذا لا وجه لإنكار من أنكر ذلك ممن ينتسبون إلى الإسلام ويقولون: إن الأفلاك السماوية لا يمكن أن تتغير، نقول: الله أكبر، مَن الذي خلق الأفلاك السماوية أليس الله؟ بلى، إذن هو قادر على أن يغيرها ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فانشقاق القمر انشقاق حسي، انفلق فرقتين، ورآه الناس وشاهدوه، ولكن المكابر المعاند لا يقبل شيئًا، ولهذا قال: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾ [القمر: ٢] ﴿ءَايَةً﴾ نكرة في سياق الشرط، أي آية يرونها يعرضون عنها ولا يقبلونها، ويجمعون بين الإعراض وبين الإنكار باللسان، ﴿يُعْرِضُوا۟﴾ أي: بقلوبهم وأبدانهم، ويقولوا بألسنتهم: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾، أي: هذا سحر، والسحر لا يؤثر في قلب الأعيان، ولكن يؤثر في رؤية الأعيان، والدليل أن موسى عليه الصلاة والسلام لما ألقى السحرة سحرهم كان يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى حية، وانقلب الوادي كله حيات تسعى، حتى إن موسى أوجس في نفسه خيفة من هول ما رأى، لكن هذه الحبال والعصي لم تنقلب إلى حيات، لكن حسب نظر الرائي أنها حيات، فهم يقولون: سحرنا محمد حتى كانت أعيننا ترى القمر وهو واحد تراه فرقتين، ﴿وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ قيل: إن المعنى زائل ذاهب من مر بالشيء إذا تجاوزه، يقولون: هذا سحر ولن يستقر ولا قرار له، وقيل: ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ يعني أن كل

الآيات التي يأتي بها سحر، أي مستمر من مرار الشيء ودوام الشيء، وأيًّا كان فإنهم أنكروا وكذبوا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا﴾، أي: كذبوا النبي ﷺ، وكذبوا بآياته، ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٤] أي: ما يريدون من الباطل ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾، أي: كل أمر لابد له من قرار، فهؤلاء المكذبون قرارهم الذل والخسران في الدنيا، والنار في الآخرة، والنبي ﷺ ومن اتبعه أمرهم مستقر بالنصر والتأييد في الدنيا، والجنة في الآخرة، جعلنا الله منهم.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ [القمر: ٤] هذه الجملة فيها اللام و(قد)، وهما من أدوات التوكيد، وفيها قسم مقدر دلت عليه اللام في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم﴾، وعليه فتكون هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم واللام و(قد)، والله سبحانه وتعالى صادق بغير توكيد لخبره، لكن هذا القرآن بلسان عربي مبين، واللسان العربي من بلاغته تأكيد الأشياء الهامة حتى تثبت وترسخ في الذهن، ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم﴾ أي: قريشًا جاءهم من الأنباء التي فيها رشدهم وصلاحهم وفلاحهم ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي: ازدجار عن الشرك والعصيان، ولكنهم لم ينتفعوا بذلك. ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ [القمر: ٥] يعني أن الأنباء التي جاءتهم حكمة، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] والحكمة هي تنزيل الشيء منزلته اللائقة به، ولا شك أن شريعة الله حكمة كلها ومطابقة لما فيه صلاح العباد في معاشهم ومعادهم، وقوله: ﴿بَالِغَةٌ﴾ أي: تامة واصلة إلى الغرض المقصود منها ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ (ما) يحتمل أن تكون نافية، يعني أن النذر لا تغنيهم شيئًا، ويحتمل أن تكون استفهامًا على وجه التوبيخ، يعني فأي شيء تغنيهم، وكلاهما صحيح، فالنذر لم تغنهم شيئًا، وإذا لم تغنهم هذه النذر المشتملة على حكمة بالغة فأي شيء يغنيهم؟

الجواب: لا شيء، لأنهم معاندون مستكبرون، لهذا قال ـ عز وجل ـ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، الخطاب للرسول ﷺ: تول عن هؤلاء؛ لأنهم معاندون مستكبرون، سوف يأتيهم ما وُعدوا به، وسوف يتحقق لك ما وُعدت به، ويحسن أن يقف القارئ على قوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ ثم يستأنف ويقول: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ [القمر: ٦]؛ لأن القارئ لو وصل لأوهم أن التولي يكون ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾، ومعلوم أن التولي في الدنيا وليس ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾، وقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ ظرف، والظرف لابد له من عامل، كالجار والمجرور لابد له من عامل، وكجميع المفعولات لابد لها من عامل، فما هو العامل؟ العامل قوله: يخرجون ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ﴾ [القمر: ٧] فهي متعلقة بـ﴿يَخْرُجُونَ﴾ أي: سوف يأتيهم العذاب في ذلك

الوقت يوم ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾، وقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾ هو داعي يوم القيامة ﴿إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾ أي: منكر عظيم لشدة أهواله، فإنه لا شيء أنكر على النفوس من ذلك اليوم؛ لأنهم لم يشاهدوا له نظيرًا ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ يعني أن أبصارهم خاشعة ذليلة، كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥] هم الآن مستكبرون رافعو رؤوسهم، يرون أن الناس تحتهم، وأنهم فوق الناس، لكن سيأتي اليوم الذي يكونون بالعكس ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾، الأجداث هي القبور، والجراد المنتشر هو المنبث في الأرض الذي لا يدري أين وجهه ليس له طريق قائمة، لا يعرف كيف ينتهي، ولكنهم منتشرون، وهذا من أدق التشبيهات، لأن الجراد المنتشر تجده يذهب يمينًا ويسارًا لا يدري أين يذهب، فهم سيخرجون من الأجداث على هذا الوجه، بينما هم في الدنيا لهم قائد، ولهم أمير، ولهم موجِّه يعرفون طريقهم، وإن كان طريقًا فاسدًا، ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [القمر: ٨] يعني أنهم مسرعون خاضعو الأعناق، كالرجل إذا أسرع وركض تجده يقدم رأسه يخضعه، فهم يخرجون من الأجداث مهطعين إلى الداعي، أي مسرعين خافضو رؤوسهم من الفزع والهول والشدة، ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ وتأمل قوله: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ﴾ ولم يقل: يقول الناس، لأن هذا اليوم العسر لا شك أنه في حد ذاته عسر شديد عظيم ولكنه على الكافرين عسير، وعلى المؤمنين يسير، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦] وقال تعالى: ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ١٠] وأما على المؤمنين فهو يسير، ولله الحمد جعلنا الله منهم.

ثم بدأ الله ـ عز وجل ـ بقصص الأنبياء على وجه مختصر في هذه السورة، لكنه مؤثر تأثيرًا بالغًا، لو قرأتها بتمهل وتدبر لوجدت أنها مؤثرة جدًّا، كلمات مختصرة لكنها رادعة تمامًا ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [الحج: ٤٢] ونوح هو أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض بدلالة القرآن والسنة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦] وبهذا نعرف أن ما ذكره بعض المؤرخين من أن إدريس هو الجد لنوح، كذب لا شك فيه، وليس قبل نوح رسول وفي حديث الشفاعة التصريح بأنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، ولذلك كان من عقيدتنا أن أول الرسل نوح، وأن آخر الأنبياء والرسل محمد ﷺ، ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [الحج: ٤٢] لم يفصل الله عز وجل هذا التكذيب، لكنه أنزل في ذلك

سورة تامة وهي سورة نوح، فصل الله فيها تفصيلا تامًّا في تكذيبهم وأخذهم، ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ وهو نوح وصفه الله بالعبودية، لأن العبودية أشرف ألقاب البشر، وهي التذلل لله بالطاعة والإنابة والتوكل وغير ذلك، والعبودية من حيث هي ثلاثة أنواع:

النوع الأول: عبودية عامة: تشمل جميع الخلق، وهي التذلل للأمر الكوني كقوله تبارك وتعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]. أي: ما كل من في السموات والأرض إلا هذه حاله: أنه آتي الرحمن عبدًا، وهذه العبودية للأمر الكوني، لأن أمر الله عز وجل الكوني لا يمكن لأحد أن يفر منه، مهما كانت قوته.

النوع الثاني: العبودية الخاصة بالمؤمنين: مثل قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] فهذه عامة لكل مؤمن.

الثالث: العبودية الخاصة بالأنبياء: وهذه مثل قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، ومن ذلك هذه الآية: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾.

وقد لبث فيهم نوح عليه الصلاة والسلام ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله، لكنهم كلما دعاهم إلى الله ليغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا قوله، واستغشوا ثيابهم حتى لا يروه، ولا أبلغ من هذا الاستكبار أن يضع الإنسان يده في أذنيه حتى لا يسمع قول الداعي، وأن يستغشي ثوبه فيتغطى به حتى لا يراه ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾ المجنون فاقد العقل الذي يهذي بما لا يدري قالوا: إنه مجنون، وهذه القولة قيلت لكل الرسل، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ و(أو) هنا إما للتنويع يعني بعضهم يقول: ساحر، وبعضهم يقول: مجنون، أو أنها للتنويع يعني بمعنى أن بعض المكذبين يقول: ساحر، وبعضهم يقول: مجنون، أو أنهم يقولون هذا وهذا. ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ أي: زجر زجرًا شديدًا، والزجر هو النهر بشدة وعنف، والدال هنا منقلبة عن تاء، وقد قال العلماء: إن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، والمعنى: أنه زجرٌ شديدٌ، وقوله: ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ ينبغي ألا توصل بما قبلها، لأنك لو وصلت وقلت: ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ لتوهَّم السامع أنهم يقولون: مجنون وازدجر، يعني زجره غيرنا، لكن المعنى خلاف ذلك، المعنى كذبوا وازدجروه، فإذن الأولَى أن تقف على قوله: ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾ ثم تصل وتقول: ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ فيكون هنا لم يقتصر هؤلاء المكذبون على أن كذبوا بل كذبوا وزجروا وتوعدوا وسخروا.

ولما طال الأمد ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠] الله أكبر، كلمتان ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ ولقد دعا من هو أهل للإجابة - جل وعلا - فأجاب الله قال: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ [القمر: ١١]، وفي قراءة ﴿فَفَتَّحْنَا﴾ وكلاهما حق، وينبغي لمن علم القراءة الأخرى أن يقرأ بهذه تارة وهذه تارة، بشرط ألا يكون ذلك بحضرة العوام، لأن العوام لا ينبغي أن تقرأ عليهم قراءة خارجة عن المصحف الذي بأيديهم فتحدث لهم تشويشًا، وربما تهبط منزلة القرآن في نفوسهم، أو ينسبوك إلى الغلط والتحريف، لكن عند طلبة العلم وعند التعليم أو بينك وبين نفسك ينبغي أن تقرأ بالقراءات الثابتة مرة بهذه ومرة بهذه، كما نقول هذا أيضًا في العبادات المتنوعة تفعل هذه مرة وهذه مرة، كالاستفتاحات ونحوها، ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كل باب في السماء انفتح ﴿بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ أي: منصب صبًّا شديدًا، فكان كأفواه القِرَبِ، ليس كالذرات المعروفة، بل أشد، ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾، أي عيونًا من المياه، وتأمل قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ ولم يقل: فجرنا عيون الأرض، كأن الأرض كلها كانت عيونا متفجرة، حتى التنور الذي هو أبعد ما يكون عن الماء لحرارته ويبوسته صار يفور، كما قال الله - عز وجل -: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠] وفي هذا من الدلالة على قدرة الله تبارك وتعالى ما لا يخفى، وأن هذه الفيضانات التي تحدث إنما تحدث بأمر الله - عز وجل - وليست كما قال الطبيعيون: إنها من الطبيعة، يقولون: هاجت الطبيعة، غضبت الطبيعة، وما أشبه ذلك نسأل الله العافية، بل هي بأمر من يقول للشيء «كن» فيكون، ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢] هنا ماءان: ماء نازل من السماء دل عليه قوله: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾، وماء من الأرض نابع دل عليه قوله: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾، فلماذا لم يقل: فالتقى الماءان، لأن المراد ماء السماء وماء الأرض؟ قال العلماء: إنه أراد الجنس، لأن الجنس هنا واحد، ماء الأرض وماء السماء، أو يقال: لأنه لما كان المقصود بهذين الماءين شيئًا واحدًا وهو عذابهم صح إفراده ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي: على شيء قد قضاه الله تعالى وقدره في الأزل، فإنه ما من شيء يحدث إلا وهو مكتوب، قال الله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢] يعني من أعمال بني آدم، ومما يقع في الأرض كل شيء محصى، ولهذا قال ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾.

وقوله: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر: ١٣] أي: حملنا نوحًا وأهله إلا من سبق عليه القول منهم، وأمره الله تعالى أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ومن آمن معه، وما آمن معه إلا قليل، حمله الله على ذات ألواح ودسر، يعني على سفينة ذات ألواح ودسر، وكان نوح عليه

الصلاة والسلام يصنعها، فيمر به قومه ويسخرون منه قال الله عز وجل: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٨: ٣٩] وهذه السفينة وصفها الله بأنها ذات ألواح، و ﴿أَلْوَٰحٍ﴾ جمع منكر يدل على شيئين:

الشيء الأول كثرة ألواحها.

والثاني: عظمة هذه الألواح، ومتانتها.

وحق لسفينة تحمل البشر على ظهرها أن تكون ذات ألواح عظيمة ﴿وَدُسُرٍ﴾ أي: مسامير، وقيل: إن الدسر ما تربط به الأخشاب فيكون أعم من المسامير، لأن الأخشاب قد تُربط بالمسامير وقد تُربط بالحبال، فالمهم أن توثيق هذه الألواح بعضها ببعض كان قويًّا، وإنما ذكر الله سبحانه وتعالى مادة صنع السفينة، وأنها من الأخشاب والمسامير، أو الروابط التي تربط بين تلك الأخشاب؛ ليكون ذلك تعليمًا للبشر أن يصنعوا السفن على هذا النحو ﴿تَجْرِى﴾ أي: تسير على هذا الماء العظيم الذي بلغ قمم الجبال، والتقى فيه ماء الأرض وماء السماء، ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: ونحن نراها بأعيننا، ونكلؤها ونحفظها، والباء في قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ للمصاحبة يعني أن عين الله - عز وجل - تصحب هذه السفينة، فيراها الله - عز وجل - ويكلؤها ويحفظها، لأنها سفينة بنيت لتقوى الله - عز وجل - وإنجاء أوليائه من الغرق، الذي شمل أعداءه ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي: مكافأة لمن كان كُفِر به وهو نوح عليه الصلاة والسلام - لأن قومه كفروا به وكذبوه - فبين الله - عز وجل - أن إنجاء نوح بهذه السفينة كان جزاء له، والله سبحانه وتعالى يجزي المحسنين أكثر من إحسانهم ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾ [القمر: ١٥] الضمير (هاء) اختلف فيها المفسرون وقيل المعنى: ولقد تركنا هذه القصة - وهي قصة نوح - وإغراق قومه، أبقيناها آية لمن يأتي بعدهم، والوجه الثاني: ولقد تركناها، أي: السفينة، والمراد الجنس، أي جنس هذه السفينة أبقيناها آية لمن بعد نوح، وكلا الأمرين محتمل، والقاعدة في التفسير: (أن الآية إذا احتملت معنيين لا ينافي بعضهما الآخر، وليس أحدهما بأرجح من الآخر، فإنها تُحمل على المعنيين جميعًا) فنقول: إن الله ترك القصة آية وعبرة لمن يأتي بعد نوح، وترك السفينة آية وعبرة يصنع مثلها من يأتي بعده، ويدل لهذا القول وأنه غير ممتنع أن الضمائر أحيانًا تعود إلى الجنس لا إلى الفرد، نظير قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٣] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ المراد بالإنسان آدم، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً﴾ ليس آدم هو الذي

جُعل نطفة في قرار مكين، بل الإنسان الذي هو جنس آدم، وهم بنو آدم، ومثل ذلك عند بعض العلماء قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥] فليست المصابيح التي في السماء هي التي ترجم الشياطين، ولكنها شهب تخرج منها فترجم الشياطين.

وقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ الاستفهام هنا للتشويق، يعني هل أحد يدَّكر ويتعظ بما جرى للمكذبين للرسل من إهلاكهم وتدميرهم، وقيل: إن الاستفهام للأمر، وأن المعنى فادكروا، وسواء قلنا للتشويق أو للأمر، فإن الواجب علينا أن نتذكر وأن نخشى من عقاب الله تبارك وتعالى، وعقاب الله تعالى لهذه الأمة خاصة لا يمكن أن يشملهم جميعًا، لكن قد يشمل مناطق معينة تؤخذ بالعذاب بما فعل السفهاء منهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥] ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٦] (كيف) هنا للتفخيم والتعجب، يعني: ما أعظم العذاب والنذر! وقيل: إن الاستفهام للتقرير، يعني أن الله يقررنا بالعذاب وبالنذر، لكن المعنى الأول أقرب للتفخيم والتعظيم، أي: ما أعظم عذابي النازل بأعدائي، وما أعظم نذري التي تنذر وتخوف من العقاب أن ينزل بمن خالف، فهذا العذاب الذي حصل لقوم نوح عذاب يعتبر من النذر المخوفة لنا من مخالفة أمر الله ورسوله ﷺ، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧] يعني سهلنا، والقرآن هو كتاب الله الذي نزل على محمد ﷺ، وسمي قرآنًا، لأنه يُقرأ أي يتلى، وقوله: ﴿لِلذِّكْرِ﴾، قال بعضهم: للحفظ، وأن القرآن ميسر لمن أراد أن يحفظه، وقيل: يسر معانيه لمن تدبر، ويسر ألفاظه لمن حفظ، وقيل: المراد بالذكر الادكار والاتعاظ، يعني أن من قرأ القرآن ليتذكر به ويتعظ به سهل عليه ذلك واتعظ وانتفع، وهذا المعنى أقرب للصواب بدليل قوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ يعني: هل أحد يدكر، مع أن الله سهل القرآن للذكر، أفلا يليق بنا وقد سَّهل الله القرآن للذكر أن نتعظ ونتذكر؟ بلى هذا هو اللائق، فهل من مدكر.

وقوله: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ [القمر: ١٨] هذه هي الأمة الثانية ممن قصهم الله علينا في هذه السورة الكريمة، وعاد تتلوا قوم نوح غالبًا، وقد تتقدم عليها كما في سورة (الذاريات)، ولكن الغالب أن قصة نوح هي الأولى في قصص الأنبياء؛ لأنه أول نبي أرسل إلى أهل الأرض، وعاد هم قوم هود، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠] كذبوا نبيهم هودًا عليه الصلاة والسلام، وكانوا أقوياء أشداء، وكانوا يفتخرون بشدتهم وقوتهم، ويقولون: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:

١٥]، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [فصلت: ١٥ ـ ١٦] يقول هنا: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٨]، والجواب: كان شديدًا عظيمًا واقعًا موقعه، فالاستفهام للتفخيم والتعظيم والتقرير، وهو أن عذاب الله كان عظيمًا، وكان واقعًا موقعه، ﴿وَنُذُرِ﴾ يعني: آياته، كذلك كانت عظيمة واقعة موقعها، فبماذا أهلكهم الله؟ أهلكهم الله بألطف شيء وهو الريح التي تملأ الآفاق، ومع ذلك لا يحس الإنسان بها، لأنها سهلة لينة يخترقها الإنسان بسهولة، مكاننا الذي نحن فيه مملوء بالهواء ومع ذلك نخترقه ولا نحس به، فهي من ألطف الأشياء، فأهلك الله عادًا الذين يفتخرون بقوتهم بهذه الريح، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩] الجملة هنا مؤكدة بـ(إن) و ﴿أَرْسَلْنَا﴾ يعني: الرب ـ عز وجل ـ نفسه، وجمع الضمير للتعظيم ﴿عَلَيْهِمْ﴾، أي على عاد ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾، أي: ذات صرير لقوتها وشدتها، حتى إن مجرد نفوذها يسمع له صرير، وإن لم تصطدم بما يقتضي الصرير، لأنها قوية جدًّا، وهي الريح الغربية، أتت من جهة الغرب لـ(عاد)، فقالوا: هذا عارض ممطرنا. وكانوا قد أجدبوا قبل ذلك سنوات، فلما أقبلت بسوادها وعظمتها وزمجرتها قالوا: هذا عارض ممطرنا، ولكن الأمر كان بالعكس، كانت ريحًا فيها عذاب أليم، كانت ريحًا عقيمة ليس فيها مطر، ولا يرجى أن يأتي منها مطر، ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾، أي: في يوم شؤم مستمر بالنسبة لـ(عاد)، وليس كل وقت، فاليوم الذي أهلكوا فيه ليس هو نفسه نحسًا مستمر، ولكنه بالنسبة لهؤلاء كان يوم نحس مستمرًّا، كما قال الله تعالى عن قوم نوح: ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ هؤلاء أهلكوا بالريح فأدخلوا النار، فالنحس أي الشؤم كان مستمرًّا معهم، فعذاب الآخرة متصل بعذاب الدنيا ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ﴾ [القمر: ٢٠] أي: تأخذهم بشدة وقوة وترفعهم إلى السماء ـ نسأل الله العافية ـ، حتى قال بعضهم: ترفعهم حتى يغيب الإنسان عن الرؤية من علوه، ثم تطرحه في الأرض، وإذا سقطوا على الأرض سقطوا على أم رؤوسهم ثم انفصل الرأس عن الجسد من شدة الصدمة، تنزع الناس ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في حال سقوطهم الأرض ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾، أعجاز أي أصول، والنخل معروف، والمنقعر الساقط من أصله، يعني كأنهم نخل سقط من أصله بقيت جثته، وصاروا كأعواد النخل؛ لأنه ليس لهم رؤوس على ما قال المفسرون، حيث إن رؤوسهم انفصلت من شدة الصدمة، فسبحان القوي العزيز، هؤلاء القوم الأشداء الأقوياء وصلوا إلى هذه الحال بريح من عند الله ـ عز وجل ـ تنزع الناس: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾.

وهنا قال الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾، وفي (الحاقة) قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧]، والمعنى متقارب، لكن من بلاغة القرآن أن يجري الكلام فيه على نسق واحد، فهناك ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ مناسب للفواصل التي في (الحاقة)، أما هنا ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ مناسب للفواصل التي في سورة (القمر)، لأن تناسب الكلام واتساقه من كمال بلاغته ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾، كرر الله تعالى هذا عند آخر كل قصة من أجل أن نحرص على التذكر بالقرآن، وتدبر القرآن، وتفهم القرآن؛ لأنه ميسر، والجملة مؤكدة بمؤكدات ثلاثة: القسم، واللام، و(قد)، مما يدل على الترغيب في تذكر القرآن والتذكر به، فهل من مدكر، نرجو الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من المذكرين بكتاب الله ـ عز وجل ـ.

وقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: ٢٣] أي: بما جاءهم من النذر، وهي الآيات التي جاء بها صالح عليه الصلاة والسلام، وديارهم معروفة الآن ببلاد الحجر في طريق تبوك من المدينة، وكان صالح عليه الصلاة والسلام أرسل إلى قومه، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له كسائر الأنبياء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦] أرسله الله عز وجل إلى قومه، وأعطاه آية وهي ناقة لها شرب ولهم شرب، أي أن بئر الناقة الكبير الغزير الماء، وقد ذكروا أنها إذا شربت إناء من الماء فإن الذي يسقيها إناء من الماء يحلب من لبنها بقدر ما أسقاها، وهذا من آيات الله أن ناقة تشرب ماء ثم تخرجه في الحال لبنًا، فإن هذا ليس له عادة، ولكنها آية من آيات الله ـ عز وجل ـ أراهم الله تبارك وتعالى إياها حتى يعتبروا، لأن الله لم يرسل رسولًا إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، رحمة منه وحكمة، لأنه لا يعقل أن رجلًا من بين الناس يأتي ويقول: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٦]. إلا إذا أتاه الله آيات تدل على صدقه. قال العلماء: وما من آية أوتيها نبي من أنبياء الله السابقين إلا كان لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم مثلها أو أشد، ولكن قد تكون غير متوفرة في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ولكنها موجودة في أمته الذين اتبعوه، ولهذا كان من القواعد المقررة عند العلماء: (أن كل كرامة لولي فهي آية للنبي الذي اتبعه)، لأن هذه الكرامة تشهد بصدق ما كان عليه الولي، وهذا الولي تابع لرسول سابق، فيكون في ذلك آية على أن هذا الشرع الذي عليه هذا الولي حق، وهذه تكون

آية للنبي، وعليه فنقول: من آيات موسى أنه يضرب الحجر، وإذا ضربه انفجر عيونًا، تنبع ماء من حجر يابس، فهل كان لرسول الله ﷺ مثله؟

الجواب: كان له أعظم، فإن النبي ﷺ جيء إليه بقدح من ماء وليس مع الناس ماء إلا ما في هذه الركوة فوضع يده فيه، فجعل الماء ينبع من بين أصابع يده كالعيون[1]، سبحان الله، وهذا أعظم من آية موسى، لأن آية موسى يخرج الماء من الحجر، وخروج الماء من الحجر معتاد، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [البقرة: ٧٤] لكن لم تجر العادة أن يخرج الماء من الإناء الذي بينه وبين الأرض فاصل إذن هذه أعظم، وموسى عليه الصلاة والسلام ضرب البحر فانفلق فكان أسواقًا يابسة، وهذه لا شك آية عظيمة، وجرى لهذه الأمة أعظم من هذه، مشوا على الماء دون أن يضرب لهم طريق يبس، مشوا على الماء المائع الهين الذي يغوص فيه من يقع فيه، مشوا بدوابهم وأرجلهم ولم يغرقوا، وذلك في قصة العلاء بن الحضرمي[2]، وفي قصة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم، مشوا على الماء، وهذا أعظم من أن يمشوا على الأرض التي تفرق عنها الماء، وآية صالح عليه السلام هذه الناقة لها شرب ولثمود شرب، لها يوم ولهؤلاء يوم، وقد وقع مثلها لرسول الله عليه الصلاة والسلام في الهجرة، فإنه مر براعي غنم وعنده ماعز أو ضأن ليس فيها لبن، فمسح النبي ﷺ ضرعها فجعلت تبش من اللبن[3]، فالمهم أنه ما من نبي بعثه الله إلا أعطاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، قلنا: هذا رحمة وحكمة: رحمة بالناس من أجل أن تحملهم هذه الآيات على التصديق فينجو من عذاب الله، وحكمة، لأنه ليس من الحكمة أن يقوم إنسان من بين الناس ويقول: «أنا رسول الله». حتى يؤتى آيات. يقول عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ النذر جمع نذير، والمراد به الآيات التي أوتيها صالح عليه الصلاة والسلام، فقالوا من جملة ما قالوا في تكذيبهم: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ [القمر: ٢٤] أنكروا الآيات وما كأنها أتت، يعني أنتبع بشرًا منا واحدًا، لا نقبل، وهذا النفي بمعنى الإنكار، يعني لا يمكن أن نتبع واحدًا منا ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ يعني: إنا إن اتبعناه لفي ضلال وسُعُر، أي لفي جهل وفي عذاب، كأنه وعدهم بأنهم إن اتبعوه اهتدوا ونجوا من النار، فقالوا بالعكس: لو اتبعناه لضللنا واحترقنا بالسعر بالنار، عكس ما قال، وهذا من أشد المراغمة للرسل عليهم الصلاة والسلام، والمحادة لله

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٩٣٦)، ومسلم (٢٩٥٠).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٨/ ٩٥)، وفي «الأوسط» (٤/ ١٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٨).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٧٣)، وابن حبان في «صحيحه» (١٤/ ٤٣٢).

تبارك وتعالى، ﴿أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥] هذا أيضًا استفهام احتقار، يعني كيف يلقى الذكر عليه من بيننا، ما الذي ميزه، وكل ما ذكروا شبهات، لا دلالات، فكونه بشرًا لا يمنع أن يكون رسولًا، بل لابد أن يكون رسول البشر بشرًا، لأن الله قال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٨ ـ ٩] يعني لو أرسلنا ملكًا للزم أن نجعله في صورة البشر حتى يمكن أن يختلط بالناس ويأتلف بهم، وإذا جعلنا الملك بشرًا لبسنا عليهم ما يلبسون، فعادت المسألة مختلطة.

الشبهة الثانية: أنه منا لا يتميز علينا بشيء، **الثالثة**: أنه واحد لم يؤيد، والله عز وجل يقول: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٣ ـ ١٤] وهؤلاء يقولون: واحد لابد يعزز بثانٍ وثالث، **الرابعة**: أألقي الذكر عليه من بيننا؟ يعني كيف يلقى عليه الذكر والوحي من بيننا؟ هذا لا يمكن، أربع شبهات وهم يرونها حججًا توجب رد صالح عليه الصلاة والسلام، والواقع إنها ليست بحجج، بل هي شبه وتضليل، وهكذا المبطلون في كل زمان ومكان يوردون الشبه على الحق، ولكن الله سبحانه وتعالى لابد أن يبين الحق، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيي عن بينة، ثم قالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ ﴿بَلْ﴾ هنا لإبطال دعواه أنه حق ﴿كَذَّابٌ﴾ صيغة مبالغة وفي نفس الوقت وصف، لأن كلمة فعال تأتي للمبالغة وتأتي للوصف، فإذا قلت: فلان نجار، يعني من النجارين، وإن لم ينجر إلا مرة واحدة، وإذا قلت: «فلان نجار» لكثرة النجارة صارت مبالغة، فهم يرون ـ والعياذ بالله ـ أنه كذاب موصوف بالكذب، ليس له صفة إلا الكذب، وكثير الكذب أيضًا ﴿أَشِرٌ﴾ أي: بطر متعال، متعاظم مستكبر، مدعٍ ما ليس له، قال الله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ [القمر: ٢٦] سيعلمون غداً أي: يوم القيامة، والسين هنا للتحقيق والتقريب، لأنك إذا قلت :«سيقوم زيد» فهذا تأكيد وتقريب أيضًا.

فإذا قال قائل: التقرير معروف أن الساعة آتية لا ريب فيها، لكن كيف التقريب؟

قلنا: إن الله يقول: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣] ومن الأمثال العابرة (كل آت قريب)، والذي بقي عليه ألف سنة أقرب من الذي لم يمض عليه إلا عشر دقائق، لأن الذي مضى عليه عشر دقائق لا يمكن أن يرجع، لكن المستقبل لابد أن يأتي، ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ وسمي يوم القيامة ﴿غَدًا﴾ لأنه يأتي بعد يومه، ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾، أصالح هو أم هؤلاء الكذاب الأشر، وهذا وعيد عظيم، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ

يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] والإنسان في غفلة عن هذا اليوم العظيم، قال الله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [المؤمنون: ٦٣] يعني من عمل الآخرة، ﴿فِي غَمْرَةٍ﴾ مغطاة عن عمل الآخرة، ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٣] يعني أعمال الدنيا هم لها عاملون، وأتى بجملة اسمية يعني أنهم محققون للعمل فيها لا يتركونها ولا يفرطون فيها، وأما الآخرة فهم في غفلة منها ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ ﴿إِنَّا﴾ يعني نفسه - جل وعلا - وأتى بصيغة الجمع تعظيمًا له - جل وعلا - لعظمة صفاته، وكثرة كلماته، وكثرة جنوده، فلذلك يكني عن نفسه بصيغة التعظيم، ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾، يعني باعثوها فتنة لهم واختبارًا، هل يؤمنون أو لا يؤمنون، فلم يؤمنوا، وفي هذا إشارة إلى أن الله تعالى قد يظهر للإنسان من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، حتى إذا استكبر كان استكباره عن علم، فكان عقابه أشد وأوجع، ولهذا جعل الله الناقة فتنة، لأنها أظهرت الحق لهم، ولكن لم يقبلوه، وانتبه لهذا الاستدراج من الله - عز وجل - إذا يسر الله لك أسباب المعصية، فلا تفعل، فإن الله ربما ييسر أسباب المعصية للإنسان فتنة له، أرأيتم أصحاب السبت من بني إسرائيل يُسرت لهم أسباب المعصية فتنة، وهي أن الله حرَّم عليهم صيد السمك يوم السبت فكانت الحوت تأتي يوم السبت شرَّعًا على وجه الماء وبكثرة عظيمة، لكنهم ملتزمون لم يصيدوا السمك في يوم السبت، فلما طال عليهم الأمد عجزوا عن ملك أنفسهم، فرجعوا إلى طبيعتهم وهي الغدر والحيلة والمكر، فاحتالوا على صيد السمك، صاروا يجعلون شباكًا يوم الجمعة فتأتي الحيتان وتدخل في الشباك، فإذا كان يوم الأحد أخذوا الحيتان، وهذه حيلة واضحة، فقلبهم الله قردة، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥] وفي صدر هذه الأمة حرم الله على المحرمين الصيد ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: ٩٥] فبعث الله الصيد عليهم وهم محرمون تناله أيديهم ورماحهم، يعني أن الذي يمشي على الأرض يمسكونه باليد مثل الأرنب والغزال يمسكه الواحد باليد. والطائر الذي كان لا ينال إلا بالسهم لأنه بعيد، صار يطير وكأنه على الأرض، الرمح يدركه، فتنة، فهنا يسر الله لهم أسباب المعصية، لكن الصحابة - رضي الله عنهم - وهم خير الناس لم يأخذ أحد منهم صيدة واحدة رضي الله عنهم، بينما بنو إسرائيل تحيلوا وخادعوا الله، أما سلف هذه الأمة - وفقنا الله لموافقتهم في الدنيا في أعمالهم وفي الآخرة في مساكنهم - فإنهم لم يأخذوا.

وهذه الناقة أرسلها الله تعالى فتنة لثمود لكن ما أغنتهم ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ [القمر: ٢٧] أي: ارتقب عذابهم، أو ارتقب أفعالهم، وانظر ماذا يفعلون ﴿وَاصْطَبِرْ﴾

يعني اصبر، وأصل (اصطبر): (اصتبر) بالتاء للمبالغة، لكن قلبت التاء طاء لعلة تصريفية اقتضتها اللغة العربية، يعني أن الله قال لرسولهم صالح عليه السلام: ارتقب هؤلاء واصطبر فالنصر قريب، ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ [القمر: ٢٨]، أخبرهم أن الماء قسمة بينهم كل له شرب وللناقة شرب، ولهذا قال: ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾، يعني كل شرب يحضره من يستحقه، إما الناقة وإما هم، وبقوا على هذا لكن لم يستمروا، ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ﴾ الذي يرونه قويًا شجاعًا، وقالوا له: هذه الناقة ضايقتنا لو أننا عقرناها لكنا نشرب كل يوم، فطلبوا منه أن يعقرها ـ نسأل الله العافية ـ وهذا الصاحب القوي الشجاع الذي يرونه أشد منهم إقدامًا، بقطع النظر عن اسمه، فبعض المفسرين سماه، لكن لا يهمنا؛ لم يتأخر، بل بادر ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ تفاعل من العطاء يعني: بذل نفسه وبسرعة، ويدل على السرعة الفاء في قوله: ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ من حين نادوه وافق، ﴿فَعَقَرَ﴾ عقر الناقة ـ نسأل الله العافية ـ قطع أطرافها أولًا، ثم نحرها ثانيًا، وهي من آيات الله ـ عز وجل ـ ومن مصالحهم ـ لكن نسأل الله العافية ـ نفوسهم لا تقبل، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٠] يقول الله ـ عز وجل ـ مخاطبًا الإنسان: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾؟ هل وقع موقعه؟ وهل كان شديدًا؟ الجواب: نعم، كان في موقعه، وكان شديدًا، ما هذا العذاب؟ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١] صِيحَ بهم ـ والعياذ بالله ـ مع الرجفة، ففي السماء أصوات، وفي الأرض رجفان، أخذتهم الرجفة والصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، كأنهم لم يغنوا فيها، كأنهم ما وجدوا ﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ يعني الحضار يجعله الإنسان لغنمه فالأعرابي في البادية يجعل على الغنم حضار من الشجر اليابس ومن عسب النخل، وما أشبه ذلك، لئلا تخرج، ولئلا تعدو عليها السباع. هذا الحضار مع طول الزمن والشمس والرياح يتفتت حتى يتلاشى، كان هؤلاء الأقوياء الأشداء المكذبين لرسولهم كانوا كهشيم المحتضر، أي كالحضار حينما يتلف، وهذا من آيات الله ـ عز وجل ـ وتمام قدرته وسلطانه ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] فكانوا كهشيم المحتضر ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ سبق تفسيرها، والمعنى أن الله تعالى يسر القرآن، أي يسر معانيه لمن تدبره، ويسر ألفاظه لمن حفظه، فإذا اتجهت اتجاهًا سليمًا للقرآن للحفظ يسره الله عليك، وإذا اتجهت اتجاهًا حقيقيًا إلى التدبر وتفهم المعاني يسره الله عليك، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ و(هل): للتشويق، يشوقنا الله ـ عز وجل ـ إلى أن نذكر القرآن فنتعظ به، جعلنا الله ممن يتلونه حق تلاوته لفظًا ومعنى وعملًا، إنه على كل شيء قدير.

وقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ﴾ [القمر: ٣٣] قوم لوط هم أناس كفروا بالله - عز وجل - وأشركوا به، وكان مما اختصوا به من المعاصي هذه الفعلة القبيحة الشنيعة وهي اللواط، أي إتيان الذكر، وحذرهم نبيهم من هذا وقال لهم: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥ - ١٦٦] ولكنهم - والعياذ بالله - استمروا على هذا حتى جاءهم العذاب ﴿بِالنُّذُرِ﴾ النذر: جمع نذير، وهي الكلمات التي أنذرهم بها لوط عليه الصلاة والسلام، وجمعها يدل على أنه كان يكرر عليهم هذا، ولكنهم أبوا وأصروا على هذا الفعل، فبين الله عقوبتهم بقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤] ﴿حَاصِبًا﴾ أي: شيئًا يحصبهم من السماء، أمطر الله عليهم حجارة من سجيل، فهدمت بيوتهم حتى كان عاليها سافلها، لأن البناء إذا تهدم صار أعلاه أسفله ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾، آل لوط هم أهل بيته إلا زوجته كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥ - ٣٦] وانظر نبي يبعث إلى قومه ولم يتبعه إلا آل بيته إلا امرأته أيضًا فكانت كافرة ومع ذلك فهو صابر حتى أذن له بالخروج ﴿نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ أي: في السحر بالصباح، وذلك أن هؤلاء القوم أخذهم العذاب صباحًا، كما ابتدأ عذاب عاد بالصباح، سبع ليال وثمانية أيام حسومًا، لأنه ابتدأ بالصباح فأخذهم العذاب - والعياذ بالله - في الصباح، فأهلكهم الله ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾، أي: أنعمنا على آل لوط نعمة من عند الله - عز وجل - من وجهين:

الوجه الأول: أن الله أنجاهم.

والوجه الثاني: أن الله أهلك عدوهم، لأن إهلاك العدو من نعمة الله، فصارت نعمة الله على آل لوط بالنجاة وإهلاك العدو ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾ أي: مثل هذا الجزاء، وهو الإنجاء والنعمة ﴿نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾ نعمة الله، وشكر نعمة الله تعالى هي القيام بطاعته، وليست مجرد قول الإنسان: «أشكر الله»، بل لابد من القيام بالطاعة، ولهذا من قال: «أشكر الله» وهو مقيم على معاصيه فإنه ليس بشاكر، بل هو كافر بالنعمة مستهزئ بالله - عز وجل - إذ إن مقتضى النعمة أن يشكر الله، ولكنه عكس الأمر، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨ - ٢٩] فكل من شكر الله فإن الله تعالى ينجيه ويهلك عدوه، ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾ [القمر: ٣٦] يعني أن لوطًا عليه الصلاة والسلام أنذر قومه البطشة، وهي الأخذ بالقوة ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ أي: تشككوا فيه ولم يؤمنوا به،

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ [القمر: ٣٧]، أي: راودوا لوطًا عن ضيفه الذي جاء إليه من الملائكة، وكان الله تعالى قد بعث إليه الملائكة على صورة شباب مُرد، ذوي جمال وهيئة، امتحانًا من الله ـ عز وجل ـ، فلما سمع قوم لوط بهؤلاء الضيف أتوا يهرعون إليه يسرعون، يريدون هؤلاء الضيف، ليفعلوا بهم الفاحشة ـ والعياذ بالله ـ ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ أي: فطمس الله أعينهم، أما كيف طمس أعينهم هل جبريل عليه السلام ضربهم بجناحه أو غير ذلك؟ الله أعلم، إنما علينا أن نؤمن بأن الله تعالى طمس أعينهم، حتى أصبحوا لا يبصرون، ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ الأمر هنا للامتهان، أو إنه أمر كوني، يعني أن الله أمرهم أمر إهانة، أو أمرًا كونيًّا أن يذوقوا العذاب، ومثل هذا قول الله تبارك وتعالى عن صاحب الجحيم: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] فإن هذا الأمر أمر إهانة بلا شك وليس أمر إكرام ولا أمر إباحة، ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ٣٨] يعني أن العذاب صبحهم أتاهم في الصباح على حين قيامهم من النوم، واستقبالهم يومهم وهم فرحون، كل واحد منهم يفكر فيما يفعل هذا اليوم، فإذا بالعذاب يقع بهم، نسأل الله العافية ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ من العبر في هذه الآية أن هؤلاء الذين قلب الله فطرتهم وطبيعتهم قلب الله عليهم البنيان برميهم بحجارة من سجيل، فتهدم البنيان حتى صار أعلاه أسفله، وقيل: إن الله تعالى قلب بهم ديارهم اقتلعها من أساسها حتى رفعها ثم قلبها، فإن صح هذا فالله على كل شيء قدير، وإن لم يصح فليس لنا إلا أن نأخذ بظاهر القرآن، أنهم أمطروا بحجارة من سجيل، فتهدم البناء عليهم، وأخذ أهل العلم من ذلك أن اللوطي يقتل بكل حال، الفاعل والمفعول به، وهذا هو القول الراجح أن اللواط يجب فيه القتل على كل حال وليس كالزنا، فالزنا يفرق فيه بين المتزوج وغير المتزوج، أما اللواط فيقتل فيه على كل حال ما دام الفاعل والمفعول به بالغين عاقلين، فإنه يجب قتلهما بكل حال إلا المكره، فليس عليه شيء، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: أجمع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على قتل الفاعل والمفعول به، إلا أنهم اختلفوا كيف يقتلان، فقال بعضهم: يقتلان بالرجم بالحجارة حتى يموتا، وقال بعضهم: يقتلان بأن يلقيا من أعلى مكان في البلد ويتبعان بالحجارة، وحرق أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ اللوطي بالنار، وكذلك خالد بن الوليد وأحد خلفاء بني أمية حرقوهم بالنار لعظم جرمهم ـ والعياذ بالله ـ، ولأن هذه الفاحشة إذا انتشرت في قوم صار الرجال نساء، وصار الواحد منهم يتتبع فحول الرجال حتى يفعلوا به الفاحشة ـ والعياذ بالله ـ وانقلبت الأوضاع وضاع النسل

بمعنى أن الناس ينصرفون إلى الذكور، ويدعون النساء اللاتي هن حرث للرجال، والتحرز منه صعب، لأنه لا يمكن أن نجد اثنين ونقول: كيف صحبت هذا؟ لكن لو وجدنا رجلًا وامرأة يمكن التحرز منهما، فلذلك كان دواء المجتمع من هذه الفعلة القبيحة الشنيعة أن يقتل الفاعل والمفعول به، وقد جاء في ذلك حديث عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «مَنْ وَجَدتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الفَاعِلَ والمَفْعُولَ بِهِ»[1]، ولهذا يجب علينا أن نحترز من هذا غاية الاحتراز، وأن نتفقد أبناءنا أين ذهبوا ؟ومن أين جاءوا؟، ومَن أصدقاءهم؟ وهل هم على الاستقامة أو لا؟ حتى نحمي المجتمع من هذا العمل الخبيث.

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ يسر الله ـ عز وجل ـ القرآن للذكر لحفظه ولفهم معناه، وهذا الخبر يراد به الحث على حفظ القرآن وعلى تدبر معناه؛ لأنه ميسر سهل، وأنت جرب تدبَّر في آيات الله ـ عز وجل ـ لتفهم معناها، وانظر كيف ييسر الله ـ عز وجل ـ لك فهمها حتى تفهم منها ما لا يفهمه كثير من الناس، ولهذا قال: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؟ والاستفهام هنا للتشويق، والمعنى هل أحد يذكر ويتعظ بها في القرآن الكريم.

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۝٤١ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤١ ـ ٤٢] الجملة مؤكدة بالقسم المقدر واللام و(قد)، ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ يعني قومه وعلى رأسهم فرعون، كما أخبر الله تعالى في آيات أخرى متعددة أنه أرسل موسى إلى فرعون وملئه، و(النذر) قيل: بمعنى الإنذار والتخويف. وقيل: إنه جمع (نذير) وهو كل ما ينذر به العبد، والمراد به: الآيات التي جاء بها موسى، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١] وهذا الأخير هو الصحيح أن (النذر) جمع (نذير)، وليست بمعنى الإنذار، ويدل لهذا قوله ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ أي: كل الآيات الدالة على صدق رسالة موسى صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كذبوا بها وقالوا: إن موسى مجنون، وإنه ساحر، حتى إن فرعون من كبريائه قال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]، ولما كذبوا بالآيات أخذهم الله ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ أي: غالب، ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ أي: قادر، ولكنها أبلغ من كلمة (قادر) لما فيها من زيادة الحروف، وإنما ذكر الله تعالى أنه أخذهم ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ لأن فرعون كان متكبرًا، وكان يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وكان يسخر من موسى ومن أرسله، فناسب أن يذكر الله تعالى أخذه أخذ

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٠٠)، وأبو داود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٤٥٦)، وابن ماجه (٢٥٦١)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٢٣٥٠).

عزيز مقتدر، وقد أجمل الله تعالى هذه القصة في هذه الآية، ولكنه بينها في آيات كثيرة، وأن أخذهم كان بإغراقهم في البحر، فأغرقه الله - عز وجل - بمثل ما كان يفتخر به، لأنه كان يقول لقومه: يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي، يقررهم بهذا؟ سيقولون: بلى، أفلا تبصرون. ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢]، يعني بذلك موسى، فأغرقهم الله في اليم حين جمع فرعون جنوده واتبع موسى ومن اتبعه ليقضي عليهم، ولكن الله بحمده وعزته قضى عليهم.

ثم قال تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣] الخطاب هنا لقريش، أي: يعني هل كفاركم خير من هذه الأمم السابقة التي أهلكها الله؟ ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ يعني أم لكم براءة في الكتب أن الله مبرئكم من عاقبة أفعالكم؟ والجواب: لا هذا ولا هذا، يعني إما أن يكون كفاركم خير من الكفار السابقين، وإما أن يكون لكم براءة من الله - عز وجل - كتبها الله لكم ألا يعاقبكم، وكل هذا لم يكن، فليس كفارهم خيرًا من الكفار السابقين، وليس لهم براءة في الزبر، ولهم دعوى ثالثة ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤]، (أم) هنا بمعنى (بل) الإضرابية، وهي إضراب الانتقال، يعني: بل يقولون: نحن، والضمير لقريش ﴿جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾، (جميع) هنا بمعنى (جمع)، ولهذا قال ﴿مُّنتَصِرٌ﴾، ولم يقل منتصرون، يعني جمع كثير منتصر على محمد ﷺ وقومه، هذا معنى كلامهم، فأعجبوا بأنفسهم، وظنوا أنهم قادرون على القضاء على محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ورسالته، فماذا كان جوابهم من الله تعالى؟ قال الله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥] أي: يخذلون شر خذيلة، ويولون الدبر، ولا يستطيعون المقاومة ولا المدافعة ولا المهاجمة، مع أنهم كانوا يقولون: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾، ولكن لا انتصار لهم، وهذا هو الذي وقع ولله الحمد، وأول ما وقع في غزوة بدر حين اجتمع كبراؤهم ورؤساؤهم وصناديدهم في نحو ما بين تسعمائة إلى ألف رجل، في مقابل ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا مع النبي ﷺ فهزموا - والحمد لله - شر هزيمة، وتحدثت بهم الأخبار، وأُلقي أربعة وعشرون نفرًا من رؤسائهم في قليب من قلب بدر خبيثة منتنة، وهذه شر هزيمة لا شك، ولذا قال: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾، هذه عقوبتهم في الدنيا، أما في الآخرة: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: ٤٦] يعني أضف إلى ذلك أن الساعة موعدهم وهو يوم البعث ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ أي: أشد فتكًا، وأمرُّ مذاقًا، لأن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا.

ثم قال الله - عز وجل - مبينًا ماذا يحدث لهم ولأمثالهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾

[القمر: ٤٧] الضلال في الدنيا لا يهتدون، والسعر في الآخرة، أي: في نار شديدة التأجج تحرقهم، كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلودًا غيرها، ليذوقوا العذاب. ويحتمل أن قوله: ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ أي: في ضلال عن الطريق الذي يهتدون به إلى الجنة، لأنهم ضلوا في الدنيا فضلوا في الآخرة ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨] يسحبون سحبًا كما تسحب الجيفة، ليبعد بها عن المنازل، وليسوا يسحبون على ظهورهم ولكن على وجوههم - والعياذ بالله - ويقال: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ ولقد قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ٢٤] أي: يتقي بوجهه وكان يتقي في الدنيا الحر بيديه لوقاية وجهه، لكنه في النار ليس له ما يقي وجهه النار، بل يتقي بوجهه نسأل الله العافية، فهم يسحبون في النار على وجوههم، وهذه ليست أساطير الأولين، وليست قصصًا تقال، هذه حقيقة نشهد بها - والله - كأننا نراها رأي العين، لابد أن يكون هذا لكل مجرم ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ الساحب هم الملائكة الموكلين بهم، لأن للنار ملائكة موكلين بها، ويقال ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾، انظر إلى الإذلال: جسدي وقلبي، الجسدي هو أنهم يسحبون على وجوههم، والقلبي أنهم يوبخون، ويقال: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾، مس أي: صلاها، و(سقر) من أسماء النار - نسأل الله العافية.

ثم قال - جل وعلا -: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] لما ذكر عذاب أهل النار ثم سيذكر نعيم أهل الجنة، ذكر بينهما أن هذا الخلق وتفاوته بقدر الله - عز وجل - فكل شيء مخلوق فهو بقدر، كل ذرة في رملة فهي مخلوقة بقدر، وكل نقطة تقع على الأرض من السحاب فهي مخلوقة بقدر، وكل شيء تعم ما سوى الخالق، لأنه ما ثم إلا مخلوق وخالق، فإذا كان كل شيء مخلوقًا كان الخالق وحده الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزَ وَالْكَيْسَ»[1] العجز يعني تكاسل الإنسان، والكيس يعني حزم الإنسان ونشاطه في طلب ما ينفعه والبعد عما يضره، وفي هذه الآية الكريمة دليل على: أن الإنسان مخلوق لله تعالى، وأن أفعاله مخلوقة لله، وأن كل شيء قد قدر وانتهى، وإذا كان كذلك فيلجأ الإنسان إذا أصابته ضراء إلى الله الخالق، وإذا أراد السراء أيضًا يلتجئ إلى الله الخالق، لا يفخرن ويعجبن بنفسه إذا حصل له مطلوب، ولا ييأسن إذا أصابه المكروب، فالأمر بيد الله، ولهذا قال النبي صلى

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٥٥)، أحمد في «مسنده» (٢/ ١١٠).

الله عليه وعلى آله وسلم: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ»(١) القوي في إيمانه، والقوي في إرادته وهمته ونشاطه، وليس المراد القوي في بدنه، فقوة البدن إما لك وإما عليك، إن استعملتها في العمل الصالح فهي لك، وإن عجزت عنه مع فعلك إياه في حال القوة كتب لك، وإن استعملت هذه القوة في معصية الله كانت عليك، لكن المراد بقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «القوي» أي: في إيمانه وإرادته، أما قوة البدن فهي لك أو عليك، قال: «وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ» أي: في كل من القوي والضعيف خير، وهذه الجملة يسميها علماء البلاغة جملة احترازية، لأنه لما قال: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ» يظن الظان أن المؤمن الضعيف ليس فيه خير، فقال: «وفي كل خير»(٢). ولها نظائر قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ [الحديد: ١٠] يعني من قبل صلح الحديبية ﴿أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠] كُلًا من هؤلاء وهؤلاء، يعني فلا تظنوا أن هذا التفاوت يحط من قدر الآخرين ويحرمهم الخير، وقال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥] فهنا قال النبي ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ»، فإذا فعلت ذلك حرصت على ما ينفع واستعنت بالله، وكنت حازمًا نشيطًا وقويًا في مرادك، إن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: «قدر الله - يعني هذا قدر الله -، وما شاء فعل»، فإن لو تفتح عمل الشيطان، أنت عليك أن تسعى للخير، وليس عليك أن يتم لك ما تريد، المهم أن كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس، فمن قدر الله له الهداية ومن قدر له الشقاء فهو بقدر، ولكن السبب لتقدير الله الشقاء على العبد هو نفس العبد، لقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وقوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ [القمر: ٥٠] يعني ما أمرنا فيما نريد أن يكون ﴿إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ أي: إلا مرة واحدة، بدون تكرار ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ بدون تأخر - سبحان الله - أمر الله - عز وجل - واحدة لا تكرار، بسرعة فورية أسرع ما يمكن أن يكون كلمح للبصر، «كن» فيكون، واشتهر عند العوام يقولون: يا من أمره بين الكاف والنون، وهذا غلط ليس أمر الله بين الكاف والنون،

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٦٤)، أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٦٦)، وابن ماجه (٧٩).
(٢) انظر ما قبله.

بل بعد الكاف والنون، لأن الله قال: «كن» فيكون بعد «كن»، فقولهم بين الكاف والنون غلط لأنه لا يتم الأمر بين الكاف والنون، بل لا يتم الأمر إلا بالكاف والنون، أي بعد الكاف والنون فورًا كلمح بالبصر، وإن شئت أن ترى عجائب ذلك فانظر إلى الزلازل تصيب مئات القرى، أو آلاف القرى وبلحظة واحدة تعدمها، لو جاءت المعاول والدركترات والقنابل ما فعلت مثل فعل لحظة واحدة من أمر الله ـ عز وجل ـ، واسأل الخبراء بالزلازل تجد الجواب، وانظر إلى ما هو أعظم من ذلك، الموتى في قبورهم، والحشرات والحيوانات وكل الأشياء تبعث يوم القيامة بكلمة واحدة، كما قال ـ جل وعلا ـ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣] صيحة واحدة فقط، ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ﴾، كلهم ﴿لَّدَيْنَا﴾ أي عندنا ﴿مُحْضَرُونَ﴾ فصدق الله ـ عز وجل ـ وعده ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ مثل لمح البصر.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٥١] الخطاب لكفار قريش، وقوله: ﴿أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: أشباهكم من الكفار السابقين، وقد قص الله ـ سبحانه وتعالى ـ في هذه السورة من نبئهم ما فيه عبرة وعظة، قص علينا ما حصل لقوم نوح، وما حصل لعاد، ولثمود، ولقوم لوط، ولآل فرعون، وفي هذا مدكر لمن أراد الادكار، ولهذا قال: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، يعني هل من متعظ ومعتبر بما جرى على السابقين أن يجري على اللاحقين، لأن الله سبحانه وتعالى ليس بينه وبين عباده محاباة أو نسب، بل أكرمهم عند الله أتقاهم له من أي جنس كان، وفي أي مكان كان، وفي أي زمان كان، كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ثم قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢] ﴿كُلُّ﴾ مبتدأ ﴿فِي الزُّبُرِ﴾ خبره، وليس هذا من باب الاشتغال، بل هو خبر محض، لأن (كل) لا يمكن أن تكون مفعولًا لـ﴿فَعَلُوهُ﴾، بل هي مبتدأ، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾ أي: فعلته الأمم السابقة، أو الأمم اللاحقة، فإنه مكتوب ﴿فِي الزُّبُرِ﴾ أي في الكتب، وكتابة الأعمال كتابة سابقة، وكتابة لاحقة، والكتابة السابقة كتابة على أن هذا سيفعل كذا، وهذه الكتابة لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب، لأن المرء لم يكلف بها بعد، وكتابة لاحقة وهي كتابة أنه فعل، فإذا فعل الإنسان حسنة كتبها الله، وإذا فعل سيئة كتبها الله، وهذه الكتابة اللاحقة هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب، وبما قررناه يزول الإشكال عند بعض الناس في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] فإن بعض الناس قد يشكل عليه هذه الآية، كيف يقول ـ عز وجل ـ: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ وهو قد علم؟ فيقال: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ يعني العلم

الذي يترتب عليه الثواب، وأما علم الله السابق فإنه لا يترتب عليه الثواب ولا العقاب.

والكتابة السابقة معناها أن الله سبحانه وتعالى كتب في اللوح المحفوظ كل شيء، كما جاء في الحديث الصحيح: «أَنَّ الله لما خلَقَ القَلَمَ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: رَبِّي وَمَاذا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ مَا هُو كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[1]. فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، نؤمن بهذا، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]. وقال - عز وجل -: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

أما الكتابة اللاحقة فهي أن الله سبحانه وتعالى إذا عمل الإنسان عملا كتبه، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ٩ - ١١] وهذه الكتابة هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب، ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾، ومعنى الآية: أن كل شيء يفعله الإنسان فإنه مكتوب، فلا تظن أنه يضيع عليك شيء أبدًا، كما قال عز وجل: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. سبحان الله، بعد مئات السنين التي لا يعلمها إلا الله يجدونه حاضرًا، لا يظلم ربك أحدًا، ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٣]، كل صغير وكبير مما يحدث في هذا الكون من المخلوقات، وأوصافها، وأعمالها ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾، أي: مسطر في الكتاب العزيز، اللوح المحفوظ، كل صغير وكبير حتى الشوكة يشاكها الإنسان تكتب، حتى ما يزن مثقال ذرة من الأعمال يكتب، كل صغير وكبير، وإذا آمنت بذلك ويجب عليك أن تؤمن به، فإنه يجب عليك الحذر من المخالفة، فإياك أن تخالف بقولك، أو فعلك، أو تركك، لأن كل شيء مكتوب، قال الله - عز وجل -: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] وما يفعل من فعل كذلك لديه رقيب عتيد، لأنه إذا كانت الأقوال تكتب وهي أكثر بآلاف المرات من الأفعال، فما تنطق به لا يحصى، فإذا كانت الأقوال تكتب، فالأفعال من باب أولى، فعليك أن تتقي الله - عز وجل - ولا تخالف الله، إذا سمعت الله يقول خبرًا فقل: آمنت به وصدقت، وإذا سمعت الله يقول شيئًا أمرًا، فقل: «آمنت به سمعًا وطاعة»، نهيًا «آمنت به، وسمعًا وطاعة». فاترك المنهي عنه، وافعل المأمور به.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر: ٥٤] هذا مقابل قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝٤٧ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٧ - ٤٨] ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ (الجنات) جمع

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(جنة)، وقد ذكر الله تعالى أصنافها في سورة الرحمن فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢] فهي إذن أربع ذكرها الله في سورة الرحمن، إذا ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ يعني في هذه الجنات الأربع، هذه الأصناف لكن أنواعها كثيرة، و(الجنات) نفسرها بأنها شرعًا هي: (الدار التي أعدها الله للمتقين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)، لكن عندما تقرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧] تفسر الجنة بأنها البستان الكثير الأشجار، وعندما تقرأ: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ [الكهف: ٣٣] تفسر بأنها بستان كثير الأشجار، لكن لا تفسر جنة النعيم في الآخرة بهذا التفسير، لأنك إن فسرتها بهذا التفسير قلَّت الرغبة فيها وهبطت عظمتها في قلوب الناس، لكن قل: هي الدار التي أعدها الله لأوليائه، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، سكانها خير البشر: النبيون، والصديقون، والشهداء، والصالحون، حتى تحفز النفوس على العمل لها، وحتى لا يتصور الجاهل أن ما فيها كأمثال ما في الدنيا وقوله: ﴿وَنَهَرٍ﴾ يعني بذلك الأنهار، وذكر الله تعالى أصنافها أربعة في سورة القتال: ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]. أما المكان: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ﴾ [القمر: ٥٥] يعني في مقعد صدق ليس فيه كذب لا في الخبر عنه ولا في وصفه، كله حق وعند من؟ ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ وهو الله جل وعلا ـ اللهم اجعلنا منهم ـ عند مليك مقتدر، يتنعمون بلذة النظر إلى الله ـ عز وجل ـ وهو أنعم ما يكون لأهل الجنة، قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] الحسنى الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله، وقال تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢] يعني حسنة بهية يكسوها الله تعالى نضرًا، أي: حسنًا وجمالًا وبهاءً؛ لتكون مستعدة للنظر إلى الله ـ عز وجل ـ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣] ثم ينظرون إلى الله فيزدادون حسنًا إلى حسنهم، ولهذا إذا رجعوا إلى أهلهم قال لهم أهلوهم: إنكم ازددتم بعدنا حسنًا بالنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى[1]، اللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العليا أن تجعلنا من هؤلاء بمنك وكرمك، إنك على كل شيء قدير.

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة القمر



---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٨١)، والترمذي (٢٥٥٢)، وابن ماجه (١٨٧).

تفسير سورة الرحمن

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ البسملة تقدم الكلام عليها، ﴿الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١: ٤] ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ خبر، ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ خبر ثان، ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ خبر ثالث، والمعنى أن هذا الرب العظيم، الذي سمى نفسه بالرحمن تفضل على عباده بهذه النعم، و(الرحمن) هو ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وابتدأ هذه السورة بـ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ عنوانًا على أن ما بعده كله من رحمة الله تعالى، ومن نعمه ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ أي: علمه من شاء من عباده، فعلمه جبريل عليه السلام أولًا، ثم نزل به جبريل على قلب النبي ﷺ ثانيًا، ثم بلغه محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ثالثًا إلى جميع الناس، والقرآن هو هذا الكتاب العزيز الذي أنزله الله تعالى باللغة العربية، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣] وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥] وتعليم القرآن يشمل تعليم لفظه، وتعليم معناه، وتعليم كيف العمل به، فهو يشمل ثلاثة أشياء، ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ المراد الجنس، فيشمل آدم وذريته، أي: أوجده من العدم، فالإنسان كان معدومًا قبل وجوده، وقبل خلقه، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] يعني أتى عليه حين من الدهر قبل أن يوجد، وليس شيئًا مذكورًا ولا يعلم عنه، وبدأ الله تعالى بتعليم القرآن قبل خلق الإنسان إشارة إلى أن نعمة الله علينا بتعليم القرآن أشد وأبلغ من نعمته بخلق الإنسان وإلا فمن المعلوم أن خلق الإنسان سابق على تعليم القرآن، لكن لما كان تعليم القرآن أعظم منة من الله ـ عز وجل ـ على العبد قدمه على خلقه ﴿عَلَّمَهُ﴾ أي: علم الإنسان ﴿الْبَيَانَ﴾، أي: ما يبين به عما في قلبه، وأيضًا ما يستبين به عند المخاطبة، فهنا بيانان: **البيان الأول من المتكلم، والبيان الثاني من المخاطب.**

فالبيان من المتكلم يعني التعبير عما في قلبه، ويكون باللسان نطقًا، ويكون بالبنان كتابة،

فعندما يكون في قلبك شيء تريد أن تخبر به تارة تخبر به بالنطق، وتارة بالكتابة، كلاهما داخل في قوله ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾، وأيضًا ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ كيف يستبين الشيء وذلك بالنسبة للمخاطب يعلم ويعرف وما يقول صاحبه، ولو شاء الله تعالى لأسمع المخاطب الصوت دون أن يفهم المعنى فالبيان سواء من المتكلم، أو من المخاطب كلاهما منة من الله ـ عز وجل ـ فهذه ثلاث نعم: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾.

ثم قال: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥] لما تكلم عن العالم السفلي بيَّنَ العالم العلوي فقال: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أي: بحساب دقيق معلوم متقن منتظم أشد الانتظام، يجريان كما أمرهما الله ـ عز وجل ـ ولم تتغير الشمس والقمر منذ خلقهما الله عز وجل إلى أن يفنيهما يسيران على خط واحد، كما أمرهما الله، وهذا دليل على كمال قدرة الله تعالى، وكمال سلطانه، وكمال علمه أن تكون هذه الأجرام العظيمة تسير سيرًا منظمًا، لا تتغير على مدى السنين الطوال، ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦] (النجم) اسم جنس، والمراد به النجوم تسجد لله ـ عز وجل ـ فهذه النجوم العليا التي نشاهدها في السماء تسجد لله ـ عز وجل ـ سجودًا حقيقيًّا، لكننا لا نعلم كيفيته، لأن هذا من الأمور التي لا تدركها العقول، والشجر يسجد لله عز وجل سجودًا حقيقيًّا، لكن لا ندري كيف ذلك، والله على كل شيء قدير، وانظر إلى الأشجار إذا طلعت الشمس تتجه أوراقها إلى الشمس تشاهدها بعينك، وكلما ارتفعت، ارتفعت الأشجار، وإذا مالت للغروب مالت، لكن هذا ليس هو السجود، إنما السجود حقيقة لا يُعلم، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤] فالنجوم كلها تسجد لله، والأشجار كلها تسجد لله ـ عز وجل ـ قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨] ويقابله، ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨] فلا يسجد ـ والعياذ بالله ـ.

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ [الرحمن: ٧] يعني ورفع السماء ولم يحدد في القرآن الكريم مقدار هذا الرفع، لكن جاءت السنة بذلك، فهي رفيعة عظيمة ارتفاعًا عظيمًا شاهقًا، ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ أي: وضع العدل، والدليل على أن المراد بالميزان هنا العدل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥] يعني العدل، وليس المراد بالميزان هنا الميزان ذا الكفتين المعروف ولكن المراد بالميزان العدل، ومعنى وضع الميزان أي أثبته للناس،

ليقوموا بالقسط أي بالعدل ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ [الرحمن: ٨] يعني ألا تطغوا في العدل، يعني وضع العدل لئلا تطغوا في العدل فتجوروا، فتحكم للشخص وهو لا يستحق، أو على الشخص وهو لا يستحق، ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ [الرحمن: ٩]، يعني وزنكم للأشياء، أقيموه ولا تبخسوه فتنقصوا، لهذا قال: ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أي لا تخسروا الموزون، فصار الميزان يختلف في مواضعه الثلاثة: ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ أي: العدل ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ لا تجوروا في الوزن ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أي: الموزون.

﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن: ١٠] يعني: أن من نعم الله ـ عز وجل ـ أن الله وضع الأرض للأنام أي: أنزلها بالنسبة للسماء، والأنام هم الخلق، ففيها الإنس، وفيها الجن، وفيها الملائكة، تنزل بأمر الله ـ عز وجل ـ من السماء، وإن كان مقر الملائكة في السماء لكن ينزلون إلى الأرض، مثل الملكين اللذين عن اليمين وعن الشمال قعيد، والملائكة الذين يحفظون من أمر الله المعقبات، والملائكة الذين ينزلون في ليلة القدر وغير ذلك، ﴿فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿فَاكِهَةٌ﴾ أي: ثمار يتفكه بها الناس، وأنواع الفاكهة كثيرة، كالعنب والرمان والتفاح والبرتقال وغيرها ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ نص على النخل، لأن ثمرتها أفضل الثمار فهي حلوى وغذاء وفاكهة، وشجرتها من أبرك الأشجار وأنفعها، حتى إن النبي ﷺ شبه النخلة بالمؤمن فقال: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجْرةٌ مِثْلُها مِثْلُ المؤْمِنِ»(١)، فخاض الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في الشجر حتى أخبرهم النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم :«أنها النخلة »، وقوله: ﴿ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ جمع (كم) وهو غلاف الثمرة، فإن ثمرة النخل أول ما تخرج يكون عليها كم قوي، ثم تنمو في ذلك الكم حتى يتفطر وتخرج الثمرة، ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ [الرحمن: ١٢] الحب يعني الذي يؤكل من الحنطة والذرة والدخن والأرز وغير ذلك، وقوله: ﴿ذُو الْعَصْفِ﴾ يعني: ما يحصل من ساقه عند يبسه وهو ما يعرف بالتبن؛ لأنه يعصف أي تطؤه البهائم بأقدامها حتى ينعصف، ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ هذا الشجر ذو الرائحة الطيبة، فذكر الله في الأرض الفواكه، والنخل، والحب، والريحان، لأن كل واحد من هذه الأربع له اختصاص يختص به، وكل ذلك من أجل مصلحة العباد ومنفعتهم ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] الخطاب للجن والإنس، والاستفهام للإنكار، أي: أي نعمة تكذبون بها.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] خلق الإنسان يعني جنسه من

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦١) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٨١١).

صلصال، والصلصال هو الطين اليابس الذي له صوت، عندما تنقره بظفرك يكون له صوت كالفخار، هو الطين المشوي، وهذا باعتبار خلق آدم عليه السلام، فإن الله خلقه من تراب، من طين، من صلصال كالفخار، من حمأ مسنون، كل هذه أوصاف للتراب ينتقل من كونه ترابًا، إلى كونه طينًا، إلى كونه حمأ، إلى كونه صلصالًا، إلى كونه كالفخار، حتى إذا استتم نفخ الله فيه من روحه فصار آدميًا، ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ [الرحمن: ١٥] وهم الجن ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾، المارج هو المختلط الذي يكون في اللهب إذا ارتفع صار مختلطًا بالدخان، فيكون له لون بين الحمرة والصفرة، فهذا هو المارج من نار، والجان خلق قبل الإنس، ولهذا قال إبليس لله - عز وجل -: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٦] أي: بأي نعمة من نعم الله تكذبون، حيث خلق الله - عز وجل - الإنسان من هذه المادة، والجن من هذه المادة، وأيهما خير التراب أم النار؟ التراب خير، لا شك فيه، ومن أراد أن يطلع على ذلك فليرجع إلى كلام ابن القيم - رحمه الله - في كتاب «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان».

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧] يعني هو رب، فهي خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: هو رب المشرقين ورب المغربين، يعني أنه مالكهما ومدبرهما، فما من شيء يشرق إلا بإذن الله، ولا يغرب إلا بإذن الله وما من شيء يحوزه المشرق والمغرب إلا لله - عز وجل - وثنى المشرق هنا باعتبار مشرق الشتاء ومشرق الصيف، فالشمس في الشتاء تشرق من أقصى الجنوب، وفي الصيف بالعكس، والقمر في الشهر الواحد يشرق من أقصى الجنوب ومن أقصى الشمال، وفي آية أخرى قال الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠] فجمعها، وفي آية ثالثة: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩] فما الجمع بينها؟

نقول: أما التثنية فباعتبار مشرقي الشتاء والصيف، أما جمع المغارب والمشارق فباعتبار مشرق كل يوم ومغربه، لأن الشمس كل يوم تشرق من غير المكان الذي أشرقت منه بالأمس، فالشمس يتغير شروقها وغروبها كل يوم، ولاسيما عند تساوي الليل والنهار، فتجد الفرق دقيقة، أو دقيقة ونصفًا بين غروبها بالأمس واليوم، وكذلك الغروب، أو باعتبار الشارقات والغاربات، لأنها تشمل الشمس والقمر والنجوم، وهذه لا يحصيها إلا الله - عز وجل -، أما قوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ فباعتبار الناحية، لأن النواحي أربع: مشرق، ومغرب، وشمال، وجنوب، ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٨] أي: بأي شيء من نعم الله تكذبان يا معشر الجن والإنس؟ فما

جوابنا على هذه الاستفهامات بهذه الآيات كلها؟ جوابنا: ألا نكذب بشيء من آلائك يا ربنا، ولهذا ورد حديث في إسناده ضعف عن جابر رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها، فسكتوا، فقال: «لَقَدْ قَرَأْتُهَا عَلَى الجِنِّ، لَيْلَةَ الجِنِّ، فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُودًا مِنْكُم، كُنْتُ كُلَّمَا أَتيتُ عَلَى قَوْلِهِ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قَالوا: لَا بِشَيءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنا نُكَذِّبُ، فَلَكَ الحَمْدُ»[1]. لكن هذا الحديث ضعيف[2]، يذكره المفسرون هنا، وكل آية أعقبت ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فهي تتضمن نعمًا عظيمة، فما النعم التي يتضمنها اختلاف المشرق والمغرب؟ النعم ما يترتب على ذلك من مصالح الخلق: صيفًا، وشتاءً، ربيعًا، وخريفًا، وغير ذلك مما لا نعلم، فهي نِعَمٌ عظيمة باختلاف المشرق والمغرب.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ مرج بمعنى أرسل البحرين، يعني المالح والعذب ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾، يلتقي بعضهما ببعض، البحر المالح هذه البحار العظيمة، البحر الأحمر، والبحر الأبيض، والبحر الأطلسي، وهذه البحار كلها مالحة، وجعلها الله تبارك وتعالى مالحة، لأنها لو كانت عذبة لفسد الهواء وأنتنت، لكن الملح يمنع الإنتان والفساد، والبحر الآخر البحر العذب وهو الأنهار التي تأتي: إما من كثرة الأمطار، وإما من ثلوج تذوب وتسيح في الأرض، فالله سبحانه وتعالى أرسلهما بحكمته وقدرته حيث شاء - عز وجل - ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ أي: يلتقي بعضهما ببعض عند مصب النهر في البحر فيمتزج بعضهما ببعض، لكن حين سيرهما أو حين انفرادهما، يقول الله - عز وجل -: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ وهو اليابس من الأرض ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أي: لا يبغي أحدهما على الآخر، ولو شاء الله تعالى لسلط البحار ولفاضت على الأرض وأغرقت الأرض، لأن البحر عندما تقف على الساحل لا تجد جدارًا يمنع انسيابه إلى اليابس مع أن الأرض كروية، ومع ذلك لا يسيح البحر لا هاهنا، ولا هاهنا بقدرة الله عز وجل، ولو شاء الله - سبحانه وتعالى - لساحت مياه البحر على اليابس من الأرض ودمرتها، إذن البرزخ الذي بينهما هو اليابس من الأرض هذا قول علماء الجغرافيا، وقال بعض أهل العلم: بل البرزخ أمر معنوي يحول بين المالح والعذب أن يختلط بعضهما ببعض، وقالوا: إنه يوجد الآن في عمق البحار عيون عذبة تنبع من الأرض، حتى إن الغواصين يغوصون إليها ويشربون منها كأعذب ماء، ومع ذلك

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٢٩١)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢١٥٠).

(٢) نعم الحديث بمفرده ضعيف كما قال الشيخ رحمه الله، ولكن أتى له الشيخ الألباني بشاهد، ولذلك أورده في «الصحيحة» كما تقدم فراجعه إن شئت (٢١٥٠).

لا تفسدها مياه البحار، فإذا ثبت ذلك فلا مانع من أن نقول بقول علماء الجغرافيا وقول علماء التفسير، والله على كل شيء قدير ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢١ ـ ٢٢] أي: يخرج من البحرين العذب والمالح اللؤلؤ والمرجان، وهو قطع من اللؤلؤ أحمر جميل الشكل واللون مع أنها مياه، وقوله تعالى: ﴿مِنْهُمَا﴾ أضاف الخروج إلى البحرين العذب والمالح، وقد قيل: إن اللؤلؤ لا يخرج إلا من المالح ولا يخرج من العذب، والذين قالوا بهذا اضطربوا في معنى الآية، كيف يقول الله ﴿مِنْهُمَا﴾ وهو من أحدهما؟ فأجابوا: بأن هذا من باب التغليب، والتغليب أن يغلب أحد الجانبين على الآخر، مثلما يقال: «العُمَران» لأبي بكر وعمر، ويقال: «القَمَران» للشمس والقمر، فهذا من باب التغليب، فـ﴿مِنْهُمَا﴾ المراد واحد منهما، وقال بعضهم: بل هذا على حذف مضاف، والتقدير: يخرج من أحدهما، وهناك قول ثالث: أن تبقى الآية على ظاهرها لا تغليب ولا حذف، ويقول ﴿مِنْهُمَا﴾ أي: منهما جميعًا يخرج اللؤلؤ والمرجان، وإن امتاز المالح بأنه أكثر وأطيب.

فبأي هذه الأقوال الثلاثة نأخذ؟

نأخذ بما يوافق ظاهر القرآن، فالله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ وهو خالقهما وهو يعلم ماذا يخرج منهما، فإذا كانت الآية ظاهرها أن اللؤلؤ يخرج منهما جميعًا وجب الأخذ بظاهرها، لكن لا شك أن اللؤلؤ من الماء المالح أكثر وأطيب، لكن لا يمنع أن نقول بظاهر الآية، بل يتعين أن نقول بظاهر الآية، وهذه قاعدة في القرآن والسنة: إننا نحمل الشيء على ظاهره، ولا نؤول، اللهم إلا لضرورة، فإذا كان هناك ضرورة، فلابد أن نتمشى على ما تقتضيه الضرورة، أما بغير ضرورة فيجب أن نحمل القرآن والسنة على ظاهرهما ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٢٣] لأن ما في هذه البحار وما يحصل من المنافع العظيمة، نِعم كثيرة لا يمكن للإنسان أن ينكرها أبدًا.

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ [الرحمن: ٢٤] أي لله ـ عز وجل ـ ملكًا وتدبيرًا وتيسيرًا ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ بحذف الياء للتخفيف، وأصلها (الجواري) جمع (جارية)، وهي السفينة تجري في البحر كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٣١].

﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ أي: التي أنشأها صانعوها ليسيروا عليها في البحر، وقوله: ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ متعلق بالجواري أي الجواري في البحر، وليست فيما يظهر متعلقة بالمنشآت، يعني الجواري التي تصنع في البحر، لأن السفن تصنع في البر أولًا، ثم تنزل في البحر، وقوله: ﴿كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ تشبيه، والأعلام جمع علم وهو الجبل، كما قال الشاعر:

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

كأنه جبل، ومن شاهد السفن في البحار رأى أن هذا التشبيه منطبق تمامًا عليها، فهي كالجبال تسير في البحر بأمر الله - عز وجل -، وإنما نص الله عليها لأنها تحمل الأرزاق من جانب إلى جانب، ولولا أن الله تعالى يسرها لكان في ذلك فوات خير كثير للبلاد التي تنقل منها والبلاد التي تنقل إليها، وفي هذا العصر جعل الله تبارك وتعالى جواري أخرى، لكنها تجري في الجو، كما تجري هذه في البحر، وهي الطائرات، فهي منة من الله - عز وجل - كمنته على عباده في جواري البحار، بل ربما نقول: إن السيارات أيضًا من جواري البر، فتكون الجواري ثلاثة أصناف: بحرية، وبرية، وجوية، وكلها من نعم الله - عز وجل -، ولهذا قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٢٥] أي بأي: نعمة من نعم الله تكذبان، والخطاب للإنس والجن، ثم قال - عز وجل -: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] أي: كل من على الأرض ﴿فَانٍ﴾ أي: ذاهب من الجن والإنس والحيوان والأشجار، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٧ - ٨] أي: خالية، وقال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٦] أي: يذر الأرض قاعًا صفصفًا، أو يذر الجبال بعد أن كانت عالية شامخة قاعا كالقيعان ساوية لغيرها، صفصفًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا.

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] أي: يبقى الله - عز وجل - ذو الوجه الكريم، وكان بعض السلف إذا قرأ هاتين الآيتين وصل بعضهما ببعض، قال: ليتبين بذلك كمال الخالق ونقص المخلوق؛ لأن المخلوق فانٍ والرب باقٍ، وهذه الملاحظة جيدة أن تصل فتقول: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ وهذا هو محط الثناء والحمد على الله - عز وجل - أن تفنى الخلائق ويبقى الله - عز وجل -، وقوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ فيه إثبات الوجه لله - سبحانه وتعالى - ولكنه وجه لا يشبه أوجه المخلوقين، لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] يعني أنت تؤمن بأن لله وجهًا، لكن يجب أن تؤمن بأنه لا يماثل أوجه المخلوقين بأي حال من الأحوال، لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ولما ظن بعض أهل التعطيل أن إثبات الوجه يستلزم التمثيل أنكروا أن يكون لله وجهٌ وقالوا: المراد بقوله ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي ثوابه، أو أن كلمة ﴿وَجْهُ﴾ زائدة، وأن المعنى: ويبقى ربك! ولكنهم ضلوا سواء السبيل، وخرجوا عن ظاهر

القرآن وحرفوه وخرجوا عن طريق السلف الصالح، ونحن نقول: إن لله وجهًا، لإثباته له في هذه الآية، ولا يماثل أوجه المخلوقين لنفي المماثلة في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وبذلك نسلم ونُجري النصوص على ظاهرها المراد بها، وقوله: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾ أي: ذو العظمة ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي: إكرام من يطيع الله - عز وجل - كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥] فالإكرام أي أنه يكرم من يستحق الإكرام من خلقه، ويحتمل أن يكون لها معنى آخر وهو أنه يُكْرَم من أهل العبادة من خلقه، فيكون الإكرام هذا المصدر صالحًا للمفعول والفاعل، فهو مكرَم ومكرِم، ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وهذه الآية تكررت عدة مرات في هذه السورة، ومعناها أنه بأي نعمة من نعم الله تكذبان يا معشر الجن والإنس وهذا كالتحدي لهم، لأنه لن يستطيع أحد أن يأتي بمثل هذه النعم.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] أي: يسأل الله من في السماوات والأرض، والذي في السماوات هم الملائكة يسألون الله - عز وجل - ومن سؤالهم أنهم ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧] إلى آخره، ويسأله من في الأرض من الخلائق، وسؤال أهل الأرض لله - عز وجل - قسمان:

الأول: السؤال بلسان المقال، وهذا إنما يكون من المؤمنين، فالمؤمن يسأل ربه دائمًا حاجاته، لأنه يعلم أنه لا يقضيها إلا الله - عز وجل - وسؤال المؤمن ربه عبادة، سواء حصل مقصوده أم لم يحصل، فإذا قلت: يا رب أعطني كذا. فهذه عبادة، كما جاء في الحديث: «الدُّعَاءُ عِبَادَةٌ»[1]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] فقال: ﴿ٱدْعُونِىٓ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ وهذا دليل على أن الدعاء عبادة.

النوع الثاني: دعاء بلسان الحال، وهو أن كل مخلوق مفتقر إلى الله ينظر إلى رحمته، فالكفار مثلًا ينظرون إلى الغيث النازل من السماء، وإلى نبات الأرض، وإلى صحة الحيوان، وإلى كثرة الأرزاق وهم يعلمون أنهم لا يستطيعون أن يجدوا ذلك بأنفسهم، فهم إذن يسألون الله بلسان الحال، ولذلك إذا مستهم ضراء اضطروا إلى سؤال الله بلسان المقال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢].

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٣٧١)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٠٠٣).

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ من يحصي الأيام؟ لا أحد إلا الله ـ عز وجل ـ ومن يحصي الشهور؟ لا أحد إلا الله ـ عز وجل ـ ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، يُغني فقيرًا، ويُفقر غنيًّا، ويمرض صحيحًا، ويشفي سقيمًا، ويؤمّن خائفًا ويخوف آمنًا، وهلم جرًّا، كل يوم يفعل الله تعالى ذلك، هذه الشئون التي تتبدل عن حكمة ولا شك، قال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] فنحن نؤمن أن الله لا يقدر قدرًا إلا لحكمة، لكن قد نعلم هذه الحكمة وقد لا نعلم، ولهذا قال: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، ولكن اعلم أيها المؤمن أن الله تعالى لا يقدر لك قدرًا إلا كان خيرًا لك، إن أصابتك ضراء فاصبر وانتظر الفرج، وقل: الحمد لله على كل حال. وكما يقال: دوام الحال من المحال، فينتظر الفرج فيكون خيرًا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وليس هذا لأحد إلا للمؤمن ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٣٠] نقول فيها ما قلنا في الآيات السابقة أن المعنى بأي نعمة من نعم الله تكذبان؟

والجواب: لا نكذب بشيء من نعم الله، بل نقول: هي من عند الله، فله الحمد وله الشكر، ومن نسب النعمة إلى غير الله فهو مكذب، وإن لم يقل إنه مكذب قال الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] وهذه الآية يعني بها قولهم: مطرنا بنوء كذا وكذا، وقد قال النبي ﷺ وهو يحدث أصحابه على إثر مطر كان، قال لهم بعد صلاة الصبح: «هَلْ تَدْرونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرنَا بِفَضْلِ الله وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي، كَافِرٌ بِالكَوكَبِ، وَأَمَا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي، مُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ»(١).

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٣١: ٣٢] هذه الجملة المقصود بها الوعيد، كما يقول قائل لمن يتوعده: سأتفرغ لك وأجازيك. وليس المعنى أن الله تعالى يشغله شأن عن شأن ثم يفرغ من هذا ويأتي إلى هذا، هو سبحانه يدبر كل شيء في آن واحد في مشارق الأرض ومغاربها وفي السماوات، وفي كل مكان يدبره في آن واحد، ولا يعجزه، فلا تتوهمن أن قوله: ﴿سَنَفْرُغُ﴾ أنه الآن مشغول وسيفرغ، بل هذه جملة وعيدية تعبر بها العرب، والقرآن الكريم نزل بلغة العرب وفي قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ من التعظيم ما هو ظاهر حيث أتى بضمير الجمع، ﴿سَنَفْرُغُ﴾ تعظيمًا لنفسه ـ جل وعلا ـ وإلا فهو واحد، وقوله: ﴿أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).

يعني الجن والإنس، وإنما وجه هذا الوعيد إليهما؛ لأنهما مناط التكليف، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ سبق تفسيرها فلا حاجة إلى التكرار.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ [الرحمن: ٣٣] بعد الوعيد قال: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟﴾ أي: مما نريده بكم ﴿مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ ولكنكم لا تستطيعون هذا، فالأمر هنا للتعجيز، ولهذا قال: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ يعني ولا سلطان لكم، ولا يمكن أحد أن ينفذ من أقطار السماوات والأرض إلى أين يذهب؟ لا يمكن ثم قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ٣٤ - ٣٥] يعني لو استطعتم، أو لو حاولتم لكان هذا الجزاء ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ أي: محمى بالنار ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ أي: فلا ينصر بعضكم بعضًا، وهذه الآية في مقام التحدي، وقد أخطأ غاية الخطأ من زعم أنها تشير إلى ما توصل إليه العلماء من الطيران، حتى يخرجوا من أقطار الأرض ومن جاذبيتها، وإلى أن يصلوا كما يزعمون إلى القمر أو إلى ما فوق القمر، فالآية ظاهرة في التحدي، والتحدي هو توجيه الخطاب إلى من لا يستطيع، ثم نقول: إن هؤلاء هل استطاعوا أن ينفذوا من أقطار السماوات، لو فرضنا أنهم نفذوا من أقطار الأرض ما نفذوا من أقطار السماوات، فالآية واضحة أنها في مقام التحدي، وأنها لا تشير إلى ما زعم هؤلاء أنها تشير إليه، ونحن نقول: الشيء الواقع لا نكذبه، ولكن لا يلزم من تصديقه أن يكون القرآن دل عليه أو السنة، الواقع واقع، فهم خرجوا من أقطار الأرض، وهذا واقع لا يحتاج إلى دليل، وهذه الآية في سياقها إذا تأملتها وجدت أن هذا التحدي يوم القيامة، لأنه قال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، ثم ذكر ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ثم ذكر ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾، ثم ذكر ما بعدها يوم القيامة، ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ [الرحمن: ٣٧] يعني: تفتحت وذلك يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ١: ٦].

﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ أي: مثل الوردة في الحمرة ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾، كالجلد المدهون، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٣٨] ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: إذا انشقت ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] لماذا؟ لأن كل شيء معلوم، والمراد لا يسأل سؤال استرشاد واستعلام، لأن كل شيء معلوم، أما سؤال تبكيت فيسأل مثل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [القصص: ٦٥: ٦٦]، وقال - عز وجل -:

﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٣٩: ٤٣] وقال - عز وجل - لأهل النار وهم يلقون فيها: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى﴾ [غافر: ٥٠] وأمثالها كثير، إذن لا يسأل عن ذنبه سؤال استرشاد واستعلام، وإنما يسألون سؤال تبكيت وتوبيخ، وما جاء من سؤال الإنس والجن عن ذنوبهم: هل أنت عملت أو لم تعمل؟ فهو سؤال تبكيت وتوبيخ، وهناك فرق بين سؤال الاسترشاد وسؤال التوبيخ فلا تتناقض الآيات، فما جاء أنهم يسألون فهو سؤال توبيخ، وما جاء أنهم لا يسألون فهو سؤال استرشاد واستعلام، لأن الكل معلوم ومكتوب، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ [الرحمن: ٤٠: ٤١] أي: بعلامتهم يعرفون، ومن علاماتهم - والعياذ بالله - أنهم سود الوجوه، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] وأنهم يحشرون يوم القيامة زرقًا إما أنهم زرق أحيانًا وسود أحيانًا، وإما أنهم سود الوجوه زرق العيون، وإما أنهم زرق زرقة يعني بالغة يحسبها الإنسان سوداء ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ النواصي: مقدم الرأس، والأقدام معروفة، فتؤخذ رجله إلى ناصيته، هكذا يطوى طيًّا إهانة له وخزيًا له، فيؤخذ بالنواصي والأقدام، ويلقون في النار ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [الرحمن: ٤٢ - ٤٣] يعني: يقال هذه جهنم التي تكذبون بها، وقال: ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ ولم يقل: تكذبون بها، إشارة إلى أنهم مجرمون، وما أعظم جرم الكفار الذين كفروا بالله ورسوله ﷺ، واستهزؤا بآيات الله واتخذوها هزوًا ولعبًا، ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا﴾ [الرحمن: ٤٤] أي: يترددون بينها ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ أي: شديد الحرارة - والعياذ بالله -.

أما كيف يكون ذلك فالله أعلم، لكننا نؤمن بأنهم يطوفون بينها وبين الحميم الحار الشديد الحرارة، والله أعلم بذلك، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٥]، ثم ذكر جزاء أهل الجنة فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] يعني أن من خاف المقام بين يدي الله يوم القيامة فإن له جنتين. وهذا الخوف يستلزم شيئين:

الشيء الأول: الإيمان بلقاء الله - عز وجل - لأن الإنسان لا يخاف من شيء إلا وقد تيقنه.

والثاني: أن يتجنب محارم الله، وأن يقوم بما أوجبه الله خوفًا من عقاب الله تعالى، فعليه يلزم كل إنسان أن يؤمن بلقاء الله - عز وجل -، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

[البقرة: ٢٢٣]، وأن يقوم بما أوجبه الله، وأن يجتنب محارم الله فمن خاف هذا المقام بين يدي الله - عز وجل - فله جنتان، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٧] سبق الكلام عليها ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٨] أي: صاحبتا أفنان، و(الأفنان) جمع (فنن) وهو الغصن، أي أنهما مشتملتان على أشجار عظيمة ذواتي أغصان كثيرة وهذه الأغصان كلها تبهج الناظرين ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٩]، ثم قال: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠] أي: في الجنتين عينان تجريان، وقد ذكر الله تعالى أن في الجنة أنهارًا من أربعة أصناف، فقال - جل وعلا -: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥] والعينان اللتان تجريان، يظهر - والله أعلم - أنهما سوى هذه الأنهار الأربعة ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٥١] وقوله: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢] أي: في هاتين الجنتين من كل فاكهة، والفاكهة كل ما يتفكه الإنسان به مذاقًا ونظرًا، فيشمل أنواع الفاكهة الموجودة في الدنيا، وربما يكون هناك فواكه أخرى ليس لها نظير في الدنيا، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٥٣].

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤] أي: يتنعمون بهذه الفاكهة حال كونهم متكئين، وعلى هذا فكلمة ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال من فاعل والفعل المحذوف، أي: يتنعمون ويتفكهون، ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾، والاتكاء قيل: إنه التربع، لأن الإنسان أريح ما يكون إذا كان متربعًا، وقيل ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ أي: معتمدين على مساند من اليمين والشمال ووراء الظهر ﴿عَلَىٰ فُرُشٍۭ﴾ يعني جالسين ﴿عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ يعني بطانة الفراش وهو ما يدحى به الفراش من استبرق وهو غليظ الديباج، وأما أعلى هذه الفرش فهو من سندس، وهو رقيق الديباج، وكله من الحرير ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ تأمل أو تصور هذه الحال إنسان متكئ مطمئن مستريح يريد أن يتفكه من هذه الفواكه هل يقوم من مكانه الذي هو مستقر فيه متكئ فيه ليتناول الثمرة؟ بيّن الله بقوله تعالى ذلك: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ قال أهل العلم: إنه كلما نظر إلى ثمرة وهو يشتهيها، مال الغصن حتى كانت الثمرة بين يديه لا يحتاج إلى تعب وإلى قيام، بل هو متكئ، ينظر إلى الثمرة مشتهيًا إياها، فتتدلى له بأمر الله - عز وجل - مع أنها جماد، لكن الله تعالى أعطاها إحساسًا بأن تتدلى عليه إذا اشتهاها ولا تستغرب فها هي الأشجار في الغالب تستقبل الشمس، انظر إلى وجوه الأوراق أول النهار تجدها متجهة إلى المشرق، وفي آخر النهار تجدها متجهة إلى المغرب ففيها إحساس، كذلك أيضًا جنى الجنتين دان قريب يحس، إذا نظر إليه الرجل أو المرأة فإنه يتدلى حتى

يكون بين يديه، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ [الرحمن: ٥٥ _ ٥٦] ﴿فِيهِنَّ﴾ أكثر العلماء يقولون: إن الضمير يعود إلى الجنتين، وأن الجمع باعتبار أن لكل واحد من الناس جنة خاصة به، فيكون ﴿فِيهِنَّ﴾ أي في جنة كل واحد ممن هو في هاتين الجنتين قاصرات الطرف، وعندي: أن قوله: ﴿فِيهِنَّ﴾ يشمل الجنات الأربع هاتين الجنتين والجنتين اللتين بعدهما، ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ يعني: أنها تقصر طرفها أي نظرها على زوجها فلا تريد غيره، والوجه الآخر: قاصرات الطرف، أي: أنها تقصر طرف زوجها عليها فلا يريد غيرها، وعلى القول الأول يكون قاصرات مضافة إلى الفاعل، وعلى الثاني مضاف إلى المفعول؛ ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ أي: لم يجامعهن، وقيل: إن الطمث مجامعة البكر، والمعنى أنهن أبكار لم يجامعهن أحد من قبل لا إنس ولا جن، وفي هذا دليل واضح على أن المؤمنين من الجن يدخلون الجنة.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٧ _ ٥٨] أي: في الحسن والصفاء كالياقوت والمرجان، وهما جوهران نفيسان، الياقوت في الصفاء، والمرجان في الحمرة، يعني أنهن مشربات بالحمرة مع صفاء تام ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٥٩]، ثم قال ـ عز وجل ـ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] يعني ما جزاء الإحسان إلا الإحسان، الإحسان الأول: العمل، والإحسان الثاني: الثواب، أي: ما جزاء إحسان العمل إلا إحسان الثواب، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦١ _ ٦٢] أي: من دون الجنتين السابقتين جنتان من نوع آخر، وقد جاء ذلك مبينًا في السنة، حيث قال النبي ﷺ: «جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُما، وَمَا فِيهِما وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُما وَمَا فِيهِما»[1] والآية صريحة أن هاتين الجنتين دون الأوليان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٣ _ ٦٤] أي: سوداوان من كثرة الأشجار ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٥ _ ٦٦] أي: تنضخ بالماء، أي: تنبع، وفي الجنتين السابقتين قال: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾، والجري أكمل من النبع، لأن النبع لايزال في مكانه لكنه لا ينضب، أما الذي يجري فإنه يسيح، فهو أعلى وأكمل، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٧ _ ٦٨] وهناك يقول: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾، أما هذا فقال ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾، والنخل والرمان معروفان في الدنيا، ولكن يجب أن تعلم أنه لا يستوي هذا وهذا. الاسم واحد والمسمى يختلف اختلافًا كثيرًا، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٧٨) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٨٠).

يَعۡمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧] ولو كانت النخل والرمان كالنخل والرمان في الدنيا لكنا نعلم، لكننا لا نعلم، فالاسم واحد، ولكن الحقيقة مختلفة، ولهذا قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء فقط»(١).

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾ [الرحمن: ٦٩ - ٧٠] ﴿فِيهِنَّ﴾ وهذا جمع، وقد قال قبل ذلك ﴿فِيهِمَا﴾، لأن هذا الجمع يعود على الجنان الأربع، ففي الجنان الأربع قاصرات الطرف كما سبق، وفي الجنان الأربع ﴿خَيۡرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ أي: في الأخلاق. الأخلاق طيبة، حسان الوجوه والبدن، فالأول حسن الباطن وهذا حسن الظاهر، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقۡصُورَٰتٌ فِي ٱلۡخِيَامِ ﴾ [الرحمن: ٧١ - ٧٢] الحوراء هي الجميلة التي جملت في جميع خلقها، وبالأخص العين: شديدة البياض، شديدة السواد، واسعة مستديرة من أحسن ما يكون، ﴿مَّقۡصُورَٰتٌ﴾ أي: مخبئات، ﴿فِي ٱلۡخِيَامِ﴾: جمع (خيمة)، والخيمة معروفة هي بناء له عمود وأروقة، لكن الخيمة في الآخرة ليست كالخيمة في الدنيا، بل هي خيمة من لؤلؤة طولها في السماء مرتفع جدًّا، ويرى من في باطنها من ظاهرها، ولا تسأل عن حسنها وجمالها، هؤلاء الحور مقصورات مخبئات في هذه الخيام على أكمل ما يكون من الدلال والتنعيم ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٌ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٧٤] يعني لم يجامعهن أحد، بل هي باقية على بكارتها إلى أن يغشاها زوجها، جعلنا الله منهم، ﴿وَلَا جَآنٌّ﴾ أي: ولا جن، وهذا يدل على أن الجن يدخلون الجنة مع الإنس وهو كذلك، لأن الله لا يظلم أحدًا، والجن منهم صالحون، ومنهم دون ذلك، ومنهم مسلمون ومنهم كافرون، كالإنس تمامًا، كما أن الإنس فيهم مطيع وعاصٍ، وفيهم كافر ومؤمن، كذلك الجن، والجن المسلم فيه خير، ويدل على الخير، وينبئ بالخير، ويساعد أهل الصلاح من الإنس، والجن الفاسق أو الكافر مثل الفاسق أوالكافر من بني آدم سواء بسواء، وكافرهم يدخل النار بإجماع المسلمين كما في القرآن: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨] وهذا نص القرآن، وأجمع العلماء على أن الكافر من الجن يدخل النار، ومؤمن الجن يدخل الجنة، وقوله تعالى: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٌ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنٌّ﴾ يدل على أن الجن يدخلون الجنة، وهو كذلك.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ﴾ [الرحمن: ٧٥: ٧٦] أي: معتمدين بأيديهم وظهورهم ﴿عَلَىٰ رَفۡرَفٍ﴾ أي: على مساند ترفرف مثل ما يكون على أطراف

---

(١) صحيح: أخرجه أبو نعيم في «صفة الجنة» (٢/ ٢١)، كذا قال الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢١٨٨).

المساند، ويكون في الأسرّة، هكذا يرفرف، ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾، لأن اللون الأخضر أنسب ما يكون للنظر، وأشد ما يكون بهجة للقلب، ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾، العبقري هو الفرش الجيدة جدًّا، ولهذا يسمى الجيد من كل شيء عبقري، كما قال النبي ﷺ في الرؤية التي رآها حين نزع عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «فَمَا رَأَيْتُ عَبْقَرِيًّا يَفْرِي فَرْيَهُ»[1] أي: ينزع نزعه: من قوته رضي الله عنه، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٧٧] المعنى التقرير، يعني أن النعم واضحة فبأي شيء تكذبون؟ الجواب: لا نكذب بشيء، نعترف بآلاء الله ونعمه ونقر بها ونعترف بأننا مقصرون، لم نشكر الله تعالى حق شكره، ولكننا نؤمن بأن الله أوسع من ذنوبنا، وأن الله تبارك وتعالى عفو كريم يحب توبة عبده، ويحب التوابين، ويحب المتطهرين، حتى قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «للهُ أَشَدُّ فَرحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ»[2] وذكر الرجل في فلاة أضل راحلته، وعليها طعامه وشرابه، فطلبها ولم يجدها، فأيس منها فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت، آيس من الحياة، فإذا بخطام ناقته متعلقًا بالشجرة، فأخذه وقال: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ»، يريد أنت ربي وأنا عبدك، لكن من شدة الفرح أخطأ فقال: «اللهم أنت عبدي وأنا ربك»، فالله تعالى أشد فرحًا بتوبة عبده من هذا الرجل بناقته، اللهم تب علينا يا رب العالمين.

﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨] ختم الله تبارك وتعالى هذه السورة بهذه الجملة العظيمة، أي ما أعظم بركة الله ـ عز وجل ـ وما أعظم البركة باسمه، حتى إن اسم الله يحلل الذبيحة أو يحرمها، لو ذبح الإنسان ذبيحة ولم يقل باسم الله تكون ميتة حرامًا نجسة مضرة على البدن، حتى لو ذبح ونسي أن يقول: «بسم الله» فهي حرام نجسة تفسد البدن، فيجب أن يسحبها للكلاب، لأنها نجسة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١] فانظر البركة، والإنسان إذا توضأ ولم يسم فوضوؤه عند بعض العلماء فاسد لابد من الإعادة، لأن البسملة واجبة عند بعض أهل العلم، والإنسان إذا رأى الصيد الزاحف، أو الطائر فيرميه ولم يسمِّ يكون هذا الصيد حرامًا ميتة نجسًا مضرًّا على البدن، فانظر البركة، والإنسان إذا أتى أهله يعني جامع زوجته وقال: «بسم الله، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا»[3] كان هذا حماية لهذا الولد الذي ينشأ من هذا الجماع، حماية له من الشيطان، قال النبي

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦٨٢)، ومسلم (٢٣٩٣).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤).
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤١)، ومسلم (١٤٣٤).

ﷺ: «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: «بِسم الله، اللَّهُمَّ جَنِّبنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا. فَإِنَّهُ إِن يُقَدَّرْ بَيْنَهُما وَلَدٌ لَمْ يَضُرُّهُ الشَّيْطَانُ أَبدًا» والإنسان يسعى يمينًا وشمالًا لحماية ولده ويخسر الدراهم الكثيرة، وهنا هذا الدواء من الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يسير من ناحية العمل، وسهل، وكل هذا دليل على بركة اسم الله عز وجل، ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي: ذي العظمة والإكرام، ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾: بمعنى (صاحب)، وهي صفة لـ﴿رب﴾، لا لـ﴿ٱسْمُ﴾ ولو كانت صفة لـ﴿ٱسْمُ﴾ لكانت (ذو)، و ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ يعني هو يُكرِم وهو يُكرَم، فهو يكرم ويحترم ويعظم -عز وجل- وهو أيضًا يكرم، قال الله تعالى في أصحاب الجنة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥] فهو ذو الجلال والإكرام يكرم من يستحق الإكرام، وهو يكرمه -عز وجل- عباده الصالحون جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة الرحمن



تفسير سورة الواقعة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، البسملة تقدم الكلام عليها ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾ [الواقعة: ١: ٤] حذف الله جواب الشرط في هذه الآيات من أجل أن يذهب الذهن في تقديره كل مذهب، يعني إذا وقعت الواقعة صارت الأهوال العظيمة، وصار انقسام الناس، وحصل ما حصل مما أخبر به الله ورسوله ﷺ مما يكون في يوم القيامة، وقوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ كقوله: ﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ﴾ والمراد بذلك يوم القيامة ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي: ليست لوقعتها كذب، بل وقعتها حق ولابد، والإيمان بيوم القيامة أحد أركان الإيمان الستة التي أخبر بها رسولَ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم جبريلُ عليه السلام حين سأله عن الإيمان قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِالله، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١)، وكثيرًا ما يقرن الله الإيمان به بالإيمان باليوم الآخر، لأن الإيمان باليوم الآخر يحدو بالإنسان أن يعمل العمل الصالح، وأن يبتعد عن العمل السيء لأنه يؤمن أن هناك يومًا آخر يجازى فيه الإنسان المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ يعني هي خافضة رافعة، أي: يخفض فيها الناس ويرفع فيها آخرون. ولكن من الذي يرفع؟ قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] فأهل العلم والإيمان هم الذين لهم الرفعة في الدنيا والآخرة، ومن سواهم فإنهم موضوعون بحسب بعدهم عن الإيمان والعلم، وتخفض أهل الجهل والعصيان، وكم من إنسان في الدنيا رفيع الجاه، معظم عند الناس يكون يوم القيامة من أحقر عباد الله، والجبارون المتكبرون يحشرون يوم القيامة كأمثال الذر يطؤهم الناس بأقدامهم، مع أنهم في الدنيا متبخترون مستكبرون عالون على عباد الله، لكنهم يوم القيامة موضوعون مهينون قد أخزاهم الله ـ عز وجل ـ.

﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾ يعني زلزلت زلزلة عظيمة، ولهذا قال: ﴿رَجًّا﴾ أي: رجًّا عظيمًا، وأنت

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

تصور أنك ترج إناء فيه ماء كيف يكون اضطراب الماء فيه، فالأرض يوم القيامة ترج بأمر الله - عز وجل -، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١] وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: ٥] أي: بعثرت وهبطت وصارت كثيبًا مهيلًا، ولهذا قال: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٦] كالهباء الذي نراه حينما تنعكس أنوار الشمس في حُجرة مظلمة، ترى هذا الهباء من خلال ضوء الشمس منبثًّا متفرقًا، هذه الجبال الصم الصلبة التي يكون الصخر فيها أكبر من الجبال، بل ربما يكون الجبل الواحد صخرة واحدة يكون يوم القيامة هباء منبثًّا بأمر الله - عز وجل -، فتبقى الأرض ليس فيها جبال ولا شجر ولا أودية ولا رمال، كما قال الله - عز وجل -: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٦] أي الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٦ - ١٠٧] ﴿وَكُنتُمْ﴾ الخطاب للآدميين عموما ﴿أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ أي أصنافًا، كما قال الله عز وجل: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] أي: أصنافهم، وقال تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص: ٥٨] أي: أصنافًا، فمعنى ﴿أَزْوَٰجًا﴾ يعني أصنافًا ﴿ثَلَٰثَةً﴾ لا رابع لها: السابقون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، فينقسم الناس يوم القيامة ثلاثة أقسام لا رابع لها.

﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ [الواقعة: ٨: ١٠] ذكرهم الله تعالى غير مرتبين في الفضل، فبدأ الله بأصحاب الميمنة ثم ثنَّى بأصحاب الشمال، ثم ثلَّث بالسابقين، لكن عند التفصيل بدأ بهم مرتبين على حسب الفضل فبدأ بالسابقين، ثم بأصحاب اليمين، ثم بأصحاب الشمال، وهذا التفصيل المرتب خلاف الترتيب المجمل، وهو من أساليب البلاغة، ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾. يعني أنه - عز وجل - أخبر بأن أحد الأصناف أصحاب الميمنة، ثم قال ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ من هم، وسيأتي إن شاءالله ذكرهم مفصلًا، ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ أي: ذوو الشؤم، وسيأتي أيضًا ذكرهم مفصلًا، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ هؤلاء أفضل الأصناف، وقوله ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ أصح الأعاريب فيها أن قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ مبتدأ، وخبره ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾، يعني أن السابقين إلى الأعمال الصالحة هم السابقون إلى الثواب في الآخرة، فكأنه قال: السابقون في الدنيا بالأعمال الصالحة هم السابقون في الآخرة بالثواب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١١]، أي: إلى الله - عز وجل - فهم في أعلى الجنان، وأعلى الجنان أقرب إلى الرحمن - عز وجل -، لأن (الفردوس) وهو أعلى درجات الجنة فوقه

عرش الله - عز وجل - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ ذكر منزلتهم قبل ذكر منزلهم، وكما يقال: (الجار قبل الدار)، وكما قالت امرأة فرعون: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ﴾ [التحريم: ١١] بدأت بالجوار ﴿بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ وهنا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ قبل أن يبدأ بذكر الثواب؛ لأن قربهم من الله - عز وجل - فوق كل شيء، جعلنا الله منهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي في هذا المقر العظيم الذي فيه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأضاف الجنات إلى النعيم، لأن ساكنها منعم في بدنه، ومنعم في قلبه، كما قال - عز وجل - في سورة الإنسان: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١٠ - ١١] نضرة في الوجوه، وسرورًا في القلوب، فهم في نعمتين: هما نعيم البدن، ونعيم القلب، ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٣] هذا من نعيم البدن أيضًا ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١] هذا من نعيم البدن إلى غير ذلك مما ذكره الله - عز وجل - من النعيم في الجنة، ولو لم يكن فيها إلا أن الإنسان يخلد فيها لا يموت، ويصح فلا يسقم، ويشب يكون شابًا دائمًا فلا يهرم، وفوق ذلك كله النظر إلى وجه الله - عز وجل - كما قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] يعني فوق الحسنى وفسر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم الزيادة بأنها: «النَّظَرُ إِلَى وَجهِ الله »[(١)]، اللهم اجعلنا ممن ينظرون إليك في جنات النعيم.

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الواقعة: ١٣] قيل: إن المراد بذلك الأمم السابقة ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٤] يعني أمة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وعلى هذا القول تكون قلة هذه الأمة باعتبار كثرة الأمم السابقة، وليس المعنى أن الذين يدخلون الجنة من الأمم السابقين باعتبار كل نبي أكثر من الذين يدخلون الجنة من هذه الأمة، وقيل: المراد بـ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أول هذه الأمة، أي: ثلة من أول هذه الأمة، وقليل من آخرها، وهذا القول هو الصحيح، بل هو المتعين، لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ»[(٢)] أي نصفهم، وفي حديث آخر: «إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ مِائَةٌ وَعِشْرونَ صَفًّا مِنْهُم ثَمانُونَ مِنْ هَذِهِ الأُمةِ»[(٣)] وعلى هذا لا يصح أن نقول: قليل من هذه الأمة، وكثير من الأمم السابقة، بل نقول: ثلة أي كثير من

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٨١)، والترمذي (٢٥٥٢)، وابن ماجه (١٨٧).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٢٨)، مسلم (٢٢١).
(٣) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٣٤٧)، والترمذي (٢٥٤٦)، وابن ماجه (٤٢٨٩)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

هذه الأمة من أولها، وقليل من آخرها.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ [الواقعة: ١٥] (سرر) جمع (سرير)، وهو ما يتخذه الإنسان للجلوس والنوم، ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾ قال العلماء: منسوجة من الذهب، ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا﴾ [الواقعة: ١٦] أي: معتمدين على أيديهم وعلى ظهورهم، فهم في راحة في اليد وفي الظهر ﴿مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ أي: يقابل بعضهم بعضًا، وهذا يدل على سعة المكان، لأن المكان إذا كان ضيقًا لا يمكن أن يكون الناس متقابلين، وهذه الآية تدل على أن الأمكنة واسعة وهو كذلك، ولهذا كان أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر في ملكه ألفي عام، ينظر أقصاه كما ينظر أدناه، والله على كل شيء قدير، والجنة عرضها كعرض السماوات والأرض، ومن يحيط بسماء واحدة، كيف وهي عرض السماوات السبع، والسماوات السبع بعضها من فوق بعض؟! وكلما كان الشيء فوق كانت دائرته أوسع، فمن يحيط بهذا إلا الله ـ عز وجل ـ، إذن هم متقابلون لأن أمكنتهم واسعة، ولأن لديهم من كمال الأدب ما لا يمكن أن يستدبر أحدهم الآخر، كلهم مؤدبون، كلهم قلوب صافية، قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧] ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن التدابر[1]. والتدابر يشمل التدابر القلبي بحيث يكون كل واحد متجه إلى وجه، والتدابر البدني إلا عند الحاجة أو الضرورة، وإلا فمتى أمكن التقابل فهو أفضل، فلو أن أحدًا يكلمك وقد ولاَّك ظهره هل يكون سماعك له ومحبتك له كما لو كان يحدثك مستقبلا إياك؟ وهذا شيء مشاهد معلوم، فأهل الجنة على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين، وفي حال الاتكاء ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة: ١٧] (الولدان) جمع (ولد)، أو جمع (وليد): كغلمان جمع غلام ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ يتردد عليهم، ﴿وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: خُلِقوا ليخلدوا، وهم غلمان شباب إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤًا منثورًا، لجمالهم وصفائهم وكثرتهم وانتشارهم في أملاك أسيادهم، إذا رأيتهم أي: إذا رأيت الولدان، فإذا كان الولدان تحسبهم لؤلؤًا منثورًا، فكيف بالسادة؟ أعظم وأعظم ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٧ ـ ١٨] أكواب هي عبارة عن كؤوس لها عرى، والأباريق أيضًا أواني لها عرى ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ ليس له عروة، قوله: ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ أي: من خمر معين ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩] يعني لا يوجع بها الرأس، ولا ينزف بها العقل، بخلاف خمر الدنيا فإنها تؤلم الرأس وتذهب العقل، ﴿وَفَـٰكِهَةٍ﴾ معطوفة على قوله ﴿بِأَكْوَابٍ﴾، أي: ويطوف عليهم الولدان بفاكهة ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ لطيبها

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠٦٤)، مسلم (٢٥٥٩).

منظرًا، وطيبها مشمًّا، وطيبها مأكلًا، وهذه الفاكهة طيبة في منظرها، وطيبة في رائحتها، وطيبة في مأكلها ومذاقها؛ لأن الله قال: ﴿مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ والإنسان لا يعاف الشيء إلا لقبح منظره، أو لقبح رائحته، أو لقبح مأكله، والفاكهة في الجنة طيبة في لونها، وحجمها، وريحها، ومذاقها، وسبحان الله يؤتون بها متشابهة في اللون والحجم والرائحة، لكن في المذاق مختلفة، وهذا مما يزيد الإنسان فرحًا وسرورًا وإيمانًا بقدرة الله - عز وجل - ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢١] أي: ويطوف عليهم هؤلاء الولدان بلحم طير، وذكر لحم الطير؛ لأن لحوم الطير أنعم اللحوم وألذها، وهذا الطير من أين يتغذى؟ الجواب: ليس لنا أن نسأل عن هذا، لأن أمور الغيب يجب علينا أن نؤمن بها بدون سؤال، فنقول: إن كانت هذه الطيور تحتاج إلى غذاء فما أكثر ما تتغذى به، لأنها في الجنة، وإن كانت لا تحتاج إلى غذاء، فالله على كل شيء قدير.

﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ [الواقعة: ٢٢] الحور هن البيض، و ﴿عِينٌ﴾: أي حسنات الأعين، وهن ذات العيون الواسعة الجميلة ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٣] أي: المغطى حتى لا تفسده الشمس ولا الهواء ولا الغبار فيكون صافيًا من أحسن اللؤلؤ ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة: ٢٤] أي: يجزون بهذا الثواب الجزيل ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بعملهم، أو بالذي كانوا يعملونه لأن (ما) في قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يصح أن تكون مصدرية، ويصح أن تكون اسمًا موصولًا، والباء هنا للسببية، والباء لها معانٍ كثيرة بحسب السياق فتكون للعوض كقولهم: «بعت الثوب بدينار»، وتكون للسببية كما في قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ٥٧] فقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ أي: بسببه، ولا يصح أن تكون الباء في قوله تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ للعوض؛ لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لن يدخل الجنة أحد بعمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي الله بِرَحْمَتِهِ»[1] فالباء في قوله: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب عملهم، وليس المعنى أنه عوض؛ لأن الله تعالى لو أراد أن يعاوضنا لكانت نعمة واحدة تحيط بجميع أعمالنا ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨] فانتبه لهذا، ولذلك استشكل بعض العلماء قوله تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ والنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «لن يدخل أحد الجنة بعمله» والجواب: أن الباء في النفي باء العوض، والباء في الإثبات باء السببية.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦٧٣) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٨١٦).

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥ - ٢٦] أي: أهل الجنة لا يسمعون كلامًا لا فائدة منه، ولا كلامًا يأثم به الإنسان، فالكلام الذي لا خير فيه، والكلام القبيح لا يوجد في الجنة ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ الاستثناء هنا استثناء منقطع؛ لأن المستثنى من غير جنس المستثنى منه، فالسلام ليس من اللغو ولا من التأثيم، وعلامة الاستثناء المنقطع أن تجعل بدل ﴿إِلَّا﴾ (لكن) فيستقيم الكلام، وهنا لو قيل في غير القرآن: لا يسمعون فيها لغوًا ولا تأثيمًا ولكن قيلًا سلامًا سلامًا لاستقام الكلام. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ [الغاشية: ٢١ - ٢٤] فالاستثناء هنا ﴿إِلَّا مَن﴾ منقطع؛ لأن ما بعد ﴿إِلَّا﴾ ليس من جنس ما قبلها؛ لأن الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم ليس بمصيطر لا على الكافرين ولا على غيرهم، فتكون ﴿إِلَّا﴾ بمعنى (لكن)، ولهذا جاءت الفاء ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ وعليه لو أن قارئًا وقف على قوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ فالوقف صحيح.

﴿سَلَامًا سَلَامًا﴾ أي: إلا قول فيه السلامة وإدخال السرور والفرح بين أهل الجنة جعلنا الله منهم.

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧] هذه الطبقة الثانية وهي دون الأولى، والاستفهام في قوله: ﴿مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ استفهام تعجب وتفخيم، يعني: أي قوم هؤلاء؟! ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٨] السدر شجر معروف ظله بارد ومنشط، ولكن السدر الذي في الجنة ليس كالسدر الذي في الدنيا، الاسم واحد والمعنى مختلف، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] ولو كان ما في الجنة كالذي في الدنيا لكنا نعلم، والمخضود الذي لا شوك فيه، ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٩] الطلح قيل: إنه شجر الموز، والمنضود الذي ملئ ثمرة ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠] أي: لا نهاية له؛ لأن الجنة ليس فيها شمس بل هي ظل، وصفها بعض السلف بأنها كالنور الذي يكون قرب طلوع الشمس، تجد الأرض مملوءة نورًا ولكن لا تشاهد شمسًا، فهو ظل ممدود في المساحة والزمن ﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ [الواقعة: ٣١] أي: ماء مستمر دائمًا، كما قال تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠] وغير الماء أنهار أخرى من عسل ولبن وخمر، فالأنواع أربعة، وقد ورد أن هذه الأنهار تجري في غير أخدود، قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - في «النونية»:

أَنْهَارُهَا فِي غَيْرِ أُخْدُودٍ جَرَتْ ... سُبْحَانَ مُمْسِكِهَا عَنِ الفَيَضَانِ

فإذا قال قائل: هل هذا ممكن؟!

فالجواب: نقول: لا تتحدث: هل هذا ممكن؟ بل صدِّق، وأخبار الغيب لا يمكن أن يرد عليها هذا السؤال، أليس النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أخبر أن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر؟ الجواب: بلى، والواجب التصديق، وأن لا نقول: كيف؟ ولِمَ؟ لأن أمور الغيب ثابتة في القرآن والسنة فلا تسأل مثل هذا السؤال، لأنه لا يمكن الإحاطة بها، بل قل: «آمنت بالله ورسوله» واستقم.

﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ﴾ [الواقعة: ٣٢] الفاكهة كل طعام أو شراب يتفكه به الإنسان؛ لأن الطعام والشراب يكون أحيانًا ضروريًّا معتادًا لا تتفكه به بل هو ضروري للبقاء، وأحيانًا يكون الطعام والشراب فاكهة يتفكه به الإنسان ﴿كَثِيرَةٖ﴾ أي: في أي وقت من الأوقات تجد هذه الفاكهة بينما في الدنيا الفواكه لها أوقات معينة تنقطع، ولهذا قال تعالى: ﴿لَّا مَقۡطُوعَةٖ﴾ [الواقعة: ٣٣] أي: لا تقطع أبدًا في كل الأوقات ﴿وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾ أي: لا أحد يمنعها، بل قد قال الله تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ﴾ [الحاقة: ٢٣] أي: ما يقطفه الإنسان من الثمرة دانٍ، حتى إنه إذا اشتهى الإنسان الثمرة وهي فوق تدلى الغصن حتى يكون بين يديه بدون تعب، وفاكهة الدنيا مقطوعة تأتي في وقت دون وقت، وممنوعة فلا يمكن أن تدخل بستان أحدٍ إلا بإذنه، أما في الآخرة فلا، ﴿وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٤] الفراش ما ينام عليه الإنسان ﴿مَّرۡفُوعَةٍ﴾ أي عالية، ولما كان الذي مع الإنسان في الفراش الحور العين.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ﴾ [الواقعة: ٣٥] أي: أنشأناهن إنشاءً عجيبًا غريبًا بديعًا، وفسر هذا الإنشاء بقوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا﴾ [الواقعة: ٣٦] أي: هؤلاء الزوجات أبكار مهما أتاها زوجها عادت بكرًا ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] ونساء الدنيا إذا افتض الزوج بكارة الزوجة لا تعود، ولكن في الآخرة تعود بكرًا ﴿عُرُبًا أَتۡرَابٗا﴾ [الواقعة: ٣٧] العُربُ المتحببات إلى أزواجهن، وهذا يدل على كمال المتعة أن تكون الزوجة تتحبب إلى زوجها وتتقرب إليه وتغريه بنفسها، وتفعل كل ما يوجب محبته لها، ﴿أَتۡرَابٗا﴾ أي: على سن واحدة لا تختلف ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٣٨] أي: ذلك المذكور من النعيم النفسي والبدني لأصحاب اليمين.

﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٣٩: ٤٠] هؤلاء هم أصحاب اليمين الذين هم في المرتبة الثانية، والمرتبة الأولى السابقون السابقون، قال الله تعالى فيهم: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ

﴿ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ يعني ثلة من الأولين من هذه الأمة، وقليل من الآخرين، فإن خير قرون الأمة القرن الأول الذي هو قرن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ثم الثاني، ثم الثالث، ثم تتناقص، أما أصحاب اليمين فقال الله تعالى فيهم: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ أي: جماعة من هؤلاء وجماعة من هؤلاء، ثم ذكر الله القسم الثالث فقال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ [الواقعة: ٤١] وهم الكفار والمنافقون ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤٢] هذا القسم في سموم، أي: حرارة شديدة ـ والعياذ بالله ـ، وقد بيَّن الله تبارك وتعالى في آيات كثيرة كيفيتها، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦] وأخبر أنه ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: ١٩: ٢١] والآيات في هذا المعنى كثيرة، وقوله: ﴿وَحَمِيمٍ﴾، الحميم هو الماء الحار الشديد الحرارة، فهم ـ والعياذ بالله ـ محاطون بالحرارة من كل وجه، ومن كل جانب، ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٣] اليحموم هو الدخان المحض، وقد وصفه الله بأنه ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤٤] يعني ليس باردًا يقيهم الحر، ولا كريم حسن المنظر يتنعمون به، ويستريحون فيه فهو ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ كما هو الشأن في الظل، ولا كريم، أي: حسن المظهر لأنه دخان كريه منظره حار مخبره ـ نسأل الله العافية ـ، ثم بيَّن حالهم من قبل فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤٥]، وذلك في الدنيا، قد أترف الله أبدانهم، وهيأ لهم من نعيم البدن ما وصلوا فيه إلى حد الترف، لكن هذا لم ينفعهم ـ والعياذ بالله ـ ولم ينجهم من النار، ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٤٦]، ﴿يُصِرُّونَ﴾ أي: يستمرون عليه، والحنث العظيم هو الشرك؛ لأن الأصل في الحنث الإثم، والعظيم هو الشرك، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وكانوا أيضًا ينكرون البعث: ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧] ينكرون هذا إنكارًا عظيمًا، يقولون: أإذا بليت عظامنا وصارت رُفاتًا هل نبعث؟ وأيضا هل يبعث آباؤنا الأولون؟ ولهذا يحتجون يقولون: ﴿ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥]، وهذه حجة باطلة؛ لأنه لا يقال لهم: إنكم ستبعثون اليوم، وإنما تبعثون يوم القيامة، فكيف تتحدون وتقولون: هاتوا آباءنا؟ فاليوم الآخر ليس هو اليوم الحاضر حتى يتحدوا ويقولوا: هاتوا آباءنا؛ نقول: إن هذا يكون يوم القيامة.

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩ ـ ٥٠] الأولون من المخلوقين والآخرون كلهم سيبعثون في صعيد واحد، يسمعهم الداعي

وينفذهم البصر، لا جبال ولا أشجار، ولا كروية بل تمد الأرض مسطحة، يرى أقصاهم كما يرى أدناهم، والآن لما كانت الأرض كروية فإن البعيد لا تراه؛ لأنه منخفض، لكن إذا كان يوم القيامة سطحت الأرض، وصارت كالأديم، أي: كالجلد الممدود، فيبعث الخلائق كلهم على هذا الصعيد، وقوله: ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ أي: عند الله ـ عز وجل ـ لقول الله: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ١٨٧] ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ﴾ أي بعد البعث ﴿أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ﴾ الضالون في العمل فهم لا يعملون، المكذبون للخبر فهم لا يصدقون ـ والعياذ بالله ـ ﴿لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ﴾ [الواقعة: ٥٢] أي: آكلون من شجر، وهذا الشجر نوعه من زقوم، كما تقول: خاتم من حديد، وباب من خشب، وجدار من طين، فقوله ﴿مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ﴾ ﴿مِن شَجَرٖ﴾ متعلقة بأكلهم، ﴿مِّن زَقُّومٖ﴾ بيان للشجر، وسمي زقومًا لأن الإنسان ـ والعياذ بالله ـ إذا أكله يتزقمه تزقمًا، لشدة بلعه لا يبتلعه بسهولة ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾ [الواقعة: ٥٣] أي: أنهم يملأون البطون من هذا الشجر، مع أن هذا الشجر مرّ خبيث الرائحة، كريه المنظر، لكن لشدة جوعهم يأكلونه كما يأكل الجائع المضطر، فهم يأكلونه على تكره، كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖ﴾ [إبراهيم: ١٧]، فهم يأكلون من هذا الشجر، ويملأون البطون منها، يأتيهم شغف عظيم جدًّا للأكل، حتى يملأوا بطونهم مما يكرهونه، وهذا أشد في العذاب ـ نسأل الله العافية ـ ثم إذا ملأوا بطونهم من هذا الطعام اشتدت حاجتهم إلى الشرب، فكيف يشربون؟ قال الله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٤] الحميم: هو الماء الحار، يشربون ماءً حارًّا بعد أن يستغيثوا مدة طويلة، وقد وصف الله هذا الماء بقوله: ﴿بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ [محمد: ١٥] فتأمل يا أخي هذا: إذا قربوه من الوجه يشويه، وإذا دخل بطونهم قطع أمعاءهم، ومع ذلك يشربونه بشدة: ﴿شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾، أي: شرب الإبل، و(الهيم): جمع (هائمة)، أو جمع (هيماء)، يعني أنها شديدة العطش لا يرويها الشيء القليل، فيملأون بطونهم ـ والعياذ بالله ـ من الشجر الزقوم، ويشربون من الحميم شرب الهيم، أسأل الله أن يجيرني وإياكم من النار.

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥٦] أي: هذه ضيافتهم، بخلاف المؤمنين فإن ضيافتهم جنات الفردوس ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا (١٠٧) خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ [الكهف: ١٠٧: ١٠٨] ثم قال ـ عز وجل ـ: ﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٧]

وهذا أمر لا أحد ينكره: أن خالقنا هو الله، حتى المشركون الذين يشركون مع الله إذا سئلوا: من خلقهم؟ قالوا: الله، ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أي: أول مرة ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أي: في إعادتكم ثاني مرة، و(لولا) هنا بمعنى: هلا تصدقون، كان الواجب عليهم وهم يصدقون بأن خالقهم أول مرة هو الله أن يصدقوا بالخلق الآخر؛ لأن القادر على الخلق الأول قادر على الخلق الآخر من باب أولى، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال ـ عز وجل ـ: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٧]، ثم ضرب الله تعالى أمثالا بما فيه وجودنا، وما فيه بقاؤنا، وما فيه استمتاعنا، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨ ـ ٥٩] أي: أخبروني عن هذا المني الذي يخرج منكم: هل أنتم تخلقونه أم الله؟ والجواب: الله ـ عز وجل ـ هو الذي يخلقه، فيخرج من بين الصلب والترائب، وهو الذي يخلقه في الرحم خلقًا من بعد خلق، فنحن لا نوجد هذا المني ولا نطوره في الرحم، بل ذلك إلى الله ـ عز وجل ـ ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ الجواب: بل أنت يا ربنا. ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ [الواقعة: ٦٠] أي: قضيناه بينكم، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، ولابد حتى الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠ ـ ٦١] أي: لا أحد يسبقنا فيمنعنا أن نبدل أمثالكم، بل نحن قادرون على ذلك، وسوف يبدل الله تعالى أمثالنا أي ينشئنا خلقا آخر وذلك يوم القيامة.

﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وذلك يوم القيامة ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الواقعة: ٦٢] وهي أنكم نشأتم في بطون أمهاتكم، وأخرجكم الله ـ عز وجل ـ من العدم ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢] أي: فهلا تذكرون وتتعظون، وهذا دليل عقلي من الله ـ عز وجل ـ يعرضه على عباده، ومعناه: إنا بدأناكم أول مرة فإذا بدأناكم أول مرة، فلسنا بمسبوقين على أن نعيدكم ثاني مرة.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣: ٦٤] أي: أخبروني أيها المكذبون بالبعث عن الذي تزرعونه بالحرث: هل أنتم الذين تخرجونه زرعًا بعد الحب.

أم نحن الزارعون؟ الجواب: بل أنت يا ربنا، أنت الذي تزرعه، أي تنبته حتى يكون زرعًا، كما قال ـ جل وعلا ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥] فلا أحد يستطيع أن يفلق هذه الحبة حتى تكون زرعًا، ولا هذه النواة حتى تكون نخلًا إلا الله ـ عز وجل ـ ﴿لَوْ نَشَآءُ

﴿لَجَعَلْنَهُ حُطَمًا﴾ ولم يقل ـ عز وجل ـ لو نشاء لم نخرجه بل قال: ﴿لَجَعَلْنَهُ حُطَمًا﴾ أي: بعد أن يخرج ويكون زرعًا وتتعلق به النفوس يجعله الله تعالى حطامًا، وهذا أشد ما يكون سببًا للحزن والأسى؛ لأن الشيء قبل أن يخرج لا تتعلق به النفوس، فإذا خرج وصار زرعا ثم سلط الله عليهم آفة، فكان حطامًا، أي: محطومًا لا فائدة منه، فهو أشد حسرة ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي: تتفكهون بالكلام تريدون أن تذهبوا الحزن عنكم، فتقولون ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٦] أي لحقنا الغرم بهذا الزرع الذي صار حطامًا، ثم تستأنفون فتقولون: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة :٦٧] أي: حرمنا هذا الزرع، وصار حطاما ففقدناه، ثم انتقل الله ـ عز وجل ـ إلى مادة أخرى، وهي مادة الحياة، وهي الماء فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨] أي: أخبرونا عنه من الذي خلقه؟ من الذي أوجده؟ ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٩]؟

والجواب: بل أنت يا ربنا، والمعنى: هل أنتم أنزلتم الماء الذي تشربونه من المزن أي من السحاب أم نحن المنزلون؟ الجواب: هو الله ـ عز وجل ـ، لأنه يرسل إلينا السحاب فينزل المطر فمنه ما يبقى على الأرض، وما شربته الأرض يسلكه الله تعالى ينابيع في الأرض، ويستخرج من الآبار، ويجري من العيون، فأصل الماء الذي نشرب من المزن، من السحاب، ولذلك إذا قلَّ المطر في بعض الجهات قل الماء وغار، واحتاج الناس إلى الماء ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٠] أي: جعلناه مالحًا، كريه الطعم لا يمكن أن يشرب، وهنا يقول: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ ولم يقل: لو نشاء لغورناه، أو منعنا إنزاله؛ لأن كونهم ينظرون إلى الماء رأي العين ولكن لا يمكنهم شربه، أشد حسرة مما لو لم يكن موجودًا، والله ـ عز وجل ـ يريد أن يتحداهم بما هو أعظم شيء في حسرة نفوسهم ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أي فهلا تشكرون الله ـ عز وجل ـ على إنزاله من المزن، وعلى كونه سائغًا عذبًا لذيذ الطعم سريع الهضم، ثم انتقل الله تعالى إلى أمر ثالث يصلح به الطعام والشراب وهو النار، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ [الواقعة: ٧١] أي: توقدون ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ [الواقعة: ٧٢] والجواب: بل أنت يا ربنا، وشجرة النار هي شجر معروف الحجاز، وربما يكون معروفًا غيره، يسمى المرخ والعفار، وهذا الشجر له خاصية إذا ضرب بالمرو أو بشيء ينقدح مع المماسة اشتعل نارًا يوقد منه وهو معروف، ولهذا يقال:

في كل شجر النار ... واستمجد المرخ والعفار

يعني صار أعظمها، هذه النار التي نوقدها، ونطبخ عليها طعامنا، ونسخن مياهنا وننتفع بها

أنشأها الله عز وجل ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ أي: تذكر هذه النار بنار الآخرة، مع أن نار الآخرة فضلت بتسعة وستين جزءًا على نار الدنيا كلها، لما فيها من النيران الحارة الشديدة ﴿وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ أي: للمسافرين يتمتعون بالنار بالتدفئة، والدلالة على المكان، لأنهم في ذلك الوقت وإلى وقت قريب كان الناس يستدلون على الأمكنة بنار يضعونها على مكان مرتفع تهدي الضال، ويضرب المثل في الدلالة بالعلم عليه النار، كما قالت الخنساء ترثي أخاها صخرًا:

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤] أي: سبح الله ـ عز وجل ـ بهذا الاسم، فقل: «سبحان ربي العظيم»، والتسبيح يعني أن الله تعالى منزه عن كل نقص وعيب، فإذا قلت: «سبحان الله»، فالمعنى أني أنزهك يا ربي من كل نقص وعيب، وقوله: ﴿الْعَظِيمِ﴾ أي: ذو العظمة البالغة، ولما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُم». ولما نزلت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] قال: «اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُم»[1]، ولهذا ينبغي للإنسان إذا كان يصلي وقال: «سبحان ربي العظيم» أن يستحضر أمر الله في قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ وأمر الرسول ﷺ في قوله: «اجعلوها في ركوعكم» حتى يجمع بين: الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٧٦] يخبر الله تبارك وتعالى أنه يقسم بمواقع النجوم، و ﴿لَا﴾ في قوله ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ للتنبيه والتوكيد وليست للنفي؛ لأن المراد إثبات القسم وليس نفيه وهذا كقوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ١] وقوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: ١] وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النساء: ٦٥] وأمثال ذلك يؤتى بـ(لا) بصورة النفي، والمراد بذلك التوكيد والتنبيه. والقسم تأكيد الشيء بذكر معظم بأدوات مخصوصة، وهي الواو والباء والتاء، وقوله: ﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ اختلف فيها العلماء رحمهم الله، فمنهم من قال: إن المراد بذلك أوقات نزول القرآن؛ لأن القرآن نزل مفرقًا، والشيء المفرق يسمى منجمًا، كما يقال في الدين المقسط على سنوات أو أشهر، يقال: إنه دين منجم، وقيل: المراد بمواقع النجوم مواقع الطلوع والغروب؛ لأن مواقع

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٥٥)، وأبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧)، وضعفه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٣٣٤).

غروبها إيذان بالنهار، ومواقع طلوعها إيذان بالليل، وتعاقب الليل والنهار من آيات الله العظيمة الكبيرة التي لا يقدر عليها إلا الله ـ عز وجل ـ فيكون الله تبارك وتعالى أقسم بما يدل على إقبال الليل وإدباره، وقيل: المراد بمواقع النجوم: الأنواء، وكانوا في الجاهلية يعظمونها حتى إنهم يقولون: إن المطر ينزل بالنوء. ويقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، والمهم أن الله تعالى أقسم بمواقع النجوم على أمر من أعظم الأمور، وهو قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦ ـ ٧٧] لكن الله بيّن عظم هذا القسم قبل أن يبين المقسم عليه، فقال ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ وأتى بالجملة الاعتراضية في قوله: ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ إشارة على أنه يجب أن نتفطن لهذا القسم وعظمته حتى نكون ذوي علم به ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ أي: إن الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ﴿لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾، والكرم يراد به الحسن والبهاء والجمال، كما في قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لمعاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ حين بعثه إلى اليمن وأمره أن يبين للناس أن عليهم زكاة في أموالهم قال: «إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِم»[1] و(الكرائم) جمع (كريمة)، والمراد بها الشاة الحسنة الجميلة، وهو كريم – أعني: القرآن كريم ـ في ثوابه، فالحرف بحسنة، والحسنة بعشرة أمثالها، وهو كريم في آثاره على القلوب وصلاحها، فإن قراءة القرآن تلين القلوب، وتوجب الخشوع لله ـ عز وجل ـ وكريم في آثاره بدعوة الناس إلى شريعة الله كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، فالمهم أن القرآن كريم بكل معنى الكرم.

﴿فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٨ ـ ٧٩] اختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ في الكتاب المكنون، فقيل: إنه اللوح المحفوظ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢١ ـ ٢٢]. وقيل: المراد به الكتب التي بأيدي الملائكة كما قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٢ ـ ١٦] وهذا القول رجحه ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه «التبيان في أقسام القرآن» وأكثر المفسرين على أن المراد به اللوح المحفوظ.

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ أي: لا يمس هذا الكتاب المكنون ﴿إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ وهم الملائكة طهرهم الله تعالى من الشرك والمعاصي، ولهذا لا تقع من الملائكة معصية، بل هم ممتثلون لأمر الله قائمون به

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٩٦) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٩).

على ما أراد الله، وذهب بعض المفسرين إلى قول غريب، وقالوا: المراد بقوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ أي لا يمس القرآن إلا طاهر، ولكن هذا قول ضعيف لا تدل عليه الآية، لأنه لو كان المراد ذلك لقال (إلا المتطهرون) يعني المتطهرين ولكنه قال: ﴿ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ أي من قبل الله - عز وجل -، فهذا القول ضعيف، ولولا أنه يوجد في بعض التفاسير التي بأيدي الناس ما تعرضنا له، لأنه لا قيمة له، والصواب أن المراد بذلك الملائكة، فإن قلنا: إن المراد بالكتاب المكنون الصحف التي بأيديهم فواضح في قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ وإذا قيل المراد به اللوح المحفوظ فكذلك المطهرون قد يمسونه بأمر الله - عز وجل -، وقد لا يمسونه. ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٨٠] أي: هذا القرآن تنزيل من رب العالمين، نزل من عند الله - عز وجل -، لأنه كلامه، وكلام الله تعالى منزل غير مخلوق.

ويستفاد من هذه الآية الكريمة: أن القرآن ليس بمخلوق، لأنه نزل من الله فهو كلامه، وكلامه من صفاته تعالى، وصفاته غير مخلوقة، وفي قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إشارة إلى أنه يجب علينا أن نعمل به؛ لأن الذي أنزله هو الرب المطاع الخالق الرازق، الذي يجب أن نطيعه بما أمر، وننتهي عما نهى عنه وزجر، و ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كل من سوى الله، وسموا عالمين؛ لأنهم علم على خالقهم، فإن هذا الخلق إذا تأمله الإنسان دله على ما لله - عز وجل - من عظمة وسلطان ورحمة وغير ذلك من صفاته، ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ [الواقعة: ٨١] يعني: أبعد هذا البيان لعظمة القرآن الكريم تدهنون به الكفار وتسكتون عن بيانه وعن العمل به؟ وهذا الاستفهام للإنكار، لأن الواجب على من آمن بأنه ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وأنه قرآنٌ كريمٌ، وأنه لا يمسه إلا المطهرون الواجب أن يصارح ويصرح ولا يدهن، وقد قال الله تعالى في آيات أخرى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩] ولكن هذا ليس بحاصل، فالواجب على المؤمن أن يبرز بدينه ويفتخر به ويظهره، خلاف ما كان عليه كثير من الناس اليوم مع الأسف، تجد الرجل منهم إذا قام ليصلي يستحي أن يصلي، وربما يداهن ويؤخر الصلاة عن وقتها موافقة لهؤلاء الذين لا يصلون، وهذا غلط عظيم، بل الواجب أن يكون الإنسان صريحًا فلا يداهن في دين الله - عز وجل -.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] أي: تجعلون عطاء الله إياكم تكذيبًا له كما قال - عز وجل -: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣] ومن ذلك أن ينسب الإنسان نعمة الله - عز وجل - إلى السبب متناسيًا المسبب سبحانه وتعالى، كقوله مثلًا: مطرنا بنوء كذا.

فينسب المطر إلى النوء لا إلى الخالق - عز وجل -، فهذا نوع من الشرك، كما جاء ذلك صريحًا في حديث زيد بن خالد الجهني - رضي الله عنه - أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم صلى بهم صلاة الصبح ذات يوم في الحديبية وقد نزل مطر، فقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أَتدرُونَ مَاذا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي، وَكَافِر»[1] يعني انقسموا إلى قسمين مؤمن وكافر، «فَأَما مَنْ قَالَ: مُطِرنَا بِفَضْلِ الله وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤمِنٌ بِي كَافِرٌ بالكَوْكَبِ، وَأَمَا مَنْ قَالَ: مُطِرنَا بِنَوْءِ كَذا وَكَذا، فَذَلِكَ كَافرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ».

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣] أي: الروح، والذي يعين المرجع هنا السياق كما في قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] أي: الشمس، ولم يسبق لها ذكر، ولكن السياق يدل على ذلك، فمرجع الضمير تارة يكون مذكورًا، وتارة يكون معلومًا: إما بالسياق وإما بشيء آخر، والحلقوم هو مجرى النفس، وفي جانب الرقبة الأسفل مجريان: مجرى الطعام والشراب، ويسمى المريء، ومجرى النفس وهو الحلقوم، وهو عبارة عن خرزات دائرية لينة منفتحة، أما المريء فإنه بالعكس فإنه كواحد من الأمعاء، ووجه ذلك أن مجرى النفس لابد أن يكون مفتوحًا، لأن النفس لو كان مجراه مغلقًا لكان التنفس شديدًا، لكن برحمة الله جعل الله هذا مثل الأنبوب، لكنه لين، خرزات مستديرة، حتى يهون على المرء رفع رأسه وخفضه، أما المريء فهو مثل الأمعاء العادية، والطعام والشراب قوي يفتحه عند النزول إليه، وذكر الله الحلقوم دون المريء، لأن الحلقوم مجرى النفس، وبانقطاعه يموت الإنسان، فإذا بلغت الروح الحلقوم وهي صاعدة من أسفل البدن إلى هذا الموضع، حينئذ تنقطع العلائق من الدنيا، ويعرف الإنسان أنه أقبل على الآخرة وانتهى من الدنيا ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٤] أي تنظرون إلى الميت وما يعانيه من المشاق والسكرات، ولا تستطيعون أن تردوا ذلك عنه، ولو كنتم أقرب قريب إليه وأحب حبيب إليه فإنه لا يقدر أحد على منع الروح إذا بلغت الحلقوم ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ [الواقعة: ٨٥] يعني أن الله تعالى أقرب إلى الحلقوم من أهله، ولكن المراد أقرب بملائكتنا.

ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ والله تعالى يضيف الشيء إلى نفسه إذا قامت به ملائكته، لأن الملائكة رسله عليهم السلام، وليس هذا من باب تحريف الكلم عن مواضعه، ولكنه من باب تفسير الشيء بما يقتضيه السياق، لأنه ربما يقول قائل: إن ظاهر الآية ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ أن

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).

الأقرب هو الله - عز وجل - فلماذا تحرفونه؟ فنقول: نحن لا نحرفها، بل فسرناها بما يقتضيه ظاهرها، لأن الله قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ وهذا يدل على أن هذا القريب في نفس المكان ولكن لا نبصره، وهذا يعين أن يكون المراد قرب الملائكة لاستحالة ذلك في حق الله تعالى، وأيضًا فإن القرب مقيد بحال الاحتضار، والذي يحضر الميت عند موته هم الملائكة لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]، فإن قيل: كيف يضيف الله الشيء إلى نفسه والمراد الملائكة؟

قلنا: لا غرابة في ذلك، فإن الله يضيف الشيء إلى نفسه وهو من فعل الملائكة لأنهم رسله، ففعلهم فعله، ألم تر إلى قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٨] والمراد قراءة جبريل عليه السلام لا قراءة الله، لكنه أضاف فعل جبريل إليه لأنه بأمره، وهو الذي أرسله به، إذن ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ يعني ملائكتنا أقرب إليه منكم، لأنهم حضروا لقبض الروح، والله تبارك وتعالى قد حفظ الإنسان في حياته وبعد مماته، ففي حياته هناك ملائكة يحفظونه من أمر الله، وبعد مماته ملائكة يقبضون الروح ويحفظونها لا يفرطون فيها إطلاقًا، فهم قريبون من الميت ولكننا نحن لا نبصرهم، لأن الملائكة عالم غيبي لا يُرون ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ﴾ [الواقعة: ٨٦ - ٨٧] أي: فهلا إن كنتم غير مجزيين: أي غير مبعوثين ومجازين على أعمالكم ترجعونها إن كنتم صادقين؟

الجواب: لا يمكن، وحينئذ يجب أن تصدقوا بالبعث والجزاء، لأنكم لا تقدرون على رد الروح حتى لا تجازى، فأيقنوا بالبعث.

ثم قسَّم الله تعالى المحتضرين إلى ثلاثة أقسام فقال في القسم الأول: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨ - ٨٩] - اللهم اجعلنا منهم - وهم الذين أتوا بالواجبات، وتركوا المحرمات، وأتوا بالمستحبات، وتنزهوا عن المكروهات، أي: أكملوا دينهم، والمقربون هم السابقون، الذين ذكروا في أول السورة، السابقون إلى الخيرات ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ اختلف المفسرون - رحمهم الله - في قوله: ﴿فَرَوْحٌ﴾، فقيل: فراحة، لأن المؤمن وإن كان يكره الموت لكنه يستريح به، لأنه يبشر عند النزع بروح وريحان ورب غير غضبان، فيسر ويبتهج ولا يكره الموت حينئذ، بل يحب لقاء الله - عز وجل -، وهذا لا شك راحة له من نكد الدنيا ونصبها وهمومها، وقيل: (الروح) بمعنى (الرحمة)، كما قال الله تعالى عن يعقوب عليه

السلام حين قال لبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧] أي: من رحمته، وهذا المعنى أعم من الأول، لأن الرحمة أعم من أن تكون راحة، أو راحة مع حصول المقصود، وإذا كان المعنى أعم كان حمل الآية عليه أولى، إذن ﴿فَرَوۡحٞ﴾ أي: رحمة، ومن الرحمة الراحة ﴿وَرَيۡحَانٞ﴾ قيل: المراد بالريحان كل ما يسر النفس، وليس خاصًّا بالريحان ذي الرائحة الطيبة، بل كل ما فيه راحة النفس ولذتها من مأكول، ومشروب، وملبوس، ومنكوح ومشموم، فهو شامل، وقيل: المراد بالريحان الرائحة الطيبة كالريحان المعروف، والأول: أشمل، فتحمل الآية عليه، ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٖ﴾ أي: جنة ينعم بها، وهي الدار التي أعدها الله لأوليائه ـ جعلنا الله منهم ـ ينعم الإنسان فيها ببدنه وقلبه، فهو لا يتعب ولا ينصب، ولا يمرض ولا يحزن، ولا يهتم ولا يغتم، بل هو في نعيم دائم، والدنيا فيها نعيم لكنه نعيم منغص على حد قول الشاعر:

فَيَومٌ عَلَيْنَا وَيَومٌ لَنَا … وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرُّ

وهكذا الدنيا إذا سرَّت يومًا فاستعد للإساءة من غد، وإذا أساءت يوم فقد تنعم في الثاني، أو لا تنعم، أما الجنة في الآخرة فهي دار نعيم في القلب ونعيم في البدن، ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٩٠] وهم الذين أتوا بالواجبات وتركوا المحرمات، لكنَّ فيهم نقصًا في المستحبات والتنزه عن المكروهات ﴿فَسَلَٰمٞ﴾ أي: سلامة ﴿لَّكَ﴾ أي: أيها المحتضر ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي: أنت من أصحاب اليمين، والمعنى: فسلام لك حال كونك من أصحاب اليمين، والأولون هم المقربون إليهم، وأصحاب اليمين لا سابقين ولا مخذولين، بين بين، لكنهم ناجون من العذاب، ولهذا قال: ﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٩١] وهذا القسم الثاني، أما القسم الثالث: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الواقعة: ٩٢] بالخبر ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ في العمل فلا تصديق ولا التزام، فكل كافر داخل في هذه الآية حتى المنافق ﴿فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ [الواقعة: ٩٣] أي: فله نزل من حميم، والنزل بمعنى الضيافة التي تقدم للضيف أول ما يقدم، فهؤلاء ـ والعياذ بالله ـ حظهم هذا النزل نزل من حميم، والحميم هو شديد الحرارة ﴿وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٩٤] أي يصلون الجحيم فيخلدون فيها، والجحيم من أسماء النار ـ أعاذنا الله وإياكم منها ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥] أي: إن هذا المذكور لكم، وهو انقسام الناس إلى هذه الأقسام الثلاثة ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ أي: اليقين المتحقق المتأكد، وصدق الله ـ عز وجل ـ لا يمكن أن يخرج الناس عن هذه الأقسام الثلاثة، وهم: المقربون، وأصحاب اليمين، والمكذبون

الضالون، لا يمكن يخرجوا عن هذا ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٩٦] سبح بمعنى نزه، والذي ينزه الله - عز وجل - عنه كل نقص وعيب، أو مماثلة للمخلوق، فهو منزه عن كل نقص لكمال صفاته وعن مماثلة المخلوق، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] أي: من تعب وإعياء، وقوله: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ قيل: إن الباء زائدة، وأن المعنى: سبح اسم ربك، كما قال الله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] وقيل: إنها ليست بزائدة، وأن المعنى: سبح الله باسمه، فلابد من النطق بالتسبيح، فتقول: «سبحان الله»، أما لو نزهته بقلبك فهذا لا يكفي، فعلى هذا تكون الباء للمصاحبة يعني سبح الله تسبيحًا مصحوبًا باسمه، ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ الرب هو الخالق المالك المدبر، والعظيم ذو العظمة والجلال - جل وعلا -.

هذه السورة لو لم ينزل في القرآن إلا هي لكانت كافية في الحث على فعل الخير وترك الشر، فقد ذكر الله تعالى في أولها يوم القيامة ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ ثم قسم الناس فيها إلى ثلاثة أقسام: السابقون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، ثم ذكر الله في آخرها حال الإنسان عند الموت، وقسم كل الناس إلى ثلاثة أقسام: مقربون، وأصحاب يمين، ومكذبون ضالون، وكذلك ذكر الله فيها ابتداء الخلق في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ والرزق من طعام وشراب وما يصلحهما فهي سورة متكاملة، ولهذا ينبغي للإنسان أن يتدبرها إذا قرأها، كما يتدبر سائر القرآن، لكن هي اشتملت على معاني عظيمة؛ والله الموفق.

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة الواقعة



تفسير سورة الحديد

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ تقدم الكلام عليها، ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١] معنى ﴿سَبَّحَ﴾ أي: نزه الله - عز وجل - عن كل عيب ونقص، وعن مماثلة المخلوقين، ودليل تنزهه عن كل عيب ونقص قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] واللغوب يعني التعب والإعياء، وهذا يدل على كمال قوته - عز وجل - وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠] وقال تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤] فنزه الله تعالى نفسه عن الغفلة، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤] فنزه نفسه عن العجز، ودليل تنزهه عن مماثلة المخلوقين: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وأثبت الله لنفسه وجهًا في قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وأثبت الله لنفسه أنه استوى على العرش، والإنسان يستوي على البعير، أي يركب البعير ويستقر عليه ويعلو عليه، ليس استواؤه سبحانه وتعالى على العرش كاستواء الإنسان على البعير، والدليل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فكل صفة يثبتها الله لنفسه وللمخلوق مثلها فإن ذلك موافقة للاسم فقط، أما في الحقيقة فليس كمثله شيء، مثال ذلك: أثبت الله لنفسه علمًا، وأثبت للمخلوق علمًا، فقال الله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ [الممتحنة: ١٠] فأثبت الله لنا علمًا، وأثبت لنفسه علمًا ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] وليس العلم الذي أثبته لنفسه كعلم المخلوق والدليل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فالله - عز وجل - لا يمكن أن يماثله شيء من المخلوقات لا في ذاته، ولا في صفاته، ولهذا لا يمكننا أن ندرك الله - عز وجل - نعلمه بآياته وصفاته وأفعاله، لكننا لا ندرك حقيقته - عز وجل -، لأنه مهما قدرت من شيء فالله تعالى مخالف له غير مماثل.

وقوله: ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: كل ما في السماوات والأرض، فإنه يسبح الله - عز وجل

- وينزهه، ويشمل الآدمي، والجن، والملائكة، والحشرات، والحيوانات، وكل شيء، فكل ما في السماوات والأرض يسبح الله، وهل يسبحه بلسان المقال بمعنى أن يقول: «سبحان الله»، أو بلسان الحال، بمعنى أن تنظيم السماوات والأرض والمخلوقات على ما هي عليه يدل على كمال الله - عز وجل - وتنزهه عن كل نقص؟ الجواب: أنه يسبح الله بلسان الحال وبلسان المقال، إلا الكافر، فإنه يسبح الله بلسان الحال لا بلسان المقال؛ لأن الكافر يصف الله بكل نقص، يقول: اتخذ الله ولدًا، ويقول: إن معه إلهًا، وربما ينكر الخالق أصلًا، لكن حاله وخلقته وتصرفه تسبيح لله - عز وجل -.

وهل الحشرات والحيوانات تُسبح الله بلسان المقال؟

الجواب: نعم، قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] فالحشرات كلها تسبح الله بلسان المقال، والحصى يسبح الله كما كان ذلك بين يدي رسول الله ﷺ.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ العزيز يعني ذو العزة، والعزة هي الكبرياء والغلبة والسلطان وما أشبه ذلك، فالعزيز هو ذو السلطان الكامل والغلبة الكاملة، فلا أحد يغلبه - عز وجل - يقول الشاعر الجاهلي:

أَيْـــنَ المفَـــرُّ وَالإِلَـــهُ الطَّالِـــبُ وَالأَشْرَمُ المغْلُـــوبُ لَـــيْسَ الغَالِـــبُ

و(الحكيم) لها معنيان: المعنى الأول: ذو الحكمة، والمعنى الثاني: ذو الحكم التام، فهي مشتقة من شيئين: من الحكمة والحكم، فالحكمة هي أن جميع أفعاله وأقواله وشرعه حكمة، وليس فيه سفه بأي حال من الأحوال، ولهذا قيل في تعريف الحكمة: (إنها وضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها)، فما من شيء من أفعال الله أو من شرع الله إلا وله حكمة، فإذا قدر الله الحر الشديد الذي يهلك الثمار فهو حكمة لا شك، وإذا منع الله المطر فهو حكمة، وإذا ألقى الله الموت بين الناس فهو حكمة، وكل شيء فهو حكمة، والشرائع كلها حكمة فإذا أحل الله البيع وحرم الربا فهو حكمة، لأنا نعلم أن الله حكيم، ففرق الله - عز وجل - بين البيع والربا، فالبيع أحله الله، والربا حرمه، فإذا قال قائل: لماذا؟ قلنا: الله أعلم، الله حكيم - عز وجل -، ولهذا لما قالت المرأة لعائشة - رضي الله عنها -: يا أم المؤمنين ما بال الحائض تقضي الصوم - يعني إذا حاضت في رمضان - ولا تقضي الصلاة؟ سؤال فيه إشكال، لماذا الحائض إذا أفطرت في رمضان يلزمها قضاء الصوم، وإذا تركت الصلاة لا يلزمها قضاء الصلاة، وكلاهما فرض؟ قالت لها - رضي الله عنها -:

«كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة»(١) فاستدلت - رضي الله عنها - بالحكم على الحكمة، لأنا نعلم أن الله حكيم - عز وجل - فلم يوجب عليها قضاء الصوم دون قضاء الصلاة إلا لحكمة، لكن أحيانًا نعرف الحكمة وأحيانًا لا نعرفها، لماذا أحل الله البيع وحرم الربا؟ نقول: لأن الله أحل البيع وحرم الربا، ولذلك لما قال أهل الربا: إنما البيع مثل الربا. رد الله قولهم فقال: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾، فإذا حكم الله بشيء شرعًا، أو حكم بشيء قدرًا فلا يشكل عليك، إن وفقك الله لمعرفة الحكمة فهذا خير، وإن لم تعرف فاعلم أن الله حكيم، وله أيضًا الحُكم - عز وجل - قال الله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠] من يستطيع أن يرفع حُكم الله - عز وجل - فيما إذا نزل به الموت؟ لا أحد، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٣: ٨٧] لا يمكن، لأن الله حكم بهذا، وإذا حكم - عز وجل - بحروب وفتن من يرفع هذا إلا الله عز وجل، والله تعالى له الحكم في الأمور الشرعية قال الله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠] فالحكم لله - عز وجل - فإذا عرفت أن الله تعالى له الحكمة فيما شرع، وفيما خلق، وقدر، حينئذ تستسلم ولا تجادل، لأن الذي حكم بذلك هو الله، وإذا علمت أن الحُكم لله - عز وجل - بين العباد فترجع الأمور الشرعية إلى الكتاب والسنة، وفي الأمور القدرية ترجع إلى الله، فإذا حكم عليك بالمرض تفزع إلى الله - عز وجل -، وإذا حكم عليك بالفقر تفزع إلى الله: «اللهم أغنني من الفقر، واقضِ عني الدين»، فإذا آمن الإنسان بأن الحكم كله لله إن كان حكمًا قدريًا استسلم، وقال: هذا أمر الله، وأنا عبد الله ولا يمكن أن يكون سوى ما كان، وإذا كان شرعيًا قال: «الله - عز وجل - أعلم وأحكم بما يصلح العباد».

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢] أي: لله تعالى وحده ملك السماوات والأرض خلقًا وتدبيرًا، فلا يملك السماوات والأرض أحد إلا الله عز وجل ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: يجعل الجماد حيًّا، ويميت ما كان حيًّا، فبينما نرى الإنسان ليس شيئًا مذكورًا إذا به يكون شيئًا مذكورًا كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] ثم يبقى في الأرض ثم يعدم ويفنى، فإذا هو خبر من الأخبار ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، هذه جملة خبرية عامة في كل شيء من موجود ومعدوم، والقدرة صفة تقوم بالقادر حيث يفعل الفعل بلا عجز.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٧٠٤)، ومسلم (٣٣٥).

﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] أربعة أشياء: ﴿ٱلۡأَوَّلُ﴾ أي الذي ليس قبله شيء، لأنه لو كان قبله شيء لكان الله مخلوقًا، وهو عز وجل الخلق، ولهذا فسر النبي ﷺ ﴿ٱلۡأَوَّلُ﴾ الذي ليس قبله شيء[1]، فكل الموجودات بعد الله فليس معه أحد ولا قبله، ﴿وَٱلۡأٓخِرُ﴾ الذي ليس بعده شيء، لأنه لو كان بعده شيء لكان ما يأتي بعده غير مخلوق لله، والمخلوقات كلها مخلوقة لله عز وجل، فهو الأول لا ابتداء له، والآخر لا انتهاء له، ليس بعده شيء ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾، قال النبي ﷺ: «تفسيرها: الذي ليس فوقه شيء»[2] فكل المخلوقات تحته جل وعلا، فليس فوقه شيء ﴿وَٱلۡبَاطِنُ﴾ قال النبي ﷺ «الذي ليس دونه شيء»[3]، أي: لا يحول دونه شيء، خبير عليم بكل شيء، لا يحول دونه جبال، ولا أشجار، ولا جدران، ولا غير ذلك، ليس دونه شيء، ﴿ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾ اشتملا على عموم الزمان، ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُ﴾ على عموم المكان.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾، كل شيء فالله عليم به، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥] فلو عمل الإنسان في جوف بيته في حجرة مظلمة فإن الله تعالى يعلم عمله، بل زد على ذلك أنه يعلم ما توسوس به نفسك كما قال الله - عز وجل -: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥ﴾ [ق: ١٦]، وأنت إذا فكرت في شيء فالله يعلم به قبل أن يكون، ويعلم الماضي البعيد، ويعلم المستقبل البعيد ويعلم بكل شيء، ولهذا قال موسى - عليه الصلاة والسلام - لما سأله فرعون: ﴿فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١] يعني شأنها قصها علينا ﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] ﴿لَّا يَضِلُّ﴾ معناه لا يجهل، لأن الضلال معناه الجهل، كما قال الله - عز وجل - في نبيه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧] ضال ليس معناها فاسق، بل معناه أنه جاهل لا يدري كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، إذن الله بكل شيء عليم، وإذا علمت أن الله بكل شيء عليم هل يمكنك أن تقدم على معصية الله وأنت في خفاء عن الناس؟ لا، لأنك تعلم أن الله يعلمك، قال الله - عز وجل -: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُم﴾ [الزخرف: ٨٠] الجواب: بلى، ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾، فإذن إذا آمنت بأن الله - جل وعلا - عليم بكل شيء

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧١٣)، وأبو داود (٥٠٥١)، والترمذي (٣٤٠٠).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧١٣)، وأبو داود (٥٠٥١)، والترمذي (٣٤٠٠).
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧١٣)، وأبو داود (٥٠٥١)، والترمذي (٣٤٠٠).

فإنه يستلزم أن لا تقوم بمعصيته ولو في الخفاء، وأن لا تترك طاعته ولو في الخفاء، ولقد قال الله - عز وجل - عن نوح عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ [نوح: ٧] لأجل أن لا يسمعوا، ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ لئلا يبصروا بها - والعياذ بالله - لأنهم يكرهون الحق وقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ يشمل أفعال العباد وأقوال العباد، بل إنه يعلم سبحانه وتعالى ما في قلب الإنسان وإن لم يظهره، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٦ - ١٧] فإياك أن تضمر في قلبك شيئًا يحاسبك الله عليه، لكن الوساوس التي تطرأ على القلب ولا يميل الإنسان إليها بل يحاربها، ويحاول البعد عنها بقدر إمكانه لا تضره شيئًا، بل هي دليل على إيمانه؛ لأن الشيطان إنما يأتي إلى القلب فيلقي عليه الوساوس إذا كان قلبًا سليمًا، أما إذا كان قلبًا غير سليم فإن الشيطان لا يوسوس له، لأنه قد انتهى.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٤] خلق السماوات والأرض أي: أوجدها - عز وجل - بكل نظام وتقدير، والسماوات سبع والأرضون سبع، والأرض سابقة على السماء، لأن الله تعالى قال في (سورة فصلت) لما ذكر خلق الأرض قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، لكن الله يبدأ بالسماوات لأنها أشرف من الأرض وأعلى من الأرض، والسماوات بينها مسافة بعيدة جدًا جدًا، وهذا يلزم أن يكون أصغر السماوات سماء الدنيا ويليها الثانية والثالثة، كل واحدة أوسع من الأخرى سعة عظيمة، وهي طباق متطابقة بعضها فوق بعض، وفي حديث المعراج أن الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم كلما صعد إلى سماء استفتح ففتح له[1]، والأرض جعلها تعالى في القرآن بصيغة الإفراد، لكن الله تعالى أشار إلى أنها متعددة في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] أي: مثلهن في العدد لا في الصفة، لأن التماثل في الصفة بين الأرض والسماء بعيد جدًّا، لكن مثلهن في العدد، وصرحت بذلك السنة في قول النبي ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ بِهِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»[2]، وخلقها الله عز وجل في ستة أيام، والأيام أطلقها الله - عز وجل - ولم يبين أن اليوم خمسين ألف سنة، أو أقل، أو أكثر، وإذا أطلق يحمل على المعروف المعهود وهي أيامنا هذه، وقد

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٢).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٥٢)، ومسلم (١٦١٠).

جاء في الحديث أنها الأحد، والإثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة، فالجمعة منتهى خلق السماوات والأرض ومبتدؤه الأحد، والسبت ليس فيه خلق لا ابتداء ولا انتهاء.

فإذا قال قائل: أليس الله قادرًا على أن يخلقها في لحظة؟

فالجواب: بلى، لأن أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: «كن فيكون»، وإنما خلقها في ستة أيام - والله أعلم - لحكمتين:

الحكمة الأولى: أن هذه المخلوقات يترتب بعضها على بعض، فرتب الله تعالى بعضها على بعض حتى أحكمها، وانتهى منها في ستة أيام.

الحكمة الثانية: أن الله علّم عباده التؤدة والتأني، وأن الأهم إحكام الشيء لا الفراغ منه، حتى يتأنى الإنسان فيما يصنعه، فعلم الله سبحانه عباده التأني في الأمور التي هم قادرون عليها.

وكلا الأمرين وجيه، وقد تكون هناك حكم أخرى لا نعلمها، ومع هذا لا نجزم به ونقول: الله أعلم. ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، استوى عليه يعني على وجه يليق بجلاله، ولا يمكن أن نمثله بخلقه لأن الله ليس كمثله شيء، والعرش مخلوق عظيم لا يعلم قدره إلا الذي خلقه - عز وجل -، وقد جاء في الحديث: «أن السماوات السبع، والأرضين السبع في الكرسي كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض»[1]، الحلقة حلقة الدرع المكون من حلق من الحديد، فالحلقة من الحديد من الدرع تكون بالنسبة للفلاة لا شيء، فلاة من الأرض واسعة ضاع فيها حلقة من حلق الدرع ماذا تكون نسبتها وماذا تشغل من الأرض؟! لا شيء، قال ﷺ: «ما السماوات السبع والأرضين السبع في الكرسي إلا كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة»، إذن لا يعلم قدره إلا الله - عز وجل -، وليس لنا أن نسأل: من أين مادة الكرسي؟ من ذهب، من فضة، من لؤلؤ؟ ليس لنا الحق في أن نتكلم في هذا؛ هو عرش عظيم كما وصفه الله ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥]، عرش عظيم جدًّا جدًّا، لا يعلم قدره إلا الله، استوى الله عليه لكمال سلطانه - جل وعلا -، و(ثم) في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ تدل على الترتيب، أي أن خلق السماوات والأرض سابق على الاستواء على العرش، ومعنى ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ أي: عَلَا؛ لأن الاستواء في اللغة العربية إذا تعدى بـ(على) كان معناها العلو، مثاله: قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا

(١) انظر «السلسلة الصحيحة» (١٠٩).

﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٢ ـ ١٣]، ومن ذلك: قوله تعالى عن نوح: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨].

فقوله: ﴿ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ يعني: علوت عليه، إذن ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ يعني عَلَا العرش، وإذا رأيت من يقول: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي استولى على العرش، فقد كذب على الله ـ عز وجل ـ لأن الله تعالى نزل هذا القرآن العظيم باللغة العربية، واللغة العربية تدل على أن ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ إذا تعدت بـ﴿عَلَىٰ﴾ فهي بمعنى العلو لا غيره، فيكون الذي يفسرها بـ(استولى) كاذب على الله ـ عز وجل ـ جانيًا على نصوص الكتاب، محرفًا لها، وجنايته عليها من وجهين:

الوجه الأول: صرفها عن ظاهرها.

والوجه الثاني: إحداث معنى لا يدل عليه الظاهر، وهذا قد يوجد كثيرًا في كتب الأشاعرة، سواء كانوا مفسرين أو غير مفسرين لكنهم بهذا والله والله قد ضلوا ضلالًا مبينًا، نسأل الله العافية، فمن الذي استولى على العرش حين خلق السماوات والأرض؟! إذا كان الله لم يستولِ عليه إلا بعد خلق السماوات والأرض فهو لمن من قبل؟! نعم يلزمهم أن يقولوا: لغير الله، وإلا فقد أخطأوا، يعني تبين خطأهم وهم مخطئون والحمد لله.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما يدخل فيها من جثث الموتى، ومن الحبوب التي تنبت بإذن الله، ومن المياه التي يسلكها الله ينابيع في الأرض ثم يخرجها، وغير ذلك من الحشرات وغيرها، فكل ما يلج في الأرض يعلمه الله.

﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي: من النبات والمياه والمعادن وغيرها، ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من الملائكة والأمطار والشرائع وغير ذلك، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي: إليها، لكن جاءت بلفظ ﴿فِيهَا﴾ بدل إليها لنستفيد فائدتين:

الفائدة الأولى: العروج يعني الصعود.

الفائدة الثانية: الدخول، لأن ﴿فِى﴾ يناسبها من الأفعال الدخول، تقول: دخل في المكان، أما عرج ويعرج فالذي يناسبها (إلى)، لكن الله ـ عز وجل ـ عدل عن قوله (يعرج إليها) إلى قوله ﴿يَعْرُجُ فِيهَا﴾ ليفيد الصعود والدخول.

وضمن ﴿يَعْرُجُ﴾ معنى (يدخل)، والتضمين موجود في القرآن الكريم وفي اللغة العربية، قال الله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦] المناسب ليشرب (من) كما قال تعالى: ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣] يعني (منه)، ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا

﴿قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وهنا قال: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ قال العلماء: الحكمة أن يشرب هنا ضمنت معنى (يروى)، أي: يروى بها. ومعلوم أنك إذا قلت: «يروى بها». فقد تضمن معنى يشرب وزيادة. والتضمين فن مهم في باب البلاغة، ينبغي لطالب العلم أن يدرسه ويحققه، حتى يستفيد إذا اختلفت الحروف مع عواملها، ﴿يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الأشياء ما يصل إلى السماء الدنيا ويقف، ومنها ما يعرج في السماء الدنيا حتى يصل إلى الله - عزوجل - ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ هو الضمير يعود إلى الله - عز وجل -، ﴿مَعَكُمْ﴾ أي: مصاحب لكم، كما قال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ»[1]، لكن هذه الصحبة ليست صحبة مكان؛ بمعنى أننا إذا كنا في مكان كان الله معنا - حاشا وكلا - لا يمكن هذا، وكيف يتصور عاقل أن الله معنا في مكاننا، وكرسيه وسع السماوات والأرض؟! هذا مستحيل، والكرسي موضع القدمين، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه[2]، فإذا كان كذلك هل يعقل أن رب السماوات والأرض الذي يوم القيامة تكون السماوات مطويات بيمينه، والأرض جميعًا قبضته هل يمكن أن يكون معنا في أماكننا الضيقة والواسعة؟ لا يمكن، إذًا ﴿مَعَكُمْ﴾ أي: مصاحب لكم، والمصاحب قد يكون بعيدًا عنك، يقول العرب في أسلوبهم: ما زلنا نسير والقمر معنا، مازلنا نسير والقطب معنا، ما زلنا نسير والجبل الفلاني معنا، وليس معهم في مكانهم. ومعلوم أن القمر في السماء، والنجم في السماء، والجبل قد يكون بينك وبينه مسافة أيام، ومع ذلك فالعرب تطلق عليه المعية مع البعد في المكان، وكوننا نؤمن بأن الله معنا إذن هو عالم بنا، سميع لأقوالنا، بصير بأفعالنا، له القدرة علينا والسلطان، ومدبر لنا بكل معنى تقتضيه المعية، واعلم أن من الضلال من يقول: إن الله معنا في أمكنتنا، نسأل الله العافية، وينكرون أن الله في السماء عاليًا فأتوا داهيتين عظيمتين:

الأولى: إنكار علو الله.

والثانية: اعتقاد أنه في الأرض.

سبحان الله! هل يعقل أن يعتقد عاقل فضلًا عن مؤمن أنه إذا كان في المرحاض كان الله معه؟ أعوذ بالله، الذي يعتقد هذا أشهد بالله أنه كافر، لأن أعظم استهزاء بالله وأعظم حط من قدر الله هو هذا، ثم نقول: إذا كان الله - كما يقولون - في كل مكان يعني أنه في الحجرة، وفي السوق، وفي المسجد، ثم من الذي يكون مع أناس في الحجرة، وأناس في الشارع؟ أهما إلهان؟ لا يمكن أن

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٣٤٢)، والترمذي (٣٤٤٧)، وأبو داود (٢٥٩٩).

(٢) ضعيف: أخرجه الضياء المقدسي في «المختارة» (٣٣١)، وضعفه الشيخ الألباني في «الضعيفة» (٩٠٦).

يقولوا إنه متعدد، هل هو متجزئ؟ إذن بطل أن يكون معنا بذاته في أمكنتنا لأنه إما أن يكون متعددًا، وإما أن يكون متجزءًا، وكلاهما باطل، قررت هذا لأنه يوجد من يعتقد أن الله في كل مكان فنقول: المعية هي المصاحبة، ولا يلزم من المصاحبة المقارة في المكان، وكيف يمكن أن يكون الله معك في مكانك وهو سبحانه وتعالى وسع كرسيه السماوات والأرض، ولكن هؤلاء الذين يعتقدون أنه في كل مكان ما قدروا الله حق قدره، ولا عظموه حق تعظيمه، ولا عرفوا عظمته وجلاله قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] فكيف يعتقد أن الله معنا في مكاننا، فيجب على الإنسان أن يعرف نعمة الله عليه بكونه يؤمن بالقرآن الكريم ظاهره معظمًا لله حق تعظيمه، ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ أي: في أي مكان، لأن (أين) ظرف مكان، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: بما تعملون من الأعمال كلها بصير، والبصر هنا يشمل بصر الرؤية قال النبي ﷺ عن ربه: «حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»(١) ويشمل بصر العلم، فمن المعلوم أن أعمالنا قد تكون مرئية الحركة، وقد تكون مسموعة كالأقوال، فرؤية المسموع العلم.

﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٥] أي: لله تعالى وحده ملك السماوات والأرض خلقًا وتدبيرًا، فلا يملك السماوات والأرض أحد إلا الله ـ عز وجل ـ لا استقلالا ولا مشاركة، قال تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢] فنفى الاستقلال ونفى المشاركة، ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ أي: ما لله ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي: من مساعد ساعده على خلق السماوات والأرض، فله ملك السماوات والأرض وعددها سبع، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦] والأرضون أيضًا عددهم سبع كما جاء ذلك ظاهرًا في القرآن وصريحًا في السنة، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] يعني في العدد، وثبت عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «من اقتطع شبرًا من الأرض ظلمًا طوقه يوم القيامة من سبع أراضين»(٢).

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، كل الأمور أي الشئون العامة والخاصة، الدينية، والدنيوية،

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٩)، وابن ماجه (١٩٥).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٥٢)، ومسلم (١٦١٠).

والأخروية؛ كلها ترجع إلى الله - عز وجل - يتصرف كما شاء يحكم بما شاء ولا معقب لحكمه - عز وجل - فكل أمور الإنسان الخاصة ترجع إلى الله، ولذلك يجب عليك إذا ألَمَّت بك ملمة أن ترجع إلى الله - عز وجل - لأن المشركين وهم مشركون - إذا ألمت بهم الملمات التي يعجزون عنها يرجعون إلى الله - عز وجل - فإذا عصفت بهم الرياح في أعماق البحار على السفن يلجؤون إلى الله عز وجل، ويرجعون إلى الله، ويسألونه أن ينجيهم وهم مشركون، فكيف بك أنت أيها المسلم، فالجأ إلى الله في كل صغير أو كبير، ديني أو دنيوي خاص بك أو بأهلك، لا تلجأ لغير الله، فمن أنزل حاجته بالله قُضيت، ومن أنزل حاجته بغير الله وُكل إليه، فنقول: إلى الله ترجع الأمور عامة: الأمور الدينية والدنيوية والأخروية، والخاصة والعامة، وإذا آمنت بهذا - ويجب أن تؤمن به - صرت لا تلجأ إلا إلى الله - عز وجل -.

﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾، ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ﴾ أي يُدخل الليل في النهار، ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ﴾ أي يُدخله في الليل، وهذا يعني اختلاف الليل والنهار في الطول والقصر، أحيانًا يبدأ الليل في الزيادة فيدخل على النهار، فهذا ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾. وأحيانًا يبدأ الليل ينقص ويزيد النهار، فيدخل النهار على الليل، ولا أحد يقدر على ذلك إلا الله سبحانه وتعالى، لو اجتمع الخلق كلهم إنسهم وجنهم والملائكة ما استطاعوا أن يولجوا دقيقة واحدة من الليل في النهار، أو يولجوا النهار في الليل، والله - عز وجل - يولج الليل في النهار أو من النهار في الليل، ثم هذا الإيلاج لا يأتي دفعة واحدة، ولكنه يأتي تدريجيًّا شيئًا فشيئًا، أول ما يبدأ بالزيادة تجده يأخذ قليلا في اليومين أو الثلاثة دقيقة واحدة، ثم يبدأ يزداد حتى يكون عند تساوي الليل والنهار يأخذ حوالي دقيقتين في اليوم تدريجيًّا، أرأيتم لو جاء دفعة واحدة، كنا مثلا في أطول يوم في السنة وإذا بنا في اليوم الثاني إلى أقصر يوم في السنة، فيترتب على ذلك مفاسد عظيمة؛ لأن الناس سينقلبون من حر مزعج إلى برد مؤلم في خلال أربع وعشرين ساعة، وهذا لا شك أنه مضر بالأبدان والنبات والجو، ولكنه - عز وجل - يولجه على تنظيم موافق للحكمة تمامًا، ولا أحد يستطيع أن يفعل هذا أبدًا مهما بلغ من القوة.

﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أي: صاحبة الصدور يعني القلوب، والدليل أنها القلوب قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] إذن هو عليم بما في القلب، وإذا كنت تصدق بذلك فهل يمكن أن تضمر في قلبك ما لا يرضاه الله، إن كنت مؤمنًا؟ لا يمكن، فطهِّر قلبك من الرياء والنفاق والغل على المسلمين والحقد والبغضاء، لأن قلبك

معلوم عند الله ـ عز وجل ـ اللهم طهر قلوبنا، اللهم طهر قلوبنا، اللهم طهر قلوبنا. فطهر القلب من هذا، واملأه محبةً لله تعالى وتعظيمًا، كما يليق به ومحبةً للرسول ﷺ وتعظيمًا كما يليق به، ومحبةً للمؤمنين، ومحبةً لشريعة الله تعالى، فلا تضمر في هذا القلب شيئًا يكرهه الله، فإن فعلت فالله عليم به لا يخفى عليه، فطهر قلبك حتى يكون نقيًّا سليمًا، لأنه لا ينفع يوم القيامة إلا من أتى الله بقلب سليم كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩]، وتغيرات القلب تغيرات سريعة وعجيبة، ربما ينتقل من كفر إلى إيمان، أو من إيمان إلى كفر في لحظة، نسأل الله الثبات، وتغير القلب يكون على حسب ما يحيط بالإنسان، وأكثر ما يوجب تغير القلب إلى الفساد حب الدنيا، فحب الدنيا آفة، والعجب أننا متعلقون بها، ونحن نعلم أنها متاع الغرور، وأن الإنسان إذا سرّ يومًا أسيء يومًا آخر، كما قال الشاعر:

فَيَــومٌ عَلَيْنَــا وَيَــومٌ لَنَــا ... وَيَــوْمٌ نُسَــاءُ وَيَــوْمٌ نُسَــرُّ

كل لذة في الدنيا فهي محوطة بمنغص، لذلك احرص على تطهير القلب من التعلق بالدنيا إلا فيما ينفعك في الآخرة، كأن تتعلق بالدنيا لتصبح غنيًّا تنفق مالك في سبيل الله وفيما يرضي الله ـ عز وجل ـ فهذا شيء آخر، وطلب المال للأعمال الصالحة خير، لكن طلب المال لمزاحمة أهل الدنيا في دنياهم شر.

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧] ﴿ءَامِنُوا۟﴾، الخطاب للعباد كلهم، ﴿بِٱللَّهِ﴾ رب العالمين ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والأمر هنا للوجوب الذي هو أشد أنواع الوجوب تحتمًا، والإيمان بالله أن تؤمن بأنه رب العالمين، وأن تؤمن بأنه الإله المعبود حقًّا الذي لا يستحق العبادة إلا هو، وأن تؤمن بأن له الأسماء الحسنى والصفات العليا، وأن تؤمن بأنه الفعّال لما يريد، وأن تؤمن أنه لا معقب لحكمه وهو السميع العليم، وأن تؤمن أن مرجع الخلائق إليه في الأحكام الشرعية والأحكام الكونية، فمن يدبر الخلق إلا الله ـ عز وجل ـ والذي يحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون هو الله ـ عز وجل ـ ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ محمد عليه الصلاة والسلام، أرسله الله تعالى إلى جميع الخلق والإنس والجن، وختم به النبوات، فلا نبي بعده، والدليل: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]. يعني كان رسول الله خاتم النبيين فلا نبي بعده، فمن ادعى النبوة بعده فهو كافر، يجب أن يقص عنقه إلا أن يتوب ويرجع، ﴿وَأَنفِقُوا۟﴾ الإنفاق: البذل، ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ يعني المال؛ لأن الله جعلنا مستخلفين في المال فهو الذي ملّكنا إياه، فلا مِنّة

لنا على الله بما ننفق، بل المنة لله علينا بما أعطى، والمنة له علينا بما شرع لنا من الإنفاق، ولولا أن الله شرع لنا أن ننفق لكان الإنفاق ضياعًا وبدعة، ولكن شرع لنا أن ننفق، فلله تعالى المنة أولًا فيما ملكنا من المال، وله المنة ثانيًا بما شرع لنا من إنفاقه، وله المنة ثالثًا بالإثابة عليه ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ أي: آمنوا بالله ورسوله؛ لأنه قال: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ﴾ أي مما جعلهم مستخلفين فيه، ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، والآيات في هذا كثيرة ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٧٩] ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، فوصف الله الأجور على العمل بأنه كبير عظيم كثير، الكثير نأخذه من قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ وبهذا نعرف منة الله علينا: يأمرنا بالعمل ونعمل به ويأجرنا عليه أجرًا كثيرًا، أجرًا عظيمًا، أجرًا كبيرًا، منة عظيمة كبيرة، فعلينا أن نشكر الله، وأن ننفق مما جعلنا مستخلفين فيه، فهل ننفق كل ما نملك أو بعض ما نملك؟ قال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا﴾ و ﴿مِمَّا﴾ هذه هل هي للتبعيض أو هي لبيان ما ينفق منه؟ إذا كانت للتبعيض فالمعنى: أنفقوا بعض ما رزقكم وليس كله.

وإذا جعلناها للبيان، فالمعنى: أنفقوا مما جُعِل لكم حسب ما تقتضيه المصلحة: إما الكل وإما البعض، والأحسن أن تجعل ﴿مِمَّا﴾ للبيان، وإذا جعلناها للبيان صار الإنسان مخيرًا ينفق كل ماله، أو بعض ماله، أكثره أو أقله، حسب ما تقتضيه المصلحة، ومعلوم أنه كلما كان المعنى أوسع كان الأخذ به كان أولى، والقرآن الكريم العظيم معانيه واسعة عظيمة، ولذلك حث النبي ﷺ مرة على الصدقة، وكان الصحابة - رضي الله عنهم - يتسابقون إلى الخير، كل واحد يحب أن يكون هو السابق، فقال عمر - رضي الله عنه -: اليوم أسبق أبا بكر؛ لأن هذين الرجلين هما أخص الصحابة بالرسول عليه الصلاة والسلام، وأحب الصحابة إلى الرسول ﷺ، والنبي ﷺ يحب أبا بكر أشد من حب علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -، مع أن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ابن عمه وزوج ابنته، لكن أبا بكر - رضي الله عنه - يحبه أشد وأكثر، فقد سئل: من أحب الناس إليك؟ قال: «أَبو بَكْرٍ»(١)، وقال: لَوْ كُنْتُ مُتَخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ»(٢).

والمهم: أن عمر كان هو وأبو بكر - رضي الله عنهما - كَفَرَسَيّ رهان، يحب أن يسبقه لا حسدًا لأبي بكر - رضي الله عنه - ولكن حبًّا للفضل لنفسه، قال: اليوم أسبق أبا بكر، فجاء بنصف ماله لينفقه، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «يا عمر، ماذا تركت لأهلك»؟ قال: تركت لهم الشطر،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٦٥٦).

يعني النصف، وجاء أبو بكر فقال: «ما تركت لأهلك»؟ قال: تركت لهم الله ورسوله، أي أتى بكل ماله، فقال عمر - رضي الله عنه -: والله لا أسابقك على شيء بعد هذا[1]، عرف أنه يعجز أن يسبق أبا بكر، والشاهد من هذا الحديث أن أبا بكر - رضي الله عنه - تصدق بجميع ماله فإذا رأى الإنسان المصلحة في أن يتصدق بجميع ماله، وأن عنده من قوة التوكل والاعتماد على الله واكتساب الرزق ما يمكنه أن يسترد شيئًا من المال لأهله ونفسه، فحينئذ نقول: تصدق بجميع مالك، وإذا كان الأمر بالعكس فكان رجلا أخرق لا يعرف أن يكتسب، وليس هناك داع أن ينفق كثيرًا، فهنا نقول: الأولى أن تنفق بعض المال.

وفي هذه الآية دليل على: أنه ينبغي للإنسان أن يحقق إيمانه ويثبته، وكلما رأى فيه تزعزعًا استعاذ بالله من الشيطان الرجيم ومضى إلى سبيله، وأن ينفق من المال، والمال محبوب قال الله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، وقال - عز وجل -: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨] ولا يمكن أن يبذل الإنسان شيئًا محبوبًا إليه إلا لما هو أحب، فإذا بذل الإنسان المحبوب إليه ابتغاءً لرضوان الله علمنا أن الرجل يحب رضوان الله أكثر من المال، وبذلك يتحقق الإيمان، أسأل الله تعالى أن يجعلنا من ذوي العلم الراسخ والإيمان الثابت، إنه على كل شيء قدير.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨] هذا معطوف على الآية التي قبلها وهي ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ يعني أي شيء يمنعكم من الإيمان بالله، وقد تمت أسباب وجوب الإيمان به، وذلك بدعوة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كما قال عز وجل: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ يعني أخذ الله تعالى العهد أن تؤمنوا به وبرسوله صلى الله عليه وسلم، فصار هناك سببان للإيمان، الأول: دعوة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إليه، والثاني: الميثاق الذي أخذه الله علينا، وذلك بما أعطانا - عز وجل - من الفطرة والعقل والفهم الذي ندرك به ما ينفعنا ويضرنا، هذا هو الصحيح في معنى الميثاق، وقيل: إنه الميثاق الذي أخذه الله تعالى على بني آدم حين أخرجهم من ظهره، إن صح الحديث الوارد في ذلك[2]، المهم: أن الله تعالى ينكر على من لم يؤمن فيقول: ما

---

(١) حسن: أخرجه أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥)، والدارمي (١٦٦٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود»

(٢) والحديث صححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٦٢٣)، وهو عند أحمد في «المسند» (١/ ٢٧٢)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٤٤).

الذي حملك على أن لا تؤمن؟ وقد تمت أسباب وجوب الإيمان بدعوة الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم وبأخذ الميثاق، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني إن كنتم مؤمنين فالزموا الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الحديد: ٩] لما ذكر أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يدعو إلى الإيمان بين أنه نزل عليه ﷺ ﴿ءَايَٰتٍ﴾ أي: علامات دالة على صدقه، وأن ما جاء به هو الحق، ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ ظاهرات بما اشتملت عليه من القصص النافعة، والأخبار الصادقة، والأحكام العادلة، والفصاحة التامة، والبيان العجيب، حتى إن العرب وهم أئمة البلاغة وأمراؤها تحداهم الله - عز وجل - عدة مرات أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولم يستطيعوا، ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ قوله: ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ يحتمل أن يكون المراد بذلك الرسول ﷺ أي يكون سببًا في إخراجكم من الظلمات إلى النور، ويحتمل أن يعود إلى الله - عز وجل - أي ليخرجكم الله تعالى بهذه الآيات من الظلمات إلى النور، وكلا المعنيين حق، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال الله تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]، فالنبي ﷺ سبب في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وأما المخرج حقيقة فهو الله - عز وجل -، والمراد بالظلمات: ظلمات الجهل، وظلمات الشرك، وظلمات العدوان، وظلمات العصيان، وكل ما خالف الحق فهو ظلمة، وكل ما وافقه فهو نور، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، هذه الجملة خبرية مؤكدة بـ(إن)، واللام، ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الرأفة أرق الرحمة، والرحمة أعم، فهو - عز وجل - رؤوف رحيم، أي ذو رحمة بالمؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ورحمة الله سبحانه وتعالى إما عامة وإما خاصة، فالعامة الشاملة لجميع الناس، والخاصة بالمؤمنين، كما قال - عز وجل -: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

فإذا قال قائل: أي رحمة من الله للكافر؟

فالجواب: أمده بأنعام، وبنين، وعقل، وأمن، ورزق، بل الكفار قد عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [يس: ٤٥] فإذا سألك سائل: هل لله رحمة على الكافر؟ لا تقل: «نعم» ولا «لا»، أما بالمعنى العام فنعم رحمة، ولولا رحمة الله به لهلك، وأما بالمعنى الخاص فلا، الرحمة الخاصة للمؤمنين فقط، قال - عز وجل -: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ولما أمرنا أن ننفق مما جعلنا مستخلفين فيه قال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا

﴿تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني أي شيء يمنعهم؟ والإنفاق في سبيل الله يشمل كل شيء أمر الله بالإنفاق فيه، فـ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هنا عامة، وعليه يدخل في ذلك الإنفاق على النفس، والإنفاق على الزوجة، والإنفاق على الأهل، والإنفاق على الفقراء واليتامى، والإنفاق في الجهاد في سبيل الله، فكل ما أمر الله تعالى بالإنفاق فيه فهو داخل في هذه الآية حتى إنفاقك على نفسك صدقة، وإنفاقك على زوجك صدقة، ولكن لاحظ النية، لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لسعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه -: «وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهِ الله إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا»[1]، فلزم هذا القيد، لابد أن تبتغي بها وجه الله إلا أجرت، أي: أثبت عليها، ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني كيف لا تنفق والذي سيرث السماوات والأرض هو الله، ومن جملة ذلك مالك الذي بخلت به سيرثه الله - عز وجل - وترجع الأمور كلها لله سبحانه وتعالى. قال أهل العلم: إن الشح في إنفاق المال سَفَهٌ في العقل، لأن هذا المال إما أن يفنى في حياتك فتعدمه، وإما أن يبقى بعد موتك فإذا ورث مالك من بعدك فإما أن يرثه صالح فيكون أسعد به منك، وإما أن يرثه مفسد فتكون خلفت له ما يستعين به على إفساده، فإذا خلفت المال فإما أن تخلفه إلى من ينفقه في سبيل الله فيكون هو أسعد بمالك منك، وإما أن تخلفه لمفسد يستعين به على معصية الله فتكون أعنته على معصية الله بما خلفت له من المال، إذن اللائق بك أن تنفقه في سبيل الله حتى يكون لك غنم وتسلم من غائلته لو ورثه من يفسد به، فتذكر يا أخي عندما تفكر في الإنفاق فيأتيك الشيطان فيأمرك بالبخل ويعدك الفقر، فكر أنك إذا خلفت هذا المال فلابد أن يورث، لن يدفن معك، لابد أن يورث ويكون الإرث دائرًا بين الأمرين السابقين.

﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ [الحديد: ١٠] دين الإسلام دين العدل في العمل والجزاء، وانتبه دين العدل في العمل والجزاء وليس كما يقول المحدَثون: «إنه دين المساواة»، هذا غلط عظيم، لكن يتوصل به أهل الآراء والأفكار الفاسدة إلى مقاصد ذميمة، حتى يقول: المرأة والرجل، والمؤمن والكافر سواء، ولا فرق، وسبحان الله إنك لن تجد في القرآن كلمة المساواة بين الناس، بل لابد من فرق، بل أكثر ما في القرآن نفي المساواة ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] وآيات كثيرة، فاحذر أن تتابع فتكون كالذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء، بدل من أن تقول: (الدين الإسلامي دين مساواة) قل: (دين العدل الذي أمر الله به، يعطي كل ذي حق حقه)، أرأيت المرأة مع الرجل في الإرث، وفي الدية، وفي العقيقة، وفك

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦)، ومسلم (١٦٢٨).

الرهان يختلفون. وفي الدين: المرأة ناقصة إذا حاضت لَمْ تُصَلِّ ولَمْ تَصُمْ، وفي العقل المرأة ناقصة: شهادة الرجل بشهادة امرأتين، وهلم جرًّا، والذين ينطقون بكلمة «مساواة» إذا قررنا هذا وأنه من القواعد الشرعية الإسلامية ألزمونا بالمساواة في هذه الأمور، وإلا لصرنا متناقضين، فنقول: دين الإسلام هو دين العدل يعطي كل إنسان ما يستحق، حتى جاء في الحديث: «أَقِيلُوا ذَوي الهيْئَاتِ عَثَرَاتِهِم إِلَّا الحُدُود»[1] يعني إذا أخطأ الإنسان الشريف الوجيه في غير الحدود فاحفظ عليه كرامته وأقله، هذا الذي تقيله - إذا كان من الشرفاء - إقالتك إياه أعظم تربية من أن تجلده ألف جلدة، لأنه كما قيل: الكريم إذا أكرمته ملكته، لكن لو وجد إنسان فاسق ماجن فهذا اشدد عليه العقوبة وأعزره، ولهذا لما كثر شرب الخمر في عهد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ضاعف العقوبة بدل أربعين جعلها ثمانين، كذلك الحديث الصحيح الذي رواه أهل السنن: «مَنْ شَرِبَ فَاجْلِدُوه، ثُمَّ إِنْ شَرِبَ فَاجْلِدُوه، ثُمَّ إِنْ شَرِبَ فَاجْلِدُوه، ثُمَّ إِنْ شَرِبَ فَاقْتُلُوه»[2]، لأن لا فائدة في جلده، ثلاث مرات نعاقبه ولا فائدة إذن خير له ولغيره أن يقتل، وإذا قتلناه استراح من الإثم، كما قال الله عز وجل: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

والخلاصة: أن التعبير بأن دين الإسلام دين المساواة غلط وليس بصحيح، بل هو دين العدل ولا شك، والعجب أن هؤلاء الذين يقولون هذا الكلام، يقولون: إن النبي ﷺ قال: «لَا فَضْلَ لِعَرَبِي عَلَى عَجَمِي إِلَّا بِالتَّقْوَى»[3] فيتناقضون، والحديث لم ينف مطلقًا، وإنما قال: «إلا بالتقوى» فهم يختلفون بالتقوى، ثم إن هذا الحديث لا يصح عن النبي عليه الصلاة والسلام، لأنه قال: «إن الله اصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[4] ففضل، ولا شك أن جنس العرب أفضل من جنس غير العرب لا شك عندنا في هذا، والدليل على هذا أن الله جعل في العرب أكمل نبوة ورسالة: محمد ﷺ، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] فالأجناس تختلف،

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده»، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٣/ ١٢٩)، وانظر «الصحيحة» (٦٣٨).

(٢) صحيح: أخرجه النسائي (٥٦٦١)، وابن ماجه (٢٥٧٢)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن النسائي».

(٣) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٤١٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٠٠)، وانظر «الصحيحة» (٢٧٠٠).

(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٧٦)، والترمذي (٢٦٠٥).

وقال عليه الصلاة والسلام: «خِيارُكُم فِي الجاهِلِية خِيارُكُمْ فِي الإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا»(١)، فاحذر أن تتابع في العبارات التي ترد من المحدِثين المحدَثين حتى تتأملها وما فيها من الإيحاءات التي تدل على مفاسد ولو على المدى البعيد، أسأل الله أن يهدينا صراطه المستقيم وأن يتولانا في الدنيا والآخرة، إنه على كل شيء قدير.

﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟﴾ [الحديد: ١٠] أي: لا يكونوا سواء، والمراد بالفتح هنا صلح الحديبية الذي جرى بين النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وبين قريش، وذلك في ذي القعدة من عام ستة من الهجرة، وسمي فتحًا، لأنه صار فيه توسيع للمسلمين وتوسيع أيضًا للمشركين، واختلط الناس بعضهم ببعض، وأمن الناس بعضهم بعض حتى يسر الله ـ عز وجل ـ أن نقضت قريش العهد، فكان من بعد ذلك الفتح الأعظم، فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة في رمضان، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟﴾ وذلك لأن الأولين أنفقوا وقاتلوا وسبقوا إلى الإسلام وكان الإسلام في حاجة لهم ولإنفاقهم، فكانوا أفضل ممن أنفق من بعد وقاتل، والله سبحانه وتعالى يجزي بالعدل بين عباده، ولكن لما كان تفضيل السابقين قد يفهم منه أن لا فضل للاحقين قال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: كل من الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، والذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وعدهم الله الحسنى، يعني الجنة، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: عليم ببواطن أموركم كظواهركم لا يخفى عليه شيء، وإذا كان عالمًا بها فسوف يجازي ـ جل وعلا ـ كل عامل بما عمل، قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ـ٨].

ثم قال ـ عز وجل ـ حاثًّا ومرغبًا في الإنفاق في سبيله فقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد:١١] أي: أين الذين يقرضون الله قرضا حسنًا؟ أي: ينفقون فيما أمرهم بالإنفاق فيه، وأشار الله في هذا إلى شيئين: إلى الإخلاص في قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ يعني لا يرى سوى الله ـ عز وجل ـ، والمتابعة في قوله: ﴿حَسَنًا﴾؛ لأن العمل الحسن ما كان موافقًا للشريعة الإسلامية، والإخلاص والمتابعة هما شرطان في كل عمل: أن يكون مخلصًا لله، وأن يكون متابعًا فيه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ووصف الله تعالى الإنفاق في سبيله بالقرض تشبيهًا بالقرض الذي يقرضه الإنسان غيره، لأنك إذا أقرضت غيرك فإنك واثق

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٩٦)، ومسلم (١٨١٨).

من أنه سيرده عليك، هكذا أيضًا العمل الصالح سيرد على الإنسان بلا شك، بل ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ والمضاعفة هنا الزيادة، وقد بين الله تبارك وتعالى قدرها في سورة البقرة، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١] فأنت إذا أنفقت درهمًا فجزاؤه سبعمائة درهم، ثوابًا من عند الله - عز وجل - والله فضله أكثر من عدله وأوسع، ورحمته سبقت غضبه، فيضاعفه له إلى سبعمائة بل إلى أكثر كما جاء في الحديث إلى أضعاف كثيرة، ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾، أي: حسن واسع، وذلك فيما يجده في الجنة، ففيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ثم قال - عز وجل -: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: أذكر للأمة يوم ترى أيها الإنسان ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ يوم القيامة ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: أمامهم ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ يكون من الأمام ومن اليمين، أما من الأمام: فلأجل أن يقتدي الإنسان به، وأما عن اليمين: فتكريمًا لليمين يكون بين أيديهم وبأيمانهم، وقوله: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ يفيد أن هذا النور على حسب الإيمان، لأن الحكم إذا علق بوصف كان قويًا بقوة ذلك الوصف، وضعيفًا بضعفه، إذن نورهم على حسب إيمانهم الذكر والأنثى.

﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ﴾ تقول الملائكة لهم: ﴿بُشْرَىٰكُمُ﴾ أي: ما تبشرون به ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يعني يوم القيامة ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ هذه الجنات فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، فيها ما يشاءون، كما قال الله عز وجل: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] وجمعها لأنها جنات متعددة متنوعة، ودرجات مختلفة حسب قوة الإيمان والعمل، وقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: تسير، وقد بين الله تبارك وتعالى في سورة القتال أنها أربعة: ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥] وهذه الأنهار لا تحتاج إلى حفر ساقية ولا إلى جدول، بل تسير على سطح الأرض حيث شاء أهلها، قال ابن القيم - رحمه الله -:

أنهارُها مِن غيرِ أُخدودٍ جَرتْ ... سُبحانَ مُمسكِها عَنِ الفَيَضانِ

فلا تذهب يمينًا ولا شمالًا إلا حيث أراد أهلها، وقوله ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ إشارة إلى علو قصورها وأشجارها، يعني تكون هذه الأنهار من تحت هذه القصور العالية والأشجار الرفيعة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها، وقد جاءت آيات متعددة بأن هذا المكث دائم ليس فيه زوال ولا انقطاع

ولا تغير، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ المشار إليه: ما وعدهم الله به الجنات التي تجري من تحتها الأنهار هو الفوز العظيم، و ﴿هُوَ﴾ يسميها العلماء ضمير فصل، وهو مفيد للتوكيد والاختصاص، أي هذا الذي ذكر هو الفوز العظيم، لأنه لا فوز مثله، كما أنه لا فوز أعظم منه، نسأل الله أن يجعلنا من أهله إنه على كل شيء قدير.

﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣] ﴿يَوۡمَ يَقُولُ﴾ أي: اذكر يوم يقول، فكلمة ﴿يَوۡمَ يَقُولُ﴾ ظرف زمان، ولابد للظرف الزماني والمكاني والجار والمجرور من شيء تتعلق به، والعلماء يقدرون المحذوف في كل مكان بما يناسب، وهنا المناسب أن يكون التقدير: اذكر أيها الإنسان يوم يقول المنافقون: هذا اليوم هو يوم القيامة، والمنافقون هم الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر ﴿يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ [الفتح: ١١] ولم يظهر النفاق إلا بعد أن قويت شوكة المسلمين بعد غزوة بدر، وكانت غزوة بدر في رمضان في السنة الثانية من الهجرة، انتصر فيها المسلمون انتصارًا ساحقًا على الكفار، فلما بزغ فجر الإسلام وقويت شوكته ظهر النفاق، والنفاق هو أن الإنسان يظهر الإسلام ويبطن الكفر، فظهر ذلك في المسلمين، فكانوا يأتون إلى الناس ويحضرون الجماعة لكنها ثقيلة عليهم، «وأثقل الصلوات على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر»(١)، لأنه ليس هناك أضواء يشاهدون فيها، وهم إنما يصلون يراءون الناس، وفي يوم القيامة يظهر نور للمؤمنين والمنافقين، ثم ينطفيء نور المنافقين، وأنت تعلم أيها الإنسان أن انطفاء النور بعد ظهوره يكون أشد ظلمة مما لو لم يكن هناك نور، ولهذا لو أطفأت النور القوي ثم فتحت عينيك لم تر شيئًا إلا بعد برهة من الزمن، فيكون انطفاء النور بعد وجوده أشد عليهم مما لو لم يكن هناك نور، ثم تكون الحسرة أشد، فيقول المنافقون للذين آمنوا: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾، أي: نأخذ شيئا قليلا بقدر الحاجة، ﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ﴾، والقيل هذا إما من المؤمنين، أو من الملائكة، فالله أعلم لا ندري.

﴿ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا﴾ وهل هو حقيقة يريدون أن يذهبوا إلى مكان النور الذي انطفأ فيه النور لعله يتجدد النور، أو أن هذا من الاستهزاء بهم والسخرية؟ الآية محتملة هذا وهذا، ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم﴾ أي بين المنافقين والمؤمنين ﴿بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ﴾ هذا سور عظيم، له باب يمنع من القفز، له باب يدخل منه المؤمنون ويمنع منه المنافقون، ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ﴾ أي: باطن هذا السور فيه

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٤)، ومسلم (٦٥١) واللفظ له.

الرحمة للمؤمنين، ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ للمنافقين، وأنت لا تستطيع أن تتصور هذه الحال، لأن الحال أعظم من أن نتصورها، حال عظيمة.

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾، المنادي: المنافقون، والمنادى: المؤمنون، ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ يعني في الدنيا كنا نصلي معكم ونتصدق ونذكر الله؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ يعني أنتم معنا، ولكن في الظاهر دون الباطن، ولهذا قالوا: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ يعني أضللتموها ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾، انتظرتم بنا الدوائر ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ شككتم في الأمر، فليس عندكم إيمان ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ أي: ظننتم أنكم محسنون لأنكم تقولون: إن أردنا إلا إحسانًا وتوفيقًا، نوفق بين المؤمنين والكافرين، وبين الإيمان والكفر، إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ فهم مع المؤمنين، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾، فهم مع الكفار، ظنوا أنهم بهذه المداهنة كسبوا المعركة، فغرتهم الأماني ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ وذلك بموتهم، ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾: الغرور هو الشيطان، ودليل هذا قول الله تبارك وتعالى عنه حين وسوس إلى أبوينا قال الله عنه: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٢]، فالغرور هو الشيطان.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ [الحديد: ١٥] الأسير في الدنيا يمكن أن يفدي نفسه ويبذل المال فيسلم، لكن في الآخرة ليس فيه فدية، ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ أيها المنافقون، ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الذين أعلنوا الكفر وصاروا أشجع من هؤلاء المنافقين فلا فدية لا لهؤلاء ولا لهؤلاء، ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: مثواكم ومآلكم النار ﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ الذي تتولونه، والتي تتولاكم، فهم يتولون النار بعمل أهلها، والنار تتولاهم لأنهم مستحقون لها ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع وهذا تقبيح لها، أعاذنا الله منها، نسأل الله أن يجعلنا ممن زحزح عن النار وأدخل الجنة، ومن الفائزين المتقين المفلحين.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦] أي: ألم يحق لهؤلاء المؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله، أي: أن تذل وتنقاد غاية الانقياد لذكر الله تعالى في القلوب واللسان والجوارح ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، يعني القرآن الكريم، وهو من ذكر الله، وذكره بخصوصه لأهميته، ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾، الذين أوتوا الكتاب من قبل هم اليهود والنصارى ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ يعني طال بهم الزمن ونسوا حظهم مما ذكروا به فقست قلوبهم ـ والعياذ بالله ـ وكثير منهم فاسقون وبعضهم مستقيم، ففي

هذه الآية الكريمة يبين الله - تبارك وتعالى - أنه قد حق للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله ولكتاب الله، وأن لا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم لبعدهم عن زمن الرسالات، وفي هذا إشارة إلى أن أول الأمة خير من آخرها، وأخشع قلوبًا؛ وذلك لقربهم من عهد الرسالة، وقد صح بذلك الحديث عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم»[1] وفي هذا التنديد التام باليهود والنصارى لأنها قست قلوبهم لما طال عليهم الأمد، وفيه العدالة التامة في حكم الله - عز وجل - حيث قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ ولم يعمم، وهذا هو الواجب على من تحدث عن قوم أن يبين الواقع؛ لأن بعض الناس إذا رأى من قوم زيغًا في بعضهم عمم الحكم على الجميع، والواجب العدل إن كان الأكثر هم الفاسقون، فقل: أكثرهم، وإن كان كثير منهم فاسقين فعبر بالكثير على حسب ما تقتضيه الحال، لأن الواجب أن يقوم الإنسان بالعدل ولو على نفسه أو والديه والأقربين.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧]

﴿ٱعْلَمُوٓا۟﴾: فعل أمر، فأمر بالعلم بهذه القضية الهامة، وهي أن الله يحيي الأرض بعد موتها، يعني أن الأرض تجدها يابسة ليس بها نبات فينزل الله عليها المطر فتنبت وتحيا وتنمو، إذا علمنا هذا ونحن عالمون به ونشاهده فإننا نستدل به على قدرة الله - تبارك وتعالى - على إحياء الموتى، فإن الناس أحياء الآن، ثم يموتون، ثم يبعثون يوم القيامة، فالقادر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على إحياء الأجسام بعد موتها من أجل الحساب والجزاء؛ لأنه ليس من الحكمة أن يخلق الله - تبارك وتعالى - خلقًا يأمرهم وينهاهم ويبيح دماء من لم يستجب وأموالهم ثم تكون النتيجة أن يموت الإنسان فقط، بل لابد من حياة، هي الحياة الحقيقية، كما قال - عز وجل -: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤] ومعنى (الحيوان) أي: الحياة الحقيقية التامة الكاملة التي ليس بعدها موت، وليس المراد بـ(الحيوان) الحيوانات الدواب، فالقادر على أن يجعل العيدان اليابسة خضراء نامية قادر على أن يحيي الموتى وبكلمة واحدة، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣ - ١٤]، وقال عز وجل: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]، وقال - عز وجل -: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: أظهرناها لكم،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٣).

والآيات هي العلامات الدالة على كمال قدرة الله – جل وعلا ـ وعلى كمال رحمته وسلطانه، وأضرب لذلك مثلًا: إذا أنزل الله المطر ونبتت الأرض وشبعت البهائم وطابت الأجواء فهذا من آثار رحمته، فنستدل بهذا على رحمة الله، ونستدل بما خلق الله في الكون من الشمس والقمر والنجوم، وما خلق الله تعالى في الأرض من الجبال والأنهار وغيرها على كمال حكمة الله ـ عز وجل ـ لأنك إذا تدبرتها وجدت فيها من الحكمة ما يبهر العقل، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (لعل) هنا للتعليل وليست للرجاء، مع أنها في اللغة العربية تأتي للرجاء كثيرًا، لكنها هنا للتعليل؛ لأن الرجاء لا يمكن في حق الله، إذ إن الرجاء طلب شيء فيه نوع من العسر، لكن الله ـ عز وجل ـ لا يتصور في حقه الرجاء، لكن تأتي (لعل) للتعليل، أي لأجل أن تعقلوا، والمراد بالعقل هنا: عقل الرشد، أي: تعقلوا عقلا ترشدون به، ويكون دليلا لكم على ما فيه الخير.

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٨]، ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾ أصلها: إن المتصدقين، لكن قلبت التاء صادا لعلة تصريفية معروفة عند أهل النحو، ﴿وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: أنفقوا في سبيل الله إنفاقًا حسنًا، والإنفاق الحسن ما جمع شرطين:

الأول: الإخلاص لله ـ عز وجل ـ.

والثاني: المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فالمرائي الذي ينفق رياء لم يقرض الله قرضًا حسنًا، ومثال ذلك: إنسان تصدق على فقير من أجل أن يراه الناس، فيقولون: إن فلانًا كثير الصدقة، فهذا مُراءٍ وصدقته لا تنفعه ولا تقبل منه؛ لأن كل عمل يراد به غير الله فهو غير مقبول، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاء عَنِ الشِّرْك، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيْهِ مَعِيَّ غَيْرِي تَرَكْتُه وَشِرْكُهُ»(١) وإنسان آخر يتعبد لله تعالى بعبادات غير مشروعة صاحب بدعة لكنه مخلص، لو سألته لمِ فعلت هذا؟ قال: أريد ثواب الله، وأريد التقرب إلى الله، فلا تنفعه هذه العبادة، لعدم المتابعة، فقوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: مخلصين فيه لله، متبعين لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

فإن قال قائل: لماذا عبر الله تعالى بالقرض وهو الغني سبحانه وتعالى؟

فالجواب: يقول هذا ـ جل وعلا ـ ليبين أن أجرهم مضمون، كما أن القرض مضمون، وسيرد عليه الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٨٥)، و أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠١)، وابن ماجه (٤٢٠٢).

لكن كيف تكون الواحدة بعشرة وهي ربا في القرض، كيف يكون هذا؟

الجواب: أولًا: لا ربا بين العبد وبين ربه.

ثانيًا: القرض إذا أعطاك المقترض شيئًا بدون شرط فهو حلال؛ لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم استقرض بكرًا، والبكر يعني بعيرًا صغيرًا، وردَّ خيرًا منه وقال: «خَيْرُكُم، أَحْسَنُكُم قَضَاءً»[1]، ولهذا عبارة الفقهاء: (كل شرط جر نفعًا للمقرض فهو ربا)، ولم يقولوا: كل زيادة، ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمۡ﴾ هذا خبر (إن) يعني إن المتصدقين والمتصدقات وأقرضوا قرضا حسنا يضاعف لهم، أي: يعطون أجرهم مضاعفًا، عشرة إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ﴿وَلَهُمۡ أَجۡرٌ كَرِيمٌ﴾ أي: ثواب كريم، والكريم هو الحسن الطيب، وذلك أن الجنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأصل الكرم الحسن، ودليل ذلك قول النبي ﷺ لمعاذ بن جبل -رضي الله عنه- لما بعثه لليمن: «إِيَّاكَ وَكَرَائِم أَمْوَالِهِم» يعني إذا أخذت الزكاة اجتنب كرائم الأموال، يعني أحاسنه، «واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب»[2] ثم قال -عز وجل-: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾ [الحديد: ١٩] الإيمان بالله يتضمن أربعة أشياء:

الأول: الإيمان بوجوده.

الثاني: الإيمان بربوبيته.

الثالث: الإيمان بألوهيته.

والرابع: الإيمان بأسمائه وصفاته.

والإيمان بوجود الله لا ينكره إلا مكابر في الواقع، لأن كل إنسان يعرِف أن هذا الكون المستقر المنظم لابد له من موجد ومنظم، والموجد والمنظِّم هو الله -عز وجل-؛ لأن كل إنسان يعلم أنه لا يستطيع أحد من البشر أن يتصرف بهذا الكون، مَن الذي يأتي بالليل مع وجود النهار؟ ومن الذي يأتي بالنهار مع وجود الليل؟ لا أحد يقدر، إذن كل إنسان عاقل فهو مؤمن بقلبه وإن أنكر بلسانه، مؤمن بوجود الله -عز وجل-، وجه ذلك أن هذه الخليقة العظيمة لابد لها من مدبر، لو قال قائل: إنها جاءت هكذا صدفة، فنقول: إن الشيء إذا جاء صدفة لا يكون منظمًا، ولو قال

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٣٠٥)، ومسلم (١٦٠١).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٩٦) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٩).

قائل: هي أوجدت نفسها، نقول: هذا أيضا محال عقلًا، كيف توجد نفسها وهي عدم، هذا لا يمكن، إذن لابد لها من موجد، ولهذا قال الله تعالى في سورة الطور: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨ - ٥٩] والجواب: بل أنت يا ربنا، نحن لا نقدر أن نخلق جنينا في بطن أمه أبدًا، قال الله - عز وجل -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ [الحج: ٧٣] استمعوا يا أيها الناس، خطاب للناس كلهم: الكافر والمؤمن، ولهذا إذا قرأت الآية يجب أن تستمع ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾ هذا الذباب المهين لا يمكن أن يخلقوه ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾، كل المعبودات لا يمكن أن تخلق ذبابا وهو من أصغر الحيوان وأذلها، زد على هذا، ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ يعني لو أن الذباب أخذ من هذه الأصنام شيئا ما استطاعت أن تستنقذه منه، قال أهل العلم: المعنى: لو وقع الذباب على أحد هذه الأصنام وامتص من الطيب الذي فيها، لأنهم يطيبون أصنامهم، ما استطاعت الأصنام أن تستنقذه، ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾، فلا يمكن لأحد أن ينكر من صميم قلبه وجود الله - عز وجل - أبدًا، لأنه باتفاق العقلاء أن كل حادث لابد له من مُحدث، ولا أحد يحدث هذا الكون إلا الله - عز وجل -.

الثاني: الإيمان بربوبيته، أي أنه وحده الخالق المالك المدبر لجميع الأمور، فلا خالق إلا الله، ولا مدبر للكون إلا الله، ولا مالك للكون إلا الله - عز وجل -، حتى ملك الإنسان ما في يده ليس ملكا حقيقيًا، والدليل أنه لا يمكن أن يتصرف فيما في يده كما يشاء، لو أردت أن أحرقه منعت شرعًا، وحرام عليَّ؛ لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم نهى عن إضاعة المال(1)، إذن ملك الإنسان ما بيده ليس ملكًا حقيقيًا، بل إنه يختص به عن غيره فقط.

الثالث: الألوهية: هي أن تؤمن بأنه لا إله إلا الله، أي: لا معبود بحق إلا الله - عز وجل - وعبادة الأصنام غير حق، كما قال - عز وجل -: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [لقمان: ٣٠] إذن الألوهية أن تؤمن بأنه لا إله إلا الله، أي لا معبود حق إلا الله - عز وجل - وما عبد من دونه فهو باطل، وعليه فلا تصرف العبادة إلا لله.

الرابع: الإيمان بالأسماء والصفات: قال الله - عز وجل -: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠] وصفاته كذلك عليا ليس فيها صفة نقص، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] أي الوصف الأعلى، وأسماء الله تعالى كثيرة لا يمكن

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٧٧)، ومسلم (٥٩٣).

حصرها مهما أردت، والدليل على ذلك حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ «ما من إنسان يصيبه هم أو غم أو حزن ثم يقول: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك اللهم بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك»(١). فجعل الله الأسماء ثلاثة أقسام: ما أنزله في كتابه، مثال الاسم الذي جاء في القرآن: (الرحمن) أو علمته أحدا من خلقك مثل: (الرب، الشافي)، جاء في السنة، قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «السِّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ، مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ»(٢). وقال عليه الصلاة والسلام: «أَمَّا الرُّكُوع فعظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ»(٣) فهذا مما علمه أحدا من خلقه.

«أو استأثرت به في علم الغيب عندك» هذا القسم الثالث ما استأثر الله به في علم الغيب، واستأثر بمعنى انفرد، وما انفرد الله بعلمه فلم ينزله في الكتاب ولم يعلمه أحدا من الخلق لا يمكن الإحاطة به، إذن أسماء الله لا يمكن الإحاطة بها ولا هي محصورة بعدد، لأننا لا نعلمها، وأما قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتَسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»(٤) فالمعنى: أن من الأسماء تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة هذا المعنى، ومعنى (أحصاها) أي: عرفها لفظًا، وعرفها معنى، وتعبد لله بمقتضاها، وليس المراد أن تحفظها فقط، بل لابد من حفظ اللفظ وفهم المعنى، والتعبد لله بها بمقتضاها، فمثلًا: إذا علمت أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ غفور فتعرض للمغفرة، لا تقل: الله غفور، وتفعل الذنب متى شئت، بل تعرض للمغفرة واستغفر الله تجد الله غفورًا رحيمًا، وإذا علمت أن الله عزيز فتتعبد الله بمقتضى هذا وتخاف منه وتحذر، وهلم جرًا.

أما الإيمان بالرسل فإنه يتضمن تصديقهم كلهم من أولهم إلى آخرهم بما أخبروا به، إذا صح عنهم، وأما العمل بشرائعهم فإننا لا يلزمنا العمل إلا بشريعة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وذلك لأن الشرائع السابقة كلها نسخت بهذه الشريعة، لقول الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٩١)، وابن حبان (٢٣٧٢)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٦٩٠)،انظر «الصحيحة» (١٩٩).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ٤٧)، والنسائي (١/ ٣٤)، والبيهقي (١/ ٣٤)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٦٦).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٤٧٩)، والنسائي (١٠٤٥)، وأبو داود (٨٧٦).

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] وقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «وَالذِي نَفْسِي بِيَدِه لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ - يعني أمة الدعوة - يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِمَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»[1] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، أي: الذين آمنوا بالله ورسله ﴿هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ أي: البالغون في الصدق مبلغا كبيرًا، لأن (الصدِّيق) صيغة مبالغة، والصدق يكون بالقصد وبالقول وبالفعل، فأما الصدق بالقصد فأن يقصد الإنسان بعبادته وجه الله تبارك وتعالى لا يقصد غيره، وإذا قصد بعبادته شيئا غير الله فقد أشرك ولا يقبل عمله، لقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الحديث القدسي عن الله تبارك وتعالى: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُه وَشِرْكَهُ»[2]. الثاني: الصدق في القول بأن يكون الإنسان صادقا فيما يخبر به، وقد أثنى الله تعالى على الصادقين، وأمرنا أن نكون معهم، فقال - جل وعلا -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] وأثنى على المهاجرين الذين هاجروا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون، وأمر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالصدق وحث عليه، ورغَّب فيه، فقال: «عَلَيكُم بالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالكَذِبَ، فَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله كِذَّابًا»[3]. أما الصدق بالفعل فمتابعة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ لأن من كان صادقا فيما يدعي من محبة الله تعالى ورسوله ﷺ فليتبع الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١] وقد سمى بعض السلف هذه الآية آية المحنة، يعني الامتحان، فمن ادعى حب الله ورسوله ﷺ قلنا له: عليك باتباع الرسول ﷺ، فإن اتبعه فهو صادق، وإن خالفه فليس بصادق، ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ الشهداء جمع شهيد، والمراد بهم من قُتلوا في سبيل الله، والقتال في سبيل الله: أن يقاتل الإنسان عدو الله لتكون كلمة الله هي العليا، قال ذلك النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حين سئل عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل ليُرى مكانه:

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٥٣)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣١٧).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٨٥)، و أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠١)، وابن ماجه (٤٢٠٢).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٠٧)، والترمذي (١٩٧١)، وأبو داود (٤٩٨٩).

أي ذلك في سبيل الله؟ قال: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ»(١).

فالشجاع يحب القتال، كالصياد يحب أن يصيد، ويخرج ويتجشم المصائب ليصيد الصيد، وإذا صادها صارت عنده أرخص من كل شيء، فهذا يقاتل شجاعة، لأنه شجاع يحب أن يقاتل، ويقاتل حمية يعني عصبية لقومه، ويقاتل ليُرى مكانه، أي: رياء كما جاء في اللفظ الآخر، «ويقاتل رياء» قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» ومن قاتل ليسترد أرضه المغصوبة فهو من باب الحمية إلا إذا قال: أريد أن أستردها لأقيم عليها شعائر الإسلام، فهذا في سبيل الله، أما من قاتل لأن هذه أرضه ويريد أن ترد إليه، فهذا حمية ليس له أجر الشهداء إذا قتل، هؤلاء الشهداء ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٢] أي: ثوابهم العظيم كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩: ١٧١]، ولما ذكر -عز وجل- أهل الإيمان وثوابهم ذكر أصحاب الشمال بعد ذلك قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [المائدة: ١٠] لأن القرآن مثاني، تثنى فيه الأمور والمعاني، ولهذا تجد القرآن الكريم في الغالب إذا ذكر الله الجنة ذكر النار، وإذا ذكر أولياء الله ذكر أعداء الله، والحكمة من ذلك أن لا يمل الإنسان، لأنه كلما تنقل المعنى إلى معنى آخر نشط الإنسان، وحكمة أخرى أن يكون الإنسان سائرًا إلى الله، أي متعبدًا إلى الله بين الخوف والرجاء؛ لأنه إذا مرت به صفات المؤمنين قوي جانب الرجاء، وإذا ذكرت أحوال الكافرين غلب جانب الخوف.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ عطف التكذيب على الكفر وهو نوع منه؛ لأنه أشد، فالذي يكفر ولم يكذب أهون من الذي يكفر ويكذب، فعطف كذبوا بآياتنا على كفروا من باب عطف الخاص على العام، كعطف الروح على الملائكة وهو منهم، قال الله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤] والروح جبريل وهو من الملائكة، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾، «الجحيم» اسم من أسماء النار، وأصحابها يعني الملازمين لها، ولهذا إذا مرت آية فيها (أصحاب) فالمعنى أنهم ملازمون لها مخلدون فيها، نسأل الله العافية، وفي هذه الآيات الترغيب بالأوصاف التي توصل إلى الجنات، لأن الله تعالى لم يذكر لنا هذه الأمور لنتطلع عليها فقط، ولكن لنسعى لها، وفيها التحذير من الكفر والتكذيب؛ لئلا يقع الإنسان في هذا العقاب الأليم.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٢٣)وفي غير موضع من صحيح، ومسلم (١٩٠٤).

لما ذكر الله أحوال المؤمنين وأحوال الكافرين وهم في الدنيا - كل يعمل على شاكلته - بيَّن حقيقة الدنيا ما هي، وأمرنا أن نعلم من أجل أن يجتهد الإنسان في التأمل والتفكر، فالأمر بالعلم بشيء واقع يعني أن المطلوب أن تتأمل كثيرًا حتى يتبين لك الأمر، ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الحديد: ٢٠] وهي حياتنا هذه ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ﴾، خمسة أشياء: اللعب بالجوارح، بأن يعمل الإنسان أعمالًا تصده عن ذكر الله وعن الصلاة، وأما اللهو بالقلوب فهو الغفلة، وهذا أشد وأعظم، وغفلة القلب - أعاذنا الله منها وأحيا قلوبنا - الغفلة عظيمة تفقدك جميع لذات الطاعة، وتحرم من جميع آثارها لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ لم يقل: لا تطع من أسكتنا لسانه، بل قال: ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾، وما أكثر ذكرنا باللسان مع غفلة الجنان، وهذا لا شك أنه ينقص الثواب، وينقص الآثار المترتبة على الذكر من صلاح القلب، والاتجاه إلى الله، والإنابة إليه وغير ذلك: ﴿وَزِينَةٌ﴾ أي: زينة بالملابس، وزينة بالمراكب، وزينة بالمساكن، وزينة في كل شيء، ولذلك تجد الإنسان ولو كان فقيرًا يحب أن يزين بيته، وكذلك سيارته عند الزواج إذا أراد الزواج يركب سيارة يجعلون عليها عقودا من الأزهار وغيرها من الزينة، ﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾ أي: كل واحد يفخر على الثاني، إما بالقبيلة، أو بالعلم، يكون هذا عنده علم بالطب، وهذا لا يعرف، وهذا علمه بالهندسة، وهذا لا يعرف، فيفخر عليه، وأقبح من ذلك التفاخر بالعلم الشرعي، لأن العلم الشرعي يجب على الإنسان إذا اكتسبه ومنَّ الله عليه به أن يزداد تواضعًا، وأن يعرف نفسه وقدر نفسه، ومن ذلك ما يحصل بين الشعراء في بعض الأحيان من التطاول على الآخرين ومن التفاخر كما يوجد في بعض الأفراح وبعض المناسبات مما نسمع.

﴿وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ أي يحب أن يكون أكثر أموالًا وأكثر أولادًا، وهذا كقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤] هذه حقيقة الدنيا، ومع هذا اللهو واللعب والتفاخر والزينة لا تبقى، فلابد أن تزول، وإذا طال الزمان عاد الإنسان إلى الهرم، وفي هذا يقول الشاعر:

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنَغَّصَةً ... لَذَّاتُهُ بِادِّكَارِ المَوْتِ وَالهَرَمِ

كل إنسان إذا فكر في عيشه وأنه في نعيم يقول: ما بعد ذلك؟! ما الذي بعده، إما موت أو هرم، إما أن تموت وتنتهي من الدنيا، وإما أن تهرم وتكون عالة على ابنك وبنتك حتى أهلك

يملونك، ولهذا أشار الله ـ عز وجل ـ إلى هذه الحالة فقال: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣] لأنهما إذا بلغا الكبر اختل تفكيرهما وصارا يتعبان، فأنت إما أن تموت وإلا تصل إلى حال الهرم، هذا إن بقيت لك الدنيا، وإلا فقد تسلب إياها قبل أن تصل إلى الهرم وقبل أن تموت، فنأخذ من هذا الحذر من فتنة الدنيا، وكم من إنسان أطغته الحياة الدنيا فهلك، وفي الحديث القدسي: «إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ إِذَا أَغْنَيْتُهُ أَفْسَدَهُ الغِنَى»[(١)]، بل قد قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «وَالله مَا الفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَإِنَّمَا أَخْشَى عَلَيْكُم أَنْ تُفْتَحَ الدُّنْيَا فَتَنَافَسُوا فِيْهَا كَمَا تَنَافَسَ فِيْهَا مَنْ قَبْلَكُم فَتُهْلِكَكُم كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»[(٢)]، وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام، فأكثر الفسقة وأكثر الكفرة من الملأ والأشراف، واقرأوا القرآن، مَن يكذب الرسل؟ هم الملأ والأشراف، واعتبروا بالواقع الآن، أكثر من يفسد الدنيا هم الأثرياء والأغنياء الذين فتحت عليهم الدنيا، فليحذرها العاقل اللبيب، وليقتصر منها على ما ينفعه في الآخرة.

ثم ضرب الله لها مثلًا؛ لأن الأمثال تقرب المعاني، إذ إن المثل يعني قياس المعنى على المحسوس: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ أي: مطر تنبت به الأرض وتزول به الشدة، ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ أي النبات الناشيء عنه، وأعجبهم: أي استحسنوه، والكفار هم الكافرون بالله ـ عز وجل ـ؛ لأن الكافر تعجبه الدنيا ويفرح بها ويسر بها، وقلبه متعلق بها ليس له هم إلا ما يراه من زينتها ولهوها، فهو قد أعجب الكفار بالله، وخص الكفار لأن الكفار هم الذين يستحسنون الدنيا ويعجبون بها وتتعلق قلوبهم بها، أما المؤمنون فهم على العكس لا يهمهم إلا ما فيه مصلحة الآخرة، وقيل: إن المراد بالكفار هنا الزراع، ولكن هذا ليس بصحيح؛ لأن إطلاق الكفار على الزراع نادر جدًا، هذا إن صح، والذين يقولون: إن المراد بهم الزراع يقولون: لأن الزارع يكفر الحب، أي: يستره في الأرض، ولكن ما قررناه أولا هو الصواب: أن المراد بالكفار هم الكفار بالله، يعجب الكفار نباته ثم بعدما يظهر ويعجب الكفار ويستحسنونه ويتعجبون منه ﴿يَهِيجُ﴾ أي: ييبس ويجف، ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ بعد أن كان أخضر ناميا يكون مصفرًّا دائمًا، ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ يعني: يتحطم ويتكسر؛ لأنه يبس، فماذا كانت النتيجة لهذا الزرع؟ التلف والزوال، هذه حال الدنيا، تزهو للإنسان بنعيمها وقصورها ومراكبها وأموالها وأولادها وغير ذلك، وإذا بها

---

(١) ضعيف: أخرجه الخطيب في «التاريخ» (٦/ ١٥) كذا قال الشيخ الألباني في «الضعيفة» (١٧٧٤).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣١٥٨)، ومسلم (٢٩٦١).

تتحطم، كم من غني كان مسرورا في أهله، منعما في بيته وفي مركوبه وفي ثيابه، وفي كل أحواله، وإذا به يعود فقيرًا، فتتحطم دنياه، فإن لم تكن مات وتحطمت دنياه بفراق هذه الدنيا، فلابد من أحد أمرين: فإما أن تفارقك الدنيا، وإما أن تفارقها، هذه حال الدنيا، وهذا أمر لا يشك فيه في الواقع، لكن النفوس معها غفلة يسهو بها الإنسان عن مثل هذا الأمر الواقع، فيظن أن كل شيء على ما يرام، ويستبعد زوال الدنيا، أو زواله هو عن الدنيا، أما الآخرة فاستمع إليها، قال: ﴿وَفِى ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ للكافرين، ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ للمؤمنين، فأيها أحق أن يؤثر الإنسان الدنيا التي مآلها الفناء والزوال، أو الآخرة؟! يؤثر الآخرة؛ هذا العقل، لأنك إن آثرت الدنيا ففي الآخرة عذاب شديد، وإن آثرت الآخرة ففيها مغفرة من الله ورضوان، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ للذنوب ﴿وَرِضْوَٰنٌ﴾ بالحسنات، ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ هذه الجملة فيها حصر طريقة النفي والإثبات، وهو أعلى طرق الحصر، ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾، يغتر بها الإنسان، فيلهو ويلعب ويفرح ويبطر ثم تزول، كل هذه الجمل وهذه الأوصاف يريد الله عز وجل - وهو أعلم - أن يزهد الإنسان في الدنيا ويرغبه في الآخرة، ومن زهد بالدنيا ورغب في الآخرة لم يفته شيء من نعيم الدنيا حتى وإن افتقر، فإنه لا يفوته نعيم الدنيا، ودليل هذا من القرآن والسنة، قال الله - عز وجل -: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] لم يقل لنكثرن ماله وأولاده وقصوره ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ مطمئنة مستريح البال فيها، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، وبين النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ذلك في قوله: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»(١).

ثم قال - عز وجل -: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١] أمر بالمسابقة، وقد جاء الأمر في آية أخرى بالمسارعة، فيجمع الإنسان بين المسابقة وهي شدة العدو في حال السير، وبين المسارعة يعني المبادرة إلى فعل الخير ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وذلك بفعل أسباب المغفرة، ومن أسباب المغفرة: أن تسأل الله المغفرة، تقول: اللهم اغفر لي، أو تقول: أستغفر الله وأتوب إليه، ومن أسباب المغفرة: فعل ما تكون به المغفرة كقول النبي ﷺ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غَفَرَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»(٢)، وكقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فيمن توضأ فأسبغ

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٩٩)، و أحمد في «مسنده» (٤/ ٣٣٢).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٨)، و مسلم (٧٦٠).

الوضوء ثم صلى ركعتين لا يحدث بهما نفسه، غفر الله بهما ما تقدم من ذنبه»[1]، وكقوله ﷺ: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ مِائَةَ مَرَّةٍ غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»[2] والأمثلة على هذا كثيرة، ﴿وَجَنَّةٍ﴾ هي دار النعيم التي أعدها الله - عز وجل - للمتقين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيها فاكهة ونخل ورمان، وعسل ولبن وغير ذلك، لكن لا تظن أن ما فيها يشابه ما في الدنيا؛ لأن الله يقول: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، وليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء فقط، اسم رمان لكن يختلف عن رمان الدنيا، فاكهة تختلف عن فاكهة الدنيا، فرش يختلف عن فرش الدنيا، وهلم جرًّا، وفي الحديث القدسي: «أَعْدَدتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[3] ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وفي سورة آل عمران: ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ولا منافاة لأن الأول: عرضها كعرض السماء تشبيه. والثاني: عرضها السماوات والأرض أيضا تشبيه، لكن يسميه أهل البلاغة: تشبيه بليغ، ﴿كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ومَن يستطيع أن يقدر عرض السماء والأرض؟ لا أحد يستطيع، السماوات بسعتها، السماء الدنيا واسعة جدًّا، كم بينها وبين الأرض من مسافة؟ وهي محيطة بها، والسماء الثانية فوقها وهي أوسع منها، والثالثة أوسع وهلم جرًّا، إلى أن تصل إلى الكرسي. والكرسي يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضِينَ السَّبْعُ فِي الكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلَقَةٍ أُلْقِيتْ فِي فَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ»[4] حلقة المغفر صغيرة، ألقها في فلاة في الأرض ماذا تكون بالنسبة للفلاة؟ لا شيء، قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «وَإِنَّ فَضْلَ العَرْشِ عَلى الكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الفَلَاةِ عَلَى هَذِهِ الحَلَقَةِ»[5]، فلن نستطيع أن ندرك عرض السماوات والأرض، والجنة عرضها كعرض السماء والأرض، ولذلك كان أقل أهل الجنة منزلة من ينظر إلى ملكه مسافة ألفي سنة، وإنما ذكر الله تعالى أن عرضها عرض السماوات والأرض من أجل أن نحرص على ملء هذه الأرض أرض الجنة، وفي الحديث: «أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قال للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: أقرئْ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله

(١) صحيح: أخرجه النسائي (٨٥)، و أبو داو (١٠٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٦١٧٦).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٠٥)، و مسلم (٢٦٩١).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٤٤)، و مسلم (٢٨٢٤).

(٤) انظر «السلسلة الصحيحة» (١٠٩).

(٥) انظر «السلسلة الصحيحة» (١٠٩).

إلا الله، والله أكبر»[1] فاحرص يا أخي على أن تملأ ما تستحقه من هذه الجنة بذكر الله، وتلاوة كتابه، وغير ذلك مما يقرب إلى الله.

﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أعدها الله - عز وجل - كما قال - عز وجل -: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة: ٨٩]، ومعنى الإعداد التهيئة للشيء، ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ آمنوا بالله، وبكل ما أوجب الله الإيمان به، من الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وقوله ﴿وَرُسُلِهِ﴾ يشمل جميع الرسل الذين أولهم نوح وآخرهم محمد عليهم الصلاة والسلام، لكن إيماننا بالرسل يختلف عن إيماننا بمحمد عليه الصلاة والسلام، فإيماننا بالرسل بأن نؤمن بأنهم صادقون مبلغون عن الله، ونؤمن بكل ما صح من أخبارهم، أما اتباعهم فلا اتباع إلا للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فهم يشتركون مع الرسول ﷺ بأن نؤمن بأنهم صادقون، وأن كل ما أخبروا به صدق، وأن كل ما جاءوا به فهو عدل ومناسب لأحوال أممهم في وقتهم، أما الاتباع فلا نتبع إلا واحدا منهم وهو محمد ﷺ، وقوله: ﴿ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ يدل على أن أهل الكتاب - اليهود والنصارى - ليسوا من أهل الجنة، لأنهم لم يؤمنوا برسل الله، والدليل أنهم كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام، والكافر برسول من الرسل كافر بالجميع، كيف وقد جاء محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم بنسخ جميع الشرائع السابقة، قال الله - عز وجل -: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] مع أنه لم يسبق نوحا أحد من الرسل؛ لأن من كذب رسولا من الرسل فقد كذب جميع الرسل، فكيف بمن كذب محمدا ﷺ الذي نسخت شريعته جميع الشرائع، والذي قال الله فيه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَٰقَ النَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾ [آل عمران: ٨١] أخذ ميثاق النبيين كلهم. ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ [آل عمران: ٨١] وهذا الرسول هو محمد ﷺ، الرسل كلهم يؤمنون بالرسول عليه الصلاة والسلام، ولهذا في ليلة الإسراء كان محمد ﷺ إمامهم في صلاتهم، فاليهود والنصارى ليسوا من أهل الجنة بعد بعثة الرسول ﷺ، لأنهم لم يؤمنوا برسله، لأنهم كفروا بمحمد ﷺ، بل هم كفروا برسلهم أيضًا، لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] ولأن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام بشرهم بمحمد ﷺ، قال الله - عز وجل - في سورة الصف: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي اسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٤٦٢)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٠٥).

فلما جاءهم هذا الرسول الذي بشر به عيسى قالوا: هذا سحر مبين، وكفروا به، فهم كفروا بعيسى وردوا بشارته وأنكروها، ولا يجوز لنا أبدا أن نقول أو نعتقد أن أديان اليهود والنصارى اليوم أديان صحيحة أبدًا، بل هي أديان باطلة، غير مقبولة عند الله، كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي ما أعد الله لهؤلاء المؤمنين بالله ورسله فضل الله في أنهم آمنوا بالله وآمنوا برسله واتبعوا الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم أثيبوا بهذه الجنات، ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ المشيئة هنا مقترنة بالحكمة، يعني من كان أهلا للفضل آتاه الله الفضل، ومن لم يكن أهلا له لم يؤته، والدليل قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] فلن يجعل رسالته إلا فيمن هو أهل لها، وقال الله ـ عز وجل ـ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وقال ـ عز وجل ـ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩] فلا تظن أن الله يعطي الفضل لمن شاء بدون سبب، لابد من سبب، فمتى علم الله في قلب الإنسان خيرا آتاه الخير، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠] فأصلح قلبك فيما بينك وبين الله تجد الخير كله، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾، أي: صاحب الفضل العظيم ـ عز وجل ـ، فلا أحد أعظم منة من الله تعالى، أوجدك من العدم، وأعدك وأمدك بالنعم، يسر لك الهدى، فلا أحد أعظم منة من الله، ولهذا قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧]، ولما جمع النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم الأنصار في غزوة حنين حين قسم الغنائم بين المؤلفة قلوبهم كان يقرر عليهم قال لهم: «ألم أجدكم ضلالًا فهداكم الله بي؟» قالوا: الله ورسوله أمن. قال: «أَلَمْ أَجِدْكُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَ اللهُ قُلُوبَكُمِ بِي؟» قالوا: الله ورسوله أمن. كلما قال قولا قالوا: الله ورسوله أمن[1]، يعني أعظم منة.

فالحاصل: أن الله تعالى ذو الفضل العظيم، ولكن يؤتي فضله من هو مستحق له، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣]، اللهم إني أسألك من فضلك العظيم أن تهدي قلوبنا وتصلح أعمالنا، وتختم لنا بخير إنك على كل شيء قدير.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢] يعني جميع المصائب التي تصيب الإنسان في الأرض أو في نفسه قد

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١).

كتبت من قبل، والمصيبة في الأرض كالجدب، وقلة الأمطار، وغور المياه وصعوبة منالها، وربما يقال أيضًا: الفتن والحروب وغيرها، ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: في نفس الإنسان ذاته من مرض، أو فقد حبيب، أو فقد مال، أو نحو ذلك، حتى الشوكة يشاكها ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾، هذا الكتاب هو اللوح المحفوظ، كتب الله فيه مقادير كل شيء، «لما خلق الله سبحانه وتعالى القلم قال له: اكتب قال: ربي وماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة»[1]. سبحان الله! ما أعظم هذا اللوح الذي يسع كل شيء إلى يوم القيامة، ولكن ليس هذا بغريب على قدرة الله ـ عز وجل ـ، لأن أمر الله تعالى إذا أراد شيئًا يقول له: «كن» فيكون، ولقد كان الإنسان يتعجب من قبل، ولكن لا يستبعد أن يكتب في هذا اللوح مقادير كل شيء، فقد ظهر الآن من صنع الآدمي قطعة صغيرة يسجل فيها آلاف الكلمات وهي عبارة عن لوحة صغيرة كالقرص تسجل فيها آلاف الكلمات، وقد يسجل فيها جميع كتب الحديث المؤلفة، أو جميع التفاسير، أو جميع كتب الفقهاء وهي من صنع الآدمي، فكيف بصنع من يقول للشيء: «كن» فيكون، ولما قال: «اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة. كتب ما هو كائن إلى يوم القيامة»، فالمصائب التي تصيب الناس هي في أمر سابق، ولهذا قال: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾، وقوله: ﴿نَّبْرَأَهَآ﴾ قيل: إنها تعود على المصيبة، وقيل: على الأرض، وقيل: على النفس، وقيل: على الجميع، والصحيح أنها على الجميع، أي من قبل أن نبرأ كل هذه الأشياء، أي: أن نخلقها، وذلك لأن الله كتب مقادير كل شيء قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يعني إن كتابة هذه المصائب يسير على الله ـ عز وجل ـ لأنه قال للقلم: اكتب ـ فكتب وهذا يسير، كلمة واحدة حصل بها كل شيء ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، كل شيء فهو يسير على الله، لأن الأمر كلمة واحدة «كن» فيكون، أرأيتم الخلائق يوم القيامة تبعث بكلمة واحدة، قال الله عز وجل: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]، وقال ـ عز وجل ـ: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الصافات: ١٩] أي: على وجه الأرض خرجوا من القبور، هذا يسير، ولما قال زكريا لله ـ عز وجل ـ حين بشره بالولد قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤] يعني من الكبر ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨] قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩] فالله ـ عز وجل ـ لا يعجزه شيء، ولا يستعصي عنه

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

شيء، ولا يتأخر عن أمره الكوني شيء، ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] أي: أخبرناكم بأن كل مصيبة تقع فهي في كتاب، ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ اللام للتعليل، و«كي» بمعنى «أن»، أي: لأن لا تأسوا، ومعنى ﴿تَأْسَوْا﴾ تندموا على ما فاتكم مما تحبون ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ أي: لا تفرحوا فرح بطر واستغناء عن الله بما آتاكم من فضله، فإذا علمت أن الشيء مكتوب من قبل فلا تندم على ما فات لأنه مكتوب، والمكتوب لابد أن يقع، ولا تفرح فرح بطر واستغناء إذا آتاك الله الفضل، لأنه من الله مكتوب من قبل، فكن متوسطا لا تندم على ما مضى، ولا تفرح فرح بطر واستغناء بما آتاك الله من فضله، لأنه من الله، وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ»[1]. القوي في إيمانه وليس القوي في بدنه، وأصحاب الرياضة يجعلون هذا عنوانًا: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف» ويقول: المراد بالمؤمن القوي في بدنه. وهذا غلط، (المؤمن القوي) هنا وصف يعود إلى ما سبقه وهو الإيمان، « الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ»، وهذا يسميه البلاغيون الاحتراس، بمعنى أنه قد يظن الظانّ أن الضعيف لا خير فيه، قال: «وفي كل خير» ثم قال: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»[2] والإنسان إذا علم أن كل شيء مقدر ولابد أن يقع رضي بما وقع، وعلم أنه لا يمكن رفع ما وقع أبدًا، ولهذا يقال: دوام الحال من المحال، وتغيير الحال - بمعنى رفع الشيء بعد وقوعه - من المحال، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، مختال في فعله، فخور في قوله، ومن الاختيال في الفعل أن يجر ثوبه، أو مشلحه، أو عباءته، أو غير ذلك مما يدل على الخيلاء، حتى وإن لبس ثوبا وإن لم يكن نازلا لكنه يعد خيلاء فهو خيلاء، الفخور هو المعجب بنفسه الذي يقول: فعلت وفعلت وفعلت، يفخر به على الناس، لأنك ما دمت فاعلًا الشيء تريد ثواب الله فلا حاجة أن تفخر به على الناس، بل اشكر الله عليه، وحدِّث به على أنه من نعمة الله عليك. ثم ذكر الله تعالى أوصافهم فيما بعد فقال: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ أي: يمنعون ما يجب عليهم بذله من مال، أو جاه، أو علم، مثال الأول: الذي يبخل بالزكاة وهي أعظم وأوجب ما ينفق، والإنفاق على من تجب نفقته من الأقارب والزوجات.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٦٤)، أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٦٦)، وابن ماجه (٧٩).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٦٤)، أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٦٦)، وابن ماجه (٧٩).

ومثال الثاني: أن يجد الإنسان شخصا مسلما واقعا في مظلمة يتطلب المقام أن يشفع فيها، ليرفع عنه هذا الظلم ولكنه يبخل، فهذا بخل بجاه. ومثال الثالث: أن يبخل بتعليم الناس مما علمه الله - عز وجل - وأن يبخل بالجواب والفتوى إذا استفتي عن مسألة دينية وتعين عليه أن يفتي فيها، وفي حديث عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «البَخِيلُ مَنْ إِذَا ذُكِرتُ عِنْدَهُ وَلم يُصلِّ عَلَيَّ»(١) اللهم صلِّ وسلم عليه، وهذا نوع من البخل، لأنه بخل بما يجب عليه، إذ إن القول الراجح أنه إذا ذكر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وجب على من سمعه أن يصلي عليه، بدليل الحديث الذي في السنن أن جبريل عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «رَغِمَ أَنفُ امْرِئٍ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ. قُلْ: آمِينَ. فَقَالَ: آمِينَ»(٢)، ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ أي: يقولون للرجل: لا تنقص من مالك، لا تتعب نفسك في الشفاعة لفلان، لا تتعب نفسك في تعليم العلم، فهؤلاء أمروا بالبخل فصاروا - والعياذ بالله - فاسدين مفسدين، قال الله - عز وجل -: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: يعرض عن طاعة الله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، من يتول فإن الله ليس بحاجة إليه فهو - عز وجل - غني بذاته عن جميع مخلوقاته، وهو الحميد، أي: المحمود على غناه، لأنه ليس كل غني يكون محمودًا، فالغني البخيل غير محمود، لكن الله - عز وجل - غني حميد يحمد على غناه؛ لأن الله - عز وجل - واسع العطاء، كثير العطاء، وفي هذه الآية دليل على أن الإنسان الذي يتولى عن طاعة الله إنما يضر نفسه، ولا يضر الله شيئًا، فإن الله غني، وفي الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُم وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنكُم مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا»(٣).

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد: ٢٥] هذه جملة مؤكدة باللام و (قد)، والقسم المقدر، والتقدير: والله لقد أرسلنا رسلنا بالبينات.

ولعل قائلًا يقول: كيف يقسم الله - عز وجل - ؟ وكيف يؤكد الله خبره بالقسم وهو الصادق بدون ذلك؟

والجواب: أن يقال: القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، واللسان العربي المبين يؤكد الأشياء

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٢٠١)، والترمذي (٣٥٤٦)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٥).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٥٤٥)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٥٣)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٦).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، والترمذي (٢٤٩٥)، وابن ماجه (٤٢٥٧).

الهامة أو الأشياء المنكرة بأنواع المؤكدات حتى يطمئن المخاطب ولا يرتاب المرتاب، وهذا يذكر في القرآن كثيرًا، والتوكيد هنا ليس منصبًا على إرسال الرسل، لأن إرسال الرسل معلوم ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] لكنه منصب على قوله: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي أن الرسل جاءوا بالبينات، والبينات صفة لموصوف محذوف، والتقدير بالآيات البينات أي العلامات البينة الدالة على صدق رسالتهم وصحتها، فإن الله تعالى ما بعث نبيًّا إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، وهذا من الحكمة والرحمة، أما كونه من الحكمة فليس من الحكمة أن يأتي رجل من بني آدم ويقول للناس: أنا رسول الله إليكم بدون آية، بدون بينة، ولو كلف الناس بالإيمان برسل الله بدون بينة لكان في ذلك مشقة عظيمة، ومن رحمة الله أن الله أيد الرسول بالآيات البينات الظاهرة، قال العلماء: والله تعالى من حكمته ورحمته جعل لكل نبي من الآيات ما يتبين به رسالتهم، مثال ذلك: أرسل الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام إلى فرعون وأعطاه آيات بينات، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١] منها: العصا العجيبة، عصا عادية فيها آيات من آيات الله، منها: أنه لما اجتمع السحرة الفجار بأمر فرعون ومساندته وألقوا حبالهم وعصيهم، وصارت هذه الحبال والعصي كأنها حيات وثعابين أرهبت الناس حتى موسى عليه الصلاة والسلام أوجس في نفسه خيفة، لأنها فوق ما يتصور، سحرة مهرة أتوا بكل قوتهم وألقوا فملؤوا الأرض حبالًا وعصيًّا، فجعلت هذه الحبال والعصي كأنها حيات وثعابين، ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، أوحى الله إليه أن يلقي العصا، فانقلبت هذه العصا حية، وجعلت تلقف ما يأفكون، كل الحبال التي جاءوا بها أكلتها هذه الحية، فهذه من آيات الله العظيمة، كيف تكون هذه الحية تأكل كل هذه الحبال والعصي، أين تذهب؟ لكنها ـ والله أعلم ـ بمجرد ما تأكلها تكون كالبخار، وإلا فبطن هذه الحية لا يسعها، لكن هذه آية، ونحن نتصور هذه الواقعة خبرًا، ولكن لو رأيناها نظرا كان الأمر أشد وأعظم، فنحن الآن لا نتصورها إلا في الخبر وفي الذهن فقط، ولكن لو شاهدت عرفت أن الآية عظيمة.

والآية الثانية في هذه العصا: أن موسى استسقاه قومه وطلبوا منه الماء فضرب حجرا من الحجارة فتفجر عيونًا، اثنتا عشرة عينًا، لأن بني إسرائيل كانوا اثنتي عشرة قبيلة.

والآية الثالثة: أن موسى عليه الصلاة والسلام لما أدركه فرعون وحشره إلى البحر أيقن أصحاب موسى عليه الصلاة والسلام أنهم هالكون، وقالوا: إنا لمدركون، ليس لنا مفر، البحر

أمامنا، إن خضناه غرقنا، وفرعون وجنوده خلفنا سيقضون علينا، قال أصحابه: إنا لمدركون. ولكن انظر إلى الإيمان واليقين، قال: ﴿كَلَّآ﴾ لن ندرك، ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] أي: سيدلني على ما فيه النجاة. فأوحى الله إليه بأن اضرب بعصاك البحر فانفلق، فضرب البحر مرة واحدة بالعصا فانفلق اثنتي عشرة طريقًا على عدد قبائل بني إسرائيل، وكان كل فرق كالطود العظيم أي كالجبل، وانظر إلى الإيمان أيضا كيف دخلوا في هذه الطرق والمياه على أيمانهم وعلى شمائلهم ولكنه الإيمان، لأنهم عرفوا أنهم ناجون ولا بد، وعيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام أعطاه الله تعالى آيات بينات، كان يبرىء الأكمه والأبرص بإذن الله، وهذان المرضان لا حيلة للأطباء فيهما إلى الآن، اللهم إلا الأكمه، وكان يحيي الموتى بإذن الله، يقول للجنازة أمام الناس: احيي. فتحيا بإذن الله، وكان يخرج الموتى من قبورهم، يقف على القبر ويأمر صاحب القبر بأن يخرج ويخرج حيًّا، من يستطيع هذا إلا الله - عز وجل - وجعله آية لهذا النبي عليه السلام. وكان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخه فيطير، قال الله - عز وجل -: ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩] وفي قراءة ثانية: (يكون طائرًا)، وإذا جمعت بين القراءتين صار المعنى طيرا بإذن الله يطير، لأنه ما كل طير يطير، فالنعامة لها جناح ولكنها لا تطير، لكن يكون طيرا يطير يشاهد في الجو وهو خلقه من طين، وهذا لا يقدر عليه إلا الله، وجعله الله آية لعيسى.

فإن قال قائل: لماذا خص الله موسى بالعصا وخص عيسى بإحياء الموتى وخلق الطيور؟

قال أهل العلم: إن الله - عز وجل - حكيم يجعل لكل نبي من الآيات ما يناسب الوقت وحال الناس حتى يعجزهم، فالسحر ترقى إلى حد بعيد في عهد موسى عليه الصلاة والسلام فأراهم الله آية يعجزون عنها بالسحر، ولهذا السحرة في قصة موسى العارفون بالسحر ما ملكوا أنفسهم إلا أن يؤمنوا، ألقي السحرة ساجدين، كأنهم بغير اختيار، فسجدوا وقالوا إعلانًا: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١ - ١٢٢] وعيسى عليه الصلاة والسلام ترقى في عهده الطب ترقيا عظيما فأعطاه الله آية لا يستطيع الأطباء أن يأتوا بمثلها، أما محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم فإنه بعث في زمن البلاغة العظيمة التي ترقت إلى أعلى ما يكون في العرب واللسان العربي المبين أفصح الألسنة وأدلها على ما في الضمير، فبعثه الله - عز وجل - بقرآن كريم أعجز العرب أن يأتوا بمثله، ولن يأتي أحد بمثله لا الجن ولا الإنس، قال الله - عز وجل -: ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] وصدق الله - عز وجل - فالقرآن كلام الله فكما أن الله ليس كمثله

شيء فكلامه ليس مثله كلام، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «أَنَّ اللهَ تَعَالَى مَا بَعَثَ نَبِيًّا إِلَّا آتَاهُ مِنَ الآيَاتِ مَا يُؤْمِنُ عَلَى مِثْلِهِ البَشَرُ حَتَّى تَقُومَ الحُجَّةُ»، قال: «وَإِنَّمَا الذِي أُوتِيتُهُ وَحْيٌ أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُم تَابِعًا»[1]، وحصل ما توقع والحمد لله، لأن آيته الكبرى هي القرآن العظيم، والقرآن العظيم باقٍ، وكل الناس يقرأونه ويستنتجون منه من الآيات ما يزدادون به إيمانًا، ويعلمون به صدق النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

فإن قال قائل: ما الحاجة إلى إعطاء الأنبياء آيات؟

فنقول: الحاجة واقعة بل للضرورة، بل العقل أيضًا، لأنه ليس من العقل أن يأتي شخص ويقول: إنه رسول ثم يتبع، لابد أن يكون هناك بينة تدل على أنه رسول، ولو جاء إنسان في غير أمة محمد عليه الصلاة والسلام وقال: إنه رسول ولم يأت بآية، فالناس معذورون إذا لم يتبعوه، وإلا لكان كل واحد يدعي أنه رسول، أما بعد النبي ﷺ فالنبوة انقطعت؛ لأنه كان خاتم النبيين، لذلك لابد أن يكون مع الأنبياء آيات تدل على صدقهم وعلى صحة ما جاءوا به من الشريعة، ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ الكتاب: هو الوحي الذي أوحاه الله تعالى إليهم وما من رسول إلا معه كتاب، بخلاف النبي، فالنبي قد لا يكون معه كتاب، لكن الرسول لابد أن يكون معه كتاب، لأن الرسول لابد أن يعطي الناس الذين يدعوهم ما يشاهدونه بأعينهم. وفيه الأمر والنهي، والخبر والقصص وغير ذلك مما تقتضيه الحال. وقوله: ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ المراد الجنس، يعني الكتب.

وقوله: ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ أي: العدل الذي توزن به الأشياء ويعرف قدرها وحالها، وهذا يدل دلالة واضحة على أن القياس الصحيح مما بعث به الرسل، لأن القياس تسوية فرع بأصل في حكم لعلة جامعة، وقد قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أي: العدل والمقايسة بين الأمور ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي ليقوم الناس في الدين والدنيا بالقسط بالعدل في حق الله، وفي حق العباد، والعدل في حق الله ما ذكره النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين قال له: «أتدري يا معاذ ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟» قال: الله ورسوله أعلم، قال: «حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَحَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[2]. يعني أن لا يعذب من يعبده ولا يشرك به

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٢٧٤)، ومسلم (١٥٢).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٩٦٧)، ومسلم (٣٠).

شيئًا، أما حق المخلوق، فقد قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الجَنَّةَ فَلْتَأْتِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»(١) هذا الشاهد، أي: أن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، ولو أننا عاملنا الناس بهذا لاستقام العدل ولم يتجرأ أحد على ظلم أحد، ولو أننا شعرنا للناس بما نشعر به لأنفسنا لحلت في قلوبنا الرحمة والتواضع، لأن كل إنسان يحب أن يعامله الناس بالرحمة والتواضع، فعامل الناس أيضا بالرحمة والتواضع.

فاللام في قوله ﴿لِيَقُومَ﴾ للتعليل يعني أرسلنا الرسل وأنزلنا معهم الكتاب، وأنزلنا معهم الميزان لهذه الحكمة، ليقوم الناس بالقسط، ولهذا لا تجد أعدل من دين الله - عز وجل - في كل زمان ومكان، وكل ما خالف دين الله - عز وجل - فهو جور وظلم، ولهذا أخبر النبي عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ أَظْلَمَ الظُّلْمِ أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»(٢). ثم سُئل: أي الظلم أعظم؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» فلو مشى الناس على شريعة الله لقاموا بالقسط، لكن كل من لم يتمش على شريعة الله فهو جائر، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ [النحل: ٩] يعني من السبيل ما هو جائر وهو سبيل الظالمين، ثم ذكر الله تبارك وتعالى ما يحصل به النصر من جهة أخرى، لأن النصر يكون بالوحي ويكون بالبأس وهو ما ذكره في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ أنزلنا الحديد يعني خلقناه لهم من المعادن، واستنبط بعض العلماء من قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ على أن المعدن إذا كان في قمم الجبال فهو أقوى وأنفع مما إذا كان في أسفل، لأن النزول إنما يكون من أعلى، فالله أعلم هذا يرجع إلى علم الجيولوجيا، لكن ﴿أنزلنا﴾ بمعنى وضعنا لهم الحديد، وهو معدن معروف من أقوى المعادن ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي: في الحرب، تصنع منه السيوف والخناجر وجميع آلات الحرب، وإنما ذكره بعد ذكر الكتب لأن الدين لا يقوم إلا بهذا: بالدعوة والقتال. فإذا أبى الكفار أن يكون دين الله هو العالي فحينئذ يقاتلون بالحديد، ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ جمع المنافع لأنها لا تحصى أجناسها، فضلا عن أنواعها وأفرادها، فمن يحصي المنافع التي تحصل بالحديد؟! ولهذا جاءت بالجمع المعروف بصيغة منتهى الجموع، ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ دينية ودنيوية، فردية وجماعية ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ معطوفة على ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ والمراد علم الظهور الذي يترتب عليه الثواب أو العقاب، أما علم

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٩٥١)، ومسلم (٢٥٨٠).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

أنه سيكون: فهذا سابق على إرسال الرسل وإنزال الكتب، لأنه سبحانه لم يزل ولايزال عالمًا بكل شيء، ولكن لا يشكل عليك الأمر، لا تقل: إن الله لا يعلم إلا بعد هذا، نقول: العلم علمان: علم بالشيء قبل وجوده، وعلم بالشيء بعد وجوده. والعلم السابق لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب حتى يمتحن للناس، ﴿مَن يَنصُرُهُۥ﴾، أي: ينصر دينه، وليس المعنى ينصر نفس الله، لأن الله غني عن العالمين، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٤].

فلو قال قائل: كيف تفسر الآية بنصر دينه والله يقول: ﴿مَن يَنصُرُهُۥ﴾؛ هذا تفسير مخالف للفظ وأنتم تنكرون على من يفسر القرآن بما يخالف ظاهر اللفظ، فما الجواب؟

فالجواب: نحن لا ننكر على الناس إذا فسروا القرآن بما يخالف ظاهر اللفظ إذا كان ذلك بدليل، ولهذا إذا قال قائل في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] المعنى إذا قرأت القرآن أي أردت قراءته، فهذا فسره بخلاف ظاهره، ولكنه تفسير صحيح، لأن الإنسان يستعيذ بالله إذا أراد أن يقرأ، وليس إذا تم القراءة، بدليل فعل النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولأن هذا هو الذي يفيد أن يستعيذ الإنسان بالله قبل أن يقرأ ليقرأ والشيطان بعيد عنه، على كل حال إذا قال لك قائل: كيف تفسر قوله تعالى: ﴿مَن يَنصُرُهُۥ﴾ أي من ينصر دينه وأنت تنكر على من يفسر القرآن بخلاف ظاهره؟ فالجواب: أننا لا ننكر على من يفسر القرآن بخلاف ظاهره إذا كان في ذلك دليل صحيح، والدليل على أن المراد ينصر دينه قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ ليس به حاجة، ولا يحتاج إلى أحد، فهو قوي عزيز غالب، غالب بقوة لا يلحقها ضعف، وقوله - عز وجل -: ﴿وَرُسُلَهُۥ﴾ نصر الرسل، إذا كان الرسول حيًّا فالمراد ينصر الرسول نفسه وشريعته، وبعد موته ينصر شريعته، وفي هذا دليل على أن نصر الشريعة نصر لمن جاء بها، فلا يشكل على هذا أن الله سبحانه وتعالى قد يميت الرسول قبل أن يرى النصر الواسع له، لأننا نقول: نصر شريعته نصر له، وقوله: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: أنه ينصر الله - عز وجل - وينصر رسله وهو لم ير الله، لأن الله تعالى ينصر ولا يُبصَر في الدنيا، ولهذا قال بعض السلف: (ينصرونه ولا يبصرونه) تفسيرا لقوله: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ ينصرونه ولا يبصرونه، فالمراد لا يبصرونه في الدنيا، أما في الآخرة فنظر الله تعالى حق ثابت بالقرآن والسنة وإجماع الصحابة - رضي الله عنهم - إذن بالغيب، أي: ينصرون الله وهو غائب، ويحتمل أن يكون المعنى بالغيب، أي: بغيبتهم عن الناس، فيكون في هذا دليل على إخلاصهم، وأنهم ليسوا ممن يعبدون الله إذا كانوا بين الناس، بل يعبدون الله

تعالى في الغيب والشهادة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ هذه الجملة استئنافية لبيان أن نصر الله - عز وجل - ليس عن ضعف ولا عن قهر، بل هو قوي عزيز لا يحتاج إلى أحد ينصره بنفسه، ولكن النصر لدينه، نسأل الله أن يجعلنا من أنصار دينه إنه على كل شيء قدير.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ﴾ [الحديد: ٢٦] هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات، الأول: القسم المحذوف. والثاني: اللام. والثالث: قد، ونوح عليه الصلاة والسلام هو أول الرسل عليه الصلاة والسلام من أولي العزم الخمسة، وإبراهيم عليه الصلاة والسلام هو أبو الأنبياء من بعده، وإليه يرجع الأنبياء، أي: إلى ملته، ولهذا يتنازع فيه المسلمون واليهود والنصارى، فاليهود يقولون: إنه يهودي، والنصارى يقولون: إنه نصراني، والمسلمون يقولون: إنه حنيف مسلم، وهذا هو الحق، والعجب أن اليهود والنصارى يقولون: إنه يهودي أو نصراني، وما كانوا يهودا ونصارى إلا من بعده، ولكنهم ليس لهم عقول، ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ أي: ذرية نوح وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام النبوة والكتاب، يعني الرسل عليهم الصلاة والسلام. وفي هذا دليل على أن آدم ليس برسول، وأن إدريس ليس قبل نوح كما ذكره بعض المؤرخين، وهو خطأ مخالف للقرآن الكريم، فليس قبل نوح رسول، وآدم نبي مكلم كلمه الله - عز وجل - بما شاء من وحيه، ثم سار على نهجه بنوه من بعده، فلما انتشر الناس وكثروا صار بينهم اختلاف، كما قال - عز وجل -: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]. وقوله: ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ المراد الجنس، لأن كل رسول معه كتاب، كما قال - عز وجل -: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾ أي: بعضهم مهتد، وحذفت الياء كما هي القاعدة في اللغة العربية، وأصلها «مهتدي» بالياء، لكن حذفت للتخفيف، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ أي: غير مهتدين، وهذا هو الواقع أن بني آدم أكثرهم ضال، كما قال - عز وجل -: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ [الحديد: ٢٧] قفينا بمعنى اتبعنا، مأخوذ من «القفا»، لأن من يمشي من قفاك هو تابع لك ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم﴾ أي: آثار نوح وإبراهيم ومن كان من الرسل الآخرين عليهم الصلاة والسلام ﴿بِرُسُلِنَا﴾ أي: التابعين لهم، ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ نص على عيسى عليه السلام لأنه ليس بينه وبين محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم رسول، بل ولا نبي أيضًا، ليس بينه رسول ولا نبي، وما يقال: إن

خالد بن معدان وغيره له النبوة فكله كذب، ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ هو كتاب أنزله الله ـ عز وجل ـ على عيسى، ويعتبر مكملا للتوراة، لأن التوراة هي أم الكتب في بني إسرائيل، ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾، ثلاثة أشياء جعلها الله في قلوب النصارى الذين اتبعوا عيسى: ﴿رَأْفَةً﴾ الرأفة نوع من الرحمة ولكنها أرق وألطف، ﴿وَرَحْمَةً﴾ فهم من أرق الناس قلوبًا وأرحمهم بالخلق لما كانوا على شريعة عيسى عليه السلام، ولكن بعد أن كفروا بمحمد صاروا أغلظ الناس، أو من أغلظ الناس، كما جرى بين المسلمين وبين النصارى في الحروب الصليبية وغيرها، ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ الانقطاع عن الدنيا للعبادة، ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ يعني من عند أنفسهم، كما فعلت بعض فرق المسلمين، ابتدعوا رهبانية ما أنزل الله بها من سلطان، لكن معهم رقة ورحمة ﴿مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ يعني أنا لم نفرضها عليهم، ولكن هم طلبوا رضوان الله، ولهذا نقول: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ استثناء منقطع، ولكن مع كونهم ابتدعوها واختاروا بأنفسهم ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ يعني ما قاموا برعايتها الواجبة من إحسان هذه الرهبانية التي ابتدعوها، وإنما تصرفوا فيها كما يشاؤون، ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي: ثوابهم ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ أي: كثير من هؤلاء النصارى فاسق، أي: خارج عن طاعة الله ـ عز وجل ـ، وفي هذا دليل على أن الإنسان إذا ابتدع بدعة فإنه لا يوفق لإقامتها، فيكون ضالًّا في الأصل، وضالًّا في الفرع، حتى لو اجتهد، حتى لو خشع، إنك تجد كثيرا من الناس الذين ابتدعوا أذكارًا، أو صلوات، أو أدعية، أو ما أشبه ذلك تجدهم خاشعين، قلوبهم باكية، قلوبهم خاشعة لكن لا ينفعهم ذلك، لأنهم على ضلال، نسأل الله السلامة والعافية.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، المراد بهم هذه الأمة، فيكون قوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾ يعني اثبتوا على الإيمان، ولا تبدلوا الإيمان، لأن الإيمان قد حصل، حيث قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، فيكون المعنى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بقلوبكم ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بجوارحكم ﴿وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾ أي: حققوا الإيمان واثبتوا عليه، وليس كل من آمن يكون مؤمنا حقًّا، وهذا هو ما يعنيه العلماء بقولهم، هذا نفي كمال الإيمان مثل قوله: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدِكُم حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[(١)]، ليس المراد نفي مطلق الإيمان، بل نفي الإيمان المطلق الكامل، وقد زعم بعض المفسرين أن هذه الآية في أهل الكتاب، لأنه قال: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

ولكن هذا قول ضعيف جدًّا، ولا يمكن أن ينادي الله ـ عز وجل ـ أهل الكتاب وهم كفرة بوصف الإيمان أبدًا، لا يمكن أن يكون المراد بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يا أيها اليهود والنصارى، لأنهم حين نزول القرآن إذا بقوا على يهوديتهم ونصرانيتهم ليسوا بمؤمنين، والمراد برسوله هنا: محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والإيمان بالرسول ﷺ يتضمن الإيمان بجميع الرسل، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] يعني في الإيمان به، لا في الاتباع، ففي الاتباع نفرق بين الرسل، فنتبع منهم محمدا ﷺ، لكن الإيمان كلهم على حد سواء، نؤمن بأنهم رسل الله حقًّا، ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي: نصيبين من رحمة الله، ولهذا مثل النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم هذه الأمة بالنسبة لما قبلها كرجل استأجر أجراء، منهم طائفة من أول النهار إلى نصف النهار، وطائفة من نصف النهار إلى العصر، وطائفة من العصر إلى غروب الشمس، فالطائفة الأولى أعطى كل واحد منهم دينارًا، والطائفة الثانية أعطى كل واحد دينارًا، والثالثة أعطى كل واحد دينارين فاحتج الأولون: لماذا تعطي هؤلاء دينارين، وهم أقل منا عملًا؟ فأجابهم بقوله: «هَلْ نَقَصْتُكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ شَيْئًا»؟ قالوا: لا، قال: «ذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ»[1]، فالحمد لله هذه الأمة لها مثل أجر الأمم السابقة مرتين، ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا﴾، أي: أنكم إذا آمنتم وحققتم الإيمان مع التقوى يثبكم ثوابين ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا﴾ أي: علمًا تسيرون به إلى الله ـ عز وجل ـ على بصيرة، وفي هذا دليل على أن التقوى من أسباب حصول العلم، وما أكثر الذين ينشدون العلم، وينشدون الحفظ، ويطلبون الفهم، فنقول: إن تحصيله يسير، وذلك بتقوى الله ـ عز وجل ـ وتحقيق الإيمان، الذي هو موجب العلم، فاعمل بما علمت يحصل لك علم ما لم تعلم، فتقوى الله ـ عز وجل ـ من أسباب زيادة العلم ولا شك، ولهذا قال ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ أي: تسيرون به، أي: بسببه سيرًا صحيحًا يوصلكم إلى الله ـ عز وجل ـ ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي: يسترها عليكم، ويعفو عنكم، فلا عقاب ولا فضيحة ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: ذو مغفرة ورحمة، كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦] وقال ـ عز وجل ـ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨] فالغفور يعني ذا المغفرة، والرحيم يعني ذي الرحمة، وذلك أن الإنسان محتاج إلى مغفرة ذنوب وقعت منه، وإلى رحمة تسدده ويتجنب بها المعاصي، ويهتدي إلى التوبة إن عصى، ثم قال: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٩] أي: جعل لكم هذا الثواب، ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله، وأنهم لا يستطيعون أن يحسدوكم على ما آتاكم الله من فضله، مع محاولتهم الشديدة أن يحسدوا النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩] فيقول ـ عز وجل – هنا: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ لا إعطاءً ولا منعًا، ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ ـ عز وجل ـ وهو المدبر لكل ما يريد على حسب ما تقتضيه حكمته، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: صاحب الفضل العظيم، وما أعظم فضل الله ـ عز وجل ـ على عباده، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣] نسأل الله تعالى أن يؤتينا من فضله، وأن يهب لنا منه رحمته إنه هو الوهاب. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تم بحمد الله تفسير سورة الحديد



تَفْسِيرُ جُزْءِ قَدْ سَمِعَ

تَفْسِيرُ جُزْءِ تَبَارَكَ

تفسير سورة الطلاق

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

الخطاب المُوجَّه للرسول ﷺ هل هو خاص به، أو هو عام له وللأمة ؟

نقول: هذا على ثلاثة أقسام :

القسم الأول: أن يدل الدليل على أنه عام؛ كهذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾، ولم يقل: يا أيها النبي إذا طلَّقتَ

الثاني: أن يكون هناك دليل على أنه خاصٌّ به، فيكون خاصًا به؛ مثل قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، فشرحُ الصدر هنا خاصٌّ بالرسول ﷺ.

الثالث: ألَّا يدل دليل على هذا ولا على هذا، فهل هو خاصٌّ به، ويكون لأمته عن طريق الأسوة به، أو هو عامٌّ له وللأمة، لكنه خُوطِب به؛ لأنه زعيم الأمة، والعادة أن خطاب الأمة يُوجَّه إلى زعيمها .

والواقع أن هذا الخلاف يكاد يكون خلافًا لفظيًا؛ لأنه على كلا القولين يدل على أن الحكم عامٌّ للأمة، هنا يقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ هو من القسم الأول الذي فيه الدليل على أن الخطاب عامٌّ للرسول ﷺ وللأمة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذا

خاصٌّ به، أو له وللأمة ؟ له وللأمة .

﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ فما هو طلاق المرأة لعدَّتها ؟ أن يُطلِّقها طاهرة من غير جِماع، طاهرة من الحيض، ولم يُجامِعها في هذا الطُّهْر، هذا هو طلاقُها لعدَّتها .

فإن طلَّقها وهي حائض فقد عصى الله؛ لأنه لم يُطلِّقها للعدَّة، وإن طلَّقها في طُهْرٍ جامَعَها فيه فقد عصى الله؛ لأنه لم يُطلِّقها للعِدَّة .

إذا طلَّقها وهي حامل، هل في هذا الطلاق معصية لله؟ لا؛ لأنه طلَّقها للعِدَّة؛ إذ إن المرأة الحامل بمُجرَّد ما يُطلِّقها زوجُها تبدأ في العِدَّة .

فصار الطلاق المباح: إذا طلَّقها وهي حامل، أو طلَّقها في طُهْرٍ لم يُجامِعها فيه، والطلاق المُحرَّم: أن يُطلِّقها وهي حائض، أو في طُهْرٍ جامَعَها فيه .

فالطلاق أربعة أقسام: وهي حامل، في طُهْرٍ لم يُجامِع فيه، وهي حائض، في طُهْرٍ جامَعَ فيه، اثنان حلال، واثنان حرام .

﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ﴾ يعني: اضبطوها؛ لأن أمر النكاح عظيم، فهو أشد العقود خطرًا، ولذلك جعل الله للدخول فيه شروطًا، وللخروج منه شروطًا .

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ﴾، ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ الضمير يعود على النساء المُطلَّقات، فإذا طلَّق الإنسان زوجتَه وجب عليه أن يُبقِيَها في البيت، ولا يجوز أن يُخرِجها منه، وعمل الناس اليوم على خلافه، إذا طلَّقها طردها، وهذا حرام، ومعصية لله عز وجل؛ بل الواجب أن تبقى في البيت، ولهذا أضاف البيوت إلى النساء؛ كأنَّ بقاءها في البيت حقٌّ لها؛ لأنه بيتُها، فكيف يُخرِجها منه ؟ إن أخرجها منه فهو ظالمٌ لها؛ لأن البيت بيتُها، إن أخرجها منها، فهو عاصٍ لله؛ لأن الله قال: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ .

وإذا أرادت هي أن تخرج؛ كما هي عادة بعض النساء إذا طلَّقها زوجها غضبت، وخرجت هي بنفسها، نقول: لا تخرج، وحرام عليها أن تخرج .

﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ إلى متى ؟ إلى انتهاء العدة .

﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ﴾ فلا بأس أن يُخرِجها الزوج، والفاحشة المُبيِّنة فسَّرها كثيرٌ من العلماء: أن تكون بذيئة اللسان، مُؤذيةً له ولأهله، ففي هذه الحال يُعذَر إذا أخرجها من البيت، أما بدون ذلك فحرامٌ عليه أن يُخرِجها .

ثم قال: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ هذا التعليل، تعليل النهي عن إخراجهن وخروجهن ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ

﴿ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾، فما هو الأمر ؟ أن يُراجِعها، فإذا بقِيَت في البيت، وتغيَّر رأيُه، والقلوب بيد الله عز وجل، قد يقلِبُ البغضاء محبةً، والمحبة بُغْضًا، يُراجعها في البيت وكأن شيئًا لم يحدث، ولهذا قال: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾، وبهذا التعليل عرفنا أنه لو كان الطلاق آخر ثلاث تطليقات - يعني: الطلقة الثالثة -، فإنه له أن يُخرجها؛ لأنه لا يحدث بعد ذلك أمر؛ إذ لا مُراجعة، فهي بائنٌ منه بينونة كبرى، ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ ومتى تبلغ أجلها؟ إذا حاضت ثلاث مرات إن كانت ممن يحيض، فإذا حاضت ثلاث مرات فأمسِكها بمعروف، أو فارِقها بمعروف .

وإذا طهُرَت من الحيضة الثالثة؛ هل يُمسِكها وقد انقضَت العِدَّة؟ يعني: انقضت العدة ولم يُراجِع؛ هل يُراجِعها ؟ كثيرٌ من العلماء يقول: لا يُراجِع؛ لأن العِدَّة انقضت، والصحيح: أنه يُراجِعها ما لم تغتسل من الحيض، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾، وعلى الرأي الآخر يكون معنى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: إذا قاربن بلوغ أجلهن، فأمسِكوهن بمعروف، أو فارِقوهن بمعروف .

﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ على المُراجعة، أو على الطلاق، أو عليهما جميعًا ؟ عليهما جميعًا .

ثم قال: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ هذه المرأة التي لا تحيض عدَّتها ثلاثة أشهر، هلالية، أو تُكمَل العِدَّة ثلاثين هلالية؛ لأن هذا هو المُعتبَر شرعًا.

وعند العامة أن المُطلَّقة تعتدُّ ثلاثة أشهر ولو كانت تحيض، وهذا غلط، ولهذا لو سُئِلنا: أيُّما أطول: عدَّة الآيِسة، أو عدَّة من تحيض ؟ أحيانًا تكون المرأة لا تحيض في الشهرين إلا مرة واحدة، فكم تكون عدَّتها ؟ ستة شهور، أحيانًا تحيض في الشهر مرتين، كم عدَّتها ؟ شهر ونصف، لكن إذا كانت ممن يئِسَت من المحيض فعدَّتُها ثلاثة أشهر، ولماذا تيأس من المحيض ؟ تيأس من المحيض لعِدة وجوه :

أولًا: أن تبلغ سنًّا ينقطع به الحيض عادة؛ مثل: خمسين سنة، ستين سنة، حسب حال النساء .

ثانيًا: أن تُجرِي عملية بقطع الرحِم؛ لأنه أحيانًا يكون في الرَّحِم مرض؛ كالسرطان، فيُقرِّر الأطباء قطعَهُ فيُقطَع، هذه يئِسَت من المحيض، لا يمكن أن يعود إليها الحيض، فعدَّتها ثلاثة أشهر.

ثالثًا: أن تُصاب بجُفوف يُعلَم أنه لن يعود إليها الحيض، أيضًا عدَّتها ثلاثة أشهر.

فكل من يئِسَت من المحيض لأي سببٍ من الأسباب فعدَّتها ثلاثة أشهر؛ ومن أين تبتدئ؟ أمِن علمها، أم من طلاقها ؟ من طلاقها.

- وعدة المرأة التي طلقت تكون واحدة:

أولًا: مَنْ طُلقت قبل الدخول، وهذه لا عدة عليها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب:٤٩].

ثانيًا: من طُلِّقَت وهي حامل عدَّتُها وضعُ الحمل، لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾.

ثالثًا: من طُلِّقَت بعد الدخول وهي تحيض، فعدَّتها ثلاث حِيَض، لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾.

رابعًا: من طُلِّقَت بعد الدخول وهي لا تحيض؛ إما صغيرة، أو آيسة، فعدَّتها ثلاثة أشهر.

أما الوفاة فهي على نوعين فقط:

الأولى: من مات عنها زوجها وهي حامل فعدَّتها وضع الحمل، طالت أم قصُرَت.

الثانية: من تُوفِّي عنها زوجُها وهي حائل؛ أي: غير حامل، فعدَّتها أربعة أشهر وعشرة أيام سواءٌ حاضت ثلاث حِيَض، أو لم تحِض، أو حاضَت أكثر.

وهل مقياس الأشهر الهلال أو العدد؟ الهلال.

وليُعلَم أنه مع الأسف الشديد أن الطلاق صار على ألْسُن كثيرٍ من الناس سهلًا، يُطلِّق على أدنى سبب، وهذا أمرٌ خطيرٌ، وأنا أضرب لكم مثلًا: كثيرٌ من الناس ينزل به ضيف، ويريد أن يُكرِم ضيفَه بذبيحة من غنمه حاضرة ما تحتاج إلى تعب، فيقول الضيف: عليَّ الطلاق ما تذبح، ويقول المُضِيف: عليَّ الطلاق لأذبحنَّ لك، من نأخذ بقوله؟ كل هذا من السَّفَه، وإني أقول لكم: المسألة خطيرة للغاية، لو قال رجل لامرأته: إن خرجتِ من البيت فأنتِ طالق، فهنا إما أن يريد الشرط، وإما أن يريد اليمين، إن أراد الشرط فإنها إذا خرجت طلَقَت، ولا إشكال في ذلك؛ لأن ذلك طلاقٌ مُعلَّقٌ على شرطٍ وقد حصل، وإذا وُجِد الشرط ثبت المشروط، كما لو قال: إذا طلَعَت الشمس فأنتِ طالق، فإنها إذا طلعت الشمس تطلُق، وهذا محل إجماع من العلماء.

الحال الثانية: أن يريد بقوله: إن خرجتِ فأنتِ طالق الحثَّ على عدم الخروج؛ يعني: يريد منعها، وأتى بهذه الصيغة تهديدًا لها، فخرجت، فهل تطلُق؟

جمهور الأمة، وجميع الأئمة على أنها تطلُق، حتى وإن قصد التهديد، لكن شيخ الإسلام رحمه الله يرى أنه إذا قصد اليمين أُعطِيَت هذه الصيغة حكم اليمين، ومعنى: قصد اليمين أنه يقول: أنا لا أقصد الطلاق، وزوجتي عندي غالية، ولا أُفرِّط فيها، لكني ذكرتُ ذلك تهديدًا لها لأجل ألَّا تخرج، يرى شيخ الإسلام ابن تيمية أنها إذا خرجت لا تطلُق لكن عليه أن يُكفِّر كفَّارة يمين.

وقوله هو الصحيح من حيث النظر قياسًا على العتق الذي ورد عن الصحابة رضي الله عنهم،

وتعليق الطلاق يقول شيخ الإسلام: إنه ليس معروفًا عند الصحابة، فيُقاسُ على ما كان معروفًا عندهم، وإنما قلتُ لكم ذلك لتحذروا من التعجُّل في هذا الأمر .

وبعض السفهاء إذا أراد أن يُطلِّق زوجته طلاقًا جاء للكاتب، وقال: اكتب: زوجتي طالق بالثلاث، نقول له: إنما طلقة واحدة؛ هل أحد يُجبِرك على أن تُراجِع ؟ لا أحد يُجبِره، وإذا انتهت العِدَّة بانَتْ منك؛ لأنك أيضًا إذا طلَّقتَ بالثلاث بقيت هناك مشكلة، وهي: أن أكثر العلماء - ومنهم المذاهب الأربعة - يرون أن طلاق الثلاث بكلمة واحدة طلاقٌ بائن، ما تحلُّ به المرأة .

ومن العلماء من يرى أنها تطلُق طلقة واحدة، كشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وقوله هو الصواب؛ لأن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان الطلاق في عهد النبي ﷺ طلاق الثلاث واحدة، وكذلك في عهد أبي بكر، وسنتين من خلافة عمر، فلما كثُر طلاق الثلاث في الناس، وكان عمر رضي الله عنه مشهورًا بالحزم، قال: أرى الناس قد استعجلوا في شيءٍ كانت لهم فيه أناة، فلو أمضيناه عليهم، فأمضاه عليهم، وقال: من طلَّق الثلاث لا يمكن أن يُراجِع؛ لماذا أمضاه على ذلك؟ ليرتدع الناس عن الطلاق الثلاث المُحرَّم، فمشى العلماء خلف أمير المؤمنين عمر، وقالوا: إن الإنسان إذا طلَّق بالثلاث بانت المرأة منه، ولم يملك الرجعة إليها إلا بعد زوج .

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ﴾ والخطاب في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ﴾ يشمل الشاهد، ويشمل المُستشهِد؛ لأن المُستشهِد الذي طلب الشهادة قد أقام الشهادة، وامتثل أمر الله، والشاهد الذي يُؤدِّي ما شهد به على حسب ما بلغه من العلم هو أيضًا مُقيمٌ للشهادة .

﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ﴾ نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا وإياكم تقواه، وأن يجعلنا من الذين قالوا: سمعنا وأطعنا، وأن يهب لنا منه رحمة، إنه هو الوهاب .



تفسير سورة المعارج

قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المعارج:١ - ٢] وهنا يتبادر إلى الذهن أن يكون الكلام: سأل سائلٌ عن عذاب واقع؛ لأن سأل تتعدَّى بـ (عن)، ولا تتعدَّى بالباء، والكلام هنا أوجِّهه إلى طلبة العلم – ولاسيما الذين يعرفون العربية؛ النحو –، فإنه قد يقول قائل: كيف عُدِل عن (عن) إلى الباء ؟

والجواب عن ذلك: أن علماء النحو اختلفوا في مثل هذا؛ فمنهم من قال: إن الاستعارة في الحرف، ومنهم من قال: إن الاستعارة في الفعل .

فالأولون يقولون: إن الباء هنا بمعنى: عن؛ أي: سأل سائلٌ عن عذاب واقع، فأُجيب .

ومنهم من قال: إن عن هنا لا تُقصَد، وأن الاستعارة في سأل، وأنه ضُمِّن معنى الإجابة، كأنه قيل: سأل، فأُجيب بعذاب واقع؛ أي: بهذا الجواب.

ثم قال: ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ [المعارج:٢ - ٤] فالله عز وجل ذو المعارج، كما قال في آية أخرى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾؛ لأنه سبحانه وتعالى عليٌّ على خلقه، مُستوٍ على عرشه، وعلوُّه عز وجل ينقسم إلى قسمين:

علو ذات، وعلو صفات.

فأما علو الذات: فإن معناه: أن الله بذاته فوق كل شيء، وأنه سبحانه وتعالى مُستوٍ على عرشه كما يليق بجلاله وعظمته.

وأما علو الصفات: فإنه ما من صفة كمال إلا ولله تعالى أعلاها وأكملها، قال الله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

واعلم أن علو الصفات قد اتفق عليه أهل القبلة، وأما علو الذات فأنكره من أنكره من أهل البدع، وقالوا: إن الله عز وجل ليس عاليًا بذاته، ثم انقسموا إلى قسمين:

قسم الحلولية، وقسم المُعطِّلة، وليس هذا موضع ذكر المسألة، وحسبُنا أن نؤمن بأن الله عز وجل فوق خلقه، مُستوٍ على عرشه.

سأل الإمام مالكًا رحمه الله رجلٌ، فقال: يا أبا عبد الله! ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾؛ كيف استوى ؟ وكان مالك رحمه الله في حلقة أصحابه وتلاميذه، فأطرق برأسه حتى علاه الرُّحَضاء –

أي: العرق - خجلًا وتحمُّلًا لهذا السؤال العظيم، ثم رفع رأسه قائلًا: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

ما معنى قوله: الاستواء غير مجهول؟

أي: أن الاستواء معلومٌ في اللغة العربية، فإن جميع موارده في القرآن يُعرَف معناها من سياقها، فاستوى وردت في القرآن على ثلاثة أوجه: مُعدَّاة بـ (إلى)، ومُعدَّاة بـ (على)، ومُطلقة غير مُعدَّاةٍ بحرف، واستُعمِلَت أيضًا في اللغة العربية مقرونة بالواو، فاستعمالاتها في اللغة العربية إذًا على أربعة أوجه.

فإذا عُدِّيَت بـ (على): صار معناها العلو والاستقرار، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾، ومنه قوله: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

والقسم الثاني: مُعدَّاة بـ (إلى): ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، وهي هنا بمعنى: القصد؛ أي: قصد إلى السماء، وقيل: بمعنى: على، فلعلماء السلف فيها قولان، وكلاهما لا يُنافي الآخر.

أما القسم الثالث: فأن تأتي مُطلقة غير مُعدَّاة بـ (إلى)، و(على): ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾، وحينئذ تكون بمعنى الكمال، أي: كمال الشيء وانتهائه، فبلغ أشده؛ يعني: بلغ غاية قوته العقلية والجسمية، واستوى؛ أي: تم، ومنه قول العامة إذا طبخوا الطبيخ يقولون: إنه استوى؛ أي: كمُل نضجُه.

أما القسم الرابع: فأن تأتي مقرونة بالواو، وهي في هذا بمعنى: تساوى؛ كقولهم: استوى الماء والخشبة؛ أي: تساويا وصار الماء إلى الخشبة.

إنما نحن نؤمن بأن الاستواء الذي وصف الله به نفسه بمعنى: العلو والاستقرار، فإذا قلتَ: أليس الله عاليًا على كل شيء؟

فالجواب: بلى، ولكن استواءه على العرش استواءٌ خاصٌّ بالعرش، وليس هو العلو العام لجميع المخلوقات.

وأما قول الإمام مالك رحمه الله: والكيف غير معقول، فالمعنى: أننا لا نُدرِك كيفية استواء الله بعقولنا؛ لأن الله عز وجل أعظم من أن تُدرِكه العقول، وتُحيط به العقول، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾، وقال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾.

وإذا كان العقل لا سبيل له إلى إدراك كيفية استواء الله على عرشه، بقي عندنا السمع، فهل دلَّ السمع على كيفيته ؟ لا؛ لأن الله أخبرنا أنه استوى على العرش، ولم يُخبرنا: كيف استوى، فإذا انتفى عنه الدليلان: العقلي والسمعي، وجب علينا الكفُّ عنه، وألَّا نسأل عن كيفيته؛ لأتن هذا

أمرٌ لا يمكن إدراكُه، ولهذا قال رحمه الله: والسؤال عنه بدعة، عن كيفيته؛ لأن الصحابة رضي الله عنهم، وهم والله أحرص منا على العلم ما كانوا يسألون النبي ﷺ: كيف استوى ربنا على العرش، لكن سألوه: أين كان ربنا قبل أن يخلق السماوات والأرض ؟ أما هذا فلم يسألوا عنه، وشيءٌ لم يذهب إليه سلفُ هذه الأمة مما يتعلّق بدين الله، فإن الذهاب إليه بدعة، ولهذا قال: السؤال عنه بدعة.

أما الإيمان به فواجبٌ؛ لأن الله أخبر به، وكل ما أخبر الله به فإنه يجب علينا أن نؤمن به.

يقول عز وجل: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤] والمراد بالروح هنا: جبريل، وهو من الملائكة، ولكنه خصَّه بالذكر اعتناءً به وتعليةً لشأنه، ومثل هذه الآية في تخصيص جبريل: قوله تعالى في ليلة القدر: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾.

وقوله: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ الجار والمجرور تقديره: يقع في يوم، وإن شئتَ فقل: إنه متعلق بكلمة واقع، وليس متعلِّقًا بـ (تعرج)؛ لأن عروج الملائكة والروح إليه في كل وقت، لكن العذاب الواقع يقع في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، وفيه من الأهوال العِظام ما يجعل الولدان شيبًا، ولكن هذا اليوم على صعوبته ومشقته هو يسيرٌ على المؤمن – أسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم –، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ أي: لا على المؤمنين، وقال عز وجل: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾، وأما المؤمنون فهو يسيرٌ عليهم.

ثم ذكر الله عز وجل أن هؤلاء المُكذِّبين يستبعدونه، ويرونه بعيدًا، وهو قريبٌ يسيرٌ على الله؛ لأن الله إذا أراد شيئًا قال له: كن، فيكون ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾.

وقوله: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج:٨ – ١٠] الحميم: الصاحب والقريب، لا يسأل حميمٌ عن حميم؛ لأن لكل واحدٍ منهم شأنًا يُغنيه.

﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ﴾ يعني: يُقدِّم ابنَه فداءً له، في الدنيا تُقدِّم نفسك فداءً لولدك، وقد ذُكِر في قصة قوم نوح، حين أمر الله عز وجل السماء أن تُمطِر، والأرض أن تنبُت، قال الله عز وجل: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾، ذُكِر أن امرأة كان لها صبي، فلما رأت الماء يرتفع، ذهبت إلى جبل، ورقِيَت عليه، فارتفع الماء، ثم ارتفعت، فارتفع الماء، ثم ارتفعت، فارتفع الماء إلى قمة الجبل، ثم ارتفع الماء حتى ألجَمَ المرأة، فأخذت صبيَّها ورفعته فوق يدها، تريد أن تموت قبل أن يموت الصبي، وجاء في هذا: لو كان الله راحمًا أحدًا، لرحِمَ أم الصبي، لكن يوم القيامة ليس كحال الدنيا، ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ﴾ أي: عشيرته ﴿ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى

﴿الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾، ولكن الأمر ليس باختياره، وليس بيده، ولا يمكن أن يفتدي بشيء ينفعه.

يقول عز وجل: ﴿كَلَّا﴾ لا فدية، ولا خلاص، ولا وَزَر، كما في سورة القيامة: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾، قال الله عز وجل: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾، ولهذا ينبغي الوقوف على هذه الجملة، ثم تستأنف فتقول: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾، لا مُعين، لا مُغيث، لا مفر.

﴿كَلَّا ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ ولظى اسم من أسماء النار، ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ - والعياذ بالله -، ﴿تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ ائتِ إليَّ، فيتساقط أهلها فيها.

ثم قال: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ وما معنى هلوعًا؟ فسَّره الله ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ إذا مسَّه الشر، وأُصيب بالفقر جزِع وتضجَّر، وإذا مسَّه الخير، وأُعطي المال الكثير، كان منوعًا لا يُنفِق.

﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ وما أنفع الصلاة للقلب، والبدن، والمجتمع، ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾، لم ينجُ من هذا الوصف الذي وُصِف به الإنسان من حيث هو إنسان إلا المُصلِّين ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ لا يملُّون، ولا يسأمون، ولا يُؤخِّرونها عن أوقاتها، ولا يُفرِّطون في واجباتها؛ بل هم دائمون عليها.

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ أي: حق معلومٌ شرعًا، أو معلومٌ عُرْفًا، فإن كان مما قدَّره الشرع فهو معلومٌ شرعًا؛ مثل: الزكاة، وإن كان مما لم يُقدِّره الشرع، فهو معلومٌ عُرْفًا؛ كالنفقة.

﴿لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ السائل الذي يسأل، فالسائل له حقٌّ، فإذا جاءك أحد يسألك فإنك تُعطيه لسؤاله، والمحروم يقول العامة في تفسيره: إنه البخيل الذي حُرِم الانتفاع بماله، ولكن هذا ليس بصحيح، فإن البخيل ليس له حقٌّ في مال الكريم، البخيل يُضرَب حتى يُخرِج ما أوجب الله عليه، وإنما المراد بالمحروم: الفقير الذي حُرِم من المال، ولم يُعطَ منه شيءٌ.

﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أي: بوقوعه وما يقع فيه، فالإيمان باليوم الآخر يتضمن الإيمان بوقوعه، والإيمان بما يقع فيه، ففيه مثلًا: الحساب، ونشر الكتب، وفيه أيضًا: الميزان، والصراط، ودنو الشمس من الناس، وغير ذلك من الأشياء التي ذُكِرَت في الكتاب والسنة، ومن الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بفتنة القبر، ونعيم القبر، وعذاب القبر، أما الفتنة فإن الناس يُفتنون في قبورهم، إذا مات الإنسان ودُفِن وتولى عنه أصحابه، حتى إنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان، فيُقعِدانه، وتُعاد إليه روحه، فيُسأل عن ثلاثة أمور: من ربك، وما دينك، ومن نبيك؟ فيثبِّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

يقول المؤمن: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد، فيُنادي منادٍ من السماء: أن صدق عبدي،

فألبِسوه من الجنة، وافرِشوا له من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة، فيأتيه من روحها ونعيمها، فيكون بذلك منتقلًا من نعيم الدنيا إلى نعيم الآخرة، ويكون عشية يومه الذي مات فيه أسرَّ منه في صباح يومه الذي مات فيه؛ لأنه خرج من دار النكد، والتعب، والهم، والغم، والعناء إلى دار النعيم، والسرور، وفُتِح له بابٌ إلى الجنة، فجعل ينظر إليها في قبره، وأُلبِس من الجنة، وفُرِش من الجنة، ونادى منادٍ من السماء – وهو الله عز وجل –: أن صدق عبدي، ما بالُك بسرور شخص يناديه ربه: أن صدق عبدي، يُصدِّقه الله عز وجل على ما قال من صواب الجواب، أما المنافق أو الكافر، فإنه إذا قيل: من ربك، ما دينك، من نبيك ؟ يقول: هاه هاه، لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلتُه؛ لأن هذا الإيمان لم يدخل إلى قلبه، وإنما هو شيءٌ سمِعَه فقاله، ما وقر الإيمان في قلبه، وقد أخبر النبي ﷺ عن أقوام يقرأون القرآن، ويصلون، حتى إن الصحابة يحقرون صلاتهم مع صلاتهم، لكن إيمانهم لا يتجاوز حناجرهم – والعياذ بالله –، يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية، والسهم إذا دخل في الرمية مرق منها بسرعة، فإيمانهم – والعياذ بالله – لا يتجاوز حناجرهم، ولذلك أنصح نفسي وإياكم بأن نتفقَّد قلوبنا: هل وقر الإيمان فيها ؟ هل وصل إليها، أم نحن كالأعراب الذين قالوا: آمنا، فقال الله لنبيه: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾.

لننظر ليس العمل مجرد رسوم يقوم بها الإنسان، لكن الإيمان كما قال الحسن البصري رحمه الله: ما وقر في القلب، وصدَّقته الأعمال، فتِّش أولًا عن قلبك، انظر أين اتجاهك، هل هو إلى الله؟ تبتغي وجه الله، تريد وجه الله، تريد ثواب الله، أو إلى أمرٍ تريده من الدنيا، إلى هوًى في نفسك تقصده، إلى مال، إلى رئاسة، إلى جاهٍ، إنك إذا أصلحتَ قلبك صلح أمرك؛ لأن النبي ﷺ يقول: «أَلَا وإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»، طهِّر قلبك من الرياء، طهِّر قلبك من الحقد، طهِّر قلبك من الغل، طهِّر قلبك من الفتنة في الدنيا بجميع زهرتها، وبجميع زينتها، عن جميع ما ذكر الله عز وجل في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾، كل هذا زينة، ولكن هل هذا هو النعيم، هل هذا هو الغاية ؟ قال: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ الاستفهام هنا يراد به: التشويق، ما هو الشيء الذي هو خير من ذلك ؟ ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ يبقون فيها مدة، ثم يموتون ؟ لا، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ رضا من الله عز وجل، يُحِلُّ عليهم سبحانه وتعالى رضاه فلا يسخط عليهم بعده أبدًا، ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾، فمن هم الذين اتقوا

والذين لهم هذا الثواب ؟ ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ اللهم اجعلنا ممن يقول ذلك ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ لماذا يستغفرون بالله؟ لأنهم قاموا لله، فجافت جنوبهم عن المضاجع، يدعون ربهم خوفًا وطمعًا، فلما أكملوا قيامهم نظروا في أمرهم، وعاملوا أنفسهم معاملة المذنب المُقصِّر، فجعلوا بعد هذا العمل يستغفرون الله عز وجل: اللهم اغفر لنا، اللهم إنا نستغفرك، وما أشبه ذلك من دعوات الله عز وجل بالاستغفار.

يقول عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ مُشفِقون خائفون من هذا العذاب، ومن خاف من شيءٍ حذِرَه، ومن حذِرَ شيئًا تجنَّب أسبابه، فإذا كانوا خائفين من عذاب الله فلابد أن يحذروا منه، وأن يتجنَّبوا أسبابه، وأسباب عذاب الله إما تفريطٌ فيما أوجب، وإما وقوعٌ فيما حرَّم، وعلى هذا فهم يجِدُّون كل جِدٍّ في أن يقوموا بما أوجب الله عليهم، يجِدُّون كل الجِد بأن يتجنَّبوا ما حرَّم الله عليهم، فهم من عذاب ربهم مشفقون.

يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ وصدق ربنا جل وعلا، من يأمن عذاب الله ؟ هل أحد يأمن أن يأتيه عذاب الله بغتةً أو جهرةً؟ أبدًا، لا يأمن عذاب الله إلا القوم الخاسرون، قال الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ يحفظون فروجهم إلا من هذين الصنفَيْن من النساء: الأزواج، وما ملكت الأيمان، من هنَّ الذين ملكوهم ؟ هنَّ الإماء التي تُباع وتُشترى، فإن الأَمَة يجوز لسيدها أن يستمتع بها كما يستمتع الزوج بزوجته.

يقول الله عز وجل: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ لا يُلامُون على ما يحصل بينهم وبين أزواجهم، أو بينهم وبين ما ملكت أيمانهم، ولهذا يجوز للإنسان أن يستمتع بزوجته بكل متعة أحلَّها الله، ويمتنع من كل متعة منعها الله، والمتعة التي منعها الله متعتان: المتعة في الفرج في حال الحيض والنفاس، فإن ذلك محرم، لا يجوز للرجل أن يُجامِع زوجته في حال الحيض والنفاس.

والمتعة الثانية: المتعة في الدبر، فلا يحل للإنسان أن يأتي زوجته في دُبُرها.

ويجوز للإنسان أن يستمتع بزوجته فيما عدا ذلك؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ ويدخل في الآية الكريمة: غضُّ البصر، إلا عن الأزواج والمملوكات؛ لأن إطلاق البصر يؤدِّي إلى الفتنة، ثم الوقوع في المحظور، حتى لا يستطيع الإنسان إذا أطلق لنفسه النظر لا يستطيع أن يُحصِّن فرْجَه، فيكون في هذه الحال غير

حافظٍ له.

واستدلَّ أهل العلم بهذه الآية الكريمة: على أنه يحرم على الإنسان أن يستمني بيده، أو بفراشه، أو بأي شيءٍ كان، وهي ما يُعرف عند الناس بـ (العادة السرية)، فإنها حرام، ودليلها هذه الآية الكريمة؛ لأن الله قال بعد ذلك: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ يعني: من قال بالاستمتاع بغير هذين الصنفين فإنهم عادُون، فمن استمتع بيده، أو بفراشه، أو ما أشبه ذلك فإنه عادٍ، والعادي هو الجائر الظالم.

ويدل لتحريمها: قول مُرشدنا ومُعلِّمنا، ومن هو بالمؤمنين رؤوف رحيم محمد رسول الله: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ! مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلفَرْجِ»، وخاطب الشباب؛ لأنهم ذوو القوة في هذا الأمر «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعلَيْهِ بِالصَّومِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ»، لم يقل النبي ﷺ: من لم يستطع فليُخرِج شهوته بما أراد؛ بل قال: «فَعلَيْهِ بِالصَّومِ»، ونحن نعلم أنه لو كان إخراج الشهوة جائزًا لأرشد إليه النبي ﷺ؛ لأن إخراج الشهوة أيسر من التزام الصوم، ولأن في إخراج الشهوة نوعًا من المتعة واللذة، فلو كان هذا جائزًا ما عدل النبي ﷺ عنه إلى الأمر الشاق؛ لأن هذا الدين يُسْرٌ، ولا تجد خصلةً مُيسَّرة يعدِل عنها هذا الدين إلا لأنها لا تجوز في شريعة الله، وعلى هذا فنستدل على تحريم العادة السرية بالقرآن والسنة.

كما أن هناك أدلة عقلية طبية على تحريمها لما فيها من الضرر العظيم على الجسم، وعلى الغريزة الجنسية، وعلى مستقبل هذه المادة التي هي مادة خلق بني آدم.

ثم قال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ الذين إذا ائتُمِنوا أو عاهدوا راعَوا الأمانة والعهد، فلا يخونون بأمانة، ولا يغدرون بعهد.

يجب على كل من عاهد عهدًا أن يرعَى العهد، كان رسول الله ﷺ يعاهد المشركين، ويفي لهم، فإذا نقضوا العهد انتقض العهد، لما صالح قريشًا في غزوة الحديبية على ترك القتال لمدة عشر سنين، ومضى على هذا الصلح سنتان، ما الذي حصل؟ نقض المشركون العهد، فغزاهم النبي ﷺ.

إذا لم ينقض المُعاهَد عهده، ولكني خِفتُ أن ينقض ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾، لا تفجأهم بالحرب إذا خِفتَ الخيانة، ولكن ابعث إليهم، وقل لهم: إنه لا عهد بيننا وبينكم، فالمُعاهَد له ثلاث حالات:

إما أن يفي بعهده، ويستقيم عليه، فقد قال الله فيه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

الحال الثانية: أن ينقض العهد، وفي هذه الحال لا عهد لهم؛ لأنهم نقضوا العهد.

والحال الثالثة: أن يُخاف منهم نقض العهد، ولم ينقضوه، فنحن ننبذ إليهم على سواء .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ وأيضًا نُوجِّه الخطاب لننتقل من الطالب إلى الرئيس والمدير، وما أشبه ذلك ممن يخونون الأمانة فيما وُلُّوا عليه .

﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ يقومون بالشهادة على الوجه المطلوب، فإذا دُعوا إلى الشهادة تحمُّلًا تحمَّلوا، وإذا دُعوا إلى الشهادة أداءً أدَّوا، لا يُحابون أحدًا في ذلك .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ انظر إلى عناية الله سبحانه وتعالى بالصلاة، ذكرها في أول الصفات، وفي آخر الصفات، ففي أول الصفات على سبيل الديمومة، وفي آخرها على سبيل المحافظة .

ونظير ذلك: قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون:١- ٩] مما يدل على أهمية الصلاة، وأنها آكَدُ أركان الإسلام بعد الشهادتين .

أسأل الله تعالى أن يجعلني وإياكم من المصلين، المحافظين على هذه الصفات، الذين مآلهم أن يكونوا في جنات مكرمون .



تفسير سورة نوح

بُعِث نوحٌ إلى قومه فدعاهم إلى الله عز وجل سرًّا وعلنًا، ومكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا وهو يدعوهم إلى الله، ويبيِّن لهم، ويُحذِّرهم، ويُرغِّبهم، وما آمن معه إلا قليل، وفي هذا عبرةٌ للدعاة الذين يدعون إلى الله عز وجل، ثم يملُّون إذا لم يروا من الناس إقبالًا، فنقول لهم: لا تعجبوا إذا لم تجدوا من الناس إقبالًا، فها هم الرسل يبقون مدة طويلة لا يجدون إقبالًا، لقد بقي محمد رسول الله ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الله عز وجل، وفي النهاية أخرجوهم من مكة، ولكن النصر كان فيها بعد والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين، كل إنسان داعية لابد أن يناله أذى، كل إنسان داعية لابد أن يجد من الناس ممانعة، لا يستجيبون له بالسرعة التي يريد، لكن على الدعاة أن يصبروا في الدعوة إلى الله، وأن يدعوا إلى الله تعالى بالحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن؛ لأن من الناس من يدعو إلى الله وهو يُنفِّر عن الله، فتجده يدعو بعنف، وبدون إقناع، والنفوس تحتاج إلى اللين واللطف، وتحتاج إلى إقناع، حتى يُقبِل الناس عن اقتناع إلى دين الله، ويأخذوا بما دعا إليه هذا المُصلِح الذي يدعو إلى الله تبارك وتعالى من غير أن يمسَّ المجتمع بما يُشوِّش عليه، وما يُوغر صدوره على ولاة أموره.

إذن نقول: لا تعجب أيها الداعي إلى الله إذا تأخَّرت الإجابة، فإن الله قد يبتلي الداعي إلى الله عز وجل بتأخُّر قبول الناس وإجابتهم حتى يمتحنه أصادقٌ هو في الدعوة إلى الله، أم ليس بصداق؟

نوح عليه الصلاة والسلام بقي في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله.

يقول عليه الصلاة والسلام في هذه السورة: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِيَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٥ - ٦] أتظنون أنه يدعوهم بدون آيات تدل على أنه رسول الله ؟ لا، يدعوهم بالآيات التي تدل على أنه رسول الله، ومع ذلك لم يستجيبوا؛ بل لم يزده دعاؤه إياهم إلا فرارًا.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ لئلا يسمعوا ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ يعني: تغطَّوا بها لئلا يروا؛ لأنهم يخشون إذا سمعوا شيئًا يدخل مسامعهم حتى يصل إلى قلوبهم، يخشون أن يؤمنوا بذلك، فأرادوا أن يسدُّوا طرق الهدى عنهم، كذلك يخشون أن يروا الآيات بأعينهم ثم يُلجئهم ذلك إلى الإيمان، فصاروا يستغشون ثيابهم حتى لا يروا الآيات – والعياذ بالله –، وهذا دليل على شدة استكبارهم ونفورهم.

ويُستفاد من قوله: ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾: أنهم لو تابوا لغُفِر لهم، وهذا شأن الله عز وجل بعباده أن الإنسان كلما تاب إلى الله ولو عظُمَ الذنب فإن الله يغفر له، واستمع إلى قول الله تعالى في هذه الأمة؛ حيث أمر نبيَّه ﷺ أن يقول: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ مهما عظُم، مع أن هؤلاء يسبُّون الله، ويسبُّون رسوله، ويسبُّون دينه، وقال: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾.

نوح عليه الصلاة والسلام أول الرسل يقول: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ﴾ على الكفر والعناد ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ أي: استكبروا استكبارًا عظيمًا.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ ولكن أبوا، ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ فانظر كيف رغَّبهم أولًا بثواب الآخرة، وثانيًا بثواب الدنيا، ثواب الآخرة في قوله: ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾، ثواب الدنيا في قوله: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ يعني: أمطارًا دارَّة، كلما جفَّت الأرض أمطرت السماء، ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ ولكن مع هذا الترغيب أبوا واستكبروا، وما آمن معه إلا قليل، حتى إن أحد أبنائه كفر به – نسأل الله العافية –، ولما وعد الله نوحًا أن يُنجِّيه وأهله صرف الله ابنَه عن الإيمان، وعن الركوب في السفينة التي نجا بها نوحٌ ومن معه، فقال له أبوه: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ماذا قال ؟ ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ فاعتمد على الأمور الحِسِّية دون الأمور الإلهية، ولكن هل عصمه الجبل من الماء ؟ أبدًا، ما عصمه، قال له أبوه: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣]، وبذلك تُعرَف قدرة الله عز وجل، وأنه سبحانه وتعالى ليس له بينه وبين خلقه نسب، وليس بينه وبين خلقه صلة إلا بشيء واحد، وهو التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

أنت إذا تأمَّلتَ ما يُدبِّره الله في خلقه تبيَّن لك العجب العُجاب، إبراهيم عليه الصلاة والسلام أبوه كافر، ونوح ابنُه كافر، ومحمد ﷺ عمُّه كافر، وهذه من آيات الله .

إبراهيم كان أبوه كافرًا، وجرى بينه وبينه محاورة، ذكرها الله تعالى في سورة مريم، وكان ابنُه إبراهيم عليه الصلاة والسلام يدعوه باللُّطف، يقول: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ﴾ ولم يقل: إني عالم وأنت جاهل؛ لأنه لو قال: أنت جاهل لصار في نفسه بعض النفور، لكنه قال: ﴿قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾، الجواب بعد هذا التلطُّف في الخطاب، ماذا قال؟ ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ يعني: أترغب عن آلهتي فتوحِّد ولا تُشرِك، ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَ﴾ هل تتصوَّر أن رجلًا يرجم ابنه بالحجارة؟ لكن مع طغيان أبيه وشركه أوجب له أن يقول لابنه: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾، فماذا قال له إبراهيم؟ ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾، فوعده أن يستغفر له، ولكن قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، وأجاب سبحانه وتعالى عن استغفار إبراهيم لأبيه: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ [التوبة: ١١٤].

المهم: أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وجدوا من أقوامهم المعارضة والمعاندة؛ بل وعرض الرقاب للقتال، ولكن العاقبة للمتقين .

في النهاية قال نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ سأل الله أن يمحو الكافرين من على الأرض، وبيَّن عُذره في هذا الدعاء؛ لأنه قد يقول قائل: من المُتوقَّع أن يقول نوح: اللهم اهد قومي، لكنه قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾، ثم اعتذر عن هذا الدعاء بقوله: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾، فهذا اعتذار من نوح عليه الصلاة والسلام عن هذه الدعوة العظيمة ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ .

﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا﴾
أنزل الله في قصة نوح سورة كاملة، وأنزل في قصة يوسف سورة كاملة .

في هذه الآية دليل على: أن أبوَي نوح كانا مؤمنَيْن، من قوله: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ فدعا

لأبويه، ولم يأت في القرآن أن الله أنكر عليه، أما إبراهيم فقال: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١]، لكن الله أجاب عن هذا بأن إبراهيم استغفر لأبيه عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم.

وبهذا نعرف أنه لا يجوز لأحد أن يطلب المغفرة لمن كان كافرًا – أي: لمن مات على الكفر –، ولو كان أقرب قريبٍ له، فلو أن رجلًا له أخٌ شقيقٌ، من أحسن الناس معاملة في الأُخُوَّة، لكنه لا يصلي، فمات هذا الذي لا يصلي، فإنه لا يجوز لأخيه أن يقول: اللهم اغفر له، ولا أن يقول: اللهم ارحمه؛ لماذا ؟ لأنه مات على الكفر، والكافر لا يجوز لأحد أن يدعو له بالمغفرة؛ لأنه إذا دعا له بالمغفرة لكان هذا من الاعتداء في الدعاء؛ إذ إن الله تعالى قضى بعدله وحكمته أن الكافرين مُخَلَّدُون في النار.



تفسير سورة الإنسان

قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾.

الاستفهام هنا للتحقيق، والمعنى: قد أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا، وهذا حقٌّ، فإن الإنسان قبل أن يُخلَق هل هو شيءٌ مذكور ؟ لا، وقد أتى عليه حينٌ من الدهر طويل لم يكن شيئًا مذكورًا، ولا يُعرَف عن فلان الذي خُلِق بعد ذلك .

وبيَّن الله عز وجل ابتداء هذا الخلق، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾.

النطفة هي الماء القليل، والمراد بها هنا: منيُّ الرجل، والأمشاج هي كما قال المتأخرون: هي الحيوانات المنويَّة، فإن هذه النطفة تشتمل على حيوانات منوية كثيرة جدًّا .

ومعنى قوله تعالى: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي: نختبره، وذلك بخلق السمع والبصر له، ولهذا قال: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ وهذا اختبار من الله ليختبر العبد في ماذا يستعمل هذا السمع، وفي ماذا يستعمل هذا البصر، قد يستعمل الإنسان سمعَه في الاستماع إلى ما حرَّم الله؛ كالاستماع إلى الأغاني الماجنة، والاستماع إلى الموسيقى وآلات الطرب، إلا ما استُثني منها، ومما استُثني من آلات الطرب: الدف في الأفراح والأعراس؛ في الأفراح: كأيام الأعياد، وفي الأعراس: كأيام الدخول، دخول الإنسان بزوجته، فإن هذا مما رُخِّص فيه .

ويبتلي الله عز وجل الإنسان بالبصر، أعطاه البصر ليبتليه؛ ينظر هل يُبصِر فيما أحلَّ الله له، أو فيما حرَّم الله عليه، ومن الإبصار فيما حرَّم الله عليه: أن يُطلِق الإنسان بصرَه بالنظر إلى ما حرَّم الله؛ كنظر المرأة الأجنبية، ونظر الصور الخالعة، وما أشبه ذلك، فجعل الله للإنسان سمعًا وبصرًا ابتلاءً واختبارًا .

ثم بيَّن عز وجل أنه هدى الإنسان السبيل؛ أي: بيَّن له الطريق ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ أي:

بيَّن الله الطريق للإنسان سواءً كان شاكرًا أو كان كفورًا.

فمن هو الإنسان الشاكر الذي يشكر نعمة الله على هدايته لهذا الطريق؟ هو المؤمن، والكافر هو الجاحد لهذه النعمة، فانقسم الناس بعد هداية الله لهم إلى قسمين:

إلى شاكرٍ قام بطاعة المُنعِم، وإلى كافرٍ جحَدَ نعمة المُنعِم، ولم يقُم بالشكر ولا بالطاعة.

ثم بيَّن الله بعد ذلك جزاء هؤلاء وهؤلاء، فقال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ أعتدنا بمعنى: هيَّأنا، والسلاسل: ما يُربَط به المُجرِم الكافر، والأغلال: أن تُغلَّ يداه إلى عُنُقه، والسعير: النار المُحرِقة -والعياذ بالله-.

وهذا الجزاء مُجمَلٌ في ثلاث كلمات: ﴿سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾.

ثم انتقل عز وجل إلى الأبرار الذين هم ضد الكافرين والفُجَّار، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان:٦]، وأطال سبحانه وتعالى في وصف ثواب الأبرار؛ لأن الله تعالى فصَّل أعمالهم، فقال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان:١ - ١٠]، فتجِدون أن الله عز وجل فصَّل أعمالهم، وكان مُقابِل هذا التفصيل في الأعمال أن يُقابَل ذلك بتفصيل الجزاء، أما الكفار فإن الله ذكر عملهم مُجمَلًا، فذُكِر جزاؤهم مُجمَلًا، وهذا من بلاغة القرآن.

فلو قال قائل: لماذا أطال الله عز وجل في ذكر ثواب الأبرار، وأجمل في ذكر جزاء الكافرين؟

الجواب: لأن الله فصَّل أعمال الأبرار في عدة آيات: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾، ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾، ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾، ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾، ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا﴾، فذكر أعمالًا مُتعدِّدة، فكان مقابل ذلك أن يُذكر جزاؤهم مُفصَّلًا كما ذُكِرت أعمالهم مُفصَّلة، أما الكفار فذُكِرت أعمالهم مُجمَلة، وكان مُقابل ذلك أن يُذكَر جزاؤهم مُجمَلًا.

يقول الله تعالى: ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان:٢٢]، وفي آيات أخرى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج:٢٣]، فهل هناك تناقُض بين هذه الآيات؟

الجواب: لا؛ بل هم يُحلَّون بحُليٍّ بعضُه فضة، وبعضُه ذهب، وبعضُه لؤلؤ، وأنت تصوَّر لو تجد الحُلِي بالفضة البيضاء اللامعة، والذهب الأحمر، واللؤلؤ الصافي لوجدتَ منظرًا عظيمًا يُطرِب

الأعيُن، ويسرُّ النفس.

وإلى أين يكون هذا الحُلِيُّ؛ هل هو في جزءٍ من الذراع، أو في جميع الذراع؟

يكون في جميع الذراع، لقول النبي ﷺ: «تَبْلُغُ الحِلْيَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ»، والوضوء يبلُغ إلى المرافق، وعلى هذا يكون الذراع كله مملوءًا بالحلية، نسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم ممن يُحلَّون بهذا الحُلِيِّ.

ثم قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ [الإنسان:٢٣] القرآن هو كلام الله الذي بين أيدينا في المصاحف، مكتوبٌ في المصاحف، محفوظٌ في الصدور، وكلام الله مُنزَّل غير مخلوق؛ لأن الله تعالى ذكر في عدة آيات أنه أنزله على محمد ﷺ، فتارةً يقول: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، وتارةً يقول: ﴿نَزَّلْنَا﴾؛ وذلك لأن القرآن ينزل إلى الرسول ﷺ شيئًا فشيئًا، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾، فالتعبير بـ (أنزل) باعتباره كاملًا، والتعبير بـ (نزَّل) باعتباره مُجزَّأً، ينزل شيئًا فشيئًا، هنا يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ يعني: شيئًا فشيئًا ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾، فلما ذكر الله منته عليه بتنزيل القرآن أمره أن يصبر لحكم الله، وقد يرد على الإنسان سؤال في نفسه؛ حيث يقول: من المُتوقَّع أنه لما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ أن يقول: فاشكر نعمة الله؛ لأن تنزيل القرآن عليه نعمة، فلماذا قال الله عز وجل: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾؟

نقول: لأن تنزيل القرآن عليه عهدٌ وميثاقٌ أن يُبلِّغه إلى الأمة، وتبليغُه إلى الأمة يحتاج إلى صبر ومعاناة؛ لأنه سوف يُكذَّب، وسوف يُؤذَى على هذا الوحي، فيحتاج إلى صبر، ولهذا نقول لكل من منَّ الله عليه بعلمٍ: اصبر على ما أعطاك الله من العلم، ابذُل هذا العلم تعليمًا، ودعوة، وخُلُقًا، وأدبًا، وعبادة؛ لأن الله لم يُحمِّلك هذا العلم إلا سيسألك عنه يوم القيامة.

وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ هل المراد: الحكم الكوني، أو القدري أو هما جميعًا؟ هما جميعًا، اصبر لحكم الله الشرعي؛ حيث ألزمه الله بأن يُبلِّغ ما أُنزِل إليه من ربه، وللحكم الكوني إذا جرى عليه من عباد الله ما يكره، ومن المعلوم أن النبي ﷺ جرى عليه من الأذية ما وصل بالصبر عليه إلى قمة الصابرين، فقد أُوذِي عنه عليه الصلاة والسلام إيذاءً شديدًا، حتى إنه كان ذات يومٍ ساجدًا تحت الكعبة، فجاء ملأُ قريش، بسلا جزور - يعني: فرْثَها وما في بطنها -، جاءوا به فوضعوه عليه وهو ساجد عليه الصلاة والسلام، كل هذا إغاظةً له، وإلا فمن المعلوم أن قُريشًا

تُكرِم من يأتي إلى هذا البيت، حتى إنهم يسقون الحُجَّاج الماء المُنقَّع به زبيب، ورسول الله ﷺ أحق الناس بالتكريم، يؤذونه هذا الإيذاء، فأُمِر أن يصبر لحكم الله .

قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ الآثم: العاصي، والكفور: الكافر؛ يعني: لا تُطِع لا هؤلاء، ولا هؤلاء، وأما المؤمنون فقد أمر الله تعالى نبيَّهم أن يخفِض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين .

ثم قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾، ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ المُشار إليه: السورة وما ذُكِر فيها ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ يتذكَّر بها الإنسان ويتَّعِظ، ثم ينقسم الناس إلى مُنتفع بهذه التذكرة، وغير منتفع، ولهذا قال: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان:٢٩ - ٣٠]، وهنا قد يقول قائل: كيف قال: ﴿فَمَن شَآءَ﴾، ثم قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾؟

والجواب: أن نقول: إن مشيئة الإنسان مخلوقةٌ لله عز وجل، فهو الذي خلقها، فلا يشاء الإنسان إلا بعد أن يخلق الله فيه المشيئة؛ لأن الله خالق كل شيء .

وبيَّن عز وجل أن الأمر إليه، لأجل أن نتَّجِه إلى الله عز وجل، وألَّا نفخر بأنفسنا إذا وُفِّقنا للطاعة، فلنعلم علم اليقين أن ذلك من كرم الله، ونعمته، وإحسانه .

ثم قال عز وجل: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: في جنته، ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: مؤلمًا .

نسأل الله أن يُنجينا وإياكم من عذاب النار، وأن يُدخِلنا في رحمته دار الأبرار، إنه جوادٌ كريم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .



تَفْسِيرُ جُزءِ عَمَّ

تفسير سورة النبأ

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ: ١:١٦].

❁ التفسير ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾، يعني: عم يتساءل هؤلاء، المكذبون بالقرآن وغيره، ثم أجاب الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عن هذا السؤال فقال تعالى: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، وهذا النبأ هو ما جاء به النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ من البينات والهدى، ولاسيما ما جاء به من الأخبار عن اليوم الآخر والبعث والجزاء، وقد اختلف الناس في هذا النبأ الذي جاء به النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: فمنهم من آمن به وصدق، ومنهم من كفر به وكذب ومنهم من شك فيه وتردد؛ فبين الله أن هؤلاء الذين كذبوا سيعلمون ما كذبوا به علم اليقين، وذلك إذا رأوا يوم القيامة ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣]، ولهذا قال ـ سبحانه وتعالى ـ هنا: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾، والجملة الثانية توكيدٌ للأولى من حيث المعنى، وإن كانت ليست توكيدًا باعتبار اصطلاح النحويين؛ لأنه فُصل بينها وبين التي قبلها

بحرف العطف، والتوكيد لا يُفصل بينه وبين مؤكد بشيء من الحروف. والمراد بالعلم الذي توعدهم الله به هو علم اليقين الذي يشاهدونه على حسب ما أخبروا به.

ثم بين الله تعالى نعمه على عباده؛ ليقرر هذه النعم فيلزمهم شكرها فقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾، أي: جعل الله الأرض مهادًا ممهدة للخلق ليست بالصلبة التي لا يستطيعون حرثها، ولا المشي عليها إلا بصعوبة، وليست باللينة الرخوة التي لا ينتفعون بها، ولا يستقرون عليها، ولكنها ممهدة لهم على حسب مصالحهم وعلى حسب ما ينتفعون به. قوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾، أي: جعلها الله تعالى أوتادًا بمنزلة الوتد للخيمة حيث يثبتها فتثبت به، وهي أيضًا ثابتة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا﴾ [فصلت: ١٠]. وهذه الأوتاد قال علماء الأرض: إن هذه الجبال لها جذور راسخة في الأرض، كما يرسخ جذر الوتد بالجدار؛ أو وتد الخيمة في الأرض ولذلك تجدها صلبة قوية لا تزعزعها الرياح وهذا من تمام قدرته ونعمته. قوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾، أي: أصنافًا ما بين ذكر وأنثى، وصغير وكبير، وأسود وأحمر، وشقي وسعيد إلى غير ذلك مما يختلف الناس فيه، فهم أزواج مختلفون على حسب ما أراده الله - عَزَّ وَجَلَّ - واقتضته حكمته؛ ليعتبر الناس بقدرة الله تعالى، وأنه قادر على أن يجعل، هذا البشر الذين خلقوا من مادة واحدة ومن أب واحد على هذه الأصناف المتنوعة المتباينة. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾، أي: قاطعًا للتعب، فالنوم يقطع ما سبقه من التعب، ويستجد به الإنسان نشاطًا للمستقبل؛ ولذلك تجد الرجل إذا تعب ثم نام استراح وتجدد نشاطه، وهذا من النعمة، وهو أيضًا من آيات الله.

كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [الروم: ٢٣]. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾، أي: جعل الله هذا الليل على الأرض بمنزلة اللباس كأن الأرض تلبسه ويكون جلبابًا لها، وهذا لا يعرفه تمام المعرفة إلا إذا صعد فوق ظل الأرض، وقد رأينا ذلك من الآيات العجيبة إذا صعدت في الطائرة وارتفعت وقد غابت الشمس عن سطح الأرض ثم تبينت لك الشمس بعد أن ترتفع تجد الأرض وكأنها كسيت، بلباس أسود لا ترى شيئًا من الأرض، كله سواد فتبين بهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾، أي: معاشًا يعيش الناس فيه في طلب الرزق على حسب درجاتهم وعلى حسب أحوالهم، وهذا من نعمة الله - سبحانه وتعالى - على العباد. قوله تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾، وهي السماوات السبع، وصفها الله تعالى بالشداد؛ لأنها قوية، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]. أي: بنيناها بقوة. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾، يعني بذلك: الشمس فهي سراج مضيء، وهي أيضًا ذات حرارة عظيمة. قوله تعالى: ﴿وَهَّاجًا﴾، أي: وقَّادة، وحرارتها في أيام الصيف حرارة شديدة مع بعدها

الساحق عن الأرض، فما ظنك بما يقرب منها، ثم إنها تكون في أيام الحر في شدة حرها من فيح جهنم، كما قال النبي ﷺ: «إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ فَأَبْرِدُوا عَنْ الصَّلَاةِ؛ فَإِنَّ شِدَّةَ الْحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ»(١). وقال ﷺ: «اشْتَكَتْ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا فَنَفِّسْنِي فَأَذِنَ لَهَا فِي كُلِّ عَامٍ بِنَفَسَيْنِ فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِن الْبَرْدِ مِن زَمْهَرِيرِ جَهَنَّمَ وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِن الْحَرِّ مِن حَرِّ جَهَنَّمَ»(٢). ومع ذلك، فإن فيها مصلحة عظيمة للخلق فهي توفر على الخلق أموالًا عظيمة في وقت النهار حيث يستغني الناس بها عن إيقاد الأنوار، وكذلك الطاقة التي تستخرج منها تكون فيها فوائد كثيرة، وكذلك إنضاج الثمار وغير، هذا من الفوائد العديدة من هذا السراج الذي جعله الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لعباده.

ولما ذكر السراج الوهاج الذي به الحرارة واليبوسة ذكر ما يقابل ذلك فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾، والماء فيه رطوبة وبرودة، وهذا الماء أيضًا تنبت به الأرض وتحيا به، فإذا انضاف إلى، هذا ماء السماء وحرارة الشمس حصل في، هذا إنضاج للثمار ونمو لها على أكمل ما يكون. قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾، يعني: من السحاب، ووصفها الله بأنها معصرات كأنها تعصر، هذا المطر عند نزوله عصرًا، كما يعصر الثوب، فإن، هذا الماء يتخلل، هذا السحاب ويخرج منه، كما يخرج الماء من الثوب المعصور، وقوله تعالى: ﴿مَاءً ثَجَّاجًا﴾، أي كثير الثج يعني الأنهار والتدفق وذلك لغزارته وقوته حتى يروي الأرض، قوله تعالى: ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾، أي: لنخرج بهذا الماء الذي أنزل من السماء إلى الأرض فتنبت الأرض ويخرج الله به من الحب بجميع أصنافه وأنواعه البر والشعير والذرة وغيرها والنبات من الثمار كالتين والعنب وما أشبه ذلك. قوله تعالى: ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾، أي: بساتين ملتفًا بعضها إلى بعض، من كثرتها وحسنها وبهائها، حتى إنها لتستر من فيها لكثرتها، والتفاف بعضها إلى بعض، وهي الأشجار التي لها ساق، فيخرج من، هذا الماء الثجاج الزروع والنخيل والأعناب وغيرها سواء خرج منه مباشرة أو خرج منه بواسطة استخراج الماء من باطن الأرض؛ لأن الماء الذي في باطن الأرض هو من المطر، كما قال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢]. وقال تعالى في آية أخرى: ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١].

ولما ذكر الله تعالى ما أنعم به على العباد في الدنيا ذكر حال اليوم الآخر وأنه ميقات يجمع الله فيه الأولين والآخرين فقال تعالى:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٣٤)، ومسلم (٦١٥).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٦٠)، ومسلم (٦١٥) هذا اللفظ عند أحمد في مسنده من مسند أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ:١٧: ٣٠].

❁ التفسير ❁

قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾، وهو يوم القيامة، وسمي يوم فصل؛ لأن الله يفصل فيه بين العباد فيما شجر بينهم، وفيما كانوا يختلفون فيه، ويفصل بين أهل الحق وأهل الباطل، وأهل الكفر وأهل الإيمان، وأهل العدوان وأهل الاعتدال، ويفصل فيه أيضًا بين أهل الجنة والنار، فريق في الجنة وفريق في السعير.

قوله تعالى: ﴿كَانَ مِيقَاتًا﴾، أي: ميقاتًا للجزاء و موقوتًا؛ لأجل معدود، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤]. وما ظنك بشيء له أجل معدود وأنت ترى الأجل كيف يذهب سريعًا يومًا بعد يوم حتى ينتهي الإنسان إلى آخر مرحلة، فكذلك الدنيا كلها تسير يومًا بعد يوم حتى تنتهي إلى آخر مرحلة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾، كل شيء معدود، فإنه ينتهي.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، والنافخ الموكل فيها إسرافيل، ينفخ فيها نفختين: الأولى: يفزع الناس ثم يصعقون فيموتون، والثانية: يبعثون من قبورهم تعود إليهم أرواحهم، ولهذا قال تعالى هنا: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، وفي الآية إيجاز بالحذف أي: فتحيون فتأتون أفواجًا؛ فوجًا مع فوج أو يتلو فوجًا، وهذه الأفواج - والله أعلم - بحسب الأمم كل أمة تدعى إلى كتابها لتحاسب عليه، فيأتي الناس أفواجًا في، هذا الموقف العظيم الذي تسوى فيه الأرض فيذرها الله - عَزَّ وَجَلَّ - قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا، ولا أمتًا، وفي، هذا اليوم يقول الله عز وجل: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾، ﴿وَفُتِحَتِ﴾: وانفرجت فتكون أبوابًا يشاهدها الناس بعد أن كانت سقفًا محفوظًا تكون في ذلك اليوم أبوابًا مفتوحة، وفي، هذا دليل

على كمال قدرة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن هذه السبع الشداد يجعلها الله تعالى يوم القيامة كأن لم تكن، تكون أبوابًا قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٨ : ٩]. قوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾، أي: أن الجبال العظيمة الصماء تُدك فتكون كالرمل ثم تكون كالسراب تسير ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾، قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾، أي مرصدة ومعدَّة للطاغين، وجهنم اسم من أسماء النار التي لها أسماء كثيرة، وسُميت بهذا الاسم، لأنها ذات جُهمة وظلمة بسوادها وقعرها أعاذنا الله وإياكم منها، وهي مرصاد للطاغين قد أعدها الله – عز وجل لهم من الآن، فهي موجودة كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١] ورآها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، حين عرضت عليه وهو يُصلي صلاة الكسوف[(١)]، ورأى فيها امرأة تُعذَّب في هرة لها حبستها لا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض[(٢)]، ورأى فيها عمرو بن لحي الخزاعي يجر قصبه في النار[(٣)]، يعني أمعاءه، لأنه كان أول من أدخل الشرك على العرب، هذه النار يقول الله – عز وجل – إنها ﴿لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ [النبأ:٢٢] والطاغون جمعُ طاغ، وهو الذي تجاوز الحد، لأن الطغيان مجاوزة الحد، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة:١١]. أي: زاد وتجاوز حده، وحد الإنسان مذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وتجاوز الحد يكون في حقوق الله ويكون في حقوق العباد، أما في حقوق الله – عز وجل – فإنه التفريط في الواجب أو التعدي في المحرم، وأما الطغيان في حقوق الآدميين، فهو العدوان عليهم في أموالهم ودمائهم وأعراضهم، وهذه الثلاثة التي حرمها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأعلن تحريمها في حجة الوداع في أكثر من موضع فقال: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام**»[(٤)] فالطغاة في حقوق الله وفي حقوق العباد هم أهل النار والعياذ بالله، ولهذا قال: ﴿لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا﴾. أي مكان أوب، والأوب في الأصل الرجوع، كما قال تعالى: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠]. أي رجَّاع إلى الله – عز وجل - ﴿لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ أي باقين فيها ﴿أَحْقَابًا﴾ أي مُددًا طويلة، وقد دل القرآن الكريم على أن هذه المدد لا نهاية لها، وأنها مُدد أبدية كما جاء ذلك مُصرحًا به في ثلاث آيات من كتاب الله في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۝١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء:١٦٩]. وفي سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝٦٤

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٣١) كتاب الصلاة.

(٢) أخرجه مسلم رقم (٩٠٤) كتاب الكسوف.

(٣) أخرجه البخاري رقم (٢٦٢٣) كتاب التفسير، ومسلم رقم (٢٨٥٦) كتاب الجنة.

(٤) أخرجه مسلم رقم (١٤٧) كتاب الحج.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٤ - ٦٥]. وفي سورة الجن في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣]. فإذا كان الله صرح في ثلاث آيات من كتابه بأن أصحاب النار مُخلدون فيها أبدًا، فإنه يلزم أن تكون النار باقية أبد الآبدين وهذا هو الذي عليه أهل السُّنة والجماعة، أن النار والجنة مخلوقتان ولا تفنيان أبدًا، ووجد خلاف يسير من بعض أهل السُّنة في أبدية النار، وزعموا أنها غير مؤبدة، واستدلوا بحجج هي في الحقيقة شُبه لا دلالة فيها لما ذهبوا إليه وإذا قورنت بالأدلة الأخرى، تبين أنه لا معول على المخالف فيه ولا على قوله، والواجب على المؤمن أن يعتقد ما دل عليه كتاب الله دلالة صريحة لا تحتمل التأويل، والآيات الثلاث التي ذكرناها كلها آيات مُحكمة لا يتطرق إليها النسخ، ولا يتطرق إليها الاحتمال، أما عدم تطرق النسخ إليها فلأنها خبر، وأخبار الله -عز وجل- لا تُنسخ وكذلك أخبار رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، لأن نسخ أحد الخبرين بالآخر يستلزم كذب أحد الخبرين، إما تعمدًا من المخبر أو جهلًا بالحال، وكل ذلك ممتنع في خبر الله وخبر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، المبني على الوحي، وأما عدم تطرق الاحتمال فللتصريح بالأبدية في الآيات الثلاث، والمهم أنه يجب علينا أن نعتقد شيئين:

الشيء الأول: وجود الجنة والنار الآن وأدلة ذلك مكن القرآن والسُّنة كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣]. والإعداد التهيئة وهذا الفعل «أعدت» فعل ماض يدل على أن الإعداد قد وقع وكذلك قال الله تعالى في النار: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١]. والإعداد تهيئة الشيء، والفعل هنا ماض يدل على الوقوع وقد جاءت السُّنة صريحة في ذلك في أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، رأى الجنة ورأى النار.

الشيء الثاني: اعتقاد أنهما داران أبديتان مَنْ دخلهما وهو من أهلهما فإنه يكون فيهما أبدًا، أما الجنة فمن دخلها لا يخرج منها كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر:٤٨]. وأما النار فإن عُصاة المؤمنين يدخلون فيها ما شاء الله أن يبقوا فيها، ثم يكون مآلهم الجنة كما شهدت بذلك الأخبار الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾. لا تدل بأي حال من الأحوال على أن هذه الأحقاب مؤمدة يعني إلى أمد ثم تنتهي، بل المعنى أحقابًا كثيرة لا نهاية لها ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ نفى الله سبحانه وتعالى فيها البرد الذي تكون به برودة ظاهر الجسم، والشراب الذي تكون به برودة داخل الجسم، وذلك لأنهم والعياذ بالله إذا عطشوا واستغاثوا كانوا كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف:٢٩]. وهل الماء الذي كالمُهل وإذا قُرب من الوجه شوى الوجه هل ينتفع به صاحبه؟ الجواب: استمع قول الله تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد:١٥]. أما في

ظاهر الجسم فقد قال الله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان:٤٧ - ٤٨]. وقال تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج:١٩ - ٢٠]. ما في بطونهم الأمعاء وهي باطن الجسم، والجلود ظاهر الجسم، فمن كان كذلك فإنهم لا يذوقون فيها بردًا ولا شرابًا يُطفيء حرارة بطونهم، ومن تدبر ما في القرآن والسُّنة من الوعيد الشديد لأهل النار فإنه كما قال بعض السلف: «عجبت للنار كيف ينام هاربها، وعجبت للجنة كيف ينام طالبها». إننا لو قال لنا قائل: إن لكم في أقصى الدنيا قصورًا وأنهارًا وزوجات وفاكهة لا تنقطع عنا ولا ننقطع دونها بل هي أبد الآبدين، لكنا نسير على أهداب أعيننا ليلًا ونهارًا لنصل إلى هذه الجنة التي بها هذا النعيم العظيم، والتي نعيمها دائم لا ينقطع، وشباب ساكنها دائم لا يهرم، وصحته دائمة ليس فيها سقم، وانظروا إلى الناس اليوم يذهبون إلى مشارق الأرض ومغاربها لينالوا درهمًا أو دينارًا قد يتمتعون بذلك وقد لا يتمتعون به، فما بالنا نقف هذا الموقف من طلب الجنة، وهذا الموقف من الهرب من النار، نسأل الله أن يُعيذنا وإياكم من النار، وأن يجعلنا وإياكم من أهل الجنة.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾، الاستثناء هنا منقطع عند النحويين؛ لأن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه، والمعنى ليس لهم إلا، هذا الحميم، وهو الماء الحار المنتهي في الحرارة. قوله تعالى: ﴿يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]. قوله تعالى: ﴿وَغَسَّاقًا﴾، قال المفسرون: إن الغساق هو شراب منتن الرائحة شديد البرودة، فيجمع لهم ـ والعياذ بالله ـ بين الماء الحار الشديد الحرارة، والماء البارد الشديد البرودة؛ ليذوقوا العذاب من الناحيتين: من ناحية الحرارة، ومن ناحية البرودة، بل إن بعض أهل التفسير قالوا: إن المراد بالغساق صديد أهل النار، وما يخرج من أجوافهم من النتن والعرق وغير ذلك. وعلى كل حال فالآية الكريمة تدل على أنهم لا يذوقون إلا، هذا الشراب الذي يقطع أمعاءهم من حرارته، ويفطّر أكبادهم من برودته، نسأل الله العافية. وإذا اجتمعت هذه الأنواع من العذاب كان ذلك زيادة في مضاعفة العذاب عليهم.

قوله تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾، أي: يجزون بذلك جزاء موافقًا؛ لأعمالهم من غير أن يظلموا، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

فهذا الجزاء موافق مطابق؛ لأعمالهم. ثم بين وجه الموافقة أي: موافقة، هذا العذاب للأعمال فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾، فذكر انحرافهم في العقيدة وانحرافهم في القول، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾، أي: لا يؤملون أن يحاسبوا، بل ينكرون الحساب، ينكرون البعث يقولون: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:

٢٤] فلا يرجون حسابًا يحاسبون به؛ لأنهم ينكرون ذلك، هذه عقيدة قلوبهم، أما ألسنتهم فيكذبون يقولون، هذا كذب، هذا سحر، هذا جنون، وما أشبه ذلك، كما جاء في كتاب الله ما يصف به هؤلاء المكذبون رسل الله، كما قال عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]. وقال الله تعالى عن المكذبين لمحمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]. وقالوا إنه شاعر ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]. قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ۝٦ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الحجر: ٦،٧]. ولولا أن الله ثبت أقدام الرسل وصبرهم على قومهم ما صبروا على، هذا الأمر، ثم إن قومهم المكذبين لهم لم يقتصروا على، هذا، بل آذوهم بالفعل، كما فعلوا مع الرسول ﷺ من الأذية العظيمة، بل آذوهم بحمل السلاح عليهم، فمن كانت هذه حاله فجزاؤه جهنم جزاءً موافقًا مطابقًا لعمله، كما في هذه الآية الكريمة: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦ إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابًا ۝٢٧ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبًا﴾، ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ﴾، يشمل ما يفعله الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ من الخلق والتدبير في الكون، ويشمل ما يعمله العباد من أقوال وأفعال، ويشمل كل صغير وكبير ﴿أَحۡصَيۡنَٰهُ﴾، أي: ضبطناه بالإحصاء الدقيق الذي لا يختلف. قوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا﴾، يعني: كتبًا، وقد ثبت في الحديث الصحيح أن الله تعالى كتب مقادير كل شيء إلى أن تقوم الساعة[1]، ومن جملة ذلك أعمال بني آدم، فإنها مكتوبة، بل كل قول يكتب، قال الله تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. رقيب يعني: مراقب، والعتيد يعني: الحاضر. ودخل رجل على الإمام أحمد رحمه الله، وهو مريض يئن من مرضه فقال له: يا أبا عبدالله إن طاووسًا ـ وهو أحد التابعين المشهورين ـ يقول: إن أنين المريض يكتب، فتوقف رحمه الله عن الأنين خوفًا من أن يكتب عليه أنين مرضه. فكيف بأقوال لا حدّ لها، ولا ممسك لها، ألفاظ تترى طوال الليل والنهار، ولا يحسب لها الحساب، فكل شيء يكتب حتى الهم يكتب إما لك وإما عليك، من همّ بالسيئة فلم يعملها عاجزًا عنها، فإنها تكتب عليه، وإن هم بها وتركها لله، فإنها تكتب له، فلا يضيع شيء كل شيء أحصيناه كتابًا. قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾، هذا الأمر للإهانة والتوبيخ، يعني: يقال؛ لأهل النار: ذوقوا العذاب إهانة وتوبيخًا: فلن نرفعه عنكم ولن نخفف عنكم، بل، ولا نبقيكم على ما أنتم عليه لا نزيدكم إلا عذابًا في قوته ومدته ونوعه، وفي آية أخرى أنهم يقولون لخزنة جهنم: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمًا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

[غافر: ٤٩]. تأمل هذه الكلمة من عدة أوجه:

أولًا: أنهم لم يسألوا الله - سبحانه وتعالى - وإنما طلبوا من خزنة جهنم أن يدعوا لهم؛ لأن الله قال لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]. فرأوا أنفسهم أنهم ليسوا أهلًا؛ لأن يسألوا الله ويدعوه بأنفسهم بل لا يدعونه إلا بواسطة.

ثانيًا: أنهم قالوا: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾، ولم يقولوا: ادعوا ربنا؛ لأن وجوههم وقلوبهم لا تستطيع أن تتحدث أو أن تتكلم بإضافة ربوبية الله لهم أي: بأن يقولوا ربنا، عندهم من العار والخزي ما يرون أنهم ليسوا أهلًا؛ لأن تضاف ربوبية الله إليهم، بل قالوا ﴿رَبَّكُمْ﴾.

ثالثًا: لم يقولوا يرفع عنا العذاب، بل قالوا: ﴿يُخَفِّفْ﴾؛ لأنهم آيسون نعوذ بالله، آيسون من أن يرفع عنهم.

رابعًا: أنهم لم يقولوا يخفف عنا العذاب دائمًا، بل قالوا ﴿يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾، يومًا واحدًا، بهذا يتبين ما هم عليه من العذاب والهوان والذل ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]. أعاذنا الله منها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٣١:٣٦].

ذكر الله - عَزَّ وَجَلَّ - ما للمتقين من النعيم بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا﴾؛ لأن القرآن مثاني إذا ذكر فيه العقاب ذكر فيه الثواب، وإذا ذكر الثواب ذكر العقاب، وإذا ذكر أهل الخير ذكر أهل الشر، وإذا ذكر الحق ذكر الباطل، مثاني حتى يكون سير الإنسان إلى ربه بين الخوف والرجاء؛ لأنه إن غلب عليه الرجاء وقع في الأمن من مكر الله، وإن غلب عليه الخوف وقع في القنوط من رحمة الله، وكلاهما من كبائر الذنوب، كلاهما شر، قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: «ينبغي أن يكون الإنسان في عبادته لربه بين الخوف والرجاء؛ فأيها غلب هلك صاحبه». لذلك تجد القرآن الكريم يأتي بهذا وبهذا، ولئلا تمل النفوس من ذكر حال واحدة والإسهاب فيها دون ما يقابلها. وهكذا؛ لأجل أن يكون الإنسان حين يقرأ القرآن راغبًا راهبًا، وهذا من، بلاغة القرآن الكريم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾، المتقون هم الذين اتقوا عقاب الله، وذلك بفعل أوامر الله واجتناب نواهيه، وأحيانًا يأمر الله بتقواه، وأحيانًا يأمر بتقوى يوم الحساب، وأحيانًا يأمر بتقوى النار، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾ [آل عمران: ١٣٠، ١٣١]. فجمع بين الأمر بتقواه والأمر بتقوى النار، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]؛ فأمر بتقوى يوم الحساب، وكل هذا يدور على معنى واحد، وهو: أن يتقي الإنسان محارم ربه فيقوم بطاعته وينتهي عن معصيته، فالمتقون هم الذين قاموا بأوامر الله

واجتنبوا نواهي الله، هؤلاء لهم ﴿مَفَازًا﴾، والمفاز هو مكان الفوز وزمان الفوز أيضًا، فهم فائزون في أمكنتهم، وفائزون في أيامهم. قوله تعالى: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾، هذا نوع المفاز، ﴿حَدَآئِقَ﴾، أي: بساتين أشجارها عظيمة وكثيرة ومنوعة الأشجار. قوله تعالى: ﴿وَأَعْنَٰبًا﴾، الأعناب جمع عنب وهي من جملة الحدائق لكنه خصها بالذكر لشرفها.

قوله تعالى: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾، الكواعب جمع كاعب وهي التي تبين ثديها ولم يتدل، بل برز وظهر كالكعب، وهذا أكمل ما يكون في جمال الصدر. قوله تعالى: ﴿أَتْرَابًا﴾، أي: على سن واحدة لا تختلف إحداهن عن الأخرى كبرًا، كما في نساء الدنيا؛ لأنها لو اختلفت إحداهن عن الأخرى كبرًا فربما تختل الموازنة بينهما، وربما تكون إحداهما محزونة إذا لم تساوي الأخرى، لكنهن أتراب. قوله تعالى: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾، أي: كأسًا ممتلئة، والمراد بالكأس هنا كأس الخمر. وربما يكون للخمر وغيره؛ لأن الجنة فيها ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]. قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾، لا يسمعون في الجنة لغوًا أي: كلامًا باطلًا لا خير فيه. قوله تعالى: ﴿وَلَا كِذَّٰبًا﴾، أي:، ولا كذبًا فلا يكذبون، ولا يكذب بعضهم بعضًا؛ لأنهم على سرر متقابلين قد نزع الله ما في صدورهم من غل وجعلهم أخوانًا. قوله تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً﴾، أي: أنهم يجزون بهذا جزاء من الله ـ سبحانه وتعالى ـ على أعمالهم الحسنة التي عملوها في الدنيا واتقوا بها محارم الله. قوله تعالى: ﴿حِسَابًا﴾، أي: كافيًا، مأخوذة من الحسب، وهو الكفاية أي: أن، هذا الكأس كأس كافٍ لا يحتاجون معه إلى غيره؛؛ لكمال لذته وتمام منفعته.



۞ قال الله تعالى:

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٣٧-٤٠].

۞ التفسير ۞

قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ هو رب كل شيء،

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٩١]. فهو رب السماوات السبع الطباق، ورب الأرض وهي سبع، كما ثبت ذلك في السنة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، أي: ما بين السماوات والأرض من المخلوقات العظيمة كالغيوم والسحب والأفلاك وغيرها مما نعلمه، ومما لا يعلمه إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ. وقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾، يعني: أن الناس لا يملكون الخطاب من الله، ولا يستطيع أحد أن يتكلم إلا بإذن الله، وذلك ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾، وهو جبريل ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾، أي: صفوفًا. صفًّا بعد صف؛ لأنه، كما جاء في الحديث: «تنزل ملائكة السماء الدنيا فتحيط بالخلق، ثم ملائكة السماء الثانية من وراءهم، ثم الثالثة والرابعة والخامسة» وهكذا.. صفوفًا لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم ـ سبحانه وتعالى ـ.

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾، أي: لا يتكلمون ملائكة، ولا غيرهم، كما قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]. قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، بالكلام، فإنه يتكلم، كما أُذن له. قوله تعالى: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾، أي: قال قولًا صوابًا موافقًا لمرضاة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وذلك بالشفاعة إذا أذن الله؛ لأحد أن يشفع شفع فيما أذن له فيه على حسب ما أُذن له. قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾، أي: ذلك الذي أخبرناكم عنه هو اليوم الحق، والحق ضد الباطل أي: الثابت الذي يقوم فيه الحق، ويقوم فيه العدل يوم لا ينفع مال، ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾، أي: من شاء عمل عملًا يؤوب به إلى الله ويرجع به إلى الله، وذلك العمل الصالح الموافق لمرضاة الله تعالى أي: مرجعًا يرضى به الله ويرضى الله به عنه وهذه المشيئة المطلقة هنا.

قيدتها آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]. يعني: أننا لنا الخيار فيما نذهب إليه لا أحد يكرهنا على شيء؛ لكن مع ذلك خيارنا وإرادتنا ومشيئتنا راجعة إلى الله ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، وإنما بين الله ذلك في كتابه من أجل ألَّا يعتمد الإنسان على نفسه وعلى مشيئته، بل يعلم أنها مرتبطة بمشيئة الله، حتى يلجأ إلى الله في سؤال الهداية لما يحب ويرضى. لا يقول الإنسان أنا حر أريد ما شئت وأتصرف، كما شئت، نقول الأمر كذلك لكنك مربوط بإرادة الله ـ عزَّ وَجلَّ ـ فما شاء من شيء إلا وقد شاءه الله من قبل. قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾، أي: خوفناكم من عذاب قريب، وهو يوم القيامة. ويوم القيامة قريب، ولو بقيت الدنيا ملايين السنين، فإنه قريب ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦]. فهذا العذاب الذي أنذرنا الله قريب، ليس بين الإنسان وبينه إلا أن يموت، والإنسان لا يدري متى يموت قد يصبح، ولا يمسي، أو يمسي،

ولا يصبح، ولهذا كان علينا أن نحزم في أعمالنا، وأن نستغل الفرصة قبل فوات الأوان. قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، المرء أي: كل امرىء ينظر ما قدمت يداه. أي: ما عمل في الدنيا ويأخذ كتابه ويعرف مصيره ويكون بين يديه ويعطى كتابه، ويقال الله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]. ويقول الكافر من شدة ما يرى من الهول وما يشاهده من العذاب: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾، أي: ليتني لم أخلق، أو ليتني لم أبعث، أو إذا رأى البهائم التي يقضي الله بينها ثم يقول كوني ترابًا فتكون ترابًا يتمنى أن يكون مثل البهائم فقوله تعالى: ﴿كُنتُ تُرَٰبًا﴾، تحتمل ثلاثة معانٍ:

المعنى الأول: يا ليتني كنت ترابًا فلم أُخلق؛ لأن الإنسان خُلق من تراب.

المعنى الثاني: ياليتني كنت ترابًا فلم أُبعث، يعني: كنت ترابًا في أجواف القبور.

المعنى الثالث: أنه إذا رأى البهائم التي قضى الله بينها وقال لها كوني ترابًا فكانت ترابًا قال: ليتني كنت ترابًا أي:، كما كانت هذه البهائم - والله أعلم - وإلى هنا تنتهي سورة النبأ، وفيها من المواعظ والحكم وآيات الله - عَزَّ وَجَلَّ - ما يكون موجبًا للإيقان والإيمان، نسأل الله أن ينفعنا وإياكم بكتابه، وأن يجعله موعظة لقلوبنا، وشفاء لما في صدورنا، إنه جواد كريم.



تفسير سورة النازعات

قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣)
فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ
(٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ
فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا
هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١:١٤].

التفسير

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾، يعني: الملائكة الموكلة بقبض أرواح الكفار تنزعها ﴿غَرْقًا﴾، أي: نزعًا بشدة. قوله تعالى: ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾، يعني: الملائكة الموكلة بقبض أرواح المؤمنين، تنشطها نشطًا أي: تسلها برفق كالأنشوطة، والأنشوطة: الربط الذي يسمونه عندنا (التكة) أو ما أشبه ذلك من الكلمات، يعني: يكون ربطًا، بحيث إذا سللت أحد الطرفين انفكت العقدة، هذا ينحل بسرعة وبسهولة، فهؤلاء الملائكة الموكلة بقبض أرواح المؤمنين تنشطها نشطًا أي: تسلها برفق، وسبب ذلك أن الملائكة الموكلة بقبض أرواح الكفار إذا دعت الروح إلى الخروج تناديها بأقبح الأوصاف تقول الملائكة لروح الكافر: اخرجي أيتها النفس الخبيثة التي كانت في الجسد الخبيث، اخرجي إلى غضب الله، فتنفر الروح لا تريد أن تخرج إلى، هذا، وتتفرق في الجسد حتى يقبضوها بشدة، وينزعوها نزعًا يكاد يتمزق الجسد منها من شدة النزع. أما أرواح المؤمنين -

جعلني الله وإياكم منهم ـ، فإن الملائكة إذا نزلت لقبضها تبشرها: اخرجي يا أيتها النفس الطيبة التي كانت في الجسد الطيب اخرجي إلى رضوان الله، وما أشبه هذا من الكلام، فيهون عليها أن تفارق جسدها الذي ألفته فتخرج بسهولة، ولهذا لما قال النبي ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ». قالت عائشة ـ رضي الله عنهـا: يا رسول الله: إنَّا لنكره الموت، فقال: «لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ الله وَكَرَامَتِهِ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيهِ مِمَّا أَمَامَهُ؛ فَأَحَبَّ لِقَاءَ الله وَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ»(١)؛ لأنه في تلك اللحظة يرى أنه سينتقل إلى دار أحسن من الدار التي فارقها فيفرح، كما يفرح أحدنا إذا قيل له اخرج من بيت الطين إلى بيت المسلح القصر المشيد الطيب، فيفرح فيحب لقاء الله، والكافر ـ والعياذ بالله ـ بالعكس إذا بشر بالغضب والعذاب، فإنه يكره أن يموت، يكره لقاء الله فيكره الله لقاءه. قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾، هي الملائكة تسبح بأمر الله، أي: تسرع فيه، كما يسرع السابح في الماء، وكما قال تعالى عن الشمس والقمر والليل والنهار ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[يس: ٤٠] فالمعنى أنها تسبح بأمر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على حسب ما أراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وهم أي: الملائكة أقوى من الجن، والجن أقوى من البشر، انظر إلى قوله تعالى عن سليمان: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٣٨ ـ ٤٠]. يعني: إذا مددت طرفك ثم رجعته فقبل أن يرجع إليك آتيك به ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ﴾، في الحال رآه ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾، قال العلماء: إنه حملته الملائكة حتى جاءت به إلى سليمان من اليمن، وسليمان بالشام بلحظة فدل هذا على أن قوة الملائكة أشد بكثير من قوة الجن، وقوة الجن أشد من بني آدم؛ لأنه لا يستطيع أحد من بني آدم أن يأتي بعرش ملكة سبأ من اليمن إلى الشام قبل بمدة طويلة، فالحاصل أن الملائكة تسبح بأمر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بما يأمرها به. قوله تعالى: ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾، أيضًا هي الملائكة تسبق إلى أمر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ولهذا كانت الملائكة أسبق إلى أمر الله وأقوم بأمر الله من بني آدم، قال الله تعالى في وصف ملائكة النار: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. وقال عز وجل: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[الأنبياء: ١٩، ٢٠]. فهم سباقون إلى أمر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بما يأمرهم لا يعصونه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون؛ لقوتهم وقدرتهم على فعل أوامر الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾، وصف للملائكة تدبِّرُ الأمر، وهو واحد الأمور يعني: أمور الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لها ملائكة تدبرها، فجبرائيل موكل بالوحي يتلقاه من الله وينزل به على الرسل،

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٥٧)، والترمذي (١٠٦٧).

وإسرافيل موكل بنفخ الصور الذي يكون عند يوم القيامة ينفخ في الصور فيفزع الناس ويموتون، ثم ينفخ فيه أخرى فيبعثون، وميكائيل موكل بالقطر وبالمطر والنبات، وملك الموت موكل بالأرواح، ومالك موكل بالنار، ورضوان موكل بالجنة، وعن اليمين وعن الشمال قعيد موكل بالأعمال،وملائكة موكلون بحفظ أعمال نبي آدم كلٌ يدبر ما أمره الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ به. فهذه الأوصاف كلها أوصاف للملائكة على حسب أعمالهم، وأقسم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالملائكة؛ لأنهم من خير المخلوقات، ولا يقسم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بشيء إلا وله شأن عظيم إما في ذاته، وإما لكونه من آيات الله عز وجل. ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾، هذه ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾، متعلقة بمحذوف والتقدير اذكر يا محمد وذكّر الناس بهذا اليوم العظيم: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾، وهما النفختان في الصور، النفخة الأولى ترجف الناس ويفزعون ثم يموتون عن آخرهم إلا مَنْ شاءالله، والنفخة الثانية يبعثون من قبورهم فيقوم الناس من قبورهم مرة واحدة، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤].

فإذا رجفت الراجفة وتبعتها الرافدة انقسم الناس إلى قسمين: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾، وهذه قلوب الكفار ﴿وَاجِفَةٌ﴾، أي: خائفة خوفًا شديدًا. قوله تعالى: ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾، يعني: ذليلة لا تكاد تحدق أو تنظر بقوة، ولكنه قد غضت أبصارهم ـ والعياذبالله ـ لذلهم قال الله تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥] وأما القسم الثاني فقلوبهم على عكس قلوب هؤلاء ويدل لهذا القسم قوله: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ﴾ بصيغة النكرة فيكون المعني: وقلوب على عكس ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾، زجرة من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يزجرون ويصاح بهم فيقومون من قبورهم قيام رجل واحد على ظهر الأرض بعد أن كانوا في بطنها قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]. كل الخلق في هذه الكلمة الواحدة يخرجون من قبورهم أحياء، ثم يحضرون إلى الله عز وجل؛ ليجازيهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]. يعني: أنَّ الله إذا أراد شيئًا إنما يقول له: (كن) مرة واحدة فقط فيكون، ولا يتأخر، هذا عن قول الله لحظة كلمح بالبصر، والله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لا يعجزه شيء، فإذا كان الخلق كلهم يقومون من قبورهم لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بكلمة واحدة فهذا أدل دليل على أن الله تعالى على كل شيء قدير، وأن الله لا يعجزه شيء في السماوات، ولا في الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾.

قال الله تعالى:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ١٥-٢٦].

التفسير

قال تعالى مبينًا ما جرى للأمم قبل محمد - صلى الله عليه وآله وسلم -. فقال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾، والخطاب في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾، للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أو لكل من يتأتى خطابه ويصح توجيه الخطاب إليه، ويكون على المعنى الأول (هل أتاك يا محمد)، وعلى المعنى الثاني: (هل أتاك أيها الإنسان) ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾، وهو ابن عمران ﷺ أفضل أنبياء بني إسرائيل، وهو أحد أولي العزم الخمسة الذين هم: محمد - صلى الله عليه وآله وسلم -، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ونوح عليهم الصلاة والسلام، وقد ذكر هؤلاء الخمسة في القرآن في موضعين: أحدهما في الأحزاب في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]. والثاني في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشورى: ١٣]. وحديث موسى ﷺ ذكر في القرآن أكثر من غيره؛ لأن موسى هو نبي اليهود وهم كثيرون في المدينة وحولها في عهد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -، فكانت قصص موسى أكثر ما قص علينا من نبأ الأنبياء وأشملها وأوسعها وفي قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾، تشويق للسامع؛ ليستمع إلى ما جرى في هذه القصة.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾، ناداه الله - عَزَّ وَجَلَّ - نداءً سمعه بصوت الله - عَزَّ وَجَلَّ - قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾، [مريم: ٥٢]. وقوله تعالى: ﴿بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾، هو الطور، والوادي هو مجرى الماء، وسماه الله مقدسًا؛ لأنه كان فيه الوحي إلى موسى ﷺ. وقوله تعالى: ﴿طُوًى﴾، اسم للوادي. قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، فرعون كان ملك مصر، وكان يقول لقومه إنه ربهم الأعلى، وأنه لا إله غيره ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص:٣٨] فادعى ما ليس له، وأنكر حق غيره، وهو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وأمر الله نبيه موسى ﷺ أن يذهب إلى فرعون وهذه هي الرسالة، وبيّن سبب ذلك، وهو طغيان، هذا الرجل ـ أعني فرعون ـ وفي سورة طه قال تعالى: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٤٣]، ولا منافاة بين الآيتين وذلك أن الله تعالى أرسل موسى أولًا ثم طلب موسى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ من ربه أن يشد أزره بأخيه هارون؛ فأرسل هارون ﷺ مع موسى فصار موسى وهارون كلاهما مرسل إلى فرعون. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، أي: زاد على حده؛ لأن الطغيان هو الزيادة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]. ومنه الطاغوت:؛ لأن فيه مجاوزة الحد .

وقوله تعالى: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾، الاستفهام هنا للتشويق، تشويق فرعون أن يتزكى مما هو عليه من الشر والفساد، وأصل الزكاة النمو والزيادة، وتطلق بمعنى الإسلام والتوحيد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَوَيۡلٌ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ٦، ٧]. ومنه قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ ـ ١٠]. قوله تعالى: ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، أي: أدلك إلى ربك أي: إلى دين الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ الموصل إلى الله. قوله تعالى: ﴿فَتَخۡشَىٰ﴾، أي: فتخاف الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على علم منك؛ لأن الخشية هي الخوف المقرون بالعلم، فإن لم يكن علم فهو خوف مجرد، وهذا هو الفرق بين الخشية والخوف. الفرق بينهما أن الخشية عن علم قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]. وأما الخوف فهو مجرد ذعر يحصل للإنسان ولو بلا علم، ولهذا قد يخاف الإنسان من شيء يتوهمه لا حقيقة له، قد يرى في الليلة الظلماء شبحًا لا حقيقة له فيخاف منه، فهذا ذعر مبني على وهم، لكن الخشية تكون عن علم.

فذهب موسى ﷺ وقال لفرعون ما أمره الله به: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾، ولما كان البشر لا يؤمنون، ولا يقبلون دعوى شخص أنه رسول إلا بآية، كما أنه لا يقبل من أحد دعوى إلا ببينة جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ مع كل رسول آية تدل على صدقه، وهنا قال تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾، يعني: أرى موسى فرعون الآية الكبرى أي: العظمي، فما هي هذه الآية؟الآية أن معه عصًا من خشب من فروع الشجر، كما هو معروف، فكان إذا وضعها في الأرض صارت حية تسعى، ثم يحملها فتعود عصا، وهذا من آيات الله أن شيئًا جمادًا إذا وضع على الأرض صار حية تسعى، وإذا حمل من الأرض عاد في الحال فورًا إلى حاله الأولى عصا من جملة العصي، وإنما بعثه ﷺ بهذه الآية، وبكونه يُدْخِل يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء أي: من غير عيب، أي: بيضاء بياضًا ليس بياض البرص، ولكنه بياض جعله الله آية، إنما بعثه الله بالعصا واليد؛ لأنه كان في زمن موسى السحر منتشرًا شائعًا؛ فأرسله الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بشيء

يغلب السحرة الذين تصدوا لموسى ﷺ.

قال أهل العلم: وفي عهد عيسى - صلى الله عليه وآله وسلم - انتشر الطب انتشارًا عظيمًا، فجاء عيسى بأمر يُعْجِز الأطباء، وهو أنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برىء، فإذا جيء إليه بشخص فيه عاهة أي: عاهة تكون مسحه بيده ثم برىء بإذن الله ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾ [المائدة:١١٠] مع أن البرص لا دواء له لكن هو يبرىء الأبرص بإذن الله - عَزَّ وَجَلَّ - ويبرىء الأكمه الذي خلق، بلا عيون، وأشد من، هذا وأعظم أنه يحيي الموتى بإذن الله، يؤتى إليه بالميت فيتكلم معه ثم تعود إليه الحياة، وأشد من ذلك وأبلغ أنه يخرج الموتى بإذن الله من قبورهم، يقف على القبر وينادي صاحب القبر فيخرج من القبر حيًّا، فهذا شيء لا يمكن؛ لأي: طب أن يبلغه، ولهذا كانت آية عيسى ﷺ في هذا الوقت مناسبة تمامًا لما كان عليه الناس. قال أهل العلم: أما رسول الله محمد - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - فقد أتى إلى العرب وهم يتفاخرون في الفصاحة، ويرون أن الفصاحة أعظم منقبة للإنسان فجاء محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - بهذا القرآن العظيم الذي أعجز أمراء الفصاحة، وعجزوا عن أن يأتوا بمثله، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]. يعني: لو كان بعضهم يعاون بعضًا، فإنهم لن يأتوا بمثله. حينئذ نقول: إن موسى ﷺ أرى فرعونالآية الكبرى، ولكن لم ينتفع بالآيات ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس:١١] فالذين ليس في قلوبهم استعداد للهداية لا يهتدون ولو جاءتهم كل آية - والعياذ بالله - ولهذا قال تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾، كذب الخبر، وعصى الأمر، يعني: قال لموسى إنك لست رسولًا، بل قال تعالى: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]. وعصى الأمر فلم يمتثل أمر موسى ولم ينقد لشرعه. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾، أي: تولى مدبرًا يسعى حثيثًا. قوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾، حشر الناس أي: جمعهم ونادى فيهم بصوت مرتفع؛ ليكون ذلك أبلغ في نهيهم عما يريد منهم موسى ﷺ. قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، يعني: لا أحد فوقي؛ لأن ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾، اسم تفضيل من العلو، فانظر كيف استكبر، هذا الرجل وادَّعى لنفسه ما ليس له في قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وكان يفتخر بالأنهار والمُلك الواسع يقول لقومه في ما قال لهم ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥١، ٥٢]. فما الذي حصل؟ أغرقه الله - عَزَّ وَجَلَّ - بالماء الذي كان يفتخر به، وأورث الله ملك مصر بني إسرائيل الذين كان يستضعفهم. قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾، أخذه الله تعالى: أخذ عزيز مقتدر، ﴿نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾، يعني: أنه نُكِّل به في الآخرة وفي الأولى، فكان عبرة في زمنه، وعبرة فيما بعد زمنه إلى يوم القيامة، كل من قرأ

كتاب الله وما صنع الله بفرعون، فإنه يتخذ ذلك عبرة يعتبر به، وكيف أهلكه الله مع، هذا الملك العظيم وهذا الجبروت وهذا الطغيان؟ فصار أهون على الله ـ تعالى ـ من كل هين. فوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: فيما جرى من إرسال موسى إلى فرعون ومحاورته إياه واستهتار فرعون به واستكباره عن الانقياد له عبرة، ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ﴾، أي: يخشى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فمن كان عنده خشية من الله وتَدَبَّرَ ما حصل لموسى مع فرعون والنتيجة التي كانت لهذا ولهذا، فإنه يعتبر ويأخذ من ذلك عبرة فيسلك سبيل لم المرسلين ويتجنب طرق الكافرين، والعبر في قصة موسى كثيرة ولو أن أحدًا انتدب لجمع القصة من الآيات في كل سورة ثم يستنتج ما حصل في هذه القصة من العبر لكان جيدًا، وذلك بأن يأتي بالقصة كلها في كل الآيات؛ لأن السور في بعضها شيء ليس في البعض الاخر، فإذا جمعها وقال: مثلًا يؤخذ من هذه القصة العظيمة العبر التالية ثم يسردها، كيف أرسله الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إلى فرعون؟ كيف قال لهما ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤]. مع أنه مستكبر خبيث؟ وكيف كانت النتيجة؟ وكيف كان موسى ﷺ خرج من مصر خائفًا على نفسه يترقب، كما خرج الرسول ﷺ من مكة يترقب، وصارت العاقبة للرسول ﷺ ولموسى ﷺ، لكن العاقبة للرسول ﷺ بفعله وأصحابه، عذب الله أعداءهم بأيديهم، وعاقبة موسى بفعل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فهي عبر يعتبر بها الإنسان يصلح بها نفسه وقلبه حتى يتبين الأمر.



۞ قال الله تعالى:

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات:٢٧:٣٣].

۞ التفسير ۞

قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾، هذا الاستفهام لتقرير إمكان البعث؛ لأن المشركين كذبوا النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بالبعث وقالوا: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]. فيقول الله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾، الجواب معلوم لكل أحد أنه السماء، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر:

٥٧]. قوله تعالى: ﴿بَنَىٰهَا﴾، هذه الجملة لا تتعلق بالتي قبلها، ولهذا ينبغي للقارىء إذا قرأ أن يقف على قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾، ثم يستأنف فيقول: ﴿بَنَىٰهَا﴾، فالجملة استئنافية؛ لبيان عظمة السماء، ﴿بَنَىٰهَا﴾، أي: بناها الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وقد بين الله ـ سبحانه وتعالى ـ في آية أخرى في سورة الذاريات أنه بناها بقوة فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات:٤٧] أي: بقوة وقد يظن ظان أن الآيد هنا جمع يد وليس كذلك؛ لأن أيد مصدر آد يئيد أي: قوي، ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾، رفعه يعني: عن الأرض ورفعه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بغير عمد، كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

وقوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي: جعلها مستوية، تامة كاملة، كما قال تعالى في خلق الإنسان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾ [الانفطار: ٦، ٧]. فسواك أي: جعلك سويًا تام الخلقة، فالسماء كذلك سواها الله عز وجل. قوله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾، أغطشه أي: أظلمه، فالليل مظلم، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢]. قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾، بينه بالشمس التي تخرج كل يوم من مطلعها وتغيب من مغربها. قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾، أي: بعد خلق السماوات والأرض ﴿دَحَىٰهَآ﴾، بيّنَ سبحانه، هذا الدحوّ بقوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾، وكانت الأرض مخلوقة قبل السماء، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١٢].

فالأرض مخلوقة من قبل السماء لكن دحوها وإخراج الماء منها والمرعى كان بعد خلق السماوات. قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾، أي: جعلها راسية في الأرض؛ فلا تنسفها الرياح مهما قويت وهي أيضًا تمسك الأرض لئلا تضطرب بالخلق كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾، أي: جعل الله تعالى ذلك متاعًا لنا نتمتع به فيما نأكل ونشرب، ولأنعامنا أي: مواشينا من الإبل والبقر والغنم وغيرهاالتي نذر عليها وتنمو بها أموالنا.



۞ ولما ذكّر الله ـ عزَّ وَجلّ ـ عباده بهذه النعم الدالة على كمال قدرته ذكّرهم بمآلهم الحتمي الذي لابد منه، فقال عز وجل:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٣٤:٤١].

۞ التفسير ۞

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾، وذلك قيام الساعة، وسماها طامة؛ لأنها داهية عظيمة تطم كل شيء سبقها. قوله تعالى: ﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾، يعني: أكبر من كل طامة. قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾، لهذا اليوم الذي تكون فيه الطامة الكبرى، وهو اليوم الذي يتذكر فيه الإنسان ما سعى،أي: ما عمله في الدنيا يتذكره مكتوبًا، عنده بكتاب يقرأه هو بنفسه قال الله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]. فإذا قرأه تذكر ما سعى أي: ما عمل، أما اليوم، فإننا قد نسينا ما عملنا، عملنا أعمالًا كثيرة منها الصالح، ومنها اللغو، ومنها السيىء، لكن كل، هذا ننساه، وفي يوم القيامة يعرض علينا، هذا في كتاب ويقال اقرأ كتابك أنت بنفسك ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]. فحينئذ يتذكر ما سعى ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾، ﴿وَبُرِّزَتِ﴾، أي: أظهرت تجيء تقاد بسبعين ألف زمام كل زمام فيه سبعون ألف ملك يجرونها، فإذا ألقي منها الظالمون مكانًا ضيقًا مقرنين دعوا هنالك ثبورًا فتنخلع القلوب ويشيب المولود.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾، هذان وصفان هما وصفا أهل النار، الطغيان، وهو مجاوزة الحد، وإيثار الدنيا على الآخرة بتقديمها على الآخرة،وهما متلازمان فكل مَن طغى فقدآثر الحياة الدنيا وكذلك العكس، والطغيان مجاوزة الحد، وحد الإنسان مذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. فمن جاوز حده ولم يعبد الله فهذا هو الطاغي؛ لأنه تجاوز الحد، فأنت مخلوق لا لتأكل وتتنعم وتتمتع، كما تتمتع الأنعام، فأنت مخلوق لعبادة الله فاعبد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فإن لم تفعل فقد طغيت، فهذا هو الطغيان ألا يقوم الإنسان بعبادة الله.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: قدمها طاعة الله ـ عزَّ وَجلَّ ـ مثاله: رجل إذا قيل له أذكر الله آثر اللغو على ذكر الله وهكذا.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي: هي مأواه، والمأوى هو المرجع والمقر وبئس المقر مقر جهنم ـ أعاذنا الله منها ـ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾، يعني: خاف القيام بين يديه؛ لأن الإنسان يوم القيامة سوف يقرره الله ـ عزَّ وَجلَّ ـ بذنوبه ويقول عملت كذا، عملت كذا، عملت كذا، كما جاء في الصحيح، فإذا أقر قال الله له: «قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»(١)، فهذا هو الذي خاف، هذا المقام، ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾، أي: عن هواها المخالف لأمر الله ورسوله، والنفس أمّارة بالسوء لا تأمر إلا بالشر، ولكن هناك نفس أخرى تقابلها وهي النفس المطمئنة؛ وللإنسان ثلاث نفوس: مطمئنة، وأمارة، ولوامة، وكلها في القرآن، أما المطمئنة ففي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧: ٣٠]. وأما الأمّارة بالسوء ففي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٥٣].

وأما اللوامة ففي قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١، ٢]. والإنسان يحس بنفسه بهذه الأنفس؛ يرى في نفسه أحيانًا نزعة خير فيحب والخير يفعله وهذه هي النفس المطمئنة، يرى أحيانًا في نفسه نزعة شر فيفعله هذه هي النفس الأمارة بالسوء، وتأتي بعد ذلك النفس اللوامة التي تلومه على ما فعل فتجده يندم على ما فعل من المعصية، أو لوامة أخرى تلومه على ما فعل من الخير، فإن من الناس من قد يلوم نفسه على فعل الخير وعلى مصاحبة أهل الخير ويقول: كيف أصاحب هؤلاء الذين صدوني عن حياتي.. عن شهواتي.. عن لهوي، وما أشبه ذلك. فاللوامة نفس تلوم الأمارة بالسوء مرة، وتلوم المطمئنة مرة أخرى، فهي في الحقيقة نفس بين نفسين تلوم النفس الأمارة بالسوء إذا فعلت السوء، وتندم الإنسان، وقد تلوم النفس المطمئنة إذا فعلت الخير. قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾، الجنة هي دار النعيم التي أعدها الله عزَّ وَجلَّ؛ لأوليائه فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]. هكذا جاء في القرآن، وجاء في الحديث القدسي: «**أَعْدَدتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»(٢)، هذه الجنة يدركها الإنسان قبل أن يموت، فإذا حضر الأجل ودعت الملائكة النفس للخروج قالت: أخرجي أيتها النفس المطمئنة إلى رضوان الله، وتبشر النفس بالجنة، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ [النحل: ٣٢]. يقولونه حين التوفي

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٤٤)، و مسلم (٢٨٢٤).

﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، فيبشر بالجنة فتخرج روحه راضية متيسرة سهلة، ولهذا لما حدث النبي ﷺ فقال: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ» قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: يا رسول الله: كلنا يكره الموت، فذكر لها أنه قال: ليس الأمر كذلك، ولكن المؤمن إذا بشر بها يبشر به عند الموت أحب لقاء الله أحب الموت وسهل عليه»(١)، وإن الكافر إذا بشر ـ والعياذ بالله ـ بما يسوءه عند الموت كره لقاء الله وهربت نفسه تفرقت في جسده حتى ينتزعوها منه، كما ينتزع السُّفود من الشعر المبلول، والشعر المبلول إذا جر عليه السفود، وهو معروف عند الغزالين يكاد يمزقه من شدة سحبه عليه هكذا روح الكافر ـ والعياذ بالله ـ تتفرق في جسده؛ لأنها تبشر بالعذاب فتخاف، فالجنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، والإنسان قد يدركها قبل أن يموت بما يبشر به، وقد قال أنس بن النضر ـ رضي الله عنه ـ لسعد بن معاذ: يا سعد والله إني لأجد ريح الجنة دون أحد»(٢)، وهذا ليس معناه الوجدان الذوقي، بل هو وجدان حقيقي، قال ابن القيم رحمه الله: (إن بعض الناس قد يدرك الآخرة، وهو في الدنيا)، ثم انطلق فقاتل وقُتل ـ رضي الله عنه ـ فالحاصل أن الجنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.



❁ قال الله تعالى:

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٢:٤٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾، ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾، يعني: يسألك الناس، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦٣]. أي: متى وقوعها سؤال الناس عن الساعة ينقسم إلى قسمين: سؤال استبعاد، وإنكار وهذا كفر، كما سأل المشركون النبي ﷺ عن الساعة واستعجلوها، وقد قال الله عن هؤلاء: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَا

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٥٧)، والترمذي (١٠٦٧).

(٢) أخرجه البخاري :(٤٠٤٨).

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّ﴾ [الشورى:١٨]. وسؤال عن الساعة يسأل متى الساعة ليستعد لها وهذا لا بأس به، وقد قال رجل للنبي ﷺ: يا رسول الله متى الساعة؟ قال له: «مَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟ قال: حب الله ورسوله. قال: «المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»(١)، فالناس يسألون النبي ﷺ، ولكن تختلف نياتهم في، هذا السؤال، ومهما كانت نياتهم ومهما كانت أسئلتهم فعلم الساعة عند الله ولهذا قال تعالى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾، يعني: أنه لا يمكن أن تذكر لهم الساعة؛ لأن علمها عند الله، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وقد سأل جبريل ـ عليه السلام ـ وهو أعلم الملائكة بوحي الله، سأل النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهو أعلم البشر بذلك قال: أخبرني عن الساعة. فقال له النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»(٢)، يعني: أنت إذا كانت خافية عليك؛ فأنا خافية علي، وإذا كان أعلم الملائكة وأعلم البشر لا يعلمان متى الساعة فما بالك بمن دونهما؟! وبهذا نعرف أن ما يشيعه بعض الناس من أن الساعة تكون في كذا وفي كذا وفي زمن معين كله كذب، نعلم أنه كذب؛ لأنه لا يعلم متى الساعة إلا الله عز وجل. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾، يعني: ليس عندك علم منها، ولكنك منذر ﴿مَن يَخۡشَىٰهَا﴾، أي: يخافها وهم المؤمنون، أما من أنكرها واستبعدها وكذبها، فإن الإنذار لا ينفع فيه ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]. ولهذا نقول: لا تسأل متى تموت، ولا أين تموت؛ لأن، هذا أمر لا يحتاج إلى سؤال أمر مفروغ منه ولابد أن يكون ومهما طالت بك الدنيا فكأنما بقيت يومًا واحدًا، بل، كما قال تعالى هنا: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾، ولكن السؤال الذي يجب أن يرد على النفس ويجب أن يكون لديك جواب عليه هو على أي: حال تموت؟! ولست أريد على أي: حال تموت هل أنت غني أو فقير، أو قوي أو ضعيف، أو ذو عيال أو عقيم، بل على أي: حال تموت في العمل، فإذا كنت تُسائلُ نفسك، هذا السؤال فلابد أن تستعد؛ لأنك لا تدري متى يفجَؤُك الموت؟ كم من إنسان خرج يقود سيارته ورُجِع به محمولًا على الأكتاف، وكم من إنسان خرج من أهله يقول هيئوا؛ لي طعام الغداء أو العشاء، ولكن لم يأكله، وكم من إنسان لبس قيمصه وزر أزرته ولم يفكها إلا الغاسل يغسله، هذا أمر مشاهد لكل أحد بحوادث بغتة. فانظر الآن وفكر على أي: حال تموت، ولهذا ينبغي لك أن تكثر من الاستغفار ما استطعت، فإن الاستغفار فيه من كل همٍّ فرجٌ، ومن كل ضيق مخرج، حتى إن بعض العلماء يقول إذا استفتاك

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧١٥٣)، ومسلم (٢٦٣٩).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.

شخص فاستغفر الله قبل أن تفتيه؛ لأن الذنوب تحول بين الإنسان وبين الهدى واستنبط ذلك من قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥، ١٠٦]. وهذا استنباط جيد، ويمكن أيضًا أن يُسْتَنْبَطَ من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧]. والاستغفار هو الهدى، لذلك أوصيكم بالمراقبة، وكثرة الاستغفار، ومحاسبة النفس حتى نكون على أهبة الاستعداد خشية أن يفجؤُنا الموت ـ نسأل الله أن يحسن لنا الخاتمة ـ. قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾، أي: يرون القيامة قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾، العشية من الزوال إلى غروب الشمس، والضحى من طلوع الشمس إلى زوالها، يعني: كأنهم لم يلبثوا إلا نصف يوم، وهذا هو الواقع لو سألنا الآن كم مضى من السنوات علينا؟ هل نشعر الآن بأنه سنوات أو كأنه يوم واحد؟ لا شك أنه كأنه يوم واحد. والإنسان الآن بين ثلاثة أشياء: يوم مضى فهذا قد فاته، ويوم مستقبل لا يدري أيدركه أو لا يدركه، ويوم حاضر هو المسؤول عنه، وأما ما مضى فقد فات وما فات فقد مات، هلك عنك الذي مضى، والمستقبل لا تدري أتدركه أم لا، والحاضر هو الذي أنت مسؤول عنه. نسأل الله تعالى أن يحسن لنا العاقبة، وأن يجعل عاقبتنا حميدة، وخاتمتنا سعيدة إنه جواد كريم.



تفسير سورة عبس

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝٤ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ۝١٢ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١:١٦].

❁ التفسير ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

وقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾، الضمير يعود إلى هو رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ. ومعنى ﴿عَبَسَ﴾، أي: كلح في وجهه يعني: استنكر الشيء بوجهه. ومعنى ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾، أعرض. قوله تعالى: ﴿أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾، الأعمى هو عبدالله بن عمرو ابن أم مكتوم ـ رضي الله عنه ـ، فإنه جاء إلى النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قبل الهجرة، وهو في مكة، وكان عنده قوم من عظماء قريش يطمع النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في إسلامهم، ـ ومن المعلوم أن العظماء والأشراف إذا أسلموا كان ذلك سببًا لإسلام من تحتهم وكان طمع النبي ﷺ فيهم شديدًا ـ فجاء، هذا الأعمى يسأل النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ وذكروا أنه كان يقول: علمني مما علمك الله ويستقرىء النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ فكان النبي ﷺ يعرض عنه وعبس في وجهه رجاءً وطمعًا في إسلام هؤلاء العظماء وكأنه خاف أن هؤلاء العظماء يزدرون النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إذا وجه وجهه لهذا الرجل الأعمى وأعرض عن هؤلاء العظماء كما قال نوح: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: ٢٧] فكان النبي ﷺ في عبوسه

وتوليه يلاحظ هذين الأمرين:

الأمر الأول: الرجاء في إسلام هؤلاء العظماء.

والأمر الثاني: ألا يزدروا النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - في كونه يلتفت إلى، هذا الرجل الأعمى الذي هو محتقر عندهم، ولا شك أن، هذا اجتهاد من رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - وليس احتقارًا لابن أم مكتوم؛ لأننا نعلم أن النبي ﷺ لا يهمه إلا أن تنتشر دعوة الحق بين عباد الله، وأن الناس عنده سواء، بل من كان أشد إقبالًا على الإسلام فهو أحب إليه هذا ما نعتقده في رسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾، أي أي: شيء يريبك أن يتزكى، هذا الرجل ويقوي إيمانه؟ قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُ﴾، أي: لعل ابن أم مكتوم ﴿يَزَّكَّىٰ﴾، أي: يتطهر من الذنوب والأخلاق التي لا تليق بأمثاله، فإذا كان، هذا هو المرجو منه، فإنه أحق أن يلتفت إليه. قوله تعالى: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ﴾، يعني: وما يدريك لعله يذكر أي: يتعظ فتنفعه الموعظة، فإن -- رضي الله عنه -- أرجى من هؤلاء أن يتعظ ويتذكر. قوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ﴾، يعني: استغنى بماله لكثرته، واستغنى بجاهه؛ لقوته، وهم العظماء الذين عن النبي - صلى الله عليه - فهذا ﴿فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ﴾، أي: تتعرض وتطلب إقباله عليك وتقبل عليه. قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾، يعني: ليس عليك شيء إذا لم يتزكى، هذا المستغني؛ لأنه ليس عليك إلا البلاغ، فبيّن الله - سبحانه وتعالى - أن ابن أم مكتوم - رضي الله عنه - أقرب إلى التزكي من هؤلاء العظماء، وأن هؤلاء إذا لم يتزكوا مع إقبال الرسول ﷺ عليهم، فإنه ليس عليه منهم شيء. قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾، يعني: ليس عليك شيء إذا لم يتزكى؛ لأن إثمه على نفسه وليس عليك إلا البلاغ. ثم قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾، هذا مقابل قوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ﴾، ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ﴾، أي: يستعجل من أجل انتهاز الفرصة إلى حضور مجلس النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾، أي: يخاف الله - عَزَّ وَجَلَّ - بقلبه؛ لعلمه بعظمته.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾، أي: تتلهى عنه وتتغافل؛ لأنه انشغل برؤساء القوم لعلهم يهتدون. قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾، يعني: لا تفعل مثل، هذا ولهذا نقول: إن ﴿كَلَّا﴾، هنا حرف ردع وزجر أي: لا تفعل مثل ما فعلت. قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾، أي: الآيات القرآنية التي أنزلها الله على رسوله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -. قوله تعالى: ﴿تَذْكِرَةٌ﴾، تذكر الإنسان بما ينفعه وتحثه عليه، وتذكر له ما يضره وتحذره منه ويتعظ بها القلب. قوله تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾، أي: فمن شاء ذكر ما نزل من الموعظة فاتعظ، ومن شاء لم يتعظ لقول الله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. فالله جعل للإنسان الخيار قدرًا بين أن يؤمن ويكفر، أما شرعًا، فإنه لا يرضى لعباده الكفر، وليس الإنسان خير شرعًا بين الكفر والإيمان، بل

هو مأمور بالإيمان ومفروض عليه الإيمان، لكن من حيث القدر هو مخير وليس، كما يزعم بعض الناس مسير مجبر على عمله، بل، هذا قول مبتدع ابتدعه الجبرية من الجهمية وغيرهم فالإنسان في الحقيقة مخير؛ ولذلك إذا وقع الأمر بغير اختياره كالمكره والنائم والناسي ونحوهم لم يترتب عليه حكمه فيما بينه وبين الله ـ تعالى ـ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾، أي: ذكر ما نزل من الوحي فاتعظ به، ومن شاء لم يذكره، والموفق من وفقه ـ الله عز وجل ـ.

وقوله تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾، أي: أن، هذا الذكر الذي تضمنته هذه الآيات.

وقوله تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾، معظمة عند الله، والصحف جمع صحائف، والصحائف جمع صحيفة وهي ما يكتب فيه القول. قوله تعالى: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾، السفرة الملائكة، وسموا سفرة؛ لأنهم كتبة مأخوذة من السَّفَر أو من السِّفِر، وهو الكتاب كقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

وقيل: السفرة الوسطاء بين الله وبين خلقه، من السفير، وهو الواسطة بين الناس، ومنه حديث أبي رافع ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ تزوج ميمونة قبل أن يحرم قال: «وَكُنْتُ السَّفِيرُ بَيْنَهُمَا» أي: الواسطة. والصحيح أنهم سموا سفرة لهذا، وهذا بين الله وبين الخلق، فجبريل ﷺ واسطة بين الله وبين الخلق في النزول بالوحي، والكتبة الذين يكتبون ما يعمل الإنسان أيضًا يكتبونه ويبلغونه إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ والله تعالى عالم به حين كتابته وقبل كتابته. قوله تعالى: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾، كرام في أخلاقهم.. كرام في خلقتهم؛ لأنهم على أحسن خلقة، وعلى أحسن خُلق.

قوله تعالى: ﴿بَرَرَةٍ﴾ جمع بر وهو كثير الفضل والإحسان؛ ولهذا وصف الله الملائكة بأنهم كرام كاتبين يعلمون ما تفعلون، وأنهم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لا يستكبرون عن عبادة الله، ولا يستحسرون. يسبحون الليل والنهار لا يفترون. وهذه الآيات فيها تأديب من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ للخلق ألا يكون همهم همًّا شخصيًّا، بل يكون همهم همًّا معنويًّا وألا يفضلوا في الدعوة إلى الله شريفًا لشرفه، ولا عظيمًا لعظمته، ولا قريبًا لقربه، بل يكون الناس عندهم سواء في الدعوة إلى الله الفقير والغني، الكبير والصغير، القريب والبعيد، وفيها أيضًا تلطف الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بمخاطبة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقال في أولها: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾، ثلاث جمل لم يخاطب الله فيها النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ؛ لأنها عتاب فلو وجهت إلى الرسول بالخطاب لكان شديدًا عليه لكن جاءت بالغيبة ﴿عَبَسَ﴾ وإلا كان مقتضى الحال أن يقول: «عبست وتوليت أن جاءك الأعمى»، ولكنه قال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾.

فجعل الحكم للغائب كراهية أن يخاطب النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بهذه الكلمات الغليظة الشديدة، ولأجل ألا يقع بمثل ذلك من يقع من هذه الأمة، والله - سبحانه وتعالى - وصف كتابه العزيز بأنه، بلسان عربي مبين، وهذا من بيانه، وفي الآيات أيضًا دليل على جواز لقب الإنسان بوصفه مثل الأعمى والأعرج والأعمش، وقد كان العلماء يفعلون، هذا، الأعرج عن أبي هريرة، والأعمش عن ابن مسعود... وهكذا، قال أهل العلم واللقب بالعيب إذا كان المقصود به تعيين الشخص فلا بأس به، وأما إذا كان المقصود به تعيير الشخص، فإنه حرام؛ لأن الأول - إذا كان المقصود به تبيين الشخص - تدعو الحاجة إليه، والثانية - إذا كان المقصود به التعيير -، فإنه لا يقصد به التبيين، وإنما يقصد به الشماتة وقد جاء في الأثر «لَا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ فِي أَخِيكَ فَيَرْحَمَهُ اللهُ وَيَبْتَلِيكَ»(١).



قال الله تعالى:

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ (١٩) ثُمَّ
ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ
(٢٣) فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا
(٢٦) فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلْبًا (٣٠)
وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس:١٧-٣٢].

التفسير

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، ﴿قُتِلَ﴾، قال بعض العلماء: إن معناها لعن، والذي يظهر أن معناها أُهلك؛ لأن القتل يكون به الهلاك، وهو أسلوب تستعمله العرب في تقبيح ما كان عليه صاحبه فيقولون مثلًا: قتل فلان ما أسوأ خلقه، قتل فلان ما أخبثه وما أشبه ذلك. وقوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، قال بعض العلماء: المراد بالإنسان هنا الكافر خاصة، وليس كل إنسان لقوله فيما بعد ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾، ويحتمل أن يكون المراد بالإنسان الجنس؛ لأن أكثر بني آدم كفار، كما ثبت في الحديث الصحيح: أن الله يقول يقوم القيامة: «يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ لَهُ اللهُ عَزَّ

---

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٥٠٦)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٢٤٥).

وَجَلَّ: أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثَ النَّارِ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُ مِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ»(١)، فيكون المراد بالإنسان هنا الجنس ويخرج المؤمن من ذلك بما دلت عليه النصوص الأخرى.

وقوله تعالى: ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾، قال بعض العلماء: إن ﴿مَآ﴾ هنا استفهامية أي: أي شيء أكفره؟ ما الذي حمله على الكفر؟ وقال بعض العلماء: إن هذا من باب التعجب يعني: ما أعظم كفره!، وإنما كان كفر الإنسان عظيمًا؛ لأن الله أعطاه عقلًا، وأرسل إليه الرسل، وأنزل إليه الكتب وأمده بكل ما يحتاج إلى التصديق، ومع ذلك كفر فيكون كفره عظيمًا. والفرق بين القولين: أنه على القول الأول تكون ﴿مَآ﴾، استفهامية أي: ما الذي أكفره؟ وعلى القول الثاني تكون تعجبية يعني: عجبًا له كيف كفر مع أن كل شيء متوفر لديه في بيان الحق والهدى والإيمان!! والكفر هنا يشمل كل أنواع الكفر، ومنه إنكار البعث، فإن كثيرًا من الكفار كذبوا بالبعث، وقالوا: لا يمكن أن يُبعث الناس بعد أن كانت عظامهم رميمًا، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس: ٧٨]. ولهذا قال تعالى: ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾، استفهام تقرير لما يأتي بعده في قوله تعالى: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾ يعني: أنت أيها الإنسان الذي كفر بالبعث، من أي: شيء خلقت؟ ألم تخلق من العدم لم تكن شيئًا مذكورًا من قبل فوجدت وصرت

إنسانًا فكيف تكفر بالبعث؟ ولهذا قال تعالى: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾، والنطفة هي في الأصل الماء القليل، والمراد به هنا ماء الرجل الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب يلقيه في رحم المرأة فتحمل ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾، أي: جعله مقدرًا أطوارًا: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، كما في الحديث الصحيح عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق فقال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكاً، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ. ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلاَّ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلاَّ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ»(٢). فالإنسان مقدر في بطن أمه من الذي يقدره، هذا التقدير؟ من الذي يوصل إليه ما ينمو به من الدم الذي يتصل به بواسطة السرة من دم أمه؟ إلا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾، السبيل هنا بمعنى الطريق يعني: يسر له الطريق؛ ليخرج من بطن أمه إلى عالم المشاهدة، ويسر له أيضًا بعد ذلك ما ذكره تعالى في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ [البلد: ١٠]. يسر له ثديي أمه يتغذى بهما، ويسر له بعد ذلك ما فتح له

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٤٨) وفي عير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٢٢).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٠٨) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٦٤٣).

من خزائن الرزق، ويسر له فوق، هذا كله وما هو أهم، وهو طريق الهدى والفلاح وذلك بما أرسل إليه من الرسالات، وأنزل عليه من الكتب، ثم بعد، هذا ﴿أَمَاتَهُۥ﴾، الموت مفارقة الروح للبدن. قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾، أي: جعله في قبر، أي: مدفونًا سترًا عليه وإكرامًا واحترامًا؛ لأن البشر لو كانوا إذا ماتوا كسائر الميتات جثثًا ترمى في الزبال لكان في ذلك إهانة عظيمة للميت ولأهل الميت، ولكن من نعمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن شرع لعباده، هذا الدفن، ولهذا قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾، قال: أكرمه بدفنه. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾، أي: إذا شاء الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ﴿أَنشَرَهُۥ﴾، أي: بعثه يوم النشور؛ ليجازيه على عمله. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾، يعني: أنه لا يعجزه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن ينشره لكن لم يأتِ أمر الله بعد ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾، ﴿لَمَّا﴾، هنا بمعنى (لم) لكنها تفارقها في بعض الأشياء، والمعنى أن الله تعالى لم يقضِ ما أمره، أي: ما أمر به كونًا وقدرًا، أي: أن الأمر لم يتم لنشر أو لانشار، هذا الميت، بل له موعد منتظر، وفي، هذا رد على المكذبين بالبعث الذين يقولون لو كان البعث حقًّا لوجدنا آباءنا الآن، وهذا القول منهم تحدٍ مكذوب؛ لأن الرسل لم تقل لهم إنكم تبعثون الان، ولكنهم قالوا لهم إنكم تبعثون جميعًا بعد أن تموتوا جميعًا.

ثم قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مذكرًا للإنسان بما أنعم الله عليه ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾، أي: فلينظر إلى طعامه من أين جاء؟ ومن جاء به؟ وهل أحدٌ خلقه سوى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ؟ وينبغي للإنسان أن يتذكر عند هذه الآية قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٧]. من الذي زرع، هذا الزرع حتى استوى ويسر الحصول عليه حتى كان طعامًا لنا؟ هو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾، أي: بعد أن نخرجه نحطمه حتى لا تنتفعوا به. قوله تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾، يعني: من السحاب ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾، بعد نزول المطر عليها تتشقق بالنبات. قوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾، أي: في الأرض ﴿حَبًّا﴾، كالبر والأرزوالذرة والشعير وغير ذلك من الحبوب الكثيرة ﴿وَعِنَبًا﴾، معروف ﴿وَقَضْبًا﴾، قيل: إنه القت المعروف الذي تأكله الدواب، ﴿وَزَيْتُونًا﴾، معروف ﴿وَنَخْلًا﴾، معروف ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾، حدائق جمع حديقة، والغلب كثير الأشجار ﴿وَفَٰكِهَةً﴾، يعني: ما يتفكه به الإنسان من أنواع الفواكه ﴿وَأَبًّا﴾، الأب نبات معروف عند العرب ترعاه الإبل ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾، يعني: أننا فعلنا ذلك متعة لكم، يقوم بها أودكم، وتتمتعون بها أيضًا بالتفكه بهذه النعم.



❁ ثم لما ذكر الله ـ عزّ وجلّ ـ الإنسان بحاله منذ خلق من نطفة حتى بقي في الدنيا وعاش، ذكر حاله الآخرة في قوله:

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥)
وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠)
تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس:٣٣:٤٢].

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾، يعني: الصيحة العظيمة التي تصخ الآذان، وهذا هو النفخ في الصور ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾، من أخيه أي: شقيقه أو؛ لأبيه أو؛ لأمه ﴿وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾، الأم والأب المباشر، والأجداد أيضًا، والجدات يفر من هؤلاء كلهم ﴿وَصَاحِبَتِهِ﴾، زوجته ﴿وَبَنِيهِ﴾، وهم أقرب الناس إليه وأحب الناس إليه. ويفر من هؤلاء كلهم. قال أهل العلم: يفر منهم لئلا يطالبوه بما فرط به في حقهم من أدب وغيره؛ لأن كل واحد في ذلك اليوم لا يحب أبدًا أن يكون له أحد يطالبه بشيء ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾، كل إنسان مشتغل بنفسه لا ينظر إلى غيره، ولهذا لما قال النبي ﷺ: «إنكم تحشرون يوم القيامة حفاة، عراة، غرلًا» قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض»؟ قال النبي ﷺ: «الْأَمْرُ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ»(١).

ثم قسّم الله الناس في ذلك اليوم إلى قسمين فقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿مُسْفِرَةٌ﴾، من الإسفار، وهو الوضوح؛ لأنها وجوه المؤمنين تُسفر عما في قلوبهم من السرور والانشراح ﴿ضَاحِكَةٌ﴾، يعني: متبسمة، وهذا من كمال سرورهم ﴿مُسْتَبْشِرَةٌ﴾، أي: قد بشرت بالخير؛ لأن الملائكة تتلقاهم بالبشرى يقولون ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:٥٥] ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾، يعني: يوم القيامة ﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾، أي: شيء كالغبار؛ لأنها ذميمة قبيحة ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾، أي: ظلمة ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾، الذين جمعوا بين الكفر والفجور، نسأل الله العافية، ونسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن وجوههم مسفرة ضاحكة مستبشرة إنه جواد كريم.



(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩).

تفسير سورة التكوير

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣)
وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ
(٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ (٩)
وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا
الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١:١٤].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

البسملة: تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، هذا يكون يوم القيامة، والتكوير: جمع الشيء بعضه إلى بعض ولفّه، كما تكوّر العمامة على الرأس، والشمس كتلة عظيمة كبيرة واسعة في يوم القيامة يكورها الله -عَزَّ وَجَلَّ- فيلفها جميعًا ويطوي بعضها على بعض فيذهب نورها، ويلقيها في النار -عَزَّ وَجَلَّ- إغاظة للذين يعبدونها من دون الله، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، أي: تحصبون في جهنم ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

ويستثني من ذلك من عُبد من دون الله من أولياء الله، فإنه لا يلقى في النار، كما قال الله تعالى بعد هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١، ١٠٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾، انكدرت يعني: تساقطت، كما تفسرها الآية الثانية. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢]. فالنجوم يوم القيامة تتناثر وتزول عن أماكنها ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾، أي: أن هذه الجبال العظيمة الصلبة العالية الرفيعة تكون هباءً يوم القيامة وتسيّر، كما قال الله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾، العشار جمع عشراء، وهي الناقة الحامل التي تم لحملها عشرة أشهر وهي من أنفس الأموال عند العرب، وتجد صاحبها يرقبها ويلاحظها، ويعتني بها ويأوي إليها ويحف بها في الدنيا، لكن في الآخرة تعطل، ولا يلتفت إليها؛ لأن الإنسان في شأن عظيم مزعج ينسيه كل شيء، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧]. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾، الوحوش جمع وحش، والمراد بها جميع الدواب، لقول الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]. تحشر الدواب يوم القيامة ويشاهدها الناس ويُقتص لبعضها من بعض، حتى إنه يقتص للبهيمة الجلحاء التي ليس لها قرن من البهيمة القرناء، فإذا اقتص من بعض هذه الوحوش لبعض أمرها الله تعالى فكانت ترابًا، وإنما يفعل ذلك ـ سبحانه وتعالى ـ لإظهار عدله بين خلقه ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾، البحار جمع بحر وجمعت لعظمتها وكثرتها، فإنها تمثل ثلاثة أرباع الأرض تقريبًا أو أكثر. هذه البحار العظيمة إذا كان يوم القيامة، فإنها تُسجر، أي: توقد نارًا، تشتعل نارًا عظيمة وحينئذ تيبس الأرض، ولا يبق فيها ماء؛ لأن بحارها المياه العظيمة تسجّر حتى تكون نارًا ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾، النفوس جمع نفس، والمراد بها الإنسان كله، فتزوّج النفوس يعني: يُضم كل صنف إلى صنفه؛ لأن الزوج يراد به الصنف، كما قال الله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَـٰثَةً﴾ [الواقعة: ٧]. أي: أصنافًا ثلاثة وقال تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص: ٥٨]. أي: أصناف، وقال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]. أي: أصنافهم وأشكالهم فيوم القيامة يضم كل شكل إلى مثله، أهل الخير إلى أهل الخير، وأهل الشر إلى أهل الشر، وهذه الأمة يضم بعضها إلى بعض ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾، لوحدها ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية ٢٨]. فإذن ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾، يعني: شكّلت وضُم بعضها إلى بعض كل صنف إلى صنفه، كل أمة إلى أمتها ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾، الموءدة: هي الأنثى تُدفنُ حية، وذلك أنه في الجاهلية لجهلهم وسوء ظنهم بالله، وعدم تحملهم يعيّر بعضهم بعضًا إذا أتته الأنثى، فإذا بُشّر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودًا، وهو كظيم، ممتلىء همًّا وغمًّا ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾، يعني: يختفي منهم ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل ٥٩]. يعني: إذا قيل؛ لأحدهم نبشرك أن الله جاء لك بأنثى ـ ببنت ـ

اغتم واهتم، وامتلأ من الغم والهم، وصار يفكر هل يبقي هذه الأنثى على هون وذل؟ أو يدسها في التراب ويستريح منها؟ فكان بعضهم هكذا، وبعضهم هكذا. فمنهم من يدفن البنت وهي حية، إما قبل أن تميز أو بعد أن تميز، حتى إن بعضهم كان يحفر الحفرة لبنته فإذا أصاب لحيته شيء من التراب نفضته عن لحيته، وهو يحفر لها؛ ليدفنها، ولا يكون في قلبه لها رحمة، وهذا يدلك على أن الجاهلية أمرها سفال، فإن الوحوش تحنو على أولادها وهي وحوش، وهؤلاء لا يحنون على أولادهم، يقول عز وجل: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾، أي: تسأل يوم القيامة ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾، هل أذنبت؟ فإذا قال قائل: كيف تُسأل وهي المظلومة، هي المدفونة، ثم هي قد تدفن وهي لا تميز، ولم يجر عليها قلم التكليف، فكيف تسأل؟ قيل: إنها تُسأل توبيخًا للذي وأدها؛ لأنها تُسأل أمامه فيقال: بأي: ذنب قُتِلْتِ أو قُتِلَتْ؟ نظير ذلك لو أن شخصًا اعتدى على آخر في الدنيا؛ فأتوا إلى السلطان إلى الأمير فقال للمظلوم: بأي: ذنب ضربك هذا الرجل؟ وهو يعرف أنه معتدىً عليه ليس له ذنب. لكن من أجل التوبيخ للظالم، فالموءدة تُسأل بأي ذنب قتلت توبيخًا لظالمها وقاتلها ودافنها نسأل الله العافية.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾، الصحف جمع صحيفة، وهي ما يكتب فيها الأعمال. واعلم أيها الإنسان أن كل عمل تعمله من قول أو فعل، فإنه يكتب ويسجل بصحائف على يد أمناء كرام كاتبين يعلمون ما تفعلون، يسجل كل شيء تعمله حتى توافى به يوم القيامة، فإن الله - سبحانه وتعالى - يقول في كتابه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾، يعني: عمله في عنقه ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء:١٣]، أي: مفتوحًا ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء ١٤]، كلامنا الآن ونحن نتكلم يكتب، كلام بعضكم مع بعض يكتب، كل كلام يكتب ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. ولهذا قال النبي ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»(١)، وقال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»(٢)؛ لأن كل شيء سيكتب عليه، ومن كثُر كلمُه كثُر سقطه، يعني: الذي يُكثر الكلام يكثر منه السقط والزلات، فاحفظ لسانك، فإن الصحف سوف يكتب فيها كل ما تقول وسوف تنشر لك يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾، السماء الآن سقف محفوظ قوي شديد. قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧]. أي: بقوة. وقال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢]. أي: قوية. في يوم القيامة تكشط يعني: تُزال عن مكانها، كما يكشط الجلد عند سلخ

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٥٩١١).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

البعير عن اللحم يكشطها الله - عَزَّ وَجَلَّ - ثم يطويها جل وعلا بيمينه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]. قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. يعني:، كما يطوي السجل الكتب، يعني: الكاتب إذا فرغ من كتابته طوى الورقة حفظًا لها عن التمزق وعن المحو، فالسماء تكشط يوم القيامة ويبقى الأمر فضاء إلا أن الله تعالى يقول: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]. يكون بدل السماء التي فوقنا الآن العرش؛ لأن السماء تطوى بيمين الله - عَزَّ وَجَلَّ - يطويها بيمينه ويهزها وكذلك يقبض الأرض ويقول: «أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ»[(١)]، ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾، الجحيم هي النار، وسميت بذلك لبعد قعرها وظلمة مرءاها. تُسعر أي: توقد. وما وقودها الذي توقد به؟ وقودها الذي وقد به قال الله عنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]. بدل ما توقد بالحطب والورق يكون الوقود الناس يعني: الكفار. والحجارة حجارة من نارٍ عظيمة شديدة الاشتعال شديدة الحرارة، هذا تسعير جهنم ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾، الجنة دار المتقين فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿أُزْلِفَتْ﴾، يعني: قُرِّبت وزُيِّنت للمؤمنين، وانظر الفرق بين، هذا وذاك. دار الكفار تسعّر، توقد، ودار المؤمنين تزيّن وتقرّب ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾، كل، هذا يكون يوم القيامة، فإذا قرأنا هذه الآيات: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾، هذه اثنتا عشرة جملة إلى الآن لم يأت بالجواب؛ لأن كلها في ضمن الشرط ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، فالجواب لم يأت بعد ماذا يكون إذا كانت هذه الأشياء؟ قال الله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾، أي: ما قدمته من خير وشر كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ [آل عمران: ٣٠]. يعني: يكون محضرًا أيضًا ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٠].

فتعلم في ذلك اليوم كل نفس ما أحضرت من خير أو شر، في الدنيا نعلم ما نعمل من خير وشر لكن سرعان ما ننسى. نسينا الشيء الكثير لا من الطاعات، ولا من المعاصي، ولكن، هذا لن يذهب سدى، كما نسيناه؟، بل والله هو باق، فإذا كان يوم القيامة أحضرته أنت بإقرارك على نفسك بأنك عملته، ولهذا قال تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾، فينبغي، بل يجب على الإنسان أن يتأمل في هذه الآيات العظيمة وأن يتعظ بما فيها من المواعظ، وأن يؤمن بها كأنه يراها رأي عين؛ لأن ما أخبر الله به وعلمنا مدلوله، فإنه أشد يقينًا عندنا مما شاهدناه بأعيننا أو سمعناه بأذاننا؛ لأن

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥١٩)، ومسلم (٢٧٨٧).

خبر الله لا يكذب، صدق، لكن ما نراه أو نسمعه كثيرًا ما يقع فيه الوهم. قد ترى الشيء البعيد شبحًا تعيِّنه في تصورك وهو خلاف الواقع وقد تسمع الصوت فتظنه شيئًا معيينًا في ذهنك وهو خلاف الواقع فالوهم يَردُ على الحواس، لكن خبر الله ـ عزَّ وَجلَّ ـ إذا علم مدلوله لا يمكن أبدًا أن يرد عليه شيء من الوهم؛ لأنه خبر صدق، فهذه الأمور التي ذكر الله في هذه الآيات أمور حقيقية يجب أن تؤمن بها كأنك تراها رأي عين ثم بعد الإيمان بها يجب أن تعمل بمقتضى ما تدل عليه من الاتعاظ والانزجار، والقيام بالواجب، وترك المنهيات؛ حتى تكون من أهل القرآن الذين يتلونه حق تلاوته.



قال الله تعالى:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ١٥ - ١٩].

التَفسِير

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾، قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾، قد يظن بعض الناس أن (لا) نافية وليس كذلك، بل هي مثبتة للقسم ويؤتى بها بمثل، هذا التركيب للتأكيد. فالمعنى ﴿أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾، والخنس جمع خانسة، وهي النجوم التي تخنس، أي: ترجع فبينما تراها في أعلى الأفق إذا بها راجعة إلى آخر الأفق، وذلك والله أعلم لارتفاعها وبُعدها فيكون ما تحتها من النجوم أسرع منها في الجري بحسب رؤية العين، ﴿ٱلۡجَوَارِ﴾، أصلها (الجواري) بالياء لكن حذفت الياء للتخفيف و﴿ٱلۡكُنَّسِ﴾، هي التي تكنس أي: تدخل في مغيبها؛ فأقسم الله بهذه النجوم ثم أقسم بالليل والنهار فقال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ معنى قوله تعالى: ﴿عَسۡعَسَ﴾، يعني: أقبل، وقيل: معناه أدبر، وذلك أن الكلمة ﴿عَسۡعَسَ﴾، في اللغة العربية

تصلح لهذا وهذا. لكن الذي يظهر أن معناها «أقبل»؛ ليوافق أو؛ ليطابق ما بعده من القسم، وهو قوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، فيكون الله أقسم بالليل حال إقباله، وبالنهار حال إقباله، وإنما أقسم الله تعالى بهذه المخلوقات لعظمها وكونها من آياته الكبرى، فَمَنْ يستطيع أن يأتي بالنهار إذا كان الليل، ومن يستطيع أن يأتي بالليل إذا كان النهار، قال الله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧١،٧٢]. قوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣].

فهذه المخلوقات العظيمة يقسم الله بها لعظم المقسم عليه، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠] ﴿إِنَّهُ﴾، أي: القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، هو جبريل ﷺ، فإنه رسول الله إلى الرسل بالوحي الذي يُنَزِّلَهُ عليهم.

ووصفه الله بالكرم لحسن منظره، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾ [النجم: ٦]. قوله تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾، قال العلماء: المرة: الخلق الحسن والهيئة الجميلة، فكان جبريل ﷺ موصوفًا بهذا الوصف: ﴿كَرِيمٍ﴾، ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾، ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾، وصفه الله تعالى بالقوة العظيمة، فإن الرسول ﷺ رآه على صورته التي خلقه الله عليها له ست مئة جناح قد سدّ الأفق كله من عظمته ﷺ، وقوله تعالى: ﴿عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾، أي: عند صاحب العرش، وهو الله جل وعلا، والعرش فوق كل شيء، وفوق العرش رب العالمين عز وجل. قال الله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥]. فذو العرش هو الله. وقوله تعالى: ﴿مَكِينٍ﴾، أي: ذو مكانة، أي: أن جبريل عند الله ذو مكانة وشرف، ولهذا خصه الله بأكبر النعم التي أنعم الله على عباده، وهو الوحي، فإن النعم لو نظرنا إليها لوجدنا أنها قسمان: نِعَم يستوي فيها البهائم والإنسان، وهي متعة البدن الأكل والشرب، والنكاح والسكن، هذه النعم يستوي فيها الإنسان والحيوان، فالإنسان يتمتع بما يأكل، وبما يشرب، وبما ينكح، وبما يسكن، والبهائم كذلك. ونِعمٌ أخرى يختص بها الإنسان، وهي الشرائع التي أنزلها الله على الرسل لتستقيم حياة الخلق؛ لأنه لا يمكن أن تستقيم حياة الخلق أو تطيب حياة الخلق إلا بالشرائع ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

المؤمن العامل بالصالحات هو الذي له الحياة الطيبة في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة. والله لو فتشت الملوك وأبناء الملوك، والوزراء وأبناء الوزراء، والأمراء وأبناء الأمراء، والأغنياء وأبناء الأغنياء ممن ليسوا أهل الإيمان والعمل الصالح، لو فتشتهم وفتشت من آمن وعمل صالحًا

لوجدت الثاني أطيب عيشة، وأنعم بالًا، وأشرح صدرًا؛ لأن الله - عَزَّ وَجَلَّ - الذي بيده مقاليد السموات والأرض تكفل. قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾، فتجد المؤمن العامل للصالحات مسرور القلب، منشرح الصدر، راضيًا بقضاء الله وقدره، إن أصابه خير شكر الله على ذلك، وإن أصابه ضده صبر على ذلك واعتذر إلى الله مما صنع، وعلم أنه إنما أصابه بذنوبه فرجع إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - قال النبي ﷺ: «عَجَبًا لِلْمُؤْمِنْ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»[1]، وصدق النبي ﷺ، إذن أكبر نعمة أنزلها الله على الخلق هي نعمة الدين الذي به قوام حياة الإنسان في الدنيا والآخرة، والحياة الحقيقية هي حياة الآخرة، والدليل قوله تعالى في سورة الفجر: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٤].

فالدنيا ليست بشيء؛ الحياة حقيقة حياة الآخرة، والذي يعمل للآخرة يحيا حياة طيبة في الدنيا، فالمؤمن العامل للصالحات هو الذي كسب الحياتين: حياة الدنيا، وحياة الآخرة. والكافر هو الذي خسر الدنيا والآخرة ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾، أي: هناك ﴿أَمِينٍ﴾، على ما كُلف به. جبريل هو المطاع فمن الذي يطيعه؟ قال العلماء: تطيعه الملائكة؛ لأنه ينزل بالأمر من الله فيأمر الملائكة فتطيع، فله إمرة وله طاعة على الملائكة. ثم الرسل عليهم الصلاة والسلام الذين ينزل جبريل عليهم بالوحي لهم إمرة وطاعة على المكلفين ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢].

في هذه الآيات ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾، أقسم الله - عَزَّ وَجَلَّ - على أن، هذا القرآن قول، هذا الرسول الكريم الملكي جبريل ﷺ، وفي آية أخرى بين الله - سبحانه وتعالى - وأقسم أن هذا القرآن قول رسول كريم بشري في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ [الحاقة: ٣٨ - ٤١]. فالرسول هنا في سورة التكوير رسول ملكي أي: من الملائكة، وهو جبريل ﷺ، والرسول هناك رسول بشري، وهو محمد ﷺ، والدليل على هذا واضح. هنا قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾، وهذا الوصف لجبريل؛ لأنه هو الذي عند الله، أما محمد ﷺ فهو في الأرض. هناك قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾، ردًا لقول الكفار الذين قالوا إن محمدًا شاعر ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾؛ فأيهما أعظم قسمًا؟

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٩٩)، و أحمد في «مسنده» (٤/ ٣٣٣).

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ﴾، أو ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾، الثاني أعظم، ليس فيه شيء أعمّ منه ﴿بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾، كل الأشياء إما نبصرها أو لا نبصرها. إذن أقسم الله بكل شيء. وهنا أقسم بالآيات العلوية فقط ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، هذه آيات علوية أفقية تناسب الرسول الذي أُقسم على أنه قوله، وهو جبريل؛ لأن جبريل عند الله.

فإذا قال قائل: كيف يصف الله القرآن بأنه قول الرسول البشري، والرسول الملكي؟

فنقول: نعم، الرسول الملكي بلغه إلى الرسول البشري، والرسول البشري، بلغه إلى الأمة، فصار قولًا، هذا بالنيابة، قول جبريل بالنيابة وقول محمد ﷺ بالنيابة، والقائل الأول هو الله - عَزَّ وَجَلَّ - فالقرآن قول الله حقيقة، وقول جبريل باعتبار أنه بلغه لمحمد ﷺ، وقول محمد ﷺ باعتبار أنه بلغه إلى الأمة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ﴾، أي: محمد رسول الله ﷺ وتأمل أنه قال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾،فأضافه إليهم؛ليكون أشد لومًا وتوبيخًا لهم حين ردُّوا دعوته، كأنه قال: ما صاحبكم الذي تعرفونه وأنتم وإياه دائمًا، بقي فيهم أربعين سنة في مكة قبل النبوة يعرفونه، ويعرفون صدقه وأمانته، حتى كانوا يطلقون عليه اسم الأمين ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ﴾، يعني: ليس مجنونًا، بل هو أعقل العقلاء ﷺ، أكمل الناس عقلًا، بلا شك وأسدّهم رأيًا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ﴾، أي: رأى محمدٌ جبريل ﴿بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ﴾، والمبين أي: البين الظاهر العالي، فإن الرسول ﷺ رأى جبريل على صورته التي خُلق عليها مرتين: مرة في غار حراء، ومرة في السماء السابعة لما عُرج به ﷺ، وهذه الرؤية هي التي في غار حراء؛ لأنه يقول ﴿رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ﴾، إذن محمد في الأرض ﴿وَمَا هُوَ﴾، يعني: ما محمد ﷺ ﴿عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾، يعني: على الوحي الذي جاءه من عند الله ﴿بِضَنِينٖ﴾، بالضاد أي: ببخيل، فهو ﷺ ليس بمتهم في الوحي، ولا باخل به، بل هو أشد الناس بذلًا لما أوحي إليه، يعلم الناس في كل مناسبة، وهو أبعد الناس عن التهمة؛ لكمال صدقه ﷺ، وفي قراءة ﴿بظنين﴾، بالظاء المشالة، أي: بمتهم، من الظن، وهو التهمة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ﴾، أي: ليس بقول أحد من الشياطين، وهم الكهنة الذين توحي إليهم الشياطين الوحي ويكذبون معه ويخبرون الناس فيظنونهم صادقين. قوله تعالى: ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ۝٢٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، ﴿إِنۡ﴾، هنا بمعنى (ما) وهذه قاعدة: «أنه إذا جاءت (إلا) بعد (إن) فهي بمعنى (ما)» أي: أنها تكون نافية؛ لأن «إن» تأتي نافية، وتأتي شرطية، وتأتي مخففة من الثقيلة، والذي يبين هذه المعاني هو السياق فإذا جاءت (إن وبعدها إلا) فهي نافية، أي: ما هو أي: القرآن الذي جاء به محمد ﷺ ونزل به جبريل على قلبه ﴿إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، ذكر يعني

التذكير والتذكّر، فهو تذكير للعالمين، وتذكر لهم، أي: أنهم يتذكرون به ويتعظون به (والمراد بالعالمين) من بُعث إليهم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]. فالمراد بالعالمين هنا من أرسل إليهم محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾، ﴿لِمَن شَآءَ﴾، هذه الجملة بدل مما قبلها لكنها بإعادة العامل وهو (إلا) كأنه قال: «إن هو إلا ذكر لمن شاء منكم أن يستقيم» فخصَّ بعد التعميم وأما من لا يشاء الاستقامة، فإنه لا يتذكر بهذا القرآن، ولا ينتفع به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]. فالإنسان الذي لا يريد الاستقامة لا يمكن أن ينتفع بهذا القرآن، ولكن إذا قال قائل: هل مشيئة الإنسان باختياره؟

نقول: نعم مشيئة الإنسان باختياره. فالله - عَزَّ وَجَلَّ - جعل للإنسان اختيارًا وإرادة، إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل؛ لأنه لو لم يكن كذلك لم تقم الحجة على الخلق الذين أرسلت إليه الرسل بإرسال الرسل، فما نفعله هو باختيارنا وإرادتنا، ولولا ذلك ما كان لإرسال الرسل حجة علينا، فالإنسان لا شك فاعل باختياره، وكل إنسان يعرف أنه إذا أراد أن يذهب إلى مكة فهو باختياره، وإذا أراد أن يذهب إلى المدينة فهو باختياره، وإذا أراد أن يذهب إلى بيت المقدس فهو باختياره وإذا أراد أن يذهب إلى الرياض فهو باختياره، أو إلى أي شيء أراده فهو باختياره لا يرى أن أحدًا أجبره عليه، ولا يشعر أن أحدًا أجبره على ذلك، كذلك أيضًا من أراد أن يقوم بطاعة الله فهو باختياره ومن أراد أن يعصي الله فهو باختياره، فللإنسان مشيئة، ولكن نعلم علم اليقين أنه ما شاء شيئًا إلا وقد شاءه الله من قبل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، ما نشاء شيئًا إلا بعد أن يكون الله قد شاءه، فإذا شئنا الشيء علمنا أن الله قد شاءه، ولولا أن الله شاءه ما شئناه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَلَـٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٣]. فنحن إذا عملنا الشيء نعمله بمشيئتنا واختيارنا، ولكن نعلم أن هذه المشيئة والاختيار كانت بعد مشيئة الله - عَزَّ وَجَلَّ - ولو شاء الله ما فعلنا.

فإن قال قائل: إذن لنا حجة في المعصية؛ لأننا ما شئناها إلا بعد أن شاءها الله.

فالجواب: أنه لا حجة لنا؛ لأننا لم نعلم أن الله شاءها إلا بعد أن فعلناها، وفعلنا إياها باختيارنا، ولهذا لا يمكن أن نقول إن الله شاء كذا إلا بعد أن يقع، فإذا وقع فبأي شيء وقع؟ وقع بإرادتنا ومشيئتنا؛؛ لهذا لا يتجه أن يكون للعاصي حجة على الله - عَزَّ وَجَلَّ - وقد أبطل الله هذه الحجة في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]. فلولا أنه لا حجة لهم ما

ذاقوا بأس الله، ولسَلِموا من بأس الله، ولكنه لا حجة لهم؛ فلهذا ذاقوا بأس الله، وكلنا نعلم أن الإنسان لو ذُكر له أن، بلدًا آمنًا مطمئنًا، يأتيه رزقه رغدًا من كل مكان، فيه من المتاجر والمكاسب ما لا يوجد في البلاد الأخرى، وأن، بلدًا آخر، بلدٌ خائف غير مستقر، مضطرب في الاقتصاد، مضطرب في الخوف والأمن، فإلى أيها يذهب؟ بالتأكيد سيذهب إلى الأول، ولا شك، ولا يرى أن أحدًا أجبره أن يذهب إلى الأول، يرى أنه ذهب إلى الأول بمحض إرادته، وهكذا الآن طريق الخير وطريق الشر، فالله بيّن لنا: هذه طريق جهنم وهذه طريق الجنة، وبيّن لنا ما في الجنة من النعيم، وما في النار من العذاب؛ فأيها نسلك؟ بالقياس الواضح الجلي أننا سنسلك طريق الجنة لا شك، كما أننا في المثال الذي قبل نسلك طريق البلد الآمن الذي يأتيه رزقه رغدًا من كل مكان. لو أننا سلكنا طريق النار، فإنه سيكون علينا العتب والتوبيخ واللوم، ويُنادى علينا بالسفه، كما لو سلكنا في المثال الأول طريق البلد المخوف المتزعزع الذي ليس فيه استقرار، فإن كل أحد يلومنا ويوبخنا.

إذنْ ففي قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾، تقرير لكون الإنسان يفعل الشيء بمشيئته واختياره، ولكن بعد أن يفعل الشيء ويشاء الشيء نعلم أن الله قد شاءه من قبل ولو شاء الله ما فعله، وكثيرًا ما يعزم الإنسان على شيء يتجه بعد العزيمة على، هذا الشيء وفي لحظة ما يجد نفسه منصرفًا عنه، أو يجد نفسه مصروفًا عنه؛ لأن الله لم يشأه، كثيرًا ما نريد أن نذهب مثلًا إلى المسجد لنستمع إلى محاضرة، وإذا بنا ننصرف بسبب أو بغير سبب، أحيانًا بسبب، بحيث نتذكر أن لنا شغلًا فنرجع، وأحيانًا نرجع بدون سبب لا ندري إلا وقد صرف الله تعالى همتنا عن ذلك فرجعنا. ولهذا قيل لأعرابي بم عرفت ربك؟ قال: بنقض العزائم وصرف الهمم. (بنقض العزائم) يعني: الإنسان يعزم على الشيء عزمًا مؤكدًا وإذا به ينتقض!! من نقض عزيمته، لا يشعر، أن هناك مرجحًا أوجب أن يعدل عن العزيمة الأولى، بل بمحض إرادة الله (صرف الهمم) يهم الإنسان بالشيء ويتجه إليه تمامًا وإذا به يجد نفسه منصرفًا عنه سواء كان الصارف مانعًا حسيًّا أو كان الصارف مجرد اختيار، اختار الإنسان أن ينصرف، كل هذا من الله عز وجل. فالحاصل أن الله يقول: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾، والاستقامة هي الاعتدال، ولا عدل أقوم من عدل الله - عَزَّ وَجَلَّ - في شريعته، في الشرائع السابقة كانت الشرائع تناسب حال الأمم زمانًا ومكانًا وحالًا، وبعد بعثة الرسول ﷺ، كانت شريعته تناسب الأمة التي بُعث النبي ﷺ إليها من أول بعثته إلى نهاية الدنيا. ولهذا كان من العبارات المعروفة «أن الدين الإسلامي صالح لكل زمان ومكان وحال». لو تمسك الناس به؛ لأصلح الله الخلق. انظر مثلًا الإنسان يصلي أولًا قائمًا، فإن عجز فقاعدًا، فإن عجز فعلى جنب، إذن الشريعة تتطور بحسب حال الشخص؛ لأن الدين صالح لكل زمان ومكان وحال.

يجب على المحدث أن يتطهر بالماء، فإن تعذر استعمال الماء لِعَجْزٍ أو عدْمٍ عدل إلى التيمم، فإن لم يوجد ولا تراب، أو كان عاجزًا عن استعمال التراب، فإنه يصلي بلا شيء، لا بطهارة ماء ولا بطهارة تيمم، كل هذا؛ لأن شريعة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ كلها مبنية على العدل، ليس فيها جَوْرٌ، وليس فيها ظلم، ليس فيها حرج، وليس فيها مشقة، ولهذا قال تعالى: ﴿أَن يَسْتَقِيمَ﴾، وضد الاستقامة انحرافان: انحراف إلى جانب الإفراط والغلو، وانحراف إلى جانب التفريط والتقصير، ولهذا كان الناس في دين الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ثلاثة أشكال: طرفان ووسط، طرف غالٍ مبالغ متنطع متعنت، وطرف آخر مفرّط مقصّر مهمل. الثالث: وسط بين الإفراط والتفريط، مستقيم على دين الله، هذا هو الذي يُحمَد. أما الأول الغالي، والثاني الجافي فكلاهما هالك.. بحسب ما عنده من الغلو، أو من التقصير، وقد نهى النبي ﷺ عن الغلو والإفراط والتعنت والتنطع، حتى إنه قال: «هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ»(١)؛ لأن التنطع فيه إشقاق على النفس وفيه خروج عن دين الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ كما أنه ذمّ المفرطين المهملين وقال في وصف المنافقين: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ [النساء: ١٤٢]. فدين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه، ولهذا قال هنا: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾، لا يميل يمينًا، ولا شمالًا، يكون سيره سير استقامة على دين الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ والاستقامة، كما تكون في معاملة الخالق ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وهي العبادة تكون أيضًا في معاملة المخلوق، فكن مع الناس بين طرفين، بين طرفي الشدة والغلظة والعبوس، وطرف التراخي والتهاون وبذل النفس وانحطاط الرتبة، كن حازمًا من وجه، ولين من وجه، ولهذا قال الفقهاء ـ رحمهم الله ـ في القاضي: «ينبغي أن يكون لينًا من غير ضعف، قويًّا من غير عنف». فلا يكون لينه يشطح به إلى الضعف، ولا قوته إلى العنف، يكون بين ذلك؛ لينًا من غير ضعف، قويًّا من غير عنف حتى تستقيم الأمور، فبعض الناس مثلًا يعامل الناس دائمًا بالعبوس والشدة وإشعار نفسه بأنه فوق الناس وأن الناس تحته، وهذا خطأ، ومن الناس من يحط قدر نفسه ويتواضع إلى حد التهاون وعدم المبالاة، بحيث يبقى بين الناس، ولا حرمة له، وهذا أيضًا خطأ، فالواجب أن يكون الإنسان بين، هذا وبين، هذا، كما هو هدي النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فإنه ﷺ يشتدّ في موضع الشدة، ويلين في موضع اللين. فيجمع الإنسان هنا بين الحزم والعزم، واللين والعطف والرحمة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، يعني: لا يمكن أن تشاءوا شيئًا إلا وقد شاءه الله من قبل، فمشيئة الإنسان ما كانت إلا بعد مشيئة الله عز جل، لو شاء الله لم يشأ، ولو شاء الله ألَّا يكون الشيء ما كان ولو شئته، حتى لو شئت والله تعالى لم يشأ، فإنه لن يكون، بل يقيض الله تعالى أسبابًا تحول بينك وبينه حتى لا يقع، وهذه مسألة يجب على الإنسان أن ينتبه لها، أن يعلم أن

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٧٠)، وأحمد في «مسنده» (١/ ٣٨٦)، وأبو داود (٤٦٠٨).

فعله بمشيئته مشيئة تامة، بلا إكراه، لكن هذه المشيئة مقترنة بمشيئة الله. يعلم أنه ما شاء الشيء إلا بعد أن شاء الله، وأن الله لو شاء ألا يكون لم يشأه الإنسان، أو شاءه الإنسان، ولكن يحول الله بينه وبينه بأسباب وموانع، ﴿رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، قال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، إشارة إلى عموم ربوبية الله، وأن ربوبية الله تعالى عامة، ولكن يجب أن نعلم أن العالمين هنا ليست كالعالمين في قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾، فالعالمين الأولى ﴿ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾، من أُرسل إليهم الرسول، أما هنا ﴿رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، فالمراد بالعالمين كل من سوى الله، فكل من سوى الله فهو عالم؛ لأنه ما ثمّ إلا رب ومربوب، فإذا قيل: رب العالمين تعيّن أن يكون المراد بالعالمين كل من سوى الله، كما قال الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ: «وكل ما سوى الله فهو عالم، وأنا واحد من ذلك العالم».

والحاصل: أن هذه السورة سورة عظيمة، فيها تذكرة وموعظة ينبغي للمؤمن أن يقرأها بتدبر وتمهل، وأن يتعظ بما فيها، كما أن الواجب عليه في جميع سور القرآن وآياته أن يكون كذلك حتى يكون ممن اتعظ بكتاب الله وانتفع به، نسأل الله تعالى أن يعظنا وإياكم بكتابه وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وآياته الكونية إنه على كل شيء قدير.



تفسير سورة الانفطار

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣
وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ
مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ
مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠
كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١:١٢].

❁ التفسير ❁

البسملة سبق الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾، يعني: انشقت، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١، ٢]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾ يعني: النجوم صغيرها وكبيرها تنتثر وتتفرق وتتساقط؛ لأن العالم انتهى، ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾، أي: فُجر بعضها على بعض وملئت الأرض ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾، أي: اخرج ما فيها من الأموات حتى قاموا لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فهذه الأمور الأربعة إذا حصلت ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾، ﴿نَفۡسٞ﴾، هنا نكرة لكنها بمعنى العموم إذ إن المعنى: علمت كل نفس ما قدمت وأخرت، وذلك بما يُعرض عليها من الكتاب، فكل إنسان ألزمه الله طائره في عنقه ويخرج له يوم القيامة كتابًا يلقاه منشورًا، ويقول له: اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا، وفي ذلك اليوم يقول المجرمون: مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة، ولا كبيرة إلا أحصاها، فيعلم الإنسان ما قدم وأخر، بينما هو في الدنيا

قد نسي، لكن يوم القيامة يعرض العمل فتعلم كل نفس ما قدمت وأخرت، والغرض من هذا تحذير العبد من أن يعمل مخالفة لله ورسوله؛ لأنه سوف يعلم بذلك ويحاسب عليه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، المراد بالإنسان هنا قيل: هو الكافر، وقيل: الإنسان من حيث هو إنسان؛ لأن الإنسان من حيث هو إنسان ظلوم جهول، ظلوم كفار ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. فيقول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، ويخاطب الإنسان من حيث هو إنسان بقطع النظر عن ديانته قال تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾، يعني أي: شيء غرك بالله حيث تكذبه في البعث، تعصيه في الأمر والنهي، بل ربما يوجد من ينكر الله - عَزَّ وَجَلَّ - فما الذي غرك؟! قال بعض العلماء: إن قوله تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾، إشارة إلى الجواب، وهو أن الذي غر الإنسان كرم الله - عَزَّ وَجَلَّ - وإمهاله وحلمه، لكنه لا يجوز أن يغتر الإنسان بذلك، فإن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، إذن ما غرك بربك الكريم؟

الجواب: كرمه وحلمه، هذا هو الذي غر الإنسان وصار يتمادى في المعصية في التكذيب، يتمادى في المخالفة ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ﴾، خلقك من العدم، وأوجدك من العدم، ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾، أي: جعلك مستوي الخلقة ليست يد أطول من يد، ولا رجل أطول من رجل، ولا أصبع أطول من أصبع، بحسب اليدين والرجلين، فتجد الطويل في يد هو الطويل في اليد الأخرى، والقصير هو القصير، وهلمَّ جرًّا، سوّى الله - عَزَّ وَجَلَّ - الإنسان من كل ناحية من ناحية الخلقة ﴿فَعَدَلَكَ﴾، وفي قراءة سبعية ﴿فعدَّلك﴾، أي: جعلك معتدل القامة، مستوي الخلقة لست كالبهائم التي لم تكن معدّلة، بل تسير على يديها ورجليها، أما الإنسان، فإنه خصّه الله بهذه الخصيصة، وقوله تعالى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ يعني: الله ركبك في أي: صورة شاء، من الناس من هو جميل، ومنهم من هو قبيح، ومنهم المتوسط، ومنهم الأبيض، ومنهم الأحمر، ومنهم الأسود، ومنهم ما بين ذلك، أي: صورة يركبك الله - عَزَّ وَجَلَّ - على حسب مشيئته، ولكنه - عَزَّ وَجَلَّ - شاء للإنسان أن تكون صورته أحسن الصور ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾، ﴿كَلَّا﴾، للاضراب يعني: مع، هذا الخلق والإمداد والإعداد تكذبون بالدين أي: بالجزاء، وتقولون إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين، فتكذبون بالدين أي: بالجزاء، وربما نقول: وتكذبون أيضًا بالدين نفسه، فلا تقرّون بالدين الذي جاءت به الرسل والآية شاملة لهذا وهذا؛ لأن القاعدة في علم التفسير وعلم شرح الحديث: «أنه إذا كان النص يحتمل معنيين لا ينافي أحدهما الآخر، فإنه يُحمل عليهما». قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾، تأكيد بمؤكدين «إن» و«اللام»، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ﴾، الإنسان عليه حافظ يحفظه ويكتب كل ما عمل، قال الله تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٨].

فعلى كل إنسان حفظة يكتبون كل ما قال وكل ما فعل، وهؤلاء الحفظة كرام ليسوا لئامًا، بل

عندهم من الكرم ما ينافي أن يظلموا أحدًا، فيكتبوا عليه ما لم يعمل، أو يهدروا ما عمل؛ لأنهم موصوفون بالكرم، وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾، إما بالمشاهدة إن كان فعلًا، وإما بالسماع إن كان قولًا، بل إن عمل القلب يطلعهم الله عليه فيكتبونه، كما قال النبي ﷺ: «من هم بالحسنة فلم يعملها كتبت حسنة، ومن همّ بالسيئة ولم يعملها كتبت حسنة كاملة»[(١)]؛ لأنه تركها لله - عَزَّ وَجَلَّ - والأول يثاب على مجرد الهم بالحسنة.



قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار:١٣:١٩].

التفسير

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾، هذا بيان للنهاية والجزاء، قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ جمع بر وهم كثيروا فعل الخير، المتباعدون عن الشر، قوله تعالى: ﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾ أي: نعيم في القلب، ونعيم في البدن ولهذا لا تجد أحدًا أطيب قلبًا، ولا أنعم بالًا من الأبرار أهل البر، حتى قال بعض السلف: «لو يعلم الملوك، وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف»، وهذا النعيم الحاصل يكون في الدنيا وفي الآخرة، أما في الآخرة فالجنة، وأما في الدنيا فنعيم القلب وطمأنينته ورضاه بقضاء الله وقدره، فإن، هذا هو النعيم الحقيقي، ليس النعيم في الدنيا أن تترف بدنيًّا، النعيم نعيم القلب.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ﴾ الفجار هم الكفار ضد الأبرار، وقوله تعالى: ﴿لَفِي جَحِيمٍ﴾ أي: في نار حامية، وقوله تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يعني: يحترقون بها، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾، أي: يوم الجزاء وذلك يوم القيامة وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ أي: لن يغيبوا عنها فيخرجوا منها، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧]؛ لأنهم مخلدون بها أبدًا - والعياذ بالله - وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾، هذا الاستفهام للتفخيم والتعظيم يعني أي: شيء أعلمك بيوم الدين؟ والمعنى أعلم، هذا اليوم، وأقدره قدره.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١).

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾، في يوم القيامة لا أحد يملك؛ لأحد شيئًا لا بجلب خير، ولا بدفع ضرر إلا بإذن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾، في الدنيا هناك أناس يأمرون من الأمراء، والوزراء، والرؤساء، والآباء، والأمهات، لكن في الآخرة الأمر لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ولا تملك نفس لنفس شيئًا إلا بإذن الله، ولهذا كان الناس في ذلك اليوم يلحقهم من الغم والكرب ما لا يطيقون، ثم يطلبون الشفاعة من آدم، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليهم الصلاة والسلام حتى تنتهي إلى نبينا ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ فيشفع بإذن الله فيريح الله العالم من الموقف، ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾.

فإن قال قائل: أليس الأمر لله في ذلك اليوم وفي غيره؟

قلنا: بلى الأمر لله تعالى في يوم الدين وفيما قبله، لكن ظهور أمره في ذلك اليوم أكثر بكثير من ظهور أمره في الدنيا؛ لأن في الدنيا يخالف الإنسان أوامر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ويطيع أمر سيده، فلا يكون الأمر لله بالنسبة لهذا، لكن في الآخرة ليس فيه إلا أمر لله عز وجل. وهذا كقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]. والملك لله في الدنيا وفي الآخرة، لكن في ذلك اليوم يظهر ملكوت الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وأمره، ويتبين أنه ليس هناك آمر في ذلك اليوم إلا الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد.



تفسير سورة المطففين

قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين:١:٦].

التَّفْسِيرُ

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ﴾، كلمة ويل تكررت في القرآن كثيرًا، وهي على الأصح كلمة وعيد يتوعد الله ـ سبحانه وتعالى ـ بها من خالف أمره، أو ارتكب نهيه على الوجه المفيد في الجملة التي بعدها فهنا يقول ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، فمن هؤلاء المطففون؟ الجواب: هؤلاء المطففون فسرتهم الآيات التي بعدها فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ يعني: إذا اشتروا منهم ما يكال استوفوا منهم الحق كاملًا بدون نقص، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ يعني: إذا كالوا لهم أي: هم الذين باعوا الطعام كيلًا، فإنهم إذا كالوا للناس أو باعوا عليهم شيئًا وزنًا إذا وزنوا نقصوا، وقوله تعالى: ﴿يُخْسِرُونَ﴾، فهؤلاء يستوفون حقهم كاملًا، وينقصون حق غيرهم، فجمعوا بين الأمرين، بين الشح والبخل، الشح: في طلب حقهم كاملًا بدون مراعاة أو مسامحة، والبخل: بمنع ما يجب عليهم من إتمام الكيل والوزن، وهذا المثال الذي ذكره الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في الكيل والوزن هو مثال، فيقاس عليه كل ما أشبهه، كل من طلب حقه كاملًا ممن هو عليه ومنع الحق الذي عليه، فإنه داخل في الآية الكريمة، فمثلًا الزوج يريد من زوجته أن تعطيه حقه كاملًا،

ولا يتهاون في شيء من حقه، لكنه عند أداء حقها يتهاون، ولا يعطيها الذي لها، وما أكثر ما تشكي النساء من، هذا الطراز من الأزواج - والعياذ بالله - حيث إن كثيرًا من النساء يريد منها الزوج أن تقوم بحقه كاملًا، لكنه هو لا يعطيها حقها كاملًا، ربما ينقص أكثر حقها من النفقة والعشرة بالمعروف وغير ذلك.

إن ظلم الناس أشد من ظلم الإنسان نفسه في حق الله؛ لأن ظلم الإنسان نفسه في حق الله تحت المشيئة إذا كان دون الشرك، إن شاء الله غفر له، وإن شاء عاقبه عليه، لكن حق الآدميين ليس داخلًا تحت المشيئة لابد أن يوفى، ولهذا قال النبي ﷺ: « أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ . فَقَالَ: « إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِى يَأْتِى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِى قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِى النَّارِ»(١)، فنصيحتي لهؤلاء الذين يفرطون في حق أزواجهم أن يتقوا الله - عَزَّ وَجَلَّ -، فإن النبي ﷺ أوصى بذلك في أكبر مجمع شهده العالم الإسلامي في حياة الرسول ﷺ في يوم عرفة في حجة الوداع، قال ﷺ: «اتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللهِ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ»(٢)؛ فأمرنا أن نتقي الله تعالى في النساء وقال: «اتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّهُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ»(٣) أي: بمنزلة الأسرى؛ لأن الأسير إن شاء فكه الذي أسره، وإن شاء أبقاه، والمرأة عند زوجها كذلك إن شاء طلقها، وإن شاء أبقاها، فهي بمنزلة الأسير عنده فليتق الله فيها، كذلك أيضًا نجد بعض الناس يريد من أولاده أن يقوموا بحقه على التمام لكنه مفرط في حقهم، فيريد من أولاده أن يبروه ويقوموا بحقه، أن يبروه في المال، وفي البدن، وفي كل شيء يكون به البر، لكنه هو مضيع لهؤلاء الأولاد، غير قائم بما يجب عليه نحوهم، نقول، هذا مطفف، كما نقول في المسألة الأولى في مسألة الزوج مع زوجته إنه إذا أراد منها أن تقوم بحقه كاملًا، وهو يبخس حقها نقول إنه «مطفف»، هذا الأب الذي أراد من أولاده أن يبروه تمام البر، وهو مقصر في حقهم نقول إنك «مطفف» ونقول له تذكر قول الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾، يعني: ألا يتيقن هؤلاء ويعلموا علم اليقين؛ لأن الظن هنا بمعنى اليقين، والظن بمعنى اليقين يأتي كثيرًا في القرآن مثل قوله تعالى:

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٨١)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠٣)، والترمذي (٢٤١٨).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٢١٨)، وأبو داود (١٩٠٥)، وابن ماجه (٣٠٧٤).

(٣) حسن: أخرجه الترمذي (١١٦٣)، وابن ماجه (١٨٥١)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٧٨٨٠).

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦]. فقال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾، وهم يتيقنون أنهم ملاقوا الله، لكن الظن يستعمل بمعنى اليقين كثيرًا في اللغة العربية، وهنا يقول عز وجل: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾، ألا يتيقن هؤلاء أنهم مبعوثون أي: مخرجون من قبورهم لله رب العالمين، وقوله تعالى: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، هذا اليوم عظيم، ولا شك أنه عظيم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]. عظيم في طوله، في أهواله، فيما يحدث فيه، في كل معنى تحمله كلمة عظيم، لكن، هذا العظيم هو على قوم عسير، وعلى قوم يسير، قال تعالى: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ١٠]. وقال تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨]. لكنه بالنسبة للمؤمنين ـ جعلنا الله منهم ـ يسير كأنما يؤدي به صلاة فريضة من سهولته عليه ويسره عليه، لاسيما إذا كان ممن استحق هذه الوقاية العظيمة، وكان من الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، فهذا اليوم عظيم لكنه بالنسبة للناس يكون يسيرًا ويكون عسيرًا.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني: هذا اليوم العظيم هو يوم القيامة ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾،وهو الله ـ تبارك وتعالى ـ يقومون من قبورهم حفاة ليس لهم نعال، ولا خفاف، عراة ليس عليهم ثياب لا قُمص، ولا سراويل، ولا أزر، ولا أردية، غرلًا أي: غير مختونين بمعنى أن القلفة التي تقطع في الختان تعود يوم القيامة مع صاحبها، كما قال الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. ويعيده الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لبيان كمال قدرته تعالى، وأنه يعيد الخلق، كما بدأهم، والقلفة إنما قطعت في الدنيا من أجل النزاهة عن الأقذار؛ لأنها إن بقيت، فإنه ينحبس فيها شيء من البول وتكون عرضة للتلويث، لكن هذا في الآخرة لا حاجة إليه؛ لأن الآخرة ليست دار تكليف، بل هي دار جزاء إلا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد يكلف فيها امتحانًا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ. خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم: ٤٢، ٤٣] ناس يقومون على، هذا الوصف حفاة، عراة، غرلًا، وفي بعض الأحاديث بُهمًا قال العلماء: البهم يعني: الذين لا مال معهم، ففي يوم القيامة لا مال يفدي به الإنسان نفسه من العذاب في يوم القيامة، ليس هناك ابن يجزي عن أبيه شيئًا، ولا أب يجزي عن ابنه شيئًا، ولا صاحبة، ولا قبيلة كلٌّ يقول نفسي نفسي كما قال الله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧]. نسأل الله تعالى أن يعيننا على أهواله وأن ييسره علينا. قال الله تعالى: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهو الله جل وعلا، وفي، هذا اليوم تتلاشى جميع الأملاك إلا ملك رب العالمين جل وعلا، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٦ ـ ١٧].

قال الله تعالى:

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ
مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم
مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟
ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: ٧-١٧].

التَّفْسِيرُ

قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾، ﴿كَلَّآ﴾، فإذا وردت في القرآن لها معانٍ حسب السياق، قد تكون حرف ردع وزجر، وقد تكون بمعنى حقًّا، وقد يكون لها معانٍ أخرى يعينها السياق؛ لأن الكلمات في اللغة العربية ليس لها معنى ذاتي لا تتجاوزه، بل كثير من الكلمات العربية لها معانٍ تختلف بحسب سياق الكلام، في هذه الآية يقول الله عز وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾، فتحتمل أن تكون بمعنى حقًّا إن كتاب الفجار لفي سجين، أو تكون بمعنى: الردع عن التكذيب بيوم الدين، وعلى كل حال فبين الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن كتاب الفجار - وهم الكفار - في سجين، والسجين قال العلماء: إنه مأخوذ من السجن، وهو الضيق، أي: في مكان ضيق، وهذا المكان الضيق هو نار جهنم - والعياذ بالله - كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١٣، ١٤]. وجاء في حديث البراء بن عازب الطويل المشهور في قصة المحتضر وما يكون بعد الموت أن الله - سبحانه وتعالى - يقول: «اكتبوا كتاب عبدي في السجين يعني: - الكافر - في الأرض السابعة السفلى»(١) فسجين هو أسفل ما يكون من الأرض الذي هو مقر النار نعوذ بالله منها فهذا الكتاب في سجين ثم عظم الله - عَزَّ وَجَلَّ - هذا السجين بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ فالاستفهام هنا للتعظيم أي: ما الذي أعلمك بسجين؟ وهل بحثت عنه؟ وهل سألت عنه حتى يبين لك، والتعظيم قد يكون لعظمة الشيء رفعة، وقد يكون لعظمة

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ٢٨٧)، وأبو داود (٤٧٥٣)، وصححه الشيخ الألباني «صحيح الجامع» (١٦٧٦).

الشيء نزولًا، وهذا التعظيم في سجين ليس لرفعته وعلوه، ولكنه لسفوله ونزوله، ثم قال تعالى: ﴿كتاب مرقوم﴾، كتاب هذه لا تعود على سجين، وإنما تعود على كتاب في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾، فما هذا الكتاب فقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾، يعني: مكتوب لا يزاد فيه، ولا ينقص، ولا يبدل، ولا يغيّر، بل، هذا مآلهم ومقرهم ـ والعياذ بالله ـ أبد الآبدين.

قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، ويل سبق الكلام عليها في أول هذه السورة قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ الكلام من أول السورة إلى آخرها كله في يوم الدين والجزاء، هؤلاء الذين يكذبون بيوم الدين توعدهم الله بالويل؛ لأن هؤلاء المكذبين بيوم الدين لا يمكن أن يستقيموا على شريعة الله. لا يستقيم على شريعة الله إلا من آمن بيوم الدين؛ لأن من لم يؤمن به، وآمن بالحياة فقط، فهو لا يهتم بما ورائها، ولا يعمل لذلك، وإنما يبقى كالأنعام يتمتعون ويأكلون، كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم. والله يقرن الإيمان به بالإيمان باليوم الآخر دائمًا؛ لأن الإيمان بالله ابتداء والإيمان باليوم الآخر انتهاء. فتؤمن بالله ثم تعمل لليوم الآخر الذي هو المقر، فهؤلاء ـ والعياذ بالله ـ كذبوا بيوم الدين، ومن كذب به لا يمكن أن يعمل له أبدًا؛ لأن العمل مبني على عقيدة، فإذا لم يكن هناك عقيدة فكيف يعمل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أي: ما يكذب بيوم الدين وينكره ﴿إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾: ﴿مُعْتَدٍ﴾، في أفعاله ﴿أثيم﴾، في أقواله، وقيل: ﴿مُعْتَدٍ﴾، في أفعاله ﴿أَثِيمٍ﴾، في كسبه أي: أن مآله إلى الإثم، والمعنيان متقاربان فلا يمكن أن يكذب بيوم الدين إلا رجل معتد أثيم، آثم كاسب للآثام التي تؤدي به إلى نار جهنم نعوذ بالله.

قال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾، يعني: إذا تلاها عليه أحد، وهو يدل على أن، هذا الرجل لا يفكر أن يتلو آيات الله، ولكنها تتلى عليه فإذا تليت عليه ﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: هذه أساطير الأولين وأساطير: جمع أسطورة وهي الكلام اللغو الذي يذكر للتسلي، ولا حقيقة له، ولا أصل له، فيقول: هذا القرآن أساطير الأولين، ولم ينتفع بالقرآن، وهو أبلغ الكلام وأشده تأثيرًا على القلب حتى قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]؛ لأنه يكذب بيوم الدين، وما يكذب به إلا كل معتدٍ أثيم، فلم يكن مؤمنًا فلم يصل نور آيات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إلى قلبه، بل يراها مثل أساطير الأولين التي يتكلم بها العجائز وليس لها أي حقيقة وليس فيها أي جد.

قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ﴿كَلَّا بَلْ﴾ أي: ليست أساطير الأولين، ولكن هؤلاء ﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾، أي: اجتمع عليها وحجبها عن الحق ﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، أي: من الأعمال السيئات؛ لأن الأعمال السيئات تحول بين المرء وبين الهدى، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧]. فمن اهتدى بهدي الله واتبع ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه، وصدق بما أخبر الله به، وفعل مثل ذلك فيما جاء عن رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ فلا شك أن قلبه

يستنير وأنه يرى الحق حقًّا، ويرى الباطل باطلًا، ويعظم آيات الله - عَزَّ وَجَلَّ - ويرى أنها فوق كل كلام، وأن هدي محمد ﷺ فوق كل هدي، هذا من أنار الله قلبه بالإيمان، أما من تلطخ قلبه بأرجاس المعاصي وأنجاسها، فإنه لا يرى هذه الآيات حقًّا، بل لا يراها إلا أساطير الأولين، كما في هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، وفي ﴿بَلْ﴾، سكتة لطيفة عند بعض القراء وعند آخرين لا سكتة فيجوز على، هذا أن تقول: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ﴾، ويجوز أن تقول: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، وهذه لا تغير المعنى سواء سكتّ أم لم تسكت فالمعنى لا يتغير. قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾، أي: حقًّا إنهم عن ربهم لمحجوبون، وذلك في يوم القيامة، فإنهم يحجبون عن رؤية الله - عَزَّ وَجَلَّ - كما حُجبوا عن رؤية شريعته وآياته فرأوا أنها أساطير الأولين. وبهذه الآية استدل أهل السنة والجماعة على ثبوت رؤية الله - عَزَّ وَجَلَّ - ووجه الدلالة ظاهر، فإنه ما حجب هؤلاء في حال السخط إلا وقد مكن للأبرار من رؤيته تعالى في حال الرضا، فإذا كان هؤلاء محجوبون، فإن الأبرار غير محجوبين، ولو كان الحجب لكل منهم لم يكن لتخصيصه بالفجار فائدة إطلاقًا.

ورؤية الله - عَزَّ وَجَلَّ - ثابتة بالكتاب، ومتواتر السنة، وإجماع الصحابة والأئمة، لا إشكال في، هذا أنه تعالى يُرى حقًّا بالعين، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢،٢٣].وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. وقد فسر النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - الزيادة بأنها النظر إلى وجه الله تعالى، وكما في قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]. والمزيد هنا هو بمعنى الزيادة في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، وكما قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، فإن نفي الإدراك يدل على ثبوت أصل الرؤية، ولهذا كانت هذه الآية مما استدل به السلف على رؤية الله، واستدل به الخلف على عدم رؤية الله، ولا شك أن الآيتة دليل عليهم؛ لأن الله لم ينف بها الرؤية، وإنما نفى الإدراك، ونفي الإدارك يدل على ثبوت أصل الرؤية.

فالحاصل: أن القرآن دل على ثبوت رؤية الله - عَزَّ وَجَلَّ - حقًّا بالعين، وكذلك جاءت السنة الصحيحة بذلك حيث قال النبي ﷺ «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا، كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ»(١)، وقال ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ»(٢)، وقد آمن بذلك الصحابة - رضي الله عنهم والتابعون لهم بإحسان من سلف هذه الأمة وأئمتها، وأنكر ذلك من حُجبت عقولهم وقلوبهم عن الحق فقالوا: إن الله لا يمكن أن يُرى

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٥٨١)، ومسلم (١٨٢).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٥٤) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٦٣٣).

بالعين، وإنما المراد بالرؤية في الآيات هي رؤية القلب أي: اليقين، ولا شك أن هذا قول باطل مخالف للقرآن والسنة وإجماع السلف، ثم إن اليقين ثابت لغيرهم أيضًا حتى الفجار يوم القيامة سوف يرون ما وُعدوا به حقًا ويقينًا، وليس هذا موضع الإطالة في إثبات رؤية الله - عَزَّ وَجَلَّ - والمناقشة في أدلة الفريقين؛ لأن الأمر ولله الحمد من الوضوح أوضح من أن يطال الكلام فيه،قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ أي: هؤلاء الفجار، وقوله تعالى: ﴿لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ أي: يصلونها يصلون حرارتها أو عذابها نسأل الله العافية، ثم يقال تقريعًا لهم وتوبيخًا في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾، فيجتمع عليهم العذاب البدني والألم البدني بصلي النار وكذلك العذاب القلبي بالتوبيخ والتنديم حيث قال تعالى: ﴿هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾، ولهذا يقولون: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنعام:٢٧] قال الله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].



ولما ذكر الله - تعالى - أحوال الفجار ومالهم من العذاب، ذكر أحوال الأبرار وما لهم من النعيم قال الله تعالى:

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ١٨-٢٨].



التفسير

قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾، هذه الآية يذكر الله - عَزَّ وَجَلَّ - خبرًا مؤكدا «بإن»؛ لأن ﴿إِنَّ﴾، في اللغة العربية من أدوات التوكيد، فإنك إذا قلت: الرجل قائم، هذا خبر غير مؤكد، فإذا قلت: إن الرجل قائم. صار خبرًا مؤكدًا فيقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾، وهذا مقابل قوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ فكتاب الفجار في سجين في أسفل الأرض، وكتاب الأبرار في عليين في أعلى الجنة، أي: أنهم في، هذا المكان

العالي قد كُتب ذلك عند الله - عَزَّ وَجَلَّ - قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ أي: ما الذي أعلمك ما عليون؟ وهذا الاستفهام يراد به التفخيم والتعظيم. يعني أي: شيء أدراك به، فإنه عظيم قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ هذا بيان لقوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ أي: أن كتاب الأبرار كتاب مرقوم مكتوب لا يتغير، ولا يتبدل، وقوله تعالى: ﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ يشهده أي: يحضره، أو يشهد به المقربون، و﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ عند الله هم الذين تقربوا إلى الله - سبحانه وتعالى - بطاعته. وكلما كان الإنسان أكثر طاعة لله كان أقرب إلى الله. وكلما كان الإنسان أشد تواضعًا لله كان أعز عند الله، وكان أرفع عند الله، قال الله تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة: ١١].

فالمقربون هم الذين تقربوا إلى الله تعالى بصالح الأعمال، فقربهم الله من عنده ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ﴾، الأبرار: جمع بر، والبر كثير الخير، كثير الطاعة، كثير الإحسان في عبادة الله والإحسان إلى عباد الله، فهؤلاء الأبرار الذين منّ الله عليهم بفعل الخيرات، وترك المنكرات أخبر عنهم بقوله تعالى: ﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾ والنعيم هنا يشمل نعيم البدن ونعيم القلب، أما نعيم البدن فلا تسأل عنه، فإن الله - سبحانه وتعالى - قال في الجنة: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]. وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وأما نعيم القلب فلا تسأل عنه أيضًا، فإنهم يقال لهم وقد شاهدوا الموت قد ذبح يقال لهم: يا أهل الجنة خلود، ولا موت ويقال لهم: ادخلوها بسلام، ويقال لهم: إن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا، وأن تصحوا فلا تمرضوا أبدًا، وأن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وكل هذا مما يدخل السرور على القلب فيحصل لهم بذلك نعيم القلب ونعيم البدن، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب يقولون لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤] جعلنا الله منهم.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ الأرائك: جمع أريكة وهي السرير المزخرف المزيَّن الذي وَضع عليه مثل الظل، وهو من أفخر أنواع الأَسِرَّةِ فهم على الأرائك على هذه الأَسِرَّةِ الناعمة الحسنة البهية، وقوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ﴾، يعني: ينظرون ما أنعم الله به عليهم من النعيم الذي لا تدركه الأنفس الآن كما بينه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ [السجدة: ١٧]. وقال بعض العلماء: إن هذا النظر يشمل حتى النظر إلى وجه الله، وجعلوا هذه الآية من الأدلة على ثبوت رؤية الله - عَزَّ وَجَلَّ - في الجنة، قال تعالى: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾، أي: تعرف أيها الناظر إليهم، قوله تعالى: ﴿فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾، أي: حسن النعيم وبهاؤه، أي: التنعم، وأنتم تشاهدون الآن في الدنيا أن المنعمين المترفين وجوههم غير وجوه الكادحين العاملين. تجدها نضرة، تجدها حسنة، تجدها منعمة؛ فأهل الجنة تعرف في وجوههم نضرة النعيم أي: التنعم

والسرور؛ لأنهم أسرَّ ما يكون، وأنعم ما يكون، ثم قال الله - تعالى - في بيان ما لهم من النعيم: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾، الضمير في قوله تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ﴾، يعني: الأبرار، يسقيهم الله - عَزَّ وَجَلَّ - بأيدي الخدم الذين وصفهم الله بقوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٧:١٩].

وقوله تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾ أي: من شراب خالص لا شوب فيه، ولا ضرر فيه على العقل، ولا ألم فيه في الرأس، بخلاف شراب الدنيا، فإنه يغتال العقل ويصدع الرأس، أما هذا فإنه رحيق خالص ليس فيه أي: أذى، وقوله تعالى: ﴿مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾، أي: بقيته وآخره مسك أي: طيّب الريح. بخلاف خمر الدنيا، فإنه خبيث الرائحة. فهؤلاء القوم الأبرار لما حبسوا أنفسهم عن الملاذ التي حرمها الله عليهم في الدنيا أعطوها يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾، أي: وفي، هذا الثواب والجزاء ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾، أي: فليتسابق المتسابقون سباقًا يصل بهم إلى حد النفس، وهو كناية عن السرعة في المسابقة. يقال: نافسته أي: سابقته سباقًا، بلغ بي النفس، والمنافسة في الخير هي المسابقة إلى طاعة الله - عَزَّ وَجَلَّ - وإلى ما يرضي الله - سبحانه وتعالى -، والبعد عما يسخط الله.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: مزاج، هذا الشراب الذي يُسقاه هؤلاء الأبرار ﴿مِن تَسْنِيمٍ﴾، أي: من عين رفيعة معنى وحسًّا، وذلك؛ لأن أنهار الجنة تفجّر من الفردوس، والفردوس هو أعلى الجنة، وأوسط الجنة، وفوقه عرش الرب - عَزَّ وَجَلَّ - كما ثبت ذلك عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -. فهذا الشراب يمزج بهذا الطيب الذي يأتي من التسنيم أي: من المكان المسنَّم الرفيع العالي، وهو جنة عدن، وقوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾، أي: أن هذه العين والمياه النابعة، والأنهار الجارية يشرب بها المقربون.

وهنا سيقول قائل: لماذا قال تعالى: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾؟ هل هي إناء يُحمل حتى يقال شرب بالإناء؟

فالجواب: لا؛ لأن العين والنهر لا يُحمل. إذن لماذا لم يقل يشرب منها المقربون؟ والجواب عن، هذا الإشكال من أحد وجهين: فمن العلماء من قال: (الباء) بمعنى (من) فمعنى ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾، أي: يشرب منها. ومنهم من قال: إن يشرب بمعنى يروى ضمّنت معنى يروى فمعنى ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾، أي: يروى بها المقربون. وهذا المعنى أو هذا الوجه أحسن من الوجه الذي قبله؛ لأن هذا الوجه يتضمن شيئين يرجحانه وهما: أولًا: إبقاء حرف الجر على معناه الأصلي. والثاني: أن الفعل ﴿يَشْرَبُ﴾، ضُمِّنَ معنى أعلى من الشرب، وهو الري، فكم من إنسان يشرب، ولا يروى، لكن إذا روي فقد شرب، وعلى، هذا فالوجه الثاني أحسن، وهو أن يضمّن الفعل ﴿يَشْرَبُ﴾، بمعنى: يروى.



قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٦].

التفسير

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ أي: قاموا بالجرم، وهو المعصية والمخالفة ﴿كَانُواْ﴾، أي: في الدنيا ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ استهزاءً، وسخرية، واستصغارًا لهم، ﴿وَإِذَا مَرُّواْ﴾ الفاعل يصح أن يكون إذا مر المؤمنون بالمجرمين، أو إذا مر المجرمون بالمؤمنين، والقاعدة التي ينبغي أن تفهم في التفسير: ان الاية إذا احتملت معنيين لا ينافي أحدهما الآخر وجب حملها على المعنيين؛ لأن ذلك أعم، فإذا جعلناها للأمرين صار المعنى: أن المجرمين إذا مروا بالمؤمنين وهم جلوس تغامزوا، وإذا مر المؤمنون بالمجرمين وهم جلوس تغامزوا أيضًا فتكون شاملة للحالين: حال مرور المجرمين بالمؤمنين، وحال مرور المؤمنين بالمجرمين. قوله تعالى: ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ يعني: يغمز بعضهم بعضًا، انظر إلى هؤلاء سخرة واستهزاء واستصغارًا. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾، فإذا انقلب المجرمون إلى أهلهم ﴿ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾، يعني: متفكهين بما نالوه من السخرية بهؤلاء المؤمنين، فهم يستهزؤن ويسخرون ويتفكهون بهذا، ظنًّا منهم أنهم نجحوا وأنهم غلبوا المؤمنين، ولكن الأمر بالعكس.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ ﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ﴾ أي: رأى المجرمون المؤمنين ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ ضالون عن الصواب، متأخرون، متزمتون متشددون إلى غير ذلك من الألقاب، ولقد كان لهؤلاء السلف خلف في زماننا اليوم وما قبله وما بعده، من الناس من يقول عن أهل الخير: إنهم رجعيون، إنهم متخلفون ويقولون عن المستقيم: إنه متشدد متزمت، وفوق، هذا كله من قالوا للرسل عليهم الصلاة والسلام إنهم سحرة أو مجانين، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]. فورثة الرسل من أهل العلم والدين سينالهم من أعداء الرسل ما نال الرسل من ألقاب السوء والسخرية وما أشبه

ذلك، ومن، هذا تلقيب أهل البدع أهل التعطيل للسلف أهل الإثبات بأنهم حشوية مجسمة مشبهة وما أشبه ذلك من ألقاب السوء التي ينفرون بها الناس عن الطريق السوي، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾ أي: أن هؤلاء المجرمين ما بعثوا حافظين لهؤلاء يرقبونهم ويحكمون عليهم، بل الحكم لله - عَزَّ وَجَلَّ - ثم قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ اليوم يعني: يوم القيامة، الذين آمنوا يضحكون من الكفار فـ ﴿فَٱلَّذِينَ﴾، مبتدأ و﴿يَضْحَكُونَ﴾، خبره و﴿مِنَ ٱلْكُفَّارِ﴾، متعلق بيضحكون، والمعنى: فالذين آمنوا يضحكون اليوم من الكفار، وهذا والله هو الضحك الذي لا بكاء بعده، أما ضحك المجرمين بالمؤمنين في الدنيا فسيعقبه البكاء والحزن والويل والثبور، وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾، أي: أن المؤمنين على الأرائك في الجنة، والأرائك هي السرر الفخمة الحسنة النضيرة ﴿ينظرون﴾، أي: ينظرون ما أعد الله لهم من الثواب، وينظرون أولئك الذين يسخرون بهم في الدنيا، ينظرون إليهم وهم في عذاب الله، كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ [الصافات: ٥١ - ٥٤]. يقول؛ لأصحابه في الجنة: يعرض عليهم أن يطلعوا إلى قرينه الذي كان في الدنيا ينكر البعث ويكذب به وقوله تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥]، أي: في قعره وأصله قال له: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات:٥٦،٥٧] ؛ فأنت ترى أن المؤمنين يرون الكفار وهم يعذبون في قعر النار والمؤمنون في الجنة.

ثم قال تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾، ﴿ثُوِّبَ﴾، أي: جوزي، و﴿هَلْ﴾، هنا للتقرير أي: أن الله تعالى قد ثوب الكفار وجازاهم جزاء فعلهم في الدنيا، وهو - سبحانه وتعالى - حكم عدل. فحكمه دائر بين العدل والفضل، بالنسبة للذين آمنوا حكمه وجزاؤه فضل، وبالنسبة للكافرين حكمه وجزاؤه عدل - فالحمد لله رب العالمين - وبهذا تم الكلام الذي يسره الله - عَزَّ وَجَلَّ - على سورة المطففين نسأل الله تعالى أن ينفعنا وإياكم به، وأن يجعلنا من المتعظين الواعظين. إنه جواد كريم.



تفسير سورة الانشقاق

قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ
(٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَٰٓأَيُّهَا
ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ
بِيَمِينِهِۦ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ
مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا
(١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن
يَحُورَ (١٤) بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق:١:١٥].

التفسير

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾، انشقت: انفتحت وانفرجت كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ [المرسلات: ٩]. وكقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٧:٣٩]. إذن فانشقاقها يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ أذنت: بمعنى استمعت وأطاعت أمر ربها ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن تنشق فانشقت بينما هي كانت وكما وصفها الله تعالى في قوله: ﴿سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢]. قوية، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ [الذاريات: ٤٧]. أي: بقوة فهذه السماء القوية العظيمة تنشق يوم القيامة تتشقق تتفرج بإذن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿وَحُقَّتْ﴾، أي: حق لها أن تأذن، أي:

تسمع وتطيع؛ لأن الذي أمرها الله ربها خالقها - عَزَّ وَجَلَّ - فتسمع وتطيع، كما أنها سمعت وأطاعت في ابتداء خلقها، ففي ابتداء خلقها قال الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]. فتأمل أيها الآدمي البشر الضعيف كيف كانت هذه المخلوقات العظيمة تسمع وتطيع لله - عَزَّ وَجَلَّ - هذه الطاعة العظيمة في ابتداء الخلق وفي انتهاء الخلق. في ابتداء الخلق قال تعالى: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾، في انتهاء الخلق ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ حُق لها أن تأذن تسمع وتطيع. ثم أعاد الله تعالى فقال: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ تأكيدًا لاستماعها لربها وطاعتها لربها، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾، هذه الأرض التي نحن عليها الآن هي غير ممدودة، أولًا: أنها كرة مدورة، وإن كانت جوانبها الشمالية والجنوبية منفتحة قليلًا - أي: ممتدة قليلًا - فهي مدورة الآن.

ثانيًا: ثم هي أيضًا معرجة فيها المرتفع جدًا، وفيها المنخفض، فيها الأودية، فيها السهول، فيها الرمال، فهي غير مستوية لكن يوم القيامة، ووقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾، أي: تمد مدًّا واحدًا كمد الأديم يعني: كمد الجلد، كأنما تفرش جلدًا أو سماطًا، تُمد حتى إن الذين عليها - وهم الخلائق - يُسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، لكن الآن لا ينفذهم البصر، لو امتد الناس على الأرض لوجدت البعيدين منخفضين لا تراهم لكن يوم القيامة إذا مُدت صار أقصاهم مثل أدناهم، كما جاء في الحديث: «يَجْمَعُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ الأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُم البَصَرُ»(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ أي: جثث بني آدم تلقيها يوم القيامة، تلقي هذه الجثث فيخرجون من قبورهم لله - عَزَّ وَجَلَّ - كما بدأهم أول خلق، أي: كما خرجوا من بطون أمهاتهم يخرجون من بطون الأرض، وأنت خرجت من بطن أمك حافيًا، عاريًا، أغرلًا إلا أن بعض الناس قد يخلق مختونًا لكن عامة الناس يخرجون من بطون أمهاتهم غرلًا كذلك تخرج من بطن الأرض يوم القيامة حافيًا ليس عليك نعال، عاريًا ليس عليك كساء، أغرلًا لست مختونًا، ولما حدّث النبي ﷺ بذلك قالت عائشة: يا رسول الله: الرجال والنساء جميعًا، ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «يَا عَائِشَةُ الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ»(٢)، الأمر شديد، كل إنسان لاهٍ عن نفسه لقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧]. والإنسان إذا تصور الناس في ذلك الوقت مجرد تصور، فإنه يرتعب ويخاف، وإذا كان عاقلًا مؤمنًا عمل لهذا اليوم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾، أذنت يعني: استمعت وأطاعت لربها وحقت فبعد أن كانت مدورة فيها المرتفع والنازل صارت كأنها جلد ممتدة امتدادًا واحدًا.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩).

ثم قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا﴾، الكادح: هو الساعي بجد ونوع مشقة وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، يعني: أنك تكدح كدحًا يوصلك إلى ربك، كدحًا يوصل إلى الله، يعني: أن منتهى كدحك مهما كنت ينتهي إلى الله؛ لأننا سنموت وإذا متنا رجعنا إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - فمهما عملت، فإن المنتهى هو الله - عَزَّ وَجَلَّ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]. ولهذا قال تعالى: ﴿كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا﴾، حتى العاصي كادح كَدْحًا غايته الله - عَزَّ وَجَلَّ - قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦]. لكن الفرق بين المطيع والعاصي: أن المطيع يعمل عملًا يرضاه الله، يصل به إلى مرضاة الله يوم القيامة، والعاصي يعمل عملًا يغضب الله، لكن مع ذلك ينتهي إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - إذن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، يعم كل إنسان مؤمن وكافر، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾، الفاء يقول النحويون: إنها تدل على الترتيب والتعقيب، يعني؛ فأنت ملاقيه عن قرب، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖ﴾ [الأنعام: ١٣٤]. وكل آت قريب، لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾ [الشورى: ١٧]. وإذا شئت أن يتبين لك أن ملاقاة الرب - عَزَّ وَجَلَّ - قريبة فانظر ما مضى من عمرك الآن، لو مضى لك مئة سنة كأنما هذه السنوات ساعة واحدة. كل الذي مضى من أعمارنا كأنه ساعة واحدة. إذن هو قريب، ثم إذا مات الإنسان، فالبرزخ الذي بين الحياة الدنيا والآخرة قريب قريب كاللحظة، والإنسان إذا نام نومًا هادئًا ولنقل نام أربعًا وعشرين ساعة، وقام، فإنه يقدر النوم بدقيقة واحدة مع أنه نام أربعًا وعشرين ساعة، فإذا كان، هذا في مفارقة الروح في الحياة يمضي الوقت بهذه السرعة، فما بالك إذا كانت الروح بعد خروجها من البدن مشغولة إما بنعيم أو جحيم، ستمر السنوات على الإنسان كأنها لا شيء؛ لأن امتداد الزمن في حال يقظتنا ليس كامتداد الزمن في حال نومنا، فالإنسان المستيقظ من طلوع الشمس إلى زوال الشمس مسافة يحس بأن الوقت طويل، لكن لو كان نائمًا ما كأنها شيء، والذي أماته الله مئة عام ثم بعثه ﴿قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ وأصحاب الكهف لبثوا في كهفهم ثلاث مئة سنين وتسع سنين، فلما بُعثوا قال بعضهم لبعض: كم لبثتم؟ قالوا: لبثنا يومًا أو بعض يوم، وهذا يدل على أن الإنسان يتعجب كيف تذهب السنوات على هؤلاء الأموات؟ نقول نعم، السنوات ما كأنها إلا دقيقة واحدة؛ لأن حال الإنسان بعد أن تفارق الروح بدنه سواء كانت مفارقة كلية أم جزئية غير حاله إذا كانت الروح في البدن، فإذا كانت الروح في البدن يعاني من المشقة والمشاكل والهواجس والوساوس أشياء تطيل عليه الزمن، لكن في النوم يتقلص الزمن كثيرًا، وفي الموت يتقلص أكثر وأكثر، فهؤلاء الذين ماتوا منذ سنين طويلة كأنهم لم يموتوا إلا اليوم لو بعثوا لقيل لهم كم لبثتم؟ قالوا: لبثنا يومًا أو بعض يوم، وهذه مسألة قد يرد على الإنسان فيها إشكال، ولكن لا إشكال في الموضوع مهما طالت المدة بأهل القبور، فإنها

قصيرة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾، أي: (بالفاء) الدالة على الترتيب والتعقيب، وما أسرع أن تلاقي الله عز وجل.

ثم قسم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ الناس عند ملاقاته تعالى إلى قسمين: منهم من يأخذ كتابه بيمينه، ومنهم من يأخذ كتابه من وراء ظهره،قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾، لما ذكر أن الإنسان كادح إلى ربه ﴿كَدْحًا﴾ أي: عامل بجد ونشاط وأن عمله، هذا ينتهي إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣]. لما ذكر، هذا قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ إشارة إلى أن هؤلاء العاملين منهم من يؤتى كتابه بيمينه، ومنهم من يؤتى كتابه من وراء ظهره وفي قوله تعالى: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه﴾، و﴿أُوتِيَ﴾، هنا فعل مبني لما لم يسم فاعله، فمن الذي يؤتيه؟ يحتمل أنه الملائكة، أو غير ذلك لا ندري، المهم أنه يعطى كتابه بيمينه أي: يستلمه باليمنى.

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾، أي: يحاسبه الله تعالى بإحصاء عمله عليه، لكنه حساب يسير ليس فيه أي: عسر، كما جاءت بذلك السنة: أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يخلو بعبده المؤمن، ويقرره بذنوبه، فيقول: عملت كذا، عملت كذا، عملت كذا، ويقر بذلك، ولا ينكر فيقول الله تعالى: «قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»(١)، ولا شك أن، هذا حساب يسير يظهر فيه منّة الله على العبد، وفرحه بذلك واستبشاره. والمحاسب له هو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦]. وقوله تعالى: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾، ينقلب من الحساب إلى أهله في الجنة مسرورًا، أي: مسرور القلب، وقد أخبر النبي ﷺ أن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر؛ ليلة البدر، ثم هم بعد ذلك درجات، وهذا يدل على سرور القلب؛ لأن القلب إذا سُر استنار الوجه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾، هؤلاء هم الأشقياء والعياذ بالله، يؤتى كتابه وراء ظهره وليس عن يمينه، وفي الآية الأخرى في سورة الحاقة يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: ٢٥]. فقيل: إن من لا يؤتى كتابه بيمينه ينقسم إلى قسمين: منهم من يؤتى كتابه بالشمال، ومنهم من يؤتى كتابه وراء ظهره، والأقرب والله أعلم أنه يؤتى كتابه بالشمال، ولكن تلوى يده حتى تكون من وراء ظهره، إشارة إلى أنه نبذ كتاب الله وراء ظهره، فيكون الأخذ بالشمال ثم تلوى يده إلى الخلف إشارة إلى أنه قد ولى ظهره كتاب الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ولم يبال به، ولم يرفع به رأسًا، ولم ير بمخالفته بأسًا.

وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾، أي: يدعو على نفسه بالثبور، يقول: واثبوراه يا ويلاه، وما أشبه ذلك من كلمات الندم والحسرة، ولكن هذا لا ينفع في ذلك اليوم؛ لأنه انتهى وقت العمل

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

فوقت العمل، هو في الدنيا، أما في الآخرة فلا عمل، وإنما هو الجزاء، وقوله تعالى: ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾، أي: يصلى النار التي تسعر به ويكون مخلدًا فيها أبدًا؛ لأنه كافر ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾، إنه كان في الدينا في أهله مسرورًا، ولكن، هذا السرور أعقبه الندم والحزن الدائم المستمر، واربط بين قوله تعالى فيمن أوتي كتابه بيمينه بقوله تعالى: ﴿وينقلب إلى أهله مسرورًا﴾، وهذا في قوله تعالى: ﴿كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ تجد فرقًا بين السرورين، فسرور الأول سرور دائم - نسأل الله أن يجعلنا منهم - وسرور الثاني سرور زائل، ذهب ﴿كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾، أما الآن فلا سرور عنده، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي: ألا يرجع بعد الموت، ولهذا كانوا ينكرون البعث ويقولون لا بعث، ويقولون: من يحيي العظام وهي رميم ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾، قال تعالى: ﴿بَلَىٰٓ﴾، أي: سيحور ويرجع، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾، يعني: أنه سيرجع إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - الذي هو بصير بأعماله، وسوف يحاسبه عليها على ما تقتضيه حكمته وعدله.



قال الله تعالى:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ﴾ [الانشقاق: ١٦-٢٥].

التفسير

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ هذه الجملة مكونة من قسم، ومُقسم به، ومقسم عليه، ومُقسِم، فالقسم في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾، قد يظن الظان أن معنى ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ هل هذا نفي؟ الجواب: لا ولكن هذا إثبات و﴿لَآ﴾ هنا جيء بها للتنبيه، ولو حذفت في غير القرآن لاستقام الكلام ولها نظائر مثل، قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ وكلها يقول العلماء: إن (لا) فيها للتنبيه، وأن القسم مثبت، أما المقسِم فهو الله - عَزَّ وَجَلَّ - فهو مُقسِم ومُقسَم به، فهو سبحانه مقسم، أما المقسَم به في هذه الآية فهو الشفق وما عطف عليه.

فإن قال قائل: لماذا يقسم الله على خبره، وهو سبحانه الصادق، بلا قسم؟ وكذلك يقسم النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ على خبره، وهو صادق، بلا قسم؟

الجواب: قلنا: إن القسم يؤكد الكلام، والقرآن الكريم نزل باللسان العربي وإذا كان من عادتهم أنهم يؤكدون الكلام بالقسم صار، هذا الأسلوب جاريًا على اللسان العربي الذي نزل به القرآن.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلشَّفَقِ﴾، الشفق هو الحمرة التي تكون بعد غروب الشمس. وإذا غابت هذه الحمرة خرج وقت المغرب ودخل وقت العشاء، هذا قول أكثر العلماء وبعضهم قال: إذا غاب البياض، وهو يغيب بعد الحمرة بنحو نصف ساعة، لكن الذي عليه الجمهور، ويقال: إن أبا حنيفة ـ رحمه الله ـ رجع إليه: هو أن الشفق هو الحمرة وإذا غاب، هذا الشفق، فإنه يدخل وقت العشاء ويخرج وقت المغرب، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾، هذا أيضًا مقسم به معطوف على الشفق، يعني: وأقسم بالليل وما وسق، وهذان قسمان ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ الليل معروف ﴿وَمَا وَسَقَ﴾ أي: ما جمع؛ لأن الليل يجمع الوحوش والهوام وما أشبه ذلك، تجتمع وتخرج وتبرز من جحورها وبيوتها، وكذلك ربما يشير إلى اجتماع الناس بعضهم إلى بعض، وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾، القمر معروف. ومعنى ﴿إِذَا ٱتَّسَقَ﴾، يعني: إذا اجتمع نوره وتم وكمل، وذلك في؛ ليالي الإبدار؛ فأقسم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ﴿بالليل وما وسق﴾، أي: ما جمع. وبالقمر؛ لأنه آية الليل، ثم قال بعد ذلك: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾، والخطاب هنا لجميع الناس، أي: لتتحولن حالًا عن حال، وهو يعني: أن الأحوال تتغير فيشمل أحوال الزمان، وأحوال المكان، وأحوال الأبدان، وأحوال القلوب:

الأول: أحوال الزمان تتنقل؛ لقوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. فيوم يكون فيه السرور والانشراح وانبساط النفس، ويوم آخر يكون بالعكس، حتى إن الإنسان؛ ليشعر بهذا من غير أن يكون هناك سبب معلوم، وفي هذا يقول الشاعر:

وَيَوْمٌ عَلَيْنَـــا وَيَـــوْمٌ لَنَا ... وَيَـــوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرُّ

وهذا شيء يعرفه كل واحد بنفسه تصبح اليوم فرحًا مسرورًا وفي اليوم الثاني بالعكس بدون سبب لكن هكذا لابد أن الإنسان يركب طبقًا عن طبق وتتغيرحال الزمان من أمن إلى خوف، ومن حرب إلى سلم، ومن قحط إلى مطر، ومن جدب إلأى خصب إلى غير ذلك من تقلب الأحوال.

الثاني: الأمكنة ينزل الإنسان، هذا اليوم منزلًا، وفي اليوم التالي منزلًا آخر، وثالثًا ورابعًا إلى أن تنتهي به المنازل في الآخرة، وما قبل الآخرة وهي القبور هي منازل مؤقتة. القبور ليست هي آخر المنازل، بل هي مرحلة. وسمع أعرابي رجلًا يقرأ قول الله تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ

﴿ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١،٢] فقال الأعرابي: «والله ما الزائر بمقيم» فالأعرابي بفطرته عرف أن وراء هذه القبور شيئًا يكون المصير إليه؛ لأنه، كما هو معلوم الزائر يزور ويمشي، وبه نعرف أن ما نقرؤه في الجرائد «فلان توفي، ثم نقلوه إلى مثواه الأخير» أن هذه الكلمة غلط كبير ومدلولها كفر بالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ كفر باليوم الاخر؛ لأنك إذا جعلت القبر هو المثوى الأخير فهذا يعني: أنه ليس بعده شيء، والذي يرى أن القبر هو المثوى الأخير وليس بعده مثوى، كافر، فالمثوى الأخير إما جنة وإما نار.

الثالث: الأبدان يركب الإنسان فيها طبقًا عن طبق، واستمع إلى قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤]. أول ما يخلق الإنسان طفلًا صغيرًا يمكن أن تجمع يديه ورجليه بيد واحدة منك وتحمله بهذه اليد ضعيفًا ثم لايزال يقوى رويدًا رويدًا حتى يكون شابًا جلدًا قويًا، ثم إذا استكمل القوة عاد فرجع إلى الضعف، وقد شبه بعض العلماء حال البدن بحال القمر يبدو هلالًا ضعيفًا، ثم يكبر شيئًا فشيئًا حتى يمتلىء نورًا، ثم يعود ينقص شيئًا فشيئًا حتى يضمحل، نسأل الله أن يحسن لنا ولكم الخاتمة.

الرابع: حال القلوب وما أدراك ما أحوال القلوب؟! أحوال القلوب هي النعمة وهي النقمة، القلوب كل قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء، فإن شاء أزاغه، وإن شاء هداه، ولما حدّث النبي ﷺ في هذا الحديث قال: «اللَّهُمَّ يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»(١)، فالقلوب لها أحوال عجيبة، تارة يتعلق القلب بالدنيا، وتارة يتعلق بشيء من الدنيا، تارة يتعلق بالمال ويكون المال أكبر همه، تارة يتعلق بالنساء وتكون النساء أكبر همه، تارة يتعلق بالقصور والمنازل ويكون ذلك أكبر همه، تارة يتعلق بالمركوبات والسيارات ويكون ذلك أكبر همه، تارة يكون مع الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ دائمًا مع الله يتعلق بالله ـ سبحانه وتعالى ـ، ويرى أن الدنيا كلها وسيلة إلى عبادة الله، وإلى طاعة الله، فيستخدم الدنيا؛ لأنها خلقت له، ولا تستخدمه الدنيا. وأصحاب الدنيا هم الذين يخدمونها، هم الذين أتعبوا أنفسهم في تحصيلها. لكن أصحاب الآخرة هم الذين استخدموا الدنيا وخدمتهم الدنيا؛ ولذلك لا يأخذونها إلا عن طريق رضا الله، ولا يصرفونها إلا في رضا الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فاستخدموها أخذًا وصرفًا، لكن أصحاب الدنيا الذين تعبوا بها سهروا الليالي يراجعون الدفاتر، يراجعون الشيكات، يراجعون المصروفات، يراجعون المدفوعات، يراجعون ما أخذوا وما صرفوا، هؤلاء في الحقيقة استخدمتهم الدنيا ولم يستخدموها، لكن الرجل المطمئن الذي جعل الله رزقه كفافًا يستغني به عن الناس، ولا يشقى به

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ٣٠٢)، والترمذي (٣٥١٧)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٠٩١).

عن طاعة الله، هذا هو الذي خدمته الدنيا، هذه أحوال القلوب، وأحوال القلوب هي أعظم الأحوال الأربع.

ولهذا يجب علينا جميعًا أن نراجع قلوبنا كل ساعة كل لحظة أين صرفت أيها القلب؟ أين ذهبت؟ لماذا تنصرف عن الله؟ لماذا تلتفت يمينًا وشمالًا؟ ولكن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم وغلب على كثير من الناس، حتى إنه ليصرف الإنسان عن صلاته التي هي رأس ماله بعد الشهادتين فتجده إذا دخل في صلاته ذهب قلبه يمينًا وشمالًا، حتى يخرج من صلاته ولم يعقل منها شيئًا، والناس يصيحون يقولون: صلاتنا لا تنهانا عن الفحشاء والمنكر أين وعد الله؟ فيقال: يا أخي هل صلاتك صلاة إذا كنت من حين تُكَبِّر تفتح لك باب الهواجيس التي لا نهاية لها، فهل أنت مصل؟ صليت بجسمك لكن لم تصل بقلبك ويُقال لمثل هؤلاء: إن الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر هي الصلاة التي يعقل فيها صاحبها ما يقرأه من القرآن والأذكار والتسبيح والأدعية، ويحافظ على ركوعها وسجودها وخشوعها وطمأنينتها، أما الصلاة التي يهيم فيها القلب في كل واد، ويخرج منها ولم يدري ما قرأ فلا تنهى عن الفحشاء، وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «إِنَّهُ لَيْسَ لَكَ مِنْ صَلَاتِكَ إِلَّا مَا عَقَلْتَ مِنْهَا» نصفها، ربعها، ثلثها، عشرها، خمسها» حسب ما تعقل منها، إذن فالقلوب تركب طبقًا عن طبق.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾، ﴿فَمَا لَهُمْ﴾، أي: شيء يمنعهم من الإيمان، وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله، أي: شيء يمنعهم من الإيمان، وأي: شيء يضرهم إذا آمنوا، قال مؤمن آل فرعون: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]؛ فأي: شيء على الإنسان إذا آمن؟ ولهذا قال موبِّخًا لهم: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾، أي: لا يخضعون لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فالسجود هنا بمعنى الخضوع لله، وإن لم تسجد على الأرض لكن يسجد القلب ويلين ويذل إن كان الأمر كذلك؛ فأنت من المؤمنين ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]، وإن لم يكن قلبك كذلك ففيك شبهٌ من المشركين الذين إذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون، ومن علامات الخضوع لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عند قراءة القرآن أن الإنسان إذا قرأ آية سجدة سجد لله ذلًا له وخضوعًا، وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على وجوب سجود التلاوة. وقال: إن الإنسان إذا مر بآية سجدة ولم يسجد كان آثمًا. والصحيح: أنها ليست بواجبة، وإن كان، هذا القول أعني القول بالوجوب هو مذهب أبي حنيفة واختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، لكن، هذا قول مرجوح، وذلك أنه ثبت في الصحيح عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه خطب الناس يومًا فقرأ سورة النحل فلما وصل آية السجدة نزل من

المنبر فسجد، ثم قرأها من الجمعة الثانية فمر بها ولم يسجد فقال ـ رضي الله عنه ـ: إن الله لم يفرض علينا السجود إلا أن نشاء، وكان ذلك بمحضر من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ولم يُنكر عليه أحد. وسنته ـ رضي الله عنه ـ من السنن التي أُمرنا باتباعها، وعلى هذا فالقول الراجح أن سجود التلاوة ليس بواجب، لكنه سنة مؤكدة، فإذا مررت بآية سجدة فاسجد في أي وقت كنت في الصباح، أو في المساء، في الليل، أو في النهار، تكبر عند السجود، وإذا رفعت فلا تكبر، ولا تسلم، هذا إذا سجدت خارج الصلاة، أما إن سجدت في الصلاة فلابد أن تكبر إذا سجدت، وأن تكبر إذا نهضت؛ لأنها لما كانت في الصلاة كان لها حكم السجود في الصلاة.

وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾، لما ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ أنهم إذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون بيّن ـ سبحانه وتعالى ـ أن سبب تركهم السجود هو تكذيبهم بما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ لأن كل من كان إيمانه صادقًا فلا بد أن يمتثل الأمر، وأن يجتنب النهي؛ لأن الإيمان الصادق يحمل صاحبه على ذلك، ولا تجد شخصًا ينتهك المحارم أو يترك الواجبات إلا بسبب ضعف إيمانه، ولهذا كان الإيمان عند أهل السنة والجماعة هو التصديق المستلزم للقبول والإذعان، فمتى رأيت الرجل يترك الواجبات، أو بعضًا منها، أو يفعل المحرمات فاعلم أن إيمانه ضعيف إذ لو كان إيمانه قويًا ما أضاع الواجبات، ولا انتهك المحظورات، ولهذا قال تعالى هنا: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ﴾ أي: في تركهم السجود كان ذلك بسبب تكذيبهم لما جاءت به الرسل ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أي: أنه ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم بما يوعونه أي: بما يجمعونه في صدورهم، وما يجمعونه من أموالهم، وما يجتمعون عليه من منابذة الرسل ومخالفة الرسل، بل محاربة الرسل وقتالهم، والكفار أعداء للرسل من حين بعث الله الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأنهم يجمعون لهم ويكيدون لهم فتوعدهم الله تعالى في هذه الآية ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾، أي: بما يجمعون من أقوال، وأفعال، وضغائن، وعداوات، وأموال ضد الرسل عليهم الصلاة والسلام، ثم قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أخبرهم بالعذاب الأليم الذي لابد أن يكون، والخطاب في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ عام للرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ولكل من يصح خطابه، فإنه داخل في، هذا، وأن نبشر كل كافر بعذاب أليم، فنحن نبشر كل كافر بعذاب أليم ينتظره، كما قال تعالى: ﴿وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ [السجدة: ٣٠]. ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ﴾ ﴿إِلَّا﴾ هذه بمعنى لكن، ولا تصح أن تكون استثناء متصلًا؛ لأن الذين آمنوا ليسوا من المكذبين في شيء، بل هم مؤمنون مصدقون، وهذا هو الاستثناء المنقطع، أي: إذا كان المستثنى ليس من جنس المستثنى منه فهو استثناء منقطع وتقدر ﴿إِلَّا﴾ بـ (لكن) أي: لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجرٌ غير ممنون. الذين آمنوا بقلوبهم، واستلزم إيمانهم قيامهم بالعمل الصالح، هؤلاء هم الذين ليس لهم

عذاب، ولا ينتظرون العذاب لهم أجر غير ممنون.

فإن قيل: ما هو العمل الصالح؟

فالجواب: أن العمل الصالح ما جمع شيئين:

الأول: الإخلاص لله تعالى بأن يكون الحامل على العمل هو الإخلاص لله - عَزَّ وَجَلَّ - ابتغاء مرضاته، وابتغاء ثوابه، وابتغاء النجاة من النار لا يريد الإنسان بعمله شيئًا من الدنيا.

الثاني: أن يكون متبعًا فيه رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، أي: أن يتبع الإنسان رسول الله ﷺ في عمله فعلًا لما فعل، وتركًا لما ترك. فما فعله النبي ﷺ مع وجود سببه فالسنة فعله إذا وجد سببه. وما وجد سببه في عهد الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - ولم يفعله، فإن السنة تركه.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾، أي: ثواب، وقوله تعالى: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع، بل هو مستمر أبد الآبدين، والآيات في تأبيد الجنة كثيرة معلومة في الكتاب والسنة؛ فأجر الآخرة لا ينقطع أبدًا، ليس كالدنيا فيه وقت تثمر الأشجار ووقت لا تثمر، أو وقت تنبت الأرض ووقت لا تنبت، والجنة الأجر فيها دائم، ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾،[مريم:٦٢] نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المؤمنين العاملين بالصالحات، المجتنبين للسيئات، إنه جواد كريم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.



تفسير سورة البروج

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١-١٠].

❁ التفسير ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

قال الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾، الواو هذه حرف قسم يعني: يقسم تعالى بالسماء وقوله تعالى: ﴿ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾، أي: صاحبة البروج، والبروج جمع برج، وهو المجموعة العظيمة من النجوم وسميت بروجًا لعلوها وارتفاعها وظهورها وبيانها، والبروج عند الفلكيين اثني عشر برجًا جمعت في قول الناظم:

حملٌ فثور فجوزاء فسرطان فأسدٌ سنبلة ميزان
فعقربٌ قوسٌ فجدي وكذا دلو وذي آخرها الحيتان

فهي اثنا عشر برجًا، ثلاثة منها للربيع، وثلاثة للصيف، وثلاثة للخريف، وثلاثة للشتاء، فيقسم الله تعالى بالسماء ذات البروج وله تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه، أما نحن فلا نقسم إلا بالله: بأسمائه وصفاته، ولا نقسم بشيء من المخلوقات لقول النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم

ـ: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»(١) ولقوله ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ» أو «أَشْرَكَ»(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾ اليوم الموعود هو يوم القيامة، وعد الله تعالى به وبينه في كتابه، ونصب عليه الأدلة العقلية التي تدل على أنه واقع حتمًا، كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [النساء: ٤١]. قوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾، ذكر علماء التفسير في الشاهد والمشهود عدة أقوال يجمعها أن الله أقسم بكل شاهد وبكل مشهود، والشهود كثيرون منهم محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ شهيدًا علينا قال الله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[الأنبياء: ١٠٤]، ومنهم هذه الأمة شهداء على الناس قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[البقرة: ١٤٣] وأعضاء الإنسان يوم القيامة تشهد عليه بما عمل من خير وشر كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[النور: ٢٤]، ومن الملائكة يشهدون يوم القيامة فكل من شهد بحق فهو داخل في قوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ﴾، وأما ﴿المشهود﴾، فهو يوم القيامة وما يعرض فيه من الأهوال العظيمة، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]؛ فأقسم الله بكل شاهد وبكل مشهود. قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾، هذه الجملة جواب القسم ﴿قُتِلَ﴾ يعني: أهلك، وقيل: القتل هنا بمعنى اللعن، وهو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، و﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ هم قوم كفار أحرقوا المؤمنين بالنار، وقد وردت قصص متعددة في هؤلاء القوم منها شيء في الشام، ومنها شيء في اليمن، والمقصود أن هؤلاء الكفار حاولوا بالمؤمنين أن يرتدوا عن دينهم، ولكنهم عجزوا فحفروا أخدودًا حُفرًا ممدودة في الأرض كالنهر وجمعوا الحطب الكثير وأحرقوا المؤمنين بها ـ والعياذ بالله ـ ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾، يعني: أن الأخدود هي أخدود النار. وقوله تعالى: ﴿ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾، أي: الحطب الكثير المتأجج. قوله تعالى: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾، يعني: أن هؤلاء الذين حفروا الأخاديد وألقوا فيها المؤمنين كانوا ـ والعياذ بالله ـ عندهم قوة وجبروت يرون النار تلتهم هؤلاء البشر وهم قعود عليها على الأسرة، فكهون كأن شيئًا لم يكن، وهذا من الجبروت أن يرى الإنسان البشر تلتهمه النار، وهو جالس على سريره يتفكه بالحديث، ولا يبالي.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾، يعني: هم شهود على ما يفعلون بالمؤمنين أي: حضور لا يغيب عنهم ما فعلوه بالمؤمنين؛ ولذلك استحقوا، هذا الوعيد، بل استحقوا هذه

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦١٠٨)، ومسلم (١٦٤٦).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٤)، والترمذي (١٥٣٥)،وأبو داود (٣٢٥١)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٢٥٦١).

العقوبة أن الله أهلكهم ولعنهم وطردهم وأبعدهم عن رحمته. قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾، أي: ما أنكر هؤلاء الذين سعروا النار بأجساد هؤلاء المؤمنين إلا هذا أي: إلا أنهم آمنوا بالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾،وهذا من باب توكيد الذم بما يشبه المدح؛ لأن الإيمان بالله ليس محل إنكار، وهذا الإنكار أحق أن ينكر؛ لأن المؤمن بالله العزيز الحميد يجب أن يساعد ويعان، وأن تسهل له الطرق، أما أن يمنع ويردع حتى يصل الحد إلى أن يحرق بالنار فلا شك أن، هذا عدوان كبير، وليس، هذا بمنكر عليهم، بل هم يحمدون على ذلك؛ لأنهم عبدوا من هو أهل للعبادة، وهو الله جل وعلا، الذي خلق الخلق؛ ليقوموا بعبادته، فمن قام بهذه العبادة فقد عرف الحكمة من الخلق وأعطاها حقها. وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾، العزيز هو الغالب الذي لا يغلبه شيء، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ له الغلبة والعزة والقهر على كل أحد، ولما قال المنافقون: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]. وقوله تعالى: ﴿الْحَمِيدِ﴾ على وزن فعيل بمعنى المحمود فالله ـ سبحانه وتعالى ـ محمود على كل حال وكان من هدي النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ أنه إذا جاءه ما يُسر به قال: «الحَمْدُ لله الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ»، وإذا جاءه خلاف ذلك قال: «الحَمْدُ لله عَلَى كُلِّ حَالٍ»(١)، وهذا هو الذي ينبغي للإنسان أن يقول عند المكروه «الحمد لله على كل حال» أما ما يقوله بعض الناس (الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه) فهذا خلاف ما جاءت به السنة به، بل قل كما قال النبي ﷺ: «الحمد لله على كل حال» أما أن تقول: (الذي لا يحمد على مكروه سواه) فكأنك الآن تعلن أنك كاره ما قدر الله عليك، وهذا لا ينبغي، بل الواجب أن يصبر الإنسان على ما قدر الله عليه مما يسوؤه أو يُسره؛ لأن الذي قدره الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ هو ربك وأنت عبده، هو مالكك وأنت مملوك له، فإذا كان الله هو الذي قدر عليك ما تكره فلا تجزع، يجب عليك الصبر وألا تتسخط لا بقلبك ولا، بلسانك، ولا بجوارحك، اصبر وتحمل والأمر سيزول ودوام الحال من المحال، قال النبي ﷺ: «وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا»(٢)، فالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ محمود على كل حال من السراء أو الضراء؛ لأنه إن قدر السراء فهو ابتلاء وامتحان، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]. ولما رأى سليمان عرش، بلقيس بين يديه قال تعالى: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ﴾ [النمل: ٤٠]. فإذا أصبت بالنعمة لا تأخذها على أنها نعمة فتمرح وتفرح، هي

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٣٨٠٣)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٤٩)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٦٥).

(٢) صحيح: أخرجه الخطيب في «التاريخ» (١٠/ ٢٨٧)، كذا قال الشيخ الألباني في «الصحيحة»(٢٣٨٢).

نعمة لا شك لكن اعلم أنك ممتحن بها هل تؤدي شكرها أو لا تؤدي، إن أصابتك ضراء فاصبر، فإن ذلك أيضًا ابتلاء وامتحان من الله عز وجل؛ ليبلوك هل تصبر أو لا تصبر، وإذا صبرت واحتسبت الأجر من الله، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

ويجوز أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿الْحَمِيدِ﴾ أنه هو الحامد، فإنه ـ سبحانه وتعالى ـ يحمد من يستحق الحمد، يثني على عباده من المرسلين والأنبياء والصالحين، والثناء عليهم حمدٌ لهم، فهو جل وعلا حامد، وهو كذلك محمود، وقد ثبت عن النبي ﷺ أن الله يرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها[1]؛ لأنه لولا أن الله يسر لك هذه الأكلة والشربة ما حصلت عليها، قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤]. الله يسألنا، أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون؟ الجواب:، بل أنت يا ربنا ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ [الواقعة:٦٥] بعد أن يخرج وتتعلق به النفوس يجعله الله حطامًا، ولم يأت التعبير «لو نشاء لم ننبته»؛ لأن كونه ينبت وتتعلق به النفس ثم يكون حطامًا أشد وقعًا على النفس من كونه لا ينبت أصلًا فقال الله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: ٦٥:٦٧] ثم ذكر الشرب فقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨، ٦٩] الجواب:، بل أنت يا ربنا ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾، أي: مالحًا غير عذب لا يستطيع الإنسان أن يشربه ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾[الواقعة: ٧٠]، يعني: فهلا تشكرون الله على ذلك، وهنا لم يأت التعبير «لو نشاء لم ننزله من المزن»؛ لأن كونه ينزل، ولكن لا يشرب لا يطاق أشد من كونه لم ينزل أصلًا فتأملوا القرآن الكريم تجدون فيه من الأسرار والحكم الشيء الكثير.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾،أي: له وحده ملك السماوات والأرض، لا يملكها إلا هو ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فهو يملك السماوات ومن فيها، والأراضين ومن فيها، وما بينهما، وما فيها كل شيء ملك لله، ولا يشاركه أحد في ملكه﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[المائدة: ١٢٠]، وما يضاف إلينا من الملك فيقال: مثلًا، هذا البيت ملك لفلان، هذه السيارة ملك لفلان فهو ملك قاصر وليس ملكًا حقيقيًا؛ لأنه لو أن إنسانًا أراد أن يهدم بيته بدون سبب فلا يملك ذلك؛ لأن النبي ﷺ نهى عن إضاعة المال[2]، لو أراد إنسان أن يحرق سيارته بدون سبب فلا يملك، هذا. ولو أنه فعل لحجر القاضي عليه بمنعه من التصرف في ماله، مع أن الله منعه قبل، إذن ملكنا قاصر، والملك التام لله ـ تعالى ـ.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٣٤)، والترمذي (١٨١٦).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٧٧)، ومسلم (٥٩٣).

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾، أي: مطلع - عَزَّ وَجَلَّ - على كل شيء، ومن جملته ما يفعله هؤلاء الكفار بالمؤمنين من الإحراق بالنار، وسوف يجازيهم، ولكن مع ذلك ومع فعلهم هذه الفعلة الشنيعة قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾، قال بعض السلف: انظر إلى حلم الله - عَزَّ وَجَلَّ - يحرقون أولياءه، ثم يعرض عليهم التوبة يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾. قال العلماء: ﴿فَتَنُوا۟﴾ بمعنى أحرقوا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات: ١٣، ١٤]. فهؤلاء أحرقوا المؤمنين وأحرقوا المؤمنات في النار. وقيل: فتنوهم أي: صدوهم عن دينهم.

والصحيح: أن الآية شاملة للمعنيين جميعًا؛ لأنه ينبغي أن نعلم أن القرآن الكريم معانيه أوسع من أفهامنا، وأنه مهما بلغنا من الذكاء والفطنة فلن نحيط به علمًا، والقاعدة في علم التفسير أنه إذا كانت الآية تحتمل معنيين لا مرجح لأحدهما على الأخر ولا يتضادان، فإنها تحمل عليهما جميعًا، فنقول: هم فتنوا المؤمنين بصدهم عن سبيل الله، وفتنوهم بالإحراق أيضًا. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ أي: يرجعوا إلى الله من معصيته إلى طاعته ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾؛ لأنهم أحرقوا أولياء الله فكان جزاؤهم مثل عملهم جزاء وفاقًا.

في هذه الآيات من العبر: أن الله - سبحانه وتعالى - قد يسلط أعداءه على أوليائه، فلا تستغرب إذا سلط الله - عَزَّ وَجَلَّ - الكفار على المؤمنين وقتلوهم وحرقوهم، وانتهكوا أعراضهم، لا تستغرب فلله تعالى في، هذا حكمة، المصابون من المؤمنين أجرهم عند الله عظيم، وهؤلاء الكفار المعتدون أملى لهم الله - سبحانه وتعالى - ويستدرجهم من حيث لا يعلمون، والمسلمون الباقون لهم عبرة وعظة فيما حصل لإخوانهم، فمثلًا نحن نسمع ما يحصل من الانتهاكات العظيمة، انتهاك الأعراض، وإتلاف الأموال، وتجويع الصغار والعجائز، نسمع أشياء تبكي، فنقول: سبحان الله ما هذا التسليط الذي سلطه الله على هؤلاء المؤمنين؟ نقول يا أخي لا تستغرب فالله - سبحانه وتعالى - ضرب لنا أمثالًا فيمن سبق يحرقون المؤمنين بالنار، فهؤلاء الذين سلطوا على إخواننا في، بلاد المسلمين، هذا رفعة درجات للمصابين، وتكفير السيئات، وهو عبرة للباقين، وهو أيضًا إغراء لهؤلاء الكافرين حتى يتسلطوا فيأخذهم الله - عَزَّ وَجَلَّ - أخذ عزيز مقتدر.

وفي هذه الآيات من العبر: أن هؤلاء الكفار لم يأخذوا على المسلمين بذنب إلا شيئًا واحدًا، وهو: أنهم يؤمنون بالله العزيز الحميد، وهذا ليس بذنب، بل هذا هو الحق، ومن أنكره فهو الذي ينكر عليه، نسأل الله - سبحانه وتعالى - أن ينصر المسلمين في كل مكان، وأن يقينا شر أعدائنا، وأن يجعل كيدهم في نحورهم إنه على كل شيء قدير.

وفي الآية إشارة إلى أن التوبة تهدم ما قبلها، ولكن التوبة لا تكون توبة نصوحًا مقبولة عند الله

إلا إذا اشتملت على شروط خمسة:

الأول: الإخلاص لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بأن يكون الحامل للإنسان على التوبة خوف الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ورجاء ثوابه؛ لأن الإنسان قد يتوب من الذنب من أجل أن يمدحه الناس، أو من أجل دفع مذمة الناس له، أو من أجل مرتبة يصل إليها، أو من أجل مال يحصل عليه، كل هؤلاء لا تقبل توبتهم؛ لأن التوبة يجب أن تكون خالصة، وأما من أراد بعمله الدنيا، فإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

الثاني: من شروط كون التوبة نصوحًا: الندم على ما حصل من الذنب بمعنى ألا يكون الإنسان كأنه لم يذنب، لا يتحسر، ولا يحزن، لابد أن يندم، فإذا ذكر عظمة الله ندم، كيف أعصي ربي، وهو الذي خلقني ورزقني وهداني، فيندم.

الثالث: أن يقلع عن الذنب فلا تصح التوبة مع الإصرار على الذنب؛ لأن التائب هو الراجع، فإذا كان الإنسان يقول: أستغفر الله وأتوب إليه من أكل الربا، ولكنه لايزال يرابي فلا تصح توبته، لو قال: أستغفر الله من الغيبة، والغيبة ذكرك أخاك بما يكره، ولكنه في كل مجلس يغتاب الناس فلا تصح توبته، كيف تصح، وهو مصر على المعصية، فلابد أن يقلع، فإذا تاب من أكل أموال الناس وقد سرق من هذا، وأخذ مال هذا بخداع وغش فلا تصح توبته، حتى يرد ما أخذ من أموال الناس إلى الناس، لو فرضنا أن شخصًا أدخل مراسيمه في ملك جاره واقتطع جزءًا من أرضه وقال إني تائب، فنقول له: رد المراسيم إلى حدودها الأولى وإلا، فإن توبتك لا تقبل؛ لأنه لابد من الإقلاع عن الذنب الذي تاب منه.

الشرط الرابع: أن يعزم عزمًا تامًا ألا يعود إلى الذنب، فإن تاب، وهو في نفسه لو حصل له فرصة لعاد إلى الذنب، فإن توبته لا تقبل، بل لابد أن يعزم عزمًا أكيدًا على ألا يعود.

الشرط الخامس: أن تكون التوبة في وقت تقبل فيه التوبة؛ لأنه يأتي أوقات لا تقبل فيها التوبة، وذلك في حالين:

الحال الأولى: إذا حضره الموت، فإن توبته لا تقبل لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨]. بعدما عاين الموت وشاهد العذاب يقول تبت فلا ينفع هذا، ومثال واقع لهذه المسألة أن فرعون لما أدركه الغرق ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يعني: بالله ولم يقل آمنت بالله إذلالًا لنفسه حيث كان يحارب بني إسرائيل على الإيمان بالله، والآن يقول آمنت بالذي آمنوا به فكأنه جعل نفسه تابعًا لبني إسرائيل إلى هذا الحد، بلغ به الذل ومع ذلك قيل له ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾، تتوب الآن تؤمن بالذي آمنت به بنو إسرائيل ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

[يونس: ٩١]. إذن إذا حضر الموت، فإن التوبة لا تقبل، فلابد من المبادرة بالتوبة؛ لأنك لا تدري في أي وقت يحضرك الموت، ألم تعلم أن من الناس من نام على فراشه في صحة وعافية ثم حمل من فراشه إلى سرير تغسيله؟! ألم تعلم أن بعض الناس جلس على كرسي العمل يعمل ثم حمل من كرسي العمل إلى سرير الغسل؟! كل هذا واقع، لذا يجب أن تبادر بالتوبة قبل أن تغلق الأبواب.

الحال الثانية: إذا طلعت الشمس من مغربها، فإن الشمس إذا طلعت من مغربها ورآها الناس آمنوا لكن الله تعالى يقول: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، والمراد ببعض الآيات طلوع الشمس من مغربها.



قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ١١-٢٢].

التفسير

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾، لما ذكر عقاب المجرمين ذكر ثواب المؤمنين، وهذه هي الطريقة المتبعة فيما يراد به الترغيب والترهيب، والقرآن الكريم مثاني، تذكر فيه المعاني المتقابلة، فيذكر فيه عذاب أهل النار ونعيم أهل الجنة، صفات المؤمنين وصفات الكافرين، من أجل أن يكون الإنسان سائرًا إلى الله تعالى بين الخوف والرجاء، ويعرف نعمة الله عليه في الإسلام، ويعرف حكمة الله تعالى في وجود هؤلاء الكافرين المجرمين ويزداد حذرًا من ذلك، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هم الذين آمنوا بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، فإن، هذا هو الإيمان، كما فسره النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - حين سأله جبريل عن الإيمان فقال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِالله،

وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[(١)]، وأما قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ فالمراد عملوا الأعمال الصالحة، والأعمال الصالحة هي التي بنيت على الإخلاص لله، واتباع شريعة الله، فمن عمل عملًا أشرك به مع الله غيره فعمله مردود عليه؛ لقول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فيما يرويه عن ربه أنه تعالى قال: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[(٢)]، وأما المتابعة لرسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، فإن من عمل عملًا ليس على شريعة الله، فإنه باطل مردود، لقول النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[(٣)]، وبناء على ذلك تكون عبادة المرائي الذي يعبد الله لكن يرائي الناس أي: يظهر العبادة؛ ليراه الناس فيمدحوه، وهو لا يريد التقرب إلى الناس، يريد التقرب إلى الله لكن يريد أن يمدحه الناس على تقربه إلى الله وعبادته لله فهذا مراءٍ وعمله مردود أيضًا، كذلك من تكلم بكلام قرآن أو ذكر ورفع صوته ليسمعه الناس فيمدحوه على ذكره لله فهذا أيضًا مراءٍ، عمله مردودٌ عليه؛ لأنه أشرك فيه مع الله غيره، أراد أن يمدحه الناس على عبادة الله، أما من تعبد للناس فهذا مشرك شرك أكبر يعني: من قام يصلي أمام شخص تعظيمًا له، لا لله، وركع للشخص وسجد للشخص فهذا مشرك شركًا أكبر مخرج عن الملة، وكذلك أيضًا من ابتدع في دين الله ما ليس منه، كما لو رتب أذكارًا معينة في وقت معين، فإن ذلك لا يقبل منه، حتى ولو كان ذكر الله لو كان تسبيحًا، أو تحميدًا، أو تكبيرًا، أو تهليلًا، ولكنه رتبه على وجه لم ترد به السنة، فإن ذلك ليس مقبولًا عند الله عز وجل؛ لأنه عمل عملًا ليس عليه أمر الله ورسوله، فالمهم أن الله اشترط مع الإيمان العمل الصالح، وبهذا نعرف أنه لا ينبغي لنا أن نركز دائمًا على العقيدة، ونقول: نحن على العقيدة الإسلامية وعلى كذا، وعلى كذا، ولا نذكر العمل؛ لأن مجرد العقيدة لا يكفي لابد من عمل، فينبغي عندما تذكر أننا على العقيدة الإسلامية ينبغي أن تقول ونعمل العمل الصالح؛ لأن الله يقرن دائمًا بين الإيمان المتضمن للعقيدة وبين العمل الصالح، حتى لا يخلو الإنسان من عمل صالح، أما مجرد العقيدة فلا ينفع لو أن الإنسان يقول أنا مؤمن بالله لكن لا يعمل؛ فأين الإيمان بالله؟ ولهذا كان القول الراجح من أقوال العلماء أن تارك الصلاة كافر كفرًا مخرج عن الملة وقد بينا أدلة ذلك في رسالة لنا صغيرة، يغني عن إعادتها هنا.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٨٥)، و أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠١)، وابن ماجه (٤٢٠٢).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

قال الله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ﴿لَهُمْ﴾، يعني: عند الله، قال الله تعالى: ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، وذلك بعد البعث، فإنهم يدخلون هذه الجنات التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]. وقال الله ـ تعالى ـ في الحديث القدسي: «أَعْدَدتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»(١)؛ لأن فيها من النعيم ما لا يتصوره الإنسان، والله تعالى يذكر في الجنات: نخل، ورمان، وفاكهة، ولحم طير، وعسل، ولبن، وماء، وخمر لكن حقائق هذه الأشياء ليست كحقائق ما في الدنيا أبدًا؛ لأنها لو كانت حقائقها كحقائق ما في الدنيا لكنا نعلم ما أخفي لنا من هذا، ولكنها أعظم وأعظم بكثير مما نتصوره، فالرمان، وإن كنا نعرف معنى الرمان، ونعرف أنه على شكل معين، وطعم معين، وذو حبات معينة، لكن ليس الرمان الذي في الآخرة كهذا فهو أعظم بكثير، لا من جهة الحجم، ولا من جهة اللون، ولا من جهة المذاق، كما قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : (ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء فقط)، أما الحقائق فهي غير معلومة.

وقوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، قال العلماء: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾، أي: من تحت أشجارها وقصورها وإلا فهي على السطح فوق، ثم هذه الأنهار جاء في الأحاديث أنها لا تحتاج إلى حفر، ولا تحتاج إلى بناء أخدود، وفي، هذا يقول ابن القيم في النونية:

أَنْهَارُهَا مِنْ غَيْرِ أُخْدُودٍ جَرَتْ ... سُبْحَانَ مُمْسِكِهَا عَنِ الفَيَضَانِ

الأنهار في المعروف عندنا تحتاج إلى حفر، أو إلى أخدود تمنع من تسرب الماء يمينًا وشمالًا، لكن في الجنة لا تحتاج إلى أخدود، تجري حيث شاء الإنسان، يعني: يوجهها كما شاء بدون حفر، وبدون إقامة أخدود، والأنهار في هذه الآية وفي آيات كثيرة مجملة، لكنها فصلت في سورة القتال ـ سورة محمد ـ قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]. قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾، ﴿ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه الجنات وما فيها من النعيم ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ يعني: الذي به النجاة من كل مرهوب وحصول كل مطلوب؛ لأن الفوز هو عبارة عن حصول المطلوب وزوال المكروه، والجنة كذلك فيها كل مطلوب، وقد زال عنها كل مرهوب، فلا يذوقون فيها الموت، ولا المرض، ولا السقم، ولا الهم، ولا النصب.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾، ﴿بَطْشَ﴾ يعني: أخذه بالعقاب، والشديد القوي كما قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]. فبطش الله يعني:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٤٤)، و مسلم (٢٨٢٤).

انتقامه وأخذه شديد عظيم، ولكنه لمن يستحق ذلك، أما من لا يستحق ذلك، فإن رحمة الله تعالى أوسع، ما أكثر ما يعفو الله عن الذنوب، ما أكثر ما يستر من العيوب، ما أكثر ما يدفع من النقم، وما أكثر ما يجري من النعم، لكن إذا أخذ الظالم لم يفلته، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»(١)، وتلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢] وعلى هذا فنقول: ﴿بَطْشَ رَبِّكَ﴾ أي: فيمن يستحق البطش، أما من لا يستحقه، فإن الله - تعالى - يعامله بالرحمة، ويعامله بالكرم، ويعامله بالجود، ورحمة الله - تعالى - سبقت غضبه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ يعني: أن الأمر إليه ابتداء وإعادة وهذا كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾[الروم: ٢٧] فهو الذي بدأ الأشياء، وإليه تنتهي الأشياء، الأشياء منه وإليه في كل شيء، الخلق من الله وإليه، الشرائع من الله وإليه، كل الأمور من الله وإليه، ولهذا قال تعالى: ﴿يَبْدَؤُا۟﴾ ولم يذكر ما الذي يبدؤه، فمعناه ﴿يَبْدَؤُا۟﴾ كل شيء، ويعيد كل شيء، فكل الأمر بيده - عَزَّ وَجَلَّ - فاعرف أيها العبد من أين أنت؟ وأنك ابتدأت من عدم، واعرف منتهاك وغايتك، وأن غايتك إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾، ﴿ٱلْغَفُورُ﴾، يعني: ذا المغفرة، والمغفرة ستر الذنب والعفو عنه فليست المغفرة ستر الذنب فقط، بل ستره وعدم المؤاخذة عليه، كما جاء في الحديث الصحيح: «إِنَّ اللهَ يَخْلُو بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ حَتَّى يُقِرَّ بِهَا وَيَعْتَرِفَ فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»(٢)، ويُذكر أن بني إسرائيل كانوا إذا أذنب الواحد منهم ذنبًا وجده مكتوبًا على باب بيته فضيحة وعارًا، لكننا نحن ولله الحمد قد ستر الله علينا، فعلينا أن نتوب إلى الله ونستغفره من الذنب فتمحى آثاره، ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾، أي: الستَّار لذنوب عباده المتجاوز عنها.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْوَدُودُ﴾، مأخوذة من الود، والود هو خالص المحبة فهو جل وعلا ودود، ومعنى ودود أنه محبوب وأنه حاب، فهو يشمل الوجهين جميعًا، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]. فهو جل وعلا وادٌّ يحب الأعمال، ويحب الأشخاص، ويحب الأمكنة، وهو كذلك أيضًا محبوب يحبه أولياؤه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. فكلما كان الإنسان أتبع لرسول الله ﷺ كان أحب إلى الله، فهو جل وعلا واد، وهو أيضًا مودود، أي: أنه يَحِبُّ وَيُحَبُّ، يحب - سبحانه وتعالى - الأعمال ويحب العاملين، ويحب الأشخاص يعني: أن محبة الله قد تتعلق بشخص معين مثل قول الرسول ﷺ في يوم خيبر: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ»، فبات الناس ثم غدوا إلى رسول الله ﷺ كل واحد منهم يرجو

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

أن يُعطاها فقال: «أَيْنَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ»؟ قالوا: يشتكي عينيه فدعا به؛ فأتى فبصق في عينه فبرأ كأن لم يكن به وجع في الحال، ثم أعطاه الراية وقال: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِم ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ»[١]. الشاهد قوله: (يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ) فهنا أثبت أن الله يحب، هذا الرجل بعينه علي بن أبي طالب، ولما بعث النبي ﷺ رجلًا على سرية صار يقرأ لهم في الصلاة ويختم القراءة بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلما رجعوا إلى النبي ﷺ أخبروه بذلك؛ لأن عمله هذا وهو أنه يختم القراءة بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ غير معروف، فقال: «سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ يَصْنَعُ ذَلِكَ»؟ فسألوه فقال: إنها صفة الله وأنا أحب أن أقرأها؛ فقال النبي ﷺ: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ»[٢]، فهنا المحبة علقت بشخص معين يحبه الله، وقد تكون محبة الله بمعينين بأوصافهم مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]، هذا ليست في شخص معين لكن في شخص موصوف بصفة، كذلك يحب الله ـ سبحانه وتعالى ـ الأماكن «أَحَبُّ البِقَاعِ إِلَى اللهِ مَسَاجِدُهَا»[٣]، وأخبر النبي ﷺ أن مكة أحب البقاع إلى الله هذه المحبة متعلقة بالأماكن فالله تعالى يحب ويحب ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾، ثم بين عظمته وتمام سلطانه في قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي: صاحب العرش، والعرش هو الذي استوى عليه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وهو أعظم المخلوقات وأكبرها وأوسعها، وقد جاء في الأثر أن السماوات السبع والأراضين السبع بالنسبة إلى الكرسي كحلقة ألقيت في فلاة في الأرض، وأن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة، حلقة الدرع صغيرة ألقيت في فلاة من الأرض ليست بشيء بالنسبة لها «وَإِنَّ فَضْلَ العَرْشِ عَلَى الكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الفَلَاةِ عَلَى هَذِهِ الحَلَقَةِ»[٤].

إذن لا أحد يقدر سعته، وإذا كنا نشاهد من المخلوقات المشهودة الآن التباين العظيم في أحجامها، ولقد أطلعني رجل على صورة الشمس وصورة الأرض، فوجدت أن الأرض بالنسبة لهذه الشمس كنقطة غير كبيرة في صحن واسع كبير، وأنها لا تنسب إلى الشمس إطلاقا، فإذا كان هذا في الأشياء المشهودة التي تدرك بالتلسكوب وغيره فما بالك بالأشياء الغائبة عنا؛ لأن ما غاب عنا أعظم مما نشاهد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٠٩)، ومسلم (٢٤٠٦).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣).

(٣) حسن: أخرجه الحاكم (٧/ ١٥٤)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع»(٣٢٧١)، بلفظ:«خير البقاع المساجد»

(٤) انظر «السلسلة الصحيحة» (١٠٩).

فالحاصل: أن العرش هو سقف المخلوقات كلها، عرش عظيم استوى عليه الرحمن ـ جل وعلا ـ، كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

وقوله تعالى: ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾، فيها قراءتان (المجيدِ) و(المجيدُ) فعلى القراءة الأولى تكون وصفًا للعرش، وعلى الثانية تكون وصفًا للرب ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وكلاهما صحيح فالعرش مجيد، وكذلك الرب ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مجيد، ونحن نقول في التشهد إنك حميد مجيد. قوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، هذا وصف لله ـ تعالى ـ بإنه الفعال لما يريد، كل ما يريده، فإنه يفعله عز وجل؛ لأنه تام السلطان لا أحد يمانعه، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]. فكل ما يريده، فإنه يفعله، لكن ملوك الدنيا، وإن عظمت ملكيتهم لا يفعلون كل ما يريدون، ما أكثر ما يريدون ثم يوجد مانع يمنع، أما الرب فهو ذو السلطان الأعظم الذي لا يرد ما أراده شيء ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، وفي هذا دليل على أن جميع ما وقع في الكون، فإنه بإرادة الله عز وجل؛ لأن الله هو الذي خلقه فيكون واقعًا بإرادته، ولكن الله لا يريد شيئًا إلا لحكمة، فكل ما يقع من أفعال الله، فإنه لحكمة عظيمة قد نعلمها وقد لا نعلمها فقال لهم: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، يشمل كل من كفر بالله ورسوله سواء كان من المشركين، أو من اليهود، أو النصارى أو غيرهم؛ وذلك؛ لأن اليهود والنصارى الآن وبعد بعثة الرسول ﷺ ليسوا على دين، ولا تنفعهم أديانهم؛ لأنه ـ أي: النبي ﷺ ـ خاتم الأنبياء فمن لم يؤمن به فليس على شيء من دينه، بل إن من لم يؤمن برسول واحد من الرسل فهو كافر بجميع الرسل، فمثلًا من لم يؤمن بنوح أنه رسول ولو آمن بغيره من الأنبياء، فإنه مكذب لغيره من الرسل، فإذا ادعت اليهود أنهم على دين وأنهم يتبعون التوراة التي جاء بها موسى نقول لهم: أنتم كافرون بموسى كافرون بالتوراة، وإذا ادعت النصارى الذين يسمون أنفسهم اليوم (بالمسيحيين) أنهم مؤمنون بعيسى قلنا لهم: كذبتم أنتم كافرون بعيسى؛ لأنكم كافرون بمحمد ﷺ، والعجب أن هؤلاء اليهود والنصارى يكفرون بمحمد ﷺ مع أنهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، يعرفونه، كما يعرفون أبناءهم، لكن العناد والكبرياء والحسد منعهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]. فالحاصل أن قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، يشمل كل من كفر بمحمد حتى من اليهود والنصارى، ولهذا قال النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ ـ يعني: أمة الدعوة ـ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ

بِمَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»(١)، كل الكفار في تكذيب وقال تعالى: ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾، فجعل التكذيب كالظرف لهم يعني: أنه محيط بهم من كل جانب ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾، يعني: أن الله تعالى محيط بهم من كل جانب لا يشذون عنه لا عن علمه، ولا سلطانه، ولا عقابه، ولكنه - عَزَّ وَجَلَّ - قد يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾، ﴿بَلْ هُوَ﴾، أي: ما جاء به الرسول ﷺ ﴿قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ أي: ذو عظمة ومجد، ووصف القرآن بأنه مجيد لا يعني: أن المجد وصف للقرآن نفسه فقط، بل هو وصف للقرآن، ولمن تحمل هذا القرآن فحمله وقام بواجبه من تلاوته حق تلاوته، فإنه سيكون لهم المجد والعزة والرفعة.

وقوله تعالى: ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾، يعني بذلك: اللوح المحفوظ عند الله - عَزَّ وَجَلَّ - الذي هو أم الكتاب، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]: وهذا اللوح كتب الله به مقادير كل شيء، ومن جملة ما كتب به أن هذا القرآن سينزل على محمد ﷺ فهو في لوح محفوظ، قال العلماء: ﴿مَّحْفُوظٍ﴾ لا يناله أحد محفوظ عن التغيير والتبديل، والتبديل والتغيير إنما يكون في الكتب الأخرى؛ لأن الكتابة من الله - عَزَّ وَجَلَّ - أنواع:

النوع الأول: الكتابة في اللوح المحفوظ وهذه الكتابة لا تبدل، ولا تغير؛ ولهذا سماه الله لوحًا محفوظًا، لا يمكن أن يبدل أو يغير ما فيه.

النوع الثاني: الكتابة على بني آدم وهم في بطون أمهاتهم؛ لأن الإنسان في بطن أمه إذا تم له أربعة أشهر، بعث الله إليه ملكًا موكلًا بالأرحام، فينفخ فيه الروح بإذن الله؛ لأن الجسد عبارة عن قطعة من لحم إذا نفخت فيه الروح صار إنسانًا، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد.

النوع الثالث: كتابة حولية كل سنة، وهي الكتابة التي تكون في؛ ليلة القدر، فإن الله - سبحانه وتعالى - يقدر في هذه الليلة ما يكون في تلك السنة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]. فيكتب في هذه الليلة ما يكون في تلك السنة.

النوع الرابع: وهي كتابة يومية تقوم بها الملائكة حيث يكتبون كل ما يعمله الإنسان في ذلك اليوم سواء كان قولًا بلسانه أم عملًا بجوارحه أم اعتقادًا بقلبه وذلك في الصحف التي في أيدي الملائكة، وهذه الكتابة تكون بعد العمل، والكتابات الثلاث السابقة كلها قبل العمل، لكن الكتابة الأخيرة هذه تكون بعد العمل، يكتب على الإنسان ما يعمل من قول، بلسانه، أو فعل بجوارحه، أو اعتقاد بقلبه، فإن الملائكة الموكلين بحفظ بني آدم أي: بحفظ أعمالهم يكتبون قال

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٥٣)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣١٧).

الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ٩ـ١٢].

فإذا كان يوم القيامة، فإنه يعطى هذا الكتاب، كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]. يعني: تعطى الكتاب ويقال لك أنت: اقرأ وحاسب نفسك، قال بعض السلف: لقد أنصفك من جعلك حسيبًا على نفسك، وهذا صحيح، أي إنصاف أبلغ من أن يقال للشخص تفضل، هذا ما عملت حاسب نفسك، أليس هذا هو الإنصاف؟! بلى أكبر إنصاف هو هذا، فيوم القيامة تعطى، هذا الكتاب منشورًا مفتوحًا أمامك ليس مغلقًا، تقرأ ويتبين لك أنك عملت في يوم كذا، في مكان كذا، كذا وكذا، فهو شيء مضبوط لا يتغير، وإذا أنكرت فهناك من يشهد عليك ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ [النور: ٢٤]، يقول اللسان: نطقت بكذا ﴿وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، تقول اليد: بطشت، تقول الرجل: مشيت بل يقول الجلد أيضًا، الجلود تشهد بما لمست ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ٢١]. فالأمر ليس بالأمر الهين ـ نسأل الله تعالى أن يتولانا وإياكم بعفوه ومغفرته ـ وإلى هنا ينتهي الكلام على هذه السورة العظيمة التي ابتدأها الله تعالى بالقسم بالسماء ذات البروج وأنهاها بقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾، فمن تمسك بهذا القرآن العظيم فله المجد والعزة والكرامة والرفعة، ولهذا ننصح أمتنا الإسلامية بادئين بأفراد شعوبها أن يتمسكوا بالقرآن العظيم، ونوجه الدعوة على وجه أوكد إلى ولاة أمورها أن يتمسكوا بالقرآن العظيم، وألَّا يغرهم البهرج المزخرف الذي يرد من الأمم الكافرة التي تضع القوانين المخالفة للشريعة، المخالفة للعدل، المخالفة لإصلاح الخلق، أن يضعوها موضع التنفيذ، ثم ينبذوا كتاب الله تعالى وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ وراء ظهورهم، فإن، هذا والله سبب التأخر، ولا أظن أحدًا يتصور أن أمة بهذا العدد الهائل تكون متأخرة هذا التأخر، وكأنها إمارة في قرية بالنسبة للدول الكافرة، لكن سبب ذلك لا شك معلوم هو أننا تركنا ما به عزتنا وكرامتنا، وهو: التمسك بهذا القرآن العظيم، وذهبنا نلهث وراء أنظمة بائدة فاسدة مخالفة للعدل، مبنية على الظلم والجور، فنحن نناشد ولاة أمور المسلمين جميعًا، أناشدهم أن يتقوا الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وأن يرجعوا رجوعًا حقيقيًّا إلى كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ حتى يستتب لهم الأمن والاستقرار، وتحصل لهم العزة والمجد والرفعة، وتطيعهم شعوبهم، ولا يكون في قلوب شعوبهم عليهم شيء وذلك؛ لأن الإنسان إذا أصلح ما بينه وبين ربه، أصلح الله ما بينه وبين الناس، فإذا كان ولاة الأمور يريدون أن تذعن لهم الشعوب، وأن يطيعوا الله فيهم، فليطيعوا الله أولًا حتى تطيعهم أممهم، وإلا فليس من المعقول أن يعصوا مالك

الملك، وهو الله - عَزَّ وَجَلَّ - ثم يريدون أن تطيعهم شعوبهم، هذا بعيد جدًّا، بل كلما بَعُد القلب عن الله بعد الناس عن صاحبه، وكلما قَرُب من الله قرب الناس منه، فنسأل الله أن يعيد لهذه الأمة الإسلامية مجدها وكرامتها، وأن يذل أعداء المسلمين في كل مكان، وأن يكبتهم، وأن يردهم على أعقابهم خائبين، إنه على كل شيء قدير.



تفسير سورة الطارق

قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤)
فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ
رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١-١٠].

التفسير

البسملة سبق الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾، ابتدأالله - عَزَّ وَجَلَّ - هذه السورة بالقسم، أقسم الله تعالى بالسماء والطارق وقد يشكل على بعض الناس كيف يقسم الله - سبحانه وتعالى - بالمخلوقات مع أن القسم بالمخلوقات شرك لقول النبي ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فَقَدْ كَفَرَ» أو «أَشْرَكَ»[(١)]، وقال ﷺ: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِالله أَوْ لِيَصْمُتْ»[(٢)]. فلا يجوزَ الحلفَ بغير الله لا بالأنبياء، ولا بالملائكة، ولا بالكعبة، ولا بالوطنَ، ولا بأي: شيء من المخلوقات؟

والجواب على هذا الإشكال أن نقول: إن الله - سبحانه وتعالى - له أن يقسم بما شاء من خلقه، وإقسامه بما يقسم به من خلقه يدل على عظمة الله عز وجل؛ لأن عِظم المخلوق يدل على عِظم الخالق، وقد أقسم الله - تعالى - بأشياء كثيرة من خلقه، ومن أحسن ما رأيته تكلم على هذا الموضوع ابن القيم - رحمه الله - في كتابه: **التبيان في أقسام القرآن**، وهو كتاب جيد ينفع طالب

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٤)، والترمذي (١٥٣٥)،وأبو داود (٣٢٥١)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٢٥٦١).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

العلم كثيرًا، فهنا يقسم الله ـ تعالى ـ بالسماء، والسماء هو كل ما علاك، فكل ما علاك فهو سماء، حتى السحاب الذي ينزل منه المطر يسمى سماءً، كما قال الله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]. وإذا كان يطلق على كل ما علاك، فإنه يشمل ما بين السماء والأرض ويشمل السماوات كلها؛ لأنها كلها قد علتك وهي فوقك، وأما قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّارِقِ﴾، فهو قسم ثان، أي: أن الله أقسم بالطارق فما هو الطارق؟ ليس الطارق هو الذي يطرق أهله؛ ليلًا، بل فسره الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بقوله تعالى: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾، هذا هو الطارق، والنجم هنا يحتمل أن يكون المراد به جميع النجوم فتكون (أل) للجنس، ويحتمل أنه النجم الثاقب، أي: النجم اللامع، قوي اللمعان؛ لأنه يثقب الظلام بنوره، وأيًّا كان، فإن هذه النجوم من آيات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ الدالة على كمال قدرته، في سيرها وانتظامها، واختلاف أشكالها واختلاف منافعها أيضًا، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]. فهي زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها.

ثم بين الله المقسم عليه بقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾، ﴿إِن﴾، هنا نافية يعني: ما كل نفس، و﴿لَّمَّا﴾، بمعنى (إلا) يعني: ما كل نفس إلا عليها حافظ من الله، وبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ مهمة، هذا الحافظ بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢]. هؤلاء الحفظة يحفظون على الإنسان عمله، ما له وما عليه، ويجده يوم القيامة كتابًا منشورًا يقال له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]. هؤلاء الحفظة يكتبون ما يقوم به الإنسان من قول، وما يقوم به من فعل، سواء كان ظاهرًا كأقوال اللسان، وأعمال الجوارح، أم باطنًا حتى ما في القلب مما يعتقده الإنسان، فإنه يكتب عليه لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق ١٦ ـ ١٨]، هذا الحافظ يحفظ عمل بني آدم، وهناك حفظة آخرون ذكرهم الله في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾، (اللام) هنا للأمر، والمراد بالنظر هنا نظر الاعتبار، وهو النظر بالبصيرة، يعني ليفكر الإنسان مما خلق؟ هل خلق من حديد؟ هل خلق من فولاذ؟ هل خلق من شيء قاسٍ قوي؟

والجواب على هذه التساؤلات: أنه ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾، وهو ماء الرجل، ووصفه الله ـ تعالى ـ في آيات أخرى بأنه ماء مهين ضعيف السيلان ليس كالماء العادي المنطلق، ووصفه الله ـ تعالى ـ في آية أخرى أنه نطفة أي: قليل من الماء هذا الذي خلق منه الإنسان، والعجب أن يخلق الإنسان من

هذا الماء المهين، ثم يكون قلبه أقسى من الحجارة - والعياذ بالله - إلا من الآن الله قلبه لدين الله، ثم بين أن هذا الماء الدافق، وقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾، من بين صلب الرجل وترائبه أعلى صدره، وهذا يدل على عمق مخرج هذا الماء، وأنه يخرج من مكان مكين في الجسد، وقال بعض العلماء: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ﴾ أي: صلب الرجل، وقوله تعالى: ﴿وَالتَّرَائِبِ﴾ ترائب المرأة، ولكن هذا خلاف ظاهر اللفظ، والصواب أن الذي يخرج من بين الصلب والترائب هو ماء الرجل؛ لأن الله تعالى وصفه بذلك.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الله عز وجل. قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِ﴾، أي: على رجع الإنسان ﴿لَقَادِرٌ﴾، وذلك يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ فالذي قدر على أن يخلق الإنسان من، هذا الماء الدافق المهين، قادر على أن يعيده يوم القيامة، وهذا من باب الاستدلال بالمحسوس على المنظور المترقب، وهو قياس عقلي، فإن الإنسان بعقله يقول: إذا كان الله قادرًا على أن يخلق الإنسان من هذا هو الماء المهين ويحييه قادر على أن يعيده مرة ثانية ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]؛ ولهذا يستدل الله - عَزَّ وَجَلَّ - بالمبدأ على المعاد؛ لأنه قياس جلي واضح، ينتقل العقل من هذا إلى هذا بسرعة وبدون كلفة، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾، أي: تختبر السرائر، وهي القلوب، فإن الحساب يوم القيامة على ما في القلوب، والحساب في الدنيا على ما في الجوارح، ولهذا عامل النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - المنافقين معاملة المسلمين حيث كان يُستأذن في قتلهم فيقول: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»(١)، فكان لا يقتلهم، وهو يعلم أن فلانًا منافق، وفلانًا منافق، لكن العمل في الدنيا على الظاهر ويوم القيامة على الباطن ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ أي: تختبر وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩، ١٠].

ولهذا يجب علينا العناية بعمل القلب أكثر من العناية بعمل الجوارح، عمل الجوارح علامة ظاهرة، لكن عمل القلب هو الذي عليه المدار؛ ولهذا أخبر النبي ﷺ عن الخوارج يخاطب الصحابة يقول: «يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ - يعني: أنهم يجتهدون في الأعمال الظاهرة لكن قلوبهم خالية والعياذ بالله - لَا يَتَجَاوَزُ الإِسْلَامُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلَامِ، كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»(٢)، قال الحسن البصري رحمه الله: (والله ما سبقهم أبو بكر بصلاة، ولا صوم، وإنما سبقهم بما وقر في قلبه من الإيمان) والإيمان إذا وقر في القلب حمل الإنسان على العمل، لكن العمل الظاهر قد لا يحمل الإنسان على إصلاح قلبه، فعلينا أن نعتني بقلوبنا وأعمالها، وعقائدها، واتجاهاتها، وإصلاحها وتخليصها من شوائب الشرك والبدع، والحقد

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤).

والبغضاء، وكراهة ما أنزل الله على رسوله وكراهة الصحابة - رضي الله عنهم، وغير ذلك مما يجب تنزيه القلب عنه.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ﴾، يعني: يوم القيامة ما للإنسان من قوة ذاتية ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾، وهي القوة الخارجية، هو بنفسه لا يستطيع أن يدافع عن نفسه، ولا أحد يستطيع أن يدافع عنه، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]. في الدنيا يتساءلون، يسأل بعضهم بعضًا، ويحتمي بعضهم ببعض، لكن يوم القيامة لا أنساب يعني: لا قرابة، لا تنفع القرابة، ولا يتساءلون.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: ١١-١٧].

❁ التفسير ❁

بعد أن ذكر الله تعالى الإقسام ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾، هذا هو القسم الثاني للسماء، والقسم الأول ما كان في أول السورة، فهناكقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾، هناقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾، والمناسبة بين القسمين - والله أعلم - أن الأول فيه إشارة إلى الطارق الذي هو النجم، والنجم تُرمى به الشياطين الذين يسترقون السمع، وفي رمي الشياطين بذلك حفظ لكتاب الله - عَزَّ وَجَلَّ - أما هنا؛ فأقسم بالسماء ذات الرجع أن هذا القرآن قول فصل؛ فأقسم على أن القرآن قول فصل، فصار القسم الأول مناسبته أن فيه الإشارة إلى ما يحفظ به، هذا القرآن حال إنزاله، وفي القسم الثاني الإشارة إلى أن القرآن حياة، يعني ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾، الرجع هو المطر، يسمى رجعًا؛ لأنه يرجع ويتكرر، ومعلوم أن المطر به حياة الأرض.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾، الصدع هو الانشقاق يعني: التشقق بخروج النبات منه؛ فأقسم بالمطر الذي هو سبب خروج النبات، وبالتشقق الذي يخرج منه النبات، وكله إشارة إلى حياة الأرض بعد موتها، والقرآن به حياة القلوب بعد موتها، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. فسمى الله القرآن روحًا؛ لأنه تحيى به القلوب.

يقول الله ـ عزَّ وَجَلَّ ـ : ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ أي: ذات المطر. قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾، أي: ذات الانشقاق لخروج النبات منها. قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن ﴿لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾، وصفه الله تعالى بأنه قول فصل، وهو قول الله ـ عزَّ وَجَلَّ ـ فهو الذي تكلم به وألقاه إلى جبريل ﷺ، ثم نزل به جبريل على قلب النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، وقد أضاف الله القرآن قولًا إلى جبريل، وإلى محمد عليهما الصلاة والسلام، فقال تعالى في الأول: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢١]. وقال في الثاني إضافته إلى الرسول ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠، ٤١]. ففي الأول أضاف القول إلى جبريل ﷺ؛ لأنه، بلغه عن الله إلى محمد ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، وفي الثاني أضافه إلى محمد ﷺ؛ لأنه، بلغه إلى الناس، وإلا، فإن الذي قاله ابتداءً هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾ فصل يفصل بين الحق والباطل، وبين المتقين والظالمين، بل إنه فصل أي: قاطع لكل من ناوأه وعاداه، ولهذا نجد المسلمين لما كانوا يجاهدون الكفار بالقرآن نجدهم غلبوا الكفار، وقطعوا دابرهم، وقضي بينهم، فلما أعرضوا عن القرآن هُزموا وأذلوا بقدر بُعدهم عن القرآن، وكلما أبعد الإنسان عن كتاب الله ابتعدت عنه العزة، وابتعد عنه النصر حتى يرجع إلى كتاب الله عزَّ وَجلَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ أي: ما هو باللعب والعبث واللغو، بل هو حق، كلماته كلها حق، أخباره صدق، وأحكامه عدل، وتلاوته أجر، لو تلاه الإنسان كل أوانه لم يمل منه، وإذا تلاه بتدبر وتفكر فتح الله عليه من المعاني ما لم يكن عنده من قبل، وهذا شيء مشاهد، اقرأ القرآن وتدبره، كلما قرأته وتدبرته حصل لك من معانيه ما لم يكن يحصل لك من قبل، كل، هذا؛ لأنه فصل وليس بالهزل، لكن الكلام اللغو من كلام الناس كلما كررته مججته وكرهته ومللته أما كتاب الله فلا.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا﴾ ﴿إِنَّهُمۡ﴾، يعني: الكفار المكذبين للرسول ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ ﴿يَكِيدُونَ كَيۡدٗا﴾ أي: كيدًا عظيمًا، يكيدون للرسول ﷺ ويكيدون لمن اتبعه، وانظر ماذا كانوا يفعلون بالمؤمنين أيام كانوا في مكة من التعذيب والتوبيخ والتشريد، هاجر المسلمون مرتين إلى الحبشة، ثم هاجروا إلى المدينة كل ذلك فرارًا بدينهم من هؤلاء المجرمين، الذين آذوهم بكل كيد، وأعظم ما فعلوه بالنبي ﷺ حين الهجرة حيث اجتمع رؤساؤهم وأشرافهم يتشاورون ماذا يفعلون بمحمد؟ فكلما ذكروا رأيًا نقضوه، قالوا هذا لا يصلح، حتى أشار إليهم فيما ذكره أهل التاريخ الشيطان الذي جاء بصورة رجل وقال لهم: إني أرى أن تختاروا عشرة شبان من قبائل متفرقة، وتعطوا كل واحد منهم سيفًا حتى يقتلوا محمدًا قتلة رجل واحد، فإذا فعلوا ذلك

تفرق دمه في القبائل، فلم تستطع بنو هاشم أن تقتص من القبائل كلها فيرضخون إلى أخذ الدية. وهذا هو الذي يريدون فأجمعوا على، هذا الرأي: واستحسنوا، هذا الرأي، وفعلًا جلس الشبان العشرة ينتظرون خروج النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - ليقتلوه، ولكن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - خرج من الباب وهم جلوس ولم يشاهدوه، وذكر التاريخ أنه جعل يذر التراب على رؤوسهم إذلالًا لهم، ويقرأ قول الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يس: ٩]، ولا تتعجب كيف خرج النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - من بينهم ولم يشاهدوه، لا تعجب من، هذا، فها هم قريش حين اختبأ النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - في الغار لما خرج من مكة يريد المدينة اختبأ في الغار ثلاثة أيام ليخف عنه الطلب؛ لأن قريشًا صارت تطلبه، وجعلت لمن جاء به مئة بعير، ولمن جاء به مع أبي بكر مئتي بعير، وهذه جائزة كبيرة، فوقفوا على الغار الذي فيه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وأبو بكر، وكلنا يعلم أن الغار المفتوح إذا كان فيه أحد فسوف يُرى، ولكنهم لم يروا النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - ولا أبا بكر - رضي الله عنه -، فقال: يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى قدمه؛ لأبصرنا. فقال: «لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا»(١). فاطمأن أبو بكر، هؤلاء القوم الذين وقفوا على الغار ليس عندهم قصور في السمع، ولا قصور في البصر، ولا قصور في الذكاء، ولكن أعمى الله أبصارهم عن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - وصاحبه، فلا تعجبوا أن خرج من بين هؤلاء الشبان العشرة، كما قال أهل التاريخ، وجعل يذر التراب على رؤوسهم ويقول: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾، وقال الله تعالى في سورة الأنفال: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ ﴾، يعني: يحبسوك ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]. قوله تعالى: ﴿إنهم يكيدون كيدًا وأكيد كيدًا﴾، ثم قال - عزَّ وَجَلَّ -: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾، مهل وأمهل معناهما واحد يعني: انتظر بمهلة، ولا تنتظر بمهلة طويلة، ﴿رُوَيْدًۢا﴾، أي: قليلًا، ورويدًا تصغير رود أو إرواد، والمراد به الشيء القليل.

وفي هذه الآية تهديد لقريش، وتسلية للرسول - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، ووعد له بالنصر. وحصل الأمر، كما أخبر الله - عَزَّ وَجَلَّ - خرج النبي ﷺ مهاجرًا منهم، وحصل بينه وبينهم حروب، وفي السنة الثانية من الهجرة قُتل من صناديد قريش وكبرائهم وزعمائهم نحو أربعة وعشرين رجلًا، منهم قائدهم أبو جهل، وبعد ثماني سنوات، بل أقل من ثماني سنوات دخل النبي ﷺ مكة فاتحًا منصورًا ظافرًا، حتى إنه قال، كما جاء في التاريخ، وهو ممسك بعضادتي باب الكعبة وقريش تحته قال لهم: «مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ»؟ لأن أمرهم أصبح بيده ﷺ، «ما ترون أني

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦٥٢)، ومسلم (٢٣٨١).

فاعل بكم»؟ قالوا: أخٌ كريم، وابن أخ كريم. فقال: «إِنِّي أَقُولُ لَكُمْ كَمَا قَالَ يُوسِفُ لِإِخْوَتِهِ: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٩٢] اذْهَبُوا فَأَنْتُم الطُّلَقَاءُ»[1]، وإنما منَّ عليهم هذه المنة ﷺ؛ لأنهم أسلموا، وقد قال الله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: ٣٨].

نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن يتلون كتاب الله حق تلاوته، وأن ينفعنا به، وأن يجعله شفيعًا لنا يوم القيامة، إنه على كل شيء قدير، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.



(١) ضعيف: أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» (٤/ ٣١-٣٢)، وعنه الطبري في «التاريخ» (٣/ ١٢٠)، كذا قال الشيخ الألباني في «الضعيفة» (١١٦٣).

تفسير سورة الأعلى

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ۝٦ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۝١١ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١-١٣].

❁ التفسير ❁

البسملة سبق الكلام عليها، وإنها آية من كتاب الله مستقلة ليست من الفاتحة، ولا من البقرة، ولا من آل عمران، ولا من أي: سورة من القرآن، لكنها آية مستقلة تنزل في ابتداء كل سورة سوى سورة (براءة) التوبة.

قال الله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ الخطاب هنا للرسول ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، والخطاب الموجه للرسول في القرآن الكريم على ثلاثة أقسام: القسم الأول: أن يقوم الدليل على أنه خاص به فيختص به، القسم الثاني: أن يقوم الدليل على أنه عام فيعم، القسم الثالث: ألَّا يدل دليل على، هذا، ولا على، هذا، فيكون خاصًا به لفظًا، عامًّا له وللأمة حكمًا.

مثال الأول: قوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح: ١، ٢]. ومثاله أيضًا قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء: ٧٩]، فإن هذا من المعلوم أنه خاص بالنبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ.

ومثال الثاني الموجه للرسول ﷺ، وفيه قرينة تدل على العموم: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]. فوجه الخطاب أولًا للرسول ﷺ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، ولم يقل «يا أيها الذين آمنوا إذا طلقتم» قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾،

ولم يقل: (يا أيها النبي إذا طلقت) بل قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ فدل هذا على أن الخطاب الموجه للرسول ﷺ موجه له وللأمة.

وأما أمثلة الثالث: فهي كثيرة جدًا يوجه الله الخطاب للرسول ﷺ، والمراد الخطاب له لفظًا وللعموم حكمًا، هنا يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، ﴿سَبِّحِ﴾، يعني: نَزِّه الله عن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته، فإن التسبيح يعني: التنزيه، فإذا قلت: سبحان الله، يعني: أنني أنزه الله عن كل سوء، عن كل عيب، عن كل نقص، ولهذا كان من أسماء الله تعالى (السلام، القدوس)؛ لأنه منزه عن كل عيب، وأضرب أمثلة: من صفات الله تعالى: الحياة ليس فيها نقص بوجه من الوجوه، وحياة المخلوق فيها نقص، أولًا: لأنها مسبوقة بالعدم فالإنسان ليس أزليًا. وثانيًا: أنها ملحوقة بالفناء ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦].

مثال آخر: سمع الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ليس فيه نقص يسمع كل شيء، حتى إن المرأة التي جاءت تشتكي إلى النبي ﷺ والتي ذكر الله تعالى قصتها في سورة المجادلة[1]، كانت تُحدث النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ وعائشة في الحجرة يخفى عليها بعض حديثها، والله تعالى يقول في كتابه: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١]؛ ولهذا قالت عائشة: (الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات)، إن المرأة المجادلة لتشتكي إلى النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ وإنه ليخفى عليَّ بعض حديثها[2]؛ إذن معنى ﴿سَبِّحِ﴾، نزه الله عن كل عيب ونقص. وقوله تعالى: ﴿ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، قال بعض المفسرين: إن قوله تعالى: ﴿ٱسْمَ رَبِّكَ﴾، يعني: مسمى ربك؛ لأن التسبيح ليس للاسم، بل لله نفسه، ولكن الصحيح أن معناها: سبح ربك ذاكرًا اسمه، يعني: لا تسبحه بالقلب فقط، بل سبحه بالقلب واللسان، وذلك بذكر اسمه تعالى، ويدل لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٩٦]. يعني: سبح تسبيحًا مقرونًا باسم وذلك؛ لأن تسبيح الله تعالى قد يكون بالقلب، بالعقيدة، وقد يكون باللسان، وقد يكون بهما جميعًا، والمقصود أن يسبح بهما جميعًا بقلبه لافظًا بلسانه. وقوله: ﴿رَبِّكَ﴾، الرب معناه الخالق المالك المدبر لجميع الأمور، فالله تعالى هو الخالق، وهو المالك، وهو المدبر لجميع الأمور، والمشركون يقرون بذلك ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]. قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]. وأخبر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنهم إذا سئلوا ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١]. فهم يقرون بأن الله له الملك، وله التدبير، وله الخلق، لكن

---

(١) تجوز (المجادِلة) بكسر الدال وفتحها (المجادَلة).

(٢) صحيح: أخرجه النسائي (٣٤٦٠)، وابن ماجه (١٨٨)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

يعبدون معه غيره، وهذا من الجهل، كيف تقر بأن الله وحده هو الخالق، المالك، المدبر للأمور كلها وتعبد معه غيره!! إذن معنى الرب هو الخالق، المالك، المدبر لجميع الأمور، وكل إنسان يقر بذلك يلزمه ألَّا يعبد إلا الله، كما تدل عليه الآيات الكثيرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١] ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ يعني: لا تعبدوا غيره. قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾ من العلو، وعلو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ نوعان: علو صفة، وعلو ذات، أما علو الصفة:، فإن أكمل الصفات لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

وأما علو الذات: فهو أن الله ـ تعالى ـ فوق عباده مستو على عرشه، والإنسان إذا قال: يا الله أين يتجه؟ يتجه إلى السماء إلى فوق، فالله جل وعلا فوق كل شيء مستو على عرشه. إذن ﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾، فإذا قرأتها فاستشعر بنفسك أن الله عال بصفاته، وعال بذاته، ولهذا كان الإنسان إذا سجد يقول: سبحان ربي الأعلى، يتذكر بسفوله هو لأنه هو الآن نزل، فأشرف ما في الإنسان وأعلى ما في الإنسان هو وجهه ومع ذلك يجعله في الأرض التي تداس بالأقدام، فكان من الحكمة أن تقول: سبحان ربي الأعلى، يعني: أنزه ربي الذي هو فوق كل شيء؛ لأني نزلت أنا أسفل كل شيء، فتسبح الله الأعلى بصفاته، والأعلى بذاته، وتشعر عندما تقول: سبحان ربي الأعلى، أن ربك تعالى فوق كل شيء، وأنه أكمل كل شيء في الصفات.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾، ﴿خَلَقَ﴾، يعني: أوجد من العدم، كل المخلوقات أوجدها الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُ﴾ [الحج: ٧٣]، وهو مثل عظيم، كل الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا، ولو اجتمعوا له، لو يجتمع جميع الآلهة التي تعبد من دون الله وجميع السلاطين وجميع الرؤساء وجميع المهندسين على أن يخلقوا ذبابًا واحدًا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، ونحن في هذا العصر وقد تقدمت الصناعة، هذا التقدم الهائل لو اجتمع كل هؤلاء الخلق أن يخلقوا ذبابًا ما استطاعوا، حتى لو أنهم، كما يقولون: صنعوا آدميًا آليًا ما يستطيعون أن يخلقوا ذبابة، هذا الآدمي الآلي ما هو إلا الآلات تتحرك فقط، لكن لا تجوع، ولا تعطش، ولا تحتر، ولا تبرد، ولا تتحرك إلا بتحريك، الذباب لا يمكن أن يخلقه كل من سوى الله، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ وحده هو الخالق وبماذا يخلق؟ بكلمة واحدة ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. كلمة واحدة، الخلائق كلها تموت وتفنى وتأكلها الأرض، وتأكلها السباع، وتحرقها النيران، وإذا كان يوم القيامة زجرها الله زجرة واحدة اخرجي فتخرج. قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]. قوله تعالى: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ

جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]. كل العالم من إنس وجن، ووحوش وحشرات وغيرها كلها يوم القيامة تحشر بكلمة واحدة. إذن فالله - عَزَّ وَجَلَّ - وحده هو الخالق، ولا أحد يخلق معه، والخلق لا يعسره، ولا يعجزه، وهو سهل عليه ويكون بكلمة واحدة. وقوله: ﴿فَسَوَّىٰ﴾، يعني: سوى ما خلقه على أحسن صورة، وعلى الصورة المتناسبة، الإنسان مثلًا قال الله تعالى في سورة الانفطار: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٧، ٨]. كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]. لا يوجد في الخلائق شيء أحسن من خلقة الإنسان، رأسه فوق، وقلبه في الصدر، وعلى هيئة تامة، ولهذا أول من يدخل في قوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰ﴾ هو تسوية الإنسان ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾، كل شيء يسوى على الوجه الذي يكون لائقًا به.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾، قدر كل شيء - عَزَّ وَجَلَّ -، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]. قدره في حاله، وفي مآله، وفي ذاته، وفي صفاته، فكل شيء له قدر محدود، فالاجال محدودة، والأحوال محدودة، والأجسام محدودة، وكل شيء مقدر تقديرًا، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾، وقوله: ﴿فَهَدَىٰ﴾ يشمل الهداية الشرعية، والهداية الكونية، الهداية الكونية: أن الله هدى كل شيء لما خلق له، قال فرعون لموسى: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠]. تجد كل مخلوق قد هداه الله تعالى لما يحتاج إليه، فالطفل إذا خرج من بطن أمه وأراد أن يرضع يهديه الله - عَزَّ وَجَلَّ - إلى هذا الثدي يرتضع منه، وانظر إلى أدنى الحشرات النمل مثلًا لا تصنع بيوتها إلا في مكان مرتفع على ربوة من الأرض تخشى من السيول تدخل بيوتها فتفسدها، وإذا جاء المطر وكان في جحورها، أو في بيوتها طعام من الحبوب تخرج به إذا طلعت الشمس تنشره؛ لئلا يعفن، وهي قبل أن تدخره تأكل أطراف الحبة لئلا تنبت فتفسد عليهم، وهذا الشيء مشاهد مجرب، فمن الذي هداها لذلك؟ إنه الله - عَزَّ وَجَلَّ - وهذه هداية كونية أي: أنه هدى كل مخلوق لما يحتاج إليه.

أما الهداية الشرعية - وهي الأهم بالنسبة لبني آدم - فهي أيضًا بينها الله - عَزَّ وَجَلَّ - حتى الكفار قد هداهم الله يعني: بيّن لهم، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]. والهداية الشرعية هي المقصود من حياة بني آدم ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وإنما أخبرنا الله بذلك؛ لأجل أن نلجأ إليه في جميع أمورنا، فإذا علمنا أنه هو الخالق بعد العدم وأصابنا المرض نلجأ إلى الله؛ لأن الذي خلقك وأوجدك من العدم قادر على أن يصحح بدنك، إذن الجأ إلى ربك، اعتمد عليه، ولا حرج أن تتناول ما أباح لك من الدواء، لكن مع اعتقاد أن، هذا الدواء سبب من الأسباب جعله الله - عزَّ وَجَلَّ - وإذا شفيت بهذا السبب فالذي شفاك هو الله - عَزَّ وَجَلَّ - هو الذي جعل، هذا الدواء سببًا لشفائك، ولو شاء لجعل، هذا الدواء سببًا لهلاكك، فإذا علمنا أن الله هو الخالق فنحن نلجأ

في أمورنا كلها إلى الله ـ عزَّ وَجَلَّ ـ، فإذا علمنا أنه هو الهادي، فإننا نستهدي بهدايته، بشريعته حتى نصل إلى ما أعد لنا ربنا ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ من الكرامة. قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾، هذا وعد من الله ـ سبحانه وتعالى ـ لرسوله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ أنه يقرئه القرآن، ولا ينساه الرسول، وكان الرسول ﷺ يتعجل إذا جاء جبريل يُلقي عليه الوحي فقال الله له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٩]. فصار النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ ينصت حتى ينتهي جبريل من قراءة الوحي ثم يقرأه، وهنا يقول الله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾، يعني: إلا ما شاء أن تنساه، فإن الأمر بيده ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩].

قول الله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٠٦ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٦، ١٠٧]. وربما نُسّي النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ آية من كتاب الله، ولكنه سرعان ما يذكرها ﷺ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ﴾ أي: أن الله تعالى يعلم الجهر، والجهر: ما يجهر به الإنسان ويتكلم به مسموعًا. قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ﴾، أي: ما يكون خفيًّا لا يُظهر، فإن الله يعلمه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦]. فهو يعلم ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ الجهر ويعلم أيضًا ما يخفى. قوله تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾، وهذا أيضًا وعد من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لرسوله ﷺ أن ييسره لليسرى، واليسرى أن تكون أموره ميسرة، ولاسيما في طاعة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ولما أخبر النبي ﷺ أنه ما من أحد من الناس إلا وقد كتب مقعده من الجنة، ومقعده من النار، كل بني آدم مكتوب مقعده من الجنة إن كان من أهل الجنة، ومقعده من النار إن كان من أهل النار، قالوا: (يا رسول الله أفلا ندع العمل ونتكل؟ يعني: على ما كتب، قال: «لَا اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»(١)؛ فأهل السعادة ييسرون لعمل أهل السعادة، وأهل الشقاوة ييسرون لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥:٧] وهذا الحديث يقطع حُجة من يحتج بالقدر على معاصي الله فيعصي الله ويقول: هذا مكتوب علي وهذا ليس بحجة؛ لأن الرسول ﷺ قال: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ» هل أحد يحجزك عن العمل الصالح لو أردته؟ أبدًا. هل أحد يجبرك على المعصية لو لم تردها؟ أبدًا لا أحد، ولهذا لو أن أحدًا أجبرك على المعصية وأكرهك عليها لم يكن عليك إثم، ولا يترتب على فعلك لها ما يترتب على فعل المختار لها، حتى إن الكفر، وهو أعظم الذنوب، قال الله تعالى فيه: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧).

أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦]؛ إذن نقول اعمل أيها الإنسان، اعمل الخير وتجنب الشر، حتى ييسرك الله لليسرى ويجنبك العسرى، فرسول الله ﷺ وعده الله بأن ييسره لليسرى فيسهل عليه الأمور، ولهذا لم يقع النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - في شدة وضنك إلا وجد له مخرجًا ﷺ.

ثم أمره تعالى أن يذكر فقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ يعني: ذكر الناس، ذكرهم بآيات الله، ذكرهم بأيام الله، عظهم، ﴿إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾، يعني: في محل تنفع فيه الذكرى، وعلى هذا فتكون ﴿إِن﴾، شرطية والمعنى إن نفعت الذكرى فذكر، وإن لم تنفع فلا تذكر؛ لأنه لا فائدة من تذكير قوم نعلم أنهم لا ينتفعون، هذا ما قيل: في هذه الآية.

وقال بعض العلماء: المعنى ذكر على كل حال، إن كان هؤلاء القوم تنفع فيهم الذكرى فيكون الشرط هنا ليس المقصود به أنه لا يُذكر إلا إذا نفعت، بل المعنى ذكر إن كان هؤلاء القوم ينفع فيهم التذكير، فالمعنى على، هذا القول: ذكر بكل حال، والذكرى سوف تنفع المؤمنين، وتنفع المُذكِّر أيضًا، فالمذكر منتفع على كل حال، والمذكر إن انتفع بها فهو مؤمن، وإن لم ينتفع بها، فإن ذلك لا ينقص من أجر المذكر شيئًا، فذكر سواء نفعت الذكرى أم لم تنفع.

وقال بعض العلماء: إن ظن أن الذكرى تنفع وجبت، وإن ظن أنها لا تنفع فهو مخير إن شاء ذكر، وإن شاء لم يذكر، ولكن على كل حال نقول: لابد من التذكير حتى، وإن ظننت أنها لا تنفع، فإنها سوف تنفعك أنت، وسوف يعلم الناس أن، هذا الشيء الذي ذكرت عنه إما واجب، وإما حرام، وإذا سكتَّ والناس يفعلون المحرم، قال الناس: لو كان هذا محرمًا لذكَّر به العلماء، أو لو كان، هذا واجبًا لذكَّر به العلماء، فلابد من التذكير ولابد من نشر الشريعة سواء نفعت أم لم تنفع.

ثم ذكر الله - عَزَّ وَجَلَّ - من سيذكر ومن لا يتذكر فقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾، فبين تعالى أن الناس ينقسمون بعد الذكرى إلى قسمين:

القسم الأول: من يخشى الله - عَزَّ وَجَلَّ - أي: يخافه خوفًا عن علم بعظمة الخالق جل وعلا، فهذا إذا ذكر بآيات ربه تذكر، كما قال تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣]. فمن يخشَ الله ويخاف الله إذا ذكر ووعظ بآيات الله اتعظ وانتفع.

أما القسم الثاني: فقال تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ أي: يتجنب هذه الذكرى، ولا ينتفع بها الأشقى و﴿الْأَشْقَى﴾، هنا اسم تفضيل من الشقاء، وهو ضد السعادة، كما في سورة هود: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ﴾ [هود: ١٠٦]. قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ﴾ [هود: ١٠٨]. فالأشقى المتصف بالشقاوة يتجنب الذكرى، ولا ينتفع بها، والأشقى هو البالغ في الشقاوة غايتها

وهذا هو الكافر، فإن الكافر يذكر، ولا ينتفع بالذكرى، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾، الذي يصلى النار الموصوفة بأنها ﴿ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾، وهي نار جهنم؛ لأن نار الدنيا صغرى بالنسبة لها، فقد صح عن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -: «أَنَّ نَارَ الدُّنْيَا جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ الْآخِرَةِ»(١) أي: أن نار الآخرة فضلت على نار الدنيا بتسعة وستين جزءًا، والمراد بنار الدنيا كلها أشد ما يكون من نار الدنيا، فإن نار الآخرة فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا ولهذا وصفها بقوله تعالى: ﴿ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾، ثم إذا صلاها ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾، المعنى لا يموت فيستريح، ولا يحيى حياة سعيدة، وإلا فهم أحياء في الواقع لكن أحياء يعذبون ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا﴾ [النساء: ٥٦]، كما قال الله - عَزَّ وَجَلَّ - ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ﴾، وهو خازن النار ﴿لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَ﴾، يعني: ليهلكنا ويريحنا من هذا العذاب ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، ولا راحة ويقال لهم: ﴿لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٨]، هذا معنى قوله تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾؛ لأنه قد يشكل على بعض الناس كيف يكون الإنسان لا حي، ولا ميت؟ والإنسان إما حي وإما ميت؟

فيقال: لا يموت فيها ميتة يستريح بها، ولا يحيى حياة يسعد بها، فهو في عذاب وجحيم، وشدة يتمنى الموت، ولكن لا يحصل له، هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾.



قال الله تعالى:

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٤ - ١٩].

التفسير

قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾، ﴿أَفۡلَحَ﴾، مأخوذ من الفلاح، والفلاح كلمة جامعة، وهو: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، هذا هو معنى الفلاح فهي كلمة جامعة لكل خير، دافعة لكل شر. وقوله تعالى: ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾، مأخوذة من التزكية، وهو التطهير، ومنه سميت الزكاة زكاة؛ لأنها تطهر الإنسان من الأخلاق الرذيلة، أخلاق البخل، كما قال تعالى:

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣).

﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ﴾ [التوبة: ١٠٣]؛ إذن ﴿تَزَكَّىٰ﴾ يعني: تطهر، ظاهره وباطنه، يتزكى أولًا من الشرك بالنسبة لمعاملة الله، فيعبد الله مخلصًا له الدين، لا يرائي، ولا يسمع، ولا يطلب جاهًا، ولا رئاسة فيما يتعبد به الله - عَزَّ وَجَلَّ - وإنما يريد بهذا وجه الله والدار الآخرة. تزكى في اتباع الرسول ﷺ بحيث لا يبتدع في شريعته لا بقليل، ولا كثير، لا في الاعتقاد، ولا في الأقوال، ولا في الأفعال، وهذا أعني التزكي بالنسبة للرسول ﷺ، وهو اتباعه من غير ابتداع لا ينطبق تمامًا إلا على الطريقة السلفية طريقة أهل السنة والجماعة الذين يؤمنون بكل ما وصف الله به نفسه في كتابه، أو على لسان رسوله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - على الطريقة السلفية الذين لا يبتدعون في العبادات القولية، ولا في العبادات الفعلية شيئًا في دين الله، تجدهم يتبعون ما جاء به الشرع، خلافًا لما يصنعه بعض المبتدعة في الأذكار المبتدعة، إما في نوعها، وإما في كيفيتها وصفتها، وإما في أدائها، كما يفعله بعض أصحاب الطرق من الصوفيةوغيرهم.

كذلك يتزكى بالنسبة لمعاملة الخلق، بحيث يطهر قلبه من الغل والحقد على إخوانه المسلمين فتجده دائمًا طاهر القلب يحب لإخوانه ما يحب لنفسه لا يرضى؛ لأحد أن يمسه سوء، بل يود أن جميع الناس سالمون من كل شر، موفقون لكل خير. فـ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: من تطهر ظاهره وباطنه، فتطهر باطنه من الشرك بالله - عَزَّ وَجَلَّ - ومن الشك ومن النفاق ومن العداوة للمسلمين والبغضاء، وغير ذلك مما يجب أن يتطهر القلب منه، وتطهر ظاهره من إطلاق لسانه وجوارحه في العدوان على عبادالله - عَزَّ وَجَلَّ - فلا يغتاب أحدًا، ولا ينم عن أحد، ولا يسب أحدًا، ولا يعتدي على أحد بضرب، أو جحد مال أو غير ذلك، فالتزكي كلمة عامة تشمل التطهر من كل درن ظاهر أو باطن، فصارت التزكية لها ثلاث متعلقات: الأول: في حق الله. والثاني: في حق الرسول. والثالث: في حق عامة الناس. في حق الله تعالى يتزكى من الشرك فيعبد الله تعالى مخلصًا له الدين. في حق الرسول يتزكى من الابتداع فيعبد الله على مقتضى شريعة النبي ﷺ في العقيدة، والقول، والعمل. في معاملة الناس يتزكى من الغل والحقد والعداوة والبغضاء، وكل ما يجلب العداوة والبغضاء بين المسلمين يتجنبه، ويفعل كل ما فيه المودة والمحبة ومن ذلك: إفشاء السلام الذي قال فيه الرسول ﷺ: «لَا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»(١)، فالسلام من أقوى الأسباب التي تجلب المحبة والمودة بين المسلمين وهذا الشيء مشاهد، لو مر بك رجل ولم يسلم عليك صار في نفسك شيء، وإذا لم تسلم عليه أنت صار في نفسه شيء، لكن لو سلمت عليه، أو سلم عليك صار، هذا كالرباط بينكما يوجب المودة والمحبة، وقد قال النبي ﷺ في السلام: «وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٥٤)، والترمذي (٢٦٨٨)، وأبو داود (٥١٩٣)، وابن ماجه (٦٨).

عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ»[(١)]، وأكثر الناس اليوم إذا سلم يسلم على من يعرف، وأما من لا يعرفه فلا يسلم عليه، وهذا غلط، لأنك إذا سلمت على من تعرف لم يكن السلام خالصًا لله، سلم على من عرفت ومن لم تعرف من المسلمين ؛حتى تنال بذلك محبة المسلمين بعضهم لبعض، وتمام الإيمان، والنهاية دخول الجنة جعلنا الله من أهلها.

وقوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ أي: ذكر الله، ولكنه ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ الاسم من أجل أن يكون الذكر باللسان؛ لأنه ينطق فيه باسم الله فيقول مثلًا: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، فيذكر اسم الله، ويعني أي:ضًا ذكر اسم الله تعالى بالتعبد له، ويدخل في ذكر اسم الله الوضوء، فالوضوء من ذكر اسم الله، أولًا: لأن الإنسان لا يتوضأ إلا امتثالًا؛ لأمر الله. وثانيًا: أنه إذا ابتدأ وضوءه قال: بسم الله، وإذا انتهى قال: «أَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ». ومن ذكر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ خطبة الجمعة، فإن خطبة الجمعة من ذكر الله، لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩]. وعلى، هذا قال بعض العلماء: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾، يعني: الخطيب يوم الجمعة ﴿فَصَلَّىٰ﴾، أي: صلاة الجمعة. فهذه الآية تشمل كل الصلوات التي يسبقها ذكر، وما من صلاة إلا ويسبقها ذكر؛ لأن الإنسان يتوضأ قبيل الصلاة فيذكر اسم الله ثم يصلي.

لكن الصحيح: أنها أعم من، هذا، وأن المراد به كل ذكر لاسم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أي: كلما ذكر الإنسان اسم الله اتعظ وأقبل إلى الله وصلى. والصلاة معروفة هي عبادة ذات أقوال وأفعال، مفتتحة بالتكبير، مختتمة بالتسليم.

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾، ﴿بَلْ﴾ هنا للإضراب الانتقالي؛ لأن ﴿بَلْ﴾ تأتي للإضراب الإبطالي، وتأتي للإضراب الانتقالي أي: أنه ـ سبحانه وتعالى ـ انتقل ليبين حال الإنسان أنه مؤثر للحياة الدنيا؛ لأنها عاجلة، والإنسان خلق من عجل، ويحب ما فيه العجلة، فتجده يؤثر الحياة الدنيا، وهي في الحقيقة على وصفها دنيا، دنيا زمنًا، ودنيا وصفًا، أما كونها دنيا زمنًا؛ فلأنها سابقة على الآخرة فهي متقدمة عليها، والدنو بمعنى القرب. وأما كونها دنيا ناقصة فكذلك هو الواقع، فإن الدنيا مهما طالت بالإنسان، فإن أمدها الفناء، ومنتهاها الفناء، ومهما ازدهرت للإنسان، فإن عاقبتها الذبول، ولهذا لا يكاد يمر بك يوم في سرور إلا وعقبه حزن، وفي، هذا يقول الشاعر:

فَيَــــوْمٌ عَلَيْنَــــا وَيَوْمٌ لَنَا ... وَيَــــوْمٌ نُسَــاءُ وَيَوْمٌ نُسَرُّ

تأمل حالك في الدنيا تجد أنه لا يمر بك وقت ويكون الصفو فيه دائمًا، بل لابد من كدر، ولا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٢)، ومسلم (٣٩).

يكون السرور دائمًا، بل لابد من حزن، ولا تكون راحة دائمًا، بل لابد من تعب، فالدنيا على اسمها دنيا.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾، الآخرة خير من الدنيا وأبقى، خير بما فيها من النعيم والسرور الدائم الذي لا ينغص بكدر ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]. كذلك أيضًا هي أبقى من الدنيا؛ لأن بقاء الدنيا، كما أسلفنا قليل زائل مضمحل، بخلاف بقاء الآخرة، فإنه أبد الآبدين. قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾، ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾، أي: ما ذكر من كون الإنسان يؤثر الحياة الدنيا على الآخرة وينسى الآخرة، وكذلك ما تضمنته الآيات من المواعظ ﴿لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: السابقة على هذه الأمة ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾، وهي صحف جاء بها إبراهيم وموسى - عليهما الصلاة والسلام - وفيها من المواعظ ما تلين به القلوب وتصلح به الأحوال، نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا ممن أوتي في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، ووقاه الله عذاب النار، إنه جواد كريم.



تفسير سورة الغاشية

۞ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦) لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: ١ ـ ٧].

۞ التفسير ۞

البسملة تقدم الكلام عليها.

قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾، يجوز أن يكون الخطاب موجه للرسول ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ وحده وأمته تبعًا له، ويجوز أن يكون عامًا لكل من يتأتى خطابه، والاستفهام هنا للتشويق فهو كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠]. ويجوز أن يكون للتعظيم لعظم، هذا الحديث عن الغاشية. قوله تعالى: ﴿حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ أي: نبأها وخبرها، و﴿الْغَاشِيَةِ﴾، هي الداهية العظيمة التي تغشى الناس، وهي يوم القيامة التي تحدث الله عنها في القرآن كثيرًا، ووصفها بأوصاف عظيمة مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١، ٢]. ثم قسم الله ـ سبحانه وتعالى ـ الناس في هذا اليوم إلى قسمين فقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾، ﴿خَاشِعَةٌ﴾، أي: ذليلة، كما قال الله تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]. فمعنى خاشعة يعني: ذليلة، ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾، عاملة عملًا يكون به النصب، وهو التعب. قال العلماء: وذلك أنهم يكلفون يوم القيامة بجر السلاسل والأغلال، والخوض في نار جهنم، كما يخوض الرجل في

الوحل، فهي عاملة تعبة من العمل الذي تكلف به يوم القيامة؛ لأنه عمل عذاب وعقاب، وليس المعنى، كما قال بعضهم أن المراد بها: الكفار الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، وذلك؛ لأن الله قيد هذا بقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومئذ تأتي الغاشية، وهذا لا يكون إلا يوم القيامة. إذن فهي عاملة ناصبة بما تكلف به من جر السلاسل والأغلال، والخوض في نار جهنم أعاذنا الله منها. قوله تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ أي: تدخل في نار جهنم، والنار الحامية التي، بلغت من حموها أنها فضلت على نار الدنيا بتسعة وستين جزءًا، يعني: نار الدنيا كلها بما فيها من أشد ما يكون من حرارة نار جهنم أشد منها بتسعة وستين جزءًا، ويدلك على شدة حرارتها أن هذه الشمس حرارتها تصل إلينا مع بعد ما بيننا وبينها، ومع أنها تنفذ من خلال أجواء باردة غاية البرودة وتصل لنا هذه الحرارة التي تدرك ولاسيما في أيام الصيف، فالنار نار حامية، ولما بين مكانهم، وأنهم في نار جهنم الحامية، بين طعامهم وشرابهم فقال تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾، ﴿تُسْقَىٰ﴾ أي: هذه الوجوه ﴿مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾، أي: شديدة الحرارة، هذا بالنسبة لشرابهم، ومع هذا لا يأتي هذا الشراب بكل سهولة، أو كلما عطشوا سقوا، وإنما يأتي كلما اشتد عطشهم واستغاثوا، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩]، هذا الماء إذا قرب من وجوههم شواها وتساقط لحمها، وإذا دخل في أجوافهم قطعها، يقول عز وجل: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]؛ إذن لا يستفيدون منه لا ظاهرًا، ولا باطنًا، لا ظاهرًا بالبرودة ببرد الوجوه، ولا باطنًا بالري، ولكنهم - والعياذ بالله - يُغاثون بهذا الماء ولهذا قال تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾.

فإذا قال قائل: كيف تكون هذه العين في نار جهنم والعادة أن الماء يطفىء النار؟

فالجواب: أولًا: أن أمور الآخرة لا تقاس بأمور الدنيا، لو أنها قيست بأمور الدنيا ما استطعنا أن نتصور كيف يكون، أليس الشمس تدنو يوم القيامة من رؤوس الناس على قدر ميل؟ والميل إما ميل المكحلة، وهو نصف الإصبع أو ميل المسافة كيلو وثلث أو نحو ذلك، وحتى لو كان كذلك، فإنه لو كانت الآخرة كالدنيا لشوت الناس شيًّا، لكن الآخرة لا تقاس بالدنيا. أيضًا يحشر الناس يوم القيامة في مكان واحد، منهم من هو في ظلمة شديدة، ومنهم من هو في نور ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [التحريم: ٨]. يحشرون في مكان واحد ويعرقون منهم من يصل العرق إلى كعبه، ومنهم من يصل إلى ركبتيه، ومنهم من يصل إلى حِقويه، ومع ذلك هم في مكان واحد. إذن أحوال الآخرة لا يجوز أن تقاس بأحوال الدنيا.

ثانيًا: أن الله على كل شيء قدير. ها نحن الآن نجد أن الشجر الأخضر توقد منه النار، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠]. الشجر

الأخضر رَطِب، ومع ذلك إذا ضرب بعضه ببعض، أو ضرب بالزند انقدح خرج منه نار حارة يابسة، وهو رطب بارد، فالله على كل شيء قدير، فهم يسقون من عين آنية في النار، ولا يتنافى ذلك مع قدرة الله عز وجل.

أما طعامهم فقال تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾، الضريع قالوا: إنه شجر ذو شوك عظيم إذا يبس لا يرعاه، ولا البهائم، وإن كان أخضر رعته الإبل ويسمى عندنا الشبرق. فهم ـ والعياذ بالله ـ في نار جهنم ليس لهم طعام إلا من، هذا الضريع، ولكن لا تظن أن الضريع الذي في نار جهنم كالضريع الذي في الدنيا فهو يختلف عنه اختلافًا عظيمًا، ولهذا قال تعالى: ﴿لَّا يُسْمِنُ﴾، فلا ينفع الأبدان في ظاهرها ﴿وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾، فلا ينفعها في باطنها فهو لا خير فيه ليس فيه إلا الشوك، والتجرع العظيم، والمرارة، والرائحة المنتنة التي لا يستفيدون منها شيئًا.



قال الله تعالى:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: ٨ ـ ١٦].

التفسير

ثم ذكر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ القسم الثاني من أقسام الناس في يوم الغاشية فقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ أي: ناعمة بما أعطاها الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ من السرور والثواب الجزيل؛ لأنها علمت ذلك وهي في قبورها، فإن الإنسان في قبره ينعم، يفتح له باب إلى الجنة فيأتيه من روحها ونعيمها، فهي ناعمة ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ أي: لعملها الذي عملته في الدنيا راضية؛ لأنها وصلت به إلى، هذا النعيم وهذا السرور وهذا الفرح، فهي راضية لسعيها بخلاف الوجوه الأولى، فإنها غاضبة ـ والعياذ بالله ـ غير راضية على ما قدمت. قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾، الجنة هي دار النعيم التي أعدها الله عز وجل؛ لأوليائه يوم القيامة، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١١]. وقال تبارك وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾، إلى قوله تعالى:

﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١]. وقال الله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]. فهم في ﴿جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ العلو ضد السفول فهي فوق السماوات السبع، ومن المعلوم أنه في يوم القيامة تزول السماوات السبع والأرضون، ولا يبقى إلا الجنة والنار فهي عالية وأعلاها ووسطها الفردوس الذي فوقه عرش الرب جل وعلا، ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾، أي: لا تسمع في هذه الجنة قولةً لاغية، أو نفسًا لاغية، بل كل ما فيها جد، كل ما فيها سلام، كل ما فيها تسبيح، وتحميد، وتهليل، وتكبير، يلهمون التسبيح، كما يلهمون النفس، أي: أنه لا يشق عليهم، ولا يتأثرون به، فهم دائمًا في ذكر الله - عَزَّ وَجَلَّ - وتسبيح وأنس وسرور، يأتي بعضهم إلى بعض يزور بعضهم بعضًا في حبور لا نظير له، ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾، وهذه العين بين الله - عَزَّ وَجَلَّ - أنها أنهار ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]. قوله تعالى: ﴿جَارِيَةٌ﴾، أي: تجري حيث أراد أهلها لا تحتاج إلى حفر ساقية، ولا إقامة أخدود، كما قال ابن القيم رحمه الله في «النونية»:

أَنْهَارُهَا مِنْ غَيْرِ أُخْدُودٍ جَرَتْ ... سُبْحَانَ مُمْسِكِهَا عَنِ الفَيَضَانِ

قال الله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾، انظر للتقابل ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ عالية يجلسون عليها يتفكهون ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس: ٥٦]. قوله تعالى: ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾، الأكواب جمع كوب، وهو الكأس ونحوه ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ يعني: ليست مرفوعة عنهم، بل هي موضوعة لهم متى شاءوا شربوا فيها من هذه الأنهار الأربعة التي سبق ذكرها. قوله تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾، النمارق جمع نمرقة وهي الوسادة أو ما يتكيء عليه. ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾، على أحسن وجه تلتذ العين بها قبل أن يلتذ البدن بالاتكاء إليها. قوله تعالى: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾، الزرابي أعلى أنواع الفرش ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾، منشورة في كل مكان، ولا تظن أن هذه النمارق، وهذه الأكواب، وهذه السرر، وهذه الزرابي لا تظن أنها تشبه ما في الدنيا؛ لأنها لو كانت تشبه ما في الدنيا لكنا نعلم نعيم الآخرة، ونعلم حقيقته لكنها لا تشبهه لقول الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]. إنما الأسماء واحدة والحقائق مختلفة، ولهذا قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: (ليس في الآخرة مما في الدنيا إلا الأسماء فقط)، فنحن لا نعلم حقيقة هذه النعم المذكورة في الجنة، وإن كنا نشاهد ما يوافقها في الاسم في الدنيا لكنه فرق بين هذا وهذا.



قال الله تعالى:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ١٧-٢٦].

التَفْسِير

لما قرر الله - عَزَّ وَجَلَّ - في هذه السورة حديث الغاشية وهي يوم القيامة، وبين أن الناس ينقسمون إلى قسمين: وجوه خاشعة عاملة ناصبة تصلى نارًا حامية، ووجوه ناعمة لسعيها راضية، وبين جزاء هؤلاء وهؤلاء، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾، وهذا الاستفهام للتوبيخ، أي: إن الله يوبخ هؤلاء الذين أنكروا ما أخبر الله به عن يوم القيامة، وعن الثواب والعقاب، أنكر عليهم إعراضهم عن النظر في آيات الله تعالى التي بين أيديهم، وبدأ بالإبل؛ لأن أكثر ما يلابس الناس في ذلك الوقت الإبل، فهم يركبونها، ويحلبونها، ويأكلون لحمها، وينتفعون من أوبارها إلى غير ذلك من المنافع قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ﴾، وهي الأباعر ﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾، يعني: كيف خلقها الله - عَزَّ وَجَلَّ - هذا الجسم الكبير المتحمل، تجد البعير تمشي مسافات طويلة لا يبلغها الإنسان إلا بشق الأنفس وهي متحملة، وتجد البعير أيضًا يحمل الأثقال، وهو بارك ثم يقوم في حمله لا يحتاج إلى مساعدة، والعادة أن الحيوان لا يكاد يقوم إذا حُمل، وهو بارك لكن هذه الإبل أعطاها الله - عَزَّ وَجَلَّ - قوة وقدرة من أجل مصلحة الإنسان؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يحمل عليها وهي قائمة لعلوها، ولكن الله - تعالى - يسر لهم الحمل عليها وهي باركة ثم تقوم بحملها، وكما قال الله تعالى في سورة (يس): ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧٣]. منافعها كثيرة لا تحصى، وأهلها الذين يمارسونها أعلم منا بذلك؛ فلهذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾، ولم يذكر سواها من الحيوان كالغنم والبقر والظبي وغيرها؛ لأنها أعم الحيوانات نفعًا وأكثرها مصلحة للعباد. قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾، يعني: وينظرون إلى السماء كيف رفعت بما فيها من النجوم، والشمس، والقمر وغير، هذا من الآيات العظيمة التي لم يتبين كثير منها إلى الآن، ولا نقول: إن هذه الآيات السماوية هي كل الآيات، بل لعل هناك آيات كبيرة عظيمة لا ندركها حتى الآن، وقوله تعالى:

﴿كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ أي: رفعت، هذا الارتفاع العظيم، ومع هذا فليس لها عمد مع أن العادة أن السقوف لا تكون إلا على عمد، لكن، هذا السقف العظيم المحفوظ قام على غير عمد ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]. قوله تعالى: ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾، هذه الجبال العظيمة التي تحمل الصخور والقطع المتجاورات المتباينات، الجبال مكونة من أحجار كثيرة وأنواع كثيرة، فيها المعادن المتنوعة وهي متجاورة ومع ذلك تجد مثلًا، هذا الخط في وسط الصخر تجده يشتمل على معادن لا توجد فيما قرب منه من هذا الصخر، ويعرف، هذا علماء طبقات الأرض (الجيولوجيا) كيف نصب الله هذه الجبال العظيمة، ونصبها جل وعلا بهذا الارتفاع لتكون رواسي في الأرض لئلا تميد بالناس، لولا أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ خلق هذه الجبال لمادت الأرض بأهلها؛ لأن الأرض في وسط الماء، الماء محيط بها من كل جانب، وما ظنك بكرة تجعلها في وسط ماء سوف تتحرك وتضطرب، وتتدحرج أحيانًا، وتنقلب أحيانًا لكن الله جعل هذه الجبال رواسي تمسك الأرض، كما تمسك الأطناب الخيمة، وهي راسية ثابتة على ما يحصل في الأرض من الأعاصير العظيمة التي تهدم البنآيات التي بناها الآدميون لكن هذه الجبال لا تتزحزح راسية ولو جاءت الأعاصير العظيمة، بل إن من فوائدها: أنها تحجب الأعاصير العظيمة البالغة التي تنطلق من البحار، أو من غير البحار لئلا تعصف بالناس، وهذا شيء مشاهد تجد الذين في سفوح الجبال وتحتها في الأرض تجدهم في مأمن من أعاصير الرياح العظيمة التي تأتي من خلف الجبل، ففيها فوائد عظيمة، وهي رواسي لو أن الخلق اجتمعوا على أن يضعوا سلسلة مثل هذه السلسلة من الجبال ما استطاعوا إلى، هذا سبيلًا مهما، بلغت صنعتهم، وقوتهم، وقدرتهم، وطال أمدهم، فإنهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثل هذه الجبال. وقد قال بعض العلماء: إن هذه الجبال راسية في الأرض بمقدار علوها في السماء، يعني: أن الجبل له جرثومة وجذر في داخل الأرض في عمق يساوي ارتفاعه في السماء، وليس، هذا ببعيد أن يُمكِّن الله لهذا الجبل في الأرض حتى يكون بقدر ما هو في السماء لئلا تزعزعه الرياح؛ فلهذا يقول الله عز وجل: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥، ١٦]. يقول عز وجل: ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ أي: وانظروا كيف سطح الله هذه الأرض الواسعة، وجعلها سطحًا واسعًا ليتمكن الناس من العيش فيه بالزراعة والبناء وغير، هذا، وما ظنكم لو كانت الأرض صببًا غير مسطحة يعني: مثل الجبال يرقى لها ويصعد لكانت شاقة، ولما استقر الناس عليها، لكن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ جعلها سطحًا ممهدًا للخلق، وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن الأرض ليست كروية، بل سطح ممتد لكن، هذا الاستدلال فيه نظر؛ لأن هناك آيات تدل على أن الأرض كروية، والواقع شاهد بذلك فيقول الله عز وجل: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥]. والتكوير يعني:

التدوير، ومعلوم أن الليل والنهار يتعاقبان على الأرض، فإذا كانا مكورين لزم أن تكون الأرض مكورة، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ١ ـ ٤]. فقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ وقد جاء في الحديث أنها يوم القيامة تمد مد الأديم أي: مد الجلد حتى لا يكون فيها جبال، ولا أودية، ولا أشجار، ولا بناء، يذرها الرب ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا، ولا أمتًا، فقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ والسماء لا تنشق إلا يوم القيامة وهي الآن غير منشقة إذن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ يعني: يوم القيامة فهي إذن الآن غير ممدودة، فإذا مكورة، والواقع المحسوس المتيقن الآن أنها كروية لا شك، والدليل على، هذا أنك لو سرت بخط مستقيم من هنا من المملكة متجهًا غربًا لأتيت من ناحية الشرق، تدور على الأرض ثم تأتي إلى النقطة التي انطلقت منها، وكذلك بالعكس لو سرت متجهًا نحو المشرق وجدتك راجعًا إلى النقطة التي قمت منها من نحو المغرب، فإذا فهي الآن أمر لا شك فيه أنها كروية.

فإذا قال الإنسان: إذا كانت، كما ذكرت كروية فكيف تثبت المياه، مياه البحار عليها وهي كروية؟

نقول في الجواب عن ذلك: الذي أمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه يمسك البحار أن تفيض على الناس فتغرقهم، والله على كل شيء قدير، قال بعض أهل العلم: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾، أي: حبست ومنعت من أن تفيض على الناس كالشيء الذي يُسجر (يربط)، وعلى كل حال القدرة الإلهية لا يمكن لنا أن نعارض فيها. نقول قدرة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أمسكت هذه البحار أن تفيض على أهل الأرض فتغرقهم، وإن كانت الأرض كروية.

ثم قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لما بين من آياته هذه الآيات الأربع: الإبل، والسماء، والجبال، والأرض قال لنبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ﴿فَذَكِّرْ﴾، أمره الله أن يذكر ولم يخصص أحدًا بالتذكير، أي: لم يقل ذكِّر فلانًا وفلانًا فالتذكير عام؛ لأن الرسول ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ بُعث إلى الناس كافة، ذكّر كل أحد في كل حال وفي كل مكان، فذكر النبي ﷺ، وذكّر خلفاؤه من بعده الذين خلفوه في أمته في العلم والعمل والدعوة، ولكن هذه الذكرى هل ينتفع بها كل الناس؟ الجواب: لا، ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، أما غير المؤمن، فإن الذكرى تقيم عليه الحجة لكن لا تنفعه، لا تنفع الذكرى إلا المؤمن، ونقول إذا رأيت قلبك لا يتذكر بالذكرى فاتهمه؛ لأن الله يقول: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فإذا ذُكرت ولم تجد من قلبك تأثرًا وانتفاعًا فاتهم نفسك، واعلم أن فيك نقص إيمان؛ لأنه لو كان إيمانك كاملًا لانتفعت بالذكرى؛ لأن الذكرى لابد أن تنفع المؤمنين. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾، يعني: أن محمدًا ﷺ ليس إلا مذكرًا مبلغًا، وأما الهداية فبيد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى

﴿مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. وقد قام ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ بالذكرى والتذكير إلى آخر رمق من حياته، حتى أنه في آخر حياته يقول: «الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم»[1]، حتى جعل يغرغر بها ﷺ، فذكّر صلوات الله وسلامه عليه منذ بعث وقيل له ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ٢]. إلى أن توفاه الله، لم يأل جهدًا في التذكير في كل موقف، وفي كل زمان على ما أصابه من الأذى من قومه ومن غير قومه، والذي قرأ التاريخ ـ السيرة النبوية ـ يعرف ما جرى له من أهل مكة من قومه الذين هم أقرب الناس إليه، والذين كانوا يعرفونه، ويلقبونه بالأمين يلقبونه بذلك ويثقون به حتى حكّموه في وضع الحجر الأسود في الكعبة حينما هدموا الكعبة ووصلوا إلى حد الحجر قالوا من ينصب الحجر، فتنازعوا بينهم كل قبيلة تقول نحن الذين نتولى وضع الحجر في مكانه، حتى جاء النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ وحكموه فيما بينهم وأمر أن يوضع رداء وأن تمسك كل طائفة من هذه القبيلة أن يمسك كل واحد من هذه القبائل بطرف من، هذا الرداء حتى يرفعوه، فإذا حاذوا محله أخذه هو بيده الكريمة ونصبه في مكانه، فكانوا يلقبونه بالأمين لكن لما أكرمه الله ـ تعالى ـ بالنبوة انقلبت المعايير، فصاروا يقولون: إنه ساحر وكاهن وشاعر ومجنون وكذاب، ورموه بكل سب، فالرسول ﷺ يذكّر وليس عليه إلا التذكير، ومن هنا نأخذ أن الهداية بيد الله، لا يمكن أن نهدي أقرب الناس إلينا ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]. فلا تجزع إذا ذكّرنا إنسانًا ووجدناه يعاند، أو يخاصم، أو يقول أنا أعمل ما شئت، أو ما أشبه ذلك.

قال الله تعالى لنبيه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]. لا تهلك نفسك إذا لم يؤمنوا، إيمانهم لهم وكفرهم ليس عليك ولهذا قال تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾، يعني: ليس لك سلطة عليهم، ولا سيطرة عليهم، السلطة لله رب العالمين، فأنت عليك البلاغ، بلغ، والسلطان والسيطرة لله عز وجل، ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾، قال العلماء: ﴿إِلَّا﴾، هنا بمعنى لكن يعني: أن الاستثناء في الآية منقطع وليس بمتصل، والفرق بين المتصل والمنقطع أن المتصل يكون فيه المستثنى من جنس المستثنى منه، والمنقطع يكون أجنبيًّا منه، فمثلًا لو قلنا إنه متصل لصار معنى الآية (لست عليهم بمصيطر إلا من تولى وكفر؛ فأنت عليهم مصيطر) وليس الأمر كذلك، بل المعنى: لكن من تولى وكفر بعد أن ذكرته فيعذبه الله العذاب الأكبر. فمن تولى وكفر بعد أن، بلغه الوحي النازل على رسول الله ﷺ، فإنه سيعذب ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾، التولي يعني: الإعراض فلا يتجه للحق، ولا يقبل الحق، ولا يسمع الحق، حتى لو سمعه بأذنه لم يسمعه بقلبه، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠،

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٢٦٩٧)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه»

٢١]. أي: لا ينقادون. فهنا يقول عز وجل: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾، ﴿تَوَلَّىٰ﴾، أعرض، ﴿وَكَفَرَ﴾ أي: استكبر ولم يقبل ما جاء به الرسول ﷺ ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾، والعذاب الأكبر يوم القيامة وهنا قال تعالى: ﴿الْأَكْبَرَ﴾، ولم يذكر المفضل عليه يعني: لم يقل الأكبر من كذا فهو قد بلغ الغاية في الكبر والمشقة والإهانة، وكل من تولى وكفر، فإن الله يعذبه العذاب الأكبر. وهناك عذاب أصغر في الدنيا قد يبتلى المتولي المعرض بأمراض في بدنه، في عقله، في أهله، في ماله، في مجتمعه، وكل، هذا بالنسبة لعذاب النار عذاب أصغر، لكن العذاب الأكبر إنما يكون يوم القيامة ولهذا قال بعدها: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾، أي: مرجعهم، فالرجوع إلى الله مهما فر الإنسان، فإنه راجع إلى ربه - عَزَّ وَجَلَّ - لو طالت به الحياة راجع إلى الله، ولهذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]. فاستعد يا أخي لهذه الملاقاة؛ لأنك سوف تلاقي ربك، وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ - مباشرة بدون مترجم يكلمه الله يوم القيامة - فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ - يعني: على اليسار - فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»(١)، كلنا سيخلو به ربه - عَزَّ وَجَلَّ - يوم القيامة ويقرره بذنوبه، يقول: فعلت كذا في يوم كذا، حتى يقر ويعترف، فإذا أقر واعترف قال الله تعالى: «قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»(٢)، وكم من ذنوب سترها الله - عَزَّ وَجَلَّ - كم من ذنوب اقترفناها لم يعلم بها أحد، ولكن الله تعالى علم بها، فموقفنا من هذه الذنوب أن نستغفر الله - عَزَّ وَجَلَّ - وأن نكثر من الأعمال الصالحة المكفرة للسيئات حتى نلقى الله - عَزَّ وَجَلَّ - ونحن على ما يرضيه - سبحانه وتعالى -. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ نحاسبهم، قال العلماء: وكيفية الحساب ليس مناقشة يناقش الإنسان؛ لأنه لو يناقش هلك، لو يناقشك الله - عَزَّ وَجَلَّ - على كل حساب هلكت، لو ناقشك في نعمة من النعم كالبصر لا يمكن أن تجد أي شيء تعمله يقابل نعمة البصر، نعمة النَّفَسِ الذي يخرج ويدخل بدون أي: مشقة، وبدون أي: عناء، الإنسان يتكلم وينام، يأكل ويشرب، ومع ذلك لا يحس بالنفس، ولا يعرف قدر النفس إلا إذا أصيب بما يمنع النفس، حينئذ يذكر نعمة الله، لكن مادام في عافية يقول هذا شيء طبيعي، لكن لو أنه أصيب بكتم النفس لعرف قدر النعمة، فلو نوقش لهلك، كما قال النبي ﷺ لعائشة: «مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ هَلَكَ»(٣) أو قال «عذب»، لكن كيفية الحساب: أما المؤمن، فإن الله تعالى يخلو به بنفسه ليس عندهما أحد ويقرره بذنوبه فعلت كذا فعلت كذا، فعلت كذا حتى إذا أقر بها قال الله

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦).

تعالى: « قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»[(١)]، أما الكفار فلا يحاسبون، هذا الحساب؛ لأنهم ليس لهم حسنات تمحو سيئاتهم لكنها تحصى عليهم أعمالهم، ويقررون بها أمام العالم، ويحصون بها، وينادى على رؤوس الأشهاد ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]. ـ نعوذ بالله من الخذلان ـ وبهذا ينتهي الكلام على هذه السورة العظيمة وهي إحدى السورتين اللتين كان النبي ﷺ يقرأ بهما في المجامع الكبيرة، فقد كان يقرأ في صلاتي العيدين ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾، وكذلك في صلاة الجمعة، ويقرأ أحيانًا في العيدين ﴿قٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾، و﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾، وفي الجمعة سورة الجمعة والمنافقين، ينوع مرة، هذا، ومرة، هذا، نسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يجعلنا ممن تكون وجوههم ناعمة لسعيها راضية، وأن يتولانا بعنايته في الدنيا والآخرة، إنه على كل شيء قدير.



(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

تفسير سورة الفجر

قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي
ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي
لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي
الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ
رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١:١٤].

التفسير

البسملة: تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾، كل هذه إقسامات بالفجر، وليال عشر، والشفع والوتر، والليل إذا يسر، خمسة أشياء أقسم الله تعالى بها، الأول: الفجر ﴿وَالْفَجْرِ﴾ هو النور الساطع الذي يكون في الأفق الشرقي قرب طلوع الشمس، وبينه وبين طلوع الشمس ما بين ساعة واثنتين وثلاثين دقيقة، إلى ساعة وسبع عشرة دقيقة، ويختلف باختلاف الفصول، فأحيانًا تطول الحصة ما بين الفجر وطلوع الشمس، وأحيانًا تقصر حسب الفصول، والفجر فجران: فجر صادق، وفجر كاذب، والمقصود بالفجر هنا الفجر الصادق، والفرق بين الفجر الصادق والكاذب من ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: الفجر الكاذب يكون مستطيلًا في السماء ليس عرضًا، ولكنه طولًا، وأما الفجر الصادق يكون عرضًا يمتد من الشمال إلى الجنوب.

الفرق الثاني: أن الفجر الصادق لا ظلمة بعده، بل يزداد الضياء حتى تطلع الشمس، وأما

الفجر الكاذب، فإنه يحدث بعده ظلمة بعد أن يكون هذا الضياء، ولهذا سمي كاذبًا؛ لأنه يضمحل ويزول.

الفرق الثالث: أن الفجر الصادق متصل بالأفق، أما الفجر الكاذب فبينه وبين الأفق ظلمة، هذه ثلاثة فروق آفاقية حسية يعرفها الناس إذا كانوا في البر، أما في المدن فلا يعرفون ذلك؛ لأن الأنوار تحجب هذه العلامات.

وأقسم الله بالفجر؛ لأنه ابتداء النهار، وهو انتقال من ظلمة دامسة إلى فجر ساطع، وأقسم الله به؛ لأنه لا يقدر على الإتيان بهذا الفجر إلا الله - عَزَّ وَجَلَّ - كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١] وأقسم الله بالفجر؛ لأنه يترتب عليه أحكام شرعية، مثل: إمساك الصائم، فإنه إذا طلع الفجر وجب على الصائم أن يمسك إذا كان صومه فرضًا أو نفلًا إذا أراد أن يتم صومه، ويترتب عليه أيضًا: دخول وقت صلاة الفجر، وهما حكمان شرعيَّان عظيمان، أهمهما دخول وقت الصلاة، أي: أنه يجب أن نراعي الفجر من أجل دخول وقت الصلاة أكثر مما نراعيه من أجل الإمساك في حالة الصوم؛ لأننا في الإمساك عن المفطرات في الصيام لو فرضنا أننا أخطأنا، فإننا بنينا على أصل، وهو بقاء الليل، لكن في الصلاة لو أخطأنا وصلينا قبل الفجر لم نكن بنينا على أصل؛ لأن الأصل بقاء الليل وعدم دخول وقت الصلاة، ولهذا لو أن الإنسان صلى الفجر قبل دخول وقت الصلاة بدقيقة واحدة فصلاته نفل، ولا تبرأ بها ذمته، ومن ثَمَّ ندعوكم إلى ملاحظة هذه المسألة، أعني العناية بدخول وقت صلاة الفجر؛ لأن كثيرًا من المؤذنين يؤذنون قبل الفجر وهذا غلط؛ لأن الأذان قبل الوقت ليس بمشروع لقول النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -: «إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ»(١)، ويكون حضور الصلاة إذا دخل وقتها، فلو أذن الإنسان قبل دخول وقت الصلاة؛ فأذانه غير صحيح يجب عليه الإعادة، والعناية بدخول الفجر مهمة جدًا من أجل مراعاة وقت الصلاة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ قيل: المراد بـ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾، عشر ذي الحجة، وأطلق على الأيام؛ ليالي؛ لأن اللغة العربية واسعة، قد تطلق الليالي ويراد بها الأيام، والأيام يراد بها الليالي، وقيل: المراد بـ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾؛ ليال العشر الأخيرة من رمضان، أما على الأول الذين يقولون المراد بالليالي العشر عشر ذي الحجة، فلأن عشر ذي الحجة أيام فاضلة قال فيها النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -: «مَا مِنْ أَيَّامِ العَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى الله مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ العَشْرِ» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «وَلَا الجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٢٨)، ومسلم (٦٧٤).

بِشَيْءٍ»[(١)].

وأما الذين قالوا: إن المراد بالليال العشر هي؛ ليال عشر رمضان الأخيرة فقالوا: إن الأصل في الليالي أنها الليالي وليست الأيام، وقالوا: أن ليال العشر الأخيرة من رمضان فيها ليلة القدر التي قال الله عنها ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٣ ، ٤]، وهذا القول أرجح من القول الأول، وإن كان القول الأول هو قول الجمهور، لكن اللفظ لا يسعف قول الجمهور، وإنما يرجح القول الثاني أنها الليالي العشر الأواخر من رمضان، وأقسم الله بها لشرفها، ولأن فيها؛ ليلة القدر، ولأن المسلمين يختمون بها شهر رمضان الذي هو وقت فريضة من فرائض الإسلام وأركان الإسلام، فلذلك أقسم الله بهذه الليالي. وقوله تعالى: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾، قيل: إن المراد به كل الخلق، فالخلق إما شفع وإما وتر، والله -عَزَّ وَجَلَّ- يقول: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩] والعبادات إما شفع وإما وتر، فيكون المراد بالشفع والوتر كل ما كان مخلوقًا من شفع ووتر، وكل ما كان مشروعًا من شفع ووتر، وقيل: المراد بالشفع الخلق كلهم، والمراد بالوتر الله عز وجل.

واعلم أن قوله والوتر فيها قراءتان صحيحتان (والوِتر) و(الوَتر) يعني: لو قلت (والشفع والوِتر) صح ولو قلت (والشفع والوَتْر) صح أيضًا، فقالوا إن الشفع هو الخلق؛ لأن المخلوقات كلها مكونة من شيئين ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾، والوَتْر أو الوِتر هو الله لقول النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ»[(٢)]، وإذا كانت الآية تحتمل معنيين، ولا منافاة بينهما فلتكن لكل المعاني التي تحتملهاالآية، وهذه القاعدة في علم التفسير أن الآية إذا كانت تحتمل معنيين وأحدهما لا ينافي الآخر فهي محمولة على المعنيين جميعًا. قال تعالى: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾، أقسم الله أيضًا بالليل إذا يسري، والسري هو السير في الليل، والليل يسير يبدأ بالمغرب وينتهي بطلوع الفجر فهو يمشي زمنًا لا يتوقف، فهو دائمًا في سريان؛ فأقسم الله به لما في ساعاته من العبادات كصلاة المغرب، والعشاء، وقيام الليل، والوتر وغير ذلك، ولأن في الليل مناسبة عظيمة وهي أن الله -عَزَّ وَجَلَّ- ينزل كل؛ ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: «مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»[(٣)] ولهذا نقول: إن الثلث الآخر من الليل وقت إجابة، فينبغي أن ينتهز الإنسان هذه الفرصة فيقوم لله -عَزَّ وَجَلَّ- يتهجد ويدعو الله سبحانه بما شاء من خير الدنيا والآخرة لعله يصادف ساعة إجابة ينتفع بها في دنياه وأخراه.

قال الله تعالى: ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾، لذي عقل، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٩٦٩)، والترمذي (٧٥٧)، وأبو داود (٢٤٣٨).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٩٤)، ومسلم (٧٥٨).

﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾، الخطاب هنا لكل من يوجه إليه هذا الكتاب العزيز وهم البشر كلهم، بل والجن أيضًا ألم ترى أيها المخاطب ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾، يعني: ما الذي فعل بهم؟ وعاد قبيلة معروفة في جنوب الجزيرة العربية، أرسل الله تعالى إليهم هودًا ﷺ فبلغهم الرسالة، ولكنهم عتوا وبغوا وقالوا من أشد منا قوة قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥]. فهم افتخروا بقوتهم، ولكن الله بين أنهم ضعفاء أمام قوة الله ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾، وعبّر ـ والله أعلم ـ بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾؛ ليبين ضعفهم وأنه جل وعلا أقوى منهم؛ لأن الخالق أقوى من المخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝١٥ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥، ١٦]. والذي فعله الله بعاد أنه أرسل عليهم الريح العقيم سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا، فترى القوى فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، وهذا الاستفهام الذي لفت الله فيه النظر إلى ما فعل بهؤلاء يراد به الاعتبار يعني: اعتبر أيها المكذب للرسول محمد ﷺ بهؤلاء كيف أُذيقوا، هذا العذاب، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]. وقوله تعالى: ﴿إِرَمَ﴾، هذه اسم للقبيلة، وقيل: اسم للقرية، وقيل: غير ذلك، فسواء كانت اسم للقبيلة أم اسم للقرية، فإن الله تعالى نكل بهم نكالًا عظيمًا مع أنهم أقوياء.

وقوله تعالى: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ يعني: أصحاب ﴿ٱلْعِمَادِ﴾، الأبنية القوية ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾، أي: لم يصنع مثلها في البلاد؛ لأنها قوية ومحكمة، وهذا هو الذي غرهم وقالوا: مَن أشد منا قوة؟ وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾، مع أن الذي صنعها الآدمي دليل على أن الآدمي قد يوصف بالخلق فيقال خلق كذا، ومنه قول النبي ﷺ في المصورين «يُقَالُ لَهُمْ أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»(١)، لكن الخلق الذي ينسب للمخلوق ليس هو الخلق المنسوب إلى الله. الخلق المنسوب إلى الله إيجاد بعد عدم وتحويل وتغيير، أما الخلق المنسوب لغير الله فهو مجرد تحويل وتغيير، وأضرب لكم مثلًا: هذا الباب من خشب، الذي خلق الخشب الله، ولا يمكن للبشر أن يخلقوه، لكن البشر يستطيع أن يحول جذوع الخشب وأغصان الخشب إلى أبواب إلى كرسي وما أشبه ذلك، فالخلق المنسوب للمخلوق ليس هو الخلق المنسوب للخالق؛ لأن الخلق المنسوب للخالق إيجاد من عدم وهذا لا يستطيعه أحد، والمنسوب للمخلوق تغيير وتحويل يحول الشيء من صفة إلى صفة، أما أن يغير الذوات بمعنى يجعل الذهب فضة، أو يجعل الفضة حديدًا، أو ما أشبه ذلك فهذا مستحيل لا يمكن إلا لله وحده لا شريك له.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥١٨١)، ومسلم (٢١٠٧).

ثم قال تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾، ثمود هم قوم صالح ومساكنهم معروفة الآن، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الحجر: ٨٠]. في سورة (آلر) ذكر الله أن ثمود كانوا في، بلاد الحجر وهي معروفة مر عليها النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - في طريقه إلى تبوك وأسرع وقنّع رأسه ﷺ وقال: «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ القَوْمِ المُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ»[1]، هؤلاء القوم أعطاهم الله قوة حتى صاروا يخرقون الجبال والصخور العظيمة ويصنعون منها بيوتًا ولهذا قال تعالى: ﴿جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ أي: وادي ثمود، وهو معروف، هؤلاء أيضًا فعل الله بهم ما فعل من العذاب والنكال حيث قيل لهم تمتعوا في داركم ثلاثة أيام، ثم بعد الثلاثة الأيام أخذتهم الصيحة والرجفة؛ فأصبحوا في ديارهم جاثمين، فعلينا أن نعتبر بحال هؤلاء المكذبين الذين صار مآلهم إلى الهلاك والدمار، وليُعلم أن هذه الأمة لن تُهلك بما أهلكت به الأمم السابقة بهذا العذاب العام، فإن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - سأل الله تعالى ألَّا يهلكهم بسنة بعامة، ولكن قد تهلك هذه الأمة بأن يجعل الله بأسهم بينهم، فتجري بينهم الحروب والمقاتلة، ويكون هلاك بعضهم على يد بعض، لا بشيء ينزل من السماء، كما صنع الله تعالى بالأمم السابقة، ولهذا يجب علينا أن نحذر الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن نبتعد عن كل ما يثير الناس بعضهم على بعض، وأن نلزم دائمًا الهدوء، وأن نبتعد عن القيل والقال وكثرة السؤال، فإن ذلك مما نهى عنه النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، وكم من كلمة واحدة صنعت ما تصنعه السيوف الباترة، فالواجب الحذر من الفتن، وأن نكون أمة متآلفة متحابة، يتطلب كل واحد منا العذر؛ لأخيه إذا رأى منه ما يكره. قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ﴾ فرعون هو الذي أرسل الله إليه موسى ﷺ وكان قد استذل بني إسرائيل في مصر، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، وقد اختلف العلماء في السبب الذي أدى به إلى هذه الفعلة القبيحة، لماذا يقتل الأبناء ويبقي النساء؟! فقال بعض العلماء: إن كهنته قالوا له إنه سيولد في بني إسرائيل رجل يكون هلاكك على يده فصار يقتل الأبناء ويستبقي النساء.

ومن العلماء من قال: إنه فعل ذلك من أجل أن يضعف بني إسرائيل؛ لأن الأمة إذا قُتلت رجالها واستبقيت نساءها ذلت، بلا شك، فالأول تعليل أهل الأثر، والثاني تعليل أهل النظر - أهل العقل - ولا يبعد أن يكون الأمران جميعًا قد صارا علة لهذا الفعل، ولكن بقدرة الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن، هذا الرجل الذي كان هلاك فرعون على يده تربى في نفس بيت فرعون، فإن امرأة فرعون التقطته وربته في بيت فرعون، وفرعون استكبر في الأرض وعلا في الأرض وقال لقومه:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣٣)، ومسلم (٢٩٨٠).

﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] وقال لهم: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨] وقال لهم: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ﴾ يعني: موسى ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢] قال الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]. وقال لقومه مقررًا لهم: ﴿أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١]. افتخر بالأنهار وهي المياه؛ فأغرق بالماء. قوله تعالى: ﴿ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ﴾، أي: ذي القوة؛ لأن جنوده كانوا له بمنزلة الوتد، والوتد تربط به حبال الخيمة فتستقر وتثبت، فله جنود أمم عظيمة ما بين ساحر وكاهن وغير ذلك لكن الله سبحانه فوق كل شيء. قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾، الطغيان مجاوزة الحد ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]. أي: لما زاد الماء حملناكم في الجارية يعني بذلك: السفينة التي صنعها نوح ﷺ فمعنى ﴿طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾، أي: زادوا عن حدهم واعتدوا على عباد الله. قوله تعالى: ﴿فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ﴾، أي: الفساد المعنوي، والفساد المعنوي يتبعه الفساد الحسي، ودليل ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]؛ ولهذا قال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]. قالوا: لا تفسدوها بالمعاصي، وعلى، هذا فيكون قوله تعالى: ﴿فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ﴾ أي: الفساد المعنوي، لكن الفساد المعنوي يتبعه الفساد الحسي، وكان فيما سبق من الأمم أن الله تعالى يدمر هؤلاء المكذبين عن آخرهم، لكن هذه الأمة رفع الله عنها، هذا النوع من العقوبة وجعل عقوبتها أن يكون بأسهم بينهم، يدمر بعضهم بعضًا، وعلى، هذا فما حصل من المسلمين من اقتتال بعضهم بعضًا، ومن تدمير بعضهم بعضًا إنما هو بسبب المعاصي والذنوب، يسلط الله بعضهم على بعض ويكون، هذا عقوبة من الله - سبحانه وتعالى - وقال الله تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ﴾ الصب معروف أنه يكون من فوق، والعذاب الذي أتى هؤلا من فوق من عند الله - عَزَّ وَجَلَّ - ﴿سَوۡطَ عَذَابٍ﴾ السوط هو العصا الذي يضرب به، ومعلوم أن الضرب بالعصا نوع عذاب، لكن هل، هذاالسوط الذي صبه الله تعالى على عاد، وثمود، وفرعون، هل هو العصا المعروف الذي نعرف، أو أنه عصا عذاب أهلكهم؟ الجواب: الثاني عصا عذاب أهلكهم وأبادهم. نسأل الله تعالى أن يجعل لنا فيما سبق من الأمم عبرة نتعظ بها وننتفع بها، ونكون طائعين لله - عَزَّ وَجَلَّ - غير طاغين، إنه على كل شيء قدير. قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾، الخطاب هنا للنبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - أو لكل من يتوجه إليه الخطاب، يبين الله - عَزَّ وَجَلَّ - أنه بالمرصاد لكل من طغى واعتدى وتكبر، فإنه له بالمرصاد سوف يعاقبه ويؤاخذه، وهذا المعنى له نظائر في القرآن الكريم منها قوله تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠]. وكقول شعيب؛ لقومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ

شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ [هود: ٨٩]. فسنة الله ـ سبحانه وتعالى ـ واحدة في المكذبين لرسله، المستكبرين عن عبادته هو لهم بالمرصاد، وهذه الآية تفيد التهديد والوعيد لمن حاول، أو لمن استكبر عن عبادة الله، أو كذب خبره.



قال الله تعالى:

﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾ [الفجر: ١٥ ـ ٢٠].

التفسير

ثم قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾، الابتلاء من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يكون بالخير وبالشر، كما قال تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ [الأنبياء: ٣٥]. فيُبتلى الإنسان بالخير؛ ليبلوه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أيشكر أم يكفر، ويبتلى بالشر؛ ليبلوه أيصبر أم يفجر، وأحوال الإنسان دائرة بين خير وشر، بين خير يلائمه ويسره، وبين شر لا يلائمه، ولا يسره، وكله ابتلاء من الله، والإنسان بطبيعته الإنسانية المبنية على الظلم والجهل إذا ابتلاه ربه؛ فأكرمه ونعمه يقول ﴿رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾، يعني: أنني أهل للإكرام، ولا يعترف بفضل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وهذا كقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]. لما ذكر بنعمة الله عليه قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾، ولم يعترف بفضل الله، وما أكثر الناس الذين هذه حالهم إذا أكرمهم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ونعمهم، قالوا:، هذا إكرام من الله لنا؛ لأننا أهل لذلك، ولو أن الإنسان قال: إن الله أكرمني بكذا اعترافًا بفضله وتحدثًا بنعمته لم يكن عليه في ذلك بأس، لكن إذا قال: أكرمني، يعني: أنني أهل للإكرام كما يقول مثلًا كبير القوم إذا نزل ضيفًا على أحدهم قال: أكرمني فلان؛ لأنني أهل لذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾ يعني: ضيق عليه الرزق ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾، يعني: يقول إن الله تعالى ظلمني؛ فأهانني ولم يرزقني، كما رزق فلانًا، ولم يكرمني، كما أكرم فلانًا،

فصار عند الرخاء لا يشكر، يعجب بنفسه ويقول، هذا حق لي وعند الشدة لا يصبر، بل يعترض على ربه ويقول ﴿رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ وهذا حال الإنسان باعتباره إنسانًا، أما المؤمن فليس كذلك، المؤمن إذا أكرمه الله ونعّمه شكر ربه على ذلك، ورأى أن، هذا فضل من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وإحسان، وليس من باب الإكرام الذي يقدم لصاحبه على أنه مستحق، وإذا ابتلاه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وقدر عليه رزقه صبر واحتسب، وقال، هذا بذنبي، والرب ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لم يهني ولم يظلمني، فيكون صابرًا عند البلاء، شاكرًا عند الرخاء، وفي الآيتين إشارة إلى أنه يجب على الإنسان أن يتبصر فيقول مثلًا: لماذا أعطاني الله المال؟ ماذا يريد مني؟ يريد مني أن أشكر. لماذا ابتلاني الله بالفقر، بالمرض وما أشبه ذلك؟ يريد مني أن أصبر، فليكن محاسبًا لنفسه حتى لا يكون مثل حال الإنسان المبنية على الجهل والظلم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾ يعني: لم يعطك ما أعطاك إكرامًا لك؛ لأنك مستحق، ولكنه تفضل منه، ولم يهنك حين قدر عليك رزقه، بل، هذا مقتضى حكمته وعدله. ثم قال تعالى: ﴿بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ يعني: أنتم إذا أكرمكم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بالنعم لا تعطفون على المستحقين للإكرام وهم اليتامى، فاليتيم هنا اسم جنس، ليس المراد يتيمًا واحدًا، بل جنس اليتامى، واليتيم قال العلماء: هو الذي مات أبوه قبل، بلوغه من ذكر أو أنثى، وأما من ماتت أمه فليس بيتيم، وقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَتِيمَ﴾، يشمل الفقير من اليتامى، والغني من اليتامى؛ لأنه ينبغي الإحسان إليه وإكرامه؛ لأنه انكسر قلبه بفقد أبيه ومن يقوم بمصالحه فأوصى الله تعالى به حتى يزول، هذا الكسر الذي أصابه، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾، يعني: لا يحض بعضكم بعضًا على أن يطعم المسكين، وإذا كان لا يحض غيره فهو أيضًا لا يفعله بنفسه، فهو لا يطعم المسكين، ولا يحض على طعام المسكين، وفي، هذا إشارة إلى أنه ينبغي لنا أن نكرم الآيتام، وأن يحض بعضنا بعضًا على إطعام المساكين؛ لأنهم في حاجة، والله ـ تعالى ـ في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

قال الله تعالى: ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾ ﴿ٱلتُّرَاثَ﴾ ما يورثه الله العبد من المال، سواء ورثه عن ميت، أو باع واشترى وكسب، أو خرج إلى البر وأتى بما يأتي به من عشب وحطب وغير ذلك، فالتراث ما يرثه الإنسان، أم ما يورثه الله الإنسان من المال، فإن بني آدم يأكلونه أكلًا لما، وأما المال فقال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾، أي: عظيمًا، وهذا هو طبيعة الإنسان، لكن الإيمان له مؤثراته قد يكون الإنسان بإيمانه لا يهتم بالمال، وإن جاءه شكر الله عليه، وأدى ما يجب، وإن ذهب لا يهتم به، لكن طبيعة الإنسان من حيث هو كما وصفه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في هاتين الآيتين.



❁ قال الله تعالى:

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢١-٣٠].

❁ التفسير ❁

قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾، يذكر الله - سبحانه وتعالى - الناس بيوم القيامة ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾، حتى لا ترى فيها عوجًا، ولا أمتًا، تُدك الجبال، ولا بناء، ولا أشجار، تمد الأرض كمد الأديم، يكون الناس عليها في مكان واحديُسمعهم لداعي نفذهم البصر في، هذا اليوم ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾، ولكن قد فات الأوان؛ لأننا في الدنيا في مجال العمل في زمن المهلة يمكن للإنسان أن يكتسب لمستقره، كما قال مؤمن آل فرعون ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩]. متاع يتمتع به الإنسان، كما يتمتع المسافر بمتاع السفر حتى ينتهي سفره، فهكذا الدنيا واعتبر ما يستقبل بما مضى، كل ما مضى كأنه ساعة من نهار، كأننا الآن مخلوقون، فكذلك ما يستقبل سوف يمر بنا سريعًا ويمضي جميعًا، وينتهي السفر إلى مكان آخر ليس مستقرًّا، إلى الأجداث إلى القبور ومع، هذا، فإنها ليست محل استقرار لقول الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١، ٢]. سمع أعرابي رجلًا يقرأ هذه الآية فقال: (والله ما الزائر بمقيم ولابد من مفارقة لهذا المكان)، وهذا استنباط قوي وفهم جيد تؤيده الآيات الكثيرة الصريحة في ذلك كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥، ١٦]. وذكر الله - سبحانه وتعالى - ما يكون في، هذا اليوم فقال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾، أي: صفًّا بعد صف، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾، هذا المجيء هو مجيئه - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لأن الفعل أسند إلى الله، وكل فعل يسند إلى الله فهو قائم به لا بغيره، هذه القاعدة في اللغة العربية، والقاعدة في أسماء الله وصفاته كل ما أسنده الله إلى نفسه فهو له نفسه لا لغيره، وعلى، هذا فالذي يأتي هو الله - عَزَّ وَجَلَّ -

وليس، كما حرفه أهل التعطيل حيث قالوا إنه جاء أمر الله، فإن، هذا إخراج للكلام عن ظاهره، بلا دليل، فنحن من عقيدتنا أن نجري كلام الله تعالى، ورسوله ﷺ على ظاهره وألا نحرف فيه. ونقول: إن الله - تعالى - يجيء يوم القيامة هو نفسه، ولكن كيف، هذا المجيء؟، هذا هو الذي لا علم لنا به لا ندري كيف يجيء؟ والسؤال عن مثل، هذا بدعة، كما قال الإمام مالك - رحمه الله - حين سُئل عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]؛ فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرحضاء - يعني: العرق - لشدة، هذا السؤال على قلبه؛ لأنه سؤال عظيم سؤال متنطع، سؤال متعنت أو مبتدع يريد السوء، ثم رفع رأسه وقال: (الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة)، الشاهد الكلمة الأخيرة - السؤال عنه بدعة - واعتبر، هذا في جميع صفات الله فلو سألنا سائل قال: إن الله يقول: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص ٧٥]. يعني: آدم، كيف خلقه بيده؟ نقول:، هذا السؤال بدعة، قال: أنا أريد العلم لا أحب أن يخفى علي شيء من صفات ربي؛ فأريد أن أعلم كيف خلقه؟ نقول: نحن نسألك أسئلة سهلة هل أنت أحرص على العلم من الصحابة -- رضي الله عنهم -؟ إما أن يقول نعم، وإما أن يقول لا، والمتوقع أن يقول لا. هل الذي وجهت إليه السؤال أعلم بكيفية صفات الله - عَزَّ وَجَلَّ - أم الرسول ﷺ ؟ سيقول: الرسول، فإذا الصحابة أحرص منك على العلم والمسؤول الذي يوجه إليه السؤال أعلم من الذي تسأله ومع ذلك ما سألوا؛ لأنهم يلتزمون الأدب مع الله - عَزَّ وَجَلَّ - ويقولون بقلوبهم وربما بألسنتهم إن الله أجل وأعظم من أن تحيط أفهامنا وعقولنا بكيفيات صفاته، والله - عَزَّ وَجَلَّ - يقول في كتابه في الأمور المعقولة ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٠]. وفي الأمور المحسوسة: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. فنقول: يا أخي الزم الأدب، لا تسأل كيف خلق الله آدم بيده؟، فإن، هذا السؤال بدعة، وكذلك بقية الصفات لو سأل كيف عين الله عز وجل؟ قلنا له: هذا بدعة، لو سأل كيف يد الله - عَزَّ وَجَلَّ - قلنا:، هذا بدعة وعليك أن تلزم الأدب، وألا تسأل عن كيفية صفات الله عز وجل. لما قال هنا في الآية الكريمة ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾، وسأل كيف يجيء؟ نقول:، هذا بدعة - هذه القاعدة التزموها - وكل إنسان يسأل عن كيفية صفات الله فهو مبتدع متنطع، سائل عما لا يمكن الوصول إليه، فموقفنا من مثل هذه الآية ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾، أن نؤمن بأن الله يجيء لكن على أي كيفية الله؟ الله أعلم. والدليل قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. فنحن نعلم النفي، ولا نعلم الإثبات، يعني: نعلم أنه لا يمكن أن يأتي على كيفية إتيان البشر، ولكننا لا نثبت كيفيته وهذا هو الواجب علينا، وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَكُ﴾ (أل) هنا للعموم يعني: جميع الملائكة يأتون ينزلون ويحيطون بالخلق، تنزل ملائكة السماء الدنيا، ثم ملائكة السماء الثانية وهلم جرا يحيطون بالخلق إظهارًا للعظمة، وإلا فإن الخلق لا يمكن أن يفروا يمينًا، ولا شمالًا لكن إظهارًا لعظمة الله

وتهويلًا لهذا اليوم العظيم، تنزل الملائكة يحيطون بالخلق، وهذا اليوم يوم مشهود يشهده الملائكة والإنس والجن والحشرات وكل شيء ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]. فهو يوم عظيم لا ندركه الآن، ولا نتصوره؛ لأنه أعظم مما نتصور. الأمر الثالث مما به الإنذار في، هذا اليوم بعد أن عرفنا الأمر الأول، وهو مجيء الله، ثم صفوف الملائكة قال تعالى: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾، ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ﴾، ولم يذكر الجائي لكن قد دلت السنة أنه يؤتى بالنار تقاد بسبعين ألف زمام كل زمام منها يقوده سبعون ألف ملك، وما أدراك ما قوة الملائكة؟ قوة ليست كقوة البشر، ولا كقوة الجن، بل هي أعظم وأعظم بكثير، ولهذا لما قال عفريت من الجن لسليمان ﴿أنا آتيك به﴾، بعرش، بلقيس ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ۝٣٩ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ [النمل: ٣٩، ٤٠].

قال العلماء: لأن الرجل هذا دعا الله، فحملته الملائكة من اليمن فجاءت به إلى سليمان في الشام، فقوة الملائكة عظيمة، وهم يجرون هذه النار بسبعين ألف زمام، كل زمام يجره سبعون ألف ملك، فإذا هي عظيمة، هذه النار إذن رأت أهلها من مكان بعيد، سمعوا لها تغيظًا وزفيرًا، وليست كزفير الطائرات أو المعدات، زفير تنخلع منه القلوب، ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨]. وقال الله عز وجل: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾، تكاد تقطع من شدة الغيظ على أهلها؛ فلهذا أنذرنا الله تعالى منها فهذه ثلاثة أمور كلها إنذار: مجيء الرب جل جلاله، صفوف الملائكة، الثالث: الإتيان بجهنم.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ يعني: إذا جاء الله في يوم القيامة، وجاء الملك الملائكة صفوفًا صفوفًا، وأحاطوا بالخلق، وحصلت الأهوال والأفزاع يتذكر الإنسان، يتذكر أنه وعد بهذا اليوم، وأنه أعلم به من قبل الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأنذروا وخوفوا، ولكن من حقت عليه كلمة العذاب، فإنه لا يؤمن ولو جاءته كل آية، حينئذ يتذكر لكن يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾، أين يكون له الذكرى في، هذا اليوم الذي رأى فيه ما أخبر عنه يقينًا؟! وأنى له الاتعاظ فات الأوان؟! والإيمان عن مشاهدة لا ينفع؛ لأن كل إنسان يؤمن بما شاهد، الإيمان النافع هو الإيمان بالغيب ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]. فيصدق بما أخبرت به الرسل عن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وعن اليوم الاخر، في ذلك اليوم يتذكر الإنسان، ولكن قال الله عز وجل: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾، أي: بعيد أن ينتفع بهذه الذكرى التي حصلت منه حين شاهد الحق يقول الإنسان: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾، يتمنى أنه قدم لحياته وما هي حياته؟ أهي حياة الدنيا؟ لا والله، الحياة الدنيا انتهت وقضت، وليست الحياة الدنيا حياة في الواقع، الواقع أنها هموم وأكدار، كل صفو يعقبه كدر، كل عافية يتبعها مرض، كل اجتماع يعقبه تفرق، انظروا ما حصل أين الآباء؟ أين الإخوان؟ أين الأبناء؟ أين الأزواج؟ هل هذه حياة؟

ولهذا قال بعض الشعراء الحكماء:

لَا طِيبَ لِلْعَيْــــشِ مَا دَامَتْ   مُنَغَّصــــةً لَذَّاتُهُ بِادِّكَارِ المَوْتِ وَالهرمِ

كل إنسان يتذكر أن مآله أحد أمرين: إما الموت، وإما الهرم، نحن نعرف أناسًا كانوا شبابًا في عنفوان الشباب عُمّروا لكن رجعوا إلى أرذل العمر، يَرِقُّ لهم الإنسان إذا رآهم في حالة بؤس، حتى، وإن كان عندهم من الأموال ما عندهم، وعندهم من الأهل ما عندهم، لكنهم في حالة بؤس، وهكذا كل إنسان إما أن يموت مبكرًا، وإما أن يُعمّر فيرد إلى أرذل العمر فهل هذه حياة؟ الحياة هي ما بينه الله عز وجل: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ يعني: لهي الحياة التامة ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]. يقول هذا: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾، يتمنى لكن لا يحصل وأنى له الذكرى؟! قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ فيها قراءتان: الأولى ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾، أي: لا يعذب عذاب الله أحد، بل عذاب الله أشد، ولا يوثق وثاق الله أحد، بل هو أشد. القراءة الثانية: ﴿وَلَا يُوثَقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾، يعني: في هذا اليوم لا أحد يعذب عذاب، هذا الرجل، ولا أحد يوثق وثاقه، ومعلوم أن، هذا الكافر لا يعذب أحد عذابه في ذلك اليوم؛ لأنه يُلقى على أهل النار في الموقف العطش الشديد، فينظرون إلى النار كأنها السراب، والسراب هو ما يشاهده الإنسان في أيام الصيف في شدة الحر من البقاع حتى يخيل إليه أنه الماء، ينظرون إلى النار كأنها سراب وهم عطاش، فيتهافتون عليها يذهبون إليها سراعًا يريدون أي: شيء؟ يريدون الشرب، فإذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الزمر: ٧١]. قد قامت عليكم الحجة فيوبخونهم قبل أن يدخلوا النار، والتوبيخ عذاب قلبي وألم نفسي قبل أن يذوقوا ألم النار، وفي النار يوبخهم الجبار - عَزَّ وَجَلَّ - توبيخًا أعظم من هذا. ويقولون ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾، قال الله تعالى، وهو أرحم الراحمين: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ - ١٠٨]. أبلغ من، هذا الإذلال ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، يقوله أرحم الراحمين، فمن يرحمهم بعد الرحمن؟! لا راحم لهم، وقد أخبر النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - بأن أهون أهل النار عذابًا من عليه نعلان يغلي منهما دماغه، ولا يرى أن أحدًا أشد منه عذابًا يرى أنه أشد الناس عذابًا، وهو أهونهم عذابًا، وعليه نعلان يغلي منهما الدماغ، النعلان في أسفل البدن والدماغ في أعلاه، فإذا كان أعلى البدن يغلي من أسفله، فالوسط من باب أشد - أجارنا الله وإياكم من النار - ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾؛ لأنهم - والعياذ بالله - يوثقون ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٢]. أدخلوه في هذه السلسلة تغل أيديهم - نسأل الله العافية - ولا أحد يتصور الآن ما هم فيه من البؤس والشقاء والعذاب؛ إذن على الإنسان أن يستعد قبل أن ﴿يَقُولُ

﴿يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾.

ثم ختم الله تعالى هذه السورة بما يبهج القلب ويشرح الصدر فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾، ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾، يقال، هذا القول للإنسان عند النزع في آخر لحظة من الدنيا، يقال لروحه: اخرجي أيتها النفس المطمئنة، اخرجي إلى رحمة من الله ورضوان، فتستبشر وتفرح، ويسهل خروجها من البدن؛ لأنها بشرت بما هو أنعم مما في الدنيا كلها، قال النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «لَمَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»(١)، سوط الإنسان هو العصا القصير، موضع السوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، وليست دنياك أنت، بل الدنيا من أولها إلى آخرها، بما فيها من النعيم، والملك، والرفاهية وغيرها، موضع سوط خير من الدنيا وما فيها، فكيف بمن ينظر في ملكه مسيرة ألفي عام، ألفي سنة يرى أقصاه، كما يرى أدناه، نعيم لا يمكن أن ندركه بنفوسنا، ولا بتصورنا ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]. قوله تعالى: ﴿ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾، يعني: المؤمنة الآمنة؛ لأنك لا تجد نفسًا أطمن من نفس المؤمن أبدًا، المؤمن نفسه طيبة مطمئنة، ولهذا تعجب الرسول ﷺ من المؤمن قال: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»(٢)، مطمئن راض بقضاء الله وقدره، لا يسخط عند المصائب، ولا يبطر عند النعم، بل هو شاكر عند النعم، صابر عند البلاء، فتجده مطمئنًا، لكن الكافر أو ضعيف الإيمان لا يطمئن، فإذا أصابه البلاء جزع وسخط، ورأى أنه مظلوم من قبل الله ـ والعياذ بالله ـ حتى إن بعضهم ينتحر، ولا يصبر، ولا يطمئن، بل يكون دائمًا في قلق، ينظر إلى نفسه وإذا هو قليل المال، قليل العيال ليس عنده زوجة، ليس له قوم يحمونه، فيقول: أنا لست في نعمة؛ لأن فلانًا عنده مال، وعنده زوجات، وعنده أولاد، وعنده قبيلة تحميه، وأنا ليس عندي، فلا يرى لله عليه نعمة؛ لأنه ضعيف الإيمان فليس بمطمئن، دائمًا في قلق، ولهذا نجد الناس الآن يذهبون إلى كل مكان؛ ليرفهوا عن أنفسهم؛ ليزيلوا عنها الألم والتعب، لكن لايزيل ذلك حقاً إلا الإيمان، الإيمان الحقيقي الذي يؤدي إلى الطمأنينة، فالنفس المطمئنة هي المؤمنة، مؤمنة في الدنيا، آمنة من عذاب الله يوم القيامة، قال بعض السلف كلمة عجيبة قال: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف، هل تجدون أنعم في الدنيا من الملوك وأبنائهم، لا يوجد أحد أنعم منهم في الظاهر يعني: نعومة الجسد، لكن قلوبهم ليست كقلوب المؤمنين، المؤمن الذي ليس عليه إلا ثوب مرقع، وكوخ لا يحميه من المطر، ولا من الحر، ولكنه مؤمن، دنياه ونعيمه في الدنيا أفضل من الملوك وأبناء الملوك؛ لأن قلبه مستنير بنور الله،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٥٠)، ومسلم (١٨٨١).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٩٩)، وأحمد في «مسنده» (٤/ ٣٣٣).

بنور الإيمان.

وها هو شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - حبس وأوذي في الله - عَزَّ وَجَلَّ - فلما أدخل الحبس وأغلقوا عليه الباب قال رحمه الله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]. يقول، هذا تحدثًا بنعمة الله لا افتخارًا ثم قال: (ما يصنع أعدائي بي - أي: أي شيء يصنعون - إن جنتي في صدري - أي: الإيمان والعلم واليقين -، وإن حبسي خلوة ونفيي - إن نفوه من البلد - سياحة وقتلي شهادة)، هذا هو اليقين، هذه الطمأنينة، والإنسان لو دخل الحبس كان يفكر ما مستقبلي، ما مستقبل أولادي، وأهلي، وقومي، وشيخ الإسلام - رحمه الله - يقول: (جنتي في صدري) وصدق. ولعل، هذا هو السر في قوله تبارك وتعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦]. يعني: في الجنة لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى، ومعلوم أن الجنة لا موت فها لا أولى، ولا ثانية، لكن لما كان نعيم القلب ممتدًا من الدنيا إلى دخول الجنة صارت كأن الدنيا والآخرة كلها جنة وليس فيها إلا موتة واحدة.

قوله تعالى: ﴿رَاضِيَةً﴾ بما أعطاك الله من النعيم ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ عند الله - عَزَّ وَجَلَّ - كما قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ أي: ادخلي في عبادي الصالحين، من جملتهم؛ لأن الصالحين من عباد الله الذين أنعم الله عليهم، الذين هم خير طبقات البشر، والبشر طبقاته ثلاث: منعم عليهم، ومغضوب عليهم، وضالون، وكل هذه الطبقات مذكورة في سورة الفاتحة ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦،٧].

الطبقة الأولى: الذين أنعم الله عليهم وهم: النبيون، والصديقون، والشهداء، والصالحون.

والثانية: ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، وهم اليهود وأشباه اليهود من كل من علم الحق وخالفه، فكل من علم الحق وخالفه ففيه شبه من اليهود، كما قال سفيان بن عيينة - رحمه الله -: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود.

والثالثة: ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾، وهم النصارى الذين جهلوا الحق، أرادوه لكن عموا عنه، ما اهتدوا إليه، قال ابن عيينة: وكل من فسد من عبّادنا ففيه شبه من النصارى؛ لأن العبّاد يريدون الخير يريدون العبادة لكن لا علم عندهم، فهم ضالون.

وقوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾، أي: الطبقة الأولى المنعم عليهم. قوله تعالى: ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾، أي: جنته التي أعدها الله - عز وجل - لأوليائه، أضافها الله إلى نفسه تشريفًا لها وتعظيمًا، وإعلامًا للخلق بعنايته بها - جل وعلا - والله - سبحانه وتعالى - قد خلقها خلقًا غير خلق الدنيا، خلق لنا في الدنيا فاكهة، ونخل، ورمان، وفي الجنة فاكهة، ونخل، ورمان، ولكن ما في الجنة ليس كالذي في الدنيا أبدًا؛ لأن الله يقول: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]. ولو كان ما

في الجنة كالذي في الدنيا لكنا نعلم، فإذا هو مثله في الاسم، لكن ليس مثله في الحقيقة، ولا في الكيفية ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾؛ فأضافها الله إلى نفسه للدلالة على شرفها وعناية الله بها، وهذا يوجب للإنسان أن يرغب فيها غاية الرغبة، كما أنه يرغب في بيوت الله التي هي المساجد؛ لأن الله أضافها إلى نفسه، فكذلك يرغب في هذه الدار التي أضافها الله إلى نفسه، والأمر يسير، قال رجل للرسول ﷺ: دلني على عمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار، فقال: «لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ، وَهُوَ عَظِيمٌ ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللهُ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ»، وذكر الحديث، فالدين والحمد لله يسير وسهل، لكن النفوس الأمّارة بالسوء، والشهوات، والشبهات، هي التي تحول بيننا وبين ديننا، ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب.



تفسير سورة البلد

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ① وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ② وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ③ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ④ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ⑤ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ⑥ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ⑦ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ⑧ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ⑨ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠:١].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

البسملة: تقدم الحديث عليها.

قال الله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾، ﴿لَا﴾، للاستفتاح، أي: استفتاح الكلام وتوكيده، وليست نافية؛ لأن المراد إثبات القسم، يعني: أنا أقسم بهذا البلد لكن (لا) هذه تأتي هنا للتنبيه والتأكيد و﴿أُقْسِمُ﴾، القسم تأكيد الشيء بذكر معظَّم على وجه مخصوص. فكل شيء محلوف به لابد أن يكون معظمًا لدى الحالف، وقد لا يكون معظمًا في حد ذاته. فمثلًا الذين يحلفون باللات والعزى هي معظمة عندهم، لكن هي في الواقع ليست عظيمة، ولا معظمة. فالحلف، أو القسم، أو اليمين المعنى واحد، هي تأكيد الشيء بذكر معظم عند الحالف على صفة مخصوصة، وحروف القسم هي: الباء، والواو، والتاء، والذي في الآية الكريمة هنا ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾، (الباء). قوله تعالى: ﴿بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾، البلد هنا مكة، وأقسم الله بها لشرفها وعظمها، فهي أعظم بقاع الأرض حرمة وأحب بقاع الأرض إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - ولهذا بعث منها رسول الله ﷺ الذي هو سيد البشر صلوات الله وسلامه عليه، فجدير بهذا البلد الأمين أن يقسم به، ولكن نحن لا نقسم به؛ لأنه مخلوق، وليس لنا الحق أن نقسم بمخلوق، كما قال النبي ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ

أَوْ أَشْرَكَ»[(١)]، أما الله - عَزَّ وَجَلَّ - فإنه سبحانه يقسم بما شاء؛ ولهذا أقسم هنا بمكة ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾، قيل: المعنى: أقسم بهذا البلد حال كونك حالاً فيه؛ لأن حلول النبي ﷺ في مكة يزيدها شرفًا إلى شرفها. وقيل المعنى: وأنت تستحل، هذا البلد، فيكون إقسام الله تعالى بمكة حال كونها حلاً للرسول - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، وذلك عام الفتح؛ لأن مكة عام الفتح أُحلت للرسول ﷺ ولم تحل لأحد قبله، ولا تحل لأحد بعد ذلك، كما قال ﷺ: «وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ»[(٢)]، فيكون إقسام الله تعالى بهذا البلد مقيدًا بما إذا كانت حلاً للرسول ﷺ عام الفتح؛ لأنها في ذلك اليوم تزداد شرفًا إلى شرفها، حيث طُهِّرت من الأصنام وهزم المشركون، وفتحت عليهم، بلادهم عنوة، وصارت هذه البلد بعد أن كانت، بلد كفر صارت، بلاد إيمان، وبعد أن كانت، بلاد شرك صارت بلاد توحيد، وبعد أن كانت، بلاد عناد صارت بلاد إسلام، فأشرف حال لمكة كانت عند الفتح. قوله تعالى: ﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾ يعني: وأقسم بالوالد وما ولد، فمن المراد بالوالد ومن المراد بالولد؟ قيل: المراد بالوالد آدم، وبالولد بنو آدم وعلى هذا تكون (ما) بمعنى (من) أي: ووالد ومن ولد؛ لأن (من) للعقلاء، و(ما) لغير العقلاء.

وقيل: المراد بالوالد وما ولد كل والد وما ولد، الإنسان والبهائم وكل شيء؛ لأن الوالد والمولود كلاهما من آيات الله - عَزَّ وَجَلَّ - كيف يخرج هذا المولود حيًّا سويًّا سميعًا بصيرًا من نطفة من ماء، فهذا دليل على كمال قدرة الله - عَزَّ وَجَلَّ - هذا الولد السوي يخرج من نطفة ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ [يس: ٧٧]. كذلك الحشرات وغيرها تخرج ضعيفة هزيلة، ثم تكبر إلى ما شاء الله - تعالى - من حد. والصحيح أن هذه عامة تشمل كل والد وكل مولود ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾، اللام هنا واقعة في جواب القسم، لتزيد الجملة تأكيدًا، و(قد) تزيد الجملة تأكيدًا أيضًا فتكون جملة ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾، مؤكدة بثلاثة مؤكدات، وهي: القسم، واللام، وقد، ﴿خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ الإنسان اسم جنس يشمل كل واحد من بني آدم ﴿فِي كَبَدٍ﴾ فيها معنيان:

المعنى الأول: في استقامة، يعني: أنه خلق على أكمل وجه في الخِلقة، مستقيمًا يمشي على قدميه، ويرفع رأسه، وبدنه معتدلًا، والبهائم بالعكس الرأس على حذاء الدبر، أما بنو آدم فالرأس مرتفع أعلى البدن، فهو كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: ٤].

وقيل: المراد بـ﴿كَبَدٍ﴾، مكابدة الأشياء ومعاناتها، وأن الإنسان يعاني المشقة في أمور الدنيا،

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٤)، والترمذي (١٥٣٥)، وأبو داود (٣٢٥١)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٢٥٦١).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٠٤)، ومسلم (١٣٥٤).

وفي طلب الرزق، وفي إصلاح الحرث وغير ذلك. ويعاني أيضًا معاناة أشد مع نفسه ومجاهدتها على طاعة الله، واجتناب معاصي الله، وهذا الجهاد الذي هو أشق من معاناة طلب الرزق، ولاسيما إذا ابتلي الإنسان ببيئة منحرفة وصار بينهم غريبًا، فإنه سيجد المشقة في معاناة نفسه، وفي معاناة الناس أيضًا.

فإن قال قائل: أفلا يمكن أن تكون الآية شاملة للمعنيين؟

فالجواب: بلى، وهكذا ينبغي إذا وجدت في الكتاب العزيز آية تحتمل معنيين وليس بينهما مناقضة فاحملها على المعنيين؛ لأن القرآن أشمل وأوسع، فإن كان بينهما مناقضة فانظر الراجح. فمثلًا قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. (قروء) جمع قرء بفتح القاف فما هو (القرء)؟ قيل: هو الحيض، وقيل: هو الطهر. هنا لا يمكن أن تحمل الآية على المعنيين جميعًا للتناقض، لكن اطلب المرجح لأحد القولين وخذ به. فهنا نقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾، يصح أن تكون الآية شاملة للمعنيين أي: في حسن قامة واستقامة، و﴿فِي كَبَدٍ﴾، في معاناة لمشاق الأمور.

وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ أي: أن الإنسان في نفسه وقوته يظن أن لن يقدر عليه أحد؛ لأنه في عنفوان شبابه وقوته وكبريائه وغطرسته، فيقول لا أحد يقدر عليَّ، أنا أعمل ما شئت، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]. إذن فالإنسان في حال صحته وعنفوان شبابه يظن أنه لا يقدر عليه أحد، حتى الرب -عَزَّ وَجَلَّ- يظن أنه لا يقدر عليه، وهذا لا شك بالنسبة للكافر، أما المؤمن، فإنه يعلم أن الله قادر عليه، وأنه على كل شيء قدير فيخاف منه، ﴿يَقُولُ﴾ أي: يقول الإنسان أيضًا في حال غناه وبسط الرزق له ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ أي: مالًا كثيرًا في شهواته وفي ملذاته. يقول الله عز وجل: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ أيظن، هذا أنه لا يراه أحد في تبذيره المال، وصرفه فيما لا ينفع، وكل، هذا تهديد للإنسان أن يتغطرس، وأن يستكبر من أجل قوته البدنية، أو كثرة ماله. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ هذه ثلاث نعم من أكبر النعم على الإنسان ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ﴾ يعني: يبصر بهما ويرى فيهما، وهاتان العينان تؤديان إلى القلب ما نظر إليه الإنسان، فإن نظر نظرة محرمة كان آثمًا، وإن نظر نظرًا يقربه إلى الله كان غانمًا، وإذا نظر إلى ما يباح له، فإنه لا يحمد، ولا يذم ما لم يكن، هذا النظر مفضيًا إلى محظور شرعي فيكون آثمًا بهذا النظر.

وقوله تعالى: ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ لسانًا ينطق به، وشفتين يضبط بهما النطق، وهذه من نعم الله العظيمة؛ لأنه بهذا اللسان والشفتين يستطيع أن يعبر عما في نفسه، ولولا هذا ما استطاع، لو كان لا يتكلم فكيف يعبر عما في قلبه؟ كيف يُعْلِمُ الناس بما في نفسه؟ اللهم إلا بإشارة تتعب،

يتعب المشير ويتعب الذين أشير إليهم، ولكن من نعمة الله أن جعل له لسانًا ناطقًا، وشفتين يضبط بهما النطق، وهذا من نعمة الله، وهو أيضًا من عجائب قدرته: يأتي النطق من هواء يكون من الرئة يخرج من مخارج معينة، إن مر بشيء صار حرفًا، وإن مر بشيء آخر صار حرفًا آخر، وهو هواء واحد من مخرج واحد، لكن يمر بشعيرات دقيقة في الحلق، وفي الشفتين، وفي اللثة هذه الشعرات تكون الحروف. فتجد مثلًا الباء والشين كلها بهواء يندفع من الرئة ومع ذلك تختلف باختلاف ما تمر عليه في، هذا الفم، ومخارج الحروف المعروفة، هذا من تمام قدرة الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾، قيل: أي: بينا له طريق الخير، وطريق الشر. القول الثاني: ﴿وَهَدَيْنَهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾، دللناه على ما به غذاؤه، وهو الثديان، فإنهما نجدان لارتفاعهما فوق الصدر، فهداه الله تعالى، وهو رضيع لا يعرف، فمن حين أن يخرج وتضعه أمه يطلب الثدي، والذي أعلمه الله -عَزَّ وَجَلَّ- فبين الله -عَزَّ وَجَلَّ- منته على، هذا الإنسان من حين أن يخرج يهتدي إلى النجدين، وفي بطن أمه يتغذى عن طريق السرة؛ لأنه لا يستطيع أن يتغذى من غير، هذا، فلو تغذى عن طريق الفم لاحتاج إلى بول وغائط، وكيف ذلك؟ لكنه عن طريق السرة يأتيه الدم من دم أمه وينتشر في عروقه حتى يحيا إلى أن يأذن الله تعالى بإخراجه.



قال الله تعالى:

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ (١١) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ (١٧) أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ (١٨) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ [البلد: ١١: ٢٠].

التفسير

قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾، أي: الإنسان الذي كان يقول ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾، ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ يعني: هلا اقتحم العقبة؟ والاقتحام هو التجاوز بمشقة، و﴿ٱلْعَقَبَةَ﴾، هي الطريق في الجبل الوعر، ولا شك أن اقتحام هذه العقبة شاق على النفوس، لا يتجاوزه أو لا يقوم به إلا من كان عنده نية صادقة في تجاوز هذه العقبة، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾ هذا الاستفهام للتشويق والتفخيم أيضًا، يعني: ما الذي أعلمك شأن هذه العقبة التي قال الله عنها: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾،

بينها الله في قوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فقوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ هي خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: «هي فك رقبة» وفك الرقبة له معنيان:

المعنى الأول: فكها من الرق، بحيث يعتق الإنسان العبيد المملوكين سواء كانوا في ملكه فيعتقهم، أم كانوا في ملك غيره فيشتريهم ويعتقهم.

المعنى الثاني: فك رقبة من الأسير، فإن فكاك الأسير من أفضل الأعمال إلى الله عز وجل. والأسير ربما لا يفكه العدو إلا بفدية مالية، وربما تكون هذه الفدية فدية باهظة كثيرة لا يقتحمها إلا من كان عنده إيمان بالله - عَزَّ وَجَلَّ - بأن يخلف عليه ما أنفق، وأن يثيبه على ما تصدق. قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾، ﴿أَوْ﴾، هذه للتنويع يعني: وإما ﴿إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ أي: ذي مجاعة شديدة؛ لأن الناس قد يصابون بالمجاعة الشديدة، إما لقلة الحاصل من الثمار والزروع، وإما لأمراض في أجسامهم يأكل الإنسان، ولا يشبع، وهذا قد وقع فيما نسمع عنه في البلاد النجدية وربما في غيرها أيضًا. أن الناس يأكلون، ولا يشبعون، يأكل الواحد مأكل العشرة، ولا يشبع، ويموتون من الجوع في الأسواق ويتساقطون في الأسواق من الجوع، هذه من المساغب. أو قلة المحصول، بحيث لا تثمر الأشجار، ولا تنبت الزروع، فيقل الحاصل وتحصل المسغبة، ويموت الناس جوعًا، وربما يهاجرون عن بلادهم. وقوله: ﴿يَتِيمًا﴾ اليتيم هو من مات أبوه قبل أن يبلغ سواءً كان ذكرًا أم أنثى، فإن بلغ، فإنه لا يكون يتيمًا؛ لأنه، بلغ وانفصل، وكذلك لو ماتت أمه، فإنه لا يكون يتيمًا، خلافًا لما يظنه بعض العامة، أن اليتيم من ماتت أمه وهذا ليس بصحيح، فاليتيم من مات أبوه؛ لأنه إذا مات أبوه لم يكن له كاسب من الخلق يكسب له. وقوله تعالى: ﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ ذا قرابة من الإنسان؛ لأنه إذا كان يتيمًا كان له حظ من الإكرام والصدقات، وإذا كان قريبًا ازداد حظه من ذلك؛ لأنه يكون واجب الصلة، فمن جمع هذين الوصفين اليتم والقرابة، فإن الإنفاق عليه من اقتحام العقبة إذا كان ذلك في يوم ذي مسغبة. قوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾، يعني: أو إطعام في يوم ذي مسغبة ﴿مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾، المسكين: هو الذي لا يجد قوته، ولا قوت عياله. والمتربة: مكان التراب، والمعنى: أنه مسكين ليس بيديه شيء إلا التراب. ومعلوم أنه إذا قيل عن الرجل: ليس عنده إلا التراب، فالمعنى: أنه فقير جدًا ليس عنده طعام، وليس عنده كساء، وليس عنده مال فهو مسكين ذو متربة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾، ﴿ثُمَّ كَانَ﴾، يعني: ثم هو بعد ذلك ليس محسنًا على اليتامى والمساكين فقط، بل هو ذو إيمان، آمن بكل ما يجب الإيمان به. وقد بيّن الرسول ﷺ الذي يجب الإيمان به، فقال حين سأله جبريل عن الإيمان: «الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ

بالله، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١). وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، أي: أوصى بعضهم بعضًا بالصبر، والصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة، فهم صابرون متواصون بالصبر بهذه الأنواع: الصبر على طاعة الله، ثم الصبر عن معصية الله، ثم الصبر على أقدار الله المؤلمة. وقد اجتمعت هذه الأنواع الثلاثة في الرسل عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم، فها هو الرسول ﷺ صابر على طاعة الله، يجاهد في سبيل الله، ويدعو إلى الله، ويؤذى ويعتدى عليه بالضرب، حتى هم المشركون بقتله، وهو مع ذلك صابر محتسب، وهو أيضًا صابر عن معصية الله، لا يمكن أن يغدر بأحد، ولا أن يكذب أحدًا، ولا أن يخون أحدًا، وهو أيضًا متقٍ لله تعالى بقدر ما يستطيع، كذلك صابر على أقدار الله، كم أوذي في الله - عَزَّ وَجَلَّ - من أجل طاعته، أليست قريش قد آذوه حتى إذا رأوه ساجدًا تحت الكعبة أمروا من يأتي بسلا ناقة فيضعه على ظهره، وهو ساجد ﷺ؟!، وهو صابر في ذلك كله. ويوسف ﷺ صبر على أقدار الله فقد أُلقي في البئر في غيابة الجبِّ، وأوذي في الله بالسجن، ومع ذلك فهو صابر محتسب لم يتضجر ولم ينكر ما وقع به. وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾، أي: أوصى بعضهم بعضًا أن يرحم الآخر، ورحمة الإنسان للمخلوقات تكون في البهائم وتكون في الناطق. فهو يرحم آباءه، وأمهاته، وأبناءه، وبناته، وإخوانه، وأخواته، وأعمامه، وعماته، وهكذا. ويرحم كذلك سائر البشر، وهو أيضًا يرحم الحيوان البهيم فيرحم ناقته، وفرسه، وحماره، وبقرته، وشاته، وغير ذلك، وقد قال النبي ﷺ: «ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»(٢). قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي: هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ أي: أصحاب اليمين، الذين يُؤتون كتابهم يوم القيامة بأيمانهم، فمن أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا وينقلب إلى أهله مسرورًا.

ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: جحدوا بها ﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ ﴿هُمْ﴾: الضمير هنا جاء للتوكيد، ولو قيل في غير القرآن: والذين كفروا بآياتنا أصحاب المشئمة. لصح لكن هذا من باب التوكيد. وقوله تعالى: ﴿الْمَشْأَمَةِ﴾، يعني: الشمال أو الشؤم، ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾ أي: عليهم نار مغلقة، لا يخرجون منها، ولا يستطيعون، نسأل الله أن يجعلنا من الذين آمنوا، وعملوا الصالحات، وتواصوا بالصبر، وتواصوا بالمرحمة إنه سميع مجيب.



---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ١٦٠)، والترمذي (١٩٢٤)، وأبو داود (٤٩٤١)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٩٢٥).

تفسير سورة الشمس

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ١ - ١٠].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

قال الله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾، أقسم الله تعالى بالشمس وضحاها، وهو ضوؤها لما في ذلك من الآيات العظيمة الدالة على كمال قدرة الله - سبحانه وتعالى - وكمال علمه ورحمته فإن في هذه الشمس من الآيات ما لا يدركه بعض الناس، فإذا طلعت الشمس فكم توفر على العالم من طاقة كهربائية؟ توفر آلاف الملايين؛ لأنهم يستغنون بها عن هذه الطاقة، وكم يحصل للأرض من حرارتها، من نضج الثمار، وطيب الأشجار ما لا يعلمه إلا الله - عَزَّ وَجَلَّ - ويحصل فيها فوائد كثيرة لا أستطيع أن أعدها؛ لأن غالبها يتعلق في علم الفلك وعلم الأرض والجيولوجيا لكنها من آيات الله العظيمة.

قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾، قيل: إذا تلاها في السير.

وقيل: إذا تلاها في الإضاءة، ومادامت الآية تحتمل هذا وهذا، فإن القاعدة في علم التفسير: (أن الآية إذا احتملت معنيين لا تعارض بينهما وجب الأخذ بهما جميعًا)؛ لأن الأخذ بالمعنيين جميعًا أوسع للمعنى، فنقول: إذا تلاها في السير؛ لأن القمر يتأخر كل يوم عن الشمس، فبينما تجده في أول الشهر قريبًا منها في المغرب، فإذا هو في نصف الشهر أبعد ما يكون عنها في المشرق؛

لأنه يتأخر كل يوم، أو إذا تلاها في الإضاءة؛ لأنها إذا غابت بدأ ضوء القمر لاسيما في الربع الثاني إلى نهاية الربع الثالث، فإن ضوء القمر يكون بينًا واضحًا، يعني: إذا مضى سبعة أيام إلى أن يبقى سبعة أيام يكون الضوء قويًّا، وأما في السبعة الأولى والأخيرة فهو ضعيف، وعلى كل حال، فإن إضاءة القمر لا تكون إلا بعد ذهاب ضوء الشمس، كما هو ظاهر؛ فأقسم الله تعالى بالشمس؛ لأنها آية النهار، وبالقمر؛ لأنه آية الليل. وقوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ متقابلات، ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ فإذا جلى الأرض وبينها ووضحها؛ لأنه نهار تتبين به الأشياء وتتضح ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾، فإذا يغطي الأرض حتى يكون كالعباءة المفروشة على شيء من الأشياء، وهذا يتضح جليًا فيما إذا غابت الشمس وأنت في الطائرة تجد أن الأرض سوداء تحتك؛ لأنك أنت الآن تشاهد الشمس لارتفاعك، لكن الأرض التي تحتك حيث غربت عليها الشمس تجدها سوداء كأنها مغطاة بعباءة سوداء وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ...﴾، السماء والأرض متقابلات.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾، قال المفسرون: إن ﴿ما﴾ هنا مصدرية أي: والسماء وبناؤها؛ لأن السماء عظيمة بارتفاعها وسعتها وقوتها، وغير ذلك مما هو من آيات الله فيها، وكذلك بناؤها بناء محكم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣، ٤].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ يعني: الأرض وما سواها حتى كانت مستوية، وحتى كانت ليست لينة جدًا، وليست قوية صلبة جدًا، بل هي مناسبة للخلق على حسب ما تقوم به حوائجهم، وهذا من نعمة الله - سبحانه وتعالى - على عباده أن سوى لهم الأرض وجعلها بين اللين والخشونة إلا في مواضع لكن هذا القليل لا يحكم به على الكثير.

وقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ نفس هنا، وإن كانت واحدة لكن المراد العموم. يعني: كل نفس ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾، يعني: سواها خِلقة وسواها فطرة، سواها خلقة حيث خلق كل شيء على الوجه الذي يناسبه ويناسب حاله. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ أي: خلقه المناسب له ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] أي: هداه لمصالحه، وكذلك سواه فطرة، ولا سيما البشر، فإن الله جعل فطرتهم هي الإخلاص والتوحيد، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾، أي: الله - عَزَّ وَجَلَّ - ألهم هذه النفوس ﴿فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾، بدأ بالفجور قبل التقوى مع أن التقوى لا شك أفضل، قالوا: مراعاة لفواصل الآيات.

وقوله تعالى: ﴿فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾، الفجور هو ما يقابل التقوى، والتقوى طاعة الله، فالفجور معصية الله، فكل عاص فهو فاجر، وإن كان الفاجر خصَّ عرفًا بأنه من ليس بعفيف، لكن هو

شرعًا يعم كل من خرج عن طاعة الله، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧].والمراد الكفار، وإلهامها تقواها هو الموافق للفطرة؛ لأن الفجور خارج عن الفطرة، لكن قد يلهمه الله بعض النفوس لانحرافها لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. والله تعالى لا يظلم أحدًا، لكن من علم منه أنه لا يريد الحق أزاغ الله قلبه.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ أي: فاز بالمطلوب ونجا من المرهوب، ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾ أي: من زكى نفسه، وليس المراد بالتزكية هنا التزكية المنهي عنها في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]. بل المراد بالتزكية هنا: أن يزكي نفسه بإخلاصها من الشرك وشوائب المعاصي، حتى تبقى زكية طاهرة نقية.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، أي: من أرداها في المهالك والمعاصي، وهذا يحتاج إلى دعاء الله - سبحانه وتعالى - أن يثبت الإنسان على طاعته، وعلى القول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فعليك دائمًا أن تسأل الله الثبات والعلم النافع، والعمل الصالح، فإن الله تعالى قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].



قال الله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ١١-١٥].

التفسير

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾، ثمود اسم قبيلة ونبيهم صالح ﷺ وديارهم في الحجر معروفة في طريق الناس، هؤلاء كذبوا نبيهم صالحًا، ونبيهم صالح ﷺ كغيره من الأنبياء يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأعطاه الله سبحانه آية تدل على نبوته وهي الناقة العظيمة التي تشرب من البئر يومًا وتسقيهم لبنًا في اليوم الثاني. وقد قال بعض العلماء: إنه كلما جاء إنسان وأعطاها من الماء بقدر أعطته من اللبن بقدره، ولكن الذي يظهر من القرآن خلاف ذلك؛ لقوله

تعالى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥]، فالناقة تشرب من البئر يومًا، ثم تدرُّ اللبن في اليوم الثاني، ولكن لم تنفعهم هذه الآية: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾، أي: بطغيانها وعتوها، والباء هنا للسببية، أي: بسبب كونها طاغية كذبت الرسول.

وقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾، هذا بيان للطغيان الذي ذكره الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وذلك حين انبعث أشقاها.

قوله تعالى: ﴿ٱنۢبَعَثَ﴾، يعني: انطلق بسرعة.

قوله تعالى: ﴿أَشْقَىٰهَا﴾، أي: أشقى ثمود أي: أعلاهم في الشقاء ـ والعياذ بالله ـ يريد أن يقضي على هذه الناقة. فقال لهم صالح: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾، أي: ذروا ناقة الله، لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣]. يعني: اتركوا الناقة لا تقتلوها، ولا تتعرضوا لها بسوء، ولكن كانت النتيجة بالعكس، ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: كذبوا صالحًا وقالوا: إنك لست برسول، وهكذا كل الرسل الذين أرسلوا إلى أقوامهم يَصِمُهُمْ أقوامهم بالعيب، كما قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]. كل الرسل قيل لهم، هذا ساحر أو مجنون، كما قيل للرسول ﷺ: ساحر، وكذاب، ومجنون، وشاعر، وكاهن، لكن ألقاب السوء التي يلقبها الأعداء لأولياء الله لا تضرهم، بل يزدادون بذلك رفعة عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ وإذا احتسبوا الأجر أثيبوا على ذلك، فيقول عز وجل: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾، أي: عقروا الناقة عقرًا حصل به الهلاك.

قوله تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾، يعني: أطبق عليهم؛ فأهلكهم، كما تقول: دمدمت البئر أي: أطبقت عليها التراب، ﴿بِذَنۢبِهِمْ﴾ أي: بسبب ذنوبهم؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يظلم الناس شيئًا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون، فالذنوب سبب للهلاك والدمار والفساد؛ لقول الله تبارك وتعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]. وقال الله تعالى يخاطب أشرف الخلق وخير القرون: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. فالإنسان يُصاب بالمصائب من عند نفسه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾، أي: بسبب ذنبهم.

قوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي: عمها بالهلاك حتى لم يبق منهم أحد وأصبحوا في ديارهم جاثمين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ يعني: أن الله لا يخاف من عاقبة هؤلاء الذين عذبهم، ولا يخاف من تبعتهم؛ لأن له الملك وبيده كل شيء، بخلاف غيره من الملوك لو انتصروا على غيرهم،

أو عاقبوا غيرهم تجدهم في خوف يخشون أن تكون الكرة عليهم. أما الله - عَزَّ وَجَلَّ - فإنه لا يخاف عقباها، أي: لا يخاف عاقبة من عذبهم؛ لأنه - سبحانه وتعالى - له الملك كله، والحمد كله، فسبحانه وتعالى - ما أعظمه، وما أجل سلطانه.



تفسير سورة الليل

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ [الليل:١:١١].

❁ التفسير ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾، أقسم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالليل إذا يغشى يعني: حين يغشى الأرض ويغطيها بظلامه؛ لأن الغشاء بمعنى الغطاء، وقوله: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾، أي: إذا ظهر وبان، وذلك بطلوع الفجر الذي هو النور الذي هو مقدمة طلوع الشمس، والشمس هي آية النهار، كما أن القمر آية الليل، ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾، يعني: وخَلْق الذكر والأنثى على أحد التفسيرين الذي جعل (ما) هنا مصدرية، والذي خَلَق الذكر والأنثى هو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على التفسير الآخر، فعلى المعنى الأول: يكون الله ـ سبحانه وتعالى ـ أقسم بخلق الذكر والأنثى، وعلى الثاني: يكون الله تعالى أقسم بنفسه؛ لأنه هو الذي خلق الذكر والأنثى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ يعني: إن عملكم ﴿لَشَتَّىٰ﴾، أي: لمتفرق تفرقًا عظيمًا.

فالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أقسم بأشياء متضادة على أشياء متضادة: الليل ضد النهار، الذكر ضد الأنثى، السعي متضاد صالح وسيىء، فتناسب المقسم به والمقسم عليه، وهذا من، بلاغة القرآن. فالمعنى أن اختلاف الليل والنهار والذكر والأنثى أمر ظاهر لا يخفى، فكذلك أعمال العباد متباينة متفاوتة، منها الصالح، ومنها الفاسد، ومنها ما يخلط صالحًا وفاسدًا، كل ذلك بتقدير الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ثم فصَّل، هذا السعي المتفرق فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا

مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾، أي: أعطى ما أمر بإعطائه من مال، أو جاه، أو علم، ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ اتقى ما أمر باتقائه من المحرمات. قوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: صدق بالقولة الحسنى وهي قول الله -عَزَّ وَجَلَّ- وقول رسوله ﷺ؛ لأن أصدق الكلام، وأحسن الكلام كلام الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ السين: هنا للتحقيق أي: أن من أعطى واتقى، وصدق بالحسنى، فسييسره الله -عَزَّ وَجَلَّ- لليسرى في أموره كلها، في أمور دينه ودنياه، ولهذا تجد أيسر الناس عملًا هو من اتقى الله -عَزَّ وَجَلَّ- من أعطى واتقى وصدق بالحسنى. وكلما كان الإنسان أتقى لله كانت أموره أيسر له. قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]. وكلما كان الإنسان أبعد عن الله كان أشد عسرًا في أموره ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾، فلم يعط ما أمر بإعطائه ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ استغنى عن الله -عَزَّ وَجَلَّ- ولم يتق ربَّه، بل رأى أنه في غنىً عن رحمة الله. قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: بالقولة الحسنى، وهي قول الله تعالى ورسوله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-.

وقوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾، ييسر للعسرى في أموره كلها، ولكن قد يأتي الشيطان للإنسان فيقول: نجد أن الكفار تيسر أمورهم فيقال: نعم. قد تيسر أمورهم، لكن قلوبهم تشتعل نارًا وضيقًا وحرجًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. ثم ما ينعمون به فهو تنعيم جسد فقط، لا تنعيم روح، ثم هو أيضًا وبال عليهم؛ لقول الله تعالى فيهم: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣]. وقال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»(١). وتلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]. وهؤلاء عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، ومع ذلك، فإن هذه الدنيا جنة لهم بالنسبة للآخرة. وقد ذكروا عن ابن حجر العسقلاني شارح البخاري بالشرح الذي سماه «فَتْح البَارِي» وكان قاضي القضاة بمصر، أنه مر ذات يوم، وهو على عربته تجره البغال والناس حوله، مر برجل يهودي سمان يعني: يبيع السمن والزيت، ومن المعلوم أن الذي يبيع السمن والزيت تكون ثيابه وسخة وحاله سيئة؛ فأوقف العربة وقال لابن حجر: إن نبيكم يقول: «الدُّنْيَا سِجْنُ المُؤْمِنْ، وَجَنَّةُ الكَافِرِ»(٢)، فكيف أنا أكون بهذه الحال وأنت بهذه الحال؟ فقال له ابن حجر على البديهة: أنا في سجن بالنسبة لما أعد الله للمؤمنين من الثواب والنعيم؛ لأن الدنيا بالنسبة للآخرة ليست بشيء، كما قال النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «لَمَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٥٦)، والترمذي (٢٣٢٤)، وابن ماجه (٤١١٣).

الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[1]، وأما أنت أيها اليهودي فأنت في جنة بالنسبة لما أعد لك من العذاب إن مت على الكفر فاقتنع بذلك اليهودي وصار ذلك سببًا في إسلامه وقال: أشهد ألَّا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ يعني: أي شيء يغني عنه ماله إذا بخل به وتردى هو. أي: هلك أي شيء يغني المال؟ لا يغني شيئًا.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٢: ٢١].

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ فيه التزام من الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن يبين للخلق ما يهتدون به إليه. والمراد بالهدى هنا: هدى البيان والإرشاد، فإن الله تعالى التزم على نفسه بيان ذلك حتى لا يكون للناس على الله حجة وهذا في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]. إلى أن قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. فلا يمكن للعقل البشري أن يستقل بمعرفة الهدى؛ ولذلك التزم الله - عَزَّ وَجَلَّ - بأن يبين الهدى للإنسان ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾، وليُعلم أن الهُدى نوعان:

١ - هدى التوفيق، فهذا لا يقدر عليه إلا الله.

٢ - هدى إرشاد ودلالة، فهذا يكون من الله، ويكون من الخلق: من الرسل - عليهم الصلاة والسلام - ومن العلماء.

كما قال الله لنبيه - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]. أما هداية التوفيق فهي إلى الله لا أحد يستطيع أن يوفق شخصًا إلى الخير، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]. وإذا نظرنا إلى

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٥٠)، ومسلم (١٨٨١).

هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾، وجدنا أن الله تعالى بين كل شيء. بيَّن ما يلزم الناس في العقيدة، وما يلزمهم في العبادة، وما يلزمهم في الأخلاق، وما يلزمهم في المعاملات، وما يجب عليهم اجتنابه في، هذا كله. حتى قال أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ: لقد توفي رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا. وقال رجل من المشركين لسلمان الفارسي: علمكم نبيكم حتى الخراءة، قال: أجل علمنا حتى الخراءة، يعني: حتى آداب قضاء الحاجة علمها النبي ﷺ أمته، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾،[المائدة: ٣]. قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾، يعني: لنا الآخرة والأولى. الأولى متقدمة على الآخرة في الزمن، لكنه في هذه الآية أخرها لفائدتين: الفائدة الأولى: معنوية. الفائدة الثانية: لفظية.

أما المعنوية فلأن الآخرة أهم من الدنيا، ولأن الآخرة يظهر فيها ملك الله تعالى تمامًا في الدنيا هناك رؤساء، وهناك ملوك، وهناك أمراء يملكون ما أعطاهم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ من الملك، لكن في الآخرة لا ملك؛ لأحد ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]؛ فلهذا قدم ذكر الآخرة من أجل هذه الفائدة المعنوية.

أما الفائدة اللفظية: فهي مراعاة الفواصل يعني: أواخر الآيات كلها ألف.

فإن قيل: إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾، فما الفرق؟

الجواب: الفرق أن الهدى التزم الله تعالى ببيانه وإيضاحه للخلق، أما الملك فهو لله ملك الآخرة والأولى، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾، ثم قال عز وجل: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾، ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾، يعني: خوفتكم ﴿نَارًا﴾ يعني بها نار الآخرة، ﴿تَلَظَّىٰ﴾، تشتعل، ولها أوصاف كثيرة في القرآن والسنة. قوله تعالى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾، ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ﴾ يعني: لا يحترق بها ﴿إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾، يعني: الذي قدرت له الشقاوة. والشقاوة ضد السعادة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ﴾ [هود: ١٠٦]. وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [هود: ١٠٨]، فالمراد بالأشقى يعني: الذي لم تكتب له السعادة، هذا هو الذي يصلى النار التي تلظى، ثم بين هذا بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ التكذيب في مقابل الخبر، والتولي في مقابل الأمر والنهي، فهذا كذب الخبر ولم يصدق، قيل له: إنك ستبعث، قال: لا أبعث. قيل له: هناك جنة ونار، قال: ليس هناك جنة ونار. قيل له: سيكون كذا وكذا، قال: لا يكون، لأن هذا تكذيب.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾، يعني: أعرض عن طاعة الله، وأعرض عما جاءت به رسله، فهذا هو الشقي.

وقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ أي: يجنب هذه النار التي تلظى ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ والأتقى اسم تفضيل

من التقوى يعني: الذي اتقى الله ـ تعالى ـ حق تقاته.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ يعني: يعطي ماله من يستحقه على وجه يتزكى به، أي: يتطهر به، قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]. فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ يفيد أنه لا يبذر، ولا يبخل، وإنما يؤتي المال على وجه يكون به التزكية، وضابط ذلك ما ذكره الله في سورة الفرقان ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، نجد بعض الناس يعطيه الله مالًا، ولكنه يبخل يقتر حتى الواجب عليه لزوجته وأولاده وأقاربه لا يقوم به. ونرى بعض الناس قدر الله عليه الرزق وضيق عليه بعض الشيء، ومع هذا يذهب يتدين من الناس من أجل أن يكمل بيته حتى يكون مثل: بيت فلان وفلان، أو من أجل أن يشتري سيارة فخمة كسيارة فلان وفلان، وكلا المنهجين والطريقين منهج باطل. الأول: قصَّر. والثاني: أفرط. والواجب على الإنسان أن يكون إنفاقه بحسب حاله.

فإن قال قائل: هل يجوز أن يتدين الإنسان ليتصدق؟

فالجواب: لا؛ لأن الصدقة تطوع، والتزام الدّين خطر عظيم؛ لأن الدين ليس بالأمر الهين، فالإنسان إذا مات وعليه دين، فإن نفسه معلقة بدينه حتى يقضى عنه، وكثير من الورثة لا يهتم بدين الميت، تجده يتأخر يماطل وربما لا يوفيه. وقد كان النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ إذا قدمت إليه جنازة سأل هل عليه دين له وفاء؟ فإن قالوا لا، قال: «صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ»(١). وأخبر ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ أن الشهادة في سبيل الله تكفر كل شيء إلا الدين، فالدين أمره عظيم، لا يجوز للإنسان أن يتهاون به، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ يعني: أنه لا يعطي المال مكافأة على نعمة سابقة من شخص فليس لأحد عليه فضل حتى يعطيه مكافأة، ولكنه يعطي ابتغاء وجه الله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ فهو لا ينفق إلا طلب وجه الله أي: طلب الوصول إلى دار كرامة الله التي يكون بها رؤية الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ يعني: سوف يرضيه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بما يعطيه من الثواب الكثير وقد بين الله ذلك في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]. نسأل الله أن يجعلنا من هؤلاء البررة الأطهار الكرام، إنه على كل شيء قدير.



(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٢٩١)، والنسائي (١٩٦١).

تفسير سورة الضحى

قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

قال الله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١:١١].

التفسير

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾، ﴿الضحى﴾، هو أول النهار، وفيه النور والضياء ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾، أي: الليل إذا غطى الأرض وسدل عليها ظلامه؛ فأقسم الله ـ تعالى ـ بشيئين متباينين أولهما: الضحى إذا انتشر وملأ الأرض وفيه الضياء والنور، والثاني: الليل إذا يغشى وفيه الظلمة.

قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾، أي: ما تركك وأهملك وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾، أي: وما أبغض، بل أحب الخلق إليه فيما نعلم محمد ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، ولهذا اختاره الله؛ لأعظم الرسالات، وأفضل الأمم، وجعله خاتم النبيين، فلا نبي بعده ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وكان رسول الله ﷺ أحد الخليلين اللذين، اختصا بهذه الصفة العظيمة وهي الخلة، الخلة أعلى أنوا المحبة، وليس من عباد الله فيما تعلم من هو خليل الله إلا إبراهيم ومحمد ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كما قال النبي ﷺ «إِنَّ اللهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا» يقول ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لنبيه ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]. فعين الله تعالى تكلؤه وترعاه وتحميه وتحفظه، وهو الذي قال له ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨،٢١٩]. فما تركه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بل أحاطه بعلمه، ورحمته، وعنايته وغير ذلك

مما يقتضي رفعته في الدنيا والآخرة، كما قال في السورة التي تليها: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾، هذه الجملة مؤكدة باللام - لام الابتداء - و﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾ هي اليوم الذي يبعث فيه الناس، ويأوون إلى مثواهم الأخير إلى الجنة أو إلى النار، فيقول الله لنبيه - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾، أي: من الدنيا، وذلك؛ لأن الآخرة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وموضع سوط أحدنا في الجنة خير من الدنيا وما فيها، كما جاء ذلك عن رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -. ولهذا لما خير الله نبيه - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - في مرضه بين أن يعيش في الدنيا ما يعيش وبين ما عند الله، اختار ما عند الله، كما أعلن ذلك - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - في خطبته حيث قال وهو على المنبر: «إِنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ الله خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يَعِيشَ فِي الدُّنْيَا مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَعِيشَ وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ»(١)، فبكى أبو بكر - رضي الله عنه - وتعجب الناس من بكائه كيف يبكي من هذا، ولكنه - رضي الله عنه - كان أعلم الناس برسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -؛ علم أن المخير هو الرسول - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، وأنه اختار ما عند الله وهو الآخرة، وأن هذا إيذان بقرب أجله.

قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾، ﴿وَلَسَوْفَ﴾، اللام هذه أيضًا للتوكيد وهي موطئة للقسم، و﴿سوف﴾، تدل على تحقق الشيء لكن بعد مهلة وزمن، وقوله تعالى: ﴿يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾، أي: يعطيك ما يرضيك فترضى، ولقد أعطاه الله ما يرضيه ﷺ، فإن الله - تعالى - يبعثه يوم القيامة مقامًا محمودًا، يحمده فيه الأولون والآخرون، حتى الأنبياء وأولو العزم من الرسل لا يستطيعون الوصول إلى ما وصل إليه. فإذا كان يوم القيامة، وعظم الكرب والغم على الخلق، وضاقت عليهم الأمور طلب بعضهم من بعض أن يلتمسوا من يشفع لهم إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - فيأتون إلى آدم، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، هؤلاء خمسة أولهم أبو البشر، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وهؤلاء الأربعة - عليهم الصلاة والسلام - من أولي العزم، كلهم يعتذرون عن الشفاعة للخلق حتى تصل إلى النبي ﷺ فيقوم ويشفع، ولا شك أن هذا عطاء عظيم لم ينله أحد من الخلق، ثم بين الله - سبحانه وتعالى - نعمه عليه السابقة حتى يستدل بها على النعم اللاحقة.

فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾، والاستفهام هنا للتقرير، يعني: قد وجدك الله - تعالى - يتيمًا فأواك، يتيمًا من الأب، ويتيمًا من الأم، فإن أباه توفي قبل أن يولد، وأمه توفيت قبل أن تتم إرضاعه، ولكن الله تعالى تكفل به ويسر له من يقوم بتربيته والدفاع عنه، حتى وصل إلى الغاية التي أرادها الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢).

وقوله تعالى: ﴿يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾، وجاء التعبير - والله أعلم - بـ﴿فَآوَىٰ﴾، لسبب لفظي، وسبب معنوي. أما السبب اللفظي: فلأجل أن تتوافق رؤوس الآيات من أول السورة، وأما السبب المعنوي:، فإنه لو كان التعبير (فآواك) اختص الآيواء به - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - والأمر أوسع من ذلك، فإن الله تعالى آواه، وآوى به، آوى به المؤمنين فنصرهم وأيدهم، ودفع عنهم، بل دافع عنهم - سبحانه وتعالى -.

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾، ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾، أي: غير عالم؛ لأن النبي ﷺ لم يكن يعلم شيئًا قبل أن ينزل عليه الوحي، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]. وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]. فهو ﷺ لم يكن يعلم شيئًا، بل هو من الأميين ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]. لا يقرأ، ولا يكتب، لكن وصل إلى هذه الغاية العظيمة بالوحي الذي أنزله الله عليه، فعلم وعلَّم وهنا قال تعالى: ﴿فَهَدَىٰ﴾ ولم يأت التعبير - والله أعلم - فهداك ليكون هذا أشمل وأوسع فهو قد هدى ﷺ وهدى الله به، فهو هاد مهدي ﷺ. إذن (فهدى) أي: فهداك وهدى بك.

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ أي: وجدك فقيرًا لا تملك شيئًا ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ أي: أغناك وأغنى بك قال الله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح: ٢٠]، وما أكثر ما غنم المسلمون من الكفار تحت ظلال السيوف، غنائم عظيمة كثيرة كلها بسبب، هذا الرسول الكريم ﷺ حين اهتدوا بهديه، واتبعوا سنته فنصرهم الله تعالى به وغنموا من مشارق الأرض ومغاربها، ولو أن الأمة الإسلامية عادت إلى ما كان عليه السلف الصالح لعاد النصر إليهم، والغنى، والعزة، والقوة، ولكن مع الأسف أن الأمة الإسلامية في الوقت الحاضر كل منها ينظر إلى حظوظ نفسه بقطع النظر عما يكون به نصرة الإسلام أو خذلان الإسلام، ولا يخفى على من تأمل الوقائع التي حدثت أخيرًا أنها في الحقيقة إذلال للمسلمين، وأنها سبب لشر عظيم كبير يترقب من وراء ما حدث، ولاسيما من اليهود والنصارى الذين هم أولياء بعضهم لبعض، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١]. وهم - أعني اليهود والنصارى - متفقون على عداوة المسلمين، كل لا يريد الإسلام، ولا يريد أهل الإسلام، ولا يريد عز الإسلام، ولكن سينصر الله - تعالى - دينه مهما كانت الأحوال، فالله تعالى ناصر دينه وكتابه، وإن حصل للمسلمين ما يحصل، فإن الله يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].فربما يأتي اليوم الذي يجاهد فيه المسلمون اليهود حتى يختبىء اليهودي تحت الشجر فينادي الشجر يا مسلم، يا عبدالله، هذا يهودي تحتي، فيأتي المسلم ويقتله، وما ذلك على الله بعزيز، ولكن المسلمين يحتاجون إلى قيادة حكيمة عليمة بأحكام الشريعة قبل كل شيء؛ لأن القيادة بغير الاستفادة بنور الشريعة عاقبتها الوبال، مهما علت ولو علت إلى أعلى قمة، فإنها

سوف تنزل إلى أسفل قعر.

والهداية تكون بالإسلام، بنور الإسلام، لا بالقومية، ولا بالعصبية، ولا بالوطنية، ولا بغير ذلك، بالإسلام فقط. فالإسلام وحده هو الكفيل بعزة الأمة، لكن تحتاج إلى قيادة حكيمة تضع الأشياء مواضعها، وتتأنى في الأمور، ولا تستعجل، لا يمكن أن يصلح الناس بين عشية وضحاها، ومن أراد ذلك، فإنه قد أراد أن يغير الله سنته، والله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يغير سنته، فهذا نبي الله ﷺ بقي في مكة ثلاث عشرة سنة ينزل عليه الوحي، ويدعو إلى الله بالتي هي أحسن، ومع ذلك في النهاية خرج من مكة خائفًا مختفيًا لم تتم الدعوة في مكة، فلماذا نريد أن نغير الأمة التي مضى عليها قرون وهي في غفلة وفي نوم بين عشية وضحاها، هذا سفه في العقل، وضلال في الدين. الأمة تحتاج إلى علاج رفيق هادىء يدعو بالتي هي أحسن، الأمة الإسلامية تحتاج بعد الفقه في دين الله والحكمة في الدعوة إلى الله، تحتاج إلى العلم بالواقع والفطنة والخبرة، ونظر في الأمور التي تحتاج إلى نظر بعيد؛ لأن النتائج قد لا تتبين في شهر، أو شهرين، أو سنة، أو سنتين، لكن العاقل يصبر وينظر ويتأمل حتى يعرف، والأمور تحتاج أيضًا إلى عزم وتصميم وصبر؛ لأنه لابد من عزم يندفع به الإنسان، ولابد من صبر يثبت به الإنسان وإلا لفاتت الأمور أو فات كثير منها والله المستعان.

قال الله ـ عز وجل ـ : ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾، هذا في مقابلة ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾، فإذا كان الله آواك في يتمك فلا تقهر اليتيم، بل أكرم اليتيم، والإحسان إلى اليتامى وإكرامهم من أوامر الشريعة ومن حسنات الشريعة؛ لأن اليتيم الذي مات أبوه قبل أن يبلغ منكسر الخاطر، يحتاج إلى جبر، يحتاج إلى من يسليه، وإلى من يدخل عليه السرور لاسيما إذا كان قد، بلغ سنًّا يعرف به الأمور كالسابعة والعاشرة وما أشبه ذلك ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ هذا في مقابل ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾، أول ما يدخل في السائل، السائل عن الشريعة عن العلم لا تنهره؛ لأنه إذا سألك يريد أن تبين له الشريعة وجب عليك أن تبينها له لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. لا تنهره إن نهرته نفرته، ثم إنك إذا نهرته وهو يعتقد أنك فوقه؛ لأنه لم يأتِ يسأل إلا أنه يعتقد أنك فوقه، فإذا نهرته، وهو يشعر أنك فوقه أصابه الرعب واختلفت حواسه، وربما لا يفقه ما يلقي إليك من السؤال، أو لا يفقه ما تلقيه إليه من الجواب، وقِسْ نفسك أنت لو كلمت رجلًا أكبر منك منزلة ثم نهرك ضاعت حواسك، ولم تستطع أن ترتب فكرك وعقلك؛ لهذا لا تنهر السائل، وربما يدخل في ذلك أيضًا سائل المال، يعني: إذا جاءك سائل يسألك مالًا فلا تنهره، لكن، هذا العموم يدخله التخصيص: إذا عرفت أن السائل في العلم إنما يريد التعنت، وأخذ رأيك وأخذ رأي فلان وفلان حتى يضرب آراء العلماء بعضها ببعض، فإذا علمت ذلك فهنا لك

الحق أن تنهره، وأن تقول: يا فلان اتق الله ألم تسأل فلانًا كيف تسألني بعدما سألته؟! أتلعب بدين الله؟! أتريد إن أفتاك الناس بما تحب سكتّ، وإن أفتوك بما لا تحب ذهبت تسأل؟! هذا لا بأس؛ لأن هذا النهر تأديب له. وكذلك سائل المال إذا علمت أن الذي سألك المال غني فلك الحق أن تنهره ولك الحق أيضًا أن توبخه على سؤاله، وهو غني، إذن هذا العموم ﴿ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾، مخصوص فيما إذا اقتضت المصلحة أن ينهر فلا بأس ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، نعمة الله - تعالى - على الرسول ﷺ التي ذكرت في هذه الآيات ثلاث ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ وبهذه الثلاث تتم النعم. حدِّث بنعمة الله قل: كنت يتيمًا فآواني الله، كنت ضالًّا فهداني الله، كنت عائلًا؛ فأغناني الله، لكن تحدَّث بها إظهارًا للنعمة وشكرًا للمنعم، لا افتخارًا بها على الخلق؛ لأنك إذا فعلت ذلك افتخارًا على الخلق كان هذا مذمومًا، أما إذا قلت أو إذا ذكرت نعمة الله عليك تحدثًا بالنعم، وشكرًا للمنعم فهذا مما أمر الله به.

هذه كلمات يسيرة على هذه السورة العظيمة، وما نقوله نحن أو غيرنا من أهل العلم، فإنه لا يستوعب ما دل عليه القرآن من المعاني العظيمة، نسأل الله أن يرزقنا الفهم في دين الله، والعمل بما علمنا إنه على كل شيء قدير.



تفسير سورة الشرح

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الشرح:١:٨].

❁ التفسير ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ مبينًا نعمته على نبيه محمد ﷺ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ هذا الاستفهام يقول العلماء: إنه استفهام تقرير، واستفهام التقرير يرد في القرآن كثيرًا، ويقدَّر الفعل بفعل ماضٍ مقرون بقد. ففي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾ يقدَّر بأن المعنى قد شرحنا لك صدرك؛ لأن الله يقرر أنه شرح له صدره، وهكذا جميع ما يمر بك من استفهام التقرير، فإنه يقدر بفعل ماضٍ مقرون بقد، أما كونه يقدر بفعل ماضٍ؛ فلأنه قد تم وحصل، وأما كونه مقرونًا بقد؛ فلأن قد تفيد التحقيق إذا دخلت على الماضي، وتفيد التقليل إذا دخلت على المضارع، وقد تفيد التحقيق، ففي قول الناس: (قد يجود البخيل) قد هذه للتقليل، لكن في قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ [النور: ٦٤] هذه للتحقيق ولا شك، يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ أي: نوسعه، وهذا الشرح شرح معنوي ليس شرحًا حسيًّا، وشرح الصدر أن يكون متسعًا لحكم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بنوعيه، حكم الله الشرعي، وهو الدين، وحكم الله القدري، وهو المصائب التي تحدث على الإنسان؛ وذلك؛ لأن الشرع فيه مخالفة للهوى فيجد الإنسان ثقلًا في تنفيذ أوامر الله، وثقلًا في اجتناب محارم الله؛ لأنه مخالف لهوى النفس، والنفس الأمارة بالسوء لا تنشرح لأوامر الله، ولا لنواهيه، تجد بعض الناس تثقل عليه الصلاة، كما قال الله تعالى في المنافقين:

﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ﴾ [النساء: ١٤٢]. ومن الناس من تخف عليه الصلاة، بل يشتاق إليها ويترقب حصولها، كما قال النبي ﷺ: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»(١)، إذنْ فالشرع فيه ثقل على النفوس، كاجتناب المحرمات، فبعض الناس يهوى أشياء محرمة عليه كالزنا وشرب الخمر وما أشبه ذلك فتثقل عليه، ومن الناس من ينشرح صدره لذلك ويبتعد عما حرم الله، وانظر إلى يوسف ﷺ لما دعته امرأة العزيز بعد أن غلقت الأبواب وقالت: هيت لك وتهيأت له بأحسن ملبس وأحسن صورة، والمكان آمن أن يدخل أحد، غلقت الأبواب، وقالت: هيت لك، قال: معاذ الله، استعاذ بربه؛ لأن هذه حال حرجة، شاب وامرأة العزيز، ومكان خالٍ وآمن، والإنسان بشر ربما تسوّل له نفسه أن يفعل ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف]. وفي الصحيح عن النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ أنه قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»(٢)، والشاهد من هذا قوله: «وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ» فشرح الصدر للحكم الشرعي معناه قبول الحكم الشرعي والرضا به وامتثاله، وأن يقول القائل سمعنا وأطعنا، وأنت بنفسك أحيانًا تجد قلبك منشرحًا للعبادة تفعلها بسهولة وانقياد وطمأنينة ورضا، وأحيانًا بالعكس لولا خوفك من الإثم ما فعلت، فإذا كان هذا الاختلاف في الشخص الواحد فما بالك بالأشخاص؟!

وأما انشراح الصدر للحكم القدري، فالإنسان الذي شرح الله صدره للحكم الكوني تجده راضيًا بقضاء الله وقدره، مطمئنًا إليه، يقول: أنا عبد، والله رب يفعل ما يشاء، هذا الرجل الذي على هذه الحال سيكون دائمًا في سرور لا يغتم، ولا يهتم، هو يتألم لكنه لا يصل إلى أن يحمل همًّا أو غمًّا؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»(٣)، إذن شرح الصدر يعني: توسعته وتهيئته لأحكام الله الشرعية والقدرية، لا يضيق بأحكام الله ذرعًا إطلاقًا، ونبينا محمد ﷺ له الحظ الأوفر من ذلك، ولهذا تجده أتقى الناس لله، وأشدهم قيامًا بطاعة الله، وأكثرهم صبرًا على أقدار الله، ماذا فعل الناس به حين قام بالدعوة؟ وماذا يصيبه

---

(١) حسن: أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ١٢٨)، والنسائي في «الكبرى» (٥/ ٢٨٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «المشكاة» (٥٢٦١).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٩٩)، و أحمد في «مسنده» (٤/ ٣٣٣).

من الأمراض حتى إنه يوعك، كما يوعك الرجلان منا؟! يعني: من المرض يشدد عليه يعني: كرجلين منا، فعن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: دخلت على رسول الله ﷺ، وهو يوعك، فقلت: يا رسول الله إنك توعك وعكًا شديدًا، قال: «أَجَلْ إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ»[1]، وحتى أنه شدد عليه عند النزع عند الموت ﷺ حتى يفارق الدنيا، وهو أصبر الصابرين، والصبر درجة عالية لا تنال إلا بوجود شيء يصبر عليه، أما الشيء اليسير البارد فلا صبر عليه، لهذا نجد الأنبياء أكثر الناس، بلاء ثم الصالحين الأمثل فالأمثل.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ قد يقول قائل: إن بين الجملتين تنافر، الجملة الأولى فعل مضارع ﴿نَشْرَحْ﴾، والثانية فعل ماض ﴿وَوَضَعْنَا﴾، لكن بناء على التقرير الذي قلت، وهو أن ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾، بمعنى قد شرحنا فيكون عطف (ووضعنا) على نظيره ومثيله ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾، وضعناه أي: طرحناه وعفونا وسامحنا وتجاوزنا عنك ﴿وِزْرَكَ﴾، أي: إثمك ﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾، يعني: أقضه وآلمه؛ لأن الظهر هو محل الحمل، فإذا كان هناك حمل يتعب الظهر فإتعاب غيره من باب أولى؛ لأن أقوى عضو في أعضائك للحمل هو الظهر، وانظر للفرق بين أن تحمل كيسًا على ظهرك أو تحمله بين يديك بينهما فرق، فالمعنى أن الله تعالى غفر للنبي ﷺ وزره وخطيئته حتى بقي مغفورًا له، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١، ٢]. وقيل للنبي ﷺ، وهو يقوم الليل ويطيل القيام حتى تتورم قدماه أو تتفطر قيل له: أتصنع، هذا، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟»[2]، إذن مغفرة الذنوب المتقدمة والمتأخرة ثابتة بالقرآن والسنة، وهذا من خصائص الرسول ﷺ لا أحد من الناس يغفر له ما تقدم وما تأخر إلا الرسول ﷺ، أما غيره فيحتاج إلى توبة من الذنب، وقد يغفر الله له ـ سبحانه وتعالى ـ بدون توبة ما دون الشرك، لكن الرسول ﷺ نجزم بأنه قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ولهذا قال تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾، فإن قال قائل: هذه الآية وما سقناه شاهدًا لها يدل على أن الرسول ﷺ قد يذنب فهل النبي ﷺ يذنب؟ فالجواب: نعم، ولا يمكن أن نرد النصوص لمجرد أن نستبعد وقوع الذنب منه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ، ونحن لا نقول الشأن ألا يذنب الإنسان، بل الشأن أن يغفر للإنسان، هذا هو المهم أن يغفر له، أما ألَّا يقع منه الذنب فقد قال النبي ﷺ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»[3]، لابد من خطيئة لكن هناك

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦٤٨)، ومسلم (٢٥٧١).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩). بلى أنت عبد وأنت شكور يا رسول الله.

(٣) حسن: أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ١٩٨)، والترمذي (٣٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٤٥١٥).

أشياء لا يمكن أن تقع من الأنبياء مثل الكذب والخيانة، فإن، هذا لا يمكن أن يقع منهم إطلاقًا؛ لأن هذا لو فرض وقوعه لكان طعنًا في رسالتهم وهذا شيء مستحيل، وسفاسف الأخلاق من الزنا وشبهه، هذا أيضًا ممتنع؛ لأنه ينافي أصل الرسالة، فالرسالة إنما وجدت لتتميم مكارم الأخلاق، كما قال ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ»(١).

فالحاصل: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وضع عن محمد ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ وزره، وبين أن هذا الوزر قد أنقض ظهره أي: أقضه وأتعبه، وإذا كان هذا وزر الرسول ﷺ فكيف بأوزار غيره، أوزارنا تقض ظهورنا وتنقضها وتتعبها، ولكن كأننا لم نحمل شيئًا، وذلك لضعف إيماننا وبصيرتنا وكثرة غفلتنا، نسأل الله أن يعاملنا بالعفو، في بعض الآثار أن المؤمن إذا أذنب ذنبًا صار عنده كالجبل فوق رأسه، وإن المنافق إذا أذنب ذنبًا صار عنده كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا، يعني: أنه لا يهتم، فالمؤمن تهمه خطاياه وتلحقه الهموم حتى يتخلص منها بتوبة واستغفار، أو حسنات جليلة تمحو آثار هذه السيئة، وأنت إذا رأيت من قلبك الغفلة عن ذنوبك، فاعلم أن قلبك مريض؛ لأن القلب الحي لا يمكن أن يرضى بالمرض، ومرض القلوب هي الذنوب، كما قال عبدالله بن المبارك رحمه الله:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ القُلُوبَ ... وَقَدْ يُوْرِثُ الذُّلَّ إِدْمَانُهَا
وَتَرْكُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ القُلُوبِ ... وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا

فيجب علينا أن نهتم بأنفسنا وأن نحاسبها، وإذا كان التجار لا ينامون حتى يراجعوا دفاتر تجارتهم، ماذا صرفوا، وماذا أنفقوا، وماذا كسبوا، فإن تجار الآخرة ينبغي أن يكونوا أشد اهتمامًا؛ لأن تجارتهم أعظم، فتجارة أهل الدنيا غاية ما تفيدهم إن أفادتهم هو إتراف البدن فقط، على أن هذه التجارة يلحقها من الهم والغم ما هو معلوم، وإذا خسر في سلعة اهتم لذلك، وإذا كان في، بلده مخاوف: قطاع طريق، أو سراق صار أشد قلقًا، لكن تجارة الآخرة على العكس من، هذا قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [الصف: ١٠ ـ ١٢]، تنجي من العذاب، ويغفر الله بها الذنوب، ويدخل بها الجنات، جنات عدن أي: جنات إقامة، ومساكن طيبة في جنات عدن، مساكن طيبة في بنايتها وفي مادة البناء، كما قال النبي ﷺ: «جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا»(٢)، والله لو يبقى الإنسان في سجدة منذ بلغ إلى أن يموت لكان هذا ثمنًا قليلًا بالنسبة إلى هذه الغنيمة العظيمة،

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٣)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣١٨)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٦١٣)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٤٥).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٧٨) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٨٠).

ولو لم يكن إلا أن ينجو الإنسان من النار لكفى، أحيانًا الإنسان يفكر يقول: ليتني لم أولد أو يكفيني أن أنجو من النار، وها هو عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول: ليتني شجرة تعضد، ليت أمي لم تلدني؛ لأن الإنسان يظن أنه آمن؛ لأنه يصلي، ويصوم، ويتصدق، ويحج ويبر الوالدين وما أشبه ذلك، لكن قد يكون في قلبه حسيكة تؤدي إلى سوء الخاتمة، - والعياذ بالله - كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ»[١] يعني: مدة قريبة لموته ما هو إلا ذراع في العمل؛ لأن عمله كله هباء، هو يعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار، كما جاء في الحديث الصحيح، لكن قوله: «حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ» ليس معناه أن عمله أوصله إلى قريب من الجنة، وإنما المعنى حتى لا يبقى عليه إلا مدة قليلة في الحياة «ثُمَّ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلَهَا»[٢] لكن هذا فيما إذا كان عمل الإنسان للناس، كما قال ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ - فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ - وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»[٣]، والإنسان إذا مر على مثل هذه النصوص يخاف على نفسه، يخاف من الرياء، يخاف من العُجْبِ، يخاف من الإذلال. قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ رفع ذكر الرسول ﷺ لا أحد يشك فيه، أولًا: لأنه يُرفع ذكره عند كل صلاة في أعلى مكان وذلك في الأذان: أشهد ألَّا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله.

ثانيًا: يرفع ذكره في كل صلاة فرضًا في التشهد، فإن التشهد مفروض، وفيه أشهد ألَّا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

ثالثًا: يرفع ذكره عند كل عبادة، كل عبادة مرفوع فيها ذكر الرسول ﷺ وذلك؛ لأن كل عبادة لابد فيها من شرطين أساسيين هما: الإخلاص لله تعالى، والمتابعة للرسول ﷺ ومن المعلوم أن المتابع للرسول - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - سوف يستحضر عند العبادة أنه متبع فيها رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - فهذا من رفع ذكره.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ هذا بشارة من الله - عَزَّ وَجَلَّ - للرسول - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - ولسائر الأمة، وجرى على الرسول ﷺ عسر حينما كان بمكة يضيق عليه، وفي الطائف، وكذلك أيضًا في المدينة من المنافقين فالله يقول: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، يعني:، كما شرحنا لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك، ورفعنا لك ذكرك، وهذه نعم عظيمة كذلك، هذا العسر الذي يصيبك لابد أن يكون له يسر ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، قال ابن عباس عند هذه الآية: «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ»، وتوجيه كلامه - رضي الله عنه - مع أن العسر

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).
(٣) انظر ما قبله.

ذكر مرتين واليسر ذكر مرتين. قال أهل البلاغة: توجيه كلامه أن العسر لم يذكر إلا مرة واحدة قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، العسر الأول أعيد في الثانية بـ (أل)، فـ (أل) هنا للعهد الذكري، وأما يسر، فإنه لم يأت معرفًا، بل جاء منكرًا، والقاعدة: أنه إذا كرر الاسم مرتين بصيغة التعريف فالثاني هو الأول إلا ما ندر، وإذا كرر الاسم مرتين بصيغة التنكير فالثاني غير الأول؛ لأن الثاني نكرة، فهو غير الأول، إذنْ في الآيتين الكريمتين يُسران وفيهما عسر واحد؛ لأن العسر كرر مرتين بصيغة التعريف قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، هذا الكلام خبر من الله - عَزَّ وَجَلَّ - وخبره جل وعلا أكمل الأخبار صدقًا، ووعده لا يخلف، فكلما تعسر عليك الأمر فانتظر التيسير، أما في الأمور الشرعية فظاهر، ففي الصلاة: صل قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب، فهذا تيسير، فإذا شق عليك القيام اجلس، إن شق عليك الجلوس صل وأنت على جنبك، وفي الصيام إن قدرت وأنت في الحضر فصم، وإن لم تقدر فأفطر، فإذا كنت مسافرًا فأفطر في الحج إن استطعت إليه سبيلًا فحج، وإن لم تستطع فلا حج عليك، بل إذا شرعت في الحج وأحصرت ولم تتمكن معه من إكمال الحج فتحلل، وافسخ الحج واهدِ لقول الله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

إذنْ كل عسر يحدث للإنسان في العبادة يجد التسهيل واليسر كذلك في القضاء والقدر، يعني: تقدير الله على الإنسان من مصائب، وضيق عيش، وضيق صدر وغيره لا ييأس، فإن مع العسر يسرًا، والتيسير قد يكون أمرًا ظاهرًا حسيًّا، مثل: أن يكون الإنسان فقيرًا فتضيق عليه الأمور فييسر الله له الغنى، مثال آخر: إنسان مريض يتعب يشق عليه المرض فيشفيه الله - عَزَّ وَجَلَّ - هذا أيضًا تيسير حسي، هناك تيسير معنوي، وهو معونة الله الإنسان على الصبر، هذا تيسير، فإذا أعانك الله على الصبر تيسر لك العسير، وصار هذا الأمر العسير الذي لو نزل على الجبال لدكها، صار بما أعانك الله عليه من الصبر أمرًا يسيرًا، وليس اليسر معناه أن ينفرج الشيء تمامًا فقط، اليسر أن ينفرج الكرب ويزول وهذا يسر حسي، وأن يعين الله الإنسان على الصبر حتى يكون هذا الأمر الشديد العسير أمرًا سهلًا عليه، نقول هذا؛ لأننا واثقون بوعد الله.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾، أي: إذا فرغت من أعمالك فانصب لعمل آخر، يعني: اتعب لعمل آخر، لا تجعل الدنيا تضيع عليك، ولهذا كانت حياة الإنسان العاقل حياة جد، كلما فرغ من عمل شرع في عمل آخر، وهكذا؛ لأن الزمن يفوت على الإنسان في حال يقظته ومنامه، وشغله وفراغه، يسير، ولا يمكن لأحد أن يمسك الزمن، لو اجتمع الخلق كلهم؛ ليوقفوا الشمس حتى يطول النهار ما تمكنوا، فالزمن لا يمكن؛ لأحد أن يمسكه، إذن اجعل حياتك حياة جد، فإذا فرغت من عمل فانصب في عمل آخر، فإذا فرغت من عمل الدنيا عليك بعمل الآخرة، فرغت من عمل الآخرة اشتغلت بأمر الدنيا فإذا قضيت الصلاة يوم الجمعة

فانتشر في الأرض وابتغ من فضل الله، وصلاة الجمعة يكتنفها عملان دنيويان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾، يعني: وأنتم مشتغلون في دنياكم ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾،[الجمعة: ٩، ١٠]. فإذا فرغنا من شغل اشتغلنا في آخر، وإذا فرغنا منه اشتغلنا في آخر وهكذا ينبغي أن يكون الإنسان دائمًا في جد.

فإذا قال قائل: لو أنني استعملت الجد في كل حياتي لتعبت ومللت.

قلنا: إن استراحتك لتنشيط نفسك وإعادة النشاط يعتبر شغلًا وعملًا، يعني: لا يلزم الشغل بالحركات ففراغك من أجل أن تنشط للعمل الآخر يعتبر عملًا، المهم أن تجعل حياتك كلها جدًّا وعملًا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ يعني: إذا عملت الأعمال التي فرغت منها ونصبت في الأخرى، فارغب إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ- في حصول الثواب، وفي حصول الأجر، وفي الإعانة كن مع الله -عَزَّ وَجَلَّ- قبل العمل وبعد العمل، قبل العمل كن مع الله تستعينه -عَزَّ وَجَلَّ- وبعده ترجو منه الثواب. وفي قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ فائدة بلاغية ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾، متعلقة من حيث الإعراب بـ (ارغب) وهي مقدمة عليها، وتقديم المعمول يفيد الحصر، يعني: إلى الله لا إلى غيره فارغب في جميع أمورك، وثق بأنك متى علقت رغبتك بالله -عَزَّ وَجَلَّ-، فإنه سوف ييسر لك الأمور، وكثير من الناس تنقصهم هذه الحال أي: ينقصهم أن يكونوا دائمًا راغبين إلى الله، فتجدهم يختل كثير من أعمالهم؛ لأنهم لم يكن بينهم وبين الله تعالى صلة في أعمالهم. نسأل الله -سبحانه وتعالى- أن يجعلنا ممتثلين؛ لأوامره، مصدقين بأخباره، إنه على كل شيء قدير.



تفسير سورة التين

قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ١:٨].

التفسير

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ إقسام الله - تعالى - بهذه الأشياء الأربعة: بالتين، والزيتون، وبطور سينين، وهذا البلد الأمين يعني: مكة؛ لأن السورة مكية فالمشار إليه قريب، وهو مكة، ﴿وَالتِّينِ﴾، هو الثمر المعروف، ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ معروف، وأقسم الله بهما؛ لأنهما يكثران في فلسطين، ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾، أقسم الله به؛ لأنه الجبل الذي كلم الله عنده موسى - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -.

وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾، أقسم الله به أعني مكة؛ لأنها أحب البقاع إلى الله، وأشرف البقاع عند الله - عز وجل -.

قال بعض أهل العلم: أقسم الله بهذه الثلاثة؛ لأن الأول ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾، أرض فلسطين التي فيها الأنبياء، وآخر أنبياء بني إسرائيل هو عيسى بن مريم ﷺ، وبطور سينين؛ لأنه الجبل الذي أوحى الله تعالى إلى موسى حوله، وأما البلد الأمين فهو مكة الذي بعث الله منه محمدًا - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - قال العلماء: ومعنى قوله تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾، أي: طور البركة؛ لأن الله تعالى وصفه أو وصف ما حوله بالوادي المقدس.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ هذا هو المقسم عليه، أقسم الله - تعالى - أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم، وهذه الجملة التي فيها المقسم عليه مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم،

واللام، وقد، أقسم الله أنه خلق الإنسان ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ في أحسن هيئة وخِلقة و﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾، فطرة وقصدًا؛ لأنه لا يوجد أحد من المخلوقات أحسن من بني آدم خلقة، فالمخلوقات الأرضية كلها دون بني آدم في الخلقة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾، هذه الردة التي ذكرها الله - عَزَّ وَجَلَّ - تعني أن الله - تعالى - يرد الإنسان أسفل سافلين خِلقة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ [النحل: ٧٠]، فكلما ازدادت السن في الإنسان تغير إلى أردأ في القوة الجسدية، وفي الهيئة الجسدية، وفي نضارة الوجه وغير ذلك يرد أسفل سافلين، وإذا قلنا إن أحسن تقويم تشمل حتى الفطرة التي جبل الله الخلق عليها، والعبادة التي تترتب أو تنبني على هذه الفطرة، فإن هذا إشارة إلى أن من الناس من تعود به حاله - والعياذ بالله - إلى أن يكون أسفل سافلين بعد أن كان في الأعلى والقمة من الإيمان والعلم، والآية تشمل المعنيين جميعًا ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾، هذا استثناء من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾، يعني: إلا المؤمنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فإنهم لا يردون إلى أسفل السافلين؛ لأنهم متمسكون بإيمانهم وأعمالهم، فيبقون عليها إلى أن يموتوا، ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرٌ﴾، أي: ثواب ﴿غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾، غير مقطوع، ولا ممنون به أيضًا فكلمه ﴿مَمۡنُونٖ﴾، صالحه لمعنى القطع، وصالحة لمعنى المنة، فهم لهم أجر لا ينقطع، ولا يمن عليهم به، يعني: أنهم إذا استوفوا هذا الأجر لا يمن عليهم فيقال أعطيناكم وفعلنا وفعلنا، وإن كانت المنة لله - عَزَّ وَجَلَّ - عليهم بالإيمان والعمل الصالح والثواب، كلها منّة من الله لكن لا يمن عليهم به، أي: لا يؤذون بالمن، كما يجري ذلك في أمور الدنيا، فإذا أحسن إليك أحد من الناس فربما يؤذيك بمنه عليك، في كل مناسبة يقول: فعلت بك، أعطيتك وما أشبه ذلك.

ثم قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ﴾، انتقل الله تعالى من الكلام على وجه الغيبة إلى الكلام على وجه المقابلة والخطاب قال تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ﴾ أي أي شيء يكذبك أيها الإنسان بعد، هذا البيان ﴿بِٱلدِّينِ﴾ أي: بما أمر الله به من الدين، ولهذا كلما نظر الإنسان إلى نفسه وأصله وخلقته، وأن الله اجتباه وأحسن خلقته، وأحسن فطرته، فإنه يزداد إيمانًا بالله - عَزَّ وَجَلَّ - وتصديقًا بكتابه وبما أخبرت به رسله.

وقوله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾، وهذا الاستفهام للتقرير يقرر الله - عَزَّ وَجَلَّ - أنه أحكم الحاكمين، وأحكم هنا اسم تفضيل، وهو مأخوذ من الحكمة، ومن الحكم، فالحكم الأكبر الأعظم الذي لا يعارضه شيء هو حكم الله - عَزَّ وَجَلَّ - والحكمة العليا البالغة هي حكمة الله - عَزَّ وَجَلَّ - فهو - سبحانه وتعالى - أحكم الحاكمين قدرًا وشرعًا، وله الحكم، وإليه يرجع الأمر كله. نسأل الله - تعالى - أن يرزقنا العلم بكتابه، وسنة رسوله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - إنه على كل شيء قدير.



تفسير سورة العلق

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١:٥].

❁ التفسير ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ هذه الآيات أول ما نزل على الرسول ﷺ من القرآن الكريم، نزلت عليه وهو يتعبد في غار حراء وكان رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - أول ما بُدِئ بالوحي أنه يرى الرؤيا في المنام، فتأتي مثل فلق الصبح يعني: يحدث ما يصدق هذه الرؤيا، وأول ما كان يرى هذه الرؤيا في ربيع الأول، فبقي ستة أشهر يرى مثل هذه الرؤيا ويراها تجيء مثل فلق الصبح، وفي رمضان نزل الوحي الذي في اليقظة، والمدة بين ربيع الأول ورمضان ستة شهور، وزمن الوحي ثلاث وعشرون سنة، ولهذا جاء في الحديث «أَنَّ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةَ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»[1]، لما كان يرى هذه الرؤيا التي تجيء مثل فلق الصبح حُبب إليه الخلاء، يعني: أن يخلو بنفسه ويبتعد عن هذا المجتمع الجاهلي، فرأى ﷺ أن أحسن ما يخلو به هذا الغار الذي في جبل حراء، وهو غار في قمة الجبل لا يكاد يصعد إليه الإنسان القوي إلا بمشقة، فكان يصعده ﷺ ويتحنث، يتعبد لله - عَزَّ وَجَلَّ - بما فتح الله عليه في هذا الغار الليالي ذوات العدد، يعني: عدة ليال، ومعه زاد أخذه يتزود به من طعام وشراب، ثم ينزل ويتزود لمثلها من أهله، ويرجع ويتحنث لله - عَزَّ وَجَلَّ - إلى أن نزل عليه الوحي، وهو في هذا الغار، أتاه جبريل

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٩٨٩)، وابن ماجه (٣٨٩٥).

وأمره أن يقرأ فقال: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»(١) ومعنى: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ» يعني: لست من ذوي القراءة، وليس مراده المعصية لأمر جبريل، لكنه لا يستطيع، فإنه ليس من ذوي القراءة، إذ إنه ﷺ كان أميًّا كما قال الله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ [الأعراف: ٥٨]. وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]. فكان لا يقرأ، ولا يكتب، وهذا من حكمة الله أنه لا يقرأ، ولا يكتب حتى تتبين حاجته وضرورته إلى هذه الرسالة، وحتى لا يبقى لشاك شك في صدقه، وقد أشار الله إلى هذه في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]. قال له: «ما أنا بقارىء» فغطَّاه مرتين أو ثلاثًا، ثم قال له ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، خمس آيات نزلت فرجع بها النبي ﷺ يرجف فؤاده من الخوف والفزع حتى أتى إلى خديجة، وحديث الوحي وابتداؤه موجود في أول صحيح البخاري من أحب أن يرجع إليه فليرجع يقول الله عز وجل: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، قوله تعالى: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، قيل: معناه متلبسًا بذلك، وقيل: مستعينًا بذلك، يعني: اقرأ مستعينًا باسم الله؛ لأن أسماء الله تعالى كلها خير، وكلها إعانة يستعين بها الإنسان، ويستعين بها على وضوئه، ويستعين بها على أكله، ويستعين بها على جماعه فهي كلها عون، وقال تعالى: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، دون أن يقول باسم الله؛ لأن المقام مقام ربوبية وتصرف وتدبير للأمور وابتداء رسالة؛؛ فلهذا قال تعالى: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، إلا أنه ﷺ قد رباه الله تعالى تربية خاصة ورباه كذلك ربوبية خاصة. قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، أي: خلق كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]. فما من شيء في السماء، ولا في الأرض، من خفي وظاهر، وصغير وكبير إلا وهو مخلوق لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ولهذا قال تعالى: ﴿خَلَقَ﴾، وحذف المفعول إشارة للعموم؛ لأن حذف المفعول يفيد العموم، إذ لو ذكر المفعول لتقيد الفعل به، لو قال خلق كذا تقيد الخلق بما ذكر فقط، لكن إذا قال تعالى: ﴿خَلَقَ﴾، وأطلق صار عامًّا فهو خالق كل شيء جل وعلا.

ثم قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ خص الله ـ تعالى ـ خلق الإنسان تكريمًا للإنسان وتشريفًا له؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]؛ فلهذا نص على خلق الإنسان ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾، أي: ابتدأ خلقه ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾، جمع، أو اسم جمع علقة، كشجر اسم جمع شجرة، والعلق: عبارة عن دودة حمراء من الدم صغيرة وهذا هو المنشأ الذي به الحياة؛ لأن الإنسان دم لو تفرغ من الدم لهلك.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤)، ومسلم (١٦٠).

وقد بين الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أنه خلق الإنسان من علق، ولكنه يتطور، وبين في آيات أخرى أنه خلق الإنسان من تراب، وفي آيات أخرى خلقه من طين، وفي آيات أخرى من صلصال كالفخار، وفي آيات أخرى من ماء دافق، وفي آيات أخرى من ماء مهين، وفي هذه الآية من علق فهل في هذا تناقض؟ الجواب: ليس هناك تناقض، ولا يمكن أن يكون في كلام الله تعالى، أو ما صح عن رسوله ﷺ شيء من التناقض أبدًا، فإن الله يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. لكنه ـ سبحانه وتعالى ـ يذكر أحيانًا مبدأ الخلق من وجه، ومبدأ الخلق من وجه آخر، فخلقه من تراب؛ لأن أول ما خلق الإنسان من التراب ثم صب عليه الماء فكان طينًا ثم استمر مدة فكان حمأً مسنونًا، ثم طالت مدته فكان صلصالًا، يعني: إذا ضربته بيدك تسمع له صلصلة كالفخار، ثم خلقه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لحمًا، وعظمًا، وعصبًا إلى آخره، هذا ابتداء الخلق المتعلق بآدم. والخلق الآخر من بنيه أول منشئهم من نطفة، وهي الماء المهين وهي الماء الدافق، هذه النطفة تبقى في الرحم أربعين يومًا، ثم تتحول شيئًا فشيئًا وبتمام الأربعين تتقلب بالتطور والتدريج حتى تكون دمًا علقة، ثم تبدأ بالنمو والثخونة وتتطور شيئًا فشيئًا، فإذا تمت ثمانين يومًا انتقلت إلى مضغة ـ قطعة من لحم بقدر ما يمضغه الإنسان ـ وتبقى كذلك أربعين يومًا فهذه مائة وعشرون يومًا، وهي بالأشهر أربعة أشهر، بعد أربعة أشهر يبعث الله إليه الملك الموكل بالأرحام، فينفخ فيه الروح، فتدخل الروح في الجسد بإذن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ والروح لا نستطيع أن نعرف كنهها وحقيقتها ومادتها، أما الجسد؛ فأصله من التراب، ثم في أرحام النساء من النطفة، لكن الروح لا نعرف من أي جوهر هي؟ ولا من أي مادة؟ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. فينفخ الملك الروح في هذا الجنين فيبدأ يتحرك؛ لأن نماءه الأول كنماء الأشجار بدون إحساس، بعد أن تنتفخ فيه الروح يكون آدميًا يتحرك؛ ولهذا إذا سقط الحمل من البطن قبل أربعة أشهر دفن في أي: مكان من الأرض، بدون تغسيل، ولا تكفين، ولا صلاة عليه، ولا يبعث؛ لأنه ليس آدميًا، وبعد أربعة أشهر إذا سقط يجب أن يغسل، ويكفن ويصلى عليه، ويدفن في المقابر؛ لأنه صار إنسانًا، ويسمى أيضًا؛ لأنه يوم القيامة سيدعى باسمه، ويعق عنه، لكن العقيقة عنه ليست في التأكيد كالعقيقة عمن بلغ سبعة أيام بعد خروجه، على كل حال، هذا الجنين في بطن أمه يتطور حتى يكون بشرًا، ثم يأذن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ له بعد المدة التي أكثر ما تكون عادة تسعة أشهر فيخرج إلى الدنيا. وبهذه المناسبة أبين أن للإنسان أربع دور:

الدار الأولى: في بطن أمه. الدار الثانية: في الدنيا. الدار الثالثة: في البرزخ. الدار الرابعة: في الجنة أو النار وهي المنتهى.

قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾، ﴿اقْرَأْ﴾، تكرار للأولى لكن هل هي توكيد أو هي تأسيس؟

الصحيح أنها تأسيس وأن الأولى ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ قرنت بما يتعلق بالربوبية، و﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾، قرنت بما يتعلق بالشرع، فالأولى بما يتعلق بالقدر، والثانية بما يتعلق بالشرع؛ لأن التعليم بالقلم أكثر ما يعتمد الشرع عليه، إذ إن الشرع يكتب ويحفظ، والقرآن يكتب ويحفظ، والسنة تكتب وتحفظ، وكلام العلماء يكتب ويحفظ؛ فلهذا أعادها الله مرة ثانية.



قال الله تعالى:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ۝١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ۝١٦ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡۤ وَٱقۡتَرِب ۩﴾ [العلق: ٦-١٩].

التفسير

قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ﴾ ﴿كَلَّآ﴾، في القرآن الكريم ترد على عدة معانٍ منها: أن تكون بمعنى حقًّا، كما في هذه الآية فـ﴿كَلَّآ﴾ بمعنى حقًّا، يعني: أن الله تعالى يثبت، هذا إثباتًا لا مرية فيه ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾، الإنسان هنا ليس شخصًا معينًا، بل المراد الجنس، كل إنسان من بني آدم إذا رأى نفسه استغنى، فإنه يطغى، من الطغيان، وهو مجاوزة الحد، فإذا رأى أنه استغنى عن رحمة الله طغى ولم يبالِ، فإذا رأى أنه استغنى عن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في كشف الكربات وحصول المطلوبات صار لا يلتفت إلى الله، ولا يبالي، فإذا رأى أنه استغنى بالصحة نسي المرض، وإذا رأى أنه استغنى بالشبع نسي الجوع، فإذا رأى أنه استغنى بالكسوة نسي العري، وهكذا فالإنسان من طبيعته الطغيان والتمرد متى رأى نفسه في غنى، ولكن هذا يخرج منه المؤمن؛ لأن المؤمن لا يرى أنه استغنى عن الله طرفة عين، فهو دائمًا مفتقر إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ يسأل ربه كل حاجة، ويلجأ إليه عند كل مكروه، ويرى أنه إن وكله الله إلى نفسه وكله إلى ضعف وعجز وعورة، وأنه لا يملك لنفسه نفعًا، ولا ضرًّا، هذا هو المؤمن، لكن الإنسان من حيث هو إنسان من طبيعته الطغيان، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ثم قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مهددًا هذا الطاغية ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾، أي: المرجع يعني: مهما طغيت

وعلوت واستكبرت واستغنيت، فإن مرجعك إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ كما قال الله تبارك وتعالى ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٣ ـ ٢٦].

وإذا كان المرجع إلى الله في كل الأمور، فإنه لا يمكن لأحد أن يفر من قضاء الله أبدًا، ولا من ثواب الله وعدله، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾، ربما نقول إنه أعم من الوعيد والتهديد يعني: أنه يشمل الوعيد والتهديد، ويشمل ما هو أعم فيكون المعنى أن إلى الله المرجع في كل شيء في الأمور الشرعية التحاكم إلى الكتاب والسنة لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]. والأمور الكونية المرجع فيها إلى الله ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]. فلا رجوع للعبد إلا إلى الله، كل الأمور ترجع إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يفعل ما يشاء، حتى ما يحصل بين الناس من الحروب والفتن والشرور، فإن الله هو الذي قدرها، لكنه قدرها لحكمة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. إذن ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾، يكون فيها تهديد لهذا الإنسان الذي طغى حين رأى نفسه مستغنيًا عن ربه، وفيها أيضًا ما هو أشمل وأعم، وهو أن المرجع إلى الله تعالى في كل الأمور.

ثم قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ يعني: أخبرني عن حال هذا الرجل وتعجب من حال هذا الرجل الذي ينهى عبدًا إذا صلى، ففي الآية ناهٍ ومنهي، فالناهي هو طاغية قريش أبو جهل، وكان يسمى في قريش أبا الحكم؛ لأنهم يتحاكمون إليه، ويرجعون إليه فاغتر بنفسه، وشرق بالإسلام ومات على الكفر، كما هو معروف، هذا الرجل سماه النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ أبا جهل ضد تسميتهم إياه أبا الحكم. وأما المنهي فهو محمد ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، وهو العبد ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾، أبو جهل قيل له: إن محمدًا يصلي عند الكعبة أمام الناس، يفتن الناس ويصدهم عن أصنامهم وآلهتهم، فمر به ذات يوم، وهو ساجد فنهى النبي ﷺ، وقال: لقد نهيتك فلماذا تفعل؟ فانتهره النبي ﷺ فرجع، ثم قيل لأبي جهل إنه أي: محمدًا ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ مازال يصلي فقال: والله لئن رأيته لأطأن عنقه بقدمي، ولأعفرن وجهه بالتراب، فلما رآه ذات يوم ساجدًا تحت الكعبة وأقبل عليه يريد أن يبر بيمينه وقسمه، لما أقبل عليه وجد بينه وبينه خندقًا من النار وأهوالًا عظيمة، فنكص على عقبيه وعجز أن يصل إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ هذا العبد الذي ينهى عبدًا إذا صلى يتعجب من حاله كيف يفعل هذا؟ ولهذا جاء في آخر الآيات ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ وأنه سيجازيه.

ثم قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ﴾، ﴿أَرَأَيْتَ﴾، يعني: أخبرني أيها المخاطب إن كان، هذا الساجد محمد ﷺ على الهدى فكيف تنهاه عنه؟! قوله تعالى: ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ﴾، قال بعض المفسرين

﴿أَوْ﴾، هنا بمعنى الواو يعني: وأمر بالتقوى، ولكن الصحيح أنها على بابها للتنويع، يعني: أرأيت إن كان على الهدى فيما فعل من السجود والصلاة، أو أمر غيره بالتقوى؛ لأن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - يأمر بالتقوى، بلا شك فهو صالح بنفسه مصلح لغيره.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ يعني: يرى المنهي، وهو الساجد محمدًا - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - الآمر بالتقوى ويرى هذا العبد الطاغية الذي ينهى عبدًا إذا صلى ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾، يرى - سبحانه وتعالى - علمًا ورؤية، فهو سبحانه يرى كل شيء مهما خفي ودق، ويعلم كل شيء مهما بَعُدَ، ومهما كثر أو قل، فيعلم الآمر والناهي ويعلم المصلي والساجد، ويعلم من طغى، ومن خضع لله - عَزَّ وَجَلَّ - وسيجازي كل إنسان بعمله، والمقصود من، هذا تهديد الذي ينهى عبدًا إذا صلى، وبيان أن الله تعالى يعلم بحاله، وحال من ينهاه، وسيجازي كلاً منهما بما يستحق، فهذا تهديد لهذا الرجل الذي كان ينهى رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - عن الصلاة، يعني: ألم يعلم هذا الرجل أن الله تعالى يراه ويعلمه، وهو - سبحانه وتعالى - محيط بعمله، فيجازيه عليه إما في الدنيا، وإما في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ ﴿كَلَّا﴾ هذه بمعنى حقًّا، ويحتمل أن تكون للردع، أي: لردعه عن فعله السيء الذي كان يقوم به تجاه رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - أو بمعنى حقًّا ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾، جملة ﴿لَنَسْفَعًا﴾، جواب لقسم مقدر والتقدير: والله لئن لم ينته لنسفعن بالناصية، وحذف جواب الشرط وبقي جواب القسم؛ لأن هذه هي القاعدة في اللغة العربية أنه إذا اجتمع قسم وشرط، فإنه يحذف جواب المتأخر، قال ابن مالك في «ألفيته»:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزم

وهنا المتأخر هو الشرط ﴿لَئِن﴾، والقسم مقدر قبله إذ تقديره: والله لئن لم ينته لنسفعن، ومعنى ﴿لَنَسْفَعًا﴾ أي: لنأخذن بشدة و﴿بِالنَّاصِيَةِ﴾ مقدم الرأس و(الـ) فيها أي: في الناصية للعهد الذهني، والمراد بالناصية هنا ناصية أبي جهل الذي توعد النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - على صلاته ونهاه عنها، أي: لنسفعن بناصيته، وهل المراد الأخذ بالناصية في الدنيا، أو في الآخرة يجر بناصيته إلى النار؟ يحتمل، هذا وهذا، يحتمل أنه يؤخذ بالناصية وقد أخذ بناصيته في يوم بدر حين قتل مع من قتل من المشركين، ويحتمل أن يكون يؤخذ بناصيته يوم القيامة فيقذف في النار، كما قال الله تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١]. وإذا كانت الآية صالحة لمعنيين لا يناقض أحدهما الآخر، فإن الواجب حملها على المعنيين جميعًا، كما هو المعروف والذي قررناه سابقًا، وهو أن الآية إذا كانت تحتمل معنيين لا ينافي أحدهما الآخر فالواجب الأخذ بالمعنيين جميعًا.

وقوله تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ ناصية بدل من الناصية الأولى، وهي بدل نكرة من معرفة،

وهي جائزة في اللغة العربية، وإنما قال تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ﴾ من أجل أن يكون ذلك توطئة للوصف الاتي بعدها، وهو قوله تعالى: ﴿كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ ﴿كَٰذِبَةٍ﴾، أي: أنها موصوفة بالكذب، ولا شك أن من أكبر ما يكون كذبًا ما يحصل من الكفار الذين يدعون أن مع الله آلهة أخرى، فإن هذا أكذب القول وأقبح الفعل، ﴿خَاطِئَةٍ﴾ أي: مرتكبة للخطأ عمدًا، وليعلم أن هناك فرقًا بين خاطىء ومخطىء، الخاطىء من ارتكب الخطأ عمدًا، والمخطىء من ارتكبه جهلًا، والثاني معذور، والأول غير معذور، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ [الحاقة: ٣٧]. أي: المذنبون ذنبًا عن عمد، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. فقال الله قد فعلت، ومثل ذلك القاسط والمقسط، القاسط هو الجائر، والمقسط هو العادل، قال الله تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]. وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥]؛ إذن ﴿خَاطِئَةٍ﴾ أي: مرتكبة للإثم عمدًا. قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ اللام هنا للتحدي، يعني: إن كان صادقًا وعنده قوة، وعنده قدرة فليدع ناديه، والنادي هو مجتمع القوم للتحدث بينهم والتخاطب والتفاهم والاستئناس بعضهم ببعض، وكان أبو جهل معظمًا في قريش، وله نادي يجتمع الناس إليه فيه، ويتكلمون في شؤونهم فهنا يقول الله - عَزَّ وَجَلَّ - إن كان صادقًا فليدع ناديه، وهذا لا شك أنه تحدي، كما تقول لعدوك إن كان لك قوم فتقدم وما أشبه ذلك من الكلمات الدالة على التحدي.

قوله تعالى: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾، يعني: عندنا من هم أعظم من نادي، هذا الرجل وهم الزبانية ملائكة النار، وقد وصف الله ملائكة النار بأنهم غلاظ شداد، غلاظ في الطباع، شداد في القوة ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٦]، بل يمتثلون كل ما أمرهم الله به ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، لا يعجزون عن ذلك فوصفهم بوصفين أنهم في تمام الانقياد لله - عَزَّ وَجَلَّ - ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾، وأنهم في تمام القدرة ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وعدم تنفيذ أمر الله - عَزَّ وَجَلَّ - إما أن يكون للعجز، وإما أن يكون للمعصية، فمثلًا: الذي لا يصلي الفرض قائمًا قد يكون للعجز، وقد يكون للعناد فهو لا ينفذ أمر الله، لكن الملائكة الذين على النار ليس عندهم عجز، بل عندهم قوة وقدرة، وليس عندهم استكبار عن الأمر، بل عندهم تمام التذلل والخضوع، هؤلاء الزبانية لا يمكن لهذا وقومه وناديه أن يقابلوهم أبدًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾، فإن قال قائل: أين الواو في قوله تعالى: ﴿سَنَدْعُ﴾؟ قلنا: إنها محذوفة لالتقاء الساكنين؛ لأن الواو ساكنة والهمزة همزة الوصل ساكنة، وإذا التقى ساكنان، فإنه إن كان الحرف صحيحًا كسر، وإن كان غير صحيح حذف، قال ابن مالك رحمه الله في «ألفيته»:

إِنْ سَاكِنَانِ التَقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَقْ ... وَإِنْ يَكُنْ لَيِّنًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَقْ

يعني: إذا التقى ساكنان إن كان الحرف الأول صحيحًا ليس من حروف العلة كسر مثل قوله

تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وأصلها ﴿لَمْ يَكُنْ﴾؛ لأن لم إذا دخلت على الفعل جزمته، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، لكن هنا التقى ساكنان، وكان الأول حرفًا صحيحًا فكسر، أما إذا كان الأول حرف؛ لين، يعني: حرف من حروف العلة، فإنه يحذف، كما في هذه الآية ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ يقال في ﴿كَلَّا﴾ ما قيل في الأولى التي قبلها والخطاب في قوله تعالى: ﴿لَا تُطِعْهُ﴾، أي: لا تطع، هذا الذي ينهاك عن الصلاة، بل اسجد، ولا تبالي به، وإذا كان الله نهى نبيه ﷺ أن يطيع هذا الرجل فهذا يعني: أنه جل وعلا سيدافع عنه، يعني: افعل ما تؤمر، ولا يهمنك، هذا الرجل، واسجد لله - عَزَّ وَجَلَّ - والمراد بالسجود هنا الصلاة، لكن عبر بالسجود عن الصلاة؛ لأن السجود ركن في الصلاة لا تصح إلا به؛ فلهذا عبر به عنها. وقوله تعالى: ﴿وَاقْتَرِب﴾، أي: اقترب من الله عز وجل؛ لأن الساجد أقرب ما يكون من ربه، كما قال ذلك رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - حيث قال: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ»(1)، وقال ﷺ: «أَلَا وَإِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ القُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ، وَأَمَّا السُّجُودُ فَأَكْثِرُوا فِيهِ مِنَ الدُّعَاءِ فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابُ لَكُمْ»(2)، أي: حري أن يستجاب لكم.

هذه سورة (العلق) وهي عظيمة جدًّا ابتدأها الله تعالى بما منّ به على رسوله ﷺ من الوحي، ثم اختتمها بالسجود والاقتراب من الله - عَزَّ وَجَلَّ - نسأل الله تعالى أن يرزقنا القيام بطاعته والقرب منه، وأن يجعلنا من أوليائه المتقين، وحزبه المفلحين، وعباده الصالحين، إنه على كل شيء قدير.



---

(1) صحيح: أخرجه مسلم (٤٨٢)، والنسائي (١١٣٧)، وأبو داود (٨٧٥).
(2) صحيح: أخرجه مسلم (٤٧٩)، والنسائي (١٠٤٥)، وأبو داود (٨٧٦).

تفسير سورة القدر

قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: ١:٥].

التفسير

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾، الضمير هنا يعود إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ والهاء في قوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾، يعود إلى القرآن، وذكر الله تعالى نفسه بالعظمة ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾؛ لأنه ـ سبحانه وتعالى ـ العظيم الذي لا شيء أعظم منه، والله تعالى يذكر نفسه أحيانًا بصيغة العظمة مثل هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، ومثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، أحيانًا يذكر نفسه بصيغة الواحد مثل ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]. وذلك؛ لأنه واحد عظيم، فباعتبار الصفة يأتي ضمير العظمة، وباعتبار الوحدانية يأتي ضمير الواحد. والضمير في قوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾، ضمير المفعول به وهي الهاء يعود إلى القرآن، وإن لم يسبق له ذكر؛ لأن، هذا أمر معلوم، ولا يمتري أحد في أن المراد بذلك إنزال القرآن الكريم، أنزله الله تعالى في؛ ليلة القدر فما معنى إنزاله في ليلة القدر؟ الصحيح أن معناها: ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر، وليلة القدر في رمضان لا شك في، هذا ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]. فإذا جمعت هذه الآية أعني

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ إلى هذه الآية: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ تبين أن ليلة القدر في رمضان، وبهذا نعرف أن ما اشتهر عند بعض العامة من أن ليلة القدر هي؛ ليلة النصف من شهر شعبان لا أصل له، ولا حقيقة له فإن ليلة القدر في رمضان، وليلة النصف من شعبان كليلة النصف من رجب، وجمادى، وربيع، وصفر، ومحرم وغيرهن من الشهور لا تختص بشيء، حتى ما ورد في فضل القيام فيها فهو أحاديث ضعيفة لا تقوم بها حجة، وكذلك ما ورد من تخصيص يومها، وهو يوم النصف من شعبان بصيام، فإنها أحاديث ضعيفة لا تقوم بها حجة، لكن بعض العلماء - رحمهم الله - يتساهلون في ذكر الأحاديث الضعيفة فيما يتعلق بالفضائل: فضائل الأعمال، أو الشهور، أو الأماكن وهذا أمر لا ينبغي، وذلك؛ لأنك إذا سقت الأحاديث الضعيفة في فضل شيء ما، فإن السامع سوف يعتقد أن ذلك صحيح، وينسبه إلى الرسول ﷺ وهذا شيء كبير، فالمهم أن يوم النصف من شعبان وليلة النصف من شعبان لا يختصان بشيء دون سائر الشهور، فليلة النصف لا تختص بفضل قيام، وليلة النصف ليست؛ ليلة القدر، ويوم النصف لا يختص بصيام، نعم شهر شعبان ثبتت السنة بأن النبي ﷺ كان يكثر من الصيام فيه حتى لا يفطر منه إلا قليلًا وما سوى ذلك مما يتعلق بصيامه لم يثبت عن النبي ﷺ إلا ما لسائر الشهور كفضل صوم ثلاثة أيام من كل شهر وأن تكون في الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر، وهي أيام البيض.

وقوله تعالى: ﴿فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ من العلماء من قال: القدر هو الشرف، كما يقال: (فلان ذو قدر عظيم، أو ذو قدر كبير) أي: ذو شرف كبير، ومن العلماء من قال: المراد بالقدر التقدير؛ لأنه يقدر فيها ما يكون في السنة؛ لقول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٣، ٤]. أي: يفصل ويبين.

والصحيح: أنه شامل للمعنيين، فليلة القدر لا شك أنها ذات قدر عظيم، وشرف كبير، وأنه يقدر فيها ما يكون في تلك السنة من الإحياء والإماتة والأرزاق وغير ذلك.

ثم قال الله جل وعلا: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾، هذه الجملة بهذه الصيغة يستفاد منها التعظيم والتفخيم، وهي مطردة في القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار:١٨،١٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة:١-٣]. ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة:١:٣] فهذه الصيغة تعني التفخيم والتعظيم فهنا قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾، أي: ما أعلمك؛ ليلة القدر وشأنها وشرفها وعظمها، ثم بين هذا بقوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾، وهذه الجملة كالجواب للاستفهام الذي سبقها، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾، الجواب: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أي: من ألف شهر ليس فيه ليلة القدر، والمراد بالخيرية هنا ثواب

العمل فيها، وما ينزل الله تعالى فيها من الخير والبركة على هذه الأمة ولذلك كان من قامها إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه، ثم ذكر ما يحدث في تلك الليلة فقال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾، أي: تنزل شيئًا فشيئًا؛ لأن الملائكة سكان السموات، والسموات سبع فتتنزل الملائكة إلى الأرض شيئًا فشيئًا حتى تملأ الأرض، ونزول الملائكة في الأرض عنوان على الرحمة والخير والبركة، ولهذا إذا امتنعت الملائكة من دخول شيء كان ذلك دليلًا على أن، هذا المكان الذي امتنعت الملائكة من دخوله قد يخلو من الخير والبركة كالمكان الذي فيه الصور، فإن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه صورة، يعني: صورة محرمة؛ لأن الصورة إذا كانت ممتهنة في فراش أو مخدة؛ فأكثر العلماء على أنها جائزة، وعلى، هذا فلا تمتنع الملائكة من دخول المكان؛ لأنه لو امتنعت لكان ذلك ممنوعًا، فالملائكة تتنزل في؛ ليلة القدر بكثرة، ونزولهم خير وبركة. قوله تعالى: ﴿وَٱلرُّوحُ﴾، هو جبريل ـ عليه السلام ـ خصه الله بالذكر لشرفه وفضله.

وقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ أي: بأمره، والمراد به الإذن الكوني؛ لأن إذن الله ـ أي: أمره ـ ينقسم إلى قسمين: إذن كوني، وإذن شرعي، فقوله تعالى: ﴿شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]. أي: ما لم يأذن به شرعًا؛ لأنه قد أذن به قدرًا، فقد شرع من دون الله، لكنه ليس بإذن الله الشرعي، وإذن قدري، كما في هذه الآية ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾، أي: بأمره القدري وقوله تعالى: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾، قيل: إن ﴿مِّن﴾ بمعنى الباء أي: بكل أمر مما يأمرهم الله به، وهو مبهم لا نعلم ما هو، لكننا نقول إن تنزل الملائكة في الأرض عنوان على الخير والرحمة والبركة.

قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِىَ﴾، الجملة هنا مكونة من مبتدأ وخبر، والخبر فيها مقدم، والتقدير: «هي سلام» أي: هذه الليلة سلام، ووصفها الله تعالى بالسلام، لكثرة من يسلم فيها من الآثام وعقوباتها، قال النبي ﷺ: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ القَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»(١)، ومغفرة الذنوب لا شك أنها سلامة من وبائها وعقوباتها.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾، أي: تتنزل الملائكة في هذه الليلة حتى مطلع الفجر، أي: إلى مطلع الفجر، وإذا طلع الفجر انتهت ليلة القدر.

تنبيه: سبق أن قلنا إن ليلة القدر في رمضان، لكن في أي: جزء من رمضان أفي أوله، أو وسطه، أو آخره؟ نقول في الجواب على، هذا: إن النبي ﷺ اعتكف العشر الأول، ثم العشر الأوسط تحريًا لليلة القدر، ثم قيل له: إنها في العشر الأواخر فاعتكف العشر الأواخر، إذنْ فليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان. وفي أي ليلة منها؟ الله أعلم قد تكون في؛ ليلة إحدى

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٥)، ومسلم (٧٦٠).

وعشرين، أو في؛ ليلة الثلاثين، أو فيما بينهما، فلم يأت تحديد لها في؛ ليلة معينة كل عام، ولهذا أري النبي ﷺ ليلة القدر ليلة إحدى وعشرين ورأى في المنام أنه يسجد في صبيحتها في ماء وطين فأمطرت السماء تلك الليلة أي: ليلة إحدى وعشرين، فصلى النبي ﷺ في مسجده، وكان مسجده من عريش لا يمنع تسرب الماء من السقف، فسجد النبي ﷺ صباحها أي: في صلاة الفجر في الماء والطين، ورأى الصحابة -- رضي الله عنهم - على جبهته أثر الماء والطين، ففي تلك الليلة كانت في؛ ليلة إحدى وعشرين، ومع ذلك قال: «التَّمِسُوهَا فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ»(١)، وفي رواية: «فِي الوِتْرِ مِنَ العَشْرِ الأَوَاخِرِ»(٢)، ورآها الصحابة ذات سنة من السنين في السبع الأواخر، فقال ﷺ: «أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَأَتْ فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ، فَمَنْ كَانَ مُتَحَرِّيهَا فَلْيَتَحَرَّهَا فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ»(٣)، يعني: في تلك السنة، أما في بقية الأعوام فهي في كل العشر، فليست معينة، ولكن أرجاها ليلة سبع وعشرين، وقد تكون مثلًا في هذا العام؛ ليلة سبع وعشرين، وفي العام الثاني ليلة إحدى وعشرين، وفي العام الثالث ليلة خمس وعشرين وهكذا.، وإنما أبهمها الله - عَزَّ وَجَلَّ - لفائدتين عظيمتين:

الفائدة الأولى: بيان الصادق في طلبها من المتكاسل؛ لأن الصادق في طلبها لا يهمه أن يتعب عشر؛ ليال من أجل أن يدركها، والمتكاسل يكسل أن يقوم عشر ليال من أجل ليلة واحدة.

الفائدة الثانية: كثرة ثواب المسلمين بكثرة الأعمال؛ لأنه كلما كثر العمل كثر الثواب.

وبهذه المناسبة أود أن أنبه إلى غلط كثير من الناس في الوقت الحاضر حيث يتحرون؛ ليلة سبع وعشرين في أداء العمرة، فإنك في ليلة سبع وعشرين تجد المسجد الحرام قد غص بالناس وكثروا، وتخصيص ليلة سبع وعشرين بالعمرة من البدع؛ لأن رسول الله ﷺ لم يخصصها بعمرة في فعله، ولم يخصصها أي: ليلة سبع وعشرين بعمرة في قوله، فلم يعتمر ليلة سبع وعشرين من رمضان مع أنه في عام الفتح؛ ليلة سبع وعشرين من رمضان كان في مكة ولم يعتمر، ولم يقل للأمة تحروا ليلة سبع وعشرين بالعمرة، وإنما أمر أن نتحرى؛ ليلة سبع وعشرين بالقيام فيها لا بالعمرة، وبه يتبين خطأ كثير من الناس، وبه أيضًا يتبين أن الناس ربما يأخذون دينهم كابرًا عن كابر، على غير أساس من الشرع، فاحذر أن تعبد الله إلا على بصيرة، بدليل من كتاب الله، أو سنة رسوله ﷺ أو

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٠٢٧)، ومسلم (١١٦٧).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٠١٧).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٠١٥)، ومسلم (١١٦٥).

عمل الخلفاء الراشدين الذين أمرنا باتباع سنتهم.

وفي هذه السورة الكريمة فضائل متعددة لليلة القدر:

الفضيلة الأولى: أن الله أنزل فيها القرآن الذي به هداية البشر وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

الفضيلة الثانية: ما يدل عليه الاستفهام من التفخيم والتعظيم في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾.

الفضيلة الثالثة: أنها خير من ألف شهر.

الفضيلة الرابعة: أن الملائكة تتنزل فيها، وهم لا ينزلون إلا بالخير والبركة والرحمة.

الفضيلة الخامسة: أنها سلام، لكثرة السلامة فيها من العقاب والعذاب بما يقوم به العبد من طاعة الله ـ عز وجل ـ.

الفضيلة السادسة: أن الله أنزل في فضلها سورة كاملة تتلى إلى يوم القيامة.

ومن فضائل؛ ليلة القدر ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ القَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[1]، فقوله: «إيمانًا واحتسابًا» يعني: إيمانًا بالله وبما أعد الله من الثواب للقائمين فيها، واحتسابًا للأجر وطلب الثواب. وهذا حاصل لمن علم بها ومن لم يعلم؛ لأن النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ لم يشترط العلم بها في حصول، هذا الأجر. وبهذا انتهى الكلام على سورة القدر.



---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٥)، ومسلم (٧٦٠).

تفسير سورة البينة

قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ١: ٥].

التفسير

البسملة تقدم الكلام عليها.

يقول الله عز وجل: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾، يعني: ما كان الكفار من ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، وهم اليهود والنصارى، سموا بذلك؛ لأن صحفهم بقيت إلى أن بعث النبي ﷺ مع ما فيها من التحريف والتبديل والتغيير، ولكن هم أهل الكتاب، فاليهود لهم التوراة، والنصارى لهم الإنجيل ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾، المشركون هم عبدة الأوثان من كل جنس من بني إسرائيل ومن غيرهم، لم يكن هؤلاء ﴿مُنفَكِّينَ﴾، أي: تاركين لما هم عليه من الشرك والكفر ومنفكين عنه ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾، والبينة ما يبين به الحق في كل شيء، فكل شيء يبين به الحق، فإنه يسمى بينة، ولهذا قال النبي ﷺ: «الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي»[1]، فكل ما بان به الحق فهو بينة، ويكون في كل شيء بحسبه، فما هي البينة التي ذكرها الله هنا؟ البينة قال تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ﴾، وهذا الرسول هو النبي محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي صلوات الله وسلامه عليه، وجاء بصيغة النكرة ﴿رَسُولٌ﴾، تعظيمًا له؛ لأنه ﷺ جدير بأن يعظم التعظيم اللائق به من غير نقص،

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (١٣٤١)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٨٩٧).

ولا غلو ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، يعني: أن الله أرسله إلى العالمين بشيرًا ونذيرًا، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء: ٧٩]. وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]. فهو محمد ﷺ مرسل من عند الله بواسطة جبريل ﷺ؛ لأن جبريل هو رسول رب العالمين إلى رسله موكل بالوحي ينزل به على من شاء الله من عباده.

وقوله تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ يعني: يقرأ لنفسه وللناس، ﴿صُحُفًا﴾ جمع صحيفة وهي الورقة أو اللوح أو ما أشبه ذلك مما يكتب به ﴿مُّطَهَّرَةً﴾، أي: منقاة من الشرك، ومن رذائل الأخلاق، ومن كل ما يسوء؛ لأنها نزيهة مقدسة ﴿فِيهَا﴾، أي: في هذه الصحف ﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾، كتب أي: مكتوبات قيمة، فكتب جمع كتاب، بمعنى مكتوب، والمعنى أن في هذه الصحف مكتوبات قيمة كتبها الله - عَزَّ وَجَلَّ - ومن المعلوم أن الإنسان إذا تصفح القرآن وجده كذلك، وجده يتضمن كتبًا أي: مكتوبات قيمة، انظر إلى ما جاء به القرآن من توحيد الله - عَزَّ وَجَلَّ - والثناء عليه، وحمده وتسبيحه تجده مملوءًا بذلك، انظر إلى ما في القرآن من وصف النبي ﷺ ووصف أصحابه المهاجرين والأنصار ووصف التابعين لهم بإحسان، انظر إلى ما جاء به القرآن من الأمر بالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وغير ذلك من الأخلاق الفاضلة تجد أن كل ما جاء به القرآن فهو قيم بنفسه، وكذلك هو مقيم لغيره ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾، إذنْ أخبر الله في هذه الآية أنه لا يمكن أن ينفك هؤلاء الكفار من أهل الكتاب والمشركين حتى تأتيهم البينة، فلما جاءتهم البينة هل انفكوا عن دينهم، عن كفرهم وشركهم؟

الجواب: قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾، يعني: لما جاءتهم البينة اختلفوا، منهم من آمن، ومنهم من كفر، فمن النصارى من آمن مثل النجاشي ملك الحبشة، ومن اليهود من آمن أيضًا مثل عبدالله بن سلام - رضي الله عنه - فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، فمن علم الله منه أنه يريد الخير، ويريد الدين لله آمن ووفق للإيمان، ومن لم يكن كذلك وفق للكفر، كذلك أيضًا من المشركين من آمن، وما أكثر المشركين من قريش الذين آمنوا، فصار الناس قبل بعثة الرسول ﷺ لم يزالوا على ما هم عليه من الكفر حتى جاءتهم البينة، ثم لما جاءتهم البينة تفرقوا واختلفوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].



قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٦:٨].

التفسير

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾، بين الله تعالى في هذه الآية بيانًا مؤكدًا بـ(إن) إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾، أي: في النار التي تسمى جهنم، وسميت جهنم، لبعد قعرها وسوادها، فهو مأخوذ من الجهمة، وقيل: إنه اسم أعجمي عربته العرب. وأيًا كان فإنه أعني لفظ ﴿جَهَنَّمَ﴾ اسم من أسماء النار، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿مِنْ﴾، هنا بيان للإبهام، أعني إبهام الاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وعلى، هذا فيقتضي أن أهل الكتاب كفار وهم (اليهود والنصارى)، والأمر كذلك، فإن اليهود والنصارى كفار حين لم يؤمنوا برسول الله محمد - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، وإن قالوا: إنهم مؤمنون بالله واليوم الآخر، ويدعون لموتاهم بالرحمة وما أشبه ذلك من العبارات التي يتزلفون بها، فإنهم كاذبون، إذ لو كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر لآمنوا بمحمد ﷺ، بل لآمنوا برسلهم؛ لأن النبي ﷺ قد وجد وصفه في التوراة والإنجيل، كما قال الله تبارك وتعالى في سورة الأعراف ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، بل إن عيسى ﷺ قال لبني إسرائيل: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]. فلما جاء هذا الرسول الذي بشر به عيسى بالبينات، قالوا: هذا سحر مبين، وكذبوه ولم يتبعوه إلا نفرًا قليلًا من اليهود والنصارى، فقد آمنوا بمحمد - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - واتبعوه. قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾، أي: شر الخليقة؛ لأن البرية هي الخليقة، وعلى هذا فيكون الكفار من بني آدم من (اليهود والنصارى والمشركين) شر البرية (شر الخلائق)

وقد بيَّن الله ذلك تمامًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرًا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٢،٢٣]، فهؤلاء الكفار من اليهود والنصارى والمشركين هم شر البرية عند الله - عَزَّ وَجَلَّ - وإذا كانوا هم شر البرية فلن نتوقع منهم إلا كل شر؛ لأن الشرير ينبثق منه الشر، ولا يمكن أبدًا أن نحسن الظن بهم، قد نثق بالصادقين منهم، كما وثق النبي ﷺ بالمشرك عبدالله بن أريقط، حين استأجره ليدله على طريق الهجرة، لكن غالبهم وجمهورهم لا يوثق منهم؛ لأنهم شر، ولما ذكر الله حكم هؤلاء الكفار من اليهود والنصارى والمشركين ذكر حكم المؤمنين فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾، والقرآن الكريم مثاني تثنى فيه المعاني، فيؤتى بالمعنى وما يقابله، ويأتي بأصحاب النار وأصحاب الجنة، ويأتي بآيات الترهيب وآيات الترغيب، وهلم جرًّا؛ لأجل أن يكون الإنسان سائرًا إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - بين الخوف والرجاء، ولئلا يمل، فإن تنويع الأساليب وتنويع المواضيع لا شك أنه يعطي النفس قوة واندفاعًا، بخلاف ما لو كان الكلام على وتيرة واحدة، فإن الإنسان قد يمل، ولا تتحرك نفسه، قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾، فخير خلق الله - عَزَّ وَجَلَّ - هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم على طبقات أربع بينها الله في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩]. هذه الطبقات الأربع هي طبقات المؤمنين أعلاها: طبقة النبوة، وأعلى طبقات النبوة طبقة الرسالة، ثم بعد النبوة الصديقية، وعلى رأس الصديقين أبو بكر - رضي الله عنه -.

الطبقة الثالثة: الشهداء، قيل: إنهم أُولو العلم. وقيل: إنهم الذين قتلوا في سبيل الله، والآية تحتمل المعنيين جميعًا بدون مناقضة، والذي ينبغي لمفسر القرآن أن الآية إذا كانت تحتمل معنيين بدون مناقضة أن يحملها على المعنيين جميعًا، فالشهداء هم أولو العلم، وهم الذين قتلوا في سبيل الله، وكلهم مرتبتهم عالية فوق سائر المتبعين للرسل إلا الصديقين؛ قال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وهم أدنى الطبقات، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات على اختلاف طبقاتهم هم خير البرية، أي: خير ما خلق الله - عَزَّ وَجَلَّ - من البرايا، ثم بين جزاءهم فقال تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، وهنا قدم الله الثناء على المؤمنين الذين عملوا الصالحات على ذكر جزائهم؛ لأن ثناء الله عليهم أعظم مرتبة وأعلى منقبة، فلذلك قدمه على الجزاء الذي هو جزاؤهم في يوم القيامة ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، ﴿جَنَّٰتُ﴾، جمعها لاختلاف أنواعها؛ لأن النبي ﷺ قال: إن الجنات «جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا»، وإلى، هذا يشير قول الله تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]. ثم

ذكر أوصاف هاتين الجنتين، ثم قال تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]. فلهم جنات والجنات التي ذكرها الله تعالى جزاء للمؤمنين العاملين الصالحات هي عبارة عن منازل عظيمة أعدها الله - عَزَّ وَجَلَّ - للمؤمنين المتقين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولا يمكن لإنسان في هذه الدنيا أن يتصور كيف نعيم الآخرة أبدًا؛ لأنه أعلى وأجل مما نتصور، قال ابن عباس - رضي الله عنهما - (ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء)، لكنها الحقائق تختلف اختلافًا عظيمًا، قال عز وجل: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ﴾، العدن بمعنى الإقامة في المكان وعدم النزوح عنه، ومن تمام نعيم أهل الجنة أن كل واحد منهم لا يطلب تحولًا عما هو عليه من النعيم؛ لأنه لا يرى أن أحدًا أكمل منه، ولا يحس في قلبه أنه في غضاضة بالنسبة لمن هو أرقى منه وأكمل قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨]. أي: لا يبغون تحولًا عما هم عليه؛ لأن الله قد أقنعهم بما أعطاهم فلا يجدون أحدًا أكمل نعيمًا منهم، ولهذا سمى الله تعالى هذه الجنات جنات عدن ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، ﴿مِن تَحْتِهَا﴾، قال العلماء: من تحت قصورها وأشجارها وإلا فهو على سطحها وليس أسفل، إنما هو من تحت هذه القصور والأشجار، والأنهار التي ذكرها الله - عَزَّ وَجَلَّ - هنا مجملة فصلها في سورة (محمد) فقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]. وقد جاء في الآثار من وصف هذه الأنهار أنها تجري بغير أخدود وبغير خنادق بمعنى أن النهر يجري على سطح الأرض يتوجه حيث وجهه الإنسان، ولا يحتاج إلى شق خنادق، ولا إلى بناء أخدود تمنع سيلان الماء يمينًا وشمالًا، وفي، هذا يقول ابن القيم - رحمه الله - في كتابه النونية:

أَنْهَارُهَــا مَــنْ غَيْرِ أَخْـدُودٍ سُـبْحَانَ مُمْسِـكُهَا عَـنِ الفَيَضَانِ

قال الله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، أي: ماكثين فيها أبدًا، لا يموتون، ولا يمرضون، ولا ييأسون، ولا يألمون، ولا يحزنون، ولا يمسهم فيها نصب، فهم في أكمل النعيم دائمًا وأبدًا - أبد الآبدين - ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾، وهذا أكمل نعيم أن الله - تعالى - يرضى عنهم، فيحل عليهم رضوانه فلا يسخط بعده أبدًا، بل وينظرون إلى الله - تبارك وتعالى - بأعينهم، كما يرون القمر ليلة البدر لا يشكون في ذلك، ولا يمترون في ذلك، ولا يتضامون في ذلك، أي: لا ينضم بعضهم إلى بعض؛ ليريه الآخر، بل كل إنسان يراه في مكانه حسب ما أراد الله - عز وجل -.

ثم قال عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾، أي: ذلك الجزاء لمن خشي الله - عَزَّ وَجَلَّ - والخشية هي خوف الله - عَزَّ وَجَلَّ - المقرون بالهيبة والتعظيم، ولا يصدر ذلك إلا من عالم بالله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨]. أي: العلماء بعظمته وكمال سلطانه، فالخشية أخص من الخوف، ويتضح الفرق بينهما بالمثال: إذا خفت من شخص لا

تدري هل هو قادر عليك أو لا؟ فهذا خوف، وإذا خفت من شخص تعلم أنه قادر عليك فهذه خشية. وبهذا تمت هذه السورة العظيمة وتم ما تيسر لنا من الكلام على تفسيرها، ونسأل الله أن يجعلنا ممن يتلون كتاب الله حق تلاوته إنه على كل شيء قدير.



تفسير سورة الزلزلة

قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:١:٨].

التفسير

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾، المراد بذلك ما ذكره الله ـ تعالى ـ في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١، ٢]. وقوله تعالى: ﴿زِلْزَالَهَا﴾، يعني: الزلزال العظيم الذي لم يكن مثله قط، ولهذا يقول الله عز وجل: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾، يعني: من شدة ذهولهم وما أصابهم تجدهم كأنهم سكارى، وما هم بسكارى، بل هم صحاة، لكن لشدة الهول صار الإنسان كأنه سكران لا يدري كيف يتصرف، ولا كيف يفعل.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾، المراد بهم: أصحاب القبور، فإنه إذا نفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم نفخ فيه أخرى، فإذا هم قيام ينظرون، يخرجون من قبورهم لرب العالمين ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا﴾، الإنسان المراد به الجنس، يعني: أن الإنسان البشر يقول: ما

لها؟ أي شيء لها، هذا الزلزال؟ ولأنه يخرج وكأنه، كما قال الله تعالى: ﴿سُكَـٰرَىٰ﴾ [الحج: ٢].
فيقول: ما الذي حدث لها وما شأنها؟ لشدة الهول.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: في ذلك اليوم إذا زلزلت ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾، أي: تخبر عما فعل الناس عليها من خير أو شر، وقد ثبت عن النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ أن المؤذن إذا أذن، فإنه لا يسمع صوته شجر، ولا مدر، ولا حجر، ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة، فتشهد الأرض بما صنع عليها من خير أو شر، وهذه الشهادة من أجل بيان عدل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وأنه ـ سبحانه وتعالى ـ لا يؤاخذ الناس إلا بما عملوه، وإلا، فإن الله ـ تعالى ـ بكل شيء محيط، ويكفي أن يقول لعباده جل وعلا عملتم كذا وعملتم كذا.. لكن من باب إقامة العدل وعدم إنكار المجرم؛ لأن المجرمين ينكرون أن يكونوا مشركين، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]؛ لأنهم إذا رأوا أهل التوحيد قد خلصوا من العذاب ونجوا منه أنكروا الشرك لعلهم ينجون، ولكنهم يختم على أفواههم، وتكلم الآيدي، وتشهد الأرجل والجلود والألسن كلها تشهد على الإنسان بما عمل، وحينئذ لا يستطيع أن يبقى على إنكاره، بل يقر ويعترف، إلا أنه لا ينفع الندم في ذلك الوقت. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾، هوجواب الشرط في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾، أي: بسبب أن الله أوحى لها، يعني: أذن لها في أن تحدث أخبارها، وهو ـ سبحانه وتعالى ـ على كل شيء قدير إذا أمر شيئًا بأمر، فإنه لابد أن يقع، يخاطب الله الجماد فيتكلم الجماد، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]. وقال الله تعالى للقلم اكتب، قال: ربِّ وماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة. وقال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]. فالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إذا وجه الكلام إلى شيء ولو جمادًا، فإنه يخاطب الله ويتكلم ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، يعني: يومئذ تزلزل الأرض زلزالها.

وقوله تعالى: ﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾، أي: جماعات متفرقين، يصدرون كل يتجه إلى مأواه؛ فأهل الجنة ـ جعلنا الله منهم ـ يتجهون إليها، وأهل النار ـ والعياذ بالله ـ يساقون إليها ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٥ ـ ٨٧]. فيصدر الناس جماعات وزمرًا على أصناف متباينة تختلف اختلافًا كبيرًا، كما قال الله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١]. قوله تعالى: ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾، يعني: يصدرون أشتاتًا فيروا أعمالهم، يريهم الله تعالى أعمالهم إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، وذلك بالحساب وبالكتاب،

فيعطى الإنسان كتابه إما بيمينه، وإما بشماله، ثم يحاسب على ضوء ما في هذا الكتاب، يحاسبه الله - عَزَّ وَجَلَّ - أما المؤمن، فإن الله تعالى يخلو به وحده ويقرره بذنوبه ويقول: فعلت كذا، وفعلت كذا وكذا، وفعلت كذا، حتى يقر ويعترف، فإذا رأى أنه هلك، قال الله عز وجل: «إِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»(١)، وأما الكافر - والعياذ بالله - فإنه لا يعامل هذه المعاملة، بل ينادى على رؤوس الأشهاد ﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾، هذا مضاف والمضاف يقتضي العموم وظاهره أنهم يرون الأعمال الصغيرة والكبيرة، وهو كذلك، إلا ما غفره الله من قبل بحسنات، أو دعاء أو ما أشبه ذلك فهذا يمحى، كما قال الله تعالى ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]. فيرى الإنسان عمله، يرى عمله القليل والكثير حتى يتبين له الأمر جليًّا ويعطى كتابه ويقال: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ٦٤]. ولهذا يجب على الإنسان ألَّا يقدم على شيء لا يرضي الله عز وجل؛ لأنه يعلم أنه مكتوب عليه، وأنه سوف يحاسب عليه.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾، ﴿من﴾، شرطية تفيد العموم، يعني أي إنسان يعمل مثقال ذرة، فإنه سيراه، سواء من الخير، أو من الشر ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ يعني: وزن ذرة، والمراد بالذرة: صغار النمل، كما هو معروف، وليس المراد بالذرة: الذرة المتعارف عليها اليوم، كما ادعاه بعضهم؛ لأن هذه الذرة المتعارف عليها اليوم ليست معروفة في ذلك الوقت، والله - عَزَّ وَجَلَّ - لا يخاطب الناس إلا بما يفهمون، وإنما ذكر الذرة؛ لأنها مضرب المثل في القلة، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]، ومن المعلوم أن من عمل ولو أدنى من الذرة، فإنه سوف يجده، لكن لما كانت الذرة مضرب المثل في القلة قال الله تعالى ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، يفيد أن الذي يوزن هو الأعمال، وهذه المسألة اختلف فيها أهل العلم: فمن العلماء من قال: إن الذي يوزن العمل. ومنهم من قال: إن الذي يوزن صحائف الأعمال. ومنهم من قال: إن الذي يوزن هو العامل نفسه. ولكل دليل.

أما من قال: إن الذي يوزن هو العمل فاستدل بهذه الآية ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾؛ لأن تقدير الآية فمن يعمل عملًا مثقال ذرة. واستدلوا أيضًا بقول النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -: «كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللهِ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ الله العَظِيمِ»[١].

لكن يشكل على هذا أن العمل ليس جسمًا يمكن أن يوضع في الميزان، بل العمل عمل انتهى وانقضى، ويجاب عن هذا بأن يقال:

أولًا: على المرء أن يصدق بما أخبر الله تعالى به ورسوله ﷺ من أمور الغيب، وإن كان عقله قد يحار فيه، ويتعجب ويقول كيف يكون، هذا؟ فعليه التصديق؛ لأن قدرة الله تعالى فوق ما نتصور، فالواجب على المسلم أن يسلم ويستسلم، ولا يقول كيف؟ لأن أمور الغيب فوق ما يتصور.

ثانيًا: أن الله تعالى يجعل هذه الأعمال أجسامًا توضع في الميزان وتثقل وتخف، والله تعالى قادر على أن يجعل الأمور المعنوية أجسامًا، كما صح عن النبي ﷺ في أن الموت يؤتى به على صورة كبش ويوقف بين الجنة والنار فيقال: يا أهل الجنة فيشرئبون ويطلعون ويقال: يا أهل النار فيشرئبون ويطلعون فيقال لهم: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، مع أنه في صورة كبش والموت (معنى) ليس جسمًا، ولكن الله تعالى يجعله جسمًا يوم القيامة، فيقولون:، هذا الموت فيذبح أمامهم ويقال: يا أهل الجنة خلود، ولا موت، ويا أهل النار خلود، ولا موت، وبهذا يزول الإشكال الوارد على هذا القول.

أما من قال: إن الذي يوزن هو صحائف الأعمال فاستدلوا بحديث صاحب البطاقة الذي يؤتى يوم القيامة به، ويقال: انظر إلى عملك فتمد له سجلات مكتوب فيها العمل السيىء، سجلات عظيمة، فإذا رأى أنه قد هلك أتي ببطاقة صغيرة فيها لا إله إلا الله فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال له: إنك لا تظلم شيئًا، ثم توزن البطاقة في كفة، والسجلات في كفة، فترجح بهن البطاقة وهي لا إله إلا الله قالوا فهذا دليل على أن الذي يوزن هو صحائف الأعمال.

وأما الذين قالوا: إن الذي يوزن هو العامل نفسه فاستدلوا بحديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه كان ذات يوم مع النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ فهبت ريح شديدة، فقام عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ فجعلت الريح تكفئه؛ لأنه نحيف القدمين والساقين، فجعل الناس يضحكون، فقال النبي ﷺ: «مِمَّا تَضْحَكُونَ؟ أو مِمَّا تَعْجَبُونَ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ سَاقَيْهِ فِي المِيْزَانِ أَثْقَلُ مِنْ أُحُدٍ»[٢] وهذا يدل على أن الذي يوزن هو العامل.

فيقال: نأخذ بالقول الأول: أن الذي يوزن العمل، ولكن ربما يكون بعض الناس توزن صحائف أعماله، وبعض الناس يوزن هو بنفسه.

فإن قال قائل: على هذا القول أن الذي يوزن هو العامل هل ينبني هذا على أجسام الناس في

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤).

(٢) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٤٧٣) وقال: «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح»

الدنيا وأن صاحب الجسم الكبير العظيم يثقل ميزانه يوم القيامة؟

فالجواب: لا ينبني على أجسام الدنيا، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ»(١)، وقال: اقرؤا ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]. وهذا عبدالله بن مسعود يقول النبي ﷺ: «إن ساقيه في الميزان أثقل من أحد»، فالعبرة بثقل الجسم أو عدمه، ثقله يوم القيامة بما كان معه من أعمال صالحة. يقول عز وجل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾.

وهذه السورة كلها فيها التحذير والتخويف من زلزلة الأرض، وفيها الحث على الأعمال الصالحة، وفيها أن العمل لا يضيع مهما قل، حتى لو كان مثقال ذرة، أو أقل، فإنه لابد أن يراه الإنسان ويطلع عليه يوم القيامة. نسأل الله تعالى أن يختم لنا بالخير والسعادة والصلاح والفلاح، وأن يجعلنا ممن يحشرون إلى الرحمن وفدًا إنه على كل شيء قدير.



(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).

تفسير سورة العاديات

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا
﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ
لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾
وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات:١: ١١].

❁ التفسير ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾، هذا قسم، والعاديات صفة لموصوف محذوف فما هو هذا الموصوف؟ هل المراد الخيل يعني: (والخيل العاديات) أو المراد الإبل يعني: (والإبل العاديات)؟ في هذا قولان للمفسرين: فمنهم من قال: إن الموصوف هي الإبل، والتقدير (والإبل العاديات) ويعني بها الإبل التي تعدو من عرفة إلى مزدلفة، ثم إلى منى، وذلك في مناسك الحج، واستدلوا لهذا بأن هذه السورة مكية، وأنه ليس في مكة جهاد على الخيل حتى يقسم بها.

أما القول الثاني لجمهور المفسرين، وهو الصحيح، فإن الموصوف هو الخيل والتقدير (والخيل العاديات) والخيل العاديات معلومة للعرب حتى قبل مشروعية الجهاد، هناك خيل تعدو على أعدائها سواء بحق أم بغير حق فيها قبل الإسلام، أما بعد الإسلام فالخيل تعدوا على أعدائها بحق. يقول الله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾، والعادي اسم فاعل من العدو، وهو سرعة المشي والانطلاق، وقوله تعالى: ﴿ضَبْحًا﴾، الضبح ما يسمع من أجواف الخيل حين تعدو بسرعة، يكون لها صوت يخرج من صدورها، وهذا يدل على قوة سعيها وشدته. قوله تعالى: ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾، الموريات من أورى أو وري بمعنى قدح، ويعني بذلك: قدح النار حينما

يضرب الأحجار بعضها بعضًا، كما هو مشهور عندنا في حجر المرو، فإنك إذا ضربت بعضه ببعض انقدح، هذه الخيل لقوة سعيها وشدته، وضربها الأرض، فإذا ضربت الحجر ضرب الحجر الحجر الثاني ثم يقدح نارًا، وذلك؛ لقوتها وقوة سعيها وضربها الأرض. قوله تعالى: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾، أي: التي تغير على عدوها في الصباح، وهذا أحسن ما يكون في الإغارة على العدو أن يكون في الصباح؛ لأنه في غفلة ونوم، وحتى لو استيقظ من الغارة فسوف يكون على كسل وعلى إعياء، فاختار الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ للقسم بهذه الخيول أحسن وقت للإغارة، وهو الصباح، وكان النبي ﷺ لا يغير على قوم في الليل، بل ينتظر فإذا أصبح إن سمع أذان كف وإلا أغار. قوله تعالى: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ﴾ أي: أثرن بهذا العدو، وهذه الإغارة ﴿نَقْعًا﴾ وهو الغبار الذي يثور من شدة السعي، فإن الخيل إذا سعت إذا اشتد عدوها في الأرض، صار لها غبار من الكر والفر، ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ﴾، أي: توسطن بهذا الغبار ﴿جَمْعًا﴾، أي: جموعًا من الأعداء أي: أنها ليس لها غاية، ولا تنتهي غايتها إلا وسط الأعداء، وهذه غاية ما يكون من منافع الخيل، مع أن الخيل كلها خير، كما قال النبي ﷺ: «الخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الخَيْرُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»(١). أقسم الله تعالى بهذه العاديات ـ بهذه الخيل التي بلغت الغاية ـ وهو الإغارة على العدو وتوسط العدو، من غير خوف، ولا تعب، ولا ملل. أما المقسم عليه فهو الإنسان فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾، والمراد بالإنسان هنا الجنس، أي: أن جنس الإنسان، فإذا لم يوفق للهداية، فإنه ﴿لَكَنُودٌ﴾، أي: كفور لنعمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]. وقيل: المراد بالإنسان هو الكافر، فعلى هذا يكون عامًّا أريد به الخاص، والأظهر أن المراد به العموم، وأن جنس الإنسان لولا هداية الله لكان كنودًا لربه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ والكنود هو الكفر، أي: كافر لنعمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يرزقه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فيزداد بهذا الرزق عتوًا ونفورًا، فإن من الناس من يطغى إذا رآه قد استغنى عن الله، وما أكثر ما أفسد الغنى من بني آدم فهو كفور بنعمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يجحد نعمة الله، ولا يقوم بشكرها، ولا يقوم بطاعة الله؛ لأنه كنود لنعمة الله.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾، ﴿وَإِنَّهُۥ﴾، الضمير قيل: يعود على الله، أي: أن الله تعالى يشهد على العبد بأنه كفور لنعمة الله.

وقيل: إنه عائد على الإنسان نفسه، أي: أن الإنسان يشهد على نفسه بكفر نعمة الله عز وجل.

والصواب أن الآية شاملة لهذا وهذا، فالله شهيد على ما في قلب ابن آدم، وشهيد على عمله، والإنسان أيضًا شهيد على نفسه، لكن قد يقر بهذه الشهادة في الدنيا، وقد لا يقر بها فيشهد على نفسه يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور:

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٨٥٠)، ومسلم (١٨٧٣).

٢٤]. قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾، أي: الإنسان ﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾، الخير هو المال، كما قال الله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة: ١٨٠]. أي: إن ترك مالًا كثيرًا. فالخير هو المال، والإنسان حبه للمال أمر ظاهر، قال الله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، ولا تكاد تجد أحدًا يسلم من الحب الشديد للمال، أما مطلق الحب فهذا ثابت لكل أحد، ما من إنسان إلا ويحب المال، لكن الشدة ليست لكل أحد، بعض الناس يحب المال الذي تقوم به الكفاية، ويستغني به عن عباد الله، وبعض الناس يريد أكثر، وبعض الناس يريد أوسع وأوسع. فالمهم أن كل إنسان، فإنه محب للخير أي: للمال، لكن الشدة تختلف، ويختلف فيها الناس من شخص لآخر، ثم إن الله تعالى ذكّر الإنسان حالًا لابد له منها فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾، فيعمل لذلك، ولا يكن همه المال ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾، أي: يتيقن. قوله تعالى: ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾، أي: نشر وأظهر، فإن الناس يخرجون من قبورهم لرب العالمين، كأنهم جراد منتشر، يخرجون جميعًا بصيحة واحدة ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]. قوله تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي: ما في القلوب من النيات، وأعمال القلب كالتوكل، والرغبة، والرهبة، والخوف، والرجاء وما أشبه ذلك. وهنا جعل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ العمدة ما في الصدور، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ٩، ١٠]؛ لأنه في الدنيا يعامل الناس معاملة الظاهر، حتى المنافق يعامل، كما يعامل المسلم حقًّا، لكن في الآخرة العمل على ما في القلب، ولهذا يجب علينا أن نعتني بقلوبنا قبل كل شيء قبل الأعمال؛ لأن القلب هو الذي عليه المدار، وهو الذي سيكون الجزاء عليه يوم القيامة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾، ومناسبة الآيتين بعضهما لبعض أن بعثرة ما في القبور إخراج للأجساد من بواطن الأرض، وتحصيل ما في الصدور إخراج لما في الصدور، مما تكنه الصدور، فالبعثرة بعثرة ما في القبور عما تكنه الأرض، وهنا عما يكنه الصدر، والتناسب بينهما ظاهر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾ أي: إن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بهم أي: بالعباد لخبير، وجاء التعبير ﴿بِهِمْ﴾، ولم يقل (به) مع أن الإنسان مفرد، باعتبار المعنى، أي: أنه أعاد الضمير على الإنسان باعتبار المعنى؛ لأن معنى ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: أن كل إنسان، وعلق العلم بذلك اليوم ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾؛ لأنه يوم الجزاء والحساب، وإلا، فإن الله تعالى عليم خبير في ذلك اليوم وفيما قبله، فهو جل وعلا عالم بما كان، وما يكون لو كان كيف يكون.

هذا هو التفسير اليسير لهذه السورة العظيمة، ومن أراد البسط فعليه بكتب التفاسير التي تبسط القول في هذا، ونحن إنما نشير إلى المعاني إشارة موجزة. نسأل الله تعالى الهداية والتوفيق، وأن يجعلنا ممن يتلون كتاب الله حق تلاوته، إنه على كل شيء قدير.



تفسير سورة القارعة

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿الْقَارِعَةُ ۝١ مَا الْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ
النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ
الْمَنْفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ
رَاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَا
أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة:١-١١].

❁ التفسير ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ﴾ اسم فاعل من قرع، والمراد: التي تقرع القلوب وتفزعها وذلك عند النفخ في الصور، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]. فهي تقرع القلوب بعد قرع الأسماع، وهذه القارعة هي قارعة عظيمة لا نظير لها قبل ذلك، وهي من أسماء يوم القيامة، كما تسمى الغاشية، والحاقة، وقوله تعالى: ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾، ﴿مَا﴾، هنا استفهام بمعنى التعظيم والتفخيم يعني: ما هي القارعة التي ينوه عنها؟ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ هذا زيادة في التفخيم والتعظيم والتهويل، يعني أي: شيء أعلمك عن هذه القارعة؟ أي: ما أعظمها وما أشدها، ثم بين متى تكون؟ فقال جل وعلا: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ أي: أنها تكون في ذلك الوقت، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث حين يخرجون من قبورهم. قال العلماء: يكونون كالفراش المبثوث، والفراش هو هذه الطيور الصغيرة التي تتزاحم عند وجود النار في الليل وهي ضعيفة وتكاد

تمشي بدون هدي، وتتراكم وربما لطيشها تقع في النار وهي لا تدري، فهم يشبهون الفراش في ضعفه وحيرته وتراكمه وسيره إلى غير هدى. و﴿ٱلْمَبْثُوثِ﴾، يعني: المنتشر، فهو كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧]. لو تصورت، هذا المشهد يخرج الناس من قبورهم على، هذا الوجه لتصورت أمرًا عظيمًا لا نظير له، هؤلاء العالم من آدم إلى أن تقوم الساعة كلهم يخرجون خروج رجل واحد في آن واحد من هذه القبور المبعثرة في مشارق الأرض ومغاربها، ومن غير القبور كالذي ألقي في لجة البحر، وأكلته الحيتان، أو في فلوات الأرض، وأكلته السباع، أو ما أشبه ذلك، كلهم سيخرجون مرة واحدة، يصولون ويجولون في هذه الأرض. أما الجبال وهي تلك الجبال العظيمة الراسية الصلبة فتكون ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾، ﴿كَٱلْعِهْنِ﴾، الصوف، وقيل: القطن. قوله تعالى: ﴿ٱلْمَنفُوشِ﴾، المبعثر أي: أن هذه الجبال بعد أن كانت صلبة قوية راسخة تكون مثل العهن الصوف، أو القطن المبعثر سواء نفشته بيدك أم بالمنداف، فإنه يكون خفيفًا يتطاير مع أدنى ريح، وقد قال الله - تعالى - في آيات أخرى أن الجبال تكون هباء منبثًا ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٥، ٦]. وقال جل وعلا هنا: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾، ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾، قسم الله تعالى الناس إلى قسمين:

القسم الأول: من ثقلت موازينه، وهو الذي رجحت حسناته على سيئاته. والثاني: من خفت موازينه، وهو الذي رجحت سيئاته على حسناته، أو الذي ليس له حسنة أصلًا كالكافر، يقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾، العيشة مأخوذة من العيش، وهو الحياة، يقال: عاش الرجل زمنًا طويلًا، أي: بقي وحيي زمنًا طويلًا، والعيشة هنا على وزن فعلة فهي هيئة وليست مصدرًا، المصدر الدال على الوحدة أن تقول عيشة، وأما إذا قلت عِيْشَة فهي فعلة تدل على الهيئة، كما قال ابن مالك رحمه الله:

وَفَعْلَةٌ لِمَرَّةٍ كَجَلْسَةِ ... وَفِعْلَةٌ لِهَيْئَةٍ كَجِلْسَةِ[1]

المعنى: أنه في حياة طيبة راضية. قوله تعالى: ﴿رَّاضِيَةٍ﴾، قيل: إنها اسم فاعل بمعنى اسم المفعول، أي: مرضية. وقيل: إنها اسم فاعل من باب النسبة أي: ذات رضى، وكلا المعنيين واحد، والمعنى: أنها عيشة طيبة ليس فيها نكد، وليس فيها صخب، وليس فيها نصب، كاملة من كل وجه، وهذا يعني: العيش في الجنة - جعلنا الله منهم - هذا العيش لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين، لا يحزنون، ولا يخافون، في أنعم عيش، وأطيب بال، وأسر حال فهي عيشة

---

(١) ألفية ابن مالك: البيت رقم: ٤٥٥.

راضية. وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، إما أنه الكافر الذي ليس له أي حسنة؛ لأن حسنات الكافر يجازى بها في الدنيا، ولا تنفعه في الآخرة، أو أنه مسلم، ولكنه مسرف على نفسه وسيئاته أكثر. قوله تعالى: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ أم هنا بمعنى مقصوده، أي: الذي يقصده الهاوية، والهاوية من أسماء النار، يعني: أنه مآله إلى نار جهنم ـ والعياذ بالله ـ.

وقيل: إن المراد بالأم هنا: أم الدماغ، والمعنى: أنه يلقى في النار على أم رأسه ـ نسأل الله السلامة ـ وإذا كانت الآية تحتمل معنيين لا يترجح أحدهما على الآخر، ولا يتنافيان، فإنه يؤخذ بالمعنيين جميعًا فيقال: يرمى في النار على أم رأسه، وأيضًا ليس له مأوى، ولا مقصد إلا النار. قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾، هذا من باب التفخيم والتعظيم لهذه الهوية، يسأل ما هي؟ أتدري ما هي؟ إنها لشيء عظيم، إنها نار حامية في غاية ما يكون من الحمو، وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَى نَارِ الدُّنْيَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا»[1]. فإذا تأملت نار الدنيا كلها سواء نار الحطب، أم الورق، أم البتغاز أم أشد من ذلك، فإن نار جهنم مفضلة عليها بتسعة وستين جزءًا نسأل الله العافية. وفي هذه الآية التخويف والتحذير من هذا اليوم وأن الناس لا يخرجون عن حالين:

إما رجل رجحت حسناته، أو رجل رجحت سيئاته. وفيها أيضًا دليل على أن يوم القيامة فيه موازين، وقد جاء في بعض النصوص أنه ميزان فهل هو واحد أو متعدد؟

قال بعض أهل العلم: إنه واحد، وإنما جمع باعتبار الموزون؛ لأنه يوزن فيه الحسنات والسيئات، وتوزن فيه حسنات فلان وفلان، وتوزن فيه حسنات هذه الأمة والأمة الأخرى، فهو مجموع باعتبار الموزون لا باعتبار الميزان، وإلا فالميزان واحد.

وقال بعض أهل العلم: إنها موازين متعددة، لكل أمة ميزان، ولكل عمل ميزان؛ فلهذا جمعت.

والأظهر ـ والله أعلم ـ: أنه ميزان واحد ـ لكنه جمع باعتبار الموزون على حسب الأعمال، أو على حسب الأمم، أو على حسب الأفراد.

وفي هذه الآية دليل على: أن الإنسان إذا تساوت حسناته وسيئاته، فإنه قد سكت عنه في هذه الآية، ولكن بين الله تعالى في سورة الأعراف أنهم لا يدخلون النار، وإنما يحبسون في مكان يقال له الأعراف، وذكر الله تعالى في سورة الأعراف ما يجري بينهم وبين المؤمنين، وأنهم إذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين. نسأل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن يجعلنا ممن رجحت حسناته على سيئاته، وأن يغفر لنا، ويعاملنا بعفوه، إنه على كل شيء قدير.



---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تفسير سورة التكاثر

قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ١: ٨].

التفسير

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ هذه الجملة جملة خبرية يخبر الله - عَزَّ وَجَلَّ - بها العباد مخاطبًا لهم يقول: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ومعنى ﴿أَلْهَاكُمُ﴾ أي: شغلكم حتى لهوتم عَمَّا هو أهم من ذكر الله تعالى والقيام بطاعته، والخطاب هنا لجميع الأمة إلا أنه يخصص بمن شغلتهم أمور الآخرة عن أمور الدنيا وهم قليل، وإنما نقول هم قليل؛ لأنه ثبت في الصحيحين أن الله تبارك وتعالى يقول يوم القيامة: «يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ»[1]، واحد في الجنة والباقي في النار، وهذا عدد هائل! إذا لم يكن من بني آدم إلا واحدًا من الألف من أهل الجنة والباقون من أهل النار، إذن فالخطاب بالعموم في مثل هذه الآية جار على أصله؛ لأن الواحد من الألف ليس بشيء بالنسبة إليه، وأما قوله تعالى: ﴿التَّكَاثُرُ﴾، فهو يشمل التكاثر بالمال، والتكاثر بالقبيلة، والتكاثر بالجاه، والتكاثر بالعلم، وبكل ما يمكن أن يقع

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٤٨) وفي عير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٢٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

فيه التفاخر، ويدل لذلك قول صاحب الجنة لصاحبه: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤]. فالإنسان قد يتكاثر بماله فيطلب أن يكون أكثر من الآخر مالًا وأوسع تجارة، وقد يتكاثر الإنسان بقبيلته، يقول نحن أكثر منهم عددًا، كما قال الشاعر:

وَلَسْتُ بِالأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصًى وَإِنَّمَا العِزَّةُ لِلْكَاثِرِ

أكثر منهم حصى؛ لأنهم كانوا فيما سبق يعدون الأشياء بالحصى. فمثلًا: إذا كان هؤلاء حصاهم عشرة آلاف، والاخرون حصاهم ثمانية آلاف صار الأول أكثر وأعز، فيقول الشاعر:

لست بالأكثر منهم حصى، وإنما العزةُ للكاثر كذلك يتكاثر الإنسان بالعلم، فتجده يكاثر على غيره بالعلم لكن إن كان بالعلم الشرعي فهو خير، وإن كان بالعلم غير الشرعي فهو إما مباح وإما محرم. وهذا هو الغالب على بني آدم التكاثر. فيتكاثرون في هذه الأمور عما خلقوا له من عبادة الله عز وجل. وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ يعني: إلى أن زرتم المقابر، يعني: إلى أن مُتم، فالإنسان مجبول على التكاثر إلى أن يموت، بل كلما ازداد به الكِبر ازداد به الأمل، فهو يشيب في السن ويشب في الأمل، حتى إن الرجل له تسعون سنة مثلًا تجد عنده من الامال وطول الأمل ما ليس عند الشاب الذي له خمس عشرة سنة، هذا هو معنى الآية الكريمة. أي: أنكم تلهوتم بالتكاثر عن الآخرة إلى أن متم.

وقيل: إن معنى ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ حتى أصبحتم تتكاثرون بالأموات، كما تتكاثرون بالأحياء، فيأتي الإنسان فيقول: أنا قبيلتي أكثر من قبيلتك وإذا شئت فاذهب إلى القبور عد القبور منا، وعد القبور منكم؛ فأينا أكثر؟ لكن، هذا قول ضعيف بعيد من سياق الآية. والمعنى الأول هو الصحيح أنكم تتكاثرون إلى أن تموتوا، وقوله: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ استدل به عمر بن عبدالعزيز - رحمه الله - على أن الزائر لابد أن يرجع إلى وطنه، وأن القبور ليست بدار إقامة، وكذلك يذكر عن بعض الأعراب أنه سمع قارىء يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾، فقال: (والله ما الزائر بمقيم والله لنبعثن)؛ لأن الزائر، كما هو معروف يزور ويرجع، فقال: والله لنبعثن. وهذا هو الحق؛ وبهذا نعرف أن ما يذكره بعض الناس الآن في الجرائد وغيرها. يقول عن الرجل إذا مات: «إنه انتقل إلى مثواه الأخير»، إن هذا كلام باطل وكذب؛ لأن القبور ليس هي المثوى الخير، بل لو أن الإنسان اعتقد مدلول، هذا اللفظ لصار كافرًا بالبعث، والكفر بالبعث ردة عن الإسلام، لكن كثيرًا من الناس يأخذون الكلمات، ولا يدرون ما معناها، ولعل هذه موروثة عن الملحدين الذين لا يقرون بالبعث بعد الموت؛ لهذا يجب تجنب هذه العبارة، فلا يقال عن القبر إنه المثوى الأخير؛ لأن المثوى الأخير إما الجنة، وإما النار في يوم القيامة. ثم قال الله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، قيل: إن ﴿كَلَّا﴾، بمعنى الردع يعني: ارتدعوا عن، هذا التكاثر، وقيل: إنها بمعنى حقًا، ومعنى ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، أي: سوف تعلمون

عاقبة أمركم إذا رجعتم إلى الآخرة، وأن، هذا التكاثر لا ينفعكم. وقد جاء في الحديث عن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - فيما رواه مسلم «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي وَمَالِي - يعني: يفتخر به - وَلَيْسَ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ»(١)، والباقي تاركه لغيرك وهذا هو الحق، أموالنا التي بين أيدينا، إما أن نأكلها فتفنى، وإما أن نلبسها فتبلى، وإما أن نتصدق بها فنمضيها وتكون أمامنا يوم القيامة. وإما أن نتركها لغيرنا لا يمكن أن يخرج المال الذي بأيدينا عن هذه القسمة الرباعية. قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، أي: سوف تعلمون عاقبة أمركم بالتكاثر الذي ألهاكم عن الآخرة ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، وهذه الجملة تأكيد للردع مرة ثانية.

ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾، يعني: حقًّا لو تعلمون علم اليقين لعرفتم أنكم في ضلال، ولكنكم لا تعلمون علم اليقين؛ لأنكم غافلون لاهون في هذه الدنيا،ولو علمتم علم اليقين لعرفتم أنكم في ضلال وفي خطأ عظيم. ثم قال تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾، ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ هذه الجملة مستقلة ليست جواب «لو» ولهذا يجب على القارىء أن يقف عند قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾، ونحن نسمع كثيرًا من الأئمة يصلون فيقولون ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾، وهذا الوصل إما غفلة منهم ونسيان، وإما أنهم لم يتأملواالآية حق التأمل، وإلا لو تأملوها حق التأمل لوجدوا أن الوصل يفسد المعنى؛ لأنه إذا قال «كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم» صار رؤية الجحيم مشروطة بعلمهم، وهذا ليس بصحيح، لذلك يجب التنبه والتنبيه لهذا من سمع أحدًا يقرأ «كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم» ينبه ويقول له: يا أخي هذا الوصل يوهم فساد المعنى، فلا تَصِلْ وَقِفْ، أولًا:؛ لأنها رأس آية، والمشروع أن يقف الإنسان عند رأس كل آية، وثانيًا: أن الوصل يفسد المعنى «كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم»؛ إذنْ ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾، جملة مستأنفة لا صلة لها بما قبلها، وهي جملة قسمية، فيها قسم مقدر والتقدير: والله لترون الجحيم، ولهذا يقول المعربون في إعرابها: إن اللام موطئة للقسم، وجملة: «ترون» هي جواب القسم، والقسم محذوف والتقدير «والله لترون الجحيم» و﴿الْجَحِيمَ﴾ اسم من أسماء النار ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾، تأكيد لرؤيتها، ومتى ترى؟ تُرى يوم القيامة، يؤتى بها تُجر بسبعين ألف زمام، كل زمام يجره سبعون ألف ملك، فما ظنك بهذه النار - والعياذ بالله - إنها نار كبيرة عظيمة؛ لأن فيها سبعين ألف زمام، كل زمام يجره سبعون ألف ملك، والملائكة عظام شداد فهي نار عظيمة - أعاذنا الله منها -.

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾، يعني: ثم في ذلك الوقت في ذلك الموقف

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٥٨)، والترمذي (٢٣٤٢)، والنسائي (٣٦١٣).

العظيم تسألن عن النعيم، واختلف العلماء رحمهم الله في قوله تعالى: ﴿لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾، هل المراد الكافر، أو المراد المؤمن والكافر؟

والصواب: أن المراد المؤمن والكافر كل يسأل عن النعيم، لكن الكافر يسأل سؤال توبيخ وتقريع، والمؤمن يسأل سؤال تذكير، والدليل على أنه عام ما جرى في قصة النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، وأبي بكر وعمر، فعن أبي هريرة قال: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ فَإِذَا هُوَ بِأَبِى بَكْرٍ وَعُمَرَ فَقَالَ « مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟». قَالاَ الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ « وَأَنَا وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لأَخْرَجَنِى الَّذِى أَخْرَجَكُمَا قُومُوا»، فَقَامُوا مَعَهُ فَأَتَى رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِى بَيْتِهِ فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ قَالَتْ مَرْحَباً وَأَهْلاً. فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم « أَيْنَ فُلاَنٌ ». قَالَتْ ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مِنَ الْمَاءِ. إِذْ جَاءَ الأَنْصَارِىُّ فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَصَاحِبَيْهِ ثُمَّ قَالَ الْحَمْدُ للهِ مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافاً مِنِّى - قَالَ - فَانْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ فَقَالَ كُلُوا مِنْ هَذِهِ، وَأَخَذَ الْمُدْيَةَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم « إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ»، فَذَبَحَ لَهُمْ فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِذْقِ وَشَرِبُوا فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَبِى بَكْرٍ وَعُمَرَ «وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الْجُوعُ ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ »[1]. وفي رواية أخرى: «هَذَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي تُسْأَلُونَ عَنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، ظِلٌّ بَارِدٌ، وَرُطَبٌ طَيِّبٌ، وَمَاءٌ بَارِدٌ»[2]. وهذا دليل على أن الذي يُسأل المؤمن والكافر، ولكن يختلف السؤال، سؤال المؤمن سؤال تذكير بنعمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عليه حتى يفرح، ويعلم أن الذي أنعم عليه في الدنيا ينعم عليه في الآخرة، بمعنى أنه إذا تكرم بنعمته عليه في الدنيا تكرم عليه بنعمته في الآخرة، أما الكافر فإنه سؤال توبيخ وتنديم. نسأل الله تعالى أن يستعملنا في طاعته، وأن يجعل ما رزقنا عونًا على طاعته، إنه على كل شيء قدير.



١ ـ صحيح: أخرجه مسلم (٥٤٣٤).

(٢) انظر ما قبله

تفسير سورة العصر

قال الله تعالى:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ١-٣].

التفسير

البسملة تقدم الكلام عليها.

يقول الله عز وجل: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾، أقسم الله تعالى بالعصر، والعصر قيل: إن المراد به آخر النهار؛ لأن آخر النهار أفضله، وصلاة العصر تسمى الصلاة الوسطى، أي: الفضلى، كما سماها النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ بذلك.

وقيل: إن العصر هو الزمان، وهذا هو الأصح وأقسم الله به لما يقع فيه من اختلاف الأحوال، وتقلبات الأمور، ومداولة الأيام بين الناس وغير ذلك مما هو مشاهد في الحاضر، ومتحدث عنه في الغائب، فالعصر هو الزمان الذي يعيشه الخلق، وتختلف أوقاته شدة ورخاء، وحربًا وسلمًا، وصحة ومرضًا، وعملًا صالحًا وعملًا سيئًا إلى غير ذلك مما هو معلوم للجميع، ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾، والإنسان هنا عام؛ لأن المراد به الجنس، وعلامة الإنسان الذي يراد به العموم أن يحل محل «أل» كلمة «كل» فهنا لو قيل: كل إنسان في خسر لكان، هذا هو المعنى. ومعنى الآية الكريمة أن الله أقسم قسمًا على حال الإنسان أنه في خسر أي: في خسران ونقصان في كل أحواله، في الدنيا وفي الآخرة إلا من استثنى الله ـ عز وجل ـ. وهذه الجملة مؤكدة بثلاث مؤكدات، الأول: القسم، والثاني: (إنّ) والثالث: (اللام) وأتى بقوله تعالى: ﴿لَفِي خُسۡرٍ﴾؛ ليكون أبلغ من قوله: (لخاسر) وذلك أن «في» للظرفية فكأن الإنسان منغمس في الخسر، والخسران محيط به من كل جانب. قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾، استثنى الله ـ سبحانه وتعالى ـ هؤلاء المتصفين بهذه الصفات الأربع:

الصفة الأولى: الإيمان الذي لا يخالجه شك، ولا تردد بما بينه الرسول ﷺ حين سأله جبريل عن الإيمان قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِالله، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١)، وشرح هذا الحديث يطول وتكلمنا عليه في مواطن كثيرة، فالذين آمنوا بهذه الأصول الستة هم المؤمنون، ولكن يجب أن يكون إيمانًا لا شك معه، ولا تردد، بمعنى: أنك تؤمن بهذه الأشياء وكأنك تراها رأي: العين. والناس في، هذا المقام ثلاثة أقسام: القسم الأول: مؤمن خالص الإيمان إيمانًا لا شك فيه، ولا تردد. والقسم الثاني: كافر جاحد منكر. والقسم الثالث: متردد. والناجي من هؤلاء القسم الأول الذي يؤمن إيمانًا لا تردد فيه، يؤمن بوجود الله، وربوبيته، وألوهيته، وبأسمائه وصفاته ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ويؤمن بالملائكة وهم عالم غيبي خلقهم الله تعالى من نور، وكلفهم بأعمال منها ما هو معلوم، ومنها ما ليس بمعلوم، فجبريل عليه السلام مكلف بالوحي ينزل به من عند الله إلى الأنبياء والرسل، وميكائيل مكلف بالقطر والنبات يعني: وكله الله على المطر وكل ما يتعلق بالمطر وعلى النبات. وإسرافيل موكل بالنفخ بالصور، ومالك: موكل بالنار، ورضوان موكل بالجنة، ومن الملائكة من لا نعلم أسماءهم، ولا نعلم أعمالهم أيضًا، لكن جاء في الحديث عن النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ «أَنَّهُ مَا مِنْ مَوْضِعِ أَرْبَعِ أَصَابِعَ فِي السَّمَاءِ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ لله أَوْ رَاكِعٌ، أَوْ سَاجِدٌ»(٢)، كذلك نؤمن بالكتب التي أنزلها الله على الرسل عليهم الصلاة والسلام، ونؤمن بالرسل الذين قصهم الله علينا، نؤمن بهم بأعيانهم، والذين لم يقصصهم علينا نؤمن بهم إجمالًا؛ لأن الله لم يقص علينا جميع أنباء الرسل، قال الله تعالى: ﴿مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]. واليوم الآخر هو يوم البعث يوم يخرج الناس من قبورهم للجزاء حفاة عراة غرلًا بُهمًا، فالحفاة يعني: الذين ليس عليهم نعال، ولا خفاف أي: أقدامهم عارية، والعراة: الذين ليس عليهم ثياب، والغرل: الذين لم يُختنوا. والبهم: الذين ليس معهم مال يحشرون كذلك، ولما حدث النبي ﷺ بأنهم عراة قالت عائشة: يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «الأَمْرُ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ»(٣) أي: من أن ينظر بعضهم إلى بعض؛ لأن الناس كل مشغول بنفسه، قال شيخ الإسلام رحمه الله: ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما أخبر به النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ مما يكون بعد الموت، فيجب أن تؤمن بفتنة القبر أي: بالاختبار الذي يكون للميت إذا دفن وتولى عنه أصحابه، فإنه يأتيه ملكان يسألانه عن ربه، ودينه، ونبيه، وتؤمن كذلك بأن القبر إما روضة من رياض الجنة،

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ١٧٣)، والترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٧٢٢).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩).

وإما حفرة من حفر النار. أي: أن فيه العذاب أو الثواب، وتؤمن كذلك بالجنة والنار وكل ما يتعلق باليوم الآخر، فإنه داخل في قوله: «أن تؤمن بالله واليوم الآخر» والقدر: تقدير الله - عَزَّ وَجَلَّ - يعني: يجب أن تؤمن بأن الله تعالى قدر كل شيء وذلك أن الله خلق القلم فقال له: اكتب. قال: وماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة. فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة. إذن فالإيمان في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، يشمل الإيمان بالأصول الستة التي بينها الرسول ﷺ أما قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فمعناه: أنهم قاموا بالأعمال الصالحة: من صلاة، وزكاة، وصيام، وحج، وبر للوالدين، وصلة الأرحام وغير ذلك فلم يقتصروا على مجرد ما في القلب، بل عملوا وأنتجوا و﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هي التي اشتملت على شيئين:

الأول: الإخلاص لله - عز وجل - **والثاني**: المتابعة للرسول ﷺ.

وذلك أن العمل إذا لم يكن خالصًا لله فهو مردود. قال الله - تبارك وتعالى - في الحديث القدسي الذي يرويه النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - قال الله: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١). فلو قمت تصلي مراءاة للناس، أو تصدقت مراءاة للناس، أو طلبت العلم مراءاة للناس، أو وصلت الرحم مراءاة للناس أو غير ذلك فالعمل مردود حتى وإن كان صالحًا في ظاهره، كذلك الاتباع لو أنك عملت عملًا لم يعمله الرسول ﷺ وتقربت به إلى الله مع الإخلاص لله، فإنه لا يقبل منك؛ لأن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(٢)؛ إذن العمل الصالح ما جمع وصفين: الأول: الإخلاص لله عز وجل. والثاني: المتابعة للرسول - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: صار بعضهم يوصي بعضًا بالحق. والحق: هو الشرع. يعني: كل واحد منهم يوصي الآخر إذا رآه مفرطًا في واجب. أوصاه وقال: يا أخي قم بالواجب، فإذا رآه فاعلًا لمحرم أوصاه قال: يا أخي اجتنب الحرام، فهم لم يقتصروا على نفع أنفسهم، بل نفعوا أنفسهم وغيرهم، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ أي: يوصي بعضهم بعضًا بالصبر، والصبر حبس النفس عما لا ينبغي فعله، وقسمه أهل العلم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: صبر على طاعة الله، القسم الثاني: صبر عن محارم الله، القسم الثالث: صبر على أقدار الله.

الصبر على الطاعة، كثير من الناس يكون فيه كسل عن الصلاة مع الجماعة مثلًا: لا يذهب إلى المسجد يقول: أصلي في البيت وأديت الواجب فيكسل فقال له: يا أخي اصبر نفسك، احبسها كلفها على أن تصلي مع الجماعة. كثير من الناس إذا رأى زكاة ماله كثيرة شح وبخل وصار يتردد.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٨٥)، و أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠١)، وابن ماجه (٤٢٠٢).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

اخرج، هذا المال الكثير، أو اتركه وما أشبه ذلك. فقال له: يا أخي اصبر نفسك على أداء الزكاة، وهكذا بقية العبادات، فإن العبادات، كما قال الله تعالى في الصلاة: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، أكثر عباد الله تجد أن العبادات عليهم ثقيلة، فهم يتواصون بالصبر على الطاعة، كذلك الصبر عن المعصية بعض الناس مثلًا تجره نفسه إلى أكساب محرمة إما بالربا، وإما بالغش، وإما بالتدليس أو بغير ذلك من أنواع الحرام فيقال له: اصبر يا أخي اصبر نفسك لا تتعامل على وجه محرم، بعض الناس أيضًا يبتلى بالنظر إلى النساء تجده ماشيًا في السوق وكل ما مرت امرأة أتبعها بصره فيقال له: يا أخي اصبر نفسك عن هذا الشيء، ويتواصون على أقدار الله، يصاب الإنسان بمرض في بدنه، يصاب الإنسان بفقد شيء من ماله، يصاب الإنسان بفقد أحبته فيجزع ويتسخط ويتألم فيتواصون فيما بينهم، اصبر يا أخي، هذا أمر مقدر والجزع لا يفيد شيئًا، واستمرار الحزن لا يرفع الحزن، إنسان امتحن بموت ابنه نقول: يا أخي اصبر، قدر أن، هذا الابن لم يُخلق، ثم كما قال الرسول ﷺ لإحدى بناته: «إِنَّ للهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَمُرْهَا فَلْتَصْبِرِ وَلْتَحْتَسِبْ»(١). الأمر كله لله، فإذا أخذ الله تعالى ملكه كيف تعتب على ربك؟ كيف تتسخط، فإن قيل: أي: أنواع الصبر أشق على النفوس؟

فالجواب: هذا يختلف، فبعض الناس يشق عليه القيام بالطاعة وتكون ثقيلة عليه جدًا، وبعض الناس بالعكس الطاعة هينة عليه، لكن ترك المعصية صعب، شاق مشقة كبيرة، وبعض الناس يسهل عليه الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، لكن لا يتحمل الصبر على المصائب بل يعجز حتى إنه قد تصل به الحال إلى أن يرتد - والعياذ بالله - كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]؛ إذن نأخذ من هذه السورة أن الله - سبحانه وتعالى - أكد بالقسم المؤكد بإن، واللام أن جميع بني آدم في خسر، والخسر محيط بهم من كل جانب، إلا من اتصف بهذه الصفات الأربع: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

قال الإمام الشافعي - رحمه الله -: (لو لم ينزل الله على عباده حجة إلا هذه السورة لكفتهم). يعني: كفتهم موعظة وحثًا على التمسك بالإيمان والعمل الصالح، والدعوة إلى الله، والصبر على ذلك. وليس مراده أن هذه السورة كافية للخلق في جميع الشريعة، لكن كفتهم موعظة، فكل إنسان عاقل يعرف أنه في خُسر إلا إذا اتصف بهذه الصفات الأربع، فإنه سوف يحاول بقدر ما يستطيع أن يتصف بهذه الصفات الأربع، وإلى تخليص نفسه من الخسران. نسأل الله أن يجعلنا من الرابحين الموفقين، إنه على كل شيء قدير.



(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٣٧٧)، ومسلم (٩٢٣).

تفسير سورة الهمزة

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ [الهمزة:١-٩].

❁ التفسير ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾، في هذه السورة يبتدىء الله ـ سبحانه وتعالى ـ بكلمة ﴿وَيْلٌ﴾، وهي كلمة وعيد، أي: أنها تدل على ثبوت الوعيد لمن اتصف بهذه الصفات، وقوله: ﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾، إلى آخره، وقيل: إن ﴿وَيْلٌ﴾، اسم لوادٍ في جهنم، ولكن الأول أصح. قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾، كل من صيغ العموم، والهمزة واللمزة وصفان لموصوف واحد، فهل هما بمعنى واحد؟ أو يختلفان في المعنى؟

قال بعض العلماء: إنهما لفظان لمعنى واحد، يعني: أن الهمزة هو اللمزة. وقال بعضهم:، بل لكل واحد منهما معنى غير المعنى الآخر.

وثَمَّ قاعدة أحب أن أنبه عليها في التفسير وغير التفسير وهي: أنه إذا دار الأمر بين أن تكون الكلمة مع الأخرى بمعنى واحد، أو لكل كلمة معنى، فإننا نجعل لكل واحدة معنى؛ لأننا إذا جعلنا الكلمتين بمعنى واحد صار في هذا تكرار لا داعي له، لكن إذا جعلنا كل واحدة لها معنى صار هذا تأسيسًا وتفريقًا بين الكلمتين، والصحيح في هذه الآية ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾، أن بينهما فرقًا فالهمزة: بالفعل. واللمز: باللسان، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨]. فالهمز بالفعل يعني: أنه

يسخر من الناس بفعله إما أن يلوي وجهه، أو يعبس بوجهه. أو ما أشبه ذلك، أو بالإشارة يشير إلى شخص، انظروا إليه ليعيبه أو ما أشبه ذلك، فالهمز يكون بالفعل، واللمز باللسان، وبعض الناس ـ والعياذ بالله ـ مشغوف بعيب البشر إما بفعله، وهو الهمّاز، وإما بقوله، وهو اللمّاز، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١٠، ١١].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾، هذه أيضًا من أوصافه القبيحة جماع مناع، يجمع المال، ويمنع العطاء، فهو بخيل لا يعطي يجمع المال ويعدده، وقوله: ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ وقيل: معنى التعديد يعني: الإحصاء يعني: لشغفه بالمال كل مرة يذهب إلى الصندوق ويعد، يعد الدراهم في الصندوق في الصباح، وفي آخر النهار يعدها، وهو يعرف أنه لم يأخذ منه شيئًا ولم يضف إليه شيئًا لكن لشدة شغفه بالمال يتردد عليه ويعدده، ولهذا جاءت بصيغة المبالغة ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ يعني: أكثر تعداده لشدة شغفه ومحبته له يخشى أن يكون نقص، أو يريد أن يطمئن زيادة على ما سبق فهو دائمًا يعدد المال.

وقيل: معنى ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ أي: جعله عُدة له يعني: ادخره لنوائب الدهر، وهذا، وإن كان اللفظ يحتمله لكنه بعيد؛ لأن إعداد المال لنوائب الدهر مع القيام بالواجب بأداء ما يجب فيه من زكاة وحقوق ليس مذمومًا، وإنما المذموم أن يكون أكبر همِّ الإنسان هو المال، يتردد إليه ويعدده، وينظر هل زاد، هل نقص؟ فالقول بأن المراد عدده أي: جمعه للمستقبل قول ضعيف.

قال الله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾، يعني: يظن هذا الرجل أن ماله سيخلده ويبقيه، إما بجسمه وإما بذكره؛ لأن عمر الإنسان ليس ما بقي في الدنيا، بل عمر الإنسان حقيقة ما يخلده بعد موته، ويكون ذكراه في قلوب الناس وعلى ألسنتهم، فيقول في هذه الآية: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾، أي: أخلد ذكره أو أطال عمره، والأمر ليس كذلك، فإن أهل الأموال إذا لم يُعرفوا بالبذل والكرم، فإنهم يخلدون لكن بالذكر السيىء. فيقال: أبخل من فلان، وأبخل من فلان ويذكر في المجالس ويعاب، ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾، ﴿كَلَّا﴾، هنا يسميها العلماء حرف ردع أي: تردع، هذا القائل أو، هذا الحاسب عن قوله أو عن حسبانه. ويحتمل أن تكون بمعنى حقًا «يعني: حقًا لينبذن» وكلاهما صحيح، هذا الرجل لن يخلده ماله، ولن يخلد ذكراه، بل سينسى ويطوى ذكره، وربما يذكر بالسوء لعدم قيامه بما أوجب الله عليه من البذل.

قوله تعالى: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ اللام هذه واقعة في جواب القسم المقدر، والتقدير «والله؛ لينبذن في الحطمة» أي: يطرح طرحًا. وإذا قلنا: أن اللام لجواب القسم صارت هذه الجملة مؤكدة باللام، ونون التوكيد، والقسم المحذوف. ومثل هذا كثير في القرآن الكريم، أي: تأكيد الشيء باليمين، واللام، والنون. والله تعالى يقسم بالشيء تأكيدًا له وتعظيمًا لشأنه. وقوله تعالى: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾، ما الذي يُنبذ هل هو صاحب المال أو المال؟ كلاهما ينبذ، أما صاحب المال، فإن الله يقول في آية أخرى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣]. أي: يدفعون، وهنا يقول:

«ينبذ» أي: يطرح في الحطمة، والحطمة هي التي تحطم الشيء، أي: تفتته وتكسره فما هي؟ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ﴾ وهذه الصيغة للتعظيم والتفخيم ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ﴾ هذا الجواب أي: هي نار الله الموقدة، وأضافها الله - سبحانه وتعالى - إلى نفسه؛ لأنه يعذب بها من يستحق العذاب فهي عقوبة عدل وليست عقوبة ظلم. أي: نار يحرق الله بها من يستحق أن يُعذب بها، إذن هي نار عدل وليست نار ظلم؛ لأن الإحراق بالنار قد يكون ظلمًا وقد يكون عدلًا، فتعذيب الكافرين في النار لا شك أنه عدل، وأنه يُثنى به على الرب - عَزَّ وَجَلَّ -؛ حيث عامل هؤلاء بما يستحقون. وتأمل قوله تعالى: ﴿ٱلۡحُطَمَةُ﴾، مع فعل، هذا الفاعل ﴿هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾، حطمة، وهمزة لمزة، على وزن واحد؛ ليكون الجزاء مطابقًا للعمل حتى في اللفظ ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ﴾، أي: المسجّرة المسعرة. قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾، الأفئدة جمع فؤاد، وهو القلب. والمعنى: أنها تصل إلى القلوب - والعياذ بالله - من شدة حرارتها، مع أن القلوب مكنونة في الصدور وبينها وبين الجلد الظاهر ما بينها من الطبقات لكن مع ذلك تصل هذه النار إلى الأفئدة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم﴾ أي: الحطمة وهي نار الله الموقدة أي: على الهمّاز واللمّاز الجمّاع للمال المناع للخير، وأعاد الضمير، بلفظ الجمع مع أن المرجع مفرد باعتبار المعنى؛ لأن ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٖ﴾، عام يشمل جميع الهمّازين وجميع اللمّازين ﴿مُّؤۡصَدَةٞ﴾ أي: مغلقة، مغلقة الأبواب لا يُرجى لهم فرج - والعياذ بالله - ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠] يعني: يرفعون إلى أبوابها حتى يطمعوا في الخروج ثم بعد ذلك يركسون فيها ويعادون فيها، كل هذا لشدة التعذيب؛ لأن الإنسان إذا طمع في الفرج وأنه سوف ينجو ويخلص يفرح، فإذا أعيد صارت انتكاسة جديدة، فهكذا يعذبون بضمائرهم وأبدانهم، وعذاب أهل النار مذكور مفصل في القرآن الكريم والسنة النبوية. تأمل الآن لو أن إنسانًا كان في حجرة أو في سيارة اتقدت النيران فيها وليس له مهرب، الأبواب مغلقة ماذا يكون؟ في حسرة عظيمة لا يمكن أن يماثلها حسرة، فهم - والعياذ بالله - هكذا في النار، النار عليهم مؤصدة ﴿فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ﴾ أي: أن هذه النار مؤصدة، وعليها أعمدة ممدة أي: ممدودة على جميع النواحي والزوايا حتى لا يتمكن أحد من فتحها أو الخروج منها.

حكى الله - سبحانه وتعالى - ذلك علينا وبينه لنا في هذه السورة لا لمجرد أن نتلوه بألسنتنا، أو نعرف معناه بأفهامنا، لكن المراد أن نحذر من هذه الأوصاف الذميمة: عيب الناس بالقول، وعيب الناس بالفعل، والحرص على المال حتى كأن الإنسان إنما خلق للمال ليخلد له، أو يخلد المال له، ونعلم أن من كانت هذه حاله، فإن جزاءه هذه النار التي هي، كما وصفها الله الحطمة، تطلع على الأفئدة، مؤصدة، في عمد ممدة. نسأل الله تعالى أن يجيرنا منها، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل والاستقامة على دينه.



تفسير سورة الفيل

قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ١-٥].

التفسير

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾، يخاطب الله تعالى النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - أو يخاطب كل من يصح توجيه الخطاب إليه، فعلى الأول يكون خطاب النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - خطاب له وللأمة؛ لأن أمته تابعة له، وعلى الثاني يكون الخطاب عام له ولأمته، ابتداءً، وعلى كلٍّ: فإن الله تعالى يقرر ما فعل - سبحانه وتعالى - بأصحاب الفيل، وأصحاب الفيل هم أهل اليمن الذين جاءوا لهدم الكعبة بفيل عظيم أرسله إليهم ملك الحبشة، وسبب ذلك أن ملك اليمن أراد أن يصد الناس عن الحج إلى الكعبة، بيت الله - عَزَّ وَجَلَّ - فبنى بيتًا يشبه الكعبة، ودعا الناس إلى حجه؛ ليصدهم عن حج بيت الله فغضب لذلك العرب، وذهب رجل منهم إلى هذا البيت الذي جعله ملك اليمن بدلًا عن الكعبة وتغوَّط فيه، ولطخ جدرانه بالقذر، فغضب ملك اليمن غضبًا شديدًا، وأخبر ملك الحبشة بذلك؛ فأرسل إليه هذا الفيل العظيم قيل: وكان معه ستة فيلة لتساعده فجاء ملك اليمن بجنوده؛ ليهدم الكعبة على زعمه، ولكن الله سبحانه حافظ بيته، فلما وصلوا إلى مكان يسمى المغمَّس وقف الفيل وحرن، وأبى أن يتجه إلى الكعبة فزجره سايسه، ولكنه أبى، فإذا وجهوه إلى اليمن انطلق يهرول، وإن

وجهوه إلى مكة وقف، وهذه آية من آيات الله - عَزَّ وَجَلَّ - ثم بقوا حتى أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ قال العلماء: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾، يعني: جماعات متفرقة، كل طير في منقاره حجر صلب ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾، وهو الطين المشوي؛ لأنه يكون أصلب، وهذا الحجر ليس كبيرًا، بل هو صغير يضرب الواحد من هؤلاء مع رأسه ويخرج من دبره - والعياذ بالله - ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾، أي: كزرع أكلته الدواب ووطئته بأقدامها حتى تفتت.

هذا مجمل هذه السورة العظيمة التي بين الله - سبحانه وتعالى - فيها ما فعل بأصحاب الفيل وأن كيدهم صار في نحورهم، وهكذا كل من أراد الحق بسوء، فإن الله تعالى يجعل كيده في نحره، وإنما حمى الله - عَزَّ وَجَلَّ - الكعبة عن هذا الفيل مع أنه في آخر الزمان سوف يُسلط عليها رجل من الحبشة يهدمها حجرًا حجرًا حتى تتساوى بالأرض؛ لأن قصة أصحاب الفيل مقدمة لبعثة الرسول محمد - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - التي يكون فيها تعظيم البيت. أما في آخر الزمان، فإن أهل البيت إذا أهانوه وأرادوا فيه بإلحاد بظلم، ولم يعرفوا قدره حينئذ يسلط الله عليهم من يهدمه حتى لا يبقى على وجه الأرض، ولهذا يجب على أهل مكة خاصة أن يحترزوا من المعاصي والذنوب والكبائر، لئلا يُهينوا الكعبة فيذلهم الله - عز وجل - نسأل الله تعالى أن يحمي ديننا وبيته الحرام من كيد كل كائد، إنه على كل شيء قدير.



تفسير سورة قريش

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ① إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ② فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ③ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ١-٤].

❁ التفسير ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

هذه السورة لها صلة بالسورة التي قبلها، إذ أن السورة التي قبلها فيها بيان منة الله - عَزَّ وَجَلَّ - على أهل مكة بما فعل بأصحاب الفيل الذين قصدوا مكة لهدم الكعبة، فبين الله في هذه السورة نعمة أخرى كبيرة على أهل مكة (على قريش)، وهو رحلتهم مرتين في السنة، مرة في الصيف ومرة في الشتاء، ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ① إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ والإلف بمعنى الجمع والضم، ويراد به التجارة التي كانوا يقومون بها مرة في الشتاء، ومرة في الصيف، أما في الشتاء فيتجهون نحو اليمن للمحصولات الزراعية فيه، ولأن الجو مناسب، وأما في الصيف فيتجهون إلى الشام؛ لأن غالب تجارة الفواكه وغيرها تكون في هذا الوقت في الصيف مع مناسبة الجو البارد، فهي نعمة من الله - سبحانه وتعالى - على قريش في هاتين الرحلتين؛ لأنه يحصل منها فوائد كثيرة ومكاسب كبيرة من هذه التجارة، أمرهم الله أن يعبدوا رب هذا البيت قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾، شكرًا له على هذه النعمة، والفاء هذه إما أن تكون فاء السببية، أي: فبسبب هاتين الرحلتين؛ ليعبدوا رب هذا البيت، أو أن تكون فاء التفريع، وأيًّا كان فهي مبنية على ما سبق، أي: فبهذه النعم العظيمة يجب عليهم أن يعبدوا الله، والعبادة هي التذلل لله - عَزَّ وَجَلَّ - محبة وتعظيمًا. أن يتعبد الإنسان لله يتذلل له بالسمع والطاعة، فإذا بلغه عن الله ورسوله أمر قال: سمعنا وأطعنا، وإذا بلغه خبر قال: سمعنا وآمنا، على وجه المحبة والتعظيم،

فبالمحبة يقوم الإنسان بفعل الأوامر، وبالتعظيم يترك النواهي خوفًا من هذا العظيم ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ هذا معنى من معاني العبادة، وتطلق العبادة على نفس المتعبد به، وقد حدّها شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بهذا المعنى فقال: إن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال، والأعمال الظاهرة، والباطنة. وقوله تعالى: ﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾، يعني به: الكعبة المعظمة، وقد أضافها الله تعالى إلى نفسه في قوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]. وهنا أضاف ربوبيته إليه قال تعالى: ﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾، وإضافة الربوبية إليه على سبيل التشريف والتعظيم ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ أضاف الله البيت إليه تشريفًا وتعظيمًا، إذن خصص البيت بالربوبية مرة، وأضافه إلى نفسة مرة أخرى تشريفًا وتعظيمًا، وفي آية ثانية قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ وبعدها قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾، احتراز من أن يتوهم واهم بأنه رب البلدة وحدها فقال تعالى: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾، ولكل مقام صيغة مناسبة، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٩١]، مناسبة بيان عموم ملكه، لئلا يدعي المشركون أنه رب للبلدة فقط، أما هنا فالمقام مقام تعظيم للبيت فناسب ذكره وحده قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ هذه صفة للرب، إذن فمحلها النصب، ولهذا يحسن أن تقف فتقول ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ ثم تقول: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم﴾؛ لأنك لو وصلت فقلت: «رب، هذا البيت الذي أطعمهم» لظن السامع أن «الذي» صفة للبيت، وهذا بعيد من المعنى، ولا يستقيم به المعنى، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾، بين الله نعمته عليهم، النعمة الظاهرة والباطنة، فإطعامهم من الجوع وقاية من الهلاك في أمر باطن، وهو الطعام الذي يأكلونه، ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾، وقاية من الخوف في الأمر الظاهر؛ لأن الخوف ظاهر، فإذا كانت البلاد محوطة بالعدو، وخاف أهلها وامتنعوا عن الخروج، وبقوا في ملاجئهم، فذكرهم الله بهذه النعمة، ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾، آمن مكان في الأرض هو مكة؛ ولذلك لا يُقطع شجرها، ولا يُحش حشيشها، ولا تُلتقط ساقطتها، ولا يصاد صيدها، ولا يسفك فيها دم، وهذه الخصائص لا توجد في البلاد الأخرى حتى المدينة، محرمة ولها حرم، لكن حرمها دون حرم مكة بكثير، حرم مكة لا يمكن أن يأتيه أحد من المسلمين لم يأتها، ولا مرة إلا محرمًا، والمدينة ليست كذلك، حرم مكة يحرم حشيشه وشجره مطلقًا، وأما حرم المدينة فرخص في بعض شجره للحرث ونحوه. صيد مكة حرام وفيه الجزاء، وصيد المدينة ليس فيه الجزاء؛ فأعظم مكان آمن هو مكة، حتى الأشجار آمنة فيه، وحتى الصيود آمنة فيه، ولولا أن الله تعالى يسر على عباده لكان حتى البهائم التي ليست صيودًا تحرم، لكن الله تعالى رحم

العباد وأذن لهم أن يذبحوا وينحروا في هذا المكان. وهذه النعمة ذكرهم الله بها في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، يعني: أفلا يشكرون الله على هذا؟! فهذه السورة كلها تذكير لقريش بما أنعم الله عليهم في، هذا البيت العظيم، وفي الأمن من الخوف، وفي الإطعام من الجوع.

فإذا قال قائل: ما واجب قريش نحو هذه النعمة؟ وكذلك ما واجب من حلّ في مكة الآن من قريش أو غيرهم؟

قلنا: الواجب الشكر لله تعالى بالقيام بطاعته، بامتثال أمره واجتناب نهيه؛ ولهذا إذا كثرت المعاصي في الحرم فالخطر على أهله أكثر من الخطر على غيرهم؛ لأن المعصية في مكان فاضل أعظم من المعصية في مكان مفضول، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، فتوعد الله تعالى من أراد فيه أي: من هم به فيه بإلحاد فضلًا عمن ألحد، والواجب على المرء أن يذكر نعمة الله عليه في كل مكان، لا في مكة فحسب، فبلادنا - ولله الحمد - اليوم من آمن، بلاد العالم، وهي من أشد، بلاد العالم رغدًا وعيشًا. أطعمنا الله تعالى من الجوع، وآمننا من الخوف، فعلينا أن نشكر هذه النعمة، وأن نتعاون على البر والتقوى، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى الدعوة إلى الله على بصيرة وتأنٍ وتثبت، وأن نكون إخوة متآلفين، والواجب علينا ولاسيما على طلبة العلم إذا اختلفوا فيما بينهم أن يجلسوا للتشاور، وللمناقشة الهادئة التي يقصد منها الوصول إلى الحق، ومتى تبين الحق للإنسان وجب عليه اتباعه، ولا يجوز أن ينتصر لرأيه؛ لأنه ليس مشرعًا معصومًا حتى يقول إن رأيه هو الصواب وأن ما عداه هو الخطأ. الواجب على الإنسان المؤمن أن يكون، كما أراد الله منه، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، أما كون الإنسان ينتصر لرأيه ويصر على ما هو عليه، ولو تبين له أنه باطل فهذا خطأ، وهذا من دأب المشركين الذين أبوا أن يتبعوا الرسول وقالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]. نسأل الله أن يديم علينا نعمة الإسلام، والأمن في الأوطان، وأن يجعلنا إخوة متآلفين على كتاب الله وسنة رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - إنه على كل شيء قدير.



تفسير سورة الماعون

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿أَرَءَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ١-٧].

❁ التفسير ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَرَءَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾، ﴿أَرَءَيْتَ﴾، الخطاب هل هو للرسول ﷺ؛ لأنه الذي أنزل عليه القرآن؟ أو هو عام لكل من يتوجه إليه الخطاب؟ العموم أولى فنقول: ﴿أَرَءَيْتَ الَّذِي﴾، عام لكل من يتوجه إليه الخطاب، ﴿أَرَءَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾، أي: بالجزاء، وهؤلاء هم الذين ينكرون البعث ويقولون: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَءَابَآؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الصافات: ١٦، ١٧]. ويقول القائل منهم: ﴿مَن يُحْيِ الْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]. هؤلاء يكذبون بيوم الدين أي: بالجزاء. قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾، فجمع بين أمرين:

الأمر الأول: عدم الرحمة بالأيتام الذين هم محل الرحمة؛ لأن الأيتام هم الذين مات آباؤهم قبل أن يبلغوا، وهم محل الشفقة والرحمة؛ لأنهم فاقدون لابائهم فقلوبهم منكسرة يحتاجون إلى جابر. ولهذا وردت النصوص بفضل الإحسان إلى الأيتام. لكن، هذا ـ والعياذ بالله ـ ﴿يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ أي: يدفعه بعنف؛ لأن الدع هو الدفع بعنف، كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣]. أي: دفعًا شديدًا، فتجد اليتيم إذا جاء إليه يستجديه شيئًا، أو يكلمه في شيء يحتقره ويدفعه بشدة فلا يرحمه.

الأمر الثاني: لا يحثون على رحمة الغير ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾، فالمسكين الفقير المحتاج إلى الطعام لا يحض، هذا الرجل على إطعامه؛ لأن قلبه حجر قاسٍ، فقلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة. فإذا ليس فيه رحمة لا للأيتام، ولا للمساكين، فهو قاسي القلب.

ثم قال الله عز وجل: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾، ويل: هذه كلمة وعيد وهي تتكرر في القرآن كثيرًا، والمعنى الوعيد الشديد على هؤلاء، ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، هؤلاء مصلون يصلون مع الناس أو أفرادًا لكنهم ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، أي: غافلون عنها، لا يقيمونها على ما ينبغي، يؤخرونها عن الوقت الفاضل، لا يقيمون ركوعها، ولا سجودها، ولا قيامها، ولا قعودها، لا يقرأون ما يجب فيها من قراءة سواء كانت قرآنًا أو ذكرًا، فإذا دخل في صلاته فهو غافل، قلبه يتجول يمينًا وشمالًا، فهو ساهٍ عن صلاته، وهذا مذموم، الذي يسهو عن الصلاة ويغفل عنها ويتهاون بها لا شك أنه مذموم. أما الساهي في صلاته فهذا لا يُلام، والفرق بينهما أن الساهي في الصلاة معناه أنه نسي شيئًا، نسي عدد الركعات، نسي شيئًا من الواجبات وما أشبه ذلك؛ ولهذا وقع السهو من رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، وهو أشد الناس إقبالًا على صلاته، بل إنه قال ﷺ: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»[(١)]، ومع ذلك سَهَا في صلاته؛ لأن السهو في الشيء معناه أنه نسي شيئًا على وجه لا يلام عليه. أما الساهي عن صلاته فهو متعمد للتهاون في صلاته، ومن السهو عن الصلاة أولئك القوم الذين يدعون للصلاة مع الجماعة، فإنهم لا شك عن صلاتهم ساهون فيدخلون في هذا الوعيد. قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾، أيضًا إذا فعلوا الطاعة، فإنما يقصدون بها التزلف إلى الناس، وأن يكون لهم قيمة في المجتمع، ليس قصدهم التقرب إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فهذا المرائي يتصدق من أجل أن يقول الناس ما أكرمه، هذا المصلي يحسن صلاته من أجل أن يقول الناس ما أحسن صلاته وما أشبه ذلك. هؤلاء يراءون فأصل العبادة لله، لكن يريدون مع ذلك أن يحمدهم الناس عليها، ويتقربون إلى الناس بتقربهم إلى الله، هؤلاء هم المراءون، أما من يصلي لأجل الناس بمعنى أنه يصلي بين يدي الملك مثلًا أو غيره يخضع له ركوعًا، أو سجودًا فهذا مشرك كافر قد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار. لكن هذا يصلي لله مع مراعاة أن يحمده الناس على عبادته، على أنه عابد لله عز وجل. وهذا يقع كثيرًا في المنافقين، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]. انظر إلى هذا الوصف إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، إذن هم عن صلاتهم ساهون. يراءون الناس. وهنا يقول الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾، فهل الذين يسمّعون مثلهم؟ يعني: إنسان يقرأ

---

(١) حسن: أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ١٢٨)، والنسائي في «الكبرى» (٥/ ٢٨٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «المشكاة» (٥٢٦١).

قرآنًا ويجهر بالقراءة ويحسن القراءة، ويحسن الأداء والصوت من أجل أن يقال ما أقرأه. هل يكون مثل الذي يرائي؟ الجواب: نعم، كما جاء في الحديث، «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ رَاءَى رَاءَى اللهُ بِهِ»(١)، المعنى من سمَّع فضحه الله وبين للناس أن الرجل ليس مخلصًا، ولكنه يريد أن يسمعه الناس: فيمدحوه على عبادته، ومن راءى كذلك راءى الله به، فالإنسان الذي يرائي الناس، أو يسمّع الناس سوف يفضحه الله، وسوف يتبين أمره إن عاجلًا أم آجلًا. قوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾، أي: يمنعون ما يجب بذله من المواعين وهي الأواني، يعني: يأتي الإنسان إليهم يستعير آنية. يقول: أنا محتاج إلى دلو، أو محتاج إلى إناء أشرب به، أو محتاج إلى مصباح كهرباء وما أشبه ذلك، فيمنع. فهذا أيضًا مذموم. ومنع الماعون ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: قسم يأثم به الإنسان، **القسم الثاني**: قسم لا يأثم به، لكن يفوته الخير.

فما وجب بذله، فإن الإنسان يأثم بمنعه، وما لم يجب بذله، فإن الإنسان لا يأثم بمنعه لكن يفوته الخير. مثال ذلك: إنسان جاءه رجل مضطر يقول: أعطني ماءً أشربه، فإن لم أشرب مت، فبذل الإناء له واجب يأثم بتركه الإنسان، حتى إن بعض العلماء يقول: لو مات، هذا الإنسان، فإنه يضمنه بالدية؛ لأنه هو سبب موته ويجب عليه بذل ما طلبه.

فيجب على المرء أن ينظر في نفسه هل هو ممن اتصف بهذه الصفات أم لا؟ إن كان ممن اتصف بهذه الصفات قد أضاع الصلاة وسها عنها، ومنع الخير عن الغير فليتب وليرجع إلى الله، وإلا فليبشر بالويل ـ والعياذ بالله ـ، وإن كان قد تنزه عن ذلك فليبشر بالخير، والقرآن الكريم ليس المقصود منه أن يتلوه الإنسان، ليتعبد لله تعالى بتلاوته فقط، المقصود أن يتأدب به ولهذا قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: (إن النبي ﷺ كان خلقه القرآن)(٢). خُلقه يعني: أخلاقه التي يتخلق بها يأخذها من القرآن. وفقنا الله لما فيه الخير والصلاح في الدنيا والآخرة. إنه على كل شيء قدير.



---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٩٩)، ومسلم (٢٩٨٧).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٧٤٦)، وأحمد في «مسنده» (٦/ ٢٣٥)، والترمذي (٤٤٥).

تفسير سورة الكوثر

قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ① فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ② إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ١-٣].

التفسير

البسملة تقدم الكلام عليها.

هذه السورة قيل: إنها مكية، وقيل: إنها مدنية. والمكي هو الذي نزل قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة سواء نزل في مكة، أم في المدينة، أو في الطريق في السفر، فكل ما نزل بعد الهجرة فهو مدني، وما نزل قبلها فهو مكي، هذا هو القول الراجح من أقوال العلماء، يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مخاطبًا النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ الكوثر: في اللغة العربية هو الخير الكثير. وهكذا كان النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ أعطاه الله تعالى خيرًا كثيرًا في الدنيا والآخرة. فمن ذلك النهر العظيم الذي في الجنة والذي يصبّ منه ميزابان على حوضه المورود ﷺ ماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأحلى مذاقًا من العسل، (وأطيب رائحة من المسك)، وهذا الحوض في القيامة في عرصات القيامة يرده المؤمنون من أمة النبي ﷺ وآنيته كنجوم السماء كثرة وحسنًا، فمن كان واردًا على شريعته في الدنيا كان واردًا على حوضه في الآخرة، ومن لم يكن واردًا على شريعته، فإنه محروم منه في الآخرة. ومن الخيرات الكثيرة التي أعطيها النبي ﷺ في الدنيا ما ثبت في الصحيحين من حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْمَغَانِمُ، وَكَانَ

النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»[(١)]، هذا من الخير الكثير؛ لأن بعثه إلى الناس عامة يستلزم أن يكون أكثر الأنبياء اتباعًا، وهو كذلك فهو أكثرهم أتباعًا ﷺ ومن المعلوم أن الدال على الخير كفاعل الخير، والذي دل هذه الأمة العظيمة التي فاقت الأمم كثرة هو محمد ﷺ وعلى، هذا فيكون للرسول ﷺ من أجر كل واحد من أمته نصيب. ومن يحصي الأمة إلا الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ومن الخير الذي أعطيه في الآخرة المقام المحمود، ومنه الشفاعة العظمى، فإن الناس في يوم القيامة يلحقهم من الكرب والغم ما لا يطيقون، فيطلبون الشفاعة، فيأتون إلى آدم، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى ﷺ حتى تصل إلى النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ فيقوم ويشفع، ويقضي الله تعالى بين العباد بشفاعته، وهذا مقام يحمده عليه الأولون والآخرون وداخل في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]؛ إذن الكوثر يعني: الخير الكثير، ومنه النهر الذي في الجنة، فالنهر الذي في الجنة هو الكوثر لا شك، ويسمى كوثرًا لكونه ليس هو فقط الذي أعطاه الله نبيه محمدًا ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ من الخير، ولما ذكر منته عليه بهذا الخير الكثير قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾، شكرًا لله على هذه النعمة العظيمة، أن تصلي وتنحر لله، والمراد بالصلاة هنا جميع الصلوات، وأول ما يدخل فيها الصلاة المقرونة بالنحر وهي صلاة عيد الأضحى لكنالآية شاملة عامة ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾، الصلوات المفروضة والنوافل. صلوات العيد والجمعة ﴿وَٱنْحَرْ﴾، أي: تقرب إليه بالنحر، والنحر يختص بالإبل، والذبح للبقر والغنم، لكنه ذكر النحر؛ لأن الإبل أنفع من غيرها بالنسبة للمساكين، ولهذا أهدى النبي ﷺ في حجة الوداع مائة بعير، ونحر منها ثلاثة وستين بيده، وأعطى علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ الباقي فنحرها. وتصدق بجميع أجزائها إلا بضعة واحدة من كل ناقة؛ فأخذها وجعلت في قدر، فطبخها؛ فأكل من لحمها، وشرب من مرقها، وأمر بالصدقة حتى بجلالها وجلودها ﷺ، والأمر في الآية أمر له وللأمة، فعلينا أن نخلص الصلاة لله، وأن نخلص النحر لله، كما أمر بذلك نبينا ﷺ ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ هذا في مقابل إعطاء الكوثر قال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾، ﴿شَانِئَكَ﴾ أي: مبغضك، والشنئان هو البغض، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ [المائدة: ٢]. أي: لا يحملنكم بغضهم أن تعتدوا. قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ أي: لا يحملنكم بغضهم على ترك العدل ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣٨)، ومسلم (٥٢١).

﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، فشانئك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ يعني: مبغضك ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ الأبتر: اسم تفضيل من بتر بمعنى قطع، يعني: هو الأقطع. المنقطع من كل خير، وذلك أن كفار قريش يقولون: محمد أبتر، لا خير فيه، ولا بركة فيه، ولا في اتباعه، أبتر لما مات ابنه القاسم - رضي الله عنه - قالوا: محمد أبتر، لا يولد له، ولو ولد له فهو مقطوع النسل، فبين الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن الأبتر هو مبغض الرسول ﷺ فهو الأبتر المقطوع عن كل خير. الذي ليس فيه بركة، وحياته ندامة عليه، وإذا كان هذا في مبغضه فهو أيضًا في مبغض شرعه. فمن أبغض شريعة الرسول ﷺ أو أبغض شعيرة من شعائر الإسلام، أو أبغض أي طاعة مما يتعبد به الناس في دين الإسلام، فإنه كافر، خارج عن الدين لقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٩]، ولا حبوط للعمل إلا بالكفر، فمن كره فرض الصلوات فهو كافر ولو زكى، ومن كره فرض الزكاة فهو كافر ولو صلى، لكن من استثقلها مع عدم الكراهة فهذا فيه خصلة من خصال النفاق لكنه لا يكفر، وفرق بين من استثقل الشيء ومن كره الشيء.

إذنْ هذه السورة تضمنت بيان نعمة الله على رسوله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - بإعطائه الخير الكثير، ثم الأمر بالإخلاص لله - عَزَّ وَجَلَّ - في الصلوات والنحر، وكذلك في سائر العبادات، ثم بيان أن من أبغض الرسول ﷺ أو أبغض شيئًا من شريعته، فإنه هو الأقطع الذي لا خير فيه، ولا بركة فيه، نسأل الله العافية والسلامة.



تفسير سورة الكافرون

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾
﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ① لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلَا أَنتُمْ
عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا
أَعْبُدُ ⑤ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١-٦].

❁ التفسير ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

هذه السورة هي إحدى سورتي الإخلاص؛ لأن سورتي الإخلاص ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وكان النبي ﷺ يقرأ بهما في سُنة الفجر وفي سنة المغرب، وفي ركعتي الطواف لما تضمنتاه من الإخلاص لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ والثناء عليه بالصفات الكاملة في سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، يناديهم يعلن لهم بالنداء ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ وهذا يشمل كل كافر سواء كان من المشركين، أم من اليهود، أم من النصارى، أم من الشيوعيين أم من غيرهم. كل كافر يجب أن تناديه بقلبك أو بلسانك إن كان حاضرًا لتتبرأ منه ومن عبادته ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ① لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، كُررت الجمل على مرتين مرتين ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾، أي: لا أعبد الذين تعبدونهم، وهم الأصنام ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، وهو الله، و«ما» هنا في قوله تعالى: ﴿مَا أَعْبُدُ﴾، بمعنى «من»؛ لأن اسم الموصول إذا عاد إلى الله، فإنه يأتي بلفظ «من» ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ يعني: أنا لا أعبد أصنامكم وأنتم لا تعبدون الله. قوله تعالى: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، قد

يظن الظان أن هذه مكررة للتوكيد، وليس كذلك؛ لأن الصيغة مختلفة ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، فعل. قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾، «عابد» و«عابدون» اسم، والتوكيد لابد أن تكون الجملة الثانية كالأولى. إذن القول بأنه كرر للتوكيد ضعيف، إذن لماذا هذا التكرار؟

قال بعض العلماء: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: الآن ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ في المستقبل، فصار ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، أي: في الحال، ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾، يعني: في المستقبل؛ لأن الفعل المضارع يدل على الحال، واسم الفاعل يدل على الاستقبال. بدليل أنه عمل، واسم الفاعل لا يعمل إلا إذا كان للاستقبال، ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ الآن ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ يعني: الان. قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾، يعني: في المستقبل ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾، يعني: في المستقبل.

لكن أورد على هذا القول إيراد كيف قال تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾، مع أنهم قد يؤمنون فيعبدون الله؟! وعلى، هذا فيكون في، هذا القول نوع من الضعف.

وأجابوا عن ذلك بأن قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾، يخاطب المشركين الذين عَلِم الله تعالى أنهم لن يؤمنوا، فيكون الخطاب ليس عامًّا، وهذا مما يضعف القول بعض الشيء، فعندنا الآن قولان:الأول: إنها توكيد، والثاني: إنها في المستقبل، القول الثالث: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، أي: لا أعبد الأصنام التي تعبدونها. قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾، أي: لا تعبدون الله. قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾، أي: في العبادة يعني: ليست عبادتي كعبادتكم، ولا عبادتكم كعبادتي، فيكون، هذا نفي للفعل لا للمفعول به، يعني: ليس نفيًا للمعبود. لكنه نفي للعبادة أي: لا أعبد كعبادتكم، ولا تعبدون أنتم كعبادتي؛ لأن عبادتي خالصة لله، وعبادتكم عبادة شرك.

القول الرابع: واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ أن قوله تعالى: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾، هذا الفعل. فوافق القول الأول في هذه الجملة، قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾، أي: في القبول، بمعنى ولن أقبل غير عبادتي، ولن أقبل عبادتكم، وأنتم كذلك لن تقبلوا. فتكون الجملة الأولى عائدة على الفعل، والجملة الثانية عائدة على القبول والرضا، يعني: لا أعبده، ولا أرضاه، وأنتم كذلك. لا تعبدون الله، ولا ترضون بعبادته.

وهذا القول إذا تأملته لا يرد عليه شيء من الهفوات السابقة، فيكون قولًا حسنًا جيدًا، ومن

هنا نأخذ أن القرآن الكريم ليس فيه شيء مكرر لغير فائدة إطلاقًا، ليس فيه شيء مكرر إلا وله فائدة؛ لأننا لو قلنا: إن في القرآن شيئًا مكررًا بدون فائدة لكان في القرآن ما هو لغو، وهو منزه عن ذلك، وعلى، هذا فالتكرار في سورة الرحمن ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، وفي سورة المرسلات ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، تكرار لفائدة عظيمة، وهي أن كل آية مما بين هذه الآية المكررة، فإنها تشمل على نعم عظيمة، وآلاء جسيمة، ثم إن فيها من الفائدة اللفظية التنبيه للمخاطب حيث يكرر عليه ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، ويكرر عليه ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

ثم قال عز وجل: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾، الذي أنتم عليه وتدينون به. ولي ديني؛ فأنا بريء من دينكم، وأنتم بريئون من ديني.

قال بعض أهل العلم: وهذه السورة نزلت قبل فرض الجهاد؛ لأنه بعد الجهاد لا يقر الكافر على دينه إلا بالجزية إن كانوا من أهل الكتاب. وعلى القول الراجح أو من غيرهم.

ولكن الصحيح أنها لا تنافي الأمر بالجهاد حتى نقول إنها منسوخة، بل هي باقية ويجب أن نتبرأ من دين اليهود والنصارى والمشركين في كل وقت وحين؛ ولهذا نقر اليهود والنصارى على دينهم بالجزية، ونحن نعبد الله، وهم يعبدون ما يعبدون، فهذه السورة فيها البراءة والتخلي من عبادة غير الله - عَزَّ وَجَلَّ - سواء في المعبود أم في نوع الفعل، وفيها الإخلاص لله - عَزَّ وَجَلَّ - وألاَّ نعبد إلا الله وحده لا شريك له. وإلى هنا ينتهي ما تيسر من الكلام على هذه السورة.



تفسير سورة النصر

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١-٣].

❁ التفسير ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾، الخطاب للنبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ ﴿نَصْرُ ٱللَّهِ﴾، النصر هو تسليط الله الإنسان على عدوه، بحيث يتمكن منه ويخذله ويكبته، والنصر أعظم سرور يحصل للعبد في أعماله؛ لأن المنتصر يجد نشوة عظيمة، وفرحًا وطربًا، لكنه إذا كان بحق فهو خير، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ»(١) أي: أن عدوه مرعوب منه إذا كان بينه وبينه مسافة شهر، والرعب أشد شيء يفتك بالعدو؛ لأن من حصل في قلبه الرعب لا يمكن أن يثبت أبدًا، بل سيطير طيران الريح فقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: نصر الله إياك على عدوك ﴿وَٱلْفَتْحُ﴾، معطوف على النصر، وعطفه على النصر مع أن الفتح من النصر تنويه بشأنه، وهو من باب عطف الخاص على العام، كقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤] أي: في؛ ليلة القدر فجبريل من الملائكة وخصه لشرفه، و(ال) في الفتح للعهد الذهني، أي: الفتح المعهود المعروف في أذهانكم، وهو فتح مكة، وكان فتح مكة في رمضان من السنة الثامنة للهجرة، وسببه أن النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ لما صالح قريش في الحديبية في السنة السادسة ـ الصلح المشهور ـ نقضت قريش العهد فغزاهم النبي ﷺ وخرج إليهم من المدينة بنحو عشرة آلاف مقاتل خرج مختفيًا وقال:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣٨)، ومسلم (٥٢١).

«اللَّهُمَّ عَمِّ أَخْبَارَنَا عَنْهُمْ» فلم يفاجأهم إلا، وهو محيط بهم ودخل مكة في العشرين من رمضان، من السنة الثامنة للهجرة، مظفرًا منصورًا مؤيدًا، حتى إنه في النهاية اجتمع إليه كفار قريش حول الكعبة فوقف على الباب وقريش تحته ينتظرون ما يفعل؛ فأخذ بعضادتي الباب وقال: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تَظُنُّونَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟» وهو الذي كان قبل ثمان سنوات هاربًا منهم وكانوا الآن في قبضته وتحت تصرفه، قال: ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «فإني أقول لكم، كما قال يوسف؛ لأخوته ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢]. اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ»، فعفا عنهم ﷺ، وهذا الفتح سماه الله فتحًا مبينًا، فقال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١] أي: بينًا عظيمًا واضحًا، ولما حصل عرف الناس جميعًا أن العاقبة لمحمد ﷺ وأن دور قريش واتباعه قد انقضى فصار الناس ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾، أي: جماعات بعد أن كانوا يدخلون فيه أفرادًا، ولا يدخل فيه الإنسان في بعض الأحوال إلا مختفيًا، صاروا يدخلون في دين الله أفواجًا، وصارت الوفود ترد على النبي ﷺ في المدينة من كل جانب حتى سمي العام التاسع (عام الوفود) يقول الله - عَزَّ وَجَلَّ - إذا رأيت هذه العلامة ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾، كان المتوقع أن يكون الجواب فاشكر الله على هذه النعمة واحمد الله عليها، ولكن ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٣، ٢٤]. كان المتوقع فاشكر ربك على، هذا التنزيل وقم بحقه، ولكن قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، إيذانًا بأنه سوف ينال أذىً بواسطة إبلاغ، هذا القرآن ونشره بين الأمة ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ وعند التأمل تتبين الحكمة فالمعنى أنه إذا جاء نصر الله والفتح فقد قرب أجلك وما بقي عليك إلا التسبيح بحمد ربك والاستغفار، وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: سبحه تسبيحًا مقرونًا بالحمد. والتسبيح: تنزيه الله تعالى عما لا يليق بجلاله. والحمد: هو الثناء عليه بالكمال مع المحبة والتعظيم. اجمع بين التنزيه وبين الحمد ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾، يعني: اسأله المغفرة؛ فأمره الله تعالى بأمرين:

الأمر الأول: التسبيح المقرون بالحمد، **والثاني**: الاستغفار. والاستغفار هو طلب المغفرة. والمغفرة ستر الله تعالى على عبده ذنوبه مع محوها والتجاوز عنها. وهذا غاية ما يريد العبد؛ لأن العبد كثير الذنب يحتاج إلى مغفرة إن لم يتغمده الله برحمته هلك، ولهذا قال النبي ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمْ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ»(١)؛ لأن عملك، هذا لو أردت أن تجعله في مقابلة نعمة من النعم، نعمة واحدة لأحاطت به النعم، فكيف يكون عوضًا تدخل به الجنة؟ ولهذا قال بعض العارفين في نظم له:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦٧٣) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٨١٦).

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللهِ نِعْمَةً ... عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ

فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ ... وَإِنْ طَالَتِ الأَيَّامُ وَاتَّصَلَ العُمُرُ

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾، أي: لم يزل -عَزَّ وَجَلَّ- توابًا على عباده، فإذا استغفرته تاب عليك، هذا هو معنى السورة.

لكن السورة لها مغزى عظيم لا يتفطن له إلا الأذكياء، ولهذا لما سمع عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أن الناس انتقدوه في كونه يُدني عبدالله بن عباس -رضي الله عنهما- مع صغر سنه، ولا يدني أمثاله من شباب المسلمين، وعمر -رضي الله عنه- من أعدل الخلفاء أراد أن يبين للناس أنه لم يحابِ ابن عباس في شيء، فجمع كبار المهاجرين والأنصار في يوم من الآيام ومعهم عبدالله بن عباس وقال لهم: ما تقولون في هذه السورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، حتى ختم السورة ففسروها بحسب ما يظهر فقط، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري، ولم يقل بعضهم شيئًا. فقال: ما تقول يابن عباس قال: يا أمير المؤمنين هو أجل رسول الله ﷺ، أعلمه الله له: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، فتح مكة فذاك علامة

أجلك، ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾، فقال عمر: (والله ما أعلم منها إلا ما تعلم)[1]. فتبين بذلك فضل ابن عباس وتميزه، وأن عنده من الذكاء والمعرفة بمراد الله -عز وجل- لما نزلت هذه السورة جعل رسول الله ﷺ الذي هو أشد الناس عبادة لله وأتقاهم لله جعل يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»[2]. فنقول: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لنا ذنوبنا، وإسرافنا في أمرنا، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين.



(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٦٢٧)، والترمذي (٣٣٦٢).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨١٧)، ومسلم (٤٨٤).

تفسير سورة المسد

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا
كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ
الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ١-٥].

❁ التفسير ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

هذا القرآن فيه من الدلالات الكثيرة ما يدل دلالة واضحة على أن رسول الله ﷺ حق، ليس يدعو لملك، ولا لجاه، ولا لرئاسة قومه، وأعمام الرسول ﷺ انقسموا في معاملته ومعاملة ربه - عَزَّ وَجَلَّ - إلى ثلاثة أقسام:

قسم آمن به وجاهد معه، وأسلم لله رب العالمين، وقسم ساند وساعد، لكنه باق على الكفر.

وقسم عاند وعارض، وهو كافر.

فأما الأول: فالعباس بن عبدالمطلب، وحمزة بن عبدالمطلب. والثاني: أفضل من الأول؛ لأن الثاني من أفضل الشهداء عند الله - عَزَّ وَجَلَّ - ووصفه النبي ﷺ بأنه أسد الله، وأسد رسوله، واستشهد - رضي الله عنه - في أحد في السنة الثانية من الهجرة.

أما الذي ساند وساعد مع بقائه على الكفر فهو أبو طالب؛ فأبو طالب قام مع النبي ﷺ خير قيام في الدفاع عنه ومساندته، ولكنه - والعياذ بالله - قد سبقت له كلمة العذاب، لم يُسلم حتى في آخر حياته في آخر لحظة من الدنيا عرض عليه النبي ﷺ أن يسلم لكنه أبى، بل ومات على قوله: إنه على ملة عبدالمطلب، فشفع له النبي ﷺ حتى كان في ضحضاح من نار، وعليه نعلان يغلي منهما دماغه.

أما الثالث: الذي عاند وعارض فهو أبو لهب. أنزل الله فيه سورة كاملة تُتلى في الصلوات فرضها ونفلها، في السر والعلن، يُثاب المرء على تلاوتها، على كل حرف عشر حسنات. يقول الله عز وجل: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، وهذا رد على أبي لهب حين جمعهم النبي ﷺ؛ ليدعوهم إلى الله فبشر وأنذر، قال أبو لهب: تبًّا لك ألهذا جمعتنا، قوله: (ألهذا جمعتنا؟)[(١)] إشارة للتحقير، يعني: هذا أمر حقير ما يحتاج أن يُجمع له زعماء قريش وهذا كقوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، والمعنى تحقيره، فليس بشيء، ولا يهتم به، كما قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. فالحاصل أن أبا لهب قال: تبًّا لك ألهذا جمعتنا، فرد الله عليه بهذه السورة: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، والتباب الخسار، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٧] أي: خسار. وبدأ بيديه قبل ذاته؛ لأن اليدين هما آلتا العمل والحركة، والأخذ والعطاء وما أشبه ذلك. وهذا اللقب أبو لهب، لقب مناسب تمامًا لحاله ومآله، وجه المناسبة أن، هذا الرجل سوف يكون في نار تلظى، تتلظى لهبًا عظيمًا مطابقة لحاله ومآله، يقول الشاعر:

قُـلْ إِنْ أَبْـصَرَتْ عَيْنَـاكَ ذَا لَقَـبٍ ... إِلَّا وَمَعْنَـاهُ إِنْ فَكَّـرْتَ فِي لَقَبِـهِ

ولما أقبل سهيل بن عمرو في قصة غزوة الحديبية قال الرسول ﷺ: «هذا سهيل بن عمرو، وما أراه إلا سهل لكم من أمركم»[(٢)]؛ لأن الاسم مطابق للفعل. يقول الله عز وجل: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ﴾، «ما» هذه يحتمل أن تكون استفهامية والمعنى أي شيء أغنى عنه ماله وما كسب؟ والجواب: لا شيء، ويحتمل أن تكون (ما) نافية، أي: ما أغنى عنه، أي: لم يغنِ عنه ماله وما كسب شيئًا، وكلا المعنيين متلازمان، ومعناهما: أن ماله وما كسب لم يغنِ عنه شيئًا، مع أن العادة أن المال ينفع، فالمال يفدي به الإنسان نفسه لو تسلط عليه عدو وقال: أنا أعطيك كذا وكذا من المال وأطلقني، يطلقه، لكن قد يطلب مالًا كثيرًا أو قليلًا، ولو مرض انتفع بماله، ولو جاع انتفع بماله، فالمال ينفع، لكن النفع الذي لا ينجي صاحبه من النار، ليس بنفع. ولهذا قال تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ﴾ يعني: من الله شيئًا قوله تعالى: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾، قيل: المعنى: وما كسب من الولد. كأنه قال: ما أغنى عنه ماله وولده. كقول نوح: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١]. فجعلوا قوله تعالى: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ يعني بذلك: الولد. وأيدوا، هذا القول بقول النبي ﷺ: «إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ، وَإِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ»[(٣)].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٧٣٤)، والنسائي (٢٧٧١)، وأبو داود (١٧٥٤).

(٣) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ٣١)، وأبو داود (٣٥٢٨)، والترمذي (١٣٥٨)، وصححه الشيخ

والصواب: أن الآية أعم من هذا وأن الآية تشمل الأولاد، وتشمل المال المكتسب الذي ليس في يده الان، وتشمل ما كسبه من شرف وجاه. وكل ما كسبه مما يزيده شرفًا وعزًّا، فإنه لا يُغني عنه شيئًا ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾، ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ﴾، السين في قوله تعالى: ﴿سَيَصۡلَىٰ﴾ السين للتنفيس المفيد للحقيقة والقرب. يعني: أن الله تعالى توعده بأنه سيصلى نارًا ذات لهب عن قريب؛ لأن متاع الدنيا والبقاء في الدنيا مهما طال، فإن الآخرة قريبة، حتى الناس في البرزخ، وإن مرت عليهم السنون الطوال فكأنها ساعة ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[الأحقاف: ٣٥]. وشيء مقدر بساعة من نهار، فإنه قريب.

وقوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾، يعني: كذلك امرأته معه، وهي امرأة من أشراف قريش لكن لم يغنِ عنها شرفها شيئًا لكونها شاركت زوجها في العداء والإثم، والبقاء على الكفر. وقوله تعالى: ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ قُرئت بالنصب والرفع، أما النصب، فإنها تكون حالًا لامرأة، يعني: وامرأته حال كونها حمالة الحطب. أو تكون منصوبة على الذم؛ لأن النعت المقطوع يجوز نصبه على الذم. أي: أذم حمالة الحطب، وأما على قراءة الرفع فهي صفة لامرأة ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ ﴿حَمَّالَةَ﴾، صيغة مبالغة أي: تحمله بكثرة، وذكروا أنها تحمل الحطب الذي فيه الشوك وتضعه في طريق النبي ﷺ من أجل أذى الرسول ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾، الجيد: العنق، والحبل معروف، والمسد: الليف. يعني: أنها متقلدة حبلًا من الليف تخرج به إلى الصحراء لتربط به الحطب الذي تأتي به لتضعه في طريق النبي ﷺ نعوذ بالله من ذلك، وهو إشارة إلى دنو نظرتها، وأنها أهانت نفسها، امرأة من قريش من أكابر قبائل قريش تخرج إلى الصحراء وتضع، هذا الحبل في عنقها، وهو من الليف مع ما فيه من المهانة، لكن من أجل أذية الرسول ﷺ. نسأل الله العافية. وبهذا ينتهي الكلام بما يسر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على هذه السورة.



الألباني في «الإرواء» (١٦٢٦).

تفسير سورة الإخلاص

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

البسملة سبق الكلام عليها.

ذكر في سبب نزول هذه السورة: أن المشركين أو اليهود قالوا للنبي ﷺ: صف لنا ربك؟؛ فأنزل الله هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾، الخطاب للرسول ﷺ وللأمة أيضًا و﴿هُوَ﴾، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، ضمير الشأن عند المعربين. ولفظ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾، هو خبر المبتدأ و﴿أَحَدٌ﴾، خبر ثان. قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾، جملة مستقلة. قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾، أي: هو الله الذي تتحدثون عنه وتسألون عنه ﴿أَحَدٌ﴾، أي: متوحد بجلاله وعظمته، ليس له مثيل، وليس له شريك، بل هو متفرد بالجلال والعظمة عز وجل.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ جملة مستقلة، بين الله تعالى أنه ﴿الصَّمَدُ﴾، أجمع ما قيل: في معناه: أنه الكامل في صفاته، الذي افتقرت إليه جميع مخلوقاته. فقد روي عن ابن عباس أن الصمد هو الكامل في علمه، الكامل في حلمه، الكامل في عزته، الكامل في قدرته، إلى آخر ما ذكر في الأثر. وهذا يعني: أنه مستغنٍ عن جميع المخلوقات؛ لأنه كامل، وورد أيضًا في تفسيرها أن الصمد هو الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجها، وهذا يعني: أن جميع المخلوقات مفتقرة إليه، وعلى، هذا فيكون المعنى الجامع للصمد هو: الكامل في صفاته الذي افتقرت إليه جميع مخلوقاته.

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾؛ لأنه ـ جل وعلا ـ لا مثيل له، والولد مشتق من والده وجزء منه، كما

قال النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ في فاطمة: «إنها بَضْعَةٌ مني»(١)، والله ـ جل وعلا ـ لا مثيل له، ثم إن الولد إنما يكون للحاجة إليه إما في المعونة على مكابدة الدنيا، وإما في الحاجة إلى بقاء النسل. والله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مستغنٍ عن ذلك؛ فلهذا لم يلد؛ لأنه لا مثيل له؛ ولأنه مستغنٍ عن كل أحد عز وجل. وقد أشار الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إلى امتناع ولادته أيضًا في قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]. فالولد يحتاج إلى صاحبة تلده، وكذلك هو خالق كل شيء، فإذا كان خالق كل شيء فكل شيء منفصل عنه بائن منه. وفي قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾، رد على ثلاث طوائف منحرفة من بني آدم، وهم: المشركون، واليهود، والنصارى؛ لأن المشركين جعلوا الملائكة الذين هم عبادالرحمن إناثًا، وقالوا: إن الملائكة بنات الله، واليهود قالوا: عزير ابن الله. والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، فكذبهم الله بقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾؛ لأنه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ هو الأول الذي ليس قبله شيء، فكيف يكون مولودًا؟!

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، أي: لم يكن له أحد مساويًا في جميع صفاته، فنفى الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن نفسه أن يكون والدًا، أو مولودًا، أو له مثيل، وهذه السورة لها فضل عظيم. قال النبي ﷺ: «إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»(٢)، لكنها تعدله، ولا تقوم مقامه، فهي تعدل ثلث القرآن لكن لا تقوم مقام ثلث القرآن. بدليل أن الإنسان لو كررها في الصلاة الفريضة ثلاث مرات لم تكفه عن الفاتحة، مع أنه إذا قرأها ثلاث مرات فكأنما قرأ القرآن كله، لكنها لا تجزىء عنه، ولا تستغرب أن يكون الشيء معادلًا للشيء، ولا يجزىء عنه. فها هو النبي ﷺ أخبر أن من قال: «لَا إِلَه إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَكَأَنَّمَا أَعْتَقَ أَرْبَعَةَ أَنْفُسٍ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ، أو مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ»(٣)، ومع ذلك لو كان عليه رقبة كفارة، وقال، هذا الذكر، لم يكفه عن الكفارة فلا يلزم من معادلة الشيء للشيء أن يكون قائمًا مقامه في الإجزاء.

هذه السورة كان الرسول ﷺ يقرأ بها في الركعة الثانية في سنة الفجر، وفي سنة المغرب، وفي ركعتي الطواف، وكذلك يقرأ بها في الوتر؛ لأنها مبنية على الإخلاص التام لله، ولهذا تسمى سورة الإخلاص.



(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٧٦٧)، ومسلم (٢٤٤٩).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٧٣٧٤) من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ ومسلم (٨١١) من حديث أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ بلفظ: «أيعجز أحدكم أن يقر ثلث القرآن في؛ ليلة»

(٣) متق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٠٤)، ومسلم (٢٦٩٣).

تفسير سورة الفلق

قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ١-٥].

التفسير

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، رب الفلق هو الله، والفلق: الإصباح. ويجوز أن يكون أعم من ذلك أن الفلق كل ما يطلقه الله تعالى من الإصباح، والنوى، والحب، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾، ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، أي: من شر جميع المخلوقات حتى من شر نفسه؛ لأن النفس أمارة بالسوء، فإذا قلت من شر ما خلق؛ فأول ما يدخل فيه نفسك، كما جاء في خطبة الحاجة «نَعُوذُ بِالله مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا»[1]، وقوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، يشمل شياطين الإنس والجن والهوام وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾، الغاسق قيل: إنه الليل. وقيل: إنه القمر، والصحيح إنه عام لهذا وهذا، أما كونه الليل، فلأن الله تعالى قال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، والليل تكثر فيه الهوام والوحوش، فلذلك استعاذ من شر الغاسق أي: الليل.

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (١١٠٥)، وأبو داود (٢١١٨)، والنسائي (١٤٠٤)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

وأما القمر فقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أن النبي ﷺ أرى عائشة القمر. وقال: «هَذَا هُوَ الغَاسِقُ»(١)، وإنما كان غاسقًا؛ لأن سلطانه يكون في الليل. وقوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾، هو معطوف على ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾، من باب عطف الخاص على العام؛ لأن الغاسق من مخلوقات الله - عَزَّ وَجَلَّ - وقوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَبَ ﴾، أي: إذا دخل. فالليل إذا دخل بظلامه غاسق، وكذلك القمر إذا أضاء بنوره، فإنه غاسق، ولا يكون ذلك إلا بالليل.

وقوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾، ﴿ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾، هن الساحرات. يعقدن الحبال وغيرها، وتنفث بقراءة مطلسمة فيها أسماء الشياطين على كل عقدة تعقد ثم تنفث، تعقد ثم تنفث، تعقد ثم تنفث، وهي بنفسها الخبيثة تريد شخصًا معينًا، فيؤثر، هذا السحر بالنسبة للمسحور. وذكر الله النفاثات دون النفاثين؛ لأن الغالب أن الذي يستعمل، هذا النوع من السحر هن النساء؛ فلهذا قال تعالى: ﴿ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾، ويحتمل أن يقال: إن النفاثات يعني: الأنفس النفاثات فيشمل الرجال والنساء.

قوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، الحاسد هو الذي يكره نعمة الله على غيره، فتجده يضيق ذرعًا إذا أنعم الله على هذا الإنسان بمال، أو جاه، أو علم أو غير ذلك، فيحسده، ولكن الحسّاد نوعان: نوع يحسد ويكره في قلبه نعمة الله على غيره، لكن لا يتعرض للمحسود بشيء، تجده مهمومًا مغمومًا من نعم الله على غيره، لكنه لا يعتدي على صاحبه. والشر والبلاء إنما هو بالحاسد إذا حسد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾، ومن حسد الحاسد العين التي تصيب المُعان يكون، هذا الرجل عنده كراهة لنعم الله على الغير فإذا أحس بنفسه أن الله أنعم على فلان بنعمة خرج من نفسه الخبيثة (معنى) لا نستطيع أن نصفه؛ لأنه مجهول، فيصيب بالعين، ومن تسلط عليه أحيانًا يموت، وأحيانًا يمرض، وأحيانًا يُجن، حتى الحاسد يتسلط على الحديد فيوقف اشتغاله، وربما يصيب السيارة بالعين وتنكسر أو تتعطل، وربما يصيب رفَّاعة الماء، أو حراثة الأرض، فالعين حق تصيب بإذن الله - عَزَّ وَجَلَّ - وذكر الله - عَزَّ وَجَلَّ - الغاسق إذا وقب، والنفاثات في العقد، والحاسد إذا حسد؛ لأن البلاء كله في هذه الأحوال الثلاثة يكون خفيًا. الليل ستر وغشاء. قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١]، يكمن به الشر، ولا يعلم به. قوله

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ٢٣٧)، والترمذي (٣٣٦٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩١٦).

تعالى: ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾، أيضًا السحر خفي لا يعلم. قوله تعالى: ﴿حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، العائن أيضًا خفي تأتي العين من شخص تظن أنه من أحب الناس إليك وأنت من أحب الناس إليه ومع ذلك يصيبك بالعين. لهذا السبب خص الله هذه الأمور الثلاثة. الغاسق إذا وقب، والنفاثات في العقد، والحاسد إذا حسد، وإلا فهي داخلة في قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.

فإذا قال قائل: ما هو الطريق للتخلص من هذه الشرور الثلاثة؟

قلنا: الطريق للتخلص أن يعلق الإنسان قلبه بربه، ويفوض أمره إليه، ويحقق التوكل على الله، ويستعمل الأوراد الشرعية التي بها يحصن نفسه ويحفظها من شر هؤلاء، وما كثر الأمر في الناس في الآونة الأخير من السحرة والحساد وما أشبه ذلك إلا من أجل غفلتهم عن الله، وضعف توكلهم على الله - عَزَّ وَجَلَّ - وقلة استعمالهم للأوراد الشرعية التي بها يتحصنون، وإلا فنحن نعلم أن الأوراد الشرعية حصن منيع، أشد من سد يأجوج ومأجوج. لكن مع الأسف أن كثيرًا من الناس لا يعرف عن هذه الأوراد شيئًا، ومن عرف فقد يغفل كثيرًا، ومن قرأها فقلبه غير حاضر، وكل، هذا نقص، ولو أن الناس استعملوا الأوراد على ما جاءت به الشريعة لسلموا من شرور كثيرة، نسأل الله العافية والسلامة.



تفسير سورة الناس

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣
مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ
النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ١:٦].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، وهو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وهو رب الناس وغيرهم، رب الناس، ورب الملائكة، ورب الجن، ورب السموات، ورب الأرض، ورب الشمس، ورب القمر، ورب كل شيء، لكن للمناسبة خص الناس. قوله تعالى: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾، أي: الملك الذي له السلطة العليا في الناس، والتصرف الكامل هو الله عز وجل. قوله تعالى: ﴿إِلَٰهِ النَّاسِ﴾، أي: مألوههم ومعبودهم، فالمعبود حقًّا الذي تألهه القلوب وتحبه وتعظمه هو الله عز وجل. قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾، ﴿الْوَسْوَاسِ﴾، قال العلماء: إنها مصدر يراد به اسم الفاعل أي: الموسوس.

والوسوسة هي: ما يلقى في القلب من الأفكار والأوهام والتخيلات التي لا حقيقة لها. قوله تعالى: ﴿الْخَنَّاسِ﴾، الذي يخنس وينهزم ويولي ويدبر عند ذكر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وهو الشيطان. ولهذا إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان له ضراط حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضي النداء أقبل حتى إذا ثوب للصلاة أدبر، حتى إذا قضي التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه، يقول: اذكر كذا،

اذكر كذا، لما لم يكن يذكر حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى. ولهذا جاء في الأثر: «إِذَا تَغَوَّلَتِ الغيلَان فَبَادِرُوا بِالأَذَانِ»(١)، والغيلان هي الشياطين التي تتخيل للمسافر في سفره وكأنها أشياء مهولة، أو عدو أو ما أشبه ذلك فإذا كبر الإنسان انصرفت.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾، أي: أن الوساوس تكون من الجن، وتكون من بني آدم، أما وسوسة الجن فظاهر؛ لأنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، وأما وسوسة بني آدم فما أكثر الذين يأتون إلى الإنسان يوحون إليه بالشر، ويزينونه في قلبه حتى يأخذ، هذا الكلام، بلبه وينصرف إليه.

هذه السور الثلاث: الإخلاص، والفلق، والناس كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه نفث في كفه ومسح بذلك وجهه، وما استطاع من بدنه، وربما قرأها خلف الصلوات الخمس.

فينبغي للإنسان أن يتحرى السنة في تلاوتها في مواضعها، كما ورد عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ، وبهذا نختم آخر جزء من القرآن، وهو جزء النبأ.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تم بحمد الله تعالى وتوفيقه التفسير الثمين للعلامة العثيمين
ونسأل الله أن يكون نافعًا لقائله ولكاتبه ولناشره ولقارئه
ولمن اعتنى به، وزخرًا وحجة لنا جميعًا يوم المعاد،
وأن يكون فاتحة خير لكل طالب علم
ونسأل الله تعالى أن يجزي قائله العلامة العثيمين رحمه الله تعالى
خير الجزاء على ما أثرى التراث الإسلامي بعلمه العزير



(١) ضعيف: جزء من حديث أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٣٨١)، وضعفه الشيخ الألباني في «الضعيفة» (١١٤٠) وانظر كلام الشيخ عليه هناك.

الفهرس

تفسير سورة النجم

تفسير سورة القمر